

اختراع الشرق الأوسط الحديثة

تأليف: كارل إي. ماير شارين بليز بريزاك

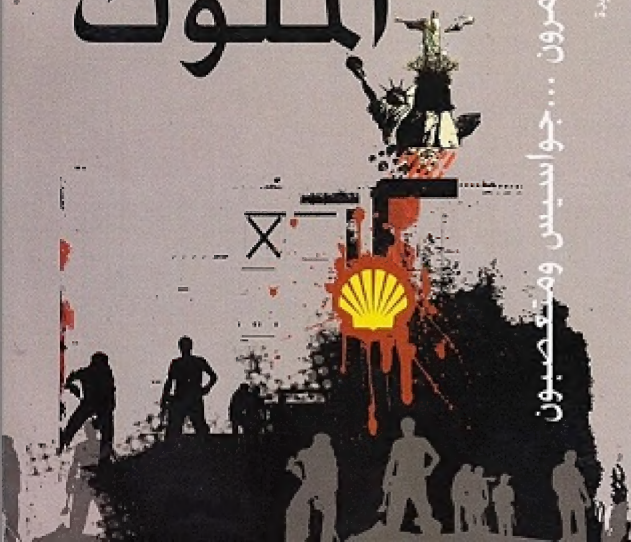
ترجمة: د. فاطمة نصر

صُناع الملوك

هواة ومغامرون... جواسيس ومتفصبون

إصداران مطبوعان

الطبعة الأولى



صناع الملوك



مكتبة نرجس PDF

www.narjes-library.blogspot.com

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د غاطمة نصر

المستشار الفني: حسين جليل gopy_art@yahoo.com

هواة ومغامرون
جواسيس ومتعصبون

صُناع الملوك

اختراع الشرق الأوسط الحديث

تأليف: كارل إى. ماير
شارين بليز بريزاك
ترجمة: د. فاطمة نصر

هذه هي الترجمة الكاملة للكتاب

KINGMAKERS

The Invention of the Modern Middle East

المؤلف: KARL E. MEYER and SHAREEN BLAIR BRYSAK

الناشر: W.W. NORTON & COMPANY

New York London, 2008

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر
طبعة سطور الأولى ٢٠١٠

– صنّاع الملوك

– تأليف: كارل إي، ماير

– غلاف: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

– المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar_shenawy@yaoo.com

– إخراج فنى: جابر محمد عبداللطيف jaberlatef@yahoo.com

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع: ١١٢٤٧/٢٠١٠

الترقيم الدولى: 8- 58- 5868- 977

جميع حقوق التأليف محفوظة للمؤلف

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لـ سطور الجديدة

٨ و٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٠٢٤٠٠/٢٥٢٦٣٥٩٩

WWW.sutouralgadida.com

e.mail address: sutour@link.net

الموقع الإلكتروني

<http://sutour-aljadida.blogspot.com>

www.sutouralgadida.info

بيانات الفهرسة

ماير، كارل، إي

صناع الملوك اختراع الشرق الأوسط الحديث

/ تأليف، كارل إي. ماير، شارين بليز بريزاك؛

ترجمة/ فاطمة نصر

مكتب سطور، ٢٠١٠

٦١٣ ص، سم ١٧ × ٢٤ -

تدمك : ٨ ٦٨ ٥٨٦٨ ٩٧٧

١- الملوك والحكام

أ - بريزاك، شارين بليز (مؤلف مشارك)

ب- نصر، فاطمة (مترجم)

ج- العنوان: ٨ و ٢٢ تقسيم الشيشيني بجوار الكوبرى الداثرى

كورنيلش المعادى ت: ٢٠٢٤/٢٥٩٩٠٩٩٠٢٦٣٥٢٥

www.darsutour.com

e.mail address: sutour@link.net

"ليضة لا تتوقف أبدا عن النمو"

اهتمامنا الأساسى فى هذه الصفحات، هو بمنطقة مُثقلة بعبء ثلاثى، بالجغرافيا، بثرواتها المعدنية غير العضوية ويقداستها المفترضة. يشكل "الشرق الأوسط"، وهو تعبير ابتدعه ألفرد ثاير ميهان، الضابط البحرى الأمريكى، مُعراً يوطاً كثيراً يربط آسيا وأوروبا بإفريقيا. يتألف من صحارى وجبال ترتفع من بلاد العرب يحيطها من جانبىها مصر وإيران، وتعلوها تركيا. أهميته الاستراتيجية عظيمة بدرجة أن نابليون وهتلر، ومعهما الإسكندر وقيصصر، جميعهم، سعوا إلى الهيمنة عليه. تخاضعت أهميته العسكرية مع افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، وتخاضعت مرة ثانية بعد عقدين مع الاكتشاف البنى لمحيط النفط الواقع تحت أرضه. أثناء الحرب العالمية الثانية، انتهى محطو وزارة الخارجية الأمريكية، وهم شبه مستائين، إلى أن إتاحة نطق الخليج الفارسى لأمريكا قد أصبح ضرورة للحفاظ على دورها الكوكبى الآخذ فى التوسع. نكر هيربرت فيس، الذى كان وقتئذ المستشار الاقتصادى للوزارة أنه "فى كل المسوح التى عملت للوضع، كان القلم يتوقف برهبة لدى نقطة واحدة ومكان واحد - الشرق الأوسط".

بالإمكان فهم التوقف الملىء بالرهبنة، لعدة قرون، ظلت المحاولات الأجنبية لاستمالة الشرق الأوسط أو فتحه تصطدم بمزاعم المتدينين المتقدة حماسا. من هذه المنطقة، انبثقت ثلاث ديانات عالمية، كل واحدة منها مُشَبَّعة بالتوقعات والنبوءات المسيانية الملونة في كتب مقدسة ثلاثة، كل واحد منه نص مرجعي موثوق لا يقبل الجدل. لكن، ومن المفارقات، فعلى الرغم من أن كلاً من تلك العقائد تدعو إلى أخوة البشر والسلام، وتشيد بهما، إلا أن أتباعها من البشر اشتركوا في مذابح ضد بعضهم. إن مشهد الأرض المقدسة ذاتها يشكل متحفا للحروب. في يونيو ١٩٦٧، في أعقاب ما أسماه المنتصرون "حرب الأيام الستة"، مرَّ أحد مؤلفي هذا الكتاب في غضون يوم واحد، وبتتابعات سريعة بمواقع ميادين قتال إنجيلية، معسكرات رومانية، قلاع صليبية، متاريس تركية، حصون بريطانية تحت أرضية، وشاحنات وديابات محترقة متناثرة من حروب إسرائيلية عربية. يحصى الكاتب الإسرائيلي

عموس إيلون، في تاريخ القدس، وعلى مدى أربعة آلاف عام، "عشرين حصارا مدمرا، فترتين من الدمار التام، ثماني عشرة إعادة إعمار، وأحد عشر على الأقل، تحولا من دين إلى آخر خبرتها المدينة". مما يبعث على الأسى بنفس الدرجة، أن القتل، في هذا المشهد المقدس، يقومون من حين لآخر باغتيال صناع السلام، ومن أبرزهم في السنوات الحديثة الكونت فولكي برنادوت السويدي ووسيط الأمم المتحدة (١٩٤٨)، والملك عبدالله الأردني (١٩٥١)، وإسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل (١٩٩٥)، وفي القاهرة، قام المتطرفون باغتيال الرئيس المصري أنور السادات (١٩٨١).

ليس لدينا وسيلة لمعرفة ما إن كان ذلك الواقع المؤسف يخدم هدفا إلهيا. فمن اليقيني أن القرن الماضي من تاريخ الشرق الأوسط يحمل بصمات بشرية. هدفنا

فى هذه الصفحات هى إعادة سرد هذا التاريخ من خلال وساطة أفراد، بريطانيين أولا، ثم أمريكيين فيما بعد، أفراد توضح حياتهم وتاريخهم كيف تقدمت محاولات التحكم بدرجات تصاعدية فى عمق إفريقيا بدافع المخاوف على الأمن القومى، التنافس مع فرنسا وألمانيا، والسعى المثلث وراء الثروات المعدنية. لم يصل أى من الشخصيات التى نعرضها إلى قمة السلطة القومية؛ بيد أنهم جميعهم كانوا وسائل ساعدت على بناء الأمم، ترسيم الحدود، وانتقاء الحكام المحليين أو المساعدة على انتقائهم. حقق بعضهم أرباحا مالية فى القطاع الخاص من الخدمة العامة، لكنهم يكانون جميعا أن يكونوا قد ضحوا بحياتهم وصحتهم لنشر ما اعتقدوا أنها قيم حضارية ودعّمها. وبالرغم من ذلك، وبعد ما يربو على قرن من التدخل الغربى السافر الجازم، يظل السلام فى المنطقة مراوغا، والمشاعر الانفعالية الطائفية عدائية خبيثة، ومع استثناءات قليلة، فلم يستفد مواطنو المنطقة العاديون من الثروة النفطية الموهلة. واليوم، فإن ربابس الأنجلو/الأمريكيين من الممالك والجمهوريات، تركز فى غالبيتها على أسس واهية من الرمال، كما أن موافقة الحكوميين وقبولهم لحاكميهم (باستثناء إسرائيل وتركيا) هى أمور افتراضية إلى حد بعيد.

فى مجموعته، ثمة حاجة إلى النظر إلى هذا السجل الكثيب من خلال عدسات المفارقة والسخرية والمتناقضات الظاهرية. إن القانون الأوحى السامى فى الشرق الأوسط هو قانون التبعات غير المقصودة. كان هذا صحيحا بكل تأكيد فى حالة ويليام إيوارت جلاستون، رجل الدولة الليبرالى العظيم الذى عارض فى البداية التدخل البريطانى محذرا من أن التورط سيؤدى حتما إلى نمو إمبراطورية إفريقية، من الكيب إلى القاهرة، مثل بيضة لا تتوقف أبدا عن النمو. ثم أثبت جلاستون مقصده بأن تجاهل تحذيراته مرسخا بهذا نموذجا معياريا تحذيريا للتدخلات العدوانية وأعمال الغزو التى تلت.

بدأ أول تدخل مستطال لبريطانيا العظمى فى الشرق الأوسط عام ١٨٨٢، حينما قصفت قوات جلالة الملكة مصر، واجتاحتها واحتلتها. كانت مصر، نظريا

جزءاً من الإمبراطورية العثمانية تخضع للسلطة الاسمية للسلطان التركي بالأستانة التي تبعد عن مصر بحوالى ٧٦٨ ميل. أما فى واقع الأمر فقد كانت القبضة العثمانية قد ترهلت منذ وقت طويل. حينما قاد نابليون الشاب (كان فى التاسعة والعشرين) جيشاً فرنسياً إلى القاهرة، كان على الأتراك التوجه يائسين إلى إنجلترا (والورد نلسون) من أجل طرد الغزاة. فتح الاحتلال الفرنسى الوجيز الطريق أمام أحد لوردات الحرب الألبان، محمد على، الذى لم يكن يتحدث العربية ولم يتعلمها، لإنشاء سلالة مالكة، التى تولت الحكم فى القاهرة فى البداية، ثم هيمنت على مقاليد الأمور فيما بعد، إلى أن انتهى أمرها إلى خلع حفيده البدين الملك فاروق عن العرش عام ١٩٥٢.

مضى محمد على، الداهية، ولعقود، يتحدى الأتراك. عمل بانتهازية، على إثارة العداء بين الإنجليز والفرنسيين كى يواجهوا بعضهم، كما قام بفتح السودان شاسع المساحة، وأرسل مئات المصريين إلى باريس لدراسة العلوم الزراعية والطبيعية والهندسة والطب. نفذت الثقافة الفرنسية إلى القاهرة وساعدت على بدء نظام مدرسى حكومى على غرار النظام الفرنسى. كان عباس، وريث محمد على المباشر يميل إلى البريطانيين، الذين أكملوا عام ١٨٥١ إقامة خط القاهرة الإسكندرية الحديدى، الأول من نوعه فى إفريقيا. كان سعيد، الخديوى التالى محباً للفرنسيين، توجه إلى المراهبين الأوروبيين لتمويل الأشغال العامة ورحب بالأجانب الذين بدأوا بالتوافد على القاهرة. منح سعيد امتياز حفر قناة السويس لفرنساند دى ليسبس المهندس الفرنسى ورفيق صباه. حدث كل هذا دونما مشورة الباب العالى أى السلطان العثمانى.

لعبت هذه المكونات - استقلال مصر المتنامى، القناة الجديدة، القفزة إلى عالم الاقتراض، انتشار الأفكار الأوربية، قلق لندن وباريس المتنامى على أمن تلك المستعمرة الأجنبية الأخذة فى التوسع - لعبت دوراً مساعداً فى أزمة السويس

الأولى نفسها. وكان لثيماتها المتطورة أن تصبح فكرة مهيمنة متكررة في المنطقة فيما بعد: ثورة عسكريين ضد حاكم مستبد سفيه، (الخدوي توفيق)، ثم ترحيب شعبي، وعود بالإصلاح وهتافات مليئة بالأمل "مصر للمصريين". ثم انتشار النعر بين حاملي السندات الأوربيين، مخاوف من أن يقوم الإسلاميون المتطرفون بمذابح ضد الأجانب ويستولوا على القناة، بالإضافة إلى سخط البريطانيين من مراوغات الفرنسيين والتي أدت إلى اتخاذ مجلس الوزراء البريطاني القرار بالتدخل.

كان النصر سريعا ساحقا، لكن لم يكن ثمة خطة سياسية لما بعد الاحتلال. وعد القادة البريطانيون الليبراليون بإجلاء قواتهم بمجرد استعادة النظام وتولى نظام عاقل قادر على الوفاء بالديون وحل المشاكل. لكن للأسف، ثبت أن تلك اللحظة ظلت مراوغة. ولأثنين وسبعين عاما ظلت القوات البريطانية و(المستشارون) البريطانيون المندوبين موجودين بمصر حكاما من وراء ستار، هذا على الرغم من صيحات "عار عليكم" الصادرة من ناقدى الإمبراطورية الذين كان على رأسهم الشاعر الغاضب المتحمس ويلفرد سكاون بلانت زوج حفيدة الشاعر الرومانتيكى اللورد بايرون.

كانت الشخصية المركزية في تلك الدراما هو جلاستون، قائد الليبرالية البريطانية العملاق والمتردد في آن، وكان زعيما عُرف عنه ورعه، علمه وخُطبه المتفلفة المعقدة. كان يُعرف عام ١٨٨٢، وكان وقتئذ في الثالثة والسبعين، بـ "الرجل المسن المهيب Grand Old Man"، (GOM). هذا على الرغم من أن الملكة فيكتوريا التي خالفته الرأي، وكانت آنئذ قد مر عليها خمسة وأربعون عاما ملكة لبريطانيا العظمى، أسّرت إلى المقربين منها، وهي ترتعد، بأن رئيس وزرائها كان، وبدون شك، نصف مجنون، وكما حدث في واقع الأمر، فقد دفع جلاستون ثمنا باهظا لتدخله في مصر. كان ذلك بين إجراءاته القليلة التي انتزعت موافقة ملكية على مضض، وأدت أيضا إلى تشوش حزيه وتقسيمة، ويقال إنها كلفت الإرث الذي كان يتوق لأن يكون له: أى الحكم الذاتى لأيرلندا.

كان الرجل المسن المهيب، على وعى تام أن قراره بالتدخل يتناقض مع معارضاته البرلمانية المتكررة للتهديدات العسكرية. لم يكن معارضا متشددا لاستخدام القوة، كما أنه كان بالتأكيد أقل نزوعا للسلام من زملائه الأكثر راديكالية مثل جون برايت وريتشارد جويدن. بيد أن الدافع الانعكاسى لإضافة مناطق إلى الإمبراطورية متزامية الأطراف بالفعل كان هو مصدر قلقه، وكان ذلك دافعا يمكن تبينه ليس فقط بين معارضيه من المحافظين، بل أيضا بين مناصريه فى مجلس العموم من أعضاء حزب الهويجز (الأحرار فيما بعد) القديم، وأيضاً من جيل جديد من الليبراليين الإمبرياليين. قبل ذلك بعامين، كان جلاستون قد أطلق أول انتخابات ديمقراطية كانت فيها مسألة ضمان حقوق الإنسان فى الأراضى القصية من القضايا المهمة وكسبها. كان قد شجب الأتراك بسبب تشاعاتهم البلغارية، وهجمات المسلمين على المسيحيين فى البلقان، وأدان نظيره من حزب المحافظين بنيامين ديزرائيلى لدعمه الحروب التى دمرت مواطن المسلمين الفقراء فى أفغانستان والشعوب القبلية فى زولولاند. والآن، فقد بدا وأن جلاستون نفسه قد أصيب بقرىوس الإمبريالية التى كانت قد ظلت موضع شجبه المتكرر.

أسوأ من هذا: كان البلد الذى استهدفه هو مصر. كان جلاستون، وهو يتحدث نيابة عن الليبراليين قد عارض انقلاب ديزرائيلى المتبجح والشعبى فى أن حين اشترى أسهم الغالبية لشركة قناة السويس عام ١٨٧٥ الذى يتيح لبريطانيا التحكم فيها. كان قد اشتراها من الخديوى إسماعيل والد توفيق الفارق فى الدين والذى كان الأوروبيون يطلقون عليه فى البداية "إسماعيل الكبير" ثم بعد ذلك "إسماعيل السفية". بعد انقلاب ديزرائيلى، أصبحت القناة، والتى كانت قد حُفرت ما بين عامى ١٨٥٩ - ١٨٦٩ بتمويل فرنسى بريطانى تدار من خلال كونسورتيوم (اتحاد شركات) بقيادة إنجلترا ومقره لندن بدل باريس. عكست هذه النقلة الأهمية الاستراتيجية للقناة بالنسبة للإمبراطورية الفيكتورية. بعد افتتاحها بعقد من

الزمان، كان ثلاثة أرباع المرور في القناة يتكون من سفن متوجهة إلى الهند أو قادمة منها. أصبحت القناة في الكشيبات الصحفية "خط الحياة الإمبريالي"، الشريان الحيوي الذي قلص مدة المرور إلى الهند من شهور عدة إلى مجرد أسابيع.

وكما كان جلاستون قد خشي، وتنبأ، كان امتلاك القناة هو توطئة للتوسع. سرعان ما أقام البريطانيون، ومن أجل حماية شريان حياتهم الجديد، قاعدة بحرية في عدن بمدخل البحر الأحمر، وكانوا، وهم ينظرون جنوباً من القاهرة، يشحنون شهيتهم للاستيلاء على السودان. حذر جلاستون عام ١٨٧٧ قائلاً: "ستكون القضية الأولى التي التهمناها في مصر، سواء تم ذلك من خلال اللصوصية أو من خلال الغزو، ستكون هي بالتأكيد بيضة إمبراطورية شمال إفريقية. ستتم وتمو حتى تصبح فيكتوريا أخرى، وألبرت آخر، هذين الاسمين اللذين أطلقناهما على البحيرتين اللتين ينبع منهما النيل الأبيض، تصبجان في نطاق حدودنا؛ وحتى ينضم إلينا في النهاية عبر خط الاستواء إقليم الناتال، وكيب تاون، ناهيك عن الترانسفال ونهر أورانج جنوباً، أو نبتلع الحبشة وزنجبار لنتزود بهما أثناء رحلتنا".

كانت نبوءة ملهمة. فباستثناء الحبشة، رُفِر العلم البريطاني، على كل مكان نكره في قائمته سواء من خلال الغزو، أو كزادٍ لتعويض نفقات الرحلة (تعبير جلاستون الساخر عن تعويض "تكلفة الرحلة"). من ثم، اعتُبر قيام "الرجل المسن المهيّب، نفسه بدفع دفة التوسع الهائل الذي أضاف للإمبراطورية في عهد فيكتوريا ثماني عشرة منطقة كبرى بحيث شمل مُلكها في النهاية رُبع أراضي العالم وشعوبه، اعتُبر ضرباً من الشنوء على القاعدة التي كان قد أرساها. وكما يذكر جيمس موريس في كتابه "السلام البريطاني: نزوة الإمبراطورية" (١٩٨٦)، ففي اليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا عام ١٨٩٧، كانت كل فورة نشاط للتوسع قد وجدت ذريعتها المعبر عنها بفصاحة وإقناع:

كانت مقولة: تعديل العلاقات بين بلدين، هي التعبير المجازي التجميلي المُفضل أثناء تلك العملية، كما تم ابتداء معجم كامل للتبريرات المراوغة لتوضيح استراتيجيات بريطانيا الأعظم وتحديد الحواف الباهتة للإمبراطورية. كانت الحدود مُعدّل بأسلوب اعتيادي. يتم إقامة مناطق للنفوذ وترتيب علاقات ودية متبادلة. كانت النظم النهرية تُفتح أمام التجارة. تم إدخال الحضارة المسيحية في المناطق المتخلفة. كان يتم الحديث بضبابية عن تخوم مصر، عن حوض نهر زامبيسى، عن حدود نهر النيجر، وعن كيفية أنه من الطبيعي عدم إمكان السماح لسلطنة ويتو أن تسقط في يد قوة معادية محتملة. كانت السجلات الإمبريالية مليئة بالإقطاعات، والمحميات، والمناطق المؤجرة، والامتيازات، والتقسيمات، ومناطق المصالح، والمناطق المُشاع والمتنازع عليها، والمناطق النائية ذات الصلة - وكان ذلك المسمى الأخير، وهو مفهوم موات بخاصة، ينطبق على مناطق تم الاستيلاء عليها من ألمانيا في غضون السنوات العشر الأخيرة».

اشتعلت أزمة السويس الأولى عام ١٨٨١، حينما سار ثلاثة من رجال الجيش المتمردين، بعد أن ساورتهم الشكوك في أنهم سيفصلون من الخدمة أو سيحل بهم ما هو أسوأ، ساروا في معية ٢٥٠٠ رجل وثمانى عشرة بندقية إلى قصر توفيق الخديوى الشاب المكروه، بالقاهرة. طالب المتمردين بحل مجلس الوزراء وتشكيل مجلس آخر من الوطنيين. كان قائد المجموعة هو أحمد عرابى، وكان فى الحادية والأربعين، طويل القامة، قوى البنية، ابن شيخ من قرية منزلة متخلفة. وكضابط ناشئ، شعر عرابى بالاستياء من الحماية التى تمتع بها غير المصريين، وبخاصة الأتراك والشراكسة وعمّق هذا الشعور انضمامه إلى جماعة من الأزهريين كانوا يؤكّدون على المساواة بين جميع المؤمنين. كتب صديقه ونصيره البريطانى الأكبر ويلفرد بلانت يقول "جعله هذا ينضم إلى صفوف المستائين ويتبنى أكثر وأكثر حقوق طبقته ويدافع عنها. كان يتمتع بالفصاحة، يستطيع عرض آرائه باللغة التى

يفهمها مواطنوه ويقدرونها، قد لا تكون لغة مُحكَّمة، لكنه كان يوضحها بالمجازات والتشبيهات وآيات من القرآن زوده بها تعليمه الأزهرى».

أذن توفيق المتريد المذعور لمطلب المتمردين بتعيين مجلس وزراء إصلاحى جديد، والدعوة إلى اجتماع مجلس نواب دستورى، وزيادة عدد الجيش من اثنى عشر ألفاً إلى ثمانية عشر ألف رجل.

أصبح عرابى، بين عشية وضحاها، بطلا لعموم المصريين ولزملائه الجنود، وعمت القاهرة حالة من النشوة الشعبية. من ثم ساد الذعر بين الأوربيين الذين كانوا مستفيدين من الوضع القائم بأسلوب مزدوج. كان الأجانب يتمتعون، فى ظل الامتيازات الأجنبية التى كانت قد ظلت سارية لوقت طويل، بإعفاءات من القوانين المحلية، والضرائب، والتعريفات الجمركية. علاوة على ذلك، فُرِضَ حاملو الصكوك (الكبيالات) البريطانيين والفرنسيون، بسبب القروض الهائلة المدركة التى راكمها الخديويون المتعاقبون، نظاماً تأديبياً يسمى "الرقابة الثنائية"، يشرف بموجبه مراقب حسابات إنجليزى وآخر فرنسى على الموازنات المصرية ويقومان بخصم قيمة الكبيالات منها بأسعار مرتفعة، مع اقتطاعات كبرى من ميزانية الجيش.

على المستوى النظرى، كان الخديوى هو ممثل السلطان العثمانى، ومسئولاً أمام الباب العالى بالأستانة. لكن سلطة الباب العالى كانت قد تبخرت، وكان المصريون ينظرون ويتزايد إلى الخديوى على أنه لعبة فى أيدى الدخلاء الأوربيين المتطفلين، فيما طالب الجنود برواتبهم المتأخرة. يعيد المؤرخان البريطانيان رونالد روبينسون وجون جالاجر تشكيل ذلك الوضع بدقة شديدة فيقولان "كان نظام الحكم الخديوى بعضى فى نفس طريق أنظمة شرقية كثيرة تاكلت من خلال اختراق النفوذ الأوروبى لها. كان البلد على حافة الاناركية. ولم يكن أحد ليخطئ الأعراض: الفلاحون المتملطون، الملاك الساخطون، المعارضة الليبرالية غير الناضجة، الحركة الواسعة ضد الأجانب، انهيار السلطة التقليدية الذى يؤدى إلى انقلاب عسكرى».

كان هذا هو المشهد المصرى حينما حاولت الوزارة الليبرالية البريطانية - التى

كانت وقتئذ تواجه أيضا أزمة أيرلندية - أن تفهم كل الاضطرابات في القاهرة. كان الشاعر بلانت قد بزغ كمحاور متعاطف مع المتمردين بل إنه ساعد على ترجمة بيانهم المحدد لأهدافهم إلى الإنجليزية حيث نشرته التايمز اللندنية في ٣ يناير ١٨٨٢. أكد البيان أنهم يسعون إلى أن تكون مصر بلدا برلمانيا حديثا، له دستور ومجلس نيابي وصحافة حرة وأعلن البيان "لقد تعلم المصريون في السنوات الأخيرة ما تعنيه الحرية، وأنهم مصممون على إكمال تعليمهم الوطني... إن الهدف العام للحزب الوطني هو الانتعاش الثقافي والأخلاقي للبلد من خلال التقيد بالقانون، وزيادة التعليم والحرية السياسية".

وكما يبدو ظاهريا، لم يكن هذا برنامجا قد يلقي معارضة من الليبراليين. حينما اجتمع بلانت بجلادستون وغيره من السادة الليبراليين بلندن، أخطأ فهم إيماءاتهم على أنها مشاركة في الرأي، أي موافقة قلبية على البيان - وهذا خطأ شائع يقع فيه العاديون لدى تعاملهم مع محترفي السياسة. في البداية، بدا جلادستون متعاطفا، بل بدا وكأن أهداف الإصلاحيين المصريين المعلنة، كان لها وقع المفاجأة المحببة لديه. لكن، ونظرا لأرائه المحافظة في الشؤون المالية، أصر بقوة على أن على المتمردين الإبقاء على نظام الرقابة الثنائية من أجل حماية حملة الصكوك - وأيضا للتصدي لهيمنة الفرنسيين على مصر. في ١٢ سبتمبر ١٨٨١، أي لدى بداية الأزمة، رسم الخطوط العريضة لسياسته في مذكرة محكمة إلى وزير خارجيته اللورد نفيل: "أوجز التالي: ١- تناغم متسق مع فرنسا. ٢- الاستغناء عن الجنرال التركي لو اقتضت الحاجة. ٣- تفضيل القوات التركية على أية قوات غيرها. ٤- لا قوات بريطانية أو فرنسية إلا إن كانت ثمة حاجة من أجل حماية فعلية صادقة للرعايا. ٥- إلى جانب كل هذا، أتوق إلى معلومات عن مزايا الشقاق".

يقرأ المرء مذكرة جلادستون مع شيء من التماهي والتفهم. كان بالفعل يبهر في مياه لا معالم لها. فلم يقتصر الأمر على غياب المعلومات الموثوقة عن الإسلام، بل

إن مفردات الأزمة كانت مراوغة. كان الحديث عن "مصر للمصريين" أمراً حسناً متقبلاً، لكن من المصريين؟ ماذا عن الأقلية القبطية الذين حافظوا على جينات بناء الأهرام ولغتهم - أكانوا أقل مصرية من الغزاة العرب^(١)؟ وماذا عن الجاليات اليونانية واليهودية والألمانية التي استقرت منذ وقت طويل بالقاهرة والإسكندرية متعددة اللغات؟ هل سيحترم الوطنيون حقوقهم؟ وبشكل أعم، ما عمق الهوية من عدم الثقة التي تفصل بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي؟ كان الفرنسيون في ديسمبر ١٨٨١ قد بدأوا بالفعل يزعمون أنه من المحتمل أن عرابي كان يتآمر مع السلطان لحشد الأمة الإسلامية للجهاد من أجل إنهاء سيطرة الفرنسيين على تونس والجزائر. ومن جهة أخرى، وبأسلوب متناقض، كان جلاستون نفسه يطلب مساعدة الأتراك العثمانيين، ذلك الشعب نفسه الذي كان قد شن عليه هجوما عام ١٨٨٠ بسبب "شهواتهم البهيمة البغيضة". ويصفهم إمبراطورية مدانة بجرائم "قد تستحي منها جهنم ذاتها".

استقر جلاستون بيقين على نقطة واحدة: لا بد من العمل بالتعاون مع الفرنسيين. كان في هذا متفقاً مع اللورد ساليسبري، أحكم حكماء حزب المحافظين في الشئون الخارجية. قدم ساليسبري نصيحة بشأن مصر في سبتمبر ١٨٨١: "بإمكانك التنازل عنها - أو احتكارها - أو اقتسامها. كان التنازل عنها يعني وضع الفرنسيين عبر طريقنا إلى الهند. وكان احتكارها يعني الاقترب من المخاطرة بالحرب. من ثم، قررنا الاقتسام". لكن، كانت سياسات فرنسا رهينة بالاندفاعات الفجائية والتقلبات التي ميزت سياسة الجمهورية الثالثة. في البداية،

(١) هكذا كانت أصول تلك المغالطات التي مازالت تُستخدم للفرقة بين شقي الأمة. فليس ثمة عرق يسمى الفراعنة، واللغة القبطية هي هجين - من اليونانية المنطوقة بالديموطيقية. كما أنه ليس كل المسلمين المصريين من العرب الغزاة، بل إن جلهم هم من المصريين الأصلاء الذين أسلموا بعد الفتح العربي. هذا إضافة إلى أن غالبية الأمة المصرية بشقيها كانت ضد هيمنة الأجانب على مصر (الترجمة).

تعاطى البريطانيون مع رئيس الوزراء ليون جامبتا، وكان اشتراكيا راديكاليا مندفعاً اقترح إعلاناً لا لبس فيه أن على النظام المصري الجديد الحفاظ على نظام الرقابة الثنائية للتدخل، "مع احترامنا للمشاعر الوطنية"!

ووافقت غالبية مجلس الوزراء الليبرالي، على مضمض ويترقب، على مذكرة مشتركة، وإن لم يكن لشيء سوى تهدة فرنسا، رغم أنها لم تلتزم البريطانيون باتباع أى أسلوب للعمل (لم توضّح تلك النقطة كما يجب لجامبتا). لكن الحكومة الفرنسية سقطت لأسباب غير معروفة، فى غضون شهر، وخلف جامبتا، فى فبراير ١٨٨٢، شارل دوفريسينييه، وكان شخصاً وسطياً عصبياً، فى مثل حرص كاتب الحسابات، وهو ما كانه فى وقت من الأوقات. فى تلك الأثناء، أثبتت المذكرة المشتركة فشلها، بل إنها أيضاً أتت بعكس مقصدها: وحلت المصريين بالجيش، والأحزاب المختلفة وذلك لشكهم الغاضب أن ذلك الإعلان كان تمهيدا للتدخل العسكرى. وكننتيجة لهذا، تولى عرابى "الثائر" منصبا جديدا كوزير للحرب. ضغط حاملو الصكوك وشركات السفن على وزارة جلاستون وقد تملكهم عظيم القلق، من أجل رد فعل أقوى. ورأى مجلس الوزراء البريطانى أنه يجب تشجيع الأتراك على التدخل فى مصر التى كانت مازالت، قانونيا، جزءا من إمبراطوريتهم. لكن فريسينييه رفض هذا.

فى مايو ١٨٨٢، وفيما تعمقت الأزمة، ظل موقف مجلس الوزراء البريطانى مشوشا غير محسوم. أغضب هذا التراخى اللورد هارينجتون وزير شئون الهند الصقورى (كان آنذاك ماركيزا ثم أصبح فيما بعد ثامن دوق ليدفونشاير) بدرجة أنه عبر عن احتجاجه بسخرية لوزير الخارجية:

"هل استسلم عرابى باشا، أم أنه قد تم إقناعه بفرنسينيه بالنهوض من فراشه؟ أعجب ما إن كان أى إنسان (خارج مجلس الوزراء) سيصدق أنه لم تُنطق كلمة واحدة عن مصر فى مجلس الوزراء على مدى أسبوعين، وأظن أن هذا

سيستمر أسبوعين آخرين -ثم من يدري؟-. وجه هارينجتون أقسى انتقاداته اللاذعة إلى الفرنسيين 'يبدو سلوك الفرنسيين أسوأ من السيئ.. إذا لم يكن الفرنسيون على استعداد للوفاء بتعهداتهم لنا بالمواقفة على تدخل تركي في الحال، فمن الأفضل أن نعمل باستقلال عنهم. ما فائدة حلفاء كهؤلاء؟ لقد زجوا بنا في هذه الورطة المخيفة، وأعتقد أنه سيكون من الأسهل لنا أن نعمل مع الأتراك ومع كل القوى الأوروبية الأخرى، على أن نعمل معهم وحدهم».

بيد أن الأتراك لم يكونوا على استعداد للتدخل، ولدى جس نبض الإيطاليين عموماً أنفسهم خارج الموضوع. ومع الأخذ في الاعتبار الضغوط المتجمعة على بريطانيا لاتخاذ خطوة عسكرية، فلم يعد أمامهم سوى التسبب في توتر عسكري وإشعال الشرارة. تجسد الشق الأول متخفياً في شكل أسطول بحري صغير فرانكو/ بريطاني كان يقصد به خلق عرابي وجماعته من خلال إثارة الذعر، وكان هذا مسلماً ضغط من أجله رجل بريطانيا في موقع الأحداث السير إدوارد بولوين مالت، القنصل العام بالقاهرة. لكن في غياب تهديد إنزال تركي، أتى استعراض القوة البحري هذا بنتيجة عسكرية: فقد عمل على تطرف موقف المصريين لا إخافتهم. ثم أتت الشرارة. في ١٢/١١ يونيو اندلعت أعمال شغب معادية للأوروبيين بالإسكندرية سقط نتیجتها عدد يتراوح ما بين خمسين وثلاثمائة قتيل، وقام حشد من المتظاهرين بضرب تشارلس كوكسون القنصل البريطاني بالمدينة. وفي غضون أيام، بدأ المتمردين بإقامة بطاريات مدفعية شاطئية موجهة نحو مرفأ الإسكندرية. تلك الفرع من سفن الأسطول الفرنسي الصغير وتسلك مبتعدة، فيما رأى النشطاء في مجلس وزراء جلادستون أنه إن لم ترد بريطانيا بحزم في الحال، ستضيق قناة السويس ومعها حياة الأوروبيين في مصر.

حدث كل هذا فيما كان الرجل المسن المهيب يتبارى في جدل برلماني لا يتوقف حول الإجراءات المالية الأيرلندية، وفيما بدا مجلس وزرائه المتصدع على شفا الانهيار وتحت وطأة المضايقات والتعب، اعترف جلادستون في مذكراته حيث كتب

يقول 'عقلى شديد الإنهاك'. وفى مواجهة تهديدات بالاستقالة أذن رئيس الوزراء لتوجيه إنذار يأمر بهدم بطاريات وحصون الشاطئ (أسمى جون برايت الذى قدم استقالته من مجلس الوزراء نتيجة لذلك القرار، أسماء قرارا لعيناً، أسوأ من أى شيء فعله جلادستون). حينما طالب الأميرال السير بوشامب سيمور قائد البحرية البريطانية باستسلام الحصون موضوع النزاع، رفض المصريين. فى ١١ سبتمبر قصفت السفن البحرية واجهة الإسكندرية البحرية لمدة عشر ساعات وسوّت المباني بالأرض مما دفع عرابى إلى إعلان الحرب على البريطانيين الكفرة.

فجأة، وجد جلادستون صانع السلام، نفسه جلادستون لورد الحروب، وفى نقلة جديرة بروايات الكاتب الإنجليزي أنطون ترولوب، استمتع بدوره الجديد. تم حشد جيش ثانىيى فى قبرص بقيادة السير جارت ولزلى، الخبير الإمبريالى فى الأسلحة الصغيرة، والذي خلّده جيلبرت وسوليفان فى شخصية 'الماجور جنرال العصري' فى روايتهما 'قراصنة بنزاس'. غدت تلك الحملة قضية قومية استحوذت على أفئدة البريطانيين بدرجة أن الملكة فيكتوريا ظهرت بنفسها لتوديع أصنقاء لها فى كتيبة الخيالة المتجهة إلى مصر. وبمجرد الرسو على الشاطئ فى ١٠ سبتمبر، تولى السير جارت قيادة جيش قوامه خمسة عشر ألف جندي من إنجلترا، إضافة إلى عشرة آلاف آخرين من الهند وسرعان ما اشتبكوا مع قوة مصرية قوامها ٢٥ ألف مقاتل فى موقع التل الكبير فى منتصف الطريق بين القاهرة والقناة. وفقاً لتعبير روى چنكينز، الديمقراطى الليبرالى وأحدث مؤرخى جلادستون، كانت الموقعة 'نجاحاً تاماً سريعاً مدوياً'. ألحقت بالمصريين هزيمة نكراء بأقل قدر من الضحايا، وتم نفى عرابى إلى سيلان (سريلانكا حالياً). لم تتجاوز نفقات الحملة ٢.٣ مليون إسترليني، الميزانية المتقشفة التى خصصها رئيس الوزراء. يتذكر زميل لجلادستون أنه 'تناول العشاء معه بالجاريك كلوب Garrick Club، ثم ذهب لمشاهدة مسرحية 'Patience' لجيلبرت وسوليفان بالسافوى حيث هتفت له الجماهير

هتافات حماسية. كتب السير إدوارد هاميلتون "لا أتذكر أبدا أنني رأيت في مثل تلك الحالة المعنوية المرتفعة". للمرء أن يتخيل أنه فيما انحني "الرجل المسن المهيب" للجماهير، تمتص صوت داخله يقول إن مهمة بريطانيا لتمدين الشعوب قد تم تبريرها على أرض الواقع. تُعلمنا التجربة أنه ليس ثمة شراب مُسكّر أقوى من النصر العسكري الذي يعقبه وابل من النياشين والترقيات، وغمزات الاستحسان من الزملاء، والتلميح إلى مصافحة الرب على أفعاله.

بيد أنه ظل سؤال كيف يحكم البريطانيون مصر بعد أن غزوها، ظل قائما. كان لدى رئيس الوزراء الليبرالي إجابة بدت منطقية ومباشرة عن هذا السؤال: مساعدة المصريين على إقامة نظام سياسي مستقر مسئول، بعدها يرحل البريطانيون. لم يدرك سوى القليلين أن أقدامهم قد زلت داخل المستنقع المشهور. وكما يذكر الباحثان البريطانيان روبينسون وجلاجر في كتابهما المؤثر "إفريقيا والفيتكوريون" (١٩٦١)، كان الغزو الذي قام به البريطانيون بعفروهم لمصر حصيلة حاول الليبراليون البريطانيون تحاشيها بكل الوسائل: لم تكتشف الحكومة سوى بعد مرور عام أنهم قد فعلوا شيئا يختلف تماما عن مقصدهم وأنهم قد تورطوا في احتلال دائم ما يطول أمده ومسئولية تتزايد دائما لإدارة شئون مصر والدفاع عنها. كان من الواضح أن الملابس هي التي شكلت تلك المحصلة أكثر من السياسة. كان جلاستون وزملاؤه قد قصدوا تحقيق نفوذ مهيمن. وبدلا من ذلك، أنجزوا احتلالا مناطقيا، تكلفته المالية باهظة، معرضا للأعمال العدائية الأوروبية، ليست له شعبية بين أتباعهم، وحل بغض من المصريين!

من الجدير بالذكر أن جلاستون كان مُهَاباً عقلياً وجسدياً وروحياً. كان، وهو طويل القامة ضارٍ العينين، يُنَفَس عن طاقته الزائدة باقتلاع الأشجار بهاردواردن، ضيعته بإقليم تششاير التي ورثها عن والده جون جلاستون الذي كان قد جمع ثروة هائلة من تجارة القطن والسكر والتبغ. سار ويليام في الطريق المعتاد لطبقته، من كلية إيتون إلى أكسفورد، على الرغم من أنه سار، أيديولوجيا،

عكس المسار المعتاد، إذ بدأ محافظا يدافع عن الاسترقاق ثم اتجه باطراد نحو اليسار. كان مثقفا، متبحرا في اللغات الكلاسيكية القديمة واللغات الأوروبية الحديثة، وألف كتابا متعمقا من ثلاثة أجزاء يحلل فيه ملحمتي هومر. كان كثير الأسفار، وأمن به اتفاق أوروبا، وهو آلية لحفظ السلام تطورت في أعقاب هزيمة نابليون في ووترلو. كان هذا الاتفاق أو المجلس، يمثل مجلس الأمن في بعض أوجهه بأعضائه الخمسة الدائمين، وكان منبرا لم يكن للولايات المتحدة أو المستعمرات صوت فيه، اعتمد على الإقناع والإجماع لاحتواء الحروب الأوروبية (وقد نجح في هذا لمدة قرن) لكنه لم يحقق نجاحا مثيلا في التوسط في النزاعات بين القوى. ووفقا لمعايير زمانه، كانت رؤية جلادستون متسعة، مستبصرة، نبيلة، متجذرة في معتقداته المسيحية.

حينما طلبت منه الملكة فيكتوريا عام ١٨٦٨ تشكيل أول وزارة له، وصلته الأنباء فيما كان يقطع شجرة. يُسجل مشاعره في مذكراته يبدو وأن الرب القادر يحافظ على وبيقيني لتحقيق هدف له رغم ما أعرفه عن عدم جدارتي العميقة. المجد لاسمه». وفيما مرت السنون، تعاظم حماسه وعاطفته الدينية. كان يحضر القداسات الأنجليكانية مرة، ومرتين وأحيانا ثلاث مرات في اليوم. استدعى السخريه بعبادته الشهيرة للتجول مع زوجته كاثرين في منطقة هايماركت لاستمالة العاهرات وهدايتهن. بيد أن كاريكاتيرا رسمه إيب عام ١٨٦٩ ونشرته مجلة فانيتي فير عبّر عن الرأي الشائع عنه: «لو أنه كان رجلا أسوأ لأصبح سياسيا أفضل». وفي شرح لهذا التعليق كتبت المجلة «إن الفضائل التي يمتلكها هائلة بدرجة أن العيوب التي تُنسب إليه مصدرها الإفراط في تلك الفضائل».

من الحقيقي أن إيتش . سي. جى. ماثيوز محرر مذكرات جلادستون، وجد أن الرجل المسن المهيب كان يمتلك، أثناء أزمة السويس، صكوكا (كسبيلات) بمبلغ يناظر ٢ مليون إسترليني في تسعينيات القرن العشرين لكن مؤرخه جنكينز يقول

لا أعتقد للحظة، أن دافعة الأول أو حتى دافعه المساعد بدرجة كبيرة كانت المصلحة الذاتية المالية». فلم يكن جلاستون فقط أكثر أعضاء مجلس وزرائه الأربعة عشر تردداً في قبول الحاجة إلى التدخل، كما يوضح جنكينز، بل إنه بعد ذلك ألقى بثقله ضد نفوذ حاملي الصكوك.

ظل وراء الخيارات العظمى والحاسمة التي اتخذها القادة الأوروبيون والأمريكيون المرة تلو المرة، دوافع شامخة متقطرة؛ معلومات غير كافية، أفكار مسبقة عقيمة؛ نفوذ مروجين حزبيين طموحين وقحين، ومشاعر دينية. لكن أهدافهم الأخلاقية المعلنة أمدت نقاد الإمبريالية بسلاح قاتل. نجح يلفريد سكاون بلانت، وبالرغم من كل تموضعاته، في الأخذ بثأره، وكان له أيضاً القول الفصل كما سنرى. لا يكرر التاريخ نفسه أبداً، لكن المواقف، الحجج، المعضلات والذرائع، الكليشيات والأوهام تتكرر ومعها حتمية غروب الشمس عن الإمبراطوريات. كان لابد أن يصل ما بدأ في الشرق الأوسط بجلاستون وقصف الإسكندرية في شهر يوليو القاتل عام ١٨٨٢ أن يصل يوماً ما إلى مشهده النهائي المحتم.

الفصل الأول

البروقنصل

إقليم بارينج، اللورد كرومر

١٩١٧-١٨٤١

لا يجنى الذين يحفرون أسساً عميقة
ترتفع عليها الممالك شامخة
من جيلهم إجلالاً ومكانة:
كالطود لا تُرى منه المهابة
إلا إذا هبطنا من أعاليه إلى وديانه

رونيارد كيلينج

“The Pro-Consuls” (1905)

استُحدث منصب البروقنصل في العصور الرومانية كوسيلة لحكم الأقاليم
المترامية القصية، والدول التابعة، والقبائل العصية. كانت الدول التابعة تشكل جزءاً
مهماً من أراضي الإمبراطورية، وبخاصة في الشرق الأوسط. كانت بلاد الأنباط
القريبة تقع بالقرب من (إقليم) "يهودا"، وإلى الشرق في الأناضول كانت الملكتان
التابعتان "كبدوقية وبنطس" اللتان كانتا تكوّنان معاً ما يسمى باتحاد ليسييا الحر.
أسمى بلينيوس الأكبر في القرن الأول الميلادي ذلك الخليط المشوش المكوّن من سبع
عشرة منطقة "حكومات الأرياع ذات الأسماء البريرية". كان البروقنصل في الدول
التابعة يتحدث باسم روما، كان صوته يحجب مشهداً مسرحياً معقداً من الاستقلال
الذاتي الوهمي.

كانت مصر، إبان أوج الإمبراطورية البريطانية، تمثل الدولة التابعة الكلاسيكية..

منذ عام ١٨٨٢ وإلى عام ١٩٥٤ ظلت واقعيًا خاضعة للحكم البريطانى، على الرغم من أنها لم تكن رسمياً جزءاً من الإمبراطورية إلى أن انسحبت ، أخيراً، وحدات الجيش العسكرية البريطانية الملكية عملاً باتفاق متبادل. لكن، وحتى تلك النهاية، أبتت الحكومة البريطانية على أسطورة استقلال مصر. لدى زيارة أنطونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا مصر عام ١٩٥٥، دعا الرئيس جمال عبد الناصر إلى لقاء معه فى السفارة البريطانية. يُروى أن الرئيس ناصر علّق قائلاً : «أخيراً ، بإمكانى أن أرى المكان الذى حُكمت منه مصر لمدة طويلة». ووفقاً لرويات الحكومة البريطانية، يقال إن إيدن أجابه بالقول "لم تكن تُحكم ياكولونيل ناصر، بل كانت فقط تتلقى المشورة". ومن بين كل «المستشارين» البريطانيين لم يكن ثمة من هو أقوى نفوذاً من السير إقليين بارينج، بروقنصل جميع البروقناصل والذى يحتل مكان

مكان الصدارة بين الشخصيات التي نعرضها في هذا الكتاب. حينما هبط سير إفلين البالغ من العمر الثانية والأربعين إلى شاطئ الإسكندرية في سبتمبر عام ١٨٨٣ بصفته نائب الملكة فيكتوريا بمصر، ومفوضها وقنصلها العام، كان يعرف طريقه في البلد بعد أن كان قد عمل به باسم ماچور بارينج عضواً بمفوضية الديون التي أنشأها المصرفيون الأجانب لضبط الخديوى المسرف وتأديبه. وفقاً لهذا عُيّن بارينج أحد اثنين من الممثلين الخارجيين للمالية المصرية، بالشراكة مع إرنست - جابريل بلينييه الذي كان يمثل المصالح الفرنسية. ومن خلال ترتيب عُرف آنذاك بالرقابة الثنائية، اضطلع بارينج بمهمة الحساسة لإرشاد وتنشيط اقتصاد "البلد المفلس" بنون أن يبدوا مصر بحكمته. لكن، سرعان ما ذاع السر، ظلت مصر، نظرياً، جزءاً عضوياً من إمبراطورية العثمانية، وظلّ الخديوى مبعوث السلطان. شعر أصحاب المطالب والمظالم فيما كان يجلسون منتظرين بالدواوين الرسمية يرتشفون الشاي ويدخنون الشيعة الرسمية الحقيقية بمصر كانت في يد قنصل بريطاني عام، حديث السن نسبياً. وسرعان ما كان باستطاعة أكثر الفلاحين فقرأ تخمين هذه الحقيقة، وأصبح يعرفهم باسم "اللب الأكبر". تطور نظام الرقابة الثنائية ليصبح الرقابة الأحادية، وسرعان ما كان باستطاعة أكثر الفلاحين إفلين بارينج، الذي عُرف باسم اللورد كرومر، أن يسيطر على النظام إلى أن تربع السير بالإمكان القول إن كرومر كان أكثر بروقنصلين بريالي قدرة وكفاءة، لكنه كان من المؤكد أكثرهم غرابة. سعى أقرب منافسيه المعاصرين له - اللورد كيرزن، نائب الملكة بالهند بين عامي ١٨٩٨ و ١٩٠٥، سعى لجذب الاهتمام العام وتلقاه، لكن، ولهذا هذا السبب جزئياً، كانت مدة ولايته أقصر. ظل كرومر لمدة أربعة وعشرين عاماً، ووفقاً لجميع المقاييس، "باشا" مصر، وحسب مقولة كيبلينج، فقد حفر بالفعل أسساً عميقة. فقد أنقذ مصر عن تسديد الديون بل ومهد أيضاً لحظة تسبّد بريطانيا بالشرق الأوسط، تلك المنطقة التي أسهم هو وتلاميذه في تحديد أسمائها وتقرير تخومها وحدودها.

كان كرومر وهو في أوج سلطته، يحتل المكانة الرابعة بين أقوى أربع شخصيات في الإمبراطورية البريطانية تسبقه الملكة، رئيس الوزراء، ونائب الملكة بالهند. كتب زميله رونالد ستورز يقول إن سلوته "في مصر، بالنسبة للأجانب والمصريين أيضاً كانت تعادل سلطة مجلس الوزراء البريطاني مضمرة في سلطة الملكة".

أدرج المؤرخ بيرك تشارلز في كتابه "سجل النبالة": مُنح لقب فارس عام ١٨٨٣ وأصبح البارون كرومر عام ١٨٩٢، ثم الفايكونت كرومر في ١٨٩٩، ثم إيرل أوف كرومر الأول عام ١٩٠١. ووفقاً لرواية السير فالنتاين تشيريل، معاصره المعجب به، ورئيس القسم الثاني بالتايمز، ففي أعين المصريين، كان يمثل قوة غامضة مفيدة بشكل عام، ولكنهم يشعرون بها في كل مكان، وحالما سمعوا أن شيئاً قد حدث في بلده أي أنه مُنح لقب لورد، أصبحوا يسمونه اللورد، ولا شيء آخر.

وبالرغم من ذلك، برهن نظام اللورد كرومر ومع الاحترام لكيبلينج، على أنه مستنقح لا طوبى شامخ. لذا هنا عقد مقارنتي بين نظام الحكم بالهند البريطانية حيث كان كرومر قد تدرب كإداري كولونيل في ظل الراج Raj (وهو لفظ يعني الحكم) كانت السلطة البريطانية مرتبة بـ ١٩٠١: فحتى في الولايات الأوبرالية التي كان يحكمها أمراء مترفون، كانت هناك استشارات مستشارين بريطانيات مقيماً، ولم يكن خضوعهم له مستتراً. ووفقاً للمعاهدات، كان الحكام من الأمراء الهنود يعترفون بسلطة التاج البريطاني العليا. حينما حصلت الهند على استقلالها عام ١٩٤٧، ظلت المخلفات (الأمتعة، الأجهزة، المباني، .. الخ) الثقافية للراج باقية وتراوحت بين نوادي الكريكت والجنتمن، وموسيقى القرب والمدارس الداخلية، إلى الصروح والمباني الفخمة، مثل منتجع نائب الملكة في سيملا، وقصر الحكومة في نيودلهي، وحتى نصب فيكتوريا التذكاري المزين بلوحات وصيفات جلالتها في كلكتا ذات نظام الحكم الماركسي. أما في مصر فكان الانفصال عن

بريطانيا جد مختلف. حدث خلال هبة قومية عام ١٩٥٢، يتذكرها البريطانيون بصفتها السبت الأسود، أن دمرت الحشود رموز الامتihan المموسة وخاصة الملكين الإمبراليين التوع المفضلين لدى البريطانيين، أى نادى القروسية وفندق شبرد. أشعلت النيران فى مجموعات كاملة من المباني، ومات الأجانب حرقاً. وبعد ذلك، أطاحت الحشود الغاضبة بتمثال فريماند دبليسيس، الذى كان منتصباً وهو يؤثر بيده، وكأنه راعى الميناء، فى مدخل القتال التى حفرها عمال السخرة من الأماهي. (هذا على الرغم أن التمثال احتفظ به سليماً كدلالة على بصيرة المصريين البراجماتيين، فى حال قرروا بعث إلى الحياة مرة أخرى).

يصاب الباحث فى أصول الشرق الأوسط الحالى بالذهول من المقاربات المتبانية المتشعبة دائماً للسلطة الإمبريالية المنبثقة من نيودلهى والقاهرة، مع وجود الرئاسات الغاضبة فى لندن وقد اتخذت موقع الحكام علي مضض منها. تتوالى صراعاتهم تلك فى الظهور تكراراً على الصفحات التالية.

يمكننا الآن القول إن اللورد كرومر قد أثبت أنه مثال من الصعب الاقتداء به أو تكراره. فكان شخصه مزيجاً من السلطة الهادئة المتمكنة والكفاءة الاستثنائية. كان خبيراً فى فن استخدام السلطة، ومضى أسلوبه يتحسن حتى سنواته النهائية الملتبسة. كانت الفطنة المالية تسرى فى دماغه. بصفته إفيلين بارينج، كان حفيد أميرال، وابن عضو فى البرلمان وكان (وهذا هو الأهم) عضواً بالوراثة فى أسرة بارينج وإخوانه المصرفية والمتخصصة فى القروض الأجنبية. بعد أداء الخدمة العسكرية فى كورفو (كانت آنذاك محمية بريطانية) ومالطا، عمل سكرتيراً خاصاً للورد نورثبروك، نائب الملكة بالهند، وكان هناك، ووفقاً لكثير من المصادر أن اكتسب كُنيتة التى لصقت به «Over-Baring»^(١) تنقل لوحة "جون سينجر

(١) شمة تلاعب بالألفاظ هنا، إذ إن Baring هو اسم أسرة اللورد كرومر، فيما أن تعبير over bearing يعنى التسلط أو التغطرس (الترجمة).

سارجت التي رسمها اللورد كرومر والموجودة في الجاليري القومي البريطاني، تنقل إلى المشاهد جوهر شخصيته: نشأه يرتدى بذلة رمادية أنيقة لا تشوبها شائبة، جالساً باسترخاء في مكتبه، يده اليسرى موضوعة بخفة وبغير تعمد على فخذه، فيما أن يده اليمنى نصف المرفوعة والتي لا يمكن للعين إخطاؤها مطبقة على هيئة قبضة جامدة. جذب نظر الشاعر ويلفريد سكوير بلانت المعادي للإمبريالية، وأكبر ناقدى كرومر في اللوحة "الرجنتان المنتفختان، العينان المتبلدتان، الأنف الأحمر الداكن، اليد المصابة بالنقرس، نظرتة شبه المتبلدة بسبب الغداء الثقيل الذي تناوله. أما جيمس موريس، راسم لوحات Pax Britannica (السلام البريطاني) فكان رأيه في كرومر أكثر مجاملة إذ قال "كان رجلاً جاداً عميقاً مهيباً"، النقيض التام للمصريين المرحين، الهواشين، العاطفيين الذين لا يتميزون بالكفاءة العالية والذي كانت مهمته هي أن يسوسهم".

وبشكل عام ومع بعض التحفظات فقد نجح اللورد. مارس الصرامة القاسية التي ترتبط الآن بصندوق النقد الدولي وبالبنك الدولي، وكأنه قد استبق سياساتها. دعم كرومر الموازنات الشحيحة، تقليل الديون، والتجارة الحرة: اجتذب خبراء في الري، من الهند، وأشرف على إصلاح المحاكم، منح الأولوية لخطط التنمية الضخمة - مثلاً، إقامة سد أسوان الذي اكتمل عام ١٩٠٢ وأوجد مخزوناً من المياه يكفي لإتاحة حوالي مليار متر مكعب من المياه للري في صعيد مصر. وبصفته قنصلاً عاماً أشرف على الاستراتيجية التي أنهت حركة التمرد الإسلامي التي دامت طويلاً بالسودان، وبعد انتصار أم درمان بقيادة البريطانيين في عام ١٨٩٨، اخترع كرومر للسودان وصفاً جديداً حيث صنغه على أنه بلد يخضع للحكم البريطاني المصري المشترك، أما في مصر، فقد أعلن كرومر عام ١٨٩١ مزهواً بأنه حامى الفلاحين، وأن إجراءاته وسياساته قد زادت من القيمة السنوية للقطن المصري بمعدل بلغ ٨٣٥٠٠٠ جنيه إسترليني كما أنه سعى إلى منح

إعفاءات ضريبية لمزارعي القطن الفقراء. مما يحمده أيضاً أنه نجح في الضغط من أجل إلغاء نظام السخرة الذي كان قد ظل قائماً من وقت طويل، وبمقتضاه تم حفر قناة السويس. (قاوم هذا الإصلاح بضراوة ممثلو الجمهورية الثالثة الفرنسية الذين اعتاموا بالتغنى بالأخلاقيات).

أضفت خصوصية إدارته للحكم في مصر مزيداً من البريق على تلك الإنجازات. كان كرومر قد أفاد من المعلومات التي أمده بها ألفريد ميلنر الذي اعتمد علي خبرته الشخصية بالقاهرة كوكيل سابق لوزراء المالية في كتابه "إنجلترا في مصر" (١٨٩٢) وهو كتاب حقق أفضل المبيعات وكان يجسد التوجه الذي كان قد بدأ يُعرف بالإمبريالية الجديدة.

بدا كل شخص بريطاني ذي أهمية ، لفترة من الوقت أثناء تسعينات القرن التاسع عشر، وأنه إمبريالي جديد، وهو تجمع انضمت إليه شخصيات مثل برتراند راسل، المفكر الثائر البارز، وبياتريس ويب، التي سرعان ما أصبحت إصلاحية فابية (عضواً بالجمعية الاشتراكية الإنجليزية التي أنشئت عام ١٨٨٤). عبر اللورد كيرزن عن هذا الشعور السائد بالثشوة عام ١٨٩٤ حينما قال إن الامبراطورية البريطانية هي "أعظم آلة للخير رأها العالم أبداً، وتعمل تحت رعاية الرب". كانت الإمبراطورية في عيون هؤلاء المؤمنين (بها) تمثل السلام والتجارة الحرة وسلطة القانون. أشاعوا أنها كانت تغرس حب الحرية والعدل في المناطق المتخلفة، وأن سياساتها التجارية كانت تغيد الأثرياء والفقراء معاً؛ وأن مناهضتها كانوا أما منافسين حاقدين، مثل قيصراً ألمانيا أو «ملالي مجانيين» يدعون إلى العنف والكرهية الدينية. أيضاً زعم الإمبرياليون الجدد من أمثال جوزيف تشامبرلين وزير المستعمرات، أن علي بريطانيا العظمى، في حالة الضرورة، أن تقوم بإجراءات أحادية استباقية لتعزيز مصالحها لأن تلك المصالح، بعد كل شيء، تتوافق مع مصالح البشرية. لكن من المؤكد أن الأسطول الملكي البريطاني بضمانه حرية

الملاحه فى البحار أصبح بذلك قوة التجارة الكوكبية المستقرة المزدهرة - رغم أن المستفيدين من أمثال الولايات المتحدة ، نادراً ما اعترفوا بذلك.

كان ألفريد ميلنر - الذى أصبح فيما بعد بروقنصل - بين أكثر الإمبرياليين "الجدد" فصاحة. تلقى ميلنر تعليماً متميزاً بكلية باليول بجامعة أكسفورد (حيث تولى رعايته ، علمياً ، أستاذ أكسفورد الشهير بنجامين جويت مثلما كان قد تولى رعاية اللورد كيرزن) . أما طلاقة التعبير فقد اكتسبها أثناء سنوات عمله كصحفى فى البل مل جازيت. فى كتابه ، استشهد ميلنر بمصر بصفتها قصة نجاح متناقضة. طلب من قرائه أن يتذكروا أن مصر لم تكن مستعمرة، أو من دول الكومنولث البريطانى التى يترأسها التاج البريطانى؛ بل كانت "محمية محجة". تعبير نحته ميلنر) وحسب مزاعمه، فقد كانت مصر دولة يضرب بتخلفها الأمثال، يعتقد شعبها الطبع عقيدة متعصبة لا تعرف التسامح، مضى يقول إن ذلك الشعب المحافظ بفطرته، قد هبت عليه ، مؤخراً فقط، رياح التغيير والتقدم الأوربية المقلقة، وحقاً، فقد اجتاحت أرضهم الآن الأجانب الذين لا تستطيع الشرطة المصرية إلقاء القبض عليهم لأن الأوروبيين يتمتعون بالحصانة وفقاً لاتفاقيات مع العثمانيين تعرف بالامتيازات الأجنبية التى تستثنيهم من الخضوع للقوانين المحلية. كما أنه بغير استطاعة حكومة مصر الاسمية إصدار قوانين يخضع لها الأجانب المقيمون بها دونما موافقة دستة من القوي الأجنبية، فى وجود ميزانياتها رهينة لدى حاملى سندات الديون الأجانب". وأضاف يقول "إن الأغرب من ذلك هو أن سياسات مصر "يحفزها فى واقع الأمر ممثل لدولة أجنبية، والذى هو نظرياً، مجرد واحد بين عدد كبير من مثل هؤلاء المبعوثين - وليس حتى عميدهم - ، وأن من يملئ السلطة الإدارية رجل هو نظرياً، مجرد مستشار ليست له وظائف تنفيذية".

مضى ميلنر يقول، إنه، وبالرغم من ذلك فليست مصر - ويسبب عبقريه الحكام البريطانيين - مجرد اختراع أوبرالى كوميدى، أو كابوسا "يتخيله منظرٌ دستوري

مختل العقل؛ بل هي حقيقة واقعية راسخة وذلك لأنه في أرض المتناقضات لا تنمو الأعناب من الأشواك، ولا ثمار التين من الحسك.

(ساعد علي نجاح التحكم في مصر وجود الحاميات العسكرية البريطانية في جميع أنحاء مصر، وتعيين الضباط الإنجليز بالجيش المصري تحت قيادة جنرال بريطاني يعرف بالسردار - وكان كل هذا نتيجة الاحتلال المؤقت الذي بدأ عام ١٨٨٢، واستطالت مدته إلى ما لانهاية) صدرت من كتاب «إنجلترا في مصر» ثلاث عشرة طبعة وأصبح مانيفستو الإمبريالية الجديدة، وأثني عليه الشاب ونستون تشرشل واصفاً إيائه بأنه «قرع الطبول الذي يحشد القوات بعد اقتحامها المناريس والحصون ويدعوها لاستكمال النصر».

مضى ميلنر يترقى وأصبح المندوب السامي البريطاني في كيب تاون، وكان من بين من دعوا إلى حرب البوير. وأحد مهندسي اتحاد جنوب إفريقيا الذي تشكل بعد الحرب، وخلع عليه التاج رتبة الفيكونت، وأصبح بروقنصلاً درس في «حضانته» جيل كامل من الحكام الإمبرياليين.. بيد أنه حينما تُرجم كتاب «إنجلترا في مصر» إلى العربية أحدث أثراً لم يكن له أن يلقي ترحيباً من مؤلفه. أثبت الكتاب بتفاصيل موثقة أن القادة المصريين المفترضين لم يكونوا سوى دُعي متحركة ووفقاً للمستشرق روجر أوين من هارفارد وأحدث كتاب سيرة كرومر، فإن المشاعر الشعبية التي كانت قد ظلت في حالة كمون منذ عام ١٨٨٢ وطفت على السطح فيما تظاهر الطلبة بالقاهرة، وقامت حشود معادية بفك أحصنة عربية الدمية الرئيسية أي الخديوي المحتقر (من جانبه ، استشهد كرومر بتلك الاضطرابات لطلب مزيد من القوات البريطانية).

أما بين المصريين المتعلمين، فقد غدت وصمة سمعة اللورد أكثر ثباتاً وبقائمة بمرور الوقت.. ووفقاً لأوين ، فقد حدث عام ١٩٩٨ أن وجدت مجموعة من الشباب المصريين طريقهم إلى بلدة كرومر الصغيرة بإقليم نوفوك، مهبط رأس إقبيلين

بارينج. سألوا أحد موظفي قسم الوثائق المحليين «أين بُعِن كرومر؟» ثم أضافوا «نريد أن نبحث على مقبرته».

وفقاً لظواهر الأمور، يبدو هذا الحماس العدائي غير مبرر، بل حتى محيراً. فمهما كانت نقائصه، فإن إيرل أوف كرومر لا يكاد يبدو شخصية شريرة وإذا كانت لغته بعد التقاعد قد تميزت أحياناً بالفجاجة، مثل إشارات المهينة للأعراق التابعة، فإنه كان يستخدم المفردات السائدة في طبقته وبلده. وغالباً ما نميل لأن ننسى أنه في تلك اللحظة كان قد تصادف أن ابتدع الأمريكيون مصنف «الشرق الأوسط» الذي باركته التايمنز اللندنية، ودفع به قدماً لاكتشاف المواتي لثروات المنطقة من النفط .. لتتوقف لوهلة وتتخيل كيف بدا العالم آنذاك لكرومر ومعاصريه من الشعب البريطاني.

كانت الملكة فيكتوريا، عام وفاتها ١٩٠١، تحكم إمبراطورية ضمت تقريباً خمس سكان العالم وخمس مساحته من الأراضي المسكونة. وسرعان ما امتدت سلطتها حتى قارة أنتاركتيكا، غير المسكونة، بالقطب الجنوبي. كانت لندن أعظم عواصم العالم، بلا منازع، حيث بلغ عدد سكانها ٤,٥ مليون نسمة وتفوقت بذلك على نيويورك المدينة الصاعدة التي بلغ عدد سكانها ٢,٤ مليون شخص .. كان الأسطول البريطاني يبرز أقرب منافسيه مجتمعين : كان البريطانيون هم صناع الأسلحة الرئيسيين في الكوكب ؛ كما وُجِدَت صناعات الصلب ومعها البواخر البريطانية أول سوق كوكبي في العالم، ووصلت معاً أقصى القواعد النائية بكابلات بحرية. كانت المرجعية المشتركة للتوقيت الزماني والضرائط في جميع أنحاء العالم هي المرصد الكوكبي بجرينتش، المركز الزماني لكوكب الأرض.

وعلى الرغم من ذلك، كانت أكثر القوى البريطانية هيمنة هي تلك التي لا يمكن رؤيتها بوضوح. بنهاية القرن التاسع عشر تراجعت الصادرات البريطانية ، وتضخم العجز التجاري. لكن العائدات من الأجانب عوضت تلك الخسائر - أي

العائدات من الفوائد المصرفية، الإيجارات، حصص الأسهم الربحية ، إيرادات براءات الاختراع وحقوق الملكية والخدمات المالية. وكانت كلها تحسب بالجنيه الاسترليني.. تلك العملة الكونية ذات الغطاء الذهبي. فى عام ١٩٣٠ كتب هيربرت فيس الباحث الأمريكى يقول: كانت لندن مركزاً لإمبراطورية مالية، أكثر عالمية، وامتداداً في تنوعها من الإمبراطورية السياسية التى كانت هى عاصمتها.. ترددت أسماء الأراضى والمشاريع الأجنبية يوماً توفى فى الظلمة القائمة لأروقة سوق لندن للأوراق المالية، وكانت النوريات المالية تنشر بانوراما لجهود العالم المضنية فى المصانع ، المناجم والحقول. كانت ثمة حوالى خمسمائة بنك وسمسار وتاجر يلبون مطالب الحكومات المتعثرة المحتاجة ، والمضاربين.

وفى مقدمة هؤلاء كانت مؤسسة الإخوة بارينج ، وإلى جانبها مؤسسات روتشيلد، براون شيبلى، جلين ميلنر، كاسلز، وواجهات اثمانية أخرى. تأسست مؤسسة الإخوة بارينج، التى تعود جذور أسلافها إلى شمال ألمانيا، عام ١٧٦٢. كانت رائدة الإقراض متعدد القومية من خلال الكمبيالات. بحلول عام ١٨١٨، أبدى نوق دو ريشليو (رئيس وزراء لويس الثامن عشر) تعجبه قائلاً : «هناك ست قوى عظمى فى أوروبا : إنجلترا ، فرنسا، بروسيا ، النمسا ، روسيا والإخوة بارينج». رعت القوة العظمى السادسة الجمهورية الأمريكية الوليدة عام ١٨٠٣ حينما قامت بعملية السمسرة لشراء ولاية لويزيانا أى عملية بيع موجودات نابوليون المحجوز عليها والتي ضاعفت مساحة أرض الولايات المتحدة نظير ١٥ مليون دولار فقط. أما حينما كان الإخوة يخطئون فى تكهناتهم مثلما حدث بالأرجنتين عام ١٨٩٠، كانت الأسواق الكوكبية تهتز مؤقتاً. خدم أجيال من أسرة بارينج، بشخصهم، التاج كمفوضين عنه لدى الدول الأجنبية، ووزراء مالية وبروقناصل، ومحافظين لبنك إنجلترا، واستمرت تلك المسيرة حتى نهاية ستينيات القرن العشرين.

كان هذا هو العالم الذى بلغ فيه إفلين بارينج سن الرشد، هذا على الرغم من

أنه لم يحاب منشأة أسرته أبداً وعن عمد أثناء سنواته بالقاهرة (يقول المتشككون إن المحاباة كانت غير ذات قيمة وذلك لأن البنوك التجارية كانت لابد وأن تستشير القوة العظمى السادسة بشأن أى قرض أجنبى كبير). كان كرومر حسن الحظ بمعنى آخر . فى العصر الإمبريالى الفيكتورى، تركزت الاهتمامات الأمنية بمصر على صيانة قناة السويس شريان الحياة وحمايتها، وعلى الحيلولة دون تهديد روسيا القيصرية للهند باحتلالها أراضى إسلامية، أو ما عرف به «اللعبة الكبرى». إلا أنه فى عام ١٩٠٠ كانت حسابات الأفضليات الاستراتيجية قد تغيرت وأطلق على اللعبة اسم «المسألة الشرقية» وفق تسمية الدبلوماسيين لها. خُلب القيصر ويلهلم اللاعب الجديد، ودُ السلطان العثماني وتطوع لحماية المسلمين، وللدعوة لإنشاء خط سكك حديد برلين/ بغداد. وفى نفس الوقت ، دعا مصلحو البحرية البريطانية، بحماسة، إلى الانتقال من الفحم إلى النفط كوقود للسفن الحربية، كما حذر الاميرالات ممن تملكهم القلق من إدمان بريطانيا المفرط للنفط الخام المستورد من الولايات المتحدة بخاصة.

ظهر مصطلح «الشرق الأوسط» للمرة الأولى في مقال بعنوان: «الخليج الفارسي والعلاقات الدولية» نشر بدورية دانا شونال ريفيو البريطانية فى سبتمبر عام ١٩٠٢. كان الكاتب هو الكاتب ألفرد تاير ميهان، من الأسطول الأمريكى، والذي كان كتابه «تأثير القوة البحرية على التاريخ ١٦٦٠ - ١٧٨٣» (١٨٩٠) قد اكتسب له نأدياً من المعجبين من بينهم أباطرة وأميرالات، فى جميع أنحاء الكوكب. لدى زيارته لإنجلترا، استقبل ميهان كأحد زعماء الدول، وشبهته مقالة افتتاحية بالتايمز بالعالم كوبرنيكوس.

رأى ميهان فى مقاله عام ١٩٠٢ ، والذي كتبه وعيَّنه على جمهوره، أن ثمة حاجة للقواعد البحرية البريطانية فى أنحاء الخليج الفارسي من أجل حماية قناة السويس ولنح التوسع الروسى باتجاه الجنوب ولجابهة خطط القيصر ويلهلم. جاء بالمقال :

«سيحتاج الشرق الأوسط، إذا سمح لي باستخدام هذا المصطلح الذي لم أره من قبل، يوماً ما إلى مالطا، وإلى جبل طارق أيضاً : ليست هذه القواعد موجودة بالخليج. تتميز القوة البحرية بسمة الحركية التي تحمل معها ميزة التغيب المؤقت : لكنها تحتاج لأن تجد في جميع مواقع العمليات قواعد راسخة لإعادة التجهيز، التموين، وفي حالة الكوارث للأمن. يجب أن تمتلك البحرية البريطانية الوسائل والاستعدادات لتركيز قوتها حول عدن، الهند، الخليج. إذا دعت الضرورة لذلك».

لفت مقال ميهان نظر السير فالنتاين تشيرول محرر القسم «القسم الأجنبي بالتايمز» ، والذي كان قد ذهب في رحلة في أنحاء الخليج في وقت مبكر من العام ذاته. كان قد سمع هناك «حديثاً أقل عن روسيا، وأكثر عن ألمانيا، بصفتها القوة التي يهدد تأثيرها المتنامي باقتلاع قوتنا». كان من الواضح لتشيرول أن خط سكك حديد برلين/ بغداد، وخطة مده من الخليج الفارسي، هما جزء من خطة القيصصر لاستخدام تركيا «رأس جسر لسيطرة ألمانيا على العالم». كان تشيرول قد بحث مخاوفه مع اللورد كيرزن الذي أسرُّ له أنه يشاركه إياها وأنه في الواقع كان يعتزم القيام برحلة إلى الخليج وزيارة إماراته، في وجود هدف أساسي له، وهو كسب شيخ الكويت ذي النفوذ القوي إلى جانبهم . (عام ١٩٠٣ رافق تشيرول كيرزن في جولته تلك كمراقب صحفي، وضيف رسمي).

حفزت مقالة ميهان تشيرول نشر عشرين مقالاً نوعياً متتالياً بالتايمز بعنوان «المسألة شرق الأوسطية» ، وفيما بعد جمعها في كتاب صدر عام ١٩٠٣ «مسألة الشرق الأوسط، أو بعض المشاكل السياسية في الدفاع عن الهند». وهكذا اكتسب ، ما كان عادة يسمى بالشرق الأدنى، أو آسيا التركية، أو الشرق ، اسماً جديداً.

كان، ما يسمى بلغة أيامنا الحالية ، مشروع الشرق الأوسط، لدى تداوله للمرة الأولى آنذاك، مبادرة أنجلو/أمريكية، مركزة علي الخليج الفارسي. قصد بها إبعاد روسيا، والحيلولة دون تنامي ألمانيا، من خلال استنزاع شبكة من القواعد

العسكرية البريطانية بالتحالف الوثيق مع الحكام المحليين التقليديين. أضف «النفط» إلى هذه المعادلة، وستجد أن المصطلح «الشرق الأوسط» كما نُحِتَ آنذاك واستعمل قد استبق قرناً من التاريخ ومهد لأحداثه.

برهن اللورد كرومر على سلاسة نهجه في مواجهة التحديات المعقدة، مع استثناء واحد. هذا الاستثناء، هو الإسلام، تلك العقيدة التي رأى كثير من الأوروبيين أنها مصدر غموض الشرق الأوسط وتهديده، وتواجهه خارج التاريخ. وفي الواقع، كان دين الرسول قد ظل عدواً للودأ منذ القدم حيث شاهد أجيال من الصغار بإنجلترا مسرحيات إيمائية تنكزية ساخرة يظهر فيها محمد عدواً كافراً للقديس جورج الباسل الجسور. ترى كارن أرمسترونج الباحثة البريطانية، في كتابها «سيرة الرسول» أنه من الممكن فهم هذا العداء «لأنه وحتى صعود الاتحاد السوفييتي في قرننا الحالي، لم يمثل أى نظام للحكم، أو أية أيديولوجيا، مثل ذلك التحدى المستمر للغرب». ظل الإسلام، منذ فتوحاته المبكرة في أوروبا، وخلال ثمانى حملات صليبية إلى الأراضى المقدسة، وأثناء صعود العثمانيين، ظل هو «العدو». كان أحد الأدعية الذى ظل يتردد فى الكنائس فى أنحاء أوروبا لمدة ألف عام هو «نجنا، أيها الرب، من مقت عبدة محمد وضراوتهم».

كان هذا تاريخاً حياً بالنسبة لإفلىن بارينج. حينما كان طالباً بالأكاديمية الملكية العسكرية فى وولويتش. اندلع «التمرد الكبير» بالهند، وكان المسلمون بين أكثر المتمردين ضراوة فى محاولتهم لاسترداد إمبراطورية المغول.

يفسر هذا اهتمام كرومر، بعد أن أصبح قنصلاً عاماً بالقاهرة ١٨٨٢، بالعصيان الإسلامى الذى مضى ينتشر بالسودان. كان قائد التمرد، محمد أحمد، ذا الأصول المتواضعة - حيث كان والده نجاراً - قد أعلن نفسه المهدي المنتظر، وانتشر صيته مثل النار فى الهشيم فى أنحاء السودان، الذى كان رسمياً إقليمأً مصرياً تبلغ مساحته حوالى مليون ميل مربع، وعدد سكانه تسعة ملايين شخص غالبيتهم من المسلمين.

حينما أرسل المسئولون المصريون بالسودان، الذين لم يكن نفوذهم يتعدى نطاق الخرطوم ، جنوداً لإلقاء القبض علي المهدي ، قام المتمردون بذبحهم أو طردهم. كان المهدي مثقفاً طلق الحديث حلو المظهر، حازماً ، ومهذباً في أن.. فرض علي أتباعه قانوناً أخلاقياً صارماً، وحثهم في خطبة له عام ١٨٨٢ علي التوبة إلى الله. طلب منهم نبذ الكبائر والمحرمات وتجنب الشهوات والخمر والتدخين وشهادة الزور وعصيان الوالدين واللصوصية وقطع الطريق وضرورة رد الأمانات إلى أهلها، والامتناع عن التصفيق والرقص والغمز بالأعين وندب الموتى وتشويه السمعة والافتراء بالقول ، ورفقة المغريات من النساء. دعاهم إلى أن يطلبوا من نسائهم الاحتشام في اللبس وعدم الحديث إلى الأغراب. ختم قائلاً : «إن عدم اتباع هذه المبادئ هو عصيان لله ورسوله يستوجب العقاب وفقاً للشرعية.. أوكل إلى شرطة الأمر بالمعروف عقاب الأثمين الذين كانوا عرضة للإعدام أو بتر أحد أطرافهم أو الجلد».

رسخت الرهبة منه الشعور بالخوف حينما هزم أتباع المهدي، الذين اقتصرتم أسلحتهم في البداية علي السيوف والرماح والعصى، المصريين الذين نعتهم المهدي بالأتراك الكفرة.. كان من حسن طالع المهدي أن تصادف ظهور مُذنب كبير في السماء الشرقية أسماء السودانين «نجم المهدي». وفي النهاية ، استقالت حكومة القاهرة من سباتها وأرسلت جيشاً جندته بسرعة بقيادة الجنرال ويليام هيكس، الضابط البريطاني الهندي - جيشاً مكوناً من ٧٠٠٠ من المشاة، و١٠٠٠ من الفرسان، و٥٠٠ ناقة، بمعداته ولوازمه وأتباعه. تظاهر رماة المهدي بالانسحاب وأغرى ذلك جيش هيكس إلي التقدم إلى المناطق الداخلية حيث تم ذبح هيكس وغالبية جيشه بمدينة شيكان على بعد ثلاثين ميلاً جنوبي العاصمة الإقليمية العبيد. استولى أتباع المهدي على أسلحة الجيش ومعداته وبقية الغنائم. عثر، فيما بعد، علي وصف لما حدث في ذلك اليوم المفجع في يوميات كتبها أحد أفراد القوة من الضباط البريطانيين : «يأمر الجنرال الفرقة الموسيقية بأن تعزف على أمل الترويح

عنا! لكن الفرقة تتوقف لتطير الشظايا من جميع الاتجاهات، تمضي النوق والبغال والرجال في السقوط صرعي؛ نحن متجمعون معا في مكان ضيق لذا لا تصيبنا الطلقات. نشعر بالتعب والوهن وليس لدينا أية فكرة عما يجب عمله.. إنه يوم الأحد، عيد ميلاد أخي الحبيب أتمنى على الرب لو كان بوسعي الجلوس والحديث إليه لساعة! ينهمر وابل الطلقات .. وتنتهي اليوميات في منتصف الجملة.

حدث أن رافق مراسل مغامر للتايمز، يدعى فرانك پاور ، من مواليد دبلن، جيش هيكس. أرسل پاور للخرطوم لتلقى العلاج بعد إصابته بالوستناريا. وهناك جمع تقارير مباشرة عن المذبحة. ولسوء حظ الحكومة الليبرالية المرتبكة، أن ظهرت تقاريره في ذات الوقت الذي كان مجلس وزراء جلادستون يصوت فيه على خفض عدد القوات بمصر. قالت التايمز التي كانت تمثل آنذاك الأنا العليا للإمبريالية، «حان الوقت لوضع نهاية لتلك الدعوة المؤجلة الضالة المخادعة [لإنهاء الاحتلال بمصر]. تترك البلاد تماماً الآن مسئوليات وضعتنا بمصر، ولا يملك الوزراء الوقوع في أية أخطاء إزاعها».

عجلت كارثة هيكس بوقوع مأساة جورديون، تلك الميلودراما الفيكترورية التي انتهت بموت بطلها.. تبعت الأحداث الدورة المكثفة : في البداية ترددت في أرجاء البرلمان صيحة "يجب فعل شيء ما" مدوية، ويتهرب من الصحافة ، ورددت الصيحة منابر الكنائس والاجتماعات العامة. تشاور مجلس الوزراء المستنهض وانقسمت الآراء، ولاد رئيسه بضباب التعبيرات المجازية. وفي غياب القرار تم تكليف لجنة بتقصي الحقائق لاختيار الأجواء وشراء الوقت فيما أخذت الأعذار تتراكم «من كان باستطاعته التنبؤ بما حدث؟»، «تم عصيان الأوامر»، «كانت الاستخبارات خاطئة»، "خذلنا حلفاؤنا"، «الطقس كان سيئاً»، "حرف المبعوثون تعليماتنا"، أو تلك الصياغة التي تخدم كل الأغراض "تم حدوث أخطاء».

كان حوار نشرته الليل مل جازيت في ٩ يناير ١٨٨٤ هو ما أشعل فتيل

الغضب... علم محرو الجازيت الإنجلييون الذين كانوا يتميزون بالجسارة والوقاحة، أن تشارلس جورج جوربون، وكان جندياً مسيحياً مرتزقاً مغامراً، كاد يكون أسطورياً، قد وصل إلى إنجلترا في طريقه إلى دولة الكونغو الحرة في مهمة كلفه بها ليوبولد ملك البلجيك. كان الجنرال جوربون بين أكثر محاربي الإمبراطورية شهرة، هذا على الرغم من أنه لم يكن قد احتل أبداً مركزاً قيادياً يذكر بالجيش البريطاني. كان قد صنع شهرته بقيادته للمرتزقة الأجانب بالصين، وقمع تمرداً دموياً حفزه شخص أعلن نفسه المسيح المنتظر؛ وفي السودان حيث قاتل تجار العبيد.

التقى جوربون بمنزل شقيقته، أوجاستا، بساوٲمبتون، دبلو، تي، ستيد، محرر الجازيت الذي لا يكل ولا يمل، ورافقه بالقطار إلى لندن، وبوّن أثناء الرحلة حواراً معه (كان ستيد بين أوائل من أدركوا احتمالات كمّ زيادة التوزيع بنشر الحوارات الشفاهية حرفياً).

كانت الأسئلة التي وجهها ستيد لجوربون بسيطة. كانت قوات مصرية يبلغ تعدادها ستة آلاف جندي قد انسحبت من أم درمان إلى الخرطوم في أعقاب هزيمة قوة هيكس التي أرسلت لعقاب جيش المهدي. وكان مقاتلو المهدي يحاصرونها الآن. هل يجوز إجلاء هذه القوات والمدنيين المهديين ومخاطرة التخلي عن السودان وتسليمه للمتمردين؟ أم أنه من الواجب إرسال قوات مهمات خاصة لإنقاذ الحامية وقمع التمرد؟ تكلم جوربون بأسلوب شديد الوضوح: "الانسحاب ليس خياراً، لأن تكلفة استعادة بريطانيا قبضتها على مصر ستكون باهظة إذا تخليتم المهدي أو للآثارك عن تحكمكم في شرق السودان". ثم قدم جوربون تنويعاً على نظرية الدومينو التي استدعاهما، في وقت لاحق، داعمو حرب أمريكا على فيتنام!

ليس الخطر هو أن المهدي سيسير شمالاً مخترباً وادي حلفا، بالعكس، فمن غير المحتمل له أن يتقدم شمالاً. إن طبيعة الخطر مختلفة تماماً. يتمثل الخطر في الأثر

الذى سيحدثه مشهد قوة (محمدية) غازية، قائمة بالقرب من جنوبنا على السكان الذين نحكمهم. سيظهر المصريون في جميع المدن أن بإمكانهم فعل ما فعله المهدي، وبما أنه نجح في طرد الخلاة والكفار، يصبح باستطاعتهم فعل ما فعله*.

«ولن تكون إنجلترا وحدها هي التي ستواجه هذا الخطر. فقد أثار نجاح المهدي بالفعل قلقاً خطيراً في بلاد العرب وسوريا. علقت لافتات في سوريا تدعو السكان للانتفاض وطرد الأتراك. إذا تم التخلي عن منطقة شرق السودان المهدي، ستسرى العدوى إلى القبائل العربية على جانبي البحر الأحمر.. لأنه من الممكن جداً في حالة عدم فعل أي شيء أن يؤدي انتصار المهدي إلى إعادة فتح المسألة الشرقية برمتها. أرى اقتراحات بتحسين وادي حلفا واتخاذ الاستعدادات هناك لمقاومة هجوم المهدي. وهذا يماثل القول ببناء حصون ضد الحمى. لا يمكن منع العدوى بهذا النوع بالتحصينات والحاميات. إن العدوى حقيقية ولا يمكن لأحد على معرفة بمصر والشرق إنكار وجودها. لا يمكن تبرير سياسة الإجلاء بذريعة الدفاع عن النفس».

أثار ذلك الحوار عاصفة من الخطب، المقالات الافتتاحية الرغظات والمظاهرات التي تطالب الحكومة بإرسال جوربون إلى السودان، وهو مكان كان على معرفة وثيقة به حيث سبق له أن عمل هناك حاكماً عاماً للخديوي. وكما عبر ستيد «ليس باستطاعتنا إرسال كتيبة عسكرية إلى الخرطوم، لكننا نستطيع إرسال رجل أثبت أنه أكثر قيمة، في أوضاع مماثلة، من جيش كامل». في ١٨ يناير، استدعى جوربون إلى مكتب الحرب للاجتماع بوزير الحرب وعدد من كبار الوزراء الآخرين. وهناك، وافق «على دراسة أفضل الأساليب لإتمام الجلاء عن السودان وكتابة تقرير عن هذا». «بإيجاز، وافق على دراسة جدوى نفس السياسة التي كان قد أدانها لتوه.. أرسل جلاستون رئيس الوزراء الذي كان موجوداً آنذاك بهواردين برقية يعرب فيها عن إذعانه، مؤكداً فيها أن على جوربون أن يكتب بإرسال التقارير ولا شيء أكثر من ذلك. يمكننا الافتراض أن جلاستون، الذي لم يكن قد التقى

جوردون أبداً، اعتقد أنه كان يشتري الوقت في لحظة كان مجلس الوزراء فيها منقسماً وكان شغل الليبراليين الشاغل هو مناقشة اقتراح بالإصلاحات الانتخابية. كما يمكننا أن نتكهن أن جوردون قد خلص بدقة أنه بمجرد أن يُترك وحده سيصبح بإمكانه فعل ما يريد. ترك هذا التقدير الذاتي الصريح في مذكراته التي كتبها بعد ذلك بثمانية أشهر بالخرطوم المحاصرة: «أعترف بعصيانى الشديد لحكومة جلالة الملكة ومسئوليتها. لكن هذا جزء من طبيعتى ولا حيلة لى إزائه. أخشى أنني لم أحاول حتي تبادل الآراء السريعة معهم. أعلم أنني لو كنت رئيساً فلن أوظف نفسى أبداً، إذ لا أمل في إصلاحى».

ومن جانبه، كان جلاستون، حساساً (للقند) إلى حد الإفراط... من ثم، حينما استفزته احتجاجات الليبراليين الغاضبة خشية أن يجر جوردون بريطانيا إلى مستتبع بالسودان، تخير رئيس الوزراء أن يضخم خطر تمرد المهدي بحيث يبدو صراعاً حقيقياً للحضارات. أبلغ البرلمان في ١٢ فبراير ١٨٨٤ أن مهمة البريطانيين بمصر هي «مهمة لا ننفذها وحدنا، لحسابنا، بل نيابة عن البشرية المتحضرة. لقد اضطلعنا بها بموافقة قوى أوروبا. تلك القوى التي هي أسنى أداة للحضارة المسيحية الحديثة وأكثرها صدقية - لكننا، وقد اضطلعنا بها بدعوة منهم، أو بموافقتهم، يتوجب علينا أن ننجزها بالأسلوب الذى يتوقعونه منا». وحينما ووجه بأسئلة مشروعة عن سياسة المخاطرة، كان الرجل، يعمد كعادته إلى إطلاق صواريخ خطابية تصل إلى سماءات عالية لا يمكن الوصول إليها: بطريقته الخاصة، كان جلاستون أيضاً، شخصاً لا أمل في إصلاحه.

ومثل القديس سباستيان، غدا جوردون الشهيد الرمزي لزمانه ومكانه، ومثل القديس، تم تخليده في لوحة صوّرت شخصاً وثيقاً تملكته منه الرهبة وهو يصوب صاروخاً إلى جسد جوردون المنتصب بكبرياء. (اللوحة التي رسمها جى. دبليو جوى عام ١٨٩٢ وعنوانها موت الجنرال تشارلس جوردون، معلقة بمتحف مدينة

ليدز الفنى؛ ألهمت تلك اللوحة عام ١٩٦٦ الفيلم الملحمى «الخرطوم» الذى أدى فيه شخصية جورون النجم تشارلس هستون، فيما قام السير لورانس أوليفيه بأداء شخصية المهدي). وفقاً للرواية الفيكتورية التى كانت محل إجماع، كان جورون محارباً مسيحياً بأسلا مديراً، يجهل الدماء السياسى، وكان يهتدى بالإنجيل الذى كان يستشيرهُ يومياً. لفت نظر جون إتش ولور الأمريكى الذى كان يعمل بمكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) بالقاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية، لفت نظره بقرة أوجه الشبه الكثيرة بين جورون والمهدي «كان الاثنان يعبدان إله العهد القديم بحماس متقد، وامتلك كل منهما خاصيات قيادية عسكرية كاريزمية. وكان الاثنان يغيضان الطغيان، ولا يخشيان الموت». وبالرغم من ذلك، كانت شخصية جورون تتسم أيضاً بالخيلاء والدماء، وكان الأجدر بوولر (الذى أصبح عام ١٩٧٦ المفتش العام للسى آى إيه) أن يضيف فى كتابه «جورون فى الخرطوم» (١٩٨٨) أن الصدام بين معتقى الأفكار المطلقة خلفَ جيلاً من جثث القتلى.

وجد السير إيفلين بارينج ، العلماني بامتياز، نفسه فى موقف متأرجح .. كان يعلم الكثير عن جورون ، حيث كان قد تبعه بعد عقد من الزمان كطالب فى كلية ووليتش العسكرية. ومثل زملائه من الطلبة الآخرين كان بارينج على علم ببسالة جورون كتنقَاب ولغَام (خبيراً فى حفر الخنادق وزراعة الألغام)، أى فى هندسة المعارك، أثناء حصار سباستوبول فى حرب القرم ومثل غيره من البريطانيين، كان بارينج على علم بإنجازاته الحربية فى الصين حيث تمكن، بناء على تفويض من القادة المدنيين بشنغهاى من تحويل قوة من المرتزقة إلى «الجيش المنتصر دائماً» كما أصبح يسمى؛ ذلك الجيش الذى نجح ، لحساب الإمبراطور، فى قمع انتفاضة مناصرى حركة التايبينج من الفلاحين والفقراء (١٨٥٤ - ١٨٦٤) بقيادة ناظر المدرسة الصينى الذى كان يزعم أنه الشقيق الأصغر للمسيح. عُرف جورون «الصينى» أيضاً بأعماله الخيرية كقائد لقاعدة فى جريفسند، حيث كان يؤرى

الصبية الفقراء في مسكنه الحكومي ويمدهم بالملايس. كان الإنجليون يعرفونه بصفته جندياً مسيحياً، رغم أنه من المشكوك فيه أنهم كانوا على دراية بنظرياته الإنجيلية الشاذة (حدد موقع جنة عدن في جزيرة الموريشوش وكان دليله على ذلك وجود فاكهة تنفرد بها الجزيرة على شكل عضو الأنثى). كان أيضاً موضع ثناء المناهضين للرق وذلك بسبب حملاته ضد تجار الرقيق المسلمين حينما كان يعمل حاكماً للإقليم الاستوائي بالسودان، ثم حاكماً لعموم السودان بعد أن عينه الخديوى عام ١٨٧٧.

لكن السير إفلين كان أيضاً يعرف جورون كمتصوف متهم ، وأنه قد مر بأزمة روحية بفلسطين عام ١٨٨٢ (كتب يقول لشقيقته أوجستا «أحاول نبذ كل العوائق التي تحول بيني وبين حياة القداسة»). من ثم ، حذر بارينج ، في البداية، ضد إرسال جورون إلى الخرطوم، ثم تحول مع التيار وذلك (كما بين فيما بعد)، لأن كثيراً من البريطانيين الذين كان يحترمهم كانوا يعتقدون خلاف ذلك. من بين مؤيدي جورون كان اللورد جرانفيل ، وزير الخارجية الذي أسرّ إلى السير بافيلين في رسالة خاصة بأنه «قد يكون ذا فائدة عظيمة، كما أنه سيلقى ترحيباً من أوساط عديدة بالبلد». وحينما توقف جورون بالقاهرة لثمان وأربعين ساعة في طريقه إلى الخرطوم، كان السير إفلين ممن شاركوا في اجتماعاته مع الأعيان، وكان من بينهم زبير باشا، أحد الأشخاص الرئيسيين السابقين في تجارة العبيد والذي كان الجنرال قد تعقبه ذات مرة في أنحاء إقليم دارفور، الذي كان آنذاك أحد ملثقي الطرق لتلك التجارة. من ثم كان بارينج موجوداً حينما قرر جورون، وقد غمره «شعور روحاني» أن تاجر الرقيق السابق زبير باشا كان المرشح المثالي لإحلال السلام بالسودان واسترضاء السودانيين. عمل السير إفلين علي منع تنفيذ هذا الاقتراح المتهور المرتجل وساعد على إقناع الخديوى بترشيح جورون، مرة أخرى، حاكماً عاماً للسودان . فعل هذا، وأشار على لندن بهذا، من منطلق عقيدته أنه كان

من الأمور الحيوية إرسال "ضابط إنجليزي" له نفوذ حقيقي بالخرطوم ودرابة بها . وكما عبر عن ذلك اللورد جرانفيل، سيكون الجنرال جوردون أفضل رجل إذا تعهد بتنفيذ سياسة الانسحاب من السودان التي تتسق مع إنقاذ حياته. لابد أن يفهم تماماً أن عليه تلقي التعليمات من الممثل البريطاني بمصر (أى بارينج) ويكون مسئولاً أمامه. (بعد سنوات عديدة، اعترف بارينج أن موافقته على تعيين جوردون قد تكون أسوأ خطأ ارتكبه، ثم بعد ذلك، فى كتابه الضخم، «مصر الحديثة» [١٩٠٨] المؤلف من جزئين، حاول التورية على دوره فى هذا التعيين بأن حذف كلمة «إنجليزي» من التوصية التى أرسلها إلى لندن والتي اجتزأتها هنا.

فى ٢٦ يناير ١٨٨٤، رحل الجنرال فى طريقه إلى الخرطوم، يرافقه الكولونيل جيه دى. ستيوارت من الوحدة الثانية عشرة من سلاح الفرسان وفرانك باور من التاييمز. أبرق جوردون الرسالة التالية الى سكان الخرطوم المحاصرين «لا يملككم الذعر. إنكم رجال لا نساء. إننى فى طريقى إليكم». وفى ١٨ فبراير بعد تخطى المنعطف الذى يلتقى فيه النيل الأبيض والنيل الأزرق، غادر جوردون متن الباخرة «التوفيقية» ليلقاه جمهور المرحبين المنتشرين. أعلن «أنتيكم دونما جنود، لكن فى وجود الرب إلى جانبى كى أقوم الشرير بالسودان» أبرق باور إلى التاييمز يقول : «تم إحراق دفاتر الحكومة المسجل بها ديون مستحقة منذ القدم على شعب مرقق بالضرائب، حرقها علناً أمام القصر وضعت الكرابيج والألوات الأخرى التى تستخدم فى ضرب الأفراد بقصر الحكومة على الكومة المحترقة».

كان بالإمكان فهم تلك السعادة الغامرة كان ممثل الخديوى الرسمى ماثلاً أمام الجماهير ويبدو أنه كان يعد بتخفيف قيود العبودية الكولونiale بالسودان، وإلغاء الديون، وحتى بالسماح باستئناف تجارة الرقيق التى أصبحت غير شرعية منذ عام ١٨٧٧.

اعتقد جوردون أنه إذا تخلى البريطانيون عن السودان، ستستأنف تجارة

الرقيق فى جميع الأحوال، ولن تمثل أية عقبة لزيير باشا تاجر الرقيق السابق، والمرشح غير المتوقع من قبل جوردون لمنصب حاكم عموم السودان. أثارت تلك الواقعية المُشفرة والواضحة فى أن استياء داعمى جوردون من نوى التوجهات الإنسانية. لكن الجنرال تباهى متغرساً بأنه قد حوّل التاييز وبارينج إلى اعتناق أفكاره المتغيرة بشأن إباحة تجارة الرقيق، وفيما بعد، فى أغسطس عام ١٨٨٤، لدى علمه بتشكيل قوة لإنقاذه، أظهر دهشته وطربه من أنه استملاّع إيجابار جلادستون على إرسال جيش طوارئ خاص إلى السودان. وبالمثل، كانت تحولات جوردون الأخرى فجائية غير متوقعة. تكهن فى وقت ما أن بإمكانه هزيمة المهدي فى المعركة؛ ثم عاد ليعلّن أنه يظن أن بإمكانه خداعه أو نزع سلاحه. ولتجربة تلك الاستراتيجية، الأخيرة، أرسل للمهدي عباءة حمراء وطربوشاً، وخطاباً يعرض عليه تعيينه سلطاناً لكوردفان موطنه الأصلي.. أجابه المهدي قائلاً: «إن عليه أن يعلم أنه المهدي المنتظر خليفة رسول الله.. ومن ثم، فهو ليس بحاجة إلى سلطنة، أو مملكة بكوردفان أو غيرها أو لثروة الدنيا وخيلانها.. فهو عبد الله». أما عن الهدية التى أرسلها، فدعا الله أن يجزيه خيراً على نيته الطيبة ويهديه إلى الصراط القويم. وقال إنه يعيدها إليه ومعها الرداء الذى يرغبه لنفسه ولرفاقه الذين يبتغون الآخرة (أرسل المهدي لجوردون رداء مرقعاً يرتديه الدراويش زياً).

بدأ السير إفيلين بارينج بالقاهرة، يخشى التدفق اليومي للبرقيات غير المتسقة، بل والمتنافرة أحياناً، التى كانت ترد من الخرطوم..

كتب جوردون نفسه فى يومياته يقول إنه لابد وأنه يمثل «السم القاتل» للمسؤولين الذين يزنون الكلمات، وأضاف «أعجب كم كلفت البرقيات الواردة من السودان حكومة جلالة الملكة». ووفقاً للتعليق الدقيق الذى أوردته ليتون ستراتشسى فى كتابه «شخصيات فيكتورية مرموقة» (١٩١٨) «لقد كان بين أناسه - شعبه الذين كان هو مسئولاً أمامهم - أمامهم، لا أمام الله. أكان يدعهم يسقطون، دونما مقاومة، فى

براشن مدع دموى؟ أبداً! كان هناك ليمنع ذلك. قد يكون من المفهوم أن تُسمم الحكومة المتواجدة بعيداً بقول عن «الجلء»: لكن أفكاره كانت في مكان آخر.. وقد عبر عنها بتدفق في برقياته، وجلس السير إلفين بارينج مشدوهاً مرعواً.. كان الرجل الذي غادر لندن قبل ذلك بشهر «كي يكتب تقريراً عن أفضل الوسائل لتنفيذ الجلء عن السودان» يتحدث الآن بصراحة عن القضاء على المهدي بمساعدة القوات البريطانية والهندية.

وبالرغم من هذا، لم تكن للتصرفات والأقوال غير المألوفة والشاذة تلك من دلالة للجمهور البريطاني الذي أسره ذلك البطل الوحيد المطوق بالمحاربين الدراويش المتعصبين، في حين مضى أعضاء مجلس الوزراء البريطاني، المنقسمون بين الصقور من أمثال وزير الحرب اللورد هارينجتون والحمائم من أمثال اللورد جرانفيل، وزير الخارجية يرتجفون مرتبكين إلى ما لا نهاية. وفي مطلع أغسطس ١٨٨٤ وافق جلادستون أخيراً، وتحت ضغط هارينجتون، على تخصيص مبلغ ٣٠٠ ٠٠٠ جنيه استرليني لحملة إنقاذ.. جند السير جارنت ولزلي، الخبير الإمبريالي في عمليات الأوامر السريعة، جيشاً لحملة خاصة بالقاهرة، لكن الصعوبات العملية أخرت رحيله حتى أكتوبر، حيث بدأت القوة المكونة من عشرة آلاف جندي رحلة الألف وستمئة ميل الطويلة الشاقة إلى الخرطوم. وحينذاك، كان المتمردون قد قطعوا خطوط البرق، وكان الكولونيل ستورات، ومراسل التايمز فرانك پاور قد غادرا الخرطوم وهما يحملان رسائل، ليقتلها أحد أنصار المهدي الذي تظاهر بأنه حليفهما.

بدأ جوربون الإعداد للمعركة النهائية، وفي يناير ١٨٨٥ تحقق سيناريو إنجلترا الكابوسي فيما اجتاحت الدراويش بسيوفهم المعقوفة المدينة.. ووفقاً للرواية المعتمدة، قُتل جوربون على سلام القصر بواسطة أربعة مهاجمين عمالقة يشبهون السيوف، فيما صاح أحدهم «أيها الملعون، لقد حان أجلك» حُمِل رأس جوربون في موكب انتصار إلى المهدي ووضِع على فرع شجرة متشعب ليصبح هدفاً للسخرية

وطعاماً للجوارح (يُعلق ستراتسشى ساخراً بالقول «وأخيراً، التقى المتعصبان بعضهما وجهاً لوجه»).

فى ٢٤ يناير ١٨٨٥ اعتلت قوة بريطانية طليعية قوامها عدة مئات من الجند مئ سفينتين من قرية قريبة من أعالى النهر للمشاركة فى الانقضاض الأخير على الخرطوم. لكن السفينتين تأخرتا بفعل شلال النيل السادس الغادر، فوصلتا الخرطوم يوم ٢٦ يناير لتكتشفا أن المدينة قد سقطت بالفعل.. قويل الكولونيل سير تشارلس ويلسون ، ضابط الاستخبارات وقائد القوة، ومن على شاطئ النهر بصيحات ابتهاج، وه الموت للإنجليز» . بدأ سيل منهمر من الطلقات والقذائف التى أطلقت من بطاريات على الشاطئ «فى قرع جوانب السفينتين مثل وإبل البرد، فيما انطلقت القذائف بصوت صارخ فوق الروس. كان من الواضح جداً أن الخرطوم قد استسلمت ولم يعد العلم المصرى الذى كان جورون قد رفعه مريضاً من خلال سحبات الدخان شعر به ويلسون أنه ليس ثمة خيار أمامه سوى الانسحاب بأقصى سرعة عائداً من حيث أتى. «بعد قوات الأوان». كان هذا هو التعليق على رسم كاريكاتورى نشرته مجلة بينش فى ٥ فبراير يوضح «شخصية، بريطانيا العظمى وقد انحنت حزناً وقهراً فيما جحافل المهدي تستولى على المدينة. «بعد قوات الأوان»، مقولة ردها كورس البرلمان والصحافة، وصاغ اللورد ألفرد تنسيون أمير الشعراء نحيبهم شعراً فى الأبيات التالية : «بيد من عاش من أجلهم مات / بلده، استيقظت بعد قوات الأوان / وتوَجّت هامته الميتة بالثناء». وفى مسارح النوعات ، عكست الأحرف G.O.M (الرجل المسن المهيب، أى جلاستون) لتصبح "M.O.G" (قاتل جورون Murderer of Gordon) فى أغنية خُاسية هزلية:

حينما تقارقه الحياة

سيتمطى قاتل جورون عرية من نار

ويجلس في أبيه

على سطح ملتهب

بين بيلاطوس ويهوذا الإسخريوطي

كانت الضحية الأخرى لسقوط الخرطوم هي إدارة جلاستون الليبرالية الثانية. أصر جلاستون الرجل المسن المهيب، وكان آنذاك قد بلغ عامه الخامس والسبعين، معلناً وسط صيحات الاستنكار أحياناً، أن جوردون كان عاصياً متمرداً .. قاوم رئيس الوزراء، بمرارة ، التلفظ حتى بمجرد كلمة ثناء على الجندى السريع في بيانه الأول أمام مجلس العموم. ولدى تلقيه رسالة من الملكة فيكتوريا مفادها أن التدخل العسكري المبكر ربما كان قد أدى إلى إنقاذ جوردون رد رئيس وزرائها قائلاً إنه «لديه انطباع أن القوة التي قادها اللورد ولزلي كانت على درجة من الكفاءة تكفي لإنقاذ الخرطوم لولا أن جزءاً كبيراً منها تعذر وصوله في الوقت المناسب نظراً للطريق المتعرج الذي سلكوه بالنهر، اتباعاً منهم لطلب الجنرال جوردون السريع». بدا وأنه كان بغير استطاعة جلاستون استيعاب حقيقة أن جوردون قد أصبح في المخيلة الشعبية شهيداً مسيحياً وربما مات ببسالة فيما كان يضطلع بمهمة مستحيلة لحكومة جاحدة. تخيّل الليبراليون المنقسمون المحبطون، وفي يونيو، قدم قائدهم المصر علي موقفه، استقالته.

وكما حدث في حالة نظريات الدومينو بعد ذلك، لم تقع التبعات الرهيبة التي كان جوردون قد تنبأ بها. بعد ستة أشهر من سقوط الخرطوم، مات المهدي ميتة طبيعية وانتقلت قيادة التمرد إلى خلفه المختار، عبد الله بن محمد المعروف بالخليفة. ظل المحاربون الدراويش ، لما يربو علي العقدين، يصدون الغارات العقابية الأنجلو/مصرية، لكن المتمردين أثبتوا أنه ليس باستطاعتهم توسيع نطاق انتصاراتهم شمالاً إلى الداخل المصري، كما أن دعوتهم الجهادية لم تلق استجابة في أنحاء أخرى من العالم الإسلامي. قنع السير إلفين بارينج بالانتظار والترقب، ورغم أنه

كان قد شب على المبادئ الليبرالية إلا أنه شكل تحالفاً مشمراً مع اللورد ساليسبرى الذى كان آخر شخص من طبقة النبلاء يحتل منصب رئيس الوزراء . ومعاً اتفقا علي حلّ «العلمين» للسودان، الذى بمقتضاه تصبح مصر شريكاً صامتاً أقل مرتبة مع إنجلترا فى حكم هذا الإقليم مترامى الأطراف. ومعاً أيضاً ، اتفقا علي استعادة الخرطوم من خلال هجوم شامل ضخم يقوده النجم الصاعد، الماجور هربرت كيتشنر ، المهندس المنهجي الذى بددت نُظُرتَه وشاربه وهيبته الصارمة جميع الشكوك حوله.

كان كيتشنر ، الذى اشترك مع قوة اللورد ولزلى للإغاثة الفاشلة مُلماً بالمنطقة. كان أيضاً قد قام بعمل مسح للأراضى المقدسة لحساب «صندوق فلسطين للتنقيب»، وكان يتحدث العربية، ويتوق للثأر لجورجون الذى كان يدعوه «أكثر الرجال نبلاً على الإطلاق». وبحلول عام ١٨٩٨، ويصفته سردار مصر، أو القائد العام للقوات المسلحة، قام كيتشنر بتجنيد ٢٥٨٠٠ رجل ثلثهم من البريطانيين، والباقي مصريون وسودانيون. أمد ساليسبرى مصر بقرض قدره ٩٠٠٠٠٠ جنيه استرليني ، تحول فيما بعد إلى منحة، ثم اضاف إليه ٧٥٠٠٠٠ استرليني لتأمين قوة هجانة، وخيول وبواخر مجدافية ومدافع. وكان الأهم من هذا هى الأسلحة الرشاشة ماركة ماكسيم - نورنفلت التى كانت قد اخترعت لتوها. بعد ذلك هزم جيش كيتشنر خمسين ألفاً من المحاربين الدراويش من أتباع المهدي فى معركة أم درمان تلك المدينة المقابلة للخرطوم والتى كانوا متحصنين بها.

كان عدد قوة كيتشنر تبلغ نصف عدد قوات المهدي. تمثل خطأ الخليفة الفادح فى أنه أمر مقاتلين بشن هجوم مباشر فى ضوء النهار ضد ساحات قتال المشاة البريطانيين المسلحين بمدافع الهاويتز وماكسيم. أسفرت المعركة عن قتل ما بين عشرين ألفاً وخمسة وعشرين ألفاً من المحاربين السودانيين (اختلفت التقديرات اختلافاً كبيراً) فيما لم يُقتل من القوات الأنجلو/ مصرية سوى ثمانية وأربعين

جندياً. سجل تلك العملية الملازم ثانى ونستوت تشرشل، الذى كان يعمل أيضاً مراسلاً حربياً لصحيفة الديلى تلجراف.

فى مشهد ختامى مروّع وصفته الملكة فيكتوريا بأنه «عصر أوسطى» تم نبش عظم المهدي من قبره وأخذت جميعته تذكراً. (علق أحد الضباط البريطانيين مستنكراً بالقول (تم قذف عظام المهدي بعد ذلك فى النهر وأعتقد أن هذا أمر مناف للنوق). فكّر كيتشنر فى استخدام الجمجمة وعاء للحبر، أو إناء للشرب، لكن بعد سماعة اعتراضات اقترح إرسالها إلى كلية الجراحين البريطانيين. ينكر فيليب زيچار فى كتابه «أم درمان» (١٩٧٤) أنه لدى سماع الملكة بهذا الاقتراح، عبرت بوضوح عن استيائها، ومن ثم، أبقى اللورد ساليسبرى إلى كرومر طالباً منه وقف هذا الهراء. رد كيتشنر، وقد شعر بالخجل ببرقية إلى القنصل العام تقول «أسف جداً أن اعتبرت جلالته أن بقايا المهدي قد أسىء التعاطى معها بشكل غير مبرر سامر بدفن الجمجمة بناء على رغبات الملكة».

وفى إلحاح أخيرة قصد بها تبيان ربّ من كان أسمى مكانة وأوسع سلطة، رتب السردار أمر إقامة صلاة جنازية فى شرفة المرتلين المهديّة بقصر جوربون بالخرطوم. حضر ذلك الطقس المسكونى أربعة كهنة - انجليكاني، ومشيخاني، وميثودى، وكاثوليكي - وكانت الذروة حينما رتلوا ترنيمة جوربون المفضلة.

على الرغم من ذلك، ثبت ، بالنظرة الارتجاعية، أن معركة أم درمان كانت نصراً مشكوكاً فى أمره. من الصحيح أن دولة المهديّة سُحقت ، وتم الثار للجنرال جوربون ووفقاً للكلمات ستراتشى التى يستشهد بها كثيراً فقد انتهت المعركة «بمذبحة مجيدة لعشرين ألف عربى، وإضافة مساحة شاسعة للإمبراطورية البريطانية ولقب نبالة أرفع للسير إيفلين بارينج». لكن مدى المذبحة الهائل روع حتى البريطانيين الذين عادة لا يتميزون برهافة المشاعر، على حين أن ما أثبتته رشاشات ماكسيم من قدرة على القتل شجعت التوقعات الزائفة بإمكانية حدوث

انتصارات سهلة أخرى بأفريقيا. بعد عام توقع غالبية البريطانيين أن يقضى الجيش الإمبراطوري علي المزارعين البوير المقاتلين، في هجمة سريعة. وليس أقل العواقب أهمية أن مجزرة أم درمان أدت إلى توسيع الهوة بين العالمين الإسلامي والمسيحي وبدءاً من الضمارات وحتى النوادي، كان السمو الأوروبي يعتبر أمراً مسلماً به. تقلص تنوع المصريين وغدا الأوروبيون يقسمونهم إلى نوعين Gypos «أي خدم» و«Wogs» (وجهاء شرقيون Worthy Oriental Gentlemen أو أفندية). كان صوت ويلفريد سكويين بلانت من بين الأصوات القليلة ذات المكانة التي ارتفعت لتتساءل عن سبب عدم السماح للشعوب في مختلف الأماكن أن يشنوا حروبهم الدينية ويقتلوا ملوكهم مثلما فعل البريطانيون في زمن كرومويل. وعما إن كان المهدي وبولته الدينية فعلاً على هذا القدر من الوضاعة. وعما إن كان إثبات الأوروبيين مقدرتهم على إذلال الشعوب غير الأوروبية تخدم المصالح البريطانية فعلاً. في حوالي العام ١٩٠٠ كان من النادر طرح مثل تلك الأسئلة سوى من قبل الكفرة من أمثال مارك توين، الذي كان يعتبر مجرد مهرج (أمريكي).

لم يكن من العوامل المساعدة أن الأوروبيين في مصر، كما في أنحاء المشرق الاسلامي كانوا يسكنون أحياءهم المنفصلة منعزلين عن غالبية السكان، في نسخة مبكرة لما يعرفه الأمريكيون اليوم بالمنطقة الخضراء في بغداد. لم يكن هذا الحاجز ملموساً في أي مكان بمثل ما كان عليه الوضع في القاهرة اللورد كرومر. وكان ذاك الوضع قد قام علي الرغم من الإعلانات الرسمية المتكررة أن مثل هذا التقسيم غير مرغوب فيه.

أصر اللورد البارستون رئيس الوزراء الليبرالي السابق، والذي لم يكن يخل من التأكيد علي المصالح البريطانية والضغط من أجلها، أصر قائلاً «نحن لا نريد مصر، أو لا نريدها لأنفسنا مثلما لا يريد أي رجل عاقل له ضيعة في شمال إنجلترا وقصر في جنوبها أن يمتلك النزل والحانات الواقعة علي الطريق بينهما. كل

ما بوسعه أن يرغب فيه هو أن تظل تلك الحانات بحالة جيدة ، متاحة دائماً تمدّه كلما أتاها بوجبة من شرائح اللحم الضأن وبالجياد المجهزة».

لكن الحال كان غير ذلك. فمجرد أن استقر البريطانيون كسلطة احتلال تحولت الحالات المعنوية بها إلى منتجعات استجمام فاخرة كما تمثل هذا في مقر إقامة القنصل العام. في البداية سكنت أسرة بارينج (كان إقّلين قد تزوّج عام ١٨٧٦ ابنة السير رولاند إرينجتون أحد الوجهاء من ملاك الأراضي) قصر القنصل القائم الذي تحول فما بعد إلى نادي الفروسية ويعد أن رأى بارينج أن هذا المسكن غير لائق ، قام بتصميم قصر ومقر مهيب (يحكم منه). كان هذا القصر يعرف بين الأوروبيين باسم «الوكالة» وأسماه المصريون «بيت اللورد». كانت قلعة كرومر تقع وسط القصور المطلة على النيل علي بعد بضعة مئات من الأمتار عن ثكنات قصر النيل البريطانية بحى جاردن سيتي الراقي. فيما بعد، توسعت الأراضي الملحقة بالقصر وأصبحت تضم حدائق، ومروجاً مجزّزة وحمام سباحة وحوض لرسو السفن على النيل ومخبأً إيجارى من الغارات (أثناء الحرب العالمية الثانية).

كان الكثير من العمل يجب أن ينجز. كانت نظم الإدارة المصرية عتيقة. أوضحت الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية (١٩١٠) أن «الدستور ولد ميتاً ولم يجد السير إقّلين لدى وصوله لوجاً نظيفاً، بل برديات مهترئة شوهتها جهود ظلت قروناً تحاول بلغة مبهمّة وصف نهج لحكم ذاك الشعب الطيّع سلس القيادة». ومن ثم ، ومن أجل اجتذاب دعم متزايد للإصلاح، عاش السير إقّلين والليدي إيقّل حياة اجتماعية نشطة. احتوى جدولهما حفلات رقص، عروضاً مسرحية للهواة تقام بالقصر وحفلات عشاء. كانت الأخيرة شائناً معقداً حوى جميع مظاهر الأبهة حيث كان الخدم الهنود المعممون يقدمون الأطعمة الفاخرة النادرة. في تلك المناسبات ، نادراً ما كان يتواجد المصريون. وحينما كان السير إقّلين يجد نفسه بين دائرة حميمية من الأصدقاء، كان لا يمل من مناقشة الأدب الإغريقي والرومانى،

والروايات الفرنسية (التي كان يكرهها). لا يعنى هذا أن الشائن المصرى كان منسياً لا سمح الله. يروى موريس بارينج، الكاتب والديبلوماسى، أن عمه كان يُمتع ضيوفه بالبذاعات التى كانت تكتبها الصحافة المحلية عنه. استشهد السير إلفين، مبتهجاً، بصحفى مصرى وصفه بأنه كان «يجمع نفاق وزلافة تشادبانده» [شخصية ذليلة فى رواية لنيكزن] وخبث الشيطان ومكره.

يكتب الماركيز أوف زتلاند، كاتب سيرة كرومر المعتمد، أن البروقنصل، وفيما كان يتجنب الشهرة التى تقوم على سوء السمعة فإنه «كان يقدر أهمية تركيز اهتمام الجمهور المصرى على حقيقة واقع السلطة البريطانية». كان يسير بعريته فى شوارع القاهرة، شخصية مهيبة تستدعى الكثير من التعليقات. ووفقاً لأعراف هذا الزمان، كان يسبق عريته سياس يلوحدون بعضى قصيرة وأكمامهم تتطاير. كان يزاول رياضة التنس، حينما يسمح الوقت، من أجل التدريب والمتعة. وكان، أثناء الأزمات النووية التى تمر بها الأوضاع فى مصر، يوفر الوقت للعب التنس - ليس من أجل المتعة، بل ليتظاهر بعدم الاهتمام. فى فبراير ١٨٩٣، كتب يقول إنه أثناء أسوأ الأزمات كان يلعب التنس كل يوم كى يمنح الثقة للإنجليز ويتسبب فى بالغ الضيق للفرنسيين والآخرين.

حينما كان يذهب لزيارة الخديوى، كان القنصل العام يرتدى معطفاً رمادياً ضيقاً قصيراً، وقبعة بروقنصلية بيضاء مزينة بريشة. كان يحيط بعريته من الجانبين مرافقون من سلاح الفرسان بجاكيتاتهم القرمزية - واحد وعشرون من فرقة الرماحين الحادية والعشرين - لأنه، كما علق قنصل الولايات المتحدة العام آنذاك، «لا يمكن اعتبار أية صورة فى القاهرة مكتملة ما لم تضم جنوداً، فالوجه العسكرى مرئى بشكل يكاد يكون عدوانياً.. دائماً ما تشاهد مسيرات لسرايا ووحدات من الجنود لدرجة أن يعتقد الزائر أن القاهرة معسكر حربى مترامى الأطراف.

لكن القاهرة كانت، فى واقع الأمر، أكثر من ذلك. كانت تسمى، عن حق ، باريس النيل، بعد أن استبدل الخديوى إسماعيل وسط المدينة عصر الأوسطى بجادات (شوارع تحفها الأشجار) عريضة على غرار تلك الموجودة بباريس والتي كانه البارون جورج - يوجين هاوسمان قد صممها فيما بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٧٠. أصبحت القاهرة فى عهد كرومر، أكثر المدن الإفريقية ازدهاراً بالسكان الذى بلغ عددهم ٣٧٤٠٠٠ شخص من المسلمين والأقباط والدروز واليهود والأرمن، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من «الفرنجة» كما كان العرب يسمون الأوروبيين، بقدر من الازدراء. آنذاك، وخلافاً لدمشق وبغداد، كانت القاهرة بمناخها الشتوى الصحى وتكون آثارها المتاحة، وجهة مغرية للبريطانيين. من ثم، تضخم عدد الجالية البريطانية من ١٠٠٠٠ شخص عام ١٨٢٨، إلى ٩٠٠٠٠ شخص عام ١٨٨٠، وكانت الامتيازات الأجنبية من بين العوامل التى حفزت هذا التدفق (ظل هذا النظام الذى كان موضع بغض المصريين معمولاً به حتى إلغائه بالكامل عام ١٩٣٧).

كانت القاهرة تبدو للزائر الغربى مثل مشهد أوبرالى ملحق به مدينة. بالإضافة إلى الأهرام، كانت مئات المآذن والمساجد تزين الأفق، وعلى بعد خطوات من مركز المدينة الأوروبى، كانت شمة مدينة شرقية تشكل صورة غريبة نابضة كتلك التى نراها فى أعمال دافيد روبرت الفنية. وصف مارك توين ذلك المشهد وصفاً تصويرياً فى كتابه «الأبرياء بالخارج» حيث قال «الإبل المهيبة، أحادية السنام وثنائيتها، المصريون نوى البشرة الداكنة، وكذلك الأتراك ، والأحباش السود، معممين، متشبحين، متوهجين بتنويع ثرية من الألوان البراقة.. هذا هو المشهد الذى يراه المرء فى كل خطوة، تزحم بهم الشوارع الضيقة والبازارات التى تشبه الكهوف». وبالتقابل، كانت أحياء المدينة الأجنبية الأكثر حداثة، فرنسية التصميم، تكثر بها الأسطح السنيدة (المنحدرة) ، مبانٍ صممها خريجو كلية الفنون الجميلة أثناء سنوات الازدهار الوهمى لشركة قناة السويس. كان الخديوى إسماعيل قد احتفل

عام ١٨٦٩ بافتتاح قناة السويس، وكرس لهذا الاحتفال دار الأوبرا التي أقامها حيث عُرضت أوبرا عابدة، للموسيقار فردى، واستضاف الخديوى خمس شخصيات أوروبا الملكية ومن بينهم الإمبراطورة أوجينى والإمبراطور فرانس جوزيف من النمسا، وولى عهد إنجلترا وزوجته. أقيم فى الممر التجارى الذى كان يصل شارعين حديثين صفان من المحلات تعرض سلع الرفاهية الأوروبية. فى عام ١٩٠٨، علق أحد زوار حى الإسماعيلية بالقاهرة بالقول إنه لم يكن بالإمكان رؤية أى شئ مصرى «سوى بواب سودانى يجلس على دكة خارج قصر منيف، وكان الرجل يكاد يختفى خلف النخيل والشجيرات الاستوائية».

كانت الفرنسية هى اللغة المهيمنة التى يتحدثها النخبة من السياسيين ورجال الأعمال والصحافة بالقاهرة. وبالرغم من ذلك، فبطلون ثمانينيات القرن التاسع عشر كانت ثلاثة أرباع السفن التى تعبر القناة بريطانية، وكانت كلها تقريباً تتجه إلى الهند أو من الهند. كانت اللغة الانجليزية الدارجة تُسمع فى كل مكان بملاعب التنس بنادى سبورتنج، ويصوت أعلى بين الضباط الذين كان يزحم بهم بار فندق شبرد. لاحظ ذلك المشهد ويليام فولرتون أحد رحالة القرن التاسع عشر حيث كتب يقول «فى وجود لعبة البولو، والكرة، وسباقات الخيل، تترك القاهرة انطباعاً عليك كمدينة إنجليزية يحافظ فيها على حكم من المشاهد الشرقية لإرضاء الذائقة الجمالية للسكان، تماماً مثلما يُبقى مالك لضيعة ريفية على مكان يحتفظ فيه بحيوانات الصيد، أو بمنزلة للفزلان، من أجل تسليته. حتى أن الحمير والجمال التى يركبها السياح إلى الأهرام سميت بأسماء الخيول البريطانية الفائزة فى سباق دربى، أو بأسماء رؤساء الولايات المتحدة».

لم يكد الزوار الذين كانوا يصلون على متن سفن توماس كوك التجارية، والذين كانوا عادة ينتقلون من الإسكندرية إلى القاهرة بالدرجة الأولى بقطارات السكك الحديدية التى أنشأها روبرت ستيفنسون الأسطورى. كانت الهوة الساحقة بين

عوالم القاهرة المتباينة مضمرة في أحاديث إثيلين بارينج على المائدة. فعلى حين أنه كان يُتقن الفرنسية، والإيطالية، واليونانية الحديثة، وكان لديه إلمام بالإغريقية والرومانية، فلم يتعلم كرومر العربية أبداً، وبدلاً من ذلك، كان يستخدم أساسيات اللغة التركية ليتحدث إلى النخب المحلية.. ليس من المستغرب أن نظر كثير من المصريين إلى الحى الأوروبي كورم كيسى غريب عن جسد مدينتهم، نمو مهين لا يمكن استيعابه.. كما أنه لم يكن مفاجئاً أنه حينما تقاعد القنصل العام سنة ١٩٠٧، كان الاحتفاء به في وطنه أكثر إطرأ بكثير من مراسم رحيله الصقيعية. حضرت الجالية الأوروبية المستعمرة بكامل قوتها خطاب الوداع الذى ألقاه لكن لم يكن بين الحضور سوى ثلاثة مصريين متجهمين وقاطع الياقون تلك المناسبة. وكما علق رونالد ستورز مساعده المخلص علي رحيل اللورد كرومر (أعظم راع أجنبي عرفته أية أمة شرقية، وفقاً لستورز). فقد مرت عربته «في شوارع أصطفت على جانبيها قوات مسلحة وسط صمت يفوق الجليد برودة».

تعزى البرودة، جزئياً، إلى حدة الغضب الذى أثاره سلوك اللورد الاستبدادى أثناء سنواته الأخيرة، والذى يوضحه إصراره على تعيين المزيد من «المستشارين» البريطانيين للوزراء المصريين؛ وأيضاً إرهابه الخديوى عباس الثانى وتممره عليه لإصراره على حقوقه كحاكم لمصر بالتقابل مع خليفته؛ وكان من بين تلك العوامل أيضاً إهماله للتعليم. (الامر الذى استهان به ألفريد ميلنر فى كتابه واحتواء ضمن فصل بعنوان «منوعات متفرقة»). أما العامل المباشر فقد كانت سحابة «حادث دنشواى» القائمة التى خيمت على رحيله وكان الحادث قد وقع قبل عام من تقاعده.. ورغم أن تلك الحادثة قد تم نسيانها بالخارج إلا أن تفاصيلها مازالت حية مألوفة لدى جميع التلاميذ المصريين. كان قد تم شق أربعة فلاحين وجلد ثمانية بضراوة لاشتباكهم في مشادة مع خمسة ضباط بريطانيين كانوا يصطادون الحمام والسمان بقرية دنشواى. ولسوء الحظ، توفي أحد الضباط البريطانيين فى ملابس

مبهمة خلافية، لكن الأمر الذي لا خلاف عليه هو أن الضباط كانوا يعملون بالتكديف أن تربية الحمام كانت هواية شعبية في قرية دنشواي. صدرت أحكام الإعدام عن محكمة خاصة تشكلت من بريطانيين ومصريين وترأسها أحد الوجهاء الأقباط واسمه بطرس غالي (اغتاله لاحقاً أحد الوطنيين الغضبي، وأصبح حفيده أمين عام الأمم المتحدة)، وبمساعدة كتابات ويلفريد سكاون بلانت الذي ذكر (أن دنشواي لم تكن خطأ في التقدير بل جزءاً من نظام استهوان بجميع مبادئ القانون الحضاري) أصبحت دنشواي حديث النواثر السياسية في بريطانيا، وأثارت أسئلة غاضبة في مجلس العموم. رأى ناقدو كرومر الإعدامات على أنها سخرية مريرة من تأكيدات على مهمة بريطانيا الحضارية. طلب برنارد شو من قرائه أن يحاولوا تخيل رد الفعل في قرية إنجليزية «في حال ظهر فيها فريق من الضباط الصينيين، ومضوا يصطادون البط والأوز والدجاج والديوك الرومي وحملوها وهم يؤكدون أنها طيور برية كما يعلم هذا الجميع في الصين، وأن غضب الفلاحين المفتعل ما هو إلا غطاء للكرهية، بل ربما لمؤامرة للإطاحة بالديانة الكونفوشيسية وإرساء عقيدة كنيسة إنجلترا مكانها».

سعى كرومر الذي كان في وضع دفاعي، وقد لدغته السخرية، إلى شرح طبيعة السلطة الإمبريالية وأعيائها الثقيلة لنقاده الغافلين. أوجز عنوان مقاله عام ١٩٠٨ بصحيفة أدنبره ريفيو نظرت «حُكْمُ الأعراق التابعة الخاضعة». ثم اعترف، من منظور أقل تعصباً، في فقرة رئيسية من خطاب نشر عام ١٩١٠ بعنوان «الإمبريالية قديماً وحديثاً»، اعترف بوجود تناقض ثابت لا يتزحزح. لاحظ أن الرجل الإنجليزي، كإمبريالي «يبدل جهده لتحقيق مثاليين يحتمل لهما تدمير بعضهما - مثال الحكومة الصالحة الذي يتلازم معه سموه وسيادته (أي الرجل الأبيض) ويرتبط به، ومثال الحكم الذاتي الذي ينضوي على التنازل الجزئي أو الكلي عن موضعه الاسمي».

هل من الممكن التوفيق بين هذين الهدفين؟ هل من الممكن للأعراق التابعة مثل

المصريين أن يحصلوا أبداً علي مهمة الحكم الذاتي؟ قال إنه يخشى أنهم بطبيعتهم ذاتها غير قادرين على التفكير العقلاني. عالج الموضوع بإسهاب في كتابه الضخم «مصر الحديثة» حيث رأى أن افتقارهم للدقة والانضباط الفكري سرعان ما يتردى ليصبح خداعاً، وهي سمة يُعرّف بها العقل الشرقي : «بأن الأوروبي يفكر بصرامة منطقية ؛ تخلو تعبيراته عن الوقائع من أى لبس؛ إنه عالم منطق بطبيعته بالرغم من أنه قد لا يكون قد درس المنطق أبداً، هو بطبيعته متشكك ويتطلب البراهين قبل أن يقبل بحقيقة أية فرضية، يعمل ذكائه المدرب مثل جزء من آلة ميكانيكية. وبالمقابل، فإن عقلية الرجل الشرقي، مثل شوارعه المثيرة الغريبة، تفتقد الاتساق بشدة ووضوح، تفكيره عشوائي واستنتاجاته متهورة.. حاول أن تستخلص من مصرى عادى إفادة واضحة عن الوقائع، وستجد أن تفسيراته مستطالة بعامه، وتفتقد السلاسة والوضوح. وربما ناقض نفسه مرات عديدة قبل أن يكمل قصته».

يبدو أنه من المفارقات أن كرومر، وفيما كان يعبر عن شكوكه الخطيرة حول قدرة المصريين العاديين العقلية، فإنه لم يبذل أى جهد للارتقاء بالمدارس المصرية. وكما يبين بيتر منسفيلد في كتابه «البريطانيون في مصر» (١٩٧٢) فقد كانت ميزانية التعليم أثناء العقد الأول من توليه منصب القنصل العام أقل مما كانته في ظل الخديوى إسماعيل : «أثناء سنوات كرومر بمصر جميعها لم يتعد ما أنفق على التعليم ١٪ من إجمالي النخل القومي». وعلى الرغم من ذلك ، اشتكى كرومر عقب تقاعده من أن «غالبية المصريين مازالوا غارقين في عمق أعماق الجهل، وأنه لا بد لهذا الجهل أن يستمر بالضرورة حتى ينمو جيل جديد».

لم إذن، الحط من التعليم؟ يقترح روجر أوين، كاتب سيرة كرومر المتعاطف، تفسيراً يراء منطقياً، وهو أنه ، ومثل خدام «التاج البريطاني Rāj» الآخرين بالهند كان كرومر على قناعة بأن تعليم ما يزيد على نخبة هندية صغيرة قد أدى إلى إنتاج عدد زائد من مثيرى الشغب من نوى التعليم العالي العاطلين.

وأياً كان ما افتقدته مصر بعد كرومر، فهي لم تفتقد أبداً مثيرى الشغب والمتحمسين. عمل النظام الذي جسده «اللورد» على إنكاء المشاعر الميرة وعلى اغتراب حتى المصريين الذين كانوا أكثر قريباً عن «مستشاريهم» البريطانيين. وفيما توالى عقود ما بعد كرومر، غدا سؤال مكانة مصر ووضعها أكثر إبهاماً. رغب السير إلن جورست، خليفته المباشر، في منح المصريين قدراً أكبر من سلطة البت في شئونهم الخاصة، وكانت تلك سياسة موائمة للحزب الليبرالي الذي كان قد عاد إلى السلطة في ظل الحكومة التي ترأسها هيربرت أسكويث. لكنه وجد أن المشكلة تمثلت في أنه كلما مُنح المصريون «ثقة» سلطة، كان الوطنيون يصخبون مطالبين بالحصول على الوجبة كاملة، وأما المتعاونون مع البريطانيين، فكانوا موضع شجب بصفتهم خونة مرتدين. في عام ١٩١٠، هيبت سلطة أسكويث إلى الحضيض إثر مقتل بطرس غالي الذي كان جورست قد زكّاه رئيساً للوزراء. أدان إبراهيم الورداني، بطرس غالي الأرسطوقراطي القبطي، بالخيانة لأنه وافق عام ١٨٩٩ على اقتسام سيادة مصر على السودان، واتهمه بالتدلل لشركة قناة السويس، هذا علاوة على ترؤسه محكمة بنشواي، ومن ثم قام باغتياله. وعلى إثر ذلك، احتشد الطلبة في شوارع القاهرة وهم يهتفون «الورداني الورداني، اللي قتل النصراني».

أضمرت جملة واحدة في مذكرات جورست جوهر نظرتة السانجة، حيث كتب يقول عن منصبه «ليس ثمة مكان في طول الإمبراطورية البريطانية وعرضها، يتمتع فيه المحتل بحرية اتخاذ القرارات والإجراءات تفوق تلك التي يتمتع بها مفوض بريطانيا وقنصلها العام بمصر» - متناسياً أن مصر لم تكن أبداً جزءاً من الإمبراطورية البريطانية.

مثل شنود وضع مصر ارتباكاً كبيراً أثناء الحرب العالمية الأولى، حينما تحالفت تركيا - صاحبة السلطة الرسمية على القاهرة - مع ألمانيا وأعلنت الحرب على بريطانيا. آنذاك، كان كيتشنر قد خلف جورست قنصلاً عاماً، ورغم مسعاه إلى

خلع بذته العسكرية عنه واستبدلها بستره القنصل الرمادية، إلا أنه ظل يعرف بالمارشال كيتشنر. تميزت فترة توليه منصبه بالقاهرة بسلطانه الملكي، وبيروزه الدراماتيكي عام ١٩١٤ ليصبح القائد الأعلى للمجهود الحربي البريطاني. ويتعاون، لم تعد مصر إقليماً عثمانياً وأصبحت محمية بريطانية. أصبح الخديوى سلطاناً، وتحول القنصل العام إلى مندوب سام. لكن فيما تطورت الحرب لدى دخول أمريكا عام ١٩١٧، لتصبح حملة للديمقراطية وتقرير المصير وتعهدات بها افترض المصريون، منطقياً، أنها تنطبق عليهم. لكن هذا لم يحدث.

اكتشف القادة المصريون الذين حاولوا مراراً الاتصال بالرئيس الأمريكي وودرو ويلسون أن برقياتهم كانت تُمنع بأوامر رسمية؛ ولم يسمح لهم أيضاً بعرض مظالمهم على مؤتمر باريس للسلام، حيث كان المنتصرون يقسمون الشرق الأوسط فيما بينهم. اندلعت التظاهرات وأعمال الشغب بالقاهرة، وفُرضت الأحكام العسكرية، والتجأت الحكومة البريطانية برئاسة دايفيد لويد جورج الليبرالي، وقد أقلقها الوضع إلى الآلية المجرية أي إرسال بعثة لتقصي الحقائق. ومن كان رئيسها؟ لا أحد سوى اللورد ألفريد ميلنر مؤلف كتاب «إنجلترا في مصر» المرموق، والذي بعد خدمته الشاقة بمجلس وزراء الحرب تأهل رسمياً ليكون «إمبريالياً جديداً». آنذاك، عبّر عن تعاطفه مع شكاوى المصريين، فيما سافر هو وزملاؤه إلى القاهرة واستمعوا إلى الوطنيين. وجاء التقرير النهائي للبعثة إقراراً بالحقائق غير المريحة: «لم نواجه أبداً المشكلة المصرية بصراحة، وإهمالنا في ذلك مسئول بقدر عن الوضع الحالي. يبدو دائماً أن الافتراض البدهي في الأحاديث والكتابات الرائنة في هذا البلاد هو أن مصر جزء من الإمبراطورية البريطانية. لكن ليس هذا هو الوضع الآن ولم يكن هكذا أبداً» (هذا على الرغم من أن التقرير أقر بأن بريطانيا، في الممارسة العملية «كانت تتحكم في الشؤون الخارجية والداخلية لمصر»).

ما العمل إذن؟ اقترح ميلنر ورفاقه اتفاقية جديدة تعترف بمصر ملكية مستقلة، لكنها تحوى بنوداً تحمي الرابطة الإمبريالية وأهمها منح بريطانيا الحق في الاحتفاظ بالقواعد العسكرية والدفاع عن سلامة الأراضي المصرية - بإيجاز ، تصبح مصر شبه محمية بريطانية. هاجم الوطنيون المصريون هذه التسوية بصفتها غير كافية، كما هاجمها المتشددون البريطانيون الذين اعتبروها استسلاماً (لم يشترك اللورد كرومر، راعي ميلنر، في النقاش لأنه توفي عام ١٩١٧م). وأياً كانت عيوبه، فقد مهد التقرير الطريق لإعلان عام ١٩١٧ الذي أقر بأن مصر لم تعد محمية بل دولة ذات سيادة. وبناء عليه ، يسمى السلطان ملكاً، والمنسوب السامي البريطاني سفيراً. حينما توفي الملك فؤاد عام ١٩٣٦، ضغط وريثه الشاب، والأكثر حزماً ، بنجاح من أجل معاهدة أنجلو/ مصرية تعالج المظالم المستمرة. وفي انتصار لمصر ، ألغت المعاهدة الامتيازات الأجنبية، بيد أنه وكما كان الأمر سابقاً، احتفظت بريطانيا بحق غير مشروط لإعادة احتلال مصر، واستخدام موانئها ومطاراتها وطرقها في حالة نشوب حرب.. وحسب رأى بيتر منسفيلد المحلل بظلال المعاني، والذي أورد في كتابه «البريطانيون في مصر» : إذا كان إعلان ١٩٢٢ قد منح مصر شبه استقلال، فقد قطعت معاهدة ١٩٣٦ نصف الطريق المتبقي». هذا الشطر من الشطر كان كافياً لجعل مصر حليفاً مُحجَّباً أثناء الحرب العالمية الثانية.

مثل الإسكندر وقيصر، أو مثل نابليون ونلسون، أدرك كل من تشرشل وهتلر أن السيطرة على مصر كانت حاسمة من أجل التحكم في سيناء ومسالكها إلى آسيا. كانا يعلمان أن ظلال مصر كانت تصل من السويس إلى رمال ليبيا، ومن البحر الأحمر إلى دلتا النيل ومن الإسكندرية إلى الخرطوم. وعلى الرغم من أن مصر كانت محايدة ظاهرياً أثناء الحرب العالمية الثانية (على الأقل حتى عام ١٩٤٥ حينما أعلنت الحرب كي تنضم إلى الأمم المتحدة المنتصرة) فقد كان امتلاكها هو جائزة كل الجوائز. استدعى جان موريس، بحويوة فائقة ، مركزية مصر. كان موريس

مراسل التايمز بالقاهرة في الخمسينيات، واتخذ من مركب نيلي مسكناً له ظل معروفاً لعقود عديدة لكل ترجمان بمصر. يقول في كتابه «وداعاً أيتها الطبول» (١٩٧٨) إن القاهرة، في الأربعينيات، كانت العاصمة العسكرية للإمبراطورية البريطانية، وكانت آخر محطة لجميع القوات الإمبراطورية. آخر مكان كانت الفياق الإمبريالية تتمازج فيه في تنوع مذهل وسط مشهد غرائبي عن حق. أثناء السنوات الأولى للحرب، كان بالإمكان رؤية جميع الأزياء العسكرية الإمبراطورية بالقاهرة: الكيلتات الإسكتلندية، والعمام، والطرايش، والقبعات المترهلة وينطولونات ركوب الخيل. كان هناك الكينيون الذين يمهدون الطرق، والبقالون الهنود، وأطقم دبابات أستراليا، ومدفعيون إنجليز، وقائشو طائرات مقاتلة من نيوزيلندا، ومهندسون من جنوب إفريقيا.. ظلت القاهرة، ظاهرياً، مدينة إمبراطورية لمدة ستين عاماً، وعلى الرغم من أن مصر كانت قد نالت استقلالها اسمياً عام ١٩٣٦، وكانت محايدة رسمياً في الحرب، فقد كانت العاصمة بأكملها، في واقع الأمر، قاعدة عسكرية بريطانية. من الطريف أنه كان ثمة أغنية هزلية اعتاد جنود الإمبراطورية ترديدها ببارات القاهرة وتكنااتها وأثناء الحرب. تقول كلمات الأغنية: إنه على الرغم من أنهم لم يبرحوا أماكنهم أبداً، ولم يذهبوا أبعد من منطقة الجزيرة والأهرامات، وأنهم خاضوا الحرب وهم جالسون ببارات شبرد والكوينتنال، إلا أنهم مُنحوا نيشان نجمة إفريقيا.

كان هذا هو المشهد عام ١٩٤٢ حينما وجد السير مايلز لامبسون السفير البريطاني أن عليه التعاطى مع فعل تمرد أتى به الملك فاروق، الذي اعتاد السفير أن يشير إليه به «ذلك الولد، أو الصبي» (كان فاروق في الثانية والعشرين). رفض فاروق تعيين النحاس باشا رئيساً للوزارة الجديدة التي كان لامبسون قد اقترحها. خير لامبسون، بدعم من تشرشل رئيس الوزراء البريطاني نافذ الصبر، والذي كان في حاجة ماسة إلى تحقيق انتصار في شمال إفريقيا، خير الملك بين التنازل عن

العرش أو الخضوع. تصادف وجود وولتر مونكتون ، المحامي الذى صاغ عريضة تنازل الملك إدوارد الثامن عن العرش، تصادف وجوده بالقاهرة. أقنع لامبسون مونكتون بصياغة عريضة مماثلة تم نسخها على الآلة الكاتبة على ورقة من أوراق السفارة، قُصَّ بأسلوب مرئى جزؤها الأعلى المكتوب عليه اسم السفارة.

وصل لامبسون فى سيارته الرولز رويس الفارغة إلى قصر الملك ترافقه حاشيته بأزيائهم الرسمية، وهو يحمل الورقة فى يده حيث أبقاه الملك ينتظر خمس دقائق كعادته كدلالة على استقلاله. كانت تلك لحظة لا تُنسى بالنسبة للامبسون ، ذلك الرجل الضخم، الذى كان طوله يقارب المترين، له بنية مصارع ، وكان صياداً وراقصاً، وخبيراً، وحتى طياراً لا يعرف الكلل. كان يسكن ، كإسلافه من نوى السلطان، فى قلعة اللورد كرومر. والآن، كان السير مايلز فى سبيله لاستعراض سطوته بأكثر الأساليب فجاجة (كتب فى مذكراته يقول "لا تتاح للإنسان كثيراً فرصة إزاحة ملك عن عرشه") .

بدأ لامبسون يقرأ لائحة الاتهام موجهاً إلى الملك تهمة مساعدة النازيين (الذين بدوا ، لحظة ذاك، وأنهم يكسبون)، وأضاف أنه ، وعلى أية حال، ونظراً لسلوكه الأرعن المشهور «لم يعد صالحاً للجلوس على العرش». ثم، وعلى وقع جلبة العربات المصفحة والدبابات وهى تصل إلى فناء القصر، سلم فاروق عريضة التنازل التى كان نصها «نحن فاروق، ملك مصر، ولحرصنا على الدوام على مصالح بلدنا، نتنازل بموجب هذه الوثيقة، ونتخلى ، بالنسبة لنا ولورثتنا من صلبنا، عن عرش مملكة مصر، وعن جميع الحقوق والامتيازات والسلطات الملكية على المملكة المذكورة وعلى رعاياها، ونعفى رعايانا المذكورين هنا من الولا لشخصنا».

وبعد أن اشتكى من مظهر الوثيقة غير اللائق، رفع فاروق قلمه ليوقعها. توقف، وقد اهتز بوضوح، وسأل عما إن كان بالإمكان منحه فرصة واحدة أخرى. وهكذا انتهت الدراما بإتخاذ الملك عرشه من خلال الموافقة على تعيين وزارة يرضى عنها

البريطانيون ، وبذا خسروا إلى الأبد احترام شعبه. وبعد أن مر وسط الدبابات والجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة، عاد لامبسون إلى سفارته شخصاً منتشياً. جاء في تقريره إلى لندن «يكفى هذا القدر من أحداث مصر التي أُعترف أنها كانت هتعة لا تعادلها أية متعة أخرى بالنسبة لي». رد عليه وزير الخارجية أنطوني إيدن «أهنتك من كل قلبي.. تبرر النتيجة أسلوبك الحازم، وثقتنا بك». أما فاروق فقد تقلص ليصبح زير نساء يتذكره الناس لبدانته وحياته الداعرة، ومقولته بأنه لن يتبقى في العالم سوى خمسة ملوك، أربعة ملوك كوتشينية وملكة إنجلترا. ثم أتى وقت الحساب عام ١٩٥٢، حينما أطيح بعرش فاروق من خلال ثورة قام بها الجيش المصري حيث كان خضوعه الجبان للسفير البريطاني مازال ماثلاً كذكرى مهينة.

الفصل الثانى

سطوة الإمبراطورية يخطط لها زوجان
فردريك چون ديلتري لورد لوجارد أوف أئينجر

(١٨٥٨ - ١٩٤٥)

وفلوراشو ليدي لوجارد

(١٨٥٢ - ١٩٢٩)

قال الفيلسوف والمؤرخ بيرك بوجود ثلاث سلطات مرثية في البرلمان؛ لكن كان ثمة سلطة رابعة تجلس في شرفة المراسلين، أهم منها جميعها بكثير. ليس هذا مجازاً أو مقولة طريفة بارعة، إنها واقع حَرْفِيٌّ – واقع بالنسبة لنا في هذه الأيام.

– توماس كارلايل، من محاضراته بعنوان

"البطل ككاتب ١٩ مايو ١٨٤٠"

وفى بداية العصر الفيكتوري، كانت الكلمة المكتوبة قد تبدت بكل سطوتها، تلك الكلمة التي تدفقت بقوة وعنفوان وانتشرت من حافة كورنول إلى الجزر الإسكتلندية. ليس هذا مجازاً، أو مقولة، طريفة بارعة، بل إنها واقع حُرُفي. لم يميز أى شعب البريطانيين من حيث ولعهم بالصحف. أثبتت متتالية من الأحداث - إلغاء قوانين الطوايع والدمغات (التي شُجبت بوصفها "ضرائب على المعرفة")، مَقْدَم البرق والسكك الحديدية، اختراع المطبعة النّوّارة، وأهم من ذلك محو الأمية شبه الكامل - برهنت على أنها هدية من السماء للكتاب الفيكتوريين وأصحاب الأعمال الذين يوظفونهم. استمر هذا الولع بالكلمة الصحفية وثابراً. بعد قرن من محاضرة كارلايل، أثبتت استطلاعات الرأى والمسوحات أن ٩٠٪ من السكان البريطانيين يقرأون بانتظام صحيفة يومية قومية واحدة على الأقل - أى ضعف أمثالهم من

الأمريكيين وثلاثة أضعاف الفرنسيين. وفي وجود ثلاثين مليون نسخة من الصحف يومياً بالاكشاك أو على عتبات المنازل عام ١٩٥٧ (مضافاً إليها بضعة ملايين أخرى أيام الأحد) كان بإمكان فرانسيس وليمز خبير شارع الصحافة (Fleet Street) بلندن أن يزعم أنه لم يحدث وأن حقق أى نتائج آخر للحضارة الحديثة مثل هذا الإغراق الكامل لسوقه المحتمل.

اعتمد توسع الإمبراطورية الفيكتورية منقطع النظير بأسلوب حاسم على ثورة المعلومات مبكرة النضج ببريطانيا.. أرست التايمز معدل التقدم والسرعة.. عام ١٩٣٧ ومن أجل الإسراع بالأخبار من أوروبا، نظمت بريداً بالحمام الزاجل ينطلق من باريس إلى سفينة ترسو بالانتظار في بولونيا (كانت الطيور تقطع المسافات في أربع ساعات مقارنة بالأربع عشرة ساعة التي كان يحتاجها المراسلون البشر).

آنذاك، كان الحصول على تقارير من كلكتا عاصمة الحاكم البريطاني يستغرق حوالى أربعة أشهر، وأمكن للتايمز تقليص هذه المدة إلى سبعة أسابيع باستخدام طريق أرضى قصير من السويس إلى سيناء. ثم ينخل البرق إلى المشهد، وكان ذلك تطوراً خطيراً بالنسبة للسلطة الرابعة مماثل اختراع جوهان جوتنبرج للطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة. عام ١٨٤٤، أدهشت التايمز قراها بنقل أنباء ولادة ثانى أبناء فيكتوريا بونديسور فى غضون أربع ساعات باستخدام نظام البرق الجديد بمحطة سكك حديد جريت وسترن. وفى عام ١٨٥١، أى عام "المعرض الكبير" عبّر القناة بالإنجليزية كابل تحت الماء، ومنذ آنذاك مضت الوصلات التلغرافية تتمدد بثبات فوق الأرض لتصل إلى روسيا والهند، وتحت البحار إلى سنغافورة والصين واليابان، وعبر الأطلسى إلى شمال أمريكا وجنوبها، وفى النهاية، إلى قلب إفريقيا. أضفيت القداسة الطقوسية على هذا التجمع الإمبراطورى الموصول بالأسلاك يوم ٢٢ يونيو ١٨٩٧، فى العيد الماسى لفيكتوريا. بعثت الملكة وهى جالسة بغرفة البرق بقصر باكينجهام خلال ثوانٍ برسالتها إلى جميع أجزاء مملكتها مترامية الأطراف: "من قلبي، أشكر شعبى فليباركهم الله" احتفت به التايمز عيداً بريطانياً كونياً وهلت له. جاء بافتاحتها "بالإمكان تفحص التاريخ، وتفحصه نونما جدوى، من أجل اكتشاف مثل هذا العرض المذهل للولاء والأخوة بين هذه الأعداد الغفيرة والتنوعات التي لا تحصى من البشر".

لكن لم يكن تأثير التايمز يعزى بقدر كبير للتكنولوجيا، أو الرسومات والصور الأسيرة. بل على العكس، فقد كانت تتجنب العناوين البراقة الخاطفة.. وحقاً، فقد نشرت فى ثلاثينيات القرن العشرين بعضاً من أكثر العناوين رتابة (زلازل صغير فى شيلي: وفيات قليلة). وحتى ستينيات القرن كانت صفتها الأولى تتألف من نثرات الحياة اليومية - المواليد، الزيجات والوفيات؛ رسائل شخصية مشفرة ورزينة؛ وإعلانات مبهوبة. بيد أن ما اعتادت أن تقدمه بوفرة كان هو مصادرها

الموثوقة ومرجعياتها، رواياتها الخاصة للأحداث. لم تكن الأخبار التي تنشرها
والأحكام التي تصدرها تحمل أية توقيعات، وبدت وأنها كانت تتبع من مصدر ما
فى السماء. وكان مراسلوها بالخارج يلقون معاملة شبه ملكية، وتتاح لهم دون
هيرهم، فرصة الوصول للنخب وصناع القرار الحاكمة. مثلاً، تمكن هنرى جورج
ستيفان أدولف أوير وبلوتيتز، الذى عمل مراسلاً للصحيفة بباريس لثمانية وعشرين
عاماً، من اختراق حائط السرية الذى أحاط بمؤتمر برلين عام ١٨٧٨، وذلك بزرعه
مصادر موثوقة نافذة فى ذلك المؤتمر. اجتمعت القوى العظمى لتناقش فى سرية
تامة "المسألة الشرقية" المقلقة، والممعة فى القدم؛ وعلى الرغم من ذلك كان بلوتيتز
يرسل لصحيفته تقارير يومية عما يحدث خلف الأبواب المغلقة. تَوَجَّ انتصاره بأن
أبرق النص النهائى غير المنشور لمعاهدة برلين، وتم نشره حصرياً بالتايمز (فيما
بعد، زعم بلوتيتز أنه، وشخص داخلى مطلع، كانا يتبادلان القبعات بأحد المطاعم
الراقية، حيث كان مُخْبِرُه يخبئ الأخبار اليومية فى قاع قبعته). وفى أمريكا، رحب
إبراهيم لنكون أثناء الأشهر الأولى من الحرب الأهلية بوليام هوارد راسل مراسل
الصحيفة الحربى الأسطورى، ووصف التايمز بأنها "إحدى القوى العظمى فى
العالم".

من ثم كان اهتمامنا فى هذا الكتاب، بقلوبنا شو التي تركت بصمتها، مجازياً
وحرفياً، على الإمبراطورية البريطانية. حدث ذلك إبان عملها محررة التايمز
الكولونiale ومراسلتها الخاصة فى المستعمرات التي كانت تغطى إفريقيا من
القاهرة وحتى الكيب... أثناء هجراتها وتنقلاتها حازت إعجاب اللورد كرومر،
والفايكونت ميلنر، وسييسيل رودرس، وجورج جولدى، وأيضاً اللورد لوجارد
البروقنصل الذى تزوجته فيما بعد، وصادقتهم جميعاً. حينما سمع اللورد كيرزن
بخطبتها للوجارد ارسل له تهنئة سريعة متسائلاً "أهى ميس شو؟" ثم أضاف "لو
أنها غيرها أتمنى أن تكون بمثل ذكائها وألا تقل عنها سحراً". لكنها كانت هى

ذاتها، تلك التي وصفت بأنها أكثر نساء الإمبراطورية البريطانية ذكاء، والتي نجحت في تبوء مكانة بالسلطة الرابعة أعلى من أية امرأة معاصرة لها. كانت أول من سجل اسم "تيجيريا" طباعة، حيث أصبح زوجها فيما بعد المندوب السامي المؤسس بذاك البلد. مثل كتابها "تبعية كلونيالية Colonial Dependency" أول محاولة بريطانية لتسجيل التاريخ الإفريقي قبل وصول الأوروبيين.. وعلى الرغم من أن مؤلفته كانت "سيدة رفيعة المقام من الإمبراطورية البريطانية Adame of the British Empire" (وهو لقب خُلق عليها لعملها مع اللاجئين أثناء الحرب العالمية الأولى)، وأيضاً على الرغم من تبنيها منظور "الرعاية الأبوية" البريطانية المتفطرس للشعوب الإفريقية، فقد ألهم كتابها أبطالاً أفارقة محررين مستقبليين من أمثال نعامدي أزيكوي أول رئيس لنيجيريا، وكوامي نكروما، أول رئيس لغانا.

يبدو أن الحادث الدامغ في تاريخ ميس شو كان هو تورطها المحوري في اجتياح الترانسفال سبي السمعة عام ١٨٩٥ الذي قاده القرصان المغامر لياندر ستار جيمسون، الذي عرفه التاريخ باسم "جيمسون المغير". وعلى الرغم من كل تعاليلها وترفعها، أظهرت التايمز استعدادها لمقايضة خدماتها العملية نظير وعد بحصرية نشر أخبار ذلك الغزو في العالم على حساب منافسيها. كانت المحررة الكولونيالية شو معجبة بجوزيف تشامبرلين وزير المستعمرات النشط وكانت هي محل إعجاب. وبدون شك، تورطت هي وصحيفة التايمز في مؤامرة سرية أوعز بها تشمبرلين، إضماراً أو تصريحاً، للقيام بتغيير نظام البوير في جمهورية الترانسفال بالقوة. فشلت الخطة فشلاً ذريعاً مخزياً، وجاءت قصة بريطانيا الدرائعية الرسمية مهلهلة غير قابلة للتصديق مستبقة بذلك رطة السويس الأكثر كارثية عام ١٩٥٦. بيد أن ميس شو خرجت من مأزقها بأن أبدت شجاعة وصراحة أكثر من رؤسائها. ويبدو أن قدر ميس شو على أرض الواقع، كان هو تصنيع القواعد المناسبة لإقامة التماثيل الإمبريالية عليها. كان جلاستون قد تنبأ في ثمانينيات القرن التاسع

عشر، بأن توغل بريطانيا جنوباً في إفريقيا هو التمدد الطبيعي الذي لا مفر منه لتواجدها الإمبريالي بمصر والهند إذ إن ضمان المرور الآمن شرقاً كان يتطلب حضوراً بريطانياً من الكيب وحتى القاهرة.

٨٠ حققت فلوراشو، التي ولدت عام ١٨٥٢ في العالم الفيكتوري، ذروة عملها الصحفي في العقد الأخير للملكة فيكتوريا الذي شهد توسعاً سريعاً للإمبراطورية؛ واستمر نفوذها وتأثيرها أثناء العصر الإنواري حيث أصبحت، بعد زواجها، اللبدي لوجارد. توفيت عام ١٩٢٩ في عصر إنجلترا الجورجي الثاني، الذي شهد بداية الانحسار الإمبريالي والذي كان الشاعر كيبلنج قد تنبأ به. في الهند، بدأ المهاتما غاندي، الذي كان قد عمل في حمل نقالات الموتى والجرحى أثناء حرب البوير (التي ساعد جيمسون المنغير على حقها)، بدأ حملة شعبية للمطالبة بالاستقلال التام. أما في أيرلندا، حيث كان جد شو لأبها يمتلك ضيعة بالقرب من دبلن، فقد أجبرت انتفاضة قومية البريطانيين على القبول بتقسيم الجزيرة إلى دول حرة في جنوب ذات غالبية كاثوليكية، ومعدل للبروتستانت المتشدد في الشمال. لم يمثل أي من هذا مفاجأة للصحفية البقلة التي كانت قد ارتحلت في جميع أنحاء الإمبراطورية وهي ترسل إلى الوطن تقارير وتغطيات صحفية لكبريات صحف زمانها، من مصر، المغرب، جنوب إفريقيا، استراليا، كندا، كلوندايك وغرب إفريقيا. مما لا ريب فيه أن شو كانت أكثر تأثراً من شهرات الرحالة السيدات الفيكتوريات - ماري كينزلي، إيزابيلا بيرد، جين ديجبي - اللاتي يفضلن كتاب السير، وقد يُعزى هذا إلى أن أسفارها كانت رحلات عمل، لا للمغامرة. بيد أنه وأثناء ذروة عملها كصحفية، انتزعت شو أكثر دلالات عصرها الأكيدة على ذبوع الصيت، أي: رسم كاريكاتيري لها في دورية بنش Punch.

كانت عائلتها تنتمي إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى. كان جدها، السير فريدريك شو عضواً بالبرلمان يمثل ملاك الأراضي الأنجلو/ أيرلنديين البروتستانت،

وعضوا قائدا في حزب المحافظين الذي كان يترأسه السير روبرت بيل .. تقاعد والدها، جورج شو من الكلية العسكرية الملكية ببوليتش برتبة لواء. أما أسلافها من ناحية الأم فكانوا كاثوليك وفرنسيين. وبعد حملها في أربعة عشر طفلاً، مرضت والدتها، وتولت فلورا تريضها حتى وفاتها.

كانت فلوراشو نفسها قارئة نهمة بمكتبة ووليتش وعلمت نفسها بنفسها. وكمثال على سطوة الكتب على مخيلتها الشابة، كانت شو تروى كيف انها تسلفت شجرة تفاح ومعها كتاب جديد : الثورة الفرنسية لكارلايل: تسلفتُ أعلى الشجرة وأنا ملكية من حزب المحافظين، وهبطتها وأنا ديمقراطية متحمسة.

ورغم ملاحظة ملامحها ودقتها، وشعرها البني المحمر، وعينيها الرزقاوين الصافيتين، وقوامها النحيل، لم تتزوج شو طوال تسعة وأربعين عاماً. وكان يمكن لوضع امرأة كهذا في أواسط العصر الفيكتوري أن ينتهي بها لتصبح مربية أطفال، أو رفيقة لشخص مسن لولا مرشدها ومعلموها المرموقون، الذين كان من بينهم جون راسكين وجورج مريدث. التقت راسكين عام ١٨٦٩، في أوج شهرته، حينما ألقى محاضرات ببوليتش، قبيل محاضراته الافتتاحية التاريخية باكسفورد كاستاذ للفن التي ألقاها في فبراير ١٨٧٠. في خطابه هذا الذي عمل على حفز جيل كامل استنهض راسكين عزيمة شباب إنجلترا بقوله "اجعلوا بلكم مرة أخرى عرشاً مهيئاً للملوك، جزيرة حاملة للصولجان، مصدر إشعاع للعالم أجمع، مركزاً للسلام، سيدة العلم والفنون.. هذا ما يجب ان تفعله إنجلترا، أو تهلك. عليها إقامة مستعمرات بأسرع ما في استطاعتها وعلى أبعد مسافة ممكنة، يكونها أكثر رجالها جدارة ونشاطاً؛ عليها الاستيلاء على كل قطعة تستطيع وضع قدمها عليها وتعليم رجالها المستعمرين أن فضيلتهم الأولى هي ولاؤهم لبلدهم، وأن هدفهم الأول هو الدفع قدماً بسطوة إنجلترا براً وبحراً".

كان الصغار ممن يتميزون بالوسامة يجذبون نظر راسكين ولم تكن فلورا ذات

السبعة عشر ربيعاً استثناء حيث قام بتشجيع محاولاتها الأولى للكتابة - ثلاثة كتب أطفال ناجحة، تبعها رواية للكبار بعنوان "حملة الكولونيل تشريك". كانت كتاباتها قد أكسبتها استقلالاً مالياً حينما قام جورج مريدث بتقديمها إلى دبليو. تى. ستيد ولهصفاً بإيها بأنها "أجمل زهرة بين الفتيات المعاصرات" وبأنها "تملك قدرة الرجال على التفكير المنطقي". كان ستيد محرر *البلبل* جازيت، والذي التقيناه من قبل، ابن رجل دين مستقل. فيما بعد، غرق دبليو. تى. مع السفينة تياتانيك بهدوء، وهو يقرأ إنجيله في صالون الدرجة الأولى بالسفينة. عملت الجازيت، برسوماتها وصورها، وعناوينها اللافتة، وأسلوبها الجذاب المقروء، على الدفع قدماً بحملات ستيد الحماسية من أجل دعم الإمبريالية المستولة بالتقابل مع الشوفينية الوطنية".

اقترن حماس ستيد التنافسى للسبق الصحفى بولائه الزخم لمن يضمهم تحت رعايته، وكان من بين هؤلاء ألفرد ميلنر المدافع الشرس عن الإمبريالية، والذي تولى فيما بعد منصب المندوب السامى بجنوب إفريقيا، وأيضاً فلورا شو. فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت الإنجازات الشهيرة للمراسلة الصحفية الأمريكية، نيلى بلاي، والتي كانت تبعث بتقاريرها من أرجاء الكوكب، قد بدأت تفتح الطريق فى مجالات العمل الصحفى للنساء، هذا على الرغم من الاستياء الذى قابلهن به كثير من زملائهن الرجال. لكن ستيد كان استثناء. فى مقال له بمجلة *Young Woman*، أعلن جازماً أن المرأة التى تأتى مجال الصحافة متوقعة التساهل بسبب نوعها نسىء إلى "سمعة زميلاتنا بالمهنة وإلى جدارتهن". قال أيضاً إن على المراسلة الصحفية التعود سريعاً على اللغة البذيئة، وعلى توبيخ رؤسائها العنيف، وعلى المهمات المهيئة، والعمل ليلاً نوماً رفيق يرعاها. قال "من حقك المطالبة بالآ يكون نوعك عاملاً غير مؤهل، لكن من المعيب وغير المنطقي أن تجعلك من حقيقة أنكن إناث حقاً للحصول على فرص تُنكر على إخوانكن".

قبلت فلورا شو التحدى واستغلت الفرصة. فى شتاء ١٨٨٦-١٨٨٧ وأنشاء

قضائها عطلة بجبل طارق مع عائلة يونجهازباند أصدقاء عائلتها، أجرت حواراً مع زبير باشا تاجر الرقيق سيئ السمعة وحاكم السودان الإقليمي الذي اضطهده الجنرال جورديون في البداية ثم عفا عنه. كان البريطانيون قد ركلوه مؤخراً لجبل طارق بعد أن عثر أحد رجال شرطة مكافحة النشل بالقاهرة على خطابات تدينه تبادلها مع أتباع المهدي. وبعد أن شقت فلورا طريقها إلى "الكوخ المنعزل" الذي كان محتجزاً به في رحلة استغرقت منها أسبوعاً. وجّهت إلى زبير، الذي كان يعاني من ألم بأسنانه أسئلة عن موضوع الرق. بعد ذلك ظهر بالصفحة الأولى من عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٧ من الليل مل جازيت العنوان التالي: حوار لصحفية مع رئيس قبيلة "سجين". بعد توجيهها أسئلة مباشرة إليه، أنكر زبير باشا العمل بتجارة الرقيق أبداً. وبعد النشر، أبحر زبير عائداً إلى القاهرة بعد أن تم الإفراج عنه واعترف لشو بالفضل في إطلاق سراحه. أما هي، فقد أرسى حوارها معه الذي نشر بالصفحة الأولى صيتها كصحفية.

أثناء زيارة لها لمصر في شتاء ١٨٨٨-١٨٨٩، تركت فلورا شو بطاقتها الخاصة مع سير إيفلين بارينج الذي دافع لها بطلاقة عن الفوائد الاجتماعية للإمبريالية كما أمدّها أيضاً بموجز عن الإصلاحات المالية بمصر. استخدمت شو هذا الحديث، مادة لمقالها الاستهلاكي بالتايمز (لدى قراءته المقال، صاح آرثر وولتر مالك الصحيفة قائلاً: "أيا من كان كاتب هذا المقال فهو من النوع الذي يجب أن يُعيّن بالتايمز) وحينما تعاقدها معها مويرلي بل عام ١٨٩٠، والذي كانت قد التقت به بمصر حينما كان مراسلاً خاصاً للتايمز، أرسل له بارينج المذكرة التالية "أعتقد أن ميس شو قد انضمت الآن إلى العاملين معك. سيكون أدائها جيداً، ربما أفضل من أي رجل - لكنني لا أدري ما إن كان هذا سيناسبك". وافق بل، الذي كان قد أصبح المدير المساعد للصحيفة بمقرها الرئيسي بلندن، بارينج على رأيه. وحينما طلب منها أن تكتب عموداً نصف شهري كصحفية مستقلة، علّق بالقول "لو أنك رجل لأصبحت محرر التايمز الكونيالي غداً".

تجنبت فلورا الجيتوهات الأنثوية المعتادة - عمود الاجتماعيات والمراجعات الفنية - كانت قد قررت أن يكون نطاق عملها الشؤون الخارجية والتعقيدات المالية والدولية . اعتقد ستيد نو الأسلوب المتوجع أن كتاباتها كانت بالغة الحدة. الأهم من ذلك كان موقفها التوسعي يتسق مع توجه التايمز الإمبريالي ومن ثم أصبح تواجدها بالمكتب الكولونيالي "مكتب المستعمرات" أحد ثوابته. فيما بعد، أوجزت في خطاب إلى زوجها دورها بالقول إنه كان "تجوالاً برفقة أسود؛ لم أفكر أبداً في عملي على أنه صحافة على وجه التحديد، بل الأخرى كعمل سياسي نشط، منقرض منه الشهرة. على أية حال، لا تهمنى الشهرة، لم أعرها اهتماماً قط. بل إننى أظن أن هذه هى النزعة الطبيعية للعقل الأنثوى. يتم تنشئتنا بهذا الأسلوب - أن نتجنب لفت الانتباه العام، لا أن نسعى إليه".

ولكى تضمن أن يأخذها الناس على محمل الجد كانت ترتدى اللون الأسود دائماً (انتقلت للون الأبيض فجأة لدى اعتزالها وزوجها) . أخفى توقيع "مراسلنا" الذى كان يُرفق بكتاباتهما جنسها .. كتبت مارجرى برهام، مؤرخة سيرة اللورد لوجارد زوج فلورا قائلة عنها "لم تستغل أبداً أنوثتها طريقاً قصيراً لتحقيق أهدافها المهنية. وعلى الرغم من ذلك، فقد بدا أن جمالها، وبخاصة دفء مشاعرها الذى كان يجد منفذاً من عينيها المعبرتين ويخترق تحفظها وسلوكها الوقور، بدا وأنه يضيف توجهاً على أنشطتها الفكرية المحضة.. كان الرجال الذين يحتلون المناصب العامة يشعرون بالدهشة للسهولة التى يفصحون بها عن المعلومات الرسمية لمحاوره صحفية كهذه". لكن تعليق معاصرتها مارى كينجزلى، الكاتبة والرحالة، على منافستها جاء أقل إعجاباً وإشادة قالت عنها "شابة أنيقة وسيمة ذكية مستقيمة، تُجسد مهارة أدائها حُسنَ تدريبها بأفضل صورة، قادرة على إنجاز أى كم هائل من العمل، صلبة حادة كالسماير، ودائماً ما تتحدث مثل قيادات التايمز. مُشبعه هى بالنسخة الجديدة من الإمبريالية العامة. إنها دينها".

كان كبار المحررين البريطانيين في زمن فلورا شو - مثل ستيد، بل، وسي بي. سكوت رئيس تحرير المانشستر جارديان - يتساهلون في مزج الوقائع بالأراء بأكثر مما هو شائع اليوم في التقارير الصحفية. وعلى الرغم من أن متوسط توزيع التايمز في تسعينات القرن العشرين لم يتجاوز خمسة وثلاثين ألف نسخة إلا أن تأثيرها كان واسع النطاق. وفي عصر الإمبريالية الجديدة، تبنت رسائلها الصحفية وكذلك تعليقاتها، التوسع، في إفريقيا بخاصة بالتحالف مع فرنسا، والحفاظ على تفوق البحرية البريطانية، وعلاقات أوثق مع روسيا، واحتواء ألمانيا. ومن الأمور الكاشفة أن اعتبر القيصر ويلهم الثاني رئيس تحرير التايمز موبرلي بل أخطر عدو بريطاني له.

حُثَّ شو موبرلي بل على أن تقوم التايمز بتغطية المستعمرات. وبجهدهما المشترك اتسع نطاق الصحيفة، وأثناء فترة عمل فلورا بالتايمز في تسعينات القرن التاسع عشر، غدت الصحيفة لسان حال الإمبريالية الجديدة. أدت مجموعتها "خطابات من جنوب إفريقيا" والتي نشرت فيما بعد في كتاب، إلى تثبيتها عضواً كاملاً بهيئة تحرير الصحيفة وسافرت إلى أستراليا وأمريكا الشمالية. كانت شو قد ذهبت عام ١٨٩٢ في رحلتها الأولى إلى الجنوب الإفريقي، وكانت أول محطة توقفت بها في طريقها هي مستعمرة الكيب التي كانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد أنشأتها عام ١٦٥٢، ثم منحتها لبريطانيا معاهدة السلام عام ١٨١٥ التي أنهت حروب نابليون. وفي غضون عقود كان للمستعمرة برلمان ورئيس الوزراء. في عام ١٨٩٢، كان سيسيل رودس، المغامر، وصاحب مناجم الماس والذهب هو من يحتل هذا المنصب، ويصفته هذه دعا الصحيفة شو لحضور افتتاح البرلمان. وسرعان ما أصبحت ضيفاً مرحباً به في قصر الحكم. كتبت تقول "ثقة الجميع المطلقة بالمستر رودس واعتمادهم عليه أمر مدهش".

سافرت شو بالقطار إلى كيمبرلي، وجالت في منجم دوبييرس للماس على عمق

كبير وهي تحمل شمعة في يدها وحكمت عليه بأنه "دير للعمل". وجدت جوهانسبرج، العاصمة التجارية لبوير الترانسفال "بشعة وبغضة، رفاة بونما نظام، متعة حسية بدون فن، ثراء بونما رقي، واستعراض بدون وقار أو كرامة". رأتها مدينة "بلا سياسات، شغلها الشاغل هو المشاكل المادية". كتبت تقول إن الجمهورية "متخمة بالثروة، الذهب، النحاس، الفضة، الفحم، جميعها ملقاة على الأرض في كل مكان. ومن أجل إرسالها للخارج، لابد من بناء خطوط للسكة الحديد وإنشاء محطات مياه، وغرس الأشجار والغابات من أجل الأخشاب، وبناء الطرق". أجرت شو حواراً مع بول كروجر رئيس الترانسفال بقمصره في بروتوريا في السادسة والنصف صباحاً (من الواضح أنه ظن أنها رجلاً متخفياً). وفي إيجاز لزيارتها كتبت قائلة إنه في جنوب إفريقيا "أصبحت الآلة البخارية أداة للإمبراطورية أكثر فاعلية من المدفع".

وفي الواقع، فإن التنافس من أجل إقامة خطوط للسكك الحديدية كان آنذاك ما أصبحه التدافع، في مرحلة لاحقة، من أجل الفوز برسم خطوط الطيران. كان حلم رودس هو إنشاء خط سكك حديد القاهرة/الكيب، الذي كان سيطلق عليه اسم "الخط الأحمر" ويخترق القارة من شمالها إلى جنوبها (كان اللون الأحمر هو المخصص للممتلكات البريطانية على الخرائط). لكن العوائق الطبيعية والسياسية أفشلت خطته. وبغداد الذي لم يكتمل أبداً. كما انفتحت روسيا الملايين على خطوط حديدية تخترق سهول الاستبس وسيبيريا بيد أنه وقبل الحرب العالمية الأولى، كان الأوروبيون قد جزأوا الخطوط الحديدية بالإمبراطورية وفقاً للحدود التي رسموها استباقاً لخلق الدول شرق الأوسطية الجديدة بعد انتهاء الحرب.

أصبحت شو، عام ١٨٩٣، محررة التايمز لشئون المستعمرات بعرتب كان يفوق ما كانت تتقاضاه أية صحفية أخرى وقدره ٨٠٠ جنيه إسترليني سنوياً. وبمنصبها

هذا، اكتسبت سلطة تعيين جميع المراسلين بالمستعمرات. لكنها بعد عامين وقعت في ورطة مغامرة إمبريالية فاشلة "غارة جيمسون" التي اعتقد ونستون تشرشل، كما كتب لاحقاً، أنها كانت علامة بداية "أزمة العنف" التي بلغت ذروتها في الحرب العظمى.

ما زالت هناك تساؤلات مبهمة عن غارة جيمسون، تلك الهجمة المجهضة التي شنتها تشكيلة من القراصنة وقطاع الطرق بتمويل من رودس بهدف الإطاحة بحكومة جمهورية الترانسفال بيد أنه، قد أصبح بالإمكان الآن، وبالا اعتماد على مصادر متنوعة، ترتيب الأجزاء المفككة، لتكشف خطة متكاملة لتلك الهجمة. مثقلة هي تلك الواقعة بالمادة الدرامية - قرارات مصيرية مؤسسة على استخبارات خاطئة، متآمرون مرموقون يحتلون أعلى المناصب؛ كباش فداء طوعيين، محامون مبتزون، وفي النهاية، استجواب برلماني عرّض مناصب كبيرة للأخطار، ودمر سمعة آخرين. عبرت عن ذلك مارجوري پرهام، الخبيرة في الشؤون الإفريقية والمعجبة بفلورا شو، قائلة "كانت الغارة فشلاً عسكرياً، لكنها كانت زلزالاً سياسياً". بين الشخصيات الأساسية المتورطة كانت ميس شو، موبرلي بل، وفرانسيس يونجهازيندن مراسل التايمز بجنوب إفريقيا وقريب عائلة صديقة لشو كانت معهم حينما حاورت زبير باشا تاجر الرقيق.

كان إخضاع الممالك الإفريقية التي شكّلت فيما بعد رودسيا (زيمبابوي اليوم)، هو الذي مهد لتلك الغزوة. بموجب صك امتيازات ملكي، كانت شركة جنوب إفريقيا البريطانية التي كان يملكها رودس قد استولت بواسطة ميلشيا خاصة مسلحة بمدافع مكسيم الرشاشة على مرتفعات ماشونالاند وماتابيلاند الخصبة في عملية وصفها مؤرخو رودس بأنها كانت مزيجاً من محاكاة ساخرة للمؤتمرات الكبرى والمصالح الذاتية الأنانية. بعد الغارة، بقي جيمسون هناك مبعوثاً لرودس في ساليسبري، العاصمة الجديدة التي أطلق عليها اسم رئيس وزراء الملكة فيكتوريا

حينذاك.. وبعد أن أثبتوا ما بمقدور قوة من المرتزة إنجازة في إفريقيا الجنوبية بدأ من المعقول أن باستطاعة رجال جيمسون الاستحواذ على جائزة أعظم من خلال تغيير الأنظمة في إقليم الترانسفال الثرى بالموارد المعنوية.

^{٩٠} بالإمكان الآن ذكر الوقائع الأساسية بإيجاز محكم. بعد اكتشاف الذهب في ويتواترسراند بالقرب من جوهانسبرج عام ١٨٨٦، تدفق الآلاف من الأجانب الأجلاف، البريطانيين في غالبيتهم، على إقليم الترانسفال. أُسْمِيَ الأفريكان (مستوطنى جنوب إفريقيا من الأوروبيين) هؤلاء Uitlanders أو الأجانب. وبمجرد أن استقروا في مدن الأكواخ انضوى هؤلاء تحت سلطة حكومة البوير برئاسة كروجر في بريتوريا. بحلول عام ١٨٩٥، ساد الاعتقاد (أو الأمل من جانب رودس وداعميه) بأن هؤلاء الأجانب كانوا على وشك التمرد وتوقعوا أن تكون الشرارة المزعومة هي رفض البوير منحهم المواطنة وحقوق التصويت.

كانت الخطة التي تم الإعداد لها بكيب تاون، ومولها رودس؛ وشجعها (كما هو ثابت الآن) جوزيف تشامبرلين وزير المستعمرات، تقضى بالإطاحة بحكومة البوير ثم إقامة نظام بديل أكثر ملاءمة لمصالح الأجانب، وملوك المناجم والبريطانيين. وفقاً لتلك الخطة، كان على جيمسون - الذى كان متموضعاً في بيتساني بإقليم بتشوانالاند المجاور - لدى سماعه أنباء عن انتفاضة للأجانب، التوغل بقواته في الترانسفال فيما يستولى الأجانب على ترسانة الأسلحة بريتوريا. حينذاك، يقوم السير هركيوليس روبنسون، المنوب السامي البريطانى بجنوب إفريقيا، باستعادة النظام والتفاوض على تسوية في بريتوريا تخدم مصالح رودس والبريطانيين.

ديسمبر ١٨٩٥. الدكتور جيمسون، رجل صغير الحجم، تعبيره مازح، عيناه بنيتان متسعتان، ينتظر بفروغ صبر في خيمته البيضاء أعلى تل صغير يطل على

المروج الرائعة المتسعة في بيتساني على بعد ثلاثة أميال من الترانسفال. في يوم الأحد ٢٩ ديسمبر، ينطلق نفير بوجل، ويطلق ٤٠٠ فارس ثلاث هتافات باسم الملكة وينطلقون قدما بقيادة "د/چيم" أو جيمسون الذي يرتدى معطفاً من جلد الماعز ويمتطي صهوة فحل أسود. بعد أن يتوغلوا ثلاثة أميال في إقليم الترانسفال ينضم إليهم مائة وعشرون من رجال شرطة بتشوانالاند. يرفع الخيالة هؤلاء (الموسومة مؤخرات خيولهم بشعار شركة رودس) عدد المغيرين إلى حوالي ٦٠٠ رجل - أقل كثيراً من السبعة آلاف وخمسمائة رجل الذين كان جيمسون قد توقعهم. لكن المغيرون كانوا قد فشلوا في قطع خطوط البرق جميعها، من ثم، وصلت أخبار الغزوة إلى بريتوريا. يظهر مراسلان من البوير. يأمر المندوب السامى البريطانى جيمسون بالعودة من حيث أتى. يرفض جيمسون.

بالإضافة إلى البنادق، كان المغيرون مسلحين بمدفع ميدان محمول على عربة زنة قذائفه ١٢ رطلاً، وستة رشاشات ماركة مكسيم. بين رجال جيمسون محاربون سابقون اشتركوا في حروب شركة رودس بروديسيا حيث قاتلوا أفارقة مسلحين بالحراپ. يظنون أن مناوشتهم مع المزارعين البوير ستماثل رقصة زنجية على قدر من العنف. يزهر جيمسون قائلاً: "سأؤغل في المنطقة بنفس السلسلة التي تقطع بها السكان الزبد". ثم يضيف مخاطباً المتشككين "إنكم لا تعلمون ما تعنيه رشاشات مكسيم. لقد رأيتها تعمل". بيد أن الخيلاء الممزوجة بالكحول - براندى للجنود وشمبانيا للضباط - ستبرهن على أنها سم قاتل بعد مسيرة أربعة أيام على تربة غير مألوفة تحت طلقات مقاتلى حرب العصابات البوير. يتم محاصرة المغيرين بالكامل عند دورنوب التي يستغرق الوصول منها إلى مناجم جوهانسبرج ساعتين على ظهر الخيل. يطر رماة البوير المهرة المغيرين بوابل من الرصاص، مستخدمين بنادق عتيقة من فوق أرض مرتفعة. تتعطل رشاشات المكسيم، وبعد مناوشة قصيرة، يرفع المتآمرون منزراً أبيض استعاروه ويستسلمون. قُتل وجُرح ستة وخمسون رجلاً. عندما أدرك أن الغزوة ولدت مبتسرة، تباكى رودس متملصاً

مخادعاً: لقد أفسد جيمسون العجز خططي وترتيباتي. لقد ظللنا صديقين لعشرين عاماً، والآن، يشن حملته ويُفسد حياتي.

في ٥ يناير، سجل ويلفريد سكاوين بلانت، المعادي الضاري للإمبريالية الملاحظة التالية بمذكراته "أنباء ممتازة. شن أوغاد شركة رودس صاحبة الامتيازات الملكية غارة قرصنة على الترانسفال ومُحقهم البوير وأخذ جيمسون أسيراً. أمل من قلبي أن يشنقوه".

أرسل القيصر ويلهم برقية تهنئة إلى كروجر الذي علق بالقول "حينما أريد أن أقتل سلحفاة أنتظر حتى تُخرج رأسها"، وحينما علم اللورد ساليسبري رئيس الوزراء أن كروجر يعتزم زيارة لندن قال إنه يتمنى لو غرق في بحر من مرقّ السلاحف. من جهتها، كلّفت التايمز، ألفرد أوستن، أمير الشعراء الجديد بكتابة قصيدة شعبية طويلة يمتدح فيها "غارة جيمسون" وجاءت قصيدة رأها بلانت هزلية ركيكة ولقيت وكاتبها تهكم وازدراء معظم المعلقين.

بعد محاصرة المغيرين وتجمعهم، سلمهم البوير الحكماء إلى البريطانيين ليحاكموهم. ورغم عدم حضور أى عضو من "لجنة جوهانسبرج للإصلاح" التي كان من المفترض أن تلتقى قوة إغاثة تابعة لها جيمسون، يدين قاضٍ من كيب تاون القادة الأربعة، بمن فيهم فرانك شقيق رودس الأكبر، بالخيانة. تُبدل أحكام الإعدام التي صدرت ضدهم حينما يدفع سيسبل رودس وداعموه غرامات ضخمة .. لدى عودتهم لإنجلترا، يُعزل جيمسون وخمسة من المغيرين أمام المحكمة بكامل هيئتها، وهو إجراء يتبع في القضايا المهمة فقط. يتلقى د. /جيم حكماً بالسجن خمسة عشر شهراً، لكن يطلق سراحه بعد أربعة أشهر فقط لأسباب صحية. بعد عودته لإفريقيا، يصبح رئيس وزراء مستعمرة الكيب عام ١٩٠٤، وعضو مجلس شورى الملكة الخاص عام ١٩٠٧، ويمنح لقب بارونيت عام ١٩١١، ويعين رئيس مجلس إدارة شركة جنوب إفريقيا البريطانية التي يمتلكها رودس عام ١٩١٣. ثم يفن بعد

أربع سنوات إلى جوار رودس (الذى كان قد توفي عام ١٩٠٤)، بتلال ماتويو. بروديسيا، التى أصبحت الآن زيمبابوى.

كان رودس قد أُجبر على الاستقالة فى يناير كرئيس وزراء مستعمرة الكيب، من ثم، أُسرع إلى إنجلترا لإنقاذ صك الامتيازات الملكية لشركة جنوب إفريقيا البريطانية. وافق تشامبرلين على تركه يحتفظ بالامتيازات نظير عدم إظهار البرقيات المفقودة التى تكشف عن تواطؤ وزير المستعمرات فى الغزوة. لكن من سوء حظ المتأمرين أن البوير كانوا قد صادروا صندوقاً أسود من الصاج مُخبأ بين زجاجات الشميانيا يحوى برقيات تدين الطرفين متبادلة بين رودس ولجنة جوهانسبرج، وخطاباً يفهم منه أنه طلب للمساعدة من جماعة جوهانسبرج، بالإضافة إلى دفتر يوميات وكتاب لرموز الشفرات. بدأ البوير فى إبريل فى نشر خبيثتهم. وعلى إثر ذلك اجتمعت لجنة استماع برلمانية منتقاة لتحديد من كان يعلم ماذا، ومتى علموا به. لكن التحقيق فشل فى الكشف عن الأدوار الحقيقية لروُدس، وتشامبرلين، وزير المستعمرات، وفلوراشو همزة الوصل بينهما.

كان الفريد ميلنر الرفيق الإمبريالى، قد تكهن عن بصيرة بأن "ما يتحكم فى الرجال هو نقاط ضعفهم، ونقطة ضعف رودس هى حجمه الكبير". كان رودس رجلاً ضخم الجسم والرأس، ملامحه تقليدية وكان نهمة للطعام والشراب والتدخين هائلاً. لم يكن ياباً بالبذلات الغامقة الرسمية التى يرتديها الحكام ونو السطوة، وكان يفخر بأنه بإمكانه إصدار التشريعات ببذلة تويد عادية كذلك التى كان يرتديها باكسفورد. كان عصامياً حقق حلمه فى الالتحاق باكسفورد (لم يبل بلاء حسناً هناك رغم أن الجامعة منحته الدكتوراه الفخرية فى نهاية حياته). تشبّع بالعقيدة التوسعية التى كان يعتنقها جون راكسين أستاذ الفنون الجميلة فى كلية سليد بالجامعة. كانت تسيطر على رودس "فكرة عظيمة" نجد تنويعاً منها فى كتاب

إشهار العقيدة الذي كتبه عام ١٨٧٧ حينما كان بإكسفورد، وفي وصاياه الثماني المتتالية التي صاغها: ولايات متحدة إفريقية تحت العلم البريطاني يصلها ببعضها خطه الحديدي الذي كان مقروءاً له أن يخترق إفريقيا من القاهرة إلى الكيب. كتب يقول "هناك إفريقيا، مازالت ترقد مستعدة لنا بانتظارنا. من واجبنا أن نأخذها. من واجبنا اقتناص كل فرصة للاستيلاء على المزيد من الأراضي، وعلينا الإبقاء على هذه الفكرة مثبتة أمام أعيننا: إن المزيد من الأراضي يعني ببساطة المزيد من العرق الأنجلوساكسوني، أفضل أعراق العالم وأكثرها شرفاً وإنسانية..". ثم، بعد ذلك، تبنى فكرة إعادة لم الشمل مع الولايات المتحدة ليصبح العرق الأنجلوساكسوني إمبراطورية واحدة. سيعني هذا "نهاية جميع الحروب" وذلك لأن رودس اعتقد أن البريطانيين هم أروع أعراق العالم وكلما توسع العالم الذي يقطنه سيكون ذلك "في مصلحة البشرية". اقترح رودس تكوين جمعية سرية تعمل على غرار ما تعلمه الآن عن أساليب السى أى إيه لتجنيد العملاء، بحيث يتم زرع أعضاء لها في جامعاتنا ومدارسنا يراقبون الشبان الإنجليز ويحثونهم. رأى أنه سيكون بإمكان عصابة من الإخوة، مليونيرات مكرسين، باستطاعتهم توحيد الشعوب المتحدثة بالإنجليزية، وفرص السلام العالمي من خلال امتصاص ثروة العالم تدريجياً. كانت منح رودس الدراسية إلى إكسفورد، والتي خصصت في البداية لأبناء البيض البريطانيين في أنحاء الإمبراطورية، والأنجلو/ساكسونيين من الأمريكيين والألمان، إحدى النتائج الملموسة لهذه الأفكار.

أثناء إعداده للفارة، أبلغ رودس وفداً من الأجانب من جوهانسبرج بأنه بعد القضاء على انتهاكات البوير ومبادئهم، ستصبح غايته هي التجارة الحرة مع الدول الإفريقية الأخرى، الأمر الذي سيؤدي إلى اتحاد جمركي، وإدماج للسك الحديدية، ثم في النهاية إلى فدرالية إفريقية. خصص رودس أسهماً مخفضة في شركاته للسياسيين ولعلم مجالس إدارته بشخصيات تحمل لقب دوق وماركيز. كان أحد المعينين المرموقين في مجلس إدارة De Beers (كارتل أو اتحاد احتكار مناجم

الماس الذى أنشأه رودس) هو السر هركيوليس روينسون أحد حاملى الأسهم أيضاً فى شركة جنوب إفريقيا البريطانية التى يملكها رودس. ولحد بعيد، زاد إعادة تعيين روينسون حاكماً لمستعمرة الكيب والمنوب السامى البريطانى بها (شغل هذين المنصبين بين عامى ١٨٨١ - ١٨٨٩) من قوة قبضة رودس. وحينما واجهه النقد المتزايد لاقتلاعه السكان الأفارقة الأصليين من المناطق التى كان يريد السيطرة عليها، غداً رودس خبيراً فى رشوة الصحافة ومداهنتها.

بدأ التواطؤ بين رودس والصحافة - ستيد، بل، والأهم، فلورا شو - عام ١٨٨٩، لدى زيارته لندن لكسب الدعم من أجل الحصول على صك امتياز ملكى لشركة جنوب إفريقيا البريطانية التى كان يملكها. بذلك، كان له أن يضمن للشركة حقوق ملكية المناجم والتعدين وأيضاً حقوق الاستيلاء على الأرض فى مatabيلاند، التى أصبحت روديسيا فيما بعد. بيد أن رودس فشل فى العثور على الذهب المتوقع فى ما تابيلاند، وكانت تكلفة التنجيم العميق فى ويتوترسراند ترتفع باطراد، جزئياً، بسبب زيادة الضرائب. اعتقد رودس أنه، إن كان له أن يجنى الحد الأقصى من الأرباح من مناجم ذهبه فعليه توجيه ضربة سريعة لجمهورية الترانسفال. كان ثمة سند رهن ائتماني قيد التفاوض تُمنح بمقتضاه، شركة جنوب إفريقيا البريطانية سلطة لا محدودة للسيطرة على غالبية الجنوب والوسط الإفريقى من خلال الاجتياح أو الهبات. آنذاك يصبح بإمكان رودس بناء السكك الحديدية، وفرض الضرائب، وسك العملة، ورفع علمه الخاص (العلم البريطانى يتوسطه أسد والأحرف الأولى من شركته BSAC) وتجنيد قوة الشرطة الخاصة به. عرّف رودس نسخته الخاصة من الإمبريالية القطة بأنها أنشطة خيرية مضاف إليها خمسة بالمائة. وبما أن هدف الحكومة البريطانية كان هو الحيلولة دون حصول البوير، الألمان، الفرنسيين البلجيك والبرتغاليين على أراضٍ أخرى بإفريقيا، فقد رأت أن الشركة التى تملك صك الامتيازات الملكية تتيح الفرصة لتوسيع الإمبراطورية بشن بخص - يتحمل رودس وداعموه عبء التكلفة.

حينما زار "العلاق" البيل مل جازيت، التقى ستيد وزميلته، آنذاك، فلورا شو. بعد لقاء دام ثلاث ساعات، كتب ستيد، بحماس، إلى زوجته يقول "مستر رودس هو ضالتي المنشودة" كان مليئاً بالأفكار الرائعة، أفكار عن "الفدرالية، التوسع، وإمماج أجزاء الإمبراطورية". من أجل "تحلية" ترتيباتهما معاً، أعطى رودس ستيد ٢٠٠٠ جنيه إسترليني كى يسوى غرامة حكم صدر عليه بالتشهير، ووعده ببلغ ٢٠٠٠٠ جنيه إضافي مباشرة، وتوقع المزيد من أجل الدعوة لأفكارهما المشتركة ونشرها من خلال الجازيت وغيرها من الإصدارات.

لم تكن شو أقل افتتاحاً به. رأت رودس "رجلاً ذا سطوة مرئية"، "مستقلاً بذاته، وعملياً". حينما سألته عن سبب استعداده لإنفاق تلك المبالغ المهولة على مشروع إمبريالي إن يجنى عوائده، فى افضل الأحوال، إلا فى المستقبل، أجاب قائلاً "يجب بعض الرجال جمع الفراشات. وأنا أحب عملى. إنها هوايتى واهتمامى". مضياً يلتقيان طوال الصيف، وعلى الرغم من اعتياده السير "داخل غرفتين، كئسد محبوس، وهو يجيب عن أسئلتي، أحياناً من أعماق الغرفة الثانية التى لم أكن بها" إلا أنهما أصبحا صديقين طوال العمر.

حينما ذهب رودس إلى لندن مرة أخرى عام ١٨٩٥، كان قد أصبح أكثر الرجال سطوة فى إفريقيا: رئيساً لوزراء مستعمرة الكيب، وعضواً بمجلس شورى الملكة، وكان يسيطر، من خلال شركة جنوب إفريقيا البريطانية على مناطق شاسعة مترامية الأطراف - روديسيا، بتسوانا، ملاوى، وزامبيا. كان ثرياً لحد التشبع وعدم اشتهاه المزيد. كانت مناجم الذهب المصدر الأكبر لخلقه، لكنه، ومن خلال كارتل De Beers كان يتحكم أيضاً فى ٩٠٪ من منتج الماس فى العالم. رافقه فى رحلته إلى لندن جيمسون، طبيب، وشريكه فى البيزنس، ومتولى شؤون إدارة روديسيا. مرة أخرى، تقرب رودس من فلورا شو وسعى إليها، وكانت آنذاك قد أصبحت محررة

المستعمرات بالتايمز. كانت مقالاتها وافتتاحياتها غير المتوقعة تدعم رودس وإمبراطوريته التوسعية وتردد مظالم "الأجانب" بالترانسفال. مضياً يلتقيان طوال زيارته. تحدث رودس بصراحة مع شو، وكثيراً ما كان يستخدمها مجسماً لأرائه ومنبراً لها. لكن وفقاً لشوفانٍ علاقتها برودس كانت مهينة خالصة. كتبت تؤكد للكابتن لوجارد زوجها المقبل "لست والمستر رودس صديقين بأى معنى شخصى معتاد. لقد درسته بصفتي عُصراً فى حياتنا العامة الآن، وكنتيجة لهذا، ومع كل عيوبه، فأننا أُنصَفه كأحد أفضل الموجودين فى الساحة". أعطى رودس تعليمات للدكتور روزفورد هاريس، أمين عام شركة جنوب إفريقيا البريطانية، وكان يرافقه فى الزيارة بأن "يراعى ميس شو ويتقرب منها". كان واثقاً منها بدرجة أن طلب من هاريس إعطاها الشفرة السرية، ومنحها الاسم الكودى "Telemones".

فى نفس خطابها إلى لوجارد الذى لم يكن يوافق على تكتيكات رودس، أكدت شو على مثالية صديقها وتقانيه فى سبيل الإمبريالية "لقد التقيت غالبية الإنجليز الذين يشغلون مناصب عامة فى زمانى، وانطباعى عن مستر رودس هو إثارة الهدف بدرجة أعظم وأكثر اكتمالاً مما رأيته من قبل. يبدو لى وأنه لا يسعى إلى شيء لنفسه. لا يهتم المال، المكانة، والسلطة، إلا بالقدر الذى تمثله من ضرورة لتحقيق المثال الذى يعيش من أجله!!!"

عام ١٨٩٥، شكّل زعيم المحافظين، لورد سليسبورى حكومة جديدة شغل فيها منصبى رئيس الوزراء. ووزير الخارجية. عينَ جوزيف تشمبرلين وزيراً للمستعمرات وعين زوج ابنته اللورد سلبورن نائباً لتشمبرلين. غدت ميس شو، كثيرة التجوال، ضيفاً مرحباً بحضورها إلى مكتب المستعمرات بمقر مجلس الوزراء. كان التوسع هو موضة ذاك الزمان وكان المسرح آنذاك، قد أُعد لتنفيذ "سياسة إمبريالية أكثر إبداعاً".

وصف تشرشل، الذي كان شاباً آنذاك، جوزيف تشمبرلين بأنه "بأسلوب لا يضاهي، أكثر شخصية حيوية متوهجة مؤثرة في الشؤون البريطانية". كان يُعزى مظهره المونوكل، وزهرة الأوركيد في عروة جاكته. وعلى الرغم من توجهاته الراديكالية في الشؤون الداخلية فقد كان تجسيدا للإمبريالية الجديدة في مجال الشؤون الخارجية. ميز نفسه، بصوته الواضح الذي كان ينوي في القاعات، خطيباً مرموقاً. كان في البداية معادياً لرووس، وعرف عنه تبرعه بالشؤون جنوب الإفريقية، لكن، كان لشو أن تقنع تشمبرلين بدعم أجندة رووس. كتبت تقول إن "وزير المستعمرات الجديد ذكياً، محباً للعمل، ومن ثم، فمما لا شك فيه أنه سيعتق أساليب الإدارة الكولونيالية الليبرالية السليمة، التي سيضيف إليها حماساً للوحدة يعتبر الآن مفقوداً تماماً في الإدارة المركزية". وسرعان ما طمأنها تشمبرلين إلى أنه يريد العمل مع "رجل قوى" لو أمكن ذلك.

يبس من المؤكد أن تشمبرلين كان، في أغسطس ١٨٩٥، على علم، من خلال النقاشات التي أجراها مع هاريس، عميل رووس السري بالخطوط العامة للغزوة المقترحة. قال هاريس في شهادته التي أدلى بها أمام لجنة التحقيق البرلمانية في أعقاب ورطة جيمسون إنه في لقائه الأول بتشمبرلين أشار إلى قلقه في جوهانسبرج وأنه أضاف إشارة حذرة مفادها أن وجود قوة شرطة بالقرب من الحدود أمر مرغوب فيه. لكن تشمبرلين زعم أنه أجاب هاريس بالقول "لا أريد سماع أية معلومات سرية، إنني هنا بصفة رسمية ولا أريد سماع أية معلومات يمكنني استخدامها رسمياً".

في سبتمبر أطلع هاريس الصحفية شو على الخطة في إجابته عن تساؤلاتها. جزم بأن القلاقل ستتدلع في جوهانسبرج، ويأنه يجب أن تكون الشرطة في بتشوانالاند على أهبة الاستعداد للمساعدة، وأضاف "ليس ثمة مشكلة، تشمبرلين على علم بالأمر كله". ثم توجه إلى إسكتلندا، وفي نوفمبر، أبقى إلى رووس بالتالي

أرسلتُ قلوباً بالفضل لتقنع جبه تشمبرلين بدعم صحيفة التايمز. إذا استطعت، أبقى بالنهج الذي تريد أن تتبناه التايمز بخصوص الترانسفال وستتولى قلوباً الموضوع.

في نوفمبر تنازل تشمبرلين عن شريط من الأرض في محمية بتشوانا يصل الترانسفال بأراضي شركة رودس صاحبة الامتيازات الملكية وتم تسريح رجال شرطة المحمية ليتمكنوا من الانضمام إلى جيمسون. وفي مقابل هذه الامتيازات التي منحها تشمبرلين، تنازل رودس عن ٢٠٠٠٠٠ استرليني قيمة دعمه المالي لجزء من سكك حديد الكيب الذي كان سيصل المنطقة الشمالية بروديسيا، وتحمل مبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً كانت تدفعها حكومة جلالة الملكة لحرس حدود بتشوانالاند. ومن أجل الحفاظ على المظاهر، أرسل هاريس برقية مشفرة إلى رودس يوم ٧ نوفمبر (لم تُنح هذه البرقية للجنة التحقيق) يقول جزء منها "يرى وزير المستعمرات أنك يجب أن تسمح بمرور فترة معقولة وتؤجل الألعاب النارية أسبوعين". يتفق المؤرخون اليوم على أن تشمبرلين بمنحه موافقته المضمرة على هذه الامتيازات كان طرفاً في الغارة، على الرغم من أن غالبيتهم يظنون أنه لم يتوقع أبداً أن يبادر جيمسون بالهجوم دونما وقوع انتفاضة "أجانب" تُبرره. كان دافع تشمبرلين للتنازل عن شريط الأرض الحدودي لرودس هو تلافي شن الغارة من أراض بريطانية.

هنا يدخل فرانسيس (السير فرانسيس فيما بعد) يونجهازباند، القائد المستقبلي لحملة التبت العسكرية بين عامي ١٩٠٣ - ١٩٠٤ التي سميت باسمه، والتي أبادت فيها فرقة الثمانية من "رواد السيخ" تدعمهم بطارية ورشاشات مكسيم على علو شاهق، أبادت مجموعة من رهبان التبت المقاتلين المسلحين ببنادق بدائية وأحجبة سحرية. لكن تلك المعركة لم تكن قد وقعت بعد، وكان الكابتن يونجهازباند في إجازة من مهماته على الحدود الشمالية الغربية للهند. كان الكابتن معروفاً للتايمز بعد أن أرسل لها تقارير صحفية عن حصار شيترال، وهي مناوشة إمبريالية أخرى وقعت

بمملكة على ارتفاع شاهق أيضاً لدى الحافة القصية للحدود الهندية. وهو فى طريقه إلى وطنه ليقضى إجازته، سافر هذا الإمبريالى قوى البنية إلى جنوب إفريقيا حيث التقى رودس. حينما عاد إلى لندن فى نوفمبر، تلقى دعوة للعشاء مع شعو و بل فى ١٥ من ذاك الشهر. أبحر يُعيد ذلك بعد أن حصل على الشفرة التلغرافية السرية التى كان هاريس قد أعطها لشو، إلى كيب تاون كمراسل خاص للتايمز هناك، تلقى رسالة مشفرة من مويرلى بل إلى رودس نصها "نأمل ألا تبدأ الشركة الجديدة البيزنس فى يوم سبت بسبب صحافة الأحد" (كانت التايمز تحتجب يوم الأحد). فى كتابه "غارة جيمسون"، يورد المؤرخ "جان فاندربويل" رأياً منطقياً، يفاده أن بل كان يفترض بهدأ أن رودس كان يسيطر بالكامل على ما أسمى بالثورة، وأنه كان بإمكانه إشعالها وقتماً يريد". وأن بل كان يعرف خبايا المؤامرة بدرجة أنه علم أنه قد تم تحديد موعد الانتفاضة (الحقيقية) مؤقتاً، بيوم ٢٨ ديسمبر يوم سبت. حينما انتقل يونجهازباند، إلى جوهانسبرج، نزل ضيفاً على فرائك شقيق رودس، وهناك وسع نطاق التوجهات المعطاة له وأصبح ينقل الأحاديث بين كيب تاون والمغيرين.

فى ١٠ ديسمبر أبرقت فلوراشو إلى رودس تقول "أبستطاعتك إعلامنا بموعده بدء الخطة، نريد أن نرسل فى أقرب فرصة تعليمات سرية إلى ممثلى التايمز فى العواصم الأوروبية، من الأهمية القصوى استخدام نفوذهم فى صالحتك". فى اليوم التالى أجاب رودس بأن العام الجديد هو الموعد. فى ١٢ ديسمبر طمأنت شو رودس أن "تشمبرلين جس نبض القوى الأوروبية (ألمانيا) فى حالة التدخل. لدى سببى الخاص للاعتقاد أنه يريد أن تغلها على الفور". وبعد أربعة أيام نشرت التايمز عموداً ونصف عن مظالم "الأجانب" "Uitlanders" الترانسفال وحذرت من أنه "حتى فى جنوب إفريقيا، فإن الوقت قد فات حيث لا يستطيع الآن نظام إدارة قمعى، قائم على المصالح الحصرية لأقلية مميزة أن يقاوم طويلاً قوة للرأى العام المستتير". فى ١٨ ديسمبر أبرق تشمبرلين رسالة "للإسراع" وعلق على الانقلاب

المخطط له "يبدو لي أنه يجب أن ينفذ على الفور، أو يؤجل لعام أو عامين.
أباستطاعتنا ضمان ذلك؟".

في البداية، كان يونجهازباند "الجنتمان" أو "الساعي" كما لُقّب في التحقيق الخاص يتعاطف مع الانقلابيين لكنه حينما عاد إلى كيب تاون من الترانسفال في ٢٢ ديسمبر، كان قد بدأ يعيد النظر في "صواب الخطة". كان قد كتب إلى والده أن: "ما سيحدث هو ثورة ضد البوير... لكن لا يجوز لهم أن يتردوا ويحولوا الأمر برمته، ليس فقط إلى هزيمة، بل إلى كارثة". كان قادة "الأجانب" قد بدأوا بالفعل يترددون وطلبوا من يونجهازباند إن يجس نبض رودس بشأن تأجيل "ثورة البولو" (الاسم الكودي الذي اختاروه للثورة)، حتى العام الجديد.

بعد ثلاثين عاماً استعاد يونجهازباند حديثه مع رودس رئيس الكيب وسط الأشجار اليناعة بقصره "أبلغته أن الناس في جوهانسبرج لا يؤيدون (الهجوم) ويريدون منع جيمسون من القيام به. استعجب وتساءل ما إن كنت أعني أنه ليس ثمة رجل في جوهانسبرج سينهض ويقود ثورة غير عابئ بحياته. أجبت بأنه من الواضح أن مثل هذا الرجل غير موجود. سأكني ما إن كنت أنا مستعداً للقيام بذلك وأكدت له أنني لن أفعل ذلك وإنني لا أريد قيادة ثورة في جوهانسبرج. أطلق نخرته المعتادة وكأنا اعتقد، أن الجميع بمن فيهم أنا، لا يتعدون مجموعة من الجبناء الرعايد".

عند ذاك، وعد رودس وقد أحبط، بأن يبرق إلى جيمسون كي لا يتحرك. أما في واقع الأمر، وعلى الرغم من تأكيدات ليونجهازباند، فقد أبرق رودس في ٢٣ سبتمبر رسالة تقول إن الانتفاضة ستحدث في منتصف ليل السبت التالي وختمها بالتعبير عن قلقه من أن البوير كانوا على علم بالتحضيرات.

في تلك الأثناء وصل إلى معسكر جيمسون في بيتشان، عدد كبير من البرقيات من كيب تاون وجوهانسبرج. جاءت البرقية التالية من فرانك رودس "أخبر

د/جيمسون أن دورة البولو إذا لم تؤجل أسبوعاً ستصطدم مع أسبوع سياق الخيل". وفي ٢٢ ديسمبر وصلت أخرى من رويس أكثر تفاؤلاً: "سيعلن عن تأسيس الشركة السبت ٢٨". ثم في ٢٢ ديسمبر وصلته برقية من شقيقه سام جيمسون بجوهانسبرج "من الأهمية القصوى تأجيل إعلان تأسيس الشركة". أما برقية هاريس فقد كانت تعلمه بعدم حدوث التمرد وأضاف "لا يجوز لك أن تتحرك حتى تسمع منا مرة أخرى. إرباك بشع. أسف". يبدو أن جيم قرر العمل مستقلاً. أبلغ هاريس بأنه في حالة عدم استعداد (الأجانب) "الإسهام سنعلن نحن من جانبنا تأسيس الشركة". وإن نجح سيُغفر له، وسيصبح بطلاً علاوة على ذلك.

في ٢٦ ديسمبر أبلغ تشمبرلين سليسبري أن "ثمة ثورة وشيكة ستحدث في جوهانسبرج، ربما في غضون بضعة أيام. لكن بعد مرور ثلاثة أيام لم تحدث الثورة. بعد أن نبه تشمبرلين سليسبري إلى عدم حدوث شيء وإلى خطورة التحرك، بعث برقية إلى السير هركيوليس روينسون المندوب السامي طالباً منه أن يحذر رويس من أنه بدون تمرد "الأجانب" فإن أي توغل في أراضي الترانسفال سيعرض صك امتيازته الملكي للخطر. في مقر التايمز بلندن، كانت المطابع على أهبة الاستعداد، وملاّت أخبار الاضطرابات الأعمدة الصحفية. ثم تلقت التايمز يوم الإثنين ٣٠ ديسمبر برقية منذرة "تجاهل جيمسون التعليمات وعبّر الحدود ومعه ٤٠٠ رجل". أسرع شو بالبرقية إلى مكتب وزير المستعمرات لكن تشمبرلين كان يقضي إجازة بقصره الفينيسي بهايوري، بضواحي برمنجهام. ووفقاً لبيتر مارش، مؤرخ تشمبرلين، فإن وزير المستعمرات لدى علمه بهذا أحكم قبضته معلناً "إذا نجح هذا سيُفرض على". كان تشمبرلين يعلم أنه بدون ذريعة التمرد سيفتضح أمر كل التفاصيل الكاذبة المبالغ فيها.

تلقت شو أيضاً برقية من هاريس في ٣١ ديسمبر ومعها نسخة من خطاب من "لجنة الإصلاح بجوهانسبرج" يناشد فيه أعضاؤها جيمسون بالتدخل ويذكرون

مجمع مظالم "الأجانب" ويدعونه إلى المساعدة لإنقاذ آلاف الرجال والنساء والأطفال العزل من جنسنا الذين سيصبحون تحت رحمة البوير جيدي التسليح .
وَقَعَ الخطاب غير المؤرخ عن عمد، خمسة أعضاء من لجنة الإصلاح وسلموه على مضض لچيمسون، كى يظهره فى حالة عدم حدوث تمرد. زعم چيمسون أنه بحاجة للخطاب كى لا يكون توغله فى الترانسفال بأسلوب "قطاع الطرق". كان بحاجة لشيء يرب لرجاله وأيضاً يبرر به عملياته لحاملى أسهم شركة جنوب إفريقيا البريطانية. أرخ چيمسون الخطاب بتاريخ ٢٨ ديسمبر وقرأه بصوت مرتفع على قواته. أرسله رودس إلى شو (كان بين الوثائق التى استرهبها البوير فى الصندوق الصاج الأسود) ثم أبرق موافقته على نشر الخطاب. وهذا ما فعلته التايمز فى اليوم الأول من السنة الجديدة، لم تتلقه أية صحيفة أخرى، لم تنشره أية صحيفة أخرى. كان الخطاب للنشر الحصرى وظل حصرياً.

حينما اتضح ان چيمسون تجاهل التحذيرات المتكررة وبدت هزيمته وشيكة، ندد تشمبرلين، وفى الوقت المناسب، بالغارة فى برقية إلى روينسون "لو أنه قد تم الإطاحة بحكومة جنوب إفريقيا أو أن أعمال فوضى قد اندلعت بجوهانسبرج، لتوفر ظلٌ ذريعة لهذا العمل غير المسبوق" لكن بدلاً من ذلك فقد ارتكب چيمسون "فعل حرب أو الأحرى مغامرة عسكرية Filibustering". (يشير هذا اللفظ إلى قيادة عصيان فى بلد أجنبى أو التحريض عليه). علق سليسبرى بالقول "إذا فشلت المغامرة العسكرية، فدائماً ما تكون مزرية وتكتسب سمعة سيئة".

وعلى الرغم من الذعر الذى ساد مكتب المستعمرات، احتفظت شو بهدونها. يقول مويرلى بل "فى البداية تملك الغضب من تشمبرلين وفكر فى التخلّى عن رودس وچيمسون، وجنوب إفريقيا، وصك الامتيازات الملكى، أى عن حزمة الالاعيب برمتها لكن ميس شو التى لا تقدر خدماتها للتايمز بثمن، تصرفت ببديلوامسية عالية. نجحت، وزعم تلقيها كل تلك البرقيات السلطوية من رودس : "أبلغى

تشمبرلين أن عليه أن يفعل كذا، وكذا على الفور؛ ابغى تشمبرلين أن يتوقف عن إرسال تلك البرقيات الحمقاء للمندوب السامى.. نجحت، فيما كانت تقضى أيامها بالمكتب الكولونيالى، فى الحفاظ على الوضع، الذى عرّضه جيمسون لبالغ المخاطر والهيبات، الحفاظ عليه تحت السيطرة إلى أقصى درجة ممكنة.

وصل يونجهازباند إلى دوركوب فى الوقت المناسب ليرى جيمسون وقد ألقى القبض عليه. قام بزيارة المغير المنهار المحطم بزنتانته حيث تباكى قائلاً: "إن جميع الضباط آنذاك كانوا يعملون وهم يشعرون أن أجنب جوهانسبرج قد خذلوه". أسر مراسل التايمز فى مذكراته بعض الملاحظات "أثناء ذلك الأسبوع ظهر البوير بأفضل حال فيما كان أجنب جوهانسبرج فى أسوأ حالاتهم.. فاز البوير لأنهم لعبوا لعبة ظلوا يمارسونها طوال حياتهم، فيما شارك أجنب جوهانسبرج فى لعبة لم تكن لديهم بها خبرة. علاوة على هذا، لا يجوز فهم مجموعة جوهانسبرج على أنهم إنجليز نمطيون ولا ينتمى الإنجليز هناك أيضاً إلى أفضل المصنفات".

رحل رودس إلى لندن فى ٢ فبراير لإنقاذ امتيازاته الملكية ولدرء خطر التحقيق البرلمانى. التقى هاريس بمحاميه بورشيه هوكسلى فى بلايموث.. كانت خطتهما هى كشف البرقيات التى تورط المكتب الكولونيالى، وهذا أنه فى حالة حدوث تحقيق بأن يثبتا أن المتأمرين تصرفوا بناء على رسائل من لندن عزت إلى وزير المستعمرات علمه التام بالمؤامرة وموافقة عليها". جابه تشمبرلين هذا بأن أنذر رودس بأنه إن تم الكشف عن البرقيات سيعنى هذا نهاية امتيازات شركة جنوب إفريقيا البريطانية ومعها نهاية الشركة. لم يكشف عن البرقيات، وبقي مك الامتيازات الملكى.

فى فبراير ١٨٩٧ أفتتح التحقيق الرسمى بواسطة لجنة برلمانية منتقاة قدمت أربع برقيات متبادلة بين رودس وهاريس نُكر بها اسم فلورا شو كدليل. أدلى كل

من شو وروودس بشهادتيهما أمام اللجنة المشكلة من الحزبين والتي كان بين أعضائها هنرى لا بوشير، النائب الليبرالى المجاهر برأيه والمعادى للإمبريالية وكان من المتوقع أن يضغط بعنوانية لاستخلاص الحقيقة. كان تشمبرلين ذاته عضو اللجنة العاشر. مُنح رودس فرصة تلافى الأسئلة المباشرة، كما لم تظهر أية "برقيات مفقودة" إضافية، ولم يذكر هو صلتة الوثيقة بالتايمز.. علق فلورا شو بقولها "لقد أظهر فى ظل تلك الملابس السمات المميزة للشجاعة والصرافة. لم يُخف لونه فى الكارثة. تحمل مسئولية ما ارتكبه مرسومه باسمه بالكامل وتقبل جميع التبعات الناجمة". كان الدور الذى عينه رودس لنفسه هو الحل الأضحية من أجل إنقاذ تشمبرلين.. "وإنجلترا!! من ثم، بقيت امتيازاته الملكة واستثماراته، لكن الأفريكان "سكان جنوب إفريقيا نوى الأصول الأوروبية" لم يثقوا أبداً بالبريطانيين مرة أخرى.

أدلت شو، وهى ترتدى الحرير الأسود واللؤلؤ، وترافقها شقيققتها لولو، بشهادتها مرتين، فى مايو ويوليو. امتلأت القاعة الكبرى عن آخرها بالصحفيين. كتب السير هربرت ستيفن فى مذكرة قصيرة مررها إليها أن "الصحفيين السذج شعروا ببعض الدهشة حينما اكتشفوا أنك لست عجوزاً رثة الملابس". وعلى الرغم من أن رئيسها بل - عضو مجلس الإدارة المنتدب والمدير العام بالتايمز - كان قد صاغ البرقيات الرئيسية، فقد تم اختيارها لتكون كبش الفداء. كان جورج إى بكل، رئيس التحرير قد قال فى خطاب وجهه إليها: "الأسلوب الذى أعتقد أنه يجب اتباعه لدى الحديث عن موضوع الصحيفة وبرقياتك هو التالي: أنك أرسلتها على مسئوليتك، وعلى نفقتك، إنك لم تتلقى أية تعليمات بهذا الخصوص، وأن دور التايمز اقتصر على إرسال مراسلين ليعثوا بتقارير عن الأحداث، وتم إرسالهم بدون علم رئيس التحرير أو موافقته.. وإن رئيس التحرير لم يكتشف ما فعلته حتى شهر أبريل.. وإنه قد عبّر عن جم استنكاره لما قُمت به".

وفقاً لمؤرختها دوروثي هيلي وهلين كالواي، احتفظت شو بتلك المذكرة وأرقت بها تعليقاً يقول "أعطيت روح الغدر والجبن الرسمي المجسدين بهذا الخطاب، الذي أرسل إليّ، وتلقيته عشية الاستجواب، وفيما كان المكتب يعلم جيداً أنني أعتزم تدخل مسئولية تصرفات وأفعال ليست لي، أعطيتي أكثر دروس حياتي أسي وسخريّة".

وعلى الرغم من وجود البرقيات المحتمل لها أن تدّينها، كانت شو رابطة الجاش، من رفعة جيدة الإعداد تملصت من عدد من الأسئلة لكنها بدت مباشرة. قالت في شهادتها "أشعر وأنه أحاط بالأمر برمته الكثير مما يمكنني أن أدعوه ترويحاً للغموض والمؤامرات والاتجار بها، وأن شر الكتمان يفوق كثيراً ما يتسبب فيه الكشف عن كل شيء... قالت إنها، مثل تشمبرلين، كانت تعلم عن إمكانية حدوث نرد - وإن التفكير كان في "خطة" لكن ليس "غارة" قالت إن موقفها يوجزه خطاب كانت أرسلته إلى بل في أغسطس تتحدث فيه عن خطة يمكن أن تكون جديرة بدراسة جديّة من قبل الحكومتين ومن إدارة صحيفة مثل التايمز، وليست عملية عسكرية طائشة كتلك التي قام بها جيمسون، كما أنها كانت خطة شريفة ليس ثمة سبب لأن يخلج منها المرء.

حينما ضغط المحققون على شو، قلصت أقوالها دور يونجهازباند إلى مجرد "ساعٍ مجهول، ونفت تورط بل. ورداً على سؤال للمحققين عما إن كانت قد حفزت كتابة اقتناحية توجه اللوم لتشمبرلين والتوبيخ لجيمسون، أبلغتهم أن اتصالاتها مع المحررين ورؤسائها سرية وأنها قد تصرفت بحكم حقها الشخصي لدى إرسالها برقيات مورطة بدون علم من رئيس التحرير. حكم تشمبرلين على شهادتها بقوله "إن السيدة The Lady الشاهدة، تبرز من حيث وضوح أفكارها وصراحتها وسلوكها العام الرجال جميعهم". أما التاريخ الرسمي لصحيفة التايمز فقد حكم بأن فلوراشو "من خلال تفكيرها السديد وشخصيتها المقتنة الأسيرة أثّرت مباشرة

في السياسات وفي رجال الدولة فيما حَمَتُ سمعة صحيفتها". برأ التحقيق صحيفة التايمز - يعزى هذا إلى سلطة رئيس التحرير بكثير مما يُعزى إلى الوقائع - يبدو أنه وفقاً لما ذكرت إيند مويرلي بل مؤرخة شو، فإن خطاب باكل رئيس التحرير إليها "أفسد عملها بالصحيفة، وألقى عليه بظلال قاتمة لم تنتشع أبداً". أما من ناحيته، فقد أسف الساعي على دوره كوسيط، ذلك الدور الذي لا يكاد يرد له ذكر في غالبية ما نُكِرَ عن الموضوع. ائلف يونجهازباند الأوراق التي تورطه ومزق من مذكراته الصفحات التي يُذكر بها رودس أو جيمسون. كتب يقول لزوجته المقبلة نيلى بوجلاس "لم أر طوال حياتي بوضوح أكثر، شرور السير في طريق الخديعة" وأضاف أن رودس وهاريس قد خدعا قلوبا شو وجعلاما تصدق أن الوضع في جنوب إفريقيا كان جد مختلف عما كان في حقيقة الأمر، وتعتقد في صحة ما دُكر عن "النساء والأطفال" في خطاب قادة الأجانب بجوهانسبرج، ويأنهم يقولون إن جيمسون مخلص وتلقائي على حين أن جيمسون نفسه هو من زوّر هذا الخطاب".

أما روديار كيلنج شاعر الإمبريالية الأول، فكان رأيهِ عن جيمسون مختلفاً وعبر عنه في قصيدته "If" الشهيرة والتي دائماً ما يستشهد بسطورها والتي رأى فيها أن بطله جيمسون كان سديد الرأي، واثقاً من نفسه، صبوراً لا يرد على الإساءة والكراهية بمثلها؛ وأنه كان حالملاً لا ينساق وراء أحلامه بل يجعل من أفكاره هدفاً له، لا يُنجرف وراء فرصة الانتصار أو إحباط الهزيمة، يبقى صامداً في وجه الأكاذيب والاتهامات، ولا يستسلم لليأس أبداً بل دائماً ما يبدأ من جديد.

ألفت غارة جيمسون بظلال قائمة دامت طويلاً. اعتبرها المارشال جان سماتس، أحد الذين تولوا منصب رئيس وزراء جنوب إفريقيا فيما بعد، أنها كانت الإعلان الحقيقي للحرب في صراع الأنجلو/بوير الهائل، تلك الحرب التي نجمت عنها بشاعات مروعة. ولأن الغارة عمقت العداء بين بريطانيا وألمانيا (ساند القيصر

البوير) فقد رآها كيبلينج أولى معارك الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨). فى تمهيد لكتاب "الأزمة العالمية" استدعى ونستون تشرشل حديثاً له، كضابط شاب، مع السير ويليام هاركورت، عضو لجنة التحقيق. حينما سأل تشرشل "ماذا سيجد إذا؟" أجابه رجل الدولة الموقر "عزيزى ونستون، أقنعتنى تجارب حياتى الطويلة أن لا شئ يحدث أبداً". رأى تشرشل خلاف ذلك: "منذ اللحظة تلك، وكما يتراعى لى، لم تتوقف الأحداث.. أرى أن تاريخ تلك الأزمات العنيفة التى يشهدها بلدنا يبدأ بغارة جيمسون".

فى يومياته القيمة، يسجل ويلفريد سكاوين بلانت، الذى لم يتوان لحظة عن توجيه النقد اللاذع للإمبريالية وداعميها، حديثاً له مع جورج ويندهام عضو البرلمان الذى كان كثيراً ما يلتقى بجيمسون. أبلغ بلانت بشكل سرى أن فلورا شو كانت "فى واقع الأمر هى المحرك الأول للعملية برمتها"، وأنها كانت "تمسك بزمام المبادرة فى اجتماعاتهم جميعاً". ثم أضاف بلانت "إن ما تنشره الصحافة الإنجليزية عن الترانسفال مُفث، مزيج من التبجح والجبن". كان الأخرى بهم تجنب كثرة الحديث عن الهزيمة المخزية التى تلقاها جيمسون على أيدي البوير، لكنهم أرادوا أن يتخذ منه الجمهور بطلاً، وهو الرجل الذى قاتل ستاً وثلاثين ساعة، ولم يُقتل من رجاله سوى ١٥ رجلاً، ثم استسلم. لم ينكروا أن الهجمة شنت من أجل النهم والاستيلاء على الأموال والأراضى، لا فى سبيل أية قضية. بل إن التاييمز نشرت قصيدة تمتدحه ألقها أمير الشعراء الجديد. هذا هو قدرُ التدنى والحطة الذى وصلنا إليه!".

أما ميس شو فقد سافرت بعد ذلك إلى كلوندايك لتشهد الهجمة على الثروة والتكاليف على الإثراء من مناجم الذهب وسافرت أيضاً إلى جنوب إفريقيا كمراقبة أثناء حرب البوير وفى عام ١٩٠٠، وبعد أن كانت قد كتبت ما يربو على ستمائة مقال، وافتتاحية وعامود بالتاييمز، تقاعدت من الصحافة اليومية. آنذاك كانت قد كسبت الشهرة بصفتها "امرأة فى أواسط العمر ذات مهارات عالية جداً" وفقاً لما قاله بلانت، لكنها كانت غير متزوجة.

كان رودس أول أصدقاء شو "الأفارقة" الذين يصعب أن يوجد نظير لهم على أرض الواقع. أما الثاني فكان السير جورج تابومان جولدي، مؤسس شركة النيجر الملكية ذات الامتيازات، والذي كانت إمبراطوريته تتكون من ٣٠٠٠ كيلومتر مربع، لم يسبق أن اكتشف معظمها أحد من قبل، وذلك قبل أن تضمها الحكومة البريطانية إلى أملاكها.

كانت شو هي من أطلقت اسم نيجيريا على محمية النيجر الجديدة والتي لم تكن آنذاك تشمل مستعمرة لاجوس أو جنوب نيجيريا، أطلقته بعد أن ضغلت بنجاح في التاييمز من أجل تبني هذا الاسم. أجرت شو حوارات مع السير جورج زير النساء وياني الإمبراطوريات، والذي كان يشاركها "ولمها!" بإفريقيا، ووقعت في غرامه. توقعت أن تتزوجه بعد موت زوجته متيلدا عام ١٨٩٨، لكنه لم يتقدم إليها. وربما كرد فعل على هذا، قبلت عرضاً للزواج من السير فريدريك لوجارد، صديق جولدي والذي كان يعمل لديه في وقت ما. كتبت إليه تقول "لقد قلت ذات مرة إنك تريد أن تكسب حبي.. أنا أيضاً أريد أن أكسب حبك.. بيد أننا لا يمكن أن نجبر أنفسنا على هذا، فليتوقف كل منا عن المحاولة، ولنقنع بأن نتزوج كصديقين".

كان لفريدريك لوجارد، الذي أصبح اللورد لوجارد فيما بعد، أن يكون ثالث إمبريالي جديداً يكسب احترام محررة شؤون المستعمرات وتقديرها.. التقته فلورا شو عام ١٨٩٣ حينما ذهب إلى مقر التاييمز آملاً أن يُقنعهم بكتابة مراجعة تمتدح كتابه "صعود إمبراطوريتنا شرق الإفريقية" والذي كان شبه سيرة ذاتية للمؤلف قالت شو عن الكتاب "أكثر الإسهامات في تاريخ شرق إفريقيا أهمية حتى الآن". حينما شكرها، أجابت على الفور "ودائماً ما أكون بمنزلي في ساعة متأخرة من عصر كل يوم تقريباً".

أثناء مناقشاتهما، وجد فريدريك حماس فلورا لرودس وجيمسون مفرطاً، وكتب بيوميائه معلقاً: "تطفئ عواطف المرأة دائماً على عقلها.. أعتقد أن الرجل يبدي

تحكماً أكثر.. أياً كانت درجة استثارته العاطفية يستطيع - إن كان رجلاً - أن يخلص نفسه من تأثيرها بقدر وأن يرى الأشياء كما يراها غيره ويتصرف بأسلوب منطقي، على الأقل، بكثير مما تستطيعه المرأة.

١٠- كان لوجارد رجلاً ضئيل الحجم متوَعك الصحة من أثر الجروح التي تلقاها في الحروب ونوبات الملاريا التي أصيب بها، لكن كانت عيناه متوهجتين، وشاربه طويلاً، اتباعاً منه للموضة التي كان كيتشنر قد روجها. ربما لم يبدُ وأنه الزوج المثالي للفلورا شو ذات الشخصية الاجتماعية، وذلك بسبب تجهمه وإدمانه المفرط للعمل - كان من المعتاد أن يعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم - لكن كان يجمعهما هاجسهما المشترك بالإمبراطورية وإفريقيا.

تخرج لوجارد في الكلية العسكرية الملكية بساندهرست، والتحق بالجيش الهندي "البريطاني" واشترك في حرب أفغانستان الثانية (١٨٧٩-١٨٨٠) واكتسب ولعاً بصيد النمر والخنازير. بدأت معرفته بإفريقيا حينما التحق بالحملة العسكرية لإنقاذ الخرطوم. تلقى جراحاً عميقة في الغزوة التالية التي اشترك فيها ضد تجار العبيد العرب بنياسلندا. في عام ١٨٨٨ استأجرته شركة شرق إفريقيا البريطانية التي كان السير ويليام ماكينون، مالك البواخر الإسكتلندي قد أسسها، وذلك من أجل ترسيخ مزارع الشركة في ملكية الأراضي. عبر النيل إلى أوغندا عام ١٨٩٠ حيث قام برفع العلم البريطاني مزيناً بالتاج والشمس الذهبية - شعار شركة شرق إفريقيا. أيضاً، قام بسحق تمرد قام به زعماء القبائل المسلمة وتوسط في عقد سلام بين البعثات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية.

أصبح لوجارد خبيراً في الدلالات (السيمياء) العسكرية الإمبريالية. كان يصبر على إقامة خيمة على أكثر الأراضي ارتفاعاً لدى تعاطيه مع الرؤساء المحليين - كلما زاد عدد الرايات المرفرفة، والبزات العسكرية، والقبعات المزينة بالريش، والسيوف الطقوسية، وتردد طلقات التحية العسكرية المكونة من سبع عشرة قذيفة،

ونفخ الأبواق، وقرع الطبول، كلما زادت مظاهر الإمبريالية العسكرية هذه، زاد ترويع المحليين ولعلهم. كان في الخامسة والثلاثين حينما التقى فلورا، وكان قد اعتنق الإمبريالية الجديدة بالفعل. لم يشعر بأية غضاضة في الاستيلاء على الأراضي والبلدان. حينما كان بإنجلترا عام ١٨٩٢، شن حملة لإقناع إدارة رئيس الوزراء جلاستون الليبرالية بالحاجة لضم أوغندا. تحدث دونما كلل أمام الجمعيات الجغرافية، وبالكثائن، والقاعات العامة في مختلف المدن لإقناع الجمهور، مكلما أقنع التايمز، بأن لبريطانيا مصالح حيوية في الاستيلاء بأية تكلفة على أوغندا، التي كانت قد شهدت ثورة مسيحية (أي حملة تنصيرية: الترجمة) ومن ثم تستطيع بريطانيا احتواء انتشار الإسلام. لكن الأهمية الحاسمة كانت ذات طبيعة استراتيجية. كان البيراليون، قبل ذلك بعقد من الزمان، قد احتلوا مصر على مضض منهم من أجل حماية الطرق إلى الهند، وكما كان جلاستون قد تنبأ، فقد نشرت بريطانيا سطوتها من رأس الرجاء الصالح جنوباً إلى الشمال والغرب لحماية مصر والطرق البحرية إلى الهند. والآن، أصبحت أوغندا، القريبة من الحدود المصرية، الحلقة الضرورية التالية في السلسلة العظمى للإمبراطورية.

دعمت التايمز حملة لوجارد التي استمرت عامين من أجل ضم أوغندا وكانت نتائج هذا الدعم ملحمة. حينما تقلد الحزب الليبرالي السلطة عام ١٨٩٢، لم يكونوا متحمسين للتوسع الإمبريالي، لكن هذا المناخ تغير بعد عامين، والفضل يرجع، جزئياً، إلى فلورا شو. قبيل أن يحدد البرلمان جلسات مناقشات مهمة للشئون الإفريقية، أقام لوجارد بحى هاييوري ليتولى إقناع تشمبرلين بأرائه. بعدها أسر لوجارد في خطاب مفعم بالسعادة لشقيقه ند بالقول إن كلمة وزير المستعمرات الافتتاحية في ١ يونيو ١٨٩٤ كانت 'بكاملها نتيجة لأحاديثنا' وعبر عن سعادته البالغة. ذكر في خطابه:

تقارن معرفة المجلس جميعه الوثيقة بالمسألة - بالمواضيع الفنية مثل المعاهدات

التجارية، نظام حياة السلطنات - قضية الرق - "الوضع القانوني" قمع الأساطيل البحرية - إلخ، بالجهل المطبق قبل ذلك بعامين. كانت حتى أسماء الشعوب والأماكن (الحلية) مألوفة في الخطاب. قارن ذلك بالجدل الذي دار في ١٨٩٢ قبل أن أعود إلى الوطن وسيصدمك الفرق. قارن بين الاهتمام بأوغندا والجهل بها عام ١٨٩٠ قبل زهابي هناك وسترى أن جهودي هناك وفي إنجلترا أتت بنتائج مذهشة. أشك في أن المجلس كان سيشهد كل هذا العدد من الحضور الذين ملأوه عن آخره (وغيرهم - كثيرين احتشدوا خارج القاعة لعدم وجود فرصة لهم للتحدث) الملمين بكل تلك التفاصيل.. إلخ عن أية أرض أخرى تملكها الإمبراطورية البريطانية، كما كان الحال لدى مناقشة ذلك البلد الصغير الواقع وسط إفريقيا".

أضاف في خطابه "خبرتني ميس شو" الإخصائية بالتايمز أن تحول موقف تشمبرلين كان لافتاً حقاً، وأنه في عام ١٨٩٠ كان قد دعاها مرتين للعشاء، ولم يكن متحمساً بإطلاقه لإفريقيا، أما الآن فهو على قمة المتحمسين، بل أنه يفوق في ذلك جميع أعضاء مجلس العموم". وبعد شهرين، كتب في خطاب آخر لشقيقه يقول "يا إلهي، هذا نجاح أشعر بالفخر به. غالبية ساحقة من الحزب الليبرالي، وفي مقدمتهم تشمبرلين الذي تبدى كأقوى الرجال في البلد وأكثرهم نفوذاً. لك أن تعلم إنني قد مارست الكثير من التأثير عليه، وربما لا أكون مخطئاً في القول إن الدور الكبير الذي لعبه في المسألة الإفريقية، والمعرفة المفصلة العميقة التي أبدأها في هذا الخصوص ترجع إلى حد كبير إلى جهودي". (مرة أخرى تردد لوجارد كثيراً على منزل تشمبرلين أثناء انتخابات ١٨٩٥، وكان خطابه قد كُتب في توقع منه أن يصبح حاكم أوغندا، لكن المنصب ذهب إلى منافسة السير هاري جونستون مما أصاب لوجارد بالأسى والإحباط).

لكن، لم كل هذه السعادة؟ ما سبب تحول الليبراليين، ومناقشات مجلس العموم الحماسية، واعتناق تشمبرلين للإمبريالية الجديدة؟ من المفيد هنا أن نستطرد،

ونتذكر أنه في أواسط العصر الفيكتوري، كانت إفريقيا، والرحالة والاكتشافات الجغرافية هناك، ونشر المسيحية، كانت بالنسبة للبريطانيين، أموراً تماثل رحلات الفضاء، ورجال الفضاء والصواريخ التي ترسل إلى القمر بالنسبة للأمريكيين أثناء الحرب الباردة، كانت الكتب الضخمة الثقيلة التي كتبها الرحالة من أمثال ستانلي، وبيرتون، وليفنجستون أحد ملامح مكتبات أفراد الطبقة الوسطى البريطانية. أصبحت المحاضرات في الجمعية الجغرافية الملكية مناسبات سياسية واجتماعية، وساد نوع من جنون العظمة الأخرق يشوبه التدين، قبل ميته "البطولية" بشرق إفريقيا عام ١٨٧٢ دعا الرحالة دايفيد ليفنجستون الأوروبيين لاجتثاث تجارة الرقيق. ونشر السبها "Cs" الثلاث في القارة التي مازالت مظلمة - أي نشر التجارة Commerce، المسيحية Christianity والمدنية Civilization. قال لجمهوره بجامعة كامبريدج عام ١٨٥٧ "أناشدكم أن توجهوا اهتمامكم إلى إفريقيا أعلم أن في خلال بضع سنوات ستقطع على الطرق في ذلك البلد (إفريقيا)، التي تقف مفتوحة أمامكم الآن. لا تتركوها تنغلقت ثانية".

كان هوس الأوروبيين واندفاعهم ليُلقوا على الأبواب مفتوحة زخماً بدرجة أن عقد بسمارك، مستشار ألماني، مؤتمراً ببرلين عام ١٨٨٤ لوضع قواعد لحمل الاندفاع إلى إفريقيا (وهذا تعبير ابتدعه التايمز). بدون ريب، كان المسعى إلى المكاسب هو ما مهد الطريق لكن الأهم كان هو المسعى إلى المجد وتوسعه الخلاء.. ويمزج تلك العوامل جيداً مع الرؤى الاستراتيجية للسويس والهند، أتت النتيجة خليطاً قاتلاً فتاكاً.

استمرت شو في دعم مغامرات لوجارد الإفريقية. نشرت التايمز عام ١٨٩٧ مقالاتها الخمس عن غرب إفريقيا، ومعها طرحت اسم "نيجريا" لأول مرة، وأوجزت التبريرات لمقاومة البريطانيين عمليات "جس النبض" الفرنسية التي تجرى في

منطقة نهر النيجر. وقع اختيار تشمبرلين على لوجارد ليقود قوة مهمات غرب إفريقيا أسمتها الصحافة الفرنسية "سباق خيل واقعى على السهول الإفريقية". نجحت الحملة. وحينما تجاوز لوجارد الأوامر الصادرة إليه، بذلت شو جهدها من أجل حفظ السلام بينه وبين تشمبرلين. أبلغت لوجارد قائلة "أنظرُ إلى الأمر كجزء من عملى الشخصى وأحاول تجميع كل التأثيرات التى أعتقد أنها ستعمل لخير (ما تقوم به) فى إفريقيا بحيث نتناغم معاً".

ويعد أن كان لوجارد قد عمل أجيرواً لدى أربع شركات ذات امتيازات ملكية، اتخذ موقعه كأحد كبار اللاعبين فيما وصفته مؤرخته مارجرى برهام، بتأثر وحماس: "عمليات (نشر) الحضارة البناء، والتى خلالها سار الرجال البيض، بأنسال بالية، ولهى وشوارب طويلة، وهم على قناعة راسخة يسموهم العرقى ومهمتهم القومية والإنسانية، ساروا أميالاً فى الغابات، تحت الشمس والأمطار، وسبحوا عبر الأنهار وأصطنابوا الحيوانات، وغرسوا أعلام بلادهم، وسال عرقهم، أو ماتوا فى خيامهم من الملاريا!!"

فى ١ يناير عام ١٩٠٠، تسلم مهام منصبه بصفته المندوب السامى بشمال نيجيريا، وبدأ بهذا حياة وظيفية جديدة فى الإدارة الإمبريالية وقام بالتنظير لما أسماه "الحكم غير المباشر". كانت تلك استراتيجية قديمة، يرجع تاريخها إلى الإمبراطوريتين الرومانية والمغولية، واستخدمها الصينيون، وأضاف إليها المغول بالهند المزيد من التفاصيل والتعقيدات، وتبناها حاكم الهند البريطانى - وفعلها بنجاح الشقيقان لوردنس: جون و/هنرى، اللذان حكما البنجاب - لكن تطبيقها فى نيجيريا كان جديداً. استمر أمراء القبائل ورؤساؤها يُسيرون الأمور، ولكن البريطانيين كانوا هم من يحكمون من خلالهم. أوضح كلود ماكدونالد أحد حكام لاجوس هذه الرؤية بالقول "إن رئيس القبيلة الكبير هو من الممتلكات النفيسة: وسلطته أداة ذات منفعة عامة عظيمة، ومن المرغوب فيه بقوة الحفاظ على سلطته

كاملة". أما لوجارد، فقد عبّر عن هذا بعمومية أكثر موضحاً أن هدف الإمبراطورية البريطانية هو "الحفاظ على الحكم التقليدي كقلعة للأمن المجتمعي في عالم متغير". كانت إدارة المستعمرات الاستوائية والشرقية والتي كان يلهمها العرق لا الطبقة، انعكاساً للتراتبية الاجتماعية البريطانية. تربع الجنس البريطاني على القمة، يليهم الأمراء من قبيلة الفولاني، ثم الهوسا المسلمون، ثم بعد ذلك بقية قبائل "الغابات". وكما يقول دافيد كانادين في كتابه "الزخرفة" فقد كان كون بشرة الأشخاص أقل أهمية من وضعهم حسب التراتبية الاجتماعية المحلية. من ثم، كان الحكم البريطاني دلالة على استمرار الماضي لا قطيعة معه، وكما أوضح لوجارد في خطابه للسلطين المحليين ورؤساء القبائل بعد أن فتح مدينة سوكونو عام ١٩٠٢ "فتح الفولاني قديماً، بقيادة دان فوديو، هذا البلد. من ثم اكتسبوا الحق في حكمه وفي فرض الضرائب وخلق الملوك، وصنع الملوك. وبدورهم، فقد الفولاني سلطتهم لأنهم هُزموا واكتسبها البريطانيون. والآن تصبح كل تلك الأشياء التي نكرتها كحق للفولاني ملكاً البريطانيين، الفاتحين الجدد. سيتم تعيين كل سلطان وأمير، وجميع المسؤولين الرئيسيين في الدولة في جميع أنحاء البلد بواسطة المندوب السامي".

ووصفته المندوب السامي البريطاني في نيجيريا الشمالية، أكبر مستعمرات التاج البريطاني، تمكن لوجارد من أن يحكم مساحة هائلة - حوالي ٣٥٠٠٠ ميل مربع - بميزانية متقشفة، وعين وكيلاً بريطانيا "الخط الأبيض الرفيع" في كل بلاط لحاكم إسلامي محلي، ودعم هؤلاء النواب مساعدات يقدمونها للأمراء ورؤساء القبائل وأحياناً حملات عسكرية عقابية. كان جوهر نظام حكم لوجارد غير المباشر هو "ممارسة السلطة من وراء ستار". أوجز هيو كليفورد، أحد "نواب" لدى الحكام النيجريين هذا المبدأ كالتالي: "ينبغي على المسئول السياسي البريطاني أن يكون الهمة التي تنبثق من خلف كرسي العرش، لكن ليس العرش نفسه أبداً ولو لحظة". بيد أن الحكم غير المباشر اقتضى وجود نقيضين لا يمكن التوفيق بينهما.

فعلى الرغم من تبرير الإمبريالية الجديدة نفسها كعامل للتحديث أبقى البريطانيون على هرمية السلطة الموجودة بالفعل وعلى الحكام الذين كانوا مقاومين لأى تغيير جوهري. هذا علاوة على أن السلاطين والأمراء كانوا مدينين بمناصبهم للأجانب والكفار، وبذلك فقدوا شرعيتهم بالنسبة لمواطنيهم، وفي أغلب الأحوال أصبحوا مرتبكين، فاسدين ومنحلين. لكن، وعلى الرغم من عيوب النظام، فقد طبق البريطانيون وصفاً تصنع الملوك ذاتها على الشرق الأوسط وغدت نتائجها جليلة حتى يومنا هذا.

فى عام ١٩٠١، عرض فريدريك الزواج على فلورا. فى البداية، رفضت العرض، ثم لانت، ووضعاً الاثنان خططهما فيما كان هو يمارس مهامه الوظيفية كمنسوبة سام بنيجيريا. أقيم حفل الزفاف عام ١٩٠٢ بماييرا وسط أشجار الجارنيدا والبوجياثيل والورد. كانت العروس فى التاسعة والأربعين والعريس فى الرابعة والأربعين.

وعلى الرغم مما اشتهر به لوجارد من نقشف وعدم الاهتمام بالعيش المريح الرغد وزعمه أنه لا يأنه بالمانيات، إلا أن نيجيريا أبرزت شهوته للترف والانغماس فى ملذات الحياة. قبل زواجه بعامين، رست عبارة محملة بالاثاث فى نهر النيجر. شمل هذا الاثاث، وفقا لقائمة السير فريدريك (لوجارد) نفسه طاولات ومناضد من جميع الأنواع والاشكال ولجميع الأغراض، أرائك، مقاعد وثيرة، نواليب، أحواض رخامية، خزانات، شيزلونجات، وكراسى من خشب الورد، وآلات لصنع الثلج، وأطقم صينى ضخمة (١٢٠ طبق للطعام من الصينى والزجاج والاطباق المطلية كهربائياً) وسجاجيد، وأنوات مطبخ، وكل ما يخطر على بال) أضيف إلى هذا ست وأربعون حاوية خاصة بفلورا إلى جانب صناديق أخرى بحيث غدا من الضرورى توسيع قصر الحكم ليتسع لكل ما رآه الزوجان ضرورياً لمنصب البروقنصل.

وعلى الرغم من تلك الأبهة، واجهت شو، تلك الشخصية الكوزموپوليتانية حياة رتيبة فى نيجيريا المنعزلة المتخلفة، كما عبرت عن ذلك فى خطاب لابنة شقيقها:

"لا يوجد ما يحدث على الإطلاق فيما تمر الأيام. أستيقظ بين الرابعة أو الخامسة. يُحضَرُ إليّ شاي الصباح المبكر في السادسة. أبعث الخادم إلى حجرة فرد ليخبره أن الشاي جاهز. يدخل ناعساً ويتناول فنجاناً ثم يمشى إلى مكتبه حيث يكون في انتظاره أكوام من الورق... ينتهي فرد من العمل في السادسة مساءً، حينما تكون الشمس على شفا الغروب وتخرج للتمشية سريعاً من أجل ممارسة الرياضة ونحوه وقد تبكت ملابسنا بالعرق وكأنا قد ألقى بها في طشت غسل... بعد العشاء نمضي ساعة في الشرفة ثم نفترق في العاشرة أو الحادية عشرة ويذهب كل منا إلى غرفته".

ورغم أنها كانت تبدو امرأة يمكنها الذهاب إلى أي مكان حيث تكتب بعناية ثلاثة أعمدة صحفية على ظهر حقيبة ملابس بالصحراء، فقد اعترفت فلورا أنها لم تكن تهتم حقاً بتفحص حياة السكان المحليين. كان لوجارد كثير الأسفار، وكانت هي تشعر بالوحدة والاكئاب. كما وجدت المناخ والحشرات الضارية تفوق قدرتها على الاحتمال. أصابها المرض بعد حياة من البطالة، وأمرها الأطباء بالعودة إلى وطنها. عادت إلى قصرهما الريفي في غابات ساري بالقرب من أبينجر بإنجلترا. هناك حوكت الأبواب الخشبية الضخمة التي كانت في الواقع جزءاً من قاعة الاستقبالات الرسمية بمدينة كانو بنيجوريا وتذكراً لغزوات لوجارد هناك حولتها إلى بارفانات. كانت غرفة الجلوس الرئيسية مُزينة بالرماح، والدروع وروس الطرائد وجلودها، وطيلة بوغندا الملكية التي يُستدعى بها الضيوف إلى العشاء. كتبت لفردريك تقول 'بالها من أشياء جميلة تلك التي أحضرتني إياها من جزر الكناري، لكنني واثقة من أنني سأحب الروس والجلود التي اصطدتها أنت أكثر كثيراً. إنك تعلم بالفعل كيف يروقني أن أرى القاعة مؤسسة بالكامل بغنائم قوسك ورمحك'.

وما أن طبيعة لوجارد كانت تجعله لا يستطيع أن يُفوّض أي عمل إلى الآخرين - كان يشرف بنفسه على شراء ورق المراحيض - فلم يترك شيئاً لخيال مروسية.

كتب لفلورا قائلاً "أحب الحياة الفخيمة التي يوفرها لى مركز القيادة حيث أستطيع الشعور أنني المسئول الأوحد عن كل شيء". توقع من نوابه المقيمين (لدى الحكام المحليين) ان يكونوا إداريين وديبلوماسيين أيضاً وعلى الرغم من عدم وجود حماعدين لهم أو آلات كاتبة لديهم كان عليهم إعداد حوالى ثلاثين مجموعة من المحاضر والسجلات يتم ترتيبها فى ملفات، أو ترسل إليه، وكانت تغطى تفاصيل كل شيء بدءاً من الضرائب حتى القوافل، وفقاً لما ذكره بالتفصيل فى كتابه الشهير "مذكرات سياسية" الذى نشره عام ١٩٠٦. شملت بروتوكولات إدارة "الرئيس" لجميع تفاصيل التعاملات اشتراطات بمنح كبار رؤساء القبائل سجادة بدلاً من كليم، وان ينهض "المنوب المقيم" واقفاً حينما يستقبل أحد رؤساء القبائل أو يصرفه من مكتبه وألا يظل جالساً.

وعلى الرغم من ذلك، ظلت كل السلطات - الضرائب، التحكم فى الشرطة والجيش، سن القوانين، التعامل مع الأجانب أو فصل مروسى الحاكم - فى يد النائب البريطانى المقيم، رغم وجوب الحفاظ على مكانة "برستيج" الأمير أو السلطان.

يجد القراء اليوم مراسلات الزوجين لوجارد اليومية - المليئة بالتفاصيل الإدارية من جانبه، والتشجيع والأفكار من جانبها - يجنونها قراءة تبعث على الكآبة: كل هذا الجهد نظير كل هذا التجاهل أو الإزدراء بعد وفاتهما. وعلى الرغم من تقائيهما فى "العمل" فقد وجدا الفراق صعباً. وكحل للموقف توصلا إلى خطة لـ "الإدارة المستمرة" والتى كانا يشاركان إليها فيما بينهما باسم "المخطط". كانت تتيح للوجارد الذى كان ييغض الإجازات وإناطة المهام لى أحد آخر، ان يحكم لمدة ستة أشهر من مكتب وزارة المستعمرات برئاسة الوزارة بداوننج ستريت، ولدة ستة أشهر أخرى من قصر الحكم بنيچريا. وبهذا انتقلت أرض المعركة من إفريقيا إلى

هوايتهول، وست ميشستر، فليت ستريت، وماى فير (مراكز الحكم والمال والصحافة بلندن). وكما ذكرت مؤرخة لوجارد، مارجرى پرهام كان هو يصدر التعليمات العامة ويكتب المذكرات؛ وكانت هى تعمل لكسب تأييد الشخصيات المهمة جميعها. وفى حماسها هذا، سعت إلى كسب تأييد كثيرين ممن لم يكن لهم أهمية كبيرة فى واقع الأمر. انهالت الزنابق التى كان لوجارد يجمعها بنفسه على تشمبرلين هذا على الرغم من أنه كان آنذاك، قد استقال من الوزارة عام ١٩٠٣ بعد تنبيه امتيازات التجارة الإمبريالية. نجحت فلورا فى إقناع وزير المستعمرات الجديد ألفريد ليتلتون، الرياضى الوسيم، ان يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى قصرهما الريفى بأبينجر، لكن جهود الزوجين ذهبت أدراج الرياح حينما انخرقت "الخطـة" عن مسارها نتيجة لانتخابات عام ١٩٠٦ التى أتت إلى الحكم بالحزب الليبرالى برئاسة هنرى كامبل - بانرمان بدلاً من حزب المحافظين برئاسة آرثر بلفور. حينما أصبح اللورد إلجين وزير الدولة للمستعمرات رفض المصادقة على الترتيب غير المكتوب الذى كان الزوجان لوجارد قد توصلا إليه مع ليتلتون.

التجأت فلورا إلى التاييمز وقد رفضت ان تستسلم. كشف مقال تحريرى رئيسى طويل بالتاييمز يصادق على "الخطـة" عن أنها هى الكاتبة. أُلقت محاضرات عن نيچريا بالمعهد الملكى الكولونيالى وجمعية الفنون، استُثارت بها تعليق عتاب نادر من لوجارد الذى قال: ألم يكن بإمكانها أن تترك لى مجال تخصصى الوحيد؟. ظهر كتابها "التبعية الاستوائية" وعليه إهداء "إلى زوجى" عام ١٩٠٦، وأُرسلت ست نسخ منه بأغلفة جلدية فاخرة إلى الملك إدوارد السابع، وبلفور ومليتز وليتلتون. جاءت تعليقاتها فى الكتاب متأثرة بالكاتب راسكين حيث قالت إن بناءة الإمبراطورية البريطانية "يتكونون بشكل أساسى من هذا النمط من الشباب الإنجليزى جنوداً كانوا أم مدنيين، العازمين على خدمة بلدهم بأقصى ما باستطاعتهم ويخوض قدر كبير من المغامرة.. وعلى الرغم من أنهم كانوا ألا يكون لديهم أية خبرة عن إفريقيا،

بيد أن تدريبهم في المدارس الإنجليزية الداخلية الأهلية، والجيش، والجامعات، حيث يُعدّ الرجال جميعهم بالتساوى للاضطلاع بالمسؤولية، والخضوع بإخلاص وموالةٍ للسلطة، (وبهذا فهم يمثلون) جوهر وقوام الأمة الإنجليزية الأمثل.

٥ وعلى الرغم من حملتها تلك، فقد وقعت "الخطأ" ضحية، ليس فقط لتغيير الحكومة لكن أيضاً لمقاومة زملاء لوجارد بوزارة المستعمرات الذين رفضوا فكرة أن يتدخل رجل موقعه هناك" (في المستعمرة) في عمل صناع السياسة بالوطن. كانت فلورا قد حاصرت أحدهم، أي ونستون تشرشل الوكيل الجديد لوزارة الدولة لشئون المستعمرات. كتبت لوجارد عن حوارها مع "الصبي الجاهل" الذي يبلغ الحادية والثلاثين من العمر، تقول لم ير أي سبب يصبح من أجله مقر وزارة المستعمرات بانثيوناً (مبنى عاماً) يتجمع فيه "البروقناصل".

لكن هذه ليست القصة كاملة. قبل انتخابات عام ١٩٠٦، كان تشرشل قد انتقل من حزب المحافظين إلى الحزب الليبرالي الذي كان يدين، جزئياً، بانتصاره لعدم شعبية حرب البوير التي انتهت واقعياً بالتعادل بين الفريقين المتحاربين. لدى توليه منصبه الجديد، قام الشاب ونستون على الفور بمواجهة المآزق الأخلاقية للعمليات البوليسية الإمبريالية وأنشطة الشرطة في المستعمرات. كانت انتفاضة قد اندلعت بمدينة سوكونو بشمال نيجيريا بقيادة شخص يدعى مالام (معلم) نصب نفسه "الهدى المنتظر" لقي فيها اثناً من "نواب" الحكام البريطانيين، وضابط أبيض، وسبعون من خيالة الشرطة حتفهم، حيث قتلوا بالمعازق والفنوس والرماح. اقترح لوجارد عملية ثأرية تُستخدم فيها رشاشات المكسيم. لكن تشرشل عارض "إبادة الغوغاء شبه العرّك" واشتكى لزملائه قائلاً: إن لوجارد يتخيل نفسه قيصراً، ونيجيريا إقطاعيته الروسية الاستوائية. ألحق تشرشل المذكرة التالية بالأمر الذي يحظر الحملة العقابية: "إن عمليات إراقة الدماء المزمعة التي تلطخ المواسم غرب الإفريقية كرهية وباعة على القلب. هذا على الرغم من احتمال إساعة تؤول المغامرة

بأكملها من خلال من ليس لهم دراية بالمفردات الإمبريالية بصفتها عملية قتل للسكان الأصليين والاستيلاء على أراضيهم".

عاد لوجارد غاضباً إلى إنجلترا في إجازة في صيف ١٩٠٦ واستقال في سبتمبر. في هذا الصدد، كتبت شو تقول كانت تلك الملابس العvisية تدمر صحتة، وفيما نكتت الحكومة بعدها معه شعر بعدم وجود إلزامات جديرة بالحفاظ عليها كي يستمر في منصبه. ويعد فترة قضاها حاكماً لهونج كونج، وفلورا إلى جانبه، تمكن مكتب المستعمرات من إغراء لوجارد للعودة لإنشاء اتحاد بين شمال نيجيريا وجنوبها، الأمر الذي مثل خاتمة مناسبة لحياته الوظيفية. خلال فترة حكمه الثانية بنيجيريا ما بين عامي ١٩١٢ و١٩١٨، حيث عُيّن حاكماً عاماً لنيجيريا المدمجة، واجه تحدياً يصعب التحكم معه في تطبيق نظام الحكم غير المباشر في المناطق الجنوبية والغربية حيث لم يكن ثمة هَرَمِيَّة اجتماعية قبلية على رأسها أمير أو سلطان. وعلى الرغم من اندلاع أعمال شغب عديدة ثابر في تطبيق استراتيجيته. لكن، بأية نتيجة؟

يزعم لوجارد في كتابه "الانتداب (التفويض) المزدوج في إفريقيا الاستوائية البريطانية" الذي نُشر عام ١٩٢٢ بعد أربعة أعوام من تقاعده، أن نظامه لـ الحكم غير المباشر كان أكثر الأنظمة شمولية وأَسَاقاً ونيوعاً لإدارة الحكم في تاريخ الامبريالية البريطانية. رأى أن أوضاع الانتداب كانت تبادلية إذ إن أوروبا موجودة بإفريقيا من أجل المنفعة المتبادلة لطبقاتها الصناعية وايضا منفعة الأعراق المحلية (للعمل) على ارتقائهم إلى مستوى أعلى. زعم أن المناطق الاستوائية هي "إرث البشرية" جمعاء. وأن المهارات الأوروبية تُستغل نظير الحصول على موارد تلك المناطق الطبيعية. تصور لوجارد مستعمرات يديرها موظفون كولوناليون مؤهلون من "الطبقة المناسبة من خريجي مدارسنا الداخلية الأهلية وجامعاتنا" تدفعهم مدركات شبه حماسية عن العدل، وحماية الضعفاء، والتزام بالقواعد

والقوانين. لكن ناقدية رأوا أن نظامه خفق المؤسسات الأهلية للسكان المحليين بتفضيله للأمراء القبليين المسلمين الذين يرتدى حراسهم دروعاً من الحلقات الحديدية المتداخلة، على خريجي المدارس التبشيرية المسيحيين، والأسوأ من هذا وفقاً للورد هايلي، المؤرخ المرجعي لإفريقيا البريطانية، فإن ما قصد به أن يكون سياسة مؤقتة، تبيس ليصبح "مبدأ سياسياً" ثم "عقيدة دينية".

علاوة على ذلك، يرى الناقسون أن محاباة لوجارد لأمراء القبائل المسلمين بالشمال أوجد صدعاً مازال موجوداً حتى الآن، انقساماً فاقمه اكتشاف النفط في الجنوب المسيحي بأسلوب يماثل أسلوب المسئولين بالهند، وسم لوجارد المتعلمين الأفارقة بلاجوس بوصفه أيامهم بأنهم "بابوهات baboos" وهو مصطلح قديم مهين كان يوصف به نور التعليم الغربي بالبنغال، كما منع تدريس الجزء الخاص بخلع الملك تشارلس الأول وقتله أثناء الحرب الأهلية الإنجليزية في القرن السابع عشر خوفاً من أن تعمل تلك المعلومات على "تنمية عدم احترام للسلطة". اتبع خلفاؤه خطاه بتفضيلهم أمراء قبائل الفولاني والهوسا على سكان "الساحل الإفريقي" مما أدى إلى توليد المشاعر العدائية التي أسهمت في النزاعات المدنية والأهلية التي ابتليت بها نيجيريا منذ الاستقلال عام ١٩٦٠ وحتى يومنا هذا. الأهم من ذلك، وكما سنرى في الفصول اللاحقة فإن وصفته للحكم غير المباشر كما فصلها بوضوح لأتباعه في كتابه "مذكرات سياسية" أصبحت النموذج المعيارى للمغامرات الإمبريالية المستقبلية بالشرق الأوسط، تلك الاستراتيجية التي وصفها أحد الكتاب الساخرين بأنها استراتيجية "شيخ للإيجار، وأمير للبيع".

وعلى الرغم من أن لوجارد تقاعد عام ١٩١٨، إلا أنه استمر يعمل في اللجان والمجالس عالية المستوى، وفي المفوضية الدائمة لشئون البلاد تحت الانتداب التابعة لعصبة الأمم. استمرت فلورا، التي كان من غير الممكن لها، مثل زوجها، أن تظل دونما عمل، في كتابة المقالات بين الآونة والأخرى. حصد لوجارد تنويعاً من

الأوسمة والدرجات الجامعية الشرفية، وفي عام ١٩٢٨ مُنح لقب بارون ليصبح لوجارد، بارون إيبينجر. وكالمعتاد، كان لليدي لوجارد الكلمة النهائية قالت وهي تعانق هدية عيد ميلاده التي كانت عبارة عن مجموعة مناديل من الكتان الفاخر المشغول عليها تاج النبالة هذه هي الهدية التي أحبها، هدية قضيت العمر كله كي أكرمها. وبعد مرض طويل، توفيت الليدي لوجارد في ليتل بانكهرست يوم ٢٥ يناير ١٩٢٩ وهي في السادسة والسبعين وطوال مدة السنوات الست التي عاشها زوجها بعدها أبقى على غرفتها تماماً كما تركتها. نُقش على الرخام فوق قبرها بكنيسة إيبينجر العبارة التالية "كل ما فعلته كان أن أحاول وأصفّ قوالي بأتساق".

الفصل الثالث

"د. وايزمان..... مبروك جالك ولد"

مارك سايكس

١٨٧٩ - ١٩١٩

أعطني رمحي! أيتها السحب انقشعي!

أتتى عريتى النارية!

لن أتوقف عن معركتى العقلية

ولن ينم سيفى فى يدى

وحتى نقيم اورشليم

على مروج إنجلترا الخضراء، وأرضها الطيبة.

ويليام بلايك "ميلتون" (١٨٠٨)

حينما نتناول السير مارك سايكس، سادس وريث للقب البارونتية في أسرته، الرحالة وصانع الأمم، ورسام الكاريكاتير، والفارس المتجول المغامر، فإننا بذلك نترك عالم كيبلينج شاعر الإمبريالية وأبطالها، ونلج عالم الأديب ترولوب - ليس عالم أنطوني ترولوب الروائي صاحب بارشستر تاووز و"شخصياتها" الكنسية - بل عالم كاتب سداسية القصص البرلمانية الرائعة وشخصياتها من النبلاء غربيي الأطوار والمغامرين الوضعاء وريبات البيوت المتعجرفات الأمرات الناهيات، وأعضاء البرلمان الأيرلندي المبذرين السفهاء. وبشكل نمطي، تتمحور قصص ترولوب حول أحد الوجهاء الفرسان، من ملاك الأراضي الريفيين، مُسْتَقْل ماديًا، وبود وحلو المعشر. تميزه العزيمة وقوة الشخصية، وعينه الزائفة.. أحياناً.. عادة ما يكون هذا الشخص طفلاً لوالدين عاطفيين غير متكافئين، يتكتمان، كما يكتشف القارئ، سرّاً

قائماً دقيماً. فى الفصل الأخير، تتجمع الخيوط، ويحصل البطل على جائزة تليق بقيضته على الأمور، مثلما حدث مع مارك سايكس الأب الروحى غير المتوقع لدولة إسرائيل، والذى لا يذكره أحد، بعامة، بصفته هذه.

القليلون من وجهاء يوركشاير الفرسان هم من كانوا أكثر ثراء (أو تبطلاً) من والد مارك، السير تاتون سايكس مالك اقطاعية سلامير، والذى كان يمتلك ثلاثة وأربعين ألف فدان، وكان زوجاً لچسيكا (چيسى) كافنديش - بنتنيك، ابنة أحد أعضاء البرلمان البارزين عن حزب المحافظين، وحفيدة دوق پورتلاند الرابع. كان زفاف والد مارك، الوريث الخامس للقب البارونتيّة، بكنيسة وستمينستر، حديث الموسم بلندن، جزئياً بسبب الهدايا السخية التى قدمها العريس لعروسه (التى كان من بينها إكليل وطقم من الماس)، وجزئياً لأن چسيكا كانت فى الثامنة عشرة، وكان

تاتون في الثامنة والأربعين. يذكر روجر أدلسون، مؤرخ مارك، وجود رواية مصورة بمكتبة سلمير بها رسم لرجل عجوز ناس على كرسيه كتبت تحته جسيكا بالقلم الرصاص (شهر العسل ١٨٧٤). بيد أن فارق السن لم يكن وحده هو الذي ألقى بظلاله على الزواج. يذكر "معجم البيوجرافيا القومي" بلباقة أن السير تاتون كان يمارس هوايات طبخته وكان مدمناً للسفر إلى الخارج "كان لجسيكا اهتمامات أوسع". كانت قد درست الفن بباريس، وكانت مولعة براسكين (زارته بمدينة البندقية) ومثل الليدى كاربورى في رواية "الأسلوب الذى نحب به اليوم"، تحولت إلى التأليف وكتبت روايات استقبلت جيداً. كانت أنيقة اجتماعية، مسرفة ومتعمدة؛ وكان هو ذا لياقة بدنية، شحيحاً، مهتمم الزى والمظهر، مخلوقاً محافظاً، عاداته خشية صارمة لا يغيرها.

في عام ١٨٧٩، ولد للزوجان طفلهما الوحيد، الذى يعرفه العالم باسم مارك، لكنه قُيد في سجلات الكنيسة باسم تاتون بنفنتو مارك سايكس (أضافت جس الاسم الإيطالى بنفنتو، وكان "تاتون" لقب عائلة والده واسماً قديماً من مقاطعة يوركشاير). حينما كان مارك فى الثالثة، تدخل فى حياتهم فعل إلهى. تقاسم والداه اهتماماً جاداً بالدين، وحماساً لإحياء فن المعمار القوطى بدرجة أن السير تاتون أسهم فى تمويل إصلاح خمس عشرة كنيسة أنجليكانية من هذا الطراز. كان زمانهما زمان حماس وتقلبات دينية، نمذجتها "حركة أكسفورد" المقلقة التى أدت إلى انقسام أتباع الكنيسة، بين صفوة مؤسسة أكسبريدج (أكسفورد/كامبريدج) المحافظين وأعضاء مجلس العموم (اعتبر جلدستون اعتناق جون هنرى نيومان الكاثوليكية "كارثة"). تبعت الليدى سايكس الطريق إلى روما والذى قاده الكرادلة نيومان وألفرد هنرى مانينج (الذى كانت تتبادل معه الرسائل أثناء رحلتها فى إيطاليا مع زوجها)، تقبل الكاردينال مانينج جسيكا فى العقيدة الكاثوليكية وأجرى لها المراسم ومعها ابنها الذى كان فى الثالثة. رفض السير تاتون المشاركة لكنه لم

يعارض قرارها. لكن طريقهما تشعب، وتساءل أصدقائه إلى متى، وإلى أى مدى، سيستمر البارونيت الخامس النزق فى إرضاء نزوات زوجته العنيدة، وبخاصة بعد أن استقلت بحياتها، وبدأت تستضيف أصدقاءها وتقيما الولايم بمنزلها بحى هايفير، وسعت، ونوما جنوى، لإخفاء الديون المتضخمة لجلسات القمار.

لكن إيمان الزوجين للأسفار، عادة إلى أماكن بعيدة فى العالمين القديم والحديث، أجل موعد المحاسبة. كانا يسافران بأسلوب فخيم، وأحيانا كانت المجموعة التى تنتقل معهما تضم ابنيهما، وطاهيا، ومرافقا ومدرسا خصوصيا. حينما بلغ مارك الحادية عشرة كان قد تفقد "طريق الآلام" بالقدس، وشاهد مصارعة الثيران بالمكسيك، وملأ دواياه بمختلف الخوذات وأغطية الرأس التى ابتاعها من البازارات العثمانية. كان أيضاً قد زار بصحبة والده أماكن غير مألوفة حيث شاهد نزلاء مستشفى المجانين بدمشق (قال عنهم: لن أنسى أبداً مشهد البؤس والرعب هذا) واحتسى الشاي مع شيوخ الدروز بجبل لبنان "ملانى كرم ضياقتهم وكبريائهم بمشاعر الإجلال والتوقير). شملت أسفاره أيضاً الهند حيث قابل الحاكم البريطانى، ومصر، حيث حدّق وهو فى أسوان فى تخوم "الدرايش" وحيث أصبحت اللبدي سايكس، فى القاهرة، عشيقته الديبلوماسى الشاب جون إلون جورش (الذى خلف، فيما بعد اللورد كرومر كبروقنصل مصر، والذى أصبحت ابنته إديث ثيوليت زوجة مارك).

حينما عادوا إلى إنجلترا سجلت چسيكا ابنها مارك بكلية بيمونت التى كانت تعرف بصفتها المناظر الكاثوليكي لمدرسة إيتون النخبوية، والتى كانت تقع فى الأخرى بضاحية ويندسور. وفيما هو طالب مقيد بالمدرسة، كان الصبى يأخذ إجازات لأشهر عدة ليسافر مع والديه ويعود ومعه مختلف أنواع العائم والتوهوك (فئوس صغيرة خفيفة كان يستعملها هنود أمريكا فى القتال) التى كان يستخدمها فى ألعاب الحرب التى كان يقوم فيها ببور أعرابى أو هندي أمريكى. حاز على

إعجاب زملائه فى المدرسة لجرأته وصلافته مع الكبار وعدم اهتمامه بملابسه. كان آنذاك قد أظهر موهبة فى الكاريكاتير حيث ملأ دفاتره بأسكتشات مازحة مازال يُحتفظ بها فى أرشيفات سلمير العائلية.

فى عام ١٨٩٥، وبدعوى إعداد ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عاماً للجامعة، ألحقت ليدى سايكس ابنها بمدرسة جزويت فى مونت كارلو، حيث تشارك فى شقة مع أمه، وثلاثة كلاب صيد من فصيلة "التريير"، ومدرس خصوصى اسمه إجرتون بك. تمهلت چسيكا فى إقامتها بموناكو، وأخذت تراكم الخسائر على موائد القمار، لكنها أيضاً كونت علاقة صداقة مع أمير موناكو وأميرتها.

تذكر مدرس مارك الخصوصى، بعد سنوات، أن مارك استوعب، أثناء إقامته بموناكو، ما رآه جديراً بالاستيعاب. كان يهتم بكتابه وبالأشخاص من حوله، وجد الأمور الغريبة بموناكو مدعاة للتسلية، مثلاً جيشها المصغر، الجدار الأبيض الذى كان يُستخدم لكتابة الأخبار والتعليمات الرسمية عليه، وكيف أن كازينو القمار هناك هو الذى كان يدير مؤسسات الأمير والأساقفة والكنيسة والدولة بموناكو. وبعد أن قدمته أسرة جريمالدى الحاكمة بموناكو إلى المعارف والأصدقاء، كان مارك يتحدث فى حدائق القصر مع الدوق ريشيليو (شقيق أميرة موناكو)، وقام هو ووالدته بزيارة أوجينى، إمبراطورة فرنسا المخلوعة فى محل إقامتها بكاب مارتن. لكن، وفقاً لتعليق مارك كان أكثر ما حاز على اهتمامه هو الكازينو حيث تعلمت كل شيء عن موائد القمار ومديرى الألعاب.

من الواضح أن طفولة مارك لم تكن عادية. قد يأسر اهتمام الأطفال البريطانيين الآخرين، القلاع، والدروع، والفروسية، لكن مارك، الوريث الصغير، أقام على مروج سلمير نموذجاً لقلعة على مساحة عشرة أقدام مربعة، نموذجاً كاملاً بالتحصينات والأجزاء النائية، والكوات والاستحكامات. والحصون الجدارية، والمدافع، على غرار تصميمات سباستيان فويان المهندس العسكرى الفرنسى. ابتلع

إعادة تمثيله اللات للفت لحصار عسكري حدث في القرن السابع عشر، ابتلع مرجة القصر، تماماً مثلما فعلت المعارك التي مثلها مع الشباب المحيطين بالبركات العسكرية وانقسموا فيها فريقين أحدهم يمثل الثوار البيوريتانيين (Round-heads) الإنجليز في القرن السابع عشر والآخر يمثل أنصار الملك تشارلس الأول (Cavaliers). قد يحلم بعض من الصغار أيضاً بالماضي، لكن كان بإمكان الصبي مارك قراءة المخطوطات الخاصة بعائلته والتي يرجع تاريخها إلى العصر التيوبوري في القرن الخامس عشر. قد يبدى بعض شباب العائلات الراقية الفضول حول حياة الفيكطوريين الجنسية الخفية، لكن مكتبة العائلة بسلامير التي امتلأت أرففها بمجموعات الكتب المتقاة أتاحت لمارك الاطلاع على تعليقات ريتشارد برتون ومقاله "الختامى" الذي ألحقه بترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة والذي كان يتعاطى مع الممارسات الأيروسية في المنطقة التي كان الجميع يسمونها "الشرق".

بيد أنه وقعت أحداث غامضة غير متوقعة. في عام ١٨٩٦، نُقل مارك من مدرسة مونت كارلو إلى معهد سانت لوى الكاثوليكي ببروكسل. ولدى عودته إلى مونت كارلو لقضاء إجازة عيد القيامة (وفقاً لما رواه مؤخراً حفيده كريستوفر سايمون سايكس) توقع استقبلاً حافلاً من كلابه، الذي كان عددها قد أصبح ثمانية، لكنه وجد بدلاً من ذلك صمّتا صقيعياً فيما تحاشى الخدم النظر في عينيه. ثم، وبناء على تعليمات كان السير تاتون قد أصدرها، رافقه أحد السياس إلى الطريق الطويل الذي تسير فيه العربات: "وهناك وتحت شجرة زان مرتفعة إلى جانب إحدى البوابات الحديدية، كان بانتظاره مشهد بشع: جثث كلابه الحبيبة متدلية من أحد الأفرع، بعد أن تم خنقها حتى الموت بناء على أوامر أبيه".

المرجّع، أن السير تاتون، الذي كان يزداد غمّاً بمرور الأيام بعد أن أصابه الغضب والسخط نتيجة لتراكم ديون زوجته وانتشار الشائعات عن خياناتها الزوجية، قرر توجيه الضربات الثأرية لها، في البداية من خلال ابنها، ثم بعد ذلك

من خلال الصحافة، نشر، بناء على نصيحة المحامين، الإشعار التالى فى التاييمز
أنا، السير تاتون سايكس، وبارونيت سلميير بمقاطعة يورك، ورقم ٤٦ شارع
جروفر بمقاطعة لندن، أعلن بموجب هذا الإشعار أنتنى لن أكون مسئولاً عن أى
ديون أو التزامات تلتزم بها زوجتى، الليدى چسيكا كريستينا سايكس، سواء بزعم
أنها باسمى، أو بموافقة منى أو خلافه، مؤرخ يوم ٥ ديسمبر عام ١٨٩٦. "كان
إخلاء المسئولية هذا قابلاً للتطبيق وفقاً لقانون كان البرلمان قد وافق عليه مؤخراً
وأصبح السير تاتون أول من استخدم هذا السلاح المشين. وعلى الرغم من ذلك،
ساورت الشكوك أصدقائهما فى وجود أزمة فى الكواليس قد يعزى إليها غضب
السير تاتون. اتضح أن ثمة أزمة بالفعل هذا على الرغم من أن طبيعتها غير
المتوقعة ظلت سرّاً قرابة قرن من الزمان.

فى يونيو ١٩٧٦، تلقى كريستوفر هيو سايكس، ثانى أبناء مارك الثلاثة (وعم
كريستوفر سايمون سايكس) خطاباً غريباً من امرأة لا يعرفها اسمها فيرونيكا
رويرتس. بدأ خطابها كالتالى: "أبى، الذى اشتد عليه المرض الآن، هو ابن والدك
وأليس كارتر، وكان قد وُلد عام ١٨٩٥ حينما كان كلاهما صغيرى السن". وأغلب
الظن أن مارك سايكس، الذى كان آنذاك فى الخامسة عشرة، هام حباً بمدرسة فى
قرية كان والدها يعمل سائساً للخليل بسلميير. هرب الوريث الولهان ومعه خطيبته
إلى لندن حيث اقتنفت الليدى سايكس أثرهما. ناشدتهما أن يعيدا النظر فى
الوضع، وتقدمت إليهما بعرض سخى تعهدت فيه برعاية أليس كارتر وقامت على
الفور بتوفير ملأى لها فى منزل لأصدقائها. أرسل مارك إلى مونت كارلو فى معية
أمه ومدرس خصوصى يقظ. وبعد عدة أشهر، وضعت أليس حملها، هكذا قيل،
ووعدت چسيكا برعاية الأم والطفل إذا ظل أمر مولده سرّاً ولم يُخبر به ابنها. تم
الوفاء بالوعد، ووفقاً لجميع الروايات، لم يُخبر مارك أبداً، هو أو أولاد جورج الستة
بشيء عن هذه الواقعة.

أجلت الليدى سايكس إخبار زوجها عن الولادة المرتقبة لأطول وقت ممكن بعد أن تحملت نوبات غضبه لفترة طويلة. وحينما أبلغ أخيراً، يقال إنه أقسم أن يحرم ابنه بعد فعلته الشائنة، من الميراث. ثم لأن جانبه، لكنه صب جام غضبه على كلاب اللوريت، أو هكذا يبدو الأمر الآن. ولد جورج ابن مارك غير الشرعى قبل مواعده، ويسود أن جسيكا نجحت فى إخفاء السجل الرسمى لمولده. بعد ذلك تبنت ماري بيدج ابنه خال أليس هى وزوجها فردريك لوط، المولود. وحينما كبر، التحق جورج، بمساعدة جدته، بمدرسة داخلية حكومية بمدينة كنت أهله للانضمام إلى الأسطول الملكى لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى. تطوع جندياً فى كتيبة غرب كنت الملكية، وبمحض الصدف الغربية، بُعث به إلى مدينة غليبولى التركية على متن نفس السفينة الحربية التى كان والده يعمل عليها ضابطاً بالجيش.

لم لم يكتب جورج مذكرة للمقدم مارك سايكس كما كان يلقب آنذاك الذى كانت والته قد أسرت إليه بهويته؟ حينما وُجّهت إليه ابنته هذا السؤال، يقال إنه أجاب ”أنت لا تفهمين. لا يكتب العسكرى مذكرات للضباط، لو فعلت ذلك لواجهت متاعب صعبة. وعلى أية حال، لم يكن ذلك وقتاً مناسباً لأن أذهب إليه أمام جميع الضباط الآخرين، وأقول له إننى ابنه المفقود منذ زمن طويل“. ثم حدث أن وقع جورج مريضاً وأُرسل إلى مستشفى بالقدس، وهكذا تحاشى نيران المدفعية القاتلة على شواطئ غليبولى. لم ير مارك ثانية طوال عمره. ولدى انتهاء الحرب تزوج وأنجب ستة أطفال كانت فيرونيكا أكبرهم. احتفظ جورج بسرّه طى الكتمان حتى عام ١٩٦٩ حينما كان ابن فيرونيكا يصمم شجرة للعائلة. لجأ إلى جده ليساعده. بيد أن الأب وابنته قررا عدم الاتصال بعائلة سايكس خوفاً من تجاهل القصة بصفتها تلفيقاً لمبتزين أو متصيدي الثروة.

فى عام ١٩٧٥ قررت فيرونيكا، بعد تدهور صحة جورج، وظهور سيرة مارك سايكس لكتبتها روجر أدلسون، قررت كسر جدار الصمت. كتبت خطاباً إلى

كريستوفر سايكس، بدلاً من أخيه الأكبر السير ريتشارد سايكس مالك إقطاعية سلدمير الذي رجحت أنه سيشك في وجود دوافع مالية. عُرف كريستوفر هيو سايكس، الكاتب المحترم، بكتابة السير المعتمدة لإفيلين ووه، كما كان قد كتب مريثة مديح ثابتة محبة عن والده، ركز فيها على اعتناق مارك للصيهونية. لدى تلقيه خطاب فيرونيكا ركّز اهتمامه على التحقق من روايتها. اتضح، من البحث وجود سانس في سلدمير عام ١٨٩٥ لا يكاد أحد يتذكره كان اسمه كارتر، وكانت ابنته أليس تعمل مدرسة بإحدى القرى. التجأ كريستوفر لشقيقته الكبرى فريا كي تتصل بأقربائهم المزعومين. بعدها، ذكرت له أن أخيها غير الشقيق جورج شخص لطيف جداً، وأنها قد أخبرته أن عائلة سايكس لا تدرى شيئاً عن وجوده وعلى الرغم من ذلك، فقد رفض السير ريتشارد سايكس حتى وفاته عام ١٩٧٨، بإصرار الاعتقاد في صنيعة القصة، وفقاً لما ذكره ابنه الثالث كريستوفر سايمون سايكس الذي كان أيضاً كاتباً ذا مكانة واشتهر بكتبه وصوره عن الحياة في الريف الإنجليزي.

وجد كريستوفر سايمون القصة مصدقة بدرجة أن ضمنها كلاحقة بعنوان "عم غير متوقع" في كتابه "البيت الكبير" (٢٠٠٤) عن إقطاعية سلدمير ومالكها، ومعها صورة نادرة لأليس كارتر بمدرسة القرية أيضاً. توحى الأبحاث التي أجريتها أن القصة تتفق تماماً مع شخصية السير مارك سايكس (بعد اكتسابه اللقب حينما ورت البارونيتية عام ١٩١٢) وفقاً لشهادات أشخاص عديدين.

لا يستطيع أحد توضيح تأثير مارك سايكس على سياسة الشرق الأوسط دونما وصف تحليلي لكيماياته الشخصية: انفعاله التلقائي للمخاطرة، ولعه بالتجوال بحثاً عن المغامرة، وسحره المنهج. يضاف إلى ذلك فصاحته وسلامته تعبيره، وأيضاً إدراكه المنطقي بأن ليس لديه ما يخاطر به سياسياً أو مالياً نتيجة الخطط الكبرى والسياسات المتهوره التي تبناها. إذا أضفنا إلى ذلك خلوه من الخبث، التعصب

والتباهي، نجد أن السير مارك كان جالاهاد، فارس الملك آرثر عصر الأوسطى المغامر المرح الذي كان حتى خصومه، يطمحون أن يكونوه. لا غرو أن أضاف روبرج أندرسون عنواناً فرعياً لسيرته التي نشرها عام ١٩٧٥ وهو "صورة هاد"، وأوضح أن سايكس نفسه كان يستخدم هذا المصطلح ليصف نفسه بصفته شخصاً ذا تفكير مرن مستقل، لا طاقة له بالمتخصصين من نوى المصالح الشخصية، أو بالتبادلات السياسية.

كتب ونستون تشرشل في مرثية يمتدح فيها مائر السير مارك بعد أربع سنوات من وفاته يقول "على الرغم من أنه كان محاطاً بكل الرفاهيات والمغريات التي تتيج له أن يعيش حياة بطالة ريفية بهيجة، اتجه خياله إلى الصحراء بدلاً من سهول إنجلترا الخضراء"، وإلى الترحال لا الرياضة، إلى خدمة قام بها وحده للأهداف الإمبريالية في مجاهل الشرق بدلاً من التمتع بالمهام المحلية كمالك إقطاعية في الريف الإنجليزي". وكأنما كان يُحَيِّ روحاً شقيقة لروحه، توسع تشرشل في مديح سايكس في التمهيد الذي كتبه لسيرته التي صدرت عام ١٩٢٣ والتي ألفها شين ليزلي الكاتب الأنجلو كاثوليكي:

"كان نتاجاً فريداً. منحه والداه ميزة التعليم في المدارس الأهلية الداخلية البريطانية بجرجات متقطعة، وكانت النتيجة عدم إعاقة تفكيره الإبداعي كما أنه تمتع بعد ذلك بحياة جامعية نونما أن يصبح عبداً للأعراف التي كثيراً ما تغرسها الجامعات في الشباب الطيعين الذين يسهل التأثير فيهم بسهولة.. ورث فن الحديث من أمه الفذة المتألفة، وكان معتاداً أن يمارس فن الرسم ليُبيح به أصدقائه. استخدم قلمه بسلاسة وتمكّن، أما فن الخطابة فكان ملكاً له، ومن خلال مزيج من الفحوى والأسلوب، تمكن من السيطرة على أسمعاع مجلس العموم حينما كان يتحدث عن شتى المواضيع مثل الشرق الأدنى، المستعمرات، الرقابة على المسرح وأيرلندا".

لم تكن الصورة التي رسمها له السير رونالد ستورز نو الشخصية المصقولة وزميل كرومر الذي التقى مارك بالقاهرة، أقل مدهنة. يكتب السير رونالد قائلاً إنه كان بإمكان سايكس أن يمارس بنجاح دسنة وظائف معاً، كان كخطيب، بين القلائل، الذين تمثلت مقاعد مجلس العموم بالحضور للاستماع إليهم. أضاف "كان بمقدوره كرسام كاريكاتير وكارتون سياسى أن يملئ شروطه على الصحافة.. كان من المحتمل لنفس المواهب الفنية التي تمتع بها أن تجعل منه كوميديانا بمسارح المنوعات بحيث تتاح له فرصة الإبقاء على أى جمهور المشاهدين أسرى تقمصه السريع والكامل لمختلف الشخصيات" تذكره ستورز وهو يؤدي محاكاة ساخرة لإحدى النقاشات البرلمانية سجلها على ديكثافون، وقد فيها بكل دقة مزحات الأعضاء المعتادة ولكنهم المختلفة. بعد أن التقاه بالقدس، حيث أصبح ستورز حاكماً لها بعيد ذلك مباشرة، كتب السير رونالد فى مذكراته "مرة أخرى مارك معي، مُحَدِّثاً، كما الحال دائماً، الحد الأقصى من المتاعب، والحد الأقصى من البهجة".

لنقارن ذلك بالصورة المراوغة والموجزة فى أن التي رسمها له تى. آى. لورانس، الذي عرف سايكس فى ميدان القتال: "كان يتناول أحد أوجه الحقيقة ويعزله عن ملابساته ويضخمه، ويلويه ويشكله" هكذا تذكره لورانس فى كتابه أعمدة الحكمة السبعة "... كان يرى ما هو شاذ فى جميع الأشياء ويُفِغِلُ العادى الصحيح، كان أحياناً يرسم بضربات قليلة خطوط عالم جديد، غير متنسق تماماً لكنه كروية، يمثل بوضوح شديد بعض جوانب ما كنا نأمل فيه". رأى لورانس أن موته وهو فى التاسعة والثلاثين أثناء وياة الإنفلونزا الإسبانية كان مأساة المأسى بالنسبة للقضية العربية(!!)- رغم أنه ثبت بالنظرة الارتجاعية أنه كان مأساة بالنسبة للصهيونية التي تبنى السير مارك قضيتها لإنشاء وطن قومى لليهود بفعالية وحسم شديدين.

منذ أيامه الأولى بجامعة كامبريدج، لفتت مواهبه الاستثنائية نظر مدرسيه

وكذلك نظر عميد كلية يسوع التي اختارتها له الليدى سايكس بعد زيارة قصيرة لها. أثناء سنواته بالجامعة (١٨٩٧-١٨٩٩) حاز مارك على إعجاب البروفسور إينوارد جرانغيل براون أهم مستشرق بالجامعة الذى صادق على رغبته فى استكشاف أراضى الإمبراطورية العثمانية، ومنحته كليته الوقت اللازم لذلك. لكن الشقاق بين والديه كان قد استغل بدرجة استحال معها إصلاح الأمور وأدى ذلك إلى التعميل بمحاكمة علنية أجبر ابنهما على الإدلاء بالشهادة فيها عما إن كانت أمه قد قامت بتزوير خطابات اعتماد بمونت كارلو على حساب السير تاتون المصرفى. كانت شهادة مارك المؤلمة مراوغة بالقدر الذى سمح به القانون، لكن بعد الاستماع لخبراء الخطوط، أدانت المحكمة الليدى سايكس. لا غرو أن ابنهما كاد يهرب بالكامل إلى الشرق مدعوماً بخطابات تركية من البروفسور براون (كان براون يتقن الفارسية والعربية والتركية، وكان أيضاً يدافع بصراحة عن القوميين بالمنطقة، ويمثل مرجعية عن الأقليات التى تعيش هناك، كما أنه ألف كتاب الأسفار الكلاسيكى: "عاما بين الفرس" سنة ١٨٩٣).

وجد مارك الوقت، بين قضايا والديه، ودراسته بكامبريدج، وأسفاره للخارج ليقدم طلباً للالتحاق بفرقة يوركشاير العسكرية التى كان جده الأكبر مارك ماسترمان سايكس قد أسسها. ولدى اندلاع حرب البوير عام ١٨٩٩، تم استدعاؤه، الأمر الذى وصفه سرّاً للجميلة إيبيث قبوليت جورست التى كان يتودد إليها بهدف الزواج بأنه "مقيت وجهنى". وحينما وصل إلى جنوب إفريقيا تلقى الملازم سايكس وجنوده فى السرية F بالكتيبة الثالثة بوحدة يوركشاير أمراً بحراسة جسر فى المنطقة المرتفعة ضد محاربى العصابات الأفريكان. وخلال عامين، شهد مارك عمليات حربية كانت كافية لإصابته بجرح فى رأسه، وبمرض الملاريا، وبالتهاب أصابه بصمم جزئى. شهد أيضاً وحشية الحرب، واكتسب حساسية طوال الحياة ضد التفكير العسكرى الأرثوذكسى. والأكثر غرابة، إذا

أخذنا في الاعتبار تاريخه اللالحق، فإنه حمل اليهود والمصرفيين، والإمبراليين مسئولية تلك الحرب. اشتكى في خطابه التي أرسلها إلى الوطن من أنه كان، مع الأسف يحارب لحساب "أولئك الوحوش" - الماليين اليهود وملوك المناجم - وكانت هذه عقيدة (متميزة) يعتنقها رواد نوادي الجنتمن البريطانية من أفراد الطبقة العليا. وعلى الرغم من تعاطفه مع المظلومين والمحرومين، إلا أن مارك كان يفترض، بوما أنه ينتمى إلى النخبة الحاكمة (معلما كان يعتقد تشرشل، مؤسس النادي الآخر، وعضوه، وكان النادي تجمعا لنخبة رجال الطبقة الراقية نوى الأفكار المتماثلة الذين لا يتبعون أى رئاسات). لكن، بعد انتهاء حرب البوير، أى حياة مهنية كان من المفترض أن يختارها مارك؟

كان الأديب أنطونى ترولوب يتحدث بلسان أمثال مارك حينما قال فى سيرته النهائية عام ١٨٨٣، "دائما ما اعتقدت أن عضوية البرلمان الإنجليزي، يجب أن تكون الهدف الأعلى لطموح جميع الإنجليز المتعلمين". وعملا باعتقاده، ترشح ترولوب فى انتخابات عام ١٨٦٨ وقدم نفسه على أنه "ليبرالى محافظ تقدمى" فى بفرلى، بحاضرة إقليم إيسيت إيبينج بيوركشاير. أعيد انتخاب العضوين بمجلس العموم (كان العضو المحافظ الذى أعيد انتخابه بالدائرة الثانية هو كريستوفر سايكس، عم مارك والذى كان يعرف باسم "سايكى" الصديق الموالى المخلص لولى العهد إدوارد الذى كان يسىء معاملته) ومن حسن حظ الأدب الإنجليزي، خسر ترولوب الانتخابات ولم يترشح ثانية.

لدى عودته من حرب البوير واستقباله كالأبطال الفاتحين سرعان ما جذبته الحياة السياسية، وفى عام ١٩٠٧، اختارته النقابات العمالية المحافظة كمرشحهم لقعد سايكى القديم فى إيسيت رايبينج. كانت حملته الانتخابية متناغمة بامتياز مع شخصيته. كان يقوم بتوضيح خطابه الانتخابية برسومات مرتجلة، وأوضح

لناخبيه المحتملين أنه وخلافاً للاشتراكيين الذين كانوا مهووسين بالمستقبل، والليبراليين وهوسهم بالحاضر، كانت توجهاته المحافظة متجذرة في الماضي الذي جعل من بريطانيا دولة عظمى.

• رأى أن للرموز أهمية حاسمة، وحينما حذر من اختفائها استشهد برؤية بنجامين بيزرائيلي القائمة للمجتمع الذي يتساوى فيه كل أفراد في روايته تانكريد: "التاج لا قيمة له، الكنيسة مجرد طائفة، النبلاء متبطلون، أفراد الشعب يكسحون"، ومثل ترولوپ، خسر سايكس الانتخابات.

لكن هذا لم يدم طويلاً. كان الوريث الشاب قد تزوج الجميلة إيديث جورست ألف كتباً مرفوعة "بشياكة" عن بلدان الإمبراطورية العثمانية لقيت الترحيب. عمل لفترة وجيزة سكرتيراً برلمانياً لأيرلندا، ثم ملحقاً شرفياً بالسفارة البريطانية بإسطنبول والأهم على المستوى المحلي، فقد عمل عضواً بمجلس إيست رايدننج المحلي، وبذل جهده في اللجان الفرعية التي تتعاطى مع الصحة العامة والتعليم. في عام ١٩١٠ العاصف أجريت الانتخابات مرتين، وكان قد عجل بذلك ميزانية الحكومية الليبرالية الراديكالية التي رفضها مجلس اللوردات في تحد منه للحكومة.

رفضت إيست رايدننج سايكس في المرتين بهامش ضيق. لكنه كان قد أصبح حينذاك شخصية معروفة ببيوركشاير، ثم جربَ حظه مرة رابعة بمدينة هال الساحلية الصاخبة، حيث كان أحد أجداد سايكس عمدة لها ذات مرة. فاز، وحتى وفاته، استمر مارك يمثل دائرة هال المركزية، وأصبح في عام ١٩١١ ثالث فرد من عائلته خلال نصف قرن يحوز مقعداً في مجلس العموم.

كانت الرصاصة المواتية والتي أطلقت في سرايفو^(١) هي التي غيرت حياة

(١) يشير المؤلفان إلى حادث اغتيال ولي عهد النمسا وآخر وريث للعرش الإمبراطوري، الأمر الذي أدى لاندلاع الحرب العالمية الأولى (الترجمة).

مارك وتاريخ الشرق الأوسط تبعاً لذلك قبل عام ١٩١٤، كان عضو البرلمان الجديد قد اشتهر بخطاباته المتقنة الخبيرة عن "المسألة الشرقية" وحججه المنطقية لمنح الحكم الذاتي لأيرلندا أثناء أزمة "الحكم الذاتي" التي شغلت البرلمان حتى أغسطس حينما دخلت حكومة الليبراليين الحرب العظمى.

كانت إحدى الخطوات الأولى التي اتخذها هربرت أسكويث رئيس الوزراء هي استدعاء هوراشيو هربرت كيتشنر المندوب السامي البريطاني بمصر وتعيينه وزيراً للحرب ببريطانيا. وفي عام ١٩١٥ أثناء زيارته له للجبهة الغربية، التقى اللورد كيتشنر شخصاً كان اسمه مألوفاً بين العاملين في وزارة الحرب. قال له "ماذا تعمل في فرنسا؟ ينبغي عليك الذهاب إلى الشرق". سأل سايكس "ما أنا فاعله هناك؟" أجابه "فقط اذهب ثم عد إلى هنا".

كانت تلك إيماءة من أحد لوردات الحرب وهو في ذروة مجده. كان قد عمل حاكماً للخرطوم، وقائداً عاماً للقوات البريطانية بالهند، ومصر، وجنوب إفريقيا؛ وهزم دراويش المهدي بأمر درمان وقضى عليهم، وطرد الفرنسيين، دونما إراقة دماء، من فاشودا وضمن بذلك لبريطانيا التحكم في منابع النيل. لم يكن ثمة قائد في الجيش أكثر خبرة منه في طوبوغرافيا الأرض المقدسة الاستراتيجية، وكان كضابط شاب في الوحدة الهندسية قد قام بعمل مسح لها. كان من يعينهم ويرعاهم مسئولين عن مواقع استراتيجية في الشرق الإسلامي. كان قد انتقى بنفسه السير هنري مكماهون ليخلفه في منصبه بالقاهرة كمندوب سام. تضمن فريق كيتشنر أيضاً السير رونالد ستورز ذا الشخصية الطيبة ومقر عمله مصر؛ والجنرال الطموح السير فرانسيس رينولد وبنجيت الذي اختاره سردار الجيش المصري، ثم حاكماً عاماً للسودان بعد ذلك، والداهية السير جيلبرت كلايتون الذي أصبح فيما بعد الرئيس الأعلى للاستخبارات العسكرية البريطانية.

لكن، من بين كل هؤلاء المساعدين كان السير مارك سايكس الذي لقب نفسه

هاوياً، والذي كاد كيتشنر ألا يعرف شيئاً عنه، ووظفه بأسلوب اعتباطي، هو الذي أصبح أقرب ما يكون لمدير مسرح الشرق الأوسط بعد الحرب الذي مازال جوهره وشكله وطبيعته التي اخترعها قائمة حتى يومنا هذا. من المجدي أن نتوقف لنبحث لمّ وكيف حدث هذا.

ورغم نقّاده ومهاجميه، فقد أثبت السير مارك سايكس أنه أكثر من مجرد هاوٍ في مجال الفنون السوداء للمؤامرات والمخططات البيروقراطية. تمكن لدى منعطفات حاسمة من حفز رؤسائه للسير في الاتجاهات التي تخيرها فيما كان يُبقى طوال الوقت، على توازنات منزلقات مجلس الوزراء. وبفضل وضعه كشخص مطلع من الداخل، فقد رعى شبكة من "الخلان" المؤتمنين على الأسرار تمتد من مجلس الوزراء الإمبريالي وحتى المواقع المتطرفة النائية في الشرق الإسلامي. أدرك، منذ وقت مبكر، أهمية وجود هيئة مختصة بالشؤون بين/الوزارية مهمتها تنسيق السياسة، وبخاصة مع لجنة بتنسين. كانت تلك اللجنة التي ترأسها السير موريس دوينسن من وزارة الخارجية، قد تشكلت من أجل تطوير رأى إجماعي بشأن الشرق الأوسط بين وزارات الخارجية والحرب وشؤون الهند، إضافة إلى البحرية، وهيئة التجارة، مع منخلات من لجنة الدفاع الإمبريالية ورئيسها الذي كان قد عُيّن مؤخراً، اللورد هانكي، ومساعدته المتمكن السير مارك سايكس.

تحكّم سايكس، من موقعه المكين، في الرياح المتغيرة، التي كان قد اكتسب القدرة على التكهّن باتجاهاتها أثناء أسفاره شرقاً منذ الرحلة الكبرى التي كان كيتشنر نفسه قد قررها له. ومنذ آنذاك هيأت مهارات السير مارك في تشكيل الشبكات إمكانية الاتصال المباشر بجميع من هم في واقع السلطة. مثلاً، قام لانسليت أوليفانت، أحد زملائه الدبلوماسيين منذ كان يعمل بتركيا، بتقديمه إلى الكولونيل أوزوالد فيتزجيرالد سكرتير وزير الحرب الأعزب وصديقه الحميم بدرجة

أثارت شكوك العصر. ومنذ آنذاك، وحتى اللحظة التي اختفى فيها كيتشنر بأسلوب دراماتيكي عام ١٩١٦ وهو على متن قطعة الأسطول الملكي السفينة هامشاير إثر أصابته بغلغم ألماني، حرص فيتزجيرالد على أن تذهب مذكرات سايكس إلى كيتشنر مباشرة. ووفقاً لما نكره مؤرخ سايكس، فإن التوصيات التي أعدها بعد رحلته الكبرى لم تترك أثراً على كيتشنر، كذلك الأثر الذي كانت تتركه كلمات الإطراء التي أهاها عليه فيتزجيرالد أو وفقاً لصياغة سايكس نفسه "كان الفعل لي، والكلام لفيتزجيرالد، والإلهام من كيتشنر".

لم يكن سايكس هاويا في أحد المناحي الأخرى. أدرك منذ البداية الحاجة إلى تدفق الاستخبارات العسكرية، وبخاصة التقارير السرية المتعلقة بالعمليات البريطانية في الشرق الأوسط. كان السير مارك هو من اقترح إنشاء "المكتب العربي" الذي أقيم بالقاهرة عام ١٩١٦ ورعاه، وراقب أنشطته، كان دافيد جي هوجارت أسناذ الأركيولوجي والباحث باكسفورد مديره المؤسس، والاب الروحي هو الجنرال كلايتون، مدير الاستخبارات العسكرية (DMI)؛ ونجمه الإعلامي تي. إي لورانس. كان المكتب، من الناحية الشكلية يتبع وزارة الخارجية لكنه سرعان ما اكتسب هوية مستقلة، ودائماً ما كان يدخل في منازعات مع السلطة البريطانية في نيودلهي (عارض نائب التاج بالهند إنشاءه بقوة)، وفي منازعات كثيرة أيضاً مع المشرفين عليه اسمياً بمقر رئاسة الوزراء بلندن. كان سايكس بنفسه يشرف على تحرير نشرة المكتب السرية Arab Bulletin، وكان هو الذي يحدد قائمة ما يجب أن يُعرف في التقارير التي ترد بالنشرة عن "الثورة العربية" التي أعلنها في يونيو ١٩١٦ الشريف حسين من مكة بدعم من البريطانيين. كان سايكس هو من صمم علم الثورة العربية (اللون الأسود رمز العباسيين في بغداد، والأبيض رمز الأمويين بدمشق، والأخضر لاتباع سينا على بكرلاء، والشارة الحمراء شعار سلالة قبيلة مُضَر العدنانية).

وأخيراً وليس آخراً، كان سايكس يدرك أهمية الحاجة إلى اتفاقيات تحتمل

صياغاتها تأويلات عديدة. ظهرت الحاجة إلى مهاراته حينما كان أسكويث، رئيس الوزراء، ومعه لجنة بنسن يدرسون بتمعن مصير الإمبراطورية العثمانية الهرمة. وفيما الجيوش الإنجلو/ هندية تتقدم داخل أراضي بلاد الرافدين، حرص أسكويث على طمأنة فرنسا المستنزفة أن بريطانيا لم تكن على وشك الزحف سراً إلى أنحاء الشرق الأوسط.

عُرف عنه أيضاً أنه أسرَّ إلى زملائه القول إنه لو ترك البريطانيون الأمم الأخرى تندفع للاستحواذ على أجزاء من تركيا دونما أن يأخذوا (البريطانيون) أى شيء لأنفسهم فهذا يعنى أنهم لا يقومون بواجبهم.

كان من المهم أيضاً استرضاء روسيا، والتي كانت آنذاك غارقة في مستنقع "الجبهة الشرقية" وكانت كل موانئها الواقعة على البحر الأسود قد سُدت حينما دخلت تركيا الحرب وأغلقت مضيق البوسفور. اتفق أسكويث هو ووزير خارجيته أن المناقشات ضرورية، أولاً مع الفرنسيين الذين كان النقاش معهم صعباً دائماً. من ثم، رأيا أنه من المستحسن تكليف بريطاني متعاطف بجس نبض الحليفيين في إطار خطوط إرشادية محددة رُسمت بعناية - شخص مثل السير مارك الذي يتمتع بشعبية واسعة: المحب للفرنسيين، والذي يدين، مثلهم، بالكاثوليكية، هذا على الرغم من معدنه الإنجليزى الأصيل.

وبعد شهر من الإجراءات التمهيدية، بدأت المفاوضات الإنجلو فرنسية الجدية بلندن في ديسمبر ١٩١٥ لدى عودة سايكس من جولة معتمدة بالشرق الأوسط. كان المتحدث باسم وزارة الخارجية الفرنسية، رجلاً متمرساً عمل بالسلك الدبلوماسي لعشرين عاماً، اسمه فرانسوا جورج - بيكو (١٨٧٠-١٩٥١)، وكان إلى عهد قريب قنصل فرنسا العام ببيروت، وسليل أسرة كولونيالية، ومدافعاً صريحاً عن مهمة فرنسا ورسالتها التاريخية بالشام. تصور سوريا مدمجةً تسيطر عليها فرنسا وتشمل دمشق، حلب، بيروت ومعها الأماكن المقدسة بفلسطين وميناء الإسكندرية

وحيفا، وإقليم الموصل العثماني، ومجموعة من الأراضي تمتد من جبال طرسوس حتى حدود مصر- مثلت هذه الإمكانية مشهداً مربعياً بالنسبة للمستعمرين البريطانيين بالقاهرة. تمكن سايكس وهو يعمل داخل إطار الحدود التي عينها مجلس الوزراء ووزارة الخارجية، من انتزاع تسوية. تم التوصل إلى اتفاق يُمنح بمتقاضه الفرنسيون التحكم الإداري المباشر في لبنان الكبير ومعها المناطق الساحلية السورية، أو ما أُسمى بالمنطقة الزرقاء، فيما يكون لبريطانيا حقوق مناظرة في جنوب أرض الراهدين فيما أُسمى بالمنطقة الحمراء تمتد متقطعة من بغداد وتصل إلى جزء صغير محصور يشمل حيفا وعكا، بما في هذا أيضاً حقها في إنشاء خط سكك حديدية يصل المدن الثلاث. أما فلسطين والأماكن المقدسة فتخضع لإدارة دولية داخل نطاق "منطقة بنية" أصغر، تُقرّر تفاصيلها بعد الحرب.

وافق الطرفان الموقعان على أنه في الأراضي المتسعة الواقعة بين تلك المناطق الزرقاء والحمراء والبنية يتم الاعتراف بدولة عربية مستقلة أو كونفدرالية من الدول العربية وحمايتها تخضع لسلطة رئيس عربي، وتشغل أراضي واسعة وتدمج فيها دمشق وحلب وحمص وحماة تلك المدن الداخلية التاريخية (المدن الأربع الشهيرة التي لاحظ المؤرخ جيبون أن الصليبيين لم يهزموها أبداً) ومعها إقليم الموصل. قسّمت تلك الدولة العربية المفترضة إلى مجالات للنفوذ غير المباشر، بحيث تمتلك كل من بريطانيا وفرنسا، كل في نطاق نفوذها، الحق الحصري في تزويد "الحاكم" بمستشارين أو موظفين أجنبين بناء على طلب الدولة العربية أو كونفدرالية الدول العربية.

كان هذا هو جوهر معاهدة سايكس/بيكو سيئة السمعة. في إبريل عام ١٩١٦، توجه مفاوضاها الرئيسيان إلى مدينة بتروجراد، وهناك نزل السير مارك بفرنق أستوريا وابتاع صدرية من جلد الغنم (كما أُبلغ زوجته إديث) ثم التقى سفير جلالاته ملك بريطانيا. واستجمع قواه للقاء سرّجي سazanوف وزير الخارجية

الروسي. ثبت أن مخاوفه كانت دونما سند من الواقع. كانت روسيا قد تلتقت بالفعل وعداً بالتحكم في مضيق البوسفور والدرينيل وفقاً لاتفاق سِرّي، ولم يُشر سارازنوف سوى اعتراضات هامشية على مسودة المعاهدة. لم يعترض على تشكيل دولة عربية مستقلة أو على وضع فلسطين تحت إشراف حكم دولي. بدلاً من ذلك، فقد أبدى قلقه من أن نفوذ فرنسا غير المباشر يشمل منطقة واسعة تعتمد مباشرة من سوريا إلى الحدود الفارسية. وفي النهاية، ووفقاً لرواية الباحثين البريطانيين إفريم وإتاري كارش، في إعادة تشكيلهما الدقيق لوقائع ما حدث، تم التوصل إلى تسوية تُمنح روسيا بمقتضاها شريطاً مساحته ٦٠٠٠٠ ميل مربع من الأراضي الواقعة بين البحر الأسود وإقليم الموصل، بما في هذا أقاليم إربدوم، وترتيبزون، وفان، وبيرليس بأرمينيا العثمانية. بعد شهر، صادقت بريطانيا العظمى رسمياً على المعاهدة المعدلة وتم تبادل المذكرات. ظلت بنودها على الكتمان إلى أن قام البلشفيك، بعد نجاح ثورتهم في نوفمبر عام ١٩١٧، بفتح الوثائق والمحفوظات القيصريّة، وعرضوا بنود معاهدة سايكس/ بيكو بصفتها مثلاً شائناً بشعاً للاستكبار الإمبريالي.

نادراً ما واجهت أية وثيقة دبلوماسية أخرى مثل ذلك الهجوم والاستهجان واسع المدى، ليس فقط بالكلمة المطبوعة بل أيضاً من خلال الأفلام والمسرحيات مثل "لورانس العرب" لدايفيد لين، و"روس" لترنس راتيجان. بيد أننا إذا نظرنا إليها بهدوء، أكثر يبدو من الصواب طرح أسئلة ثلاثة: أكانت المعاهدة تتناقض جوهرياً مع الأخلاقيات السائدة للدول الكبرى؟ أكانت بنودها صادمة بحق للزعماء العرب الذين اعتقدوا أنهم قد وعدوا بدولة مستقلة مترامية الأطراف؟ وهل تعارضت المعاهدة مع المهمات التي تم الاتفاق عليها سراً مع قائد الثورة العربية الشريف حسين في الرسائل المستطالة المتبادلة عامي ١٩١٦ و١٩١٧ مع السير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني بمصر؟ توحى قراءة السجل الكامل أن الإجابة عن الأسئلة الثلاثة هي "لا".

من المؤكد أن العرب الذين كانت أرضهم تُقسم وتوزع لم يُستشاروا بشأن الترتيبات السياسية التي ستنجم عن المعاهدة مثلما كان الحال مع شمال الأفارقة حول خطط فرنسا قبل ذلك لاستعمار أراضيهم، وكذلك كان الوضع في حال سكان أمريكا الأصليين، وسكان هاواي، والمكسيك والفلبين وهيتى، وجزر الدومينيكان، ونيكاراجوا وبنما. كما لم يُستشر الكوبيون الذين كانوا قد حصلوا مؤخراً على السيادة والاستقلال حول مناورات واشنطن وتدخلاتها لتشكيل دساتيرهم. هذا علاوة على أن الأبحاث التي أُجريت لاحقاً تشير إلى أن الشريف حسين وأولاده كانوا على علم بوجود معاهدة سايكس/بيكو وجوهر مضمونها وأن تهمة الخداع - التي أطلقها بتمكن وفصاحة جورج أنطونيوس المسيحي اللبناني في كتابه "الصهوة العربية" (١٩٣٨) - كانت مبالغاً فيها أما بروفيسور إيلي قدورى مثير المشاكل من كلية الاقتصاد بلندن، نو الأصول اليهودية العراقية، فقد تسببت كتاباته أكثر من أى باحث آخر في قلقلة أحكام جيلين من الباحثين حول تلك النقاط الخلافية. يظل كتابه "المتاهة الأنجلو/عربية" الذى نشر عام ١٩٧٦ وأعيد نشره عام ٢٠٠٠ بعد وفاته، أحد معالم الكتابات التعديلية. يزعم، بأسلوب مقنع، أن المنسوب السامى محدود الذكاء كان مراوغاً بالفعل، ومشوشاً أحياناً، ونزاعاً إلى أن يحدث بوعوده، لكنه لم يقدم أبداً وعوداً قاطعة بنوالة قومية عربية واسعة الأطراف كما يزعم الشريف حسين ويضمّر تى . إى. لورانس في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة". وفي واقع الأمر، ومما لا يُذكر إلا نادراً، فقد عبر لورانس، في أوقات مختلفة، عن أحكام متعارضة على معاهدة سايكس/بيكو.

كتب لورانس في نوفمبر ١٩٢٩ إلى الأمريكى ويليام بيل (ممثل شركة ستاندارد للنقط والذي كان حاضراً لدى إنشائها) معبراً عن دهشته لاعتقاد بيل أن المسؤولين البريطانيين بسوريا حاولوا إخفاء سايكس/بيكو. كان رد لورانس أن هذا لم يحدث بإطلاقه إذ إن:

معاهدة سايكس/بيكو كانت ملاذ العرب الأخير .عرف الفرنسيون ذلك وعملوا جاهدين على إيجاد بديل للانتداب ومن خلال صفقة مشينة، دعم الإنجليز كي يستحوذوا على بلاد الرافدين. كان الفرنسيون، وفقاً لسايكس/بيكو قد منحوا الساحل فقط وكان للعرب (الإداريين المحليين) أن يحصلوا على حلب، حماة، حمص، ودمشق وشرق الأردن. لكن من خلال احتيالات الانتداب حصلت إنجلترا وفرنسا على كل شيء. كانت الحدود التي عينتها سايكس/بيكو عبثية لكنها على الأقل اعترفت بحقوق السوريين في الحكم الذاتي، وكانت أفضل عشرة آلاف مرة من التسوية التي تم التوصل إليها في النهاية^(١).

والحقيقة هي أن جميع من ارتبطوا بالسياسة البريطانية في الشرق الأوسط كانوا يميلون إلى جانب أو آخر في الأوقات المختلفة أثناء الحرب العظمى الطويلة، اعتماداً، في الغالب، على البرقيات التي تصل في يوم معين، أو التقارير الصحفية، أو مع من يتحدثون وعن ماذا. أما ملحمة السير مارك سايكس الخاصة فكانت لافتة لاتساع مدى المحيط الذي كان يتحرك داخله، والذي حمله من دائرة المحافظين البريطانيين المتشددين إلى صيفته الخاصة من عقيدة المحافظين الجدد، مما أوصله في النهاية، وكأئماً بفعل الأقدار إلى صهيون.

في الأشهر الكثيرة في نهاية عام ١٩١٦، ساد المملكة المتحدة شعور بالاستياء، بداية من أماكن العمل، وحتى المقاعد الخلفية بالبرلمان. حكم البريطانيون التمساء على هيربرت أسكويث رئيس الوزراء بأنه قائد عاشق للحروب وسين الحظ. حينما بدأت المعركة في يوليو ١٩١٤، أمل الناس، بل حتى توقعوا، أن ينتهي القتال سريعاً، ربما بحلول أعياد الميلاد. وبدلاً من ذلك، أشرف أسكويث على أضحيات مستمرة

(١) يشير لورانس هنا إلى الانتدابات التي منحتها عصبة الأمم للبريطانيين والفرنسيين كي يحكموا العراق، وفلسطين وسوريا ولبنان. (الترجمة)

بالدم في الخنادق الغريبة، وعلى متتالية هزائم في الشرق - ورطة غليبولي، الهجوم الفاشل على بغداد، استسلام القوات الأنجلو/هندية الجائعة المهين بالكوت. قام الحزب بإكماله بثورة ليحل مكانه في ديسمبر منافسه الليزلي بالحزب دايفيد لويد جورج، القلق المتعلم، حلو الحديث، والمبدع. كانت انتماءاته العائلية إلى الطائفة المستقلة المنشقة على الكنيسة الأنجليكانية NonconFormists، قد جعلته يهتم بخاصة بالشرق الإنجيلي. (حينما بدأ الجنرال إدموند ألنبي مسيرته إلى القدس على صهوة جواده، أرسل إليه لويد جورج نسخة الخاصة من "الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة" للباحث الإسكتلندي جورج آدم سميث، واحتفظ بها ألنبي أو "الثور" كما كان يُلقب، في خُرَج فرسه). جُمع لويد جورج انتلأفاً حكومياً ذا قاعدة عريضة شملت قادة من حزب العمال الصاعد، إلى جانب نجوم حزب المحافظين مثل آرثر بلغور، رئيس الوزراء السابق الذي أصبح وزيراً للخارجية، واللورد كيرزن حاكم الهند سابقاً (نائب التاج البريطاني) والذي عُيِّن رئيس مجلس وزراء الحرب، وسرعان ما أصبح، فيما بعد، رئيس "لجنة الشرق الأوسط".

كان مركز قيادة الإدارة الجديدة هو "مجلس وزراء الحرب" الذي كان أعضاؤه الخمسة (زاد عددهم فيما بعد) يجتمعون مرة يومياً وأحياناً مرتين في اليوم الواحد، يرسمون مسار بريطانيا واستمر ذلك حتى مؤتمر باريس للسلام. كان أعضاؤه الأصليون يضمون إلى جانب لويد جورج وكيرزن، شخصاً آخر ذا شأن، هو ألفاينكونت ألفرد ميلنر، البيروقراطي الإمبريالي المكتمل، ووثيق الصلة بالتايمز، ومعه أثنان حديثا العهد نسبياً بالشئون الكوكبية هما أندرو بونار وزير المالية وأرثر هندرسون رئيس كتلة حزب العمال البرلمانية. اعتمد أعضاء مجلس وزراء الحرب المصغر، ومن أجل الاسترشاد في الشئون الخارجية، على مساعدة شخصين رئيسيين هما ليوبولد أمري والذي كان يؤخذ برأيه، وبين أشياء أخرى في الأمور المتعلقة بأوروبا والشرق الأقصى، وزميله، عضو البرلمان عن حزب المحافظين الذي لا يكل، السير مارك سايكس.

يكتب إليه. جيه. بي . تايلور، أستاذ أكسفورد، وأحد أبرز مؤرخي تلك الفترة قائلاً: "إن مقدم لويد جورج كان أكثر من مجرد تغيير حكومي، لقد كان ثورة بالأسلوب البريطاني". كان رئيس الوزراء الجديد (الذي يقول عنه تايلور إنه أقرب شيء إلى نابليون عرفته إنجلترا) أول بريطاني من أصول متواضعة يصل إلى القمة، والثالث (وفقاً لما قاله لويد جورج نفسه) بعد ولينجتون وديزرائيلي الذي لم يمر من خلال هينات التدريس في الجامعات القديمة إلى الحكم. ورغم أنه لم يتأسس حزباً، ولم يكن له أصدقاء (يقول تايلور إنه لم يكن يستحق أن يكون له أصدقاء)، فقد عين لويد جورج رجالاً جددًا، وأنشأ وزارات وأقسامًا جديدة كاملة تابعة للدولة، وجرب أشكلاً جديدة للحكم البرلماني. وبما أن مجلس وزراء الحرب الذي ترأسه كان بحاجة إلى عاملين، قام بتجميع فريق الخاص، بأسلوب البيت الأبيض، في أكواخ على المروج الخضراء خلف مقر مجلس الوزراء، وعرفت المنطقة باسم "ضاحية الحديقة".

من ضاحية الحديقة تلك، روج سايكس لأرائه المعدلة حول الشرق الأوسط. قبل الحرب العظمى، كان قد صادق على السياسة البريطانية التي كانت قد ظلت قائمة منذ وقت طويل والتي كانت ترمي إلى الإبقاء على الإمبراطورية العثمانية المتصدعة في آسيا سليمة، والعمل على إصلاحها برفق واعتدال، لأنه كان ينظر إليها على أنها مصدر استراتيجيات وفائدة كبيرة يدرأ الأخطار عن قناة السويس والطرق الأخرى الموصلة إلى الهند. لكن حينما عرض تفاصيل آرائه على البرلمان عام ١٩١٣، كانت تركيا قد خاضت، بأسلوب أخرج حربيين بالبلقان، في ظل حكم سلطان مقلس مثقل بالدين، ومحاصر من شباب الإصلاحيين في حركة تركيا الفتاة. بعد حريها في سراييفو، وافق السير مارك على الحاجة لاتباع نهج مختلف وفقاً لطروحات لجنة بنسن.

كان أعضاؤها يفاوضون بين خيارات ثلاثة لما بعد الحرب، ويعد دخول تركيا

الحرب: الإبقاء على الإمبراطورية سليمة مع إخضاعها لتحكمهم، ضمها مباشرة؛ أو تقسيمها إلى وحدات شبه مستقلة. فضّلت اللجنة الخيار الثالث بصفته الأكثر قابلية للتنفيذ. وبمطلع عام ١٩١٥، كان السير مارك قد غيّر آراءه باتجاه تقطيع الأوصال. كان قد كتب خطاباً شبه مازح يحدّث فيه صديقه أوبري هيرت، المحق السابق بأسطنبول، ويقول فيه "أشعر من خطابك أنك مازلت تؤيد الأتراك.. سياستك خاطئة. لا بد أن تزول تركيا من الوجود. ستصبح سميerna Smyrna يونانية، والأناضول إيطالية وجنوب طوروس وشمال سوريا فرنسية، وفلسطين بريطانية، وما بين النهرين بريطانية، وبقية الأجزاء روسية بما في هذا إسطنبول.. سأرسل تسبيحة الشكر Te Deum بأيا صوفيا، ونشيد الأنشيد بجامع عمر. سنرثها باللغة الوليزية، والبولندية والكنتية والأرمينية، على شرف الأمة الصغيرة الباسلة".

بطول عام ١٩١٧ كاد سايكس يتنكر تماماً للمعاهدة السرية التي كانت تحمل اسمه في توقع تنبئ منه أن الكشف عنها سيحفز عاصفة غضب غير محببة. حاول دونما جدوى في باريس، إقناع بيكر أن سياسة ضم الأراضي كانت من مخلفات الماضي الإمبريالي، وأن على فرنسا تعديل مطالبها بخصوص الشام. عبّر عن استيائه حينما قدم الحلفاء إلى إيطاليا، التي كانت قد انضمت إلى الحرب متأخرة، أجزاءها الخاصة بها من أناضول ما بعد الحرب. وحينما انتقم الماجور جنرال (اللواء) ستانلي مود وجيشه الأنجلو/هندي لهزائمهم السابقة بالاستيلاء على بغداد، أقنع سايكس مجلس وزراء الحرب برفض الإعلان هادئ النبرة عن هذا الانتصار لصالح صيغته عالية النبرة التي تؤكد أن البريطانيين جاؤا إلى العراق مُحرّرين لا غزاة^(١). بذل السير مارك جهده لمساعدة الثورة العربية بقيادة الملك حسين من الحجاز (ذلك اللقب الذي كان الشريف قد اكتسب لنفسه) والذي كان

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة !! (الترجمة).

بيكو قد التقاه في شهر مايو حتى أن السير مارك اقترح بروتوكولاً جديداً. اجفل بيكو يقضى بتخصيص عروش لأبناء الملك حسين في سوريا والعراق (!!) بشرط أن يتوافق مثل هذا الترتيب مع رغبات سكان المناطق المعنية، واستبق بذلك توزيع تشرشل، بأسلوب فخيم ملكي لحكم العراق والأردن. بإيجاز، كانت العناصر الأساسية لتسوية ما بعد الحرب قد نبتت بنورها فعلاً في عقل سايكس مع استثناء واحد، كان على وشك تقرير حل له: فلسطين.

أنت الأحداث المزلزلة في جميع الأنحاء إلى إعادة التفكير في مجمل السياسة البريطانية التي كانت قد ظلت قائمة منذ وقت طويل وبخاصة عرضها الخطابي.. في روسيا أنت الكوارث العسكرية والإضرابات الصناعية إلى تنحي القيصر، الأمر الذي كان غبر متخيل في وقت ما، وإلى بزوغ حكومة ثورية مؤقتة مؤيدة للديمقراط. في مارس ١٩١٧، وبعد شهر، دخلت الولايات المتحدة ورئيسها التنفيذي الأعلى نو المبادئ السامية الحرب ضد ألمانيا (لكن ليس ضد الإمبراطورية العثمانية، وعلينا أن نتذكر أن الولايات المتحدة، رسمياً، ظلت قوة مشاركة لا قوة خليفة). كان عام ١٩١٧ أكثر أعوام الحرب كآبة وقتامة بالنسبة للبريطانيين العاديين: زمن شح، وتوزيع الأغذية بالبطاقات والاصطفاف في طوابير للحصول عليها. عمل كل هذا على انتشار التذمر والصيحات المطالبة بحقوق اتحادات العمال، وحق التصويت للمرأة، والدعوة إلى السلام، والامتناع الكلي عن المُسكرات، ومزايا الضمان الاجتماعي والحكم الذاتي الأيرلندي، وحق تقرير المصير للمستعمرات (وكان هذا تعبيراً جديداً راديكالياً طرحه وودرو ويلسون).

وفيما دخلت الحرب التي ستنهى كل الحروب مرحلة الذروة سيطرت على بريطانيا، وعلى كثير من المستعمرات التابعة للإمبراطورية رؤى عن عالم أكثر إشراقاً وشجاعة وتحراً من المظالم - عالماً ديمقراطياً، بل ربما اشتراكياً، من

المأمول له أن يسوده السلام. اقترح آرثر هندرسون، زعيم حزب العمال أن يلقي خطاباً في مؤتمر اشتراكي بإستوكهولم يدعو فيه إلى تسوية سلمية. كان هذا يفوق طاقة أعضاء مجلس وزراء الحرب، وقرر لويد جورج أن بإسكان هندرسون أن يتحدث باسمه لكن ليس نيابة عن حكومة جلالة الملك. دافع السير مارك سايكس في البرلمان عن قرار رئيس الوزراء بطلاقة وتمكّن. قال إن البريطانيين كانوا بالطبع، يقاتلون دفاعاً عن الإمبراطورية، لكنني لا أتحدث بأى معنى إمبريالي حينما أستخدم لفظ "إمبراطورية" إننا نقاتل من أجل الشعوب الحرة ذات الأصول الأوروبية دفاعاً عن مستعمراتنا فيما وراء البحار وشعوبها الذين يعيشون فى مجتمعات ديمقراطية(!!!) وإننا نقاتل كي ندخل الديمقراطية والحضارة والتمدن والتقدم إلى آسيا فى المدى البعيد".

"موافقون، موافقون" صاح لويد جورج من المقاعد الأمامية. فقد أصبحت بهذا الحرب "حرباً عظيماً من أجل الحضارة" لا من أجل الجشع والغنائم الخسيسة. كانت تلك هى اللحظة التى حفّزَ فيها سايكس المناخ لاكتساب الدعم للمشروع الصهيونى، وعمل فيها تقدم الجيش البريطانى بثبات نحو القدس والأراضى المقدسة على نجاحه فى جذب التأييد له.

ليس بوسع أحد ان يحدد بالضبط متى أصبح السير مارك صهيونياً. كتب ابنه كريستوفر سايكس يقول "لكن ليس ثمة شك حول أول شخص علّمه المبادئ الصهيونية". كان مرشده هذا هو الدكتور موشيه جاستر، مهاجر من أصل يونانى استقر بلندن، حيث أصبح حاكماً لمجموعة اليهود السفارديم. ولنا فى هذا أن نستشهد بما قاله السير مارك سايكس نفسه فى حشد صهيونى بدار أوبرا لندن يوم ٢ ديسمبر ١٩١٧: "أود أن أقول، قبل أن أنطق بكلمة أخرى، إن سبب اهتمامى بهذه الحركة هو أننى التقيت شخصاً من حوالى عامين، وهو موجود الآن على هذه

المنصة. شخصاً فتح عيني على ما تعنيه هذه الحركة .. أقصد الدكتور جاستر.
كان سايكس قد ناقش في ثلاثة لقاءات مُبشرة في مايو ١٩١٦ مع الخاخام جاستر
أصول الصهيونية السياسية الحديثة - وهي حركةٌ ولدت رمزياً من جديد في كتاب
صيدر عام ١٨٩٦ بعنوان "الدولة اليهودية" وسط التوتر الذي ساد باريس أثناء
قضية درايفوس وكان مؤلفه الصحفي وكاتب المسرحيات النمساوي تيودور هيرتزل
- وبحثاً أيضاً السياسات المبهمة والسرية ليهود الشتات في روسيا، ألمانيا،
وفرنسا، وبخاصة في أمريكا المحايدة.

وبفضل عضويته في لجنة بنسن، كان سايكس آنذاك على علم وثيق بالذكرات
التي كان السير هربرت صمويل قد سلمها في فترة مبكرة من الحرب حيث كان
يعمل آنذاك مديراً عاماً للبريد، ثم أصبح اعتباراً من عام ١٩١٦ وزيراً للداخلية
بوزارة أسكويث الليبرالية. ووفقاً لما قاله شخصياً، كان صمويل أول شخص من
الجالية اليهودية يصبح عضواً في مجلس الوزراء البريطاني (أضاف قائلاً إن
ديزائيلي كان قد ترك الجالية اليهودية في صباه ولم ينضم إليها أبداً مرة أخرى)
. تبنى السير هربرت، في اثنتين من تلك المذكرات، بقوة وعزم، إنشاء محمية
بريطانية في فلسطين بعد الحرب، وفضل هذا الوضع على استمرار الحكم
العثماني، أو ضمها إلى فرنسا أو وضعها تحت حكومة دولية. أكد أن يهود العالم
سيرحبون بإنشاء مثل تلك المحمية لاعتقادهم أن بريطانيا تشجع الاستيطان
اليهودي، وتحسين الأوضاع في فلسطين بحيث يتم وضع الأساس لإنشاء "وطن
قومي" لليهود- وكان هذا مصطلحاً قد أصبح لتوه قيد التداول.

اعترف صمويل، مؤقتاً، أن الوقت لم يحن بعد لإقامة دولة يهودية ذات سيادة،
وكان هذا هدفاً قد تم الاتفاق عليه وترسيخه ببازل بالمؤتمر الصهيوني الأول عام
١٨٩٧. بيد أن الدلائل كانت تبشر بالنجاح: أولاً، كان ثمة توجه صهيوني/مسيحي
بريطاني راسخ، يمكن تقصّي جذوره إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر حينما تمرد

محمد علي حاكم مصر على حكامه الاسمين العثمانيين وبعث بجيوشه إلى سوريا (كانت فلسطين جزءاً منها) الإقليم العثماني، حيث كانت توجد الأماكن المقدسة. ومن أجل أن يكسب التأييد الأجنبي، وبخاصة في إنجلترا، شجع محمد علي الأوروبيين على فتح قنصليات بالقدس وعلى أن يعملوا بالتبشير دونما أية مضايقات. أنشأ البريطانيون قنصلية هناك عام ١٨٣٦، وكانت مهمتها المضمرة هي حماية المؤسسات البروتستانتية في المدينة المقدسة، واضطلع الفرنسيون بدور مماثل بالنسبة للكاتوليك وروسيا بالنسبة للأرثوذكس. أنشئ مقر أسقفى بروتستانتى عام ١٨٤١ أيضاً ككثرائية أنجليكانية، والتي تم تكريسها باسم كنيسة يسوع Christ Church عام ١٨٤٩ وكان البريطانيون قد نشروا استخدام اسم "فلسطين" للدلالة على الأرض المقدسة، وهو اسم أصله إغريقى (Phislistia) ويعنى أرض الفلسطينيين^(١) ثم استخدمته روما للإشارة إلى الجزء الجنوبي من سوريا، لكنه لم يكن شائعاً بين الأتراك والعرب^(٢).

من الصعب المبالغة في مدى الحماس الذي حفزه إعادة اكتشاف فلسطين^(٣) في العصر الفيكتوري، وبخاصة بين البروتستانت المتعصبين الملتزمين. تم إنتاج كتب الأسفار، الأبحاث الجغرافية والكتيبات المصورة بغزارة. فيما بين عامى ١٨٤٢-١٨٤٩، استكشف دافيد روبرتس، من الأكاديمية الملكية والإسكتلندية الأصل، الأرض المقدسة وأنتج بالطباعة الحجرية مجلدات كبيرة القُطع مظلة. لم

(١) كانوا قوماً محاربين يسكنون الجزء الجنوبي من فلسطين (الترجمة).

(٢) كانوا يشيرون للمنطقة بأكملها باسم بلاد الشام التي كانت وحدة موحدة يمكنها العرب مسيحيون ومسلمون. لكن اسم فلسطين كان معروفاً بين العرب، وبين أهل المنطقة، ولم يكن للغرب فضل في ذلك. (الترجمة)

(٣) إعادة اكتشافها بالنسبة للمستعمرين فقط كانت فلسطين قد ظلت موجودة، عربية مسيحية إسلامية منذ آلاف السنين. (الترجمة)

يكن المصور فرانسيس فريث، أقل جسارة، حيث أبحر عام ١٨٥٦ باتجاه الشرق، وبصحبته غرفة تظهير أفلام مظلمة، تُجرّ على عجلات عبر الصحراء كي يلتقط صوراً فوتوغرافية للأرض المقدسة للمرة الأولى. في روايتها "دانييل درودا" (١٨٧٦)، أرسلت جودج إليوت الروائية البريطانية والصيهونية المسيحية" بامبتيان، بطل روايتها دانييل إلى الأرض المقدسة، كي يستعيد صلته بإرثه ويقيم كومونوت يهودياً مثالياً. وسرعان ما لحق الأمريكيون البريطانيون هذا السباق. بدأ رجل الدين البروتستانتي إدوارد روبنسون عام (١٨٣٨) في تمشيط المنطقة للتعرف على عشرات المواقع الإنجيلية عرضها في كتابه المؤلف من ثلاثة أجزاء "الأبحاث الإنجيلية في فلسطين" والذي ظل زمناً طويلاً أحد المعالم في المكتبات الكنسية. وفي عام ١٨٦٧، اعتلى الروائي الأمريكي مارك توين متن السفينة "كويكر سيتي" كي ينضم إلى "رحلة المتعة الكبرى في أوروبا والأراضي المقدسة"، وهي رحلة وأدت كتابه "الأبرياء في الخارج" الذي رسخ مكانته كأحد حكماء أمريكا القوميين.

ويأسلوب مريح مواتٍ، تلاقي اللاهوت مع الضرورات العسكرية. بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، وشراء البريطانيين بعد ذلك بستة أعوام الأسهم التي تضمن لهم السيطرة على شركة القناة، أصبحت حماية "شريان الحياة الإمبريالي (القناة)" المسألة الأمنية الأكثر أهمية. أضاف هذا بُعداً جديداً للاهتمام الروحي بالأرض المقدسة حينما انشئ "صندوق استكشاف فلسطين" من أجل تشجيع التخصص العلمي لـ"أركولوجيا، جغرافيا، وجيولوجيا فلسطين وتاريخها الطبيعي"، لم ترحب بمولده فقط كنيسة إنجلترا والجمعية الجغرافية الملكية، بل أيضاً اللورد راسل وزير الخارجية. وسرعان ما تعاون الصندوق مع مهندس الجيش الملكي لرسم خريطة غرب فلسطين تحت إشراف ضابط بريطاني في الجيش الهندي حاد البصر. في عام ١٨٧٧ كتب الملازم كيتشنر تقريراً نكر فيه ان فريقه قد سجل جميع الأنهار، والطرق، والآثار، كل واحد منها على حدة في منطقته المحددة.

بيد أنه لم ير بعض المسيحيين الصهاينة البارزين جدوى في يهود الجوار. كان هذا ينطبق على اللورد آشلي، الذي أصبح بعيد ذلك إيرل أوف شافستسبري السابع، وكان أحد الأعضاء القيايين في "جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود". ووفقاً لما أوردته الباحثة البريطانية لينارد شتاين من تفاصيل. ففي ذات الوقت الذي كان يلح فيه اللورد آشلي على إعادة اليهود إلى فلسطين، فقد اعتبر رغبتهم في حقهم في عضوية البرلمان "إهانة للمسيحية". وفي واقع الأمر، قبالنسبة للداعين إلى "استعادة" اليهود فلسطين، وتجميع القبائل اليهودية هناك، وتحولهم الجماعي لاعتناق المسيحية، فقد كان ذلك تمهيداً ضرورياً لعودة المسيح الثانية، مثلما يظل هذا المعتقد قائماً الآن بالنسبة للإنجيليين الأمريكيين كلما اندلعت الحرب في الأرض المقدسة.

ومن ثم، ولأى سبب كان - رومانسي، عسكري، رؤيوي، أو علماني، أو حُب السامية أو كراهيتها - فقد وجد المشروع الصهيوني شخصيات بريطانية نافذة تمتن له النجاح بدرجة أنه، وفي وقت مبكر من القرن الجديد، فكرت إحدى الحكومات البريطانية من حزب المحافظين جدياً، في احتمالات فتح سيناء المصرية و/أو قبرص التي كان يحكمها البريطانيون للاستيطان اليهودي. أما وزير المستعمرات جوزيف تشامبرلين، وبدعم من آرثر بلפור رئيس الوزراء المتعاطف، فقد طرح اقتراحاً أكثر جسارة عام ١٩٠٣: لم لا يستوطن اليهود أوغندا ويستعمرونها؟ قدم المقترح رسمياً وبأسلوب مثير للدهشة إلى تينور هرتزل ذلك المواطن العادي الذي كان يتحدث باسم اليهود في الشتات.

انقسمت الحركة الصهيونية حول "مشروع أوغندا". وحينما مات هرتزل في العام التالي توفي المقترح معه. بيد أن الحلم الصهيوني كان قد وجد طريقه إلى فكر بلפור المعقد، الذي كان بخلاف هذا، فليسوفاً دنيوياً خلف عمه اللورد ساليسبري رئيساً للوزراء وزعيماً لحزب المحافظين. وفيما كان يقود حملة انتخابية

فى مانشتير موطن حوالى خمسة عشر ألف يهودى، كان غالبيتهم لاجئون روس، توقف بلفور ليلتقى بالصهيونى الشاب حايم وايزمان ويسأله عن السبب فى أن حركته رفضت أوغندا التى كان الإمبرياليون يعتبرونها "لؤلؤة إفريقيا". سجل وايزمان الحديث الذى تلى ذلك: "بدأت أجهد نفسى كى أجعل ما أعنيه واضحاً من خلال لغتى الإنجليزية. فى نهاية الحديث قمت بمحاولة. خطرت لى فكرة قلت: يا مستر بلفور هل ترضى بباريس بدلاً من لندن؟ بدت عليه الدهشة.. قال! لكن لندن ملكنا قلت: كانت القدس ملكاً لنا حينما كانت لندن مستنقعاً قال: هذا صحيح. لم أره بعد ذلك حتى عام ١٩١٦".

وهكذا، أخذ بلفور اقتراح هربرت صمويل بفرض الحماية على فلسطين بعد الحرب، على محمل الجد. كانت العقبة الحقيقية آنذاك هى لهجة الرفض التى انبثقت من مجلس الوزراء. فى مذكرات رئيس الوزراء أسكويث الشخصية، ثمة فقرة مفعمة بالمشاعر جاء بها: "أعتقد أننى أشرتُ بالفعل إلى مذكرة هربرت صمويل المليئة بالحماس والعواطف الجياشة التى تحثنا حينما نقوم بتقطيع ممتلكات الأتراك وتقسيمها أن نأخذ فلسطين لنذهب إليها حشود اليهود المتناثرين من جميع أنحاء المعمورة، ثم يحصلوا على الاستقلال الذاتى هناك فى الوقت المناسب. الغريب فى الأمر، أن الطرف الآخر الوحيد لهذا الاقتراح هو لويد جورج، الذى من المعروف عنه أنه لا يأبه البتة باليهود أو بحاضرهم أو مستقبلهم، لكنه يعتقد ان ترك الأماكن المقدسة يمتلكها الفرنسيون اللأندريون المحبون، أو وضعها تحت حمايتهم، هو أمر فاضح غير مقبول. بيد أن آراء أسكويث فقدت أهميتها بعد أن حل دايفيد لويد جورج محله فجأة فى ديسمبر عام ١٩١٦. لم يعد مسعى الصهيونية أمراً ميثوساً منه كان أعضاء مجلس وزراء الحرب ومستشاروهم جميعاً متعاطفين، وولد بلفور المؤيد للصهيونية من جديد وزيراً للخارجية فى حكومة لويد جورج الائتلافية.

وهكذا اتخذت جميع العناصر موقعها بانتظار الشرارة المحفزة، والتي أمدّها بالأسلوب المناسب كيميائي مُلْتَمِع من مدينة مانشستر.

حينما التقى مارك سايكس للمرة الأولى عام ١٩١٦، كان حاييم وايزمان في الثانية والأربعين وكان قد ظل يُدرّس الكيمياء بجامعة مانشستر لثلاثة أعوام. كان قد وُلد بقرية موتول الروسية، وحصل على الدكتوراه من سويسرا قبل أن يهاجر إلى بريطانيا حيث جذبت إنجليزته المصقولة وسلوكه الأسر الأنظار إليه من الوهلة الأولى. في كتابه "وعد بلفور" كتب لينارد شتاين يقول: "لم يكن وايزمان فقط داعية (للأهداف الصهيونية) ماهراً وملمهاً - مرناً، واثقاً، شديد الحساسية للأجواء المحيطة، لا تخطئ غريزته التوقيت المناسب، بل امتلك أيضاً درجة عالية من القدرة على إثارة الخيال، ونقل بعضاً من إيمانه الروحاني بمصير شعبه وأهمية بقائهم للأخريين". كان بين مهندسى الوعد اثنان على الأقل - بلفور ومارك سايكس - على قدر كبير من الحساسية لتلك (القداسة) اليهودية. كان أحد الديبلوماسيين المبتدئين الذين يعملون مع سايكس هو هرولد نيكلسون الذى أصبح كاتباً فيما بعد، والذى علق على وايزمان بقوله أحياناً لا أدرى ما إن كان زملاؤه اليهود يدركون الانطباع العميق الذى يتركه علينا نحن الأغنيار لطبيعته البطولية المكابية (فى إشارة إلى المكابيين من أمراء اليهود الذين قيل إنهم حرروا يهوداً عام ١٦٦ ق م).

منحته الصدفة، إضافة إلى مواهبه الطبيعية، فرصة مواتية. كان قد عاش لعقدين فى مانشستر حيث وجدت المثالية الراديكالية تعبيراً عنها فى أعمدة صحيفة "المانشستر جارديان" المقروءة، (والتي أصبحت تعرف بالجاردريان فقط عام ١٩٥٩). التقى الدكتور وايزمان فى حفل خيري فى خريف عام ١٩١٤ سى. بى. سكوت رئيس تحريرها المُهَاب، وكان الإعجاب متبادلاً. بعد بضعة أسابيع، كتب العالم المهاجر نو القدرة الغربية على التكهن، خطاباً رَسَم فيه الخطوط العريضة لما سيحدث:

"ألا تعتقد أن فرصة الشعب اليهودى قد (أصبحت) داخل نطاق حدود النقاش

على الأقل؛ أدرك بالطبع أن ليس باستطاعتنا "زعم" أى شىء أو المطالبة به، فنحن على درجة كبيرة من التشردم لا نملك معها فعل ذلك. لكننا بإمكاننا القول بقدر من "نعقولية"، إنه إذا أصبحت فلسطين داخل نطاق مناطق النفوذ البريطانى، وإذا شجعت بريطانيا إقامة مستوطنات لليهود هناك، ذات تبعية بريطانية، فباستطاعتنا فى غضون ما بين ٢٥ إلى ٣٠ عاماً أن (نبعث) بحوالى مليون يهودى هناك، وربما أكثر؛ سيقيمون بتنمية البلد ويأتون إليها بالعضارة، وسيشكلون حراسة بالغة الفاعلية لقناة السويس بل ربما ضد أى عدوان من الآستانة. لا حاجة لى اللخوض أكثر فى جميع الإمكانيات. لقد ذكرت فقط الحد الأدنى. يمكن، بسهولة، أن تصبح فلسطين فى أيدي اليهود - بلجيكا أسيوية" (عملت بلجيكا مصداً لهجمات الألمان على إنجلترا)^(١).

منذ تلك اللحظة اعتنق سكوت الأهداف الصهيونية، بل إنه أيضاً فتح أروقة السلطة أمام أكثر أنبياء الصهيونية قدرة. فى ٢ ديسمبر ١٩١٤، وبعد أن كان قد وصل على قطار ليلى من مانشستر إلى لندن، التقى رئيس التحرير الدكتور وايزمان بمحطة بوستون وأعلن متباهياً "ستتناول الإفطار فى التاسعة مع لويد جورج". فاق اللقاء توقعات وايزمان، تماماً مثل لقائه الأول مع السير هيربرت صمويل، الذى كان قد ظن خطأ أنه "متنجلز بدرجة يتعذر معها أن يكون صهيونياً جاداً". ثم بعد ذلك، عملت مسيرة الحرب على زيادة نفوذ الكيميانى وايزمان. بعد شهر من إفطاره مع وايزمان، تم تعيين لويد جورج رئيس "لجنة العتاد الحربى" الحكومية، التى تحولت إلى وزارة جديدة تحت إشراف لويد جورج المشر (وسهل الاستشارة). يالهول ما حدث! اكتشف الدكتور وايزمان بمعامله بمانشستر أسلوباً عملياً لإنتاج الأسيتون، مفتاح تصنيع الكوريت أو مسحوق البارود الذى لا ينبعث

(١) بمعنى آخر، لقيت الفكرة القبول والتشجيع لأنها تخدم مصالح بريطانيا الاستعمارية

فى المنطقة ولأن ذلك الكيان سيكون وطنياً. وهكذا تم تسويق الفكرة. (الترجمة)

منه دخان والذي استخدمته المدفعية البريطانية لقتل الآلاف. وبعد سنوات، أشار لويد جورج إلى أن وعد بلفور جوهرياً هو أجر وايزمان عن خدماته أثناء الحرب، هذا على الرغم من أن لويد جورج، كان يُباهى بأنه وقد تربى في كنيسة منشقة على الكنيسة الإنجليكانية الرسمية، فإنه يتذكر ملوك إسرائيل بأفضل مما يتذكر ملوك إنجلترا، كما أنه مُلمٌ بالجغرافيا الإنجيلية أكثر من إلمامه بالجغرافيا الفرنسية.

ويدون أنني شك، فإن الاعتبارات النبوية النفعية عملت على تمهيد الطريق الذي أدى إلى مصابحة مجلس الوزراء على وعد بلفور. في أثناء الحرب، كان أحد مصادر القلق الراسخ لمجلس الوزراء البريطاني هو تأثير اليهود الأمريكيين الواقعي أو الظني على بيت الرئيس ويلسون الأبيض. كان قد لفت النظر بخاصة صداقة الرئيس مع لويس برانديس، الصهيوني الملتزم، وأول قاضٍ يهودي عُين بالمحكمة العليا الأمريكية. شعر صنّاع السياسة البريطانيون بالقلق أيضاً من المشاعر المعادية للحرب التي كانت تنتشر من خلال الأقلية اليهودية الروسية كبيرة العدد التي كانت تشعر بالاعترا ب. علاوة على ذلك، كان بعض من المسيحيين الصهاينة يتشاركون مع المعادين للسامية في الافتراض البدهي أن بإمكان الصهاينة، وبأسلوب ما، استدعاء دعم إخوانهم من نوى النفوذ في دوائر المال العليا، الفنون والصحافة في أمريكا- وهو اعتقاد لم يصادق عليه الدكتور وايزمان وحلفاؤه، لكنهم لم يثبطوه أيضاً. وفي واقع الأمر، وكما بين المحامي والمؤرخ دافيد فرمكين بقطنة، فإن من بين ما يقدر بثلاثة ملايين يهودي كانوا يعيشون بالولايات المتحدة عام ١٩١٤، فإن ما لا يعدو اثني عشر ألفاً كانوا ينتمون إلى "فدرالية صهيونية" يقودها عدد من الهواة، والتي لم يكن لها سوى خمسمائة عضو في نيويورك. وقبل عام ١٩١٤ لم تتعدّ ميزانياتها السنوية ٥٢٠٠ دولار، وكانت أكبر منحة تلقتها مجموعها ٢٠٠ دولار. ما أتى بوعد بلفور لم يكن هو حركة صهيونية قوية، بل العكس تماماً هو الصحيح.

كان كل ذلك يخيم على الجو حينما التقى السيرمارك سايكس حاييم وايزمان لأول مرة في يناير ١٩١٦ وطلب منه إعداد مذكرة يحدد فيها أهداف الصهيونية وهكذا فعل. كانت كالتالي: "الاعتراف بفلسطين كوطن قومي لليهود، مع حرية الهجرة لليهود من جميع البلدان والذين ينبغي أن يتمتعوا هناك بحقوق قومية كاملة؛ يُمنح امتياز رسمي (من الحكومة البريطانية) لشركة يهودية، يعطى السكان اليهود حتى تشكيل حكومة محلية؛ ويُعترف رسمياً باللغة العبرية".

ثم تداول هذا النص على مدى عامين خلال اجتماعات عديدة بين المسؤولين رفيعي المستوى بمجلس الوزراء البريطاني والصهاينة البريطانيين؛ بين مستعمرين زراعيين يهود من فلسطين، ومثقفى المقاهى من أوروبا الشرقية، إضافة إلى الدبلوماسيين الفرنسيين والروس من نوى الاهتمامات المحددة بالشرق الأوسط في مرحلة ما بعد العثمانيين. وجدت صيغ متتالية منه طريقها فى أنحاء مجلس الوزراء، واستحثت لغتها معارضة غاضبة من جانب إدوين صمويل، مونتاجو، ثانى يهودى ملترزم (بعد هربرت صمويل) يتولى منصباً كبيراً فى الحكومة البريطانية (كوزير للعتاد الحربى خلفاً للويد جورج، ثم وزير دولة لشئون الهند)، كتب فى اغسطس ١٩١٦ لزميل له بوزارة الخارجية يقول إن القضية الجوهرية هى ما إن كان اليهود أتباع دين أم أنهم عرق؛ "بالنسبة لى، فقد حسمتُ خيارى منذ زمن طويل. أنظر برعب إلى الطموحات للحصول على كيان قومى. لو أُننى قبلت بهذا، سيتوجب على، كرجل إنجليزى وطنى أن أستقيل... لا يحق لأحد أن يشغل المنصب الذى أشغله إلا إذا كان حراً، ومصمماً على مراعاة مصالح الإمبراطورية البريطانية، ومراعاتها فقط".

كان مونتاجو صوت أقلية بمجلس الوزراء. كان يخيم على الأجواء بناء الأمم والتعويض عن المظالم التاريخية بدرجة أنه بحلول عام ١٩١٧ مضى السيرمارك سايكس يبحث عن لغة للتوفيق بين طموحات اليهود والعرب والأرمن. عبّر فى حشد

صهيوني بلندن في ديسمبر عن تصور له بأن تأتي فلسطين الصهيونية "بروحانية آسيا إلى أوروبا وبحيوية أوروبا إلى آسيا". بيد أنه استحث الصهاينة بقوله إن عليهم التفكير "في رفاقهم في البؤس، الأرمن والعرب". وبعد خمسة أيام، ردّ بأسلوب غير مباشر على مونتاجو أن يكون أى يهودى بريطانى بريطانيا أقل، إن عليهم أن يتذكروا أن حوالى ثمانية مليون عربى ينعمون بقوة عمالة بشرية كبيرة، وتربة بكر خصبة، ونفط، وعقول: "ماذا سينتج هذا بحلول ١٩٥٠؟ سيعاد إنشاء نظام قنوات في بلاد الرافدين. لابد وأن تصبح سوريا مصدر الغلال لأوروبا. ستصبح كل من بغداد، دمشق وحلب في حجم مانشستر. لذا، أتحذّر اليهود بأن عليهم النظر من خلال عدسات العرب".

من جانبه، قام اللورد بلفور برحلة إلى أمريكا عام ١٩١٧ لمناقشة السياسات في الشرق الأوسط، بين أمور أخرى. ويُعيد وصوله إلى واشنطن، تم تقديمه إلى القاضى برانديس أثناء غداء بالبيت الأبيض. قال وزير الخارجية "إنك أحد الأشخاص الذين أردت لقاهم". أوضح برانديس، في مناقشاتهما التي تلت، دعمه لإدارة بريطانية حصرية لفلسطين وإثباطه لأية آمال أمريكية للمشاركة. وبينما عاد بلفور إلى لندن، كانت الآراء السائدة بين أعضاء حكومة لويد جورج الائتلافية تثبت بقوة صواب التقييم الحدسي لرجل الدولة الشرفى الإمبريالى اللورد كرومر، الذى كان قد علق على الحركة الصهيونية بمجلة ذا سبكتايتور بقوله: "قبل وقت ليس بالطويل لن يكون بوسع السياسيين التغاضى عنها بصفتها حلمًا خياليا يراود بعض المثاليين".

بالإمكان إيجاز فيض المذكرات والنقاشات التي لا حصر لها التي شُغل بها مارك سايكس عام ١٩١٧. فى يوليو تعاون فى صياغة مسودة لوعد بلفور والتي نُقلت إلى وزير الخارجية من الرئيس بالشرفى للفدرالية الصهيونية البريطانية اللورد ليونيل وولتر روتشيلد. كان النص كالتالى: "تقبل حكومة جلالتة مبدأ وجوب

إعادة تشكيل فلسطين لتصبح الوطن القومي للشعب اليهودي. ستبذل حكومة جلالتة أقصى جهودها لضمان إنجاز هذا الهدف وستكون مستعدة لدراسة أية مقترحات حول الموضوع قد ترغب المنظمة الصهيونية في وضعها أمامهم. بعد ذلك، تجادل مجلس الحرب حول تعديل المسودة: أصبح "الوطن القومي": "وطناً للشعب اليهودي" ثم في النهاية "وطناً قومياً للشعب اليهودي".

وفيما مضت النقاشات قدماً، تقدمت أيضاً الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط. تولى السير إدموند أللنبى، ضابط الفرسان المحنك، قيادة قوة مهمات مصرية، تم توسيعها وتحسين كفاءتها بناء على أوامر لويد جورج الصريحة. في أكتوبر غزت القوة التي كان قوامها ثمانية وثمانين ألف جندي فلسطين، وتقدمت مخترقة الدفاعات التركية في هجوم كان غايته الاستيلاء على القدس بحلول أعياد الميلاد. واستعادة الهيمنة المسيحية على المدينة وأيضاً، إغلاق أبوابها في وجه الفرنسيين. نجح أللنبى: سقطت القدس يوم 8 ديسمبر، وبعد أن دخل الغازي البريطاني سيراً على قدميه بوقار، من بوابة يافا، أوضح، بأسلوب شخصي، بما لا يدع مجالاً للشك، لفرانسوا جورج - بيكو - أي نولة أصبح لها السيطرة. في تلك الأثناء، كانت مفاوضات مجلس الوزراء بلندن حول قرار الصهيونية قد انتهت. تسببت أزمة جديدة في أن يصبح إعلان وعد بلفور أكثر إلحاحاً. كانت حكومة روسيا المؤقتة تنهارى وكانت الإطاحة بها تعنى احتمال خروج روسيا من الحرب. وطرح السؤال: "لم لا نشجع يهود روسيا على استخدام نفوذهم ضد محادثات السلام؟".

كان القرار منوطاً بمجلس وزراء الحرب الذي كان أعضاؤه، بحكم تربيتهم وعقيدتهم يميلون للصهيونية. من بين الأشخاص الثقة الذين عملوا في وقت أو آخر أعضاء بمجلس وزراء الحرب كلى السطوة، كان اللورد كيرزن وحده قد نشأ بروتستانتياً إنجليزياً في أسرة تتبع الكنيسة المستقلة المنشقة عن الكنيسة الإنجليكانية الرسمية. كان الشخص الوحيد غير البريطاني بالمجلس هو جان

كريستيان سماتس، الموالى للصهيونية بإخلاص وحماس منقطع النظير، وكان في وقت ما جنرالاً بجيش البوير ثم أصبح بعد ذلك ضابطاً بريطانياً برتبة مشير وعضواً بالبرلمان جنوب الإفريقي. أبلغ جمهوراً يهودياً عام ١٩١٩ قائلاً: "لا حاجة لى أن أذكركم بأن شعب جنوب إفريقيا الأبيض وبخاصة السكان الهولنديون الأكثر قديماً، قد نشئوا بشكل شبه كلى على العقيدة اليهودية".

كان ثمة أعضاء آخرون يتبعون كنائس مستقلة Nonconformist عن الكنيسة الانجليكانية من بينهم السير إدوارد كارسون، أو "ملك إقليم ألستر" الأيرلندى الشمالي، كما كان يُلقب، وكان يتحدث باسم معظم البروتستانت المتشددین بأيرلندا الشمالية. وكان أيضاً عضواً حزب العمال بالمجلس أرثر هندرسون وجورج بارنز بروتستانت منشقين عن الكنيسة الانجليكانية، ومعهما أيضاً الأعضاء الثلاثة الممثلون لحزب المحافظين، أندرو بونار لو، واللورد ميلنر (نشأ مسيحياً لوثرياً) وأوستين تشامبرلين (مسيحى مُوحّد). الوحيد الذى كان قد ولد ونشأ أنجليكانياً كان هو اللورد كيرزن والذى كان أيضاً الأكثر تردداً حول الصهيونية، ويخشى من رد فعل عربى انتقامى، ويحث الآخرين على تفحص دقيق للغة وعد بلفور غير الحكمة المليئة بالمسامح. أضافت حقيقة أن أكثر أفراد جماعة الضغط من أجل الصهيونية نفوذاً وفاعلية داخل المجلس، أى السير مارك سايكس، كان كاثوليكياً، وأضاف بذلك لمسة مسكونية غير معتادة على إيماءة مسيحية غير مسبوقه لتعويض "شعب مضطهد" (!!!)

عُرض إعلان بلفور، الذى كان معلماً تاريخياً لتلك الفترة، على مجلس وزراء الحرب فى اليوم الأخير من شهر أكتوبر. قام اللورد بلفور بتلخيص الآراء المؤيدة والمعارضة، وتعالطى بخاصة مع اعتراضات كيرزن على المصطلح المبهم "وطن قومى" زاعماً أنه لا يعنى إقامة دولة يهودية مستقلة (هذا على الرغم من أنه قد أضمهر فى مناسبات مختلفة أن المصطلح يعنى ذلك)، قال إنه يعنى، بدلاً من ذلك،

أن على اليهود أن يعملوا بجد على خلاصهم وأن يخلقوا "مركزاً حقيقياً للثقافة القومية وبؤرة للحياة القومية في فلسطين". حدث أيضاً أن صادقت حكومة جلالة الملك في اليوم ذاته على إرسال خطاب إلى الرئيس الشرقي للفدرالية الصهيونية البريطانية. بدأ الخطاب "العزیز اللورد روتشيلد، يسعدني جداً أن أنقل إليك، نيابة عن حكومة جلالة الملك، (الإعلان) الوعد التالي المُعبّر عن التعاطف مع طموحات اليهود الصهاينة، والذي تم تقديمه إلى مجلس الوزراء والمصادقة عليه".

في شكله النهائي، لخص الإعلان (الوعد) ألقى عام من "الدم والدموع" في خمس وسبعين كلمة: "تنتظر حكومة جلالتة بتأييد واستحسان إلى إقامة، في فلسطين، وطن قومي للشعب اليهودي، وستبذل أقصى جهدها لتسهيل إنجاز هذا الهدف. ولكن من المفهوم بوضوح أنه لا يجوز فعل أي شيء قد يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للجانبايات غير اليهودية الموجودة بفلسطين، أو بالحقوق والمكانة السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر". اختتم الخطاب بعبارة رسمية لا إثارة فيها "أكون ممتناً، إذا أعلمتم الفدرالية الصهيونية بهذا الإعلان (الوعد): المخلص آرثر جيمس بلفور".

بعد مغادرته غرفة اجتماع مجلس وزراء الحرب، تَوَجَّ السير مارك سايكس على قطعة من الورق سلّمها للزائر المتوتر الذي كان يجلس مترقباً بغرفة الانتظار، صيحة ابتهاج تقول: "دكتور وايزمان، مبروك، جالك ولد".

في البداية، لم يتسبب ما أُسمى على الفور "وعد بلفور"، في استثارة، على الأقل بين المسيحيين. في ٩ نوفمبر ١٩١٧ أي اليوم التالي لإعلان الوعد، كانت الأخبار التي جذبت اهتماماً أكبر هي الانقلاب الذي حدث في بتروجراد بقيادة في. أي. لينين الذي أقسم اتباعه البلشفيك على أن يمنحوا روسيا السلام، والأرض والخبز -

وناقضوا بذلك أحد مبررات وعد بلفور التكتيكية. نقلت عناوين الصحف البريطانية مثل فلسطين لليهود (التايمز) و"دولة لليهود" (الديلي إكسبريس) الاعتقاد الشائع أن "وطناً قومياً" كان يعنى دولة يهودية، هذا على الرغم من إصرار المسؤولين البريطانيين، في دفاع عن أنفسهم أمام العرب الذين تملكهم القلق، أنه لم يكن شمة تصور لوضع كهذا. سرعان ما استشعر ويليام بيل، الأمريكي المحنك ومدير ستاندرد أوپل التنفيذي المشاكل، في تقرير له لوزارة الخارجية الأمريكية أرسله من القدس، قابل بيل بين الفرع العام الذي عم اليهود، والإنكارات الفاترة للمسؤولين البريطانيين المحليين الذين اعترف أحدهم قائلاً: "لا أستطيع أن أقول رسمياً إنها دولة لكن، وبأسلوب غير رسمي، فإنني، ببساطة، لا أعرف".

ولم يكن من الواضح أيضاً أن مجلس وزراء الحرب كان يعرف ما ينتد به هذا الوعد، الأمر الذي أصبح جلياً في التصريحات الملتوية التي أدلى بها أعضاؤه للصحافة والبرلمان. بيد أنه كان شمة إجماع من جميع المطلعين بمجلس الوزراء حول نقطة واحدة - فقد تكون فكرة المباركة البريطانية لـ "وطن قومي" ترجع في الأصل إلى الدكتور وايزمان، لكن مارك سايكس هو الذي شجعها وعمل على تحقيقها. عبر ويليام أورمسبي - جور، المسئول بالمكتب العربي بين عامي ١٩١٦ و١٩١٧، والذي كان قد انضم إلى سايكس وليوبولد آمرى، سكرتيراً ثالثاً مساعداً في مجلس وزراء الحرب، عبر عن حكم شخص مطلع. كتب أورمسبي - جور عام ١٩٢٣ يقول "كان مارك سايكس هو القوة المحركة الرئيسية لسياسة الحكومة البريطانية أثناء الحرب. ألهم السياسات العربية واليهودية، معاً. كان مسئولاً، بشكل رئيسي، عن تبني الوزراء لها في إنجلترا. كان مدافعاً لا تُقَدَّر خدماته بثمن عن أية قضية، وكان قد تبني بكل النبل والحماس الذي كان يميزه قضية الشعوب غير التركية التي أخضعت أراضيها لسلطة الأتراك السنية". أضاف أورمسبي - جور التفاصيل التالية: "لم يغفل أبداً عن القضايا الكبيرة وربما يكون هذا هو

السبب في عدم اهتمامه بالتفاصيل. كانت أفكاره غير مصقولة مثل رسوماته، وكانت أساليبه مباشرة، وأحياناً صاخبة، ولذا كانت لندن تناسبه بكثير مما يناسبه الشرق حيث إنه في العالم العربي يحدث أن تتعدد كل قضية وكل خطوة من خلال التبرجات المتداخلة الشخصية أو الضيقة التي كانت بمثابة عوامل ضغط على قدرة احتمال كل موظف بريطاني يحاول المساعدة هناك وحسن أدائه.. كان يسينه بخاصة التحيزات العرقية والعداوات بين اليهود والعرب باعتبار أن كلا من الجانبين سيستفيد من التعاون بينهما وتقبلهما لبعضهما أكبر فائدة. لكن مارك أساء تقدير إيمان العرب وتمسكهم بحقهم في أراضيهم الإقليمية".

ما لم يقله أورمسبي - جور هو الجانب الأقل جدارة من شخصية سايكس. فمثلاً كان، أثناء صباه يخوض معارك وهمية على مروج سلمير الشاسعة وأيضاً مثملاً وجد من دواعي التسلية أن ما كان يسمى بمملكة موناكو كان يدافع عنها جيش شبيه بالدمى ويؤملها كازينو القمار، كانت السياسة بالنسبة لسايكس الناضج أشبه بالاستعراضات والمهرجانات، والحروب أقرب ما تكون إلى مقارعات الفرسان عصر الأوسطيين. شكلت مكانته الاجتماعية حوله عازلاً عن مضايقات الحياة اليومية العادية وأيضاً أبعدته عن تحمل المسؤولية الكاملة عن علاقة متهورة نتج عنها ولادة ابن حُجبت حقيقة وجوده غير المريحة عنه. والقول بأنه كان، كباقي البشر، مخطئاً ومعيباً، لا يقلل من قدر مواهبه الحقيقية أو إثارته الغروسية.

وعلى الرغم من ذلك، فإن حكم أورمسبي - جور أكدته معاصروه ودعمه المؤرخون. أسمت باربرا تاتشمان، مؤرخة الحرب العالمية في تقصيصها لأصول الانتداب البريطاني فلسطين، أسمت السير مارك الرجل الأوحده الذي كان أقرب ما يكون إلى تجميع الخيوط في يده في أى وقت من الأوقات، كذلك، اختص حاييم وايزمان في سيرته الذاتية وهو يشير إلى أحداث ١٩١٧ سايكس بالقول "بدأ لى أن الشخص الوحيد الأوحده الذي كان بإمكان الحكومة البريطانية أن تتمثل فيه على

نحو كافٍ، والذي استوعب الشرق الأدنى بدقة واكتمال، والذي كان يتمتع بثقة العرب واليهود والأرمن بالكامل، هو السير مارك سايكس، الرجل الذي أمسك بتلك القضية لأعوام ثلاثة".

• من ثم، كان التعبير عن الأسى شبه شمولي لدى وفاة مارك سايكس في ١٦ فبراير ١٩١٩، قبيل عيد ميلاده الأربعين ببضعة أشهر. كان قد وصل إلى مؤتمر باريس للسلام مرفقاً من أسفاره في الشرق، ثم ذهب مع صديق له يوم ١٠ فبراير لمشاهدة مسرحية مسينه "تاييس" التي تقع أحداثها بمصر في القرن الرابع. في تلك الليلة أصيب بمرض الإنفلونزا الإسبانية التي اجتاحت العالم وحصدت أرواح أربعين مليون شخص. أصيبت زوجته أيضاً، لكنها نجت من الموت. لدى انتشار خبر وفاته، نعاها الأصدقاء والزلاء والشعوب من أمثال اليهود والعرب(!) والأرمن التي تبني قضاياها بمرثيات مذهولة مخلصه. حُملت جثته في جنازة عسكرية إلى إقطاعية سلميدير، حيث كان قد صمم نصباً تذكاريّاً حربيّاً للأصدقاء وجنود يوركشاير الذين لقوا حتفهم. كان ثمة لوحة نحاسية قد تُركت دونما كتابة، وعليها تم حفر صورة السير مارك وهو يرتدي درعاً عصر أوسطيا ويحمل سيفاً وفي الخلفية كانت "المدينة المقدسة". كتب زميله أورمسي - جور قائلاً لو أنه عاش لكان تاريخ الشرق الأوسط منذ الحرب قد اختلف".

بيد أنه، أكان هذا القول مصيباً؟ أم أنه أفسد شئون المنطقة بأسلوب حتمي لا رجعة عنه؟

بعد تسعة عقود، وفي يوليو ٢٠٠٦، أطر حزب الله اللبناني إسرائيل بوابل من الصواريخ، وثارت إسرائيل لنفسها على نطاق واسع مما حدا بكتاب الأعمدة بصحيفة واشنطن بوست، ريتشارد كوهين إلى التعبير عن رأى غير معتاد أثار وابلًا من الإيميلات الغاضبة. قال إن الفظة الكبرى الذي يمكن لإسرائيل أن تقع فيها في هذه اللحظة هو أن تنسى أن إسرائيل ذاتها هي غلطة "ثم استدرج بالقول

غلطة بريئة حسنة المقصد، غلطة لا يلام عليها أحد لكن إنشاء دولة من اليهود الأوروبيين في منطقة عرب مسلمين (وبعض المسيحيين) نتج عنه قرن من الحروب والإرهاب كما يحدث الآن. تحارب إسرائيل حزب الله في الشمال وحماس في الجنوب، لكن عندها الأكثر ترويعاً هو التاريخ ذاته».

يستحق زعم ريتشارد كوهين أكثر من مجرد الرفض الغاضب من جانب أصدقاء إسرائيل. فما قاله ليس بجديد كان الأمريكيون من أمثال الكولونيل إوارد هاوس أقرب مستشاري الرئيس وودرو ويلسون إليه، قد تنبأوا بأن وعد بلفور سيثير النزاع، كما كان هذا، وكما بينا رأى يهود بريطانيين بارزين من أمثال إيوين مونتاجو. تعلق استاذة جامعة أكسفورد اليزابيث مونرو وهي تكتب ارتجاعاً عن لحظة بريطانيا العابرة بالشرق الأوسط، تعلق على وعد بلفور بالقول قياسيًّا على المصالح البريطانية وحدها، فقد كان إحدى كبرى الأخطاء في التاريخ الإمبريالي. وليس هذا (ولم يكن) رأياً بريطانياً فقط. في عام ١٩٤٧، أشار لوى هندرسون، مدير مكتب وزارة الخارجية لشئون الشرق الأدنى، أشار على الرئيس ترومان أن إقامة دولة يهودية يعارضه جميع أعضاء وزارة الخارجية، تقريباً، المهتمين بالشرق الأوسط. كذلك عارض جميع حكماء واشنطن - جورج مارشال، بين أتشسسون، جورج كنان تشارلس بوهلن، جورج فورستال، وروبرت لوفت - الاعتراف بإسرائيل دولة مستقلة، حيث رأوها. (كما يكتب روبرت دي كابلان في دورية "المستعربون") "عقبة فقيرة نطلياً في طريق العلاقات الحسنة مع العرب الأثرياء بالنفط نوى الموقع الاستراتيجي في وقت تشرع فيه الولايات المتحدة في خوض صراع في جميع أنحاء العالم ضد الاتحاد السوفييتي".

شمة أمريكيون آخرون أبدوا الحذر والحرص حول التجربة الصهيونية. كان فينست شيان، المراسل الأجنبي ليبرالي التفكير، مثلاً على ذلك. يتذكر في سيرته الشخصية "تاريخ شخصي" (١٩٣٥) والتي قرئت على نطاق واسع، يتذكر وصوله

إلى فلسطين بصفته حاجاً مثيراً للصهيونية ليتحول إلى أحد نقاد الحركة. كان موجوداً أثناء الأيام الدموية الخمسة لأعمال الشغب العربية/ اليهودية التي انتشرت من حائط المبكى (حائط البراق) في القدس إلى الخليل وما بعدها وكانت الأرقام الرسمية للمصابين هي ١٢٠ قتيل يهودي و٧٨ قتيلاً عربياً، و١٩٨ جريح يهودي، و١٨٥ جريح عربي. رددت تقاريره عن الواقعة في ذا نيويورك ورلد، وشهادته أمام لجنة التحقيق البريطانية اعتقاده بأن الامتهان المتعمد المنظم للأماكن المقدسة الإسلامية حفز، بدون داع المذبحة. كان قد كتب في أماكن أخرى عن حروب تنجم عن الضرورة التاريخية لكن هنا، في ذلك البلد الصغير البائس، الذي لا يتجاوز حجمه بالنسبة للعالم طرف أصيبك، لا يمكنني أن أرى أية ضرورة تاريخية. كان البلد شديد الصغر مأهولاً بالسكان، لم لا يستطيع الصهاينة تركه وحده في حاله؟ ليس من الممكن أبداً أن يضم عدداً كافياً بحيث يؤدي إلى بداية فقط باتجاه حل المشكلة اليهودية، سيظل دائماً معرضاً لمثل تلك البشاعات الرهيبة التي رأيتها كل يوم وكل ليلة: ضُمنَ تصلب الدين الأزلي، عدم حل المشكلة أبداً. بدت لي الأرض المقدسة أقرب ما شهدت أبداً للجحيم على الأرض.

بيد أن بالإمكان النظر إلى الوقائع نفسها من منظور مختلف بالنسبة لكثير من اليهود، فإن ما حدث بعد وعد بلفور حمل إرهابات بمخاطر الاعتماد على نوايا المسيحيين الصهاينة الحسنة. لم يكن ثمة سياسى بريطاني أكثر التزاماً بالقضية من دايفيد لويد جورج، بيد أن هذا السياسى البريطانى لم يفقد فقط اهتمامه، (لم ترد في مذكراته الضخمة بعد الحرب سوى جملة واحدة عن وعد بلفور)، بل إنه أيضاً أصبح ولو لفترة وجيزة، مداحاً لأدولف هتلر. في عام ١٩٣٦ قام بزيارة الفوهرر في برخستجارن وأثنى عليه بصفته "أعظم ألماني على قيد الحياة". (كتب ونستون تشرشل عام ١٩٤٨ الذي كان تلميذاً للويد جورج يوماً ما، قائلاً إن تقاريره المنتشرة عن أحاديثهما تبو شادة لدى قراءتها هذه الأيام). أبلغ لويد جورج قراءه بالدليلى إكسبرس أن هتلر كان "زعيماً بالفطرة شخصية مغناطيسية دينامية هدفه

الوطيد الأود هو رفع مستويات المعيشة فى ألمانيا التى لم تعد ترغب فى غزو أى بلد آخر. وبعد عام، حينما أصبحت طبيعة النظام النازى واضحة للجميع ماعدا المصايين بالعلماء أسر لويڊ جورج إلى أصدقائه بأنه أمنيته الوحيدة هى أن يكون لدينا رجل يترأس شئون بلدنا الآن له صفات (هتلر) التى لا نظير لها.

(وبالمقابل يبرهن اللورد بلفور على أنه لم يكن صهيونياً مخلصاً فى السراء فقط علق قائلاً لكاتبة سيرته وابنة شقيقته بلانش واجدل، إنه ككل، يشعر بأن ما فعله من أجل اليهود شيء جدير بأن يفعل تماماً).

وفىما تقدمت سنوات الانتداب البريطانى بفلسطين، غدا بإمكان الصهاينة الذين استوطنوا الأرض هناك أن يدركوا حقيقة شعار اللورد بالمرستون المثبطة القائل بأنه ليس "إنجلترا حلفاء دائمون فقط مصالح دائمة". فى عام ١٩٣٩ صاقت حكومة المحافظين برئاسة نيفيل تشامبرلين على "الورقة البيضاء" التى، عملياً، أغلقت بوابات فلسطين أمام اليهود الفارين من ألمانيا النازية. يكتب المؤرخ الأمريكى دافيد إس. وايمان فى كتابه "التخلص من اليهود" (١٩٨٤) قائلاً إنه فى هذا الوقت كانت فلسطين تمثل المجتمع الوحيد على الأرض الذى كان على استعداد لتقبل أعداد كبيرة من اللاجئين اليهود. حددت "الورقة البيضاء" هجرة اليهود بخمسة وسبعين ألف شخص على مدى ثلاث سنوات، وكان من شأن ذلك أن يحصر عدد السكان اليهود بحيث يصبحون ثلث عدد سكان فلسطين مما يضمن غالبية عربية. برهنت الولايات المتحدة أيضاً، أثناء سنوات برنامج الإصلاح الاقتصادى، على أنها لم تكن أكثر ليبرالية أو تساهلاً بشأن قبول اللاجئين اليهود على الرغم من تبني فرانكلين روزفلت لـ "الحريات الأربع". إلا أنه حينما اجتمع بالملك عبد العزيز آل سعود على متن البارجة USS Quincy عام ١٩٤٥، أغفل ذكر اللاجئين اليهود حينما اقترح الملك العربى أن عليهم أن يوطنوا فى ألمانيا أو بولندا. لم يكن بوسع فرانكلين روزفلت أن يكون أكثر استرضاء للملك فقد وعد الحاكم السعودى بأنه لن يفعل شيئاً لمساعدة اليهود ضد العرب ولن يتخذ أية خطوة

معادية للشعب العربي. ثم مضى يقول إن معلومات الأمريكيين عن المسألة اليهودية كانت خاطئة. في تقريره للكونجرس لدى عودته قال الرئيس بأنه قد "تعلم عن المشكلة اليهودية في خمس دقائق مع الملك السعودي أكثر مما كان بإمكانه أن يتعلمه من خلال تبادل ستة خطابات". ومع كامل الاعتراف بتقديم سن الرئيس، وصحته المتدهورة آنذاك، فلم تكن تلك اللحظة مدعاة لفخره.

وحقاً، فقد تعلم اليهود في جميع الأنحاء أثناء العقود التي تلت وعد بلفور، مخاطر إيكال أمر بقائهم للأغراب الأجنبي واعتمادهم على عطفهم. كان فينست شيان قد اشتكى في كتابه "تاريخ شخصي" من أن أصدقاء اليهود يبدون دائماً وأنهم يسيطر عليهم هاجس "عقدة المحرقة"، وهو تعليق بدأ شاذاً بعد ذلك بعقد من الزمان بعد الحرب العالمية الثانية وجد الآلاف من اللاجئين اليهود المتواجدين في معسكرات قذرة، والذين أنكرت عليهم الهجرة القانونية إلى فلسطين، وجدوا طريقهم إلى هناك بأسلوب غير مشروع. أنهت بريطانيا العظمى بعد أن أضعفتها برودة شتاء عام ١٩٤٧ (!!) وعجزت على حفظ السلام في فلسطين، أنهت رسمياً انتدابها، وسارعت بذلك من "الانتفاضة!!" التي أدت إلى إعلان إسرائيل دولة مستقلة في عام ١٩٤٨. أصبح حاييم وايزمان أول رئيس لها واستمر في منصبه حتى وفاته عام ١٩٥٢. أصبحت الوطن القومي، في قرن تميز بالعنف والدماء التي أريقَت، قارب نجاة. ويجعله وجود هذا الوطن ممكناً، اكتسب السير مارك سايكس درع الفروسية الذي يزين اللوحة البرونزية التذكارية بيوركشاير واستحقه بجدارة.

فكرة أخيرة: من الحقيقي يقينا أن حرب استقلال إسرائيل عام ١٩٤٨ اقتلعت مئات الآلاف من الفلسطينيين الذين ظلت محتتهم منذ آنذاك تمثل لوما (!!) مريراً لإسرائيل (!!!) بيد أنه من الحقائق المؤسفة أن معظم بلاد العالم وأدت في الخطيئة وأنه ليس ثمة واحدة منها وبالتأكيد ليس الولايات المتحدة، إسرائيل، كندا، فرنسا، ألمانيا، روسيا، الصين، الهند، تركيا، أو البلدان الإفريقية - بريئة من الاقتلاع. إنها

إحدى حقائق العالم التي يؤسف لها. إن البلدان القومية متجذرة في طقوس العنف
نفضل جميعنا أن ننساها^(١).

(١) يمكن أن تصل المغالطات الأكاديمية إلى هذا الحد:

هذه واحدة فقط من المغالطات التي يسجلها المؤلفان الأكاديميان، فحزب الله لم يمحّر إسرائيل بالصواريخ إلا بعد أن شنت هي هجوماً شاملاً. بحريا / جوا / أرضاً على لبنان استخدمت فيه أطنان المتفجرات والأسلحة المحرمة دولياً، ولم يكن هذا ردّاً ثارياً على صواريخ حزب الله. تتمثل تلك المغالطات أيضاً، ونذكر هنا قطرات من فيض، في ذكرهما للفناني والجرجي الصهاينة الذين وقفوا في مواجهات مع الفلسطينيين أصحاب الأرض لكنهما يغفلان ذكر المذابح التي ارتكبتها عصابات مثل الأرجون والهاجاناه ضد الفلسطينيين الذين كانوا شبه عزل، بل لا يأتي أي ذكر لتلك العصابات. أحد الأساليب التي يتبعها الكاتبان الأكاديميان أيضاً، هي إضفاء البطولة وصفات النبل والشهامة، ليس فقط في هذا الفصل، بل في عدد من فصول الكتاب، على الهواة والمغامرين والمتعصبين، بل والقتلة واللصوص أحياناً، الذين استباحوا إفريقيا والشرق الأوسط وشرواها وسكانها، وقرروا مصير المنطقة بأكملها وتسببوا فيما تعيش فيه من نكبات وأزمات حتى اليوم. لا يوجه إلى مثل هؤلاء اللوم إلا أحياناً، حينما يتصرفون بغضب يؤدي إلى الإضرار بمصالح الإمبراطورية ومصالح الغرب. فلا يتبنى المؤلفان حتى منظوراً موضوعياً حيادياً، ويتركان الحكم للقارئ وللتاريخ. لكن تعبيراتهما ومواقفهما وأسلوب سردهما، كلها محملة بالأحكام المنطوقة والمضمرة المتحيزة مع الغرب، وضد الشرق وشعوبه.

لا غرو إذن أن يذكرنا في فقرة قصيرة في نهاية هذا الفصل بعنوان فكرة أخيرة وكانهما حريصان على الصدقية التاريخية، أن مئات الآلاف من الفلسطينيين أقتلوا، (لا يذكran عمليات الإبادة والتطهير العرقي) في سبيل إنشاء الدولة الصهيونية. لكنهما يبرران هذا كضرورة تاريخية رافقت إنشاء جميع الدول القومية: يغفلان أولاً، أن ما حدث في فلسطين ثم في وجود "قانون دولي" و"عصبة أمم" و"هئية أمم" ولا يقاس بها ثم في غياب كل هذا. ولا يعني هذا مطلقاً أن ما اقترفه الأوروبيون البيض المتعصبون النهابون في حق الشعوب الأصلية بأمريكا وأستراليا وغيرها وغيرها جرائم يمكن أن تُغتفر أو تُنسى، لكن ما ارتكب في حق الفلسطينيين، وما زال يرتكب، ناهيك عن العراق وأفغانستان.. إلخ ثم في وجود قانون دولي ومنظمات دولية. (الترجمة)

الفصل الرابع

الشماس

(مساعد الكاهن)

السير آر نولد تالبوت وياسون

١٨٨٤ - ١٩٤٠

انتصارات صباكٍ مفانمٌ لنا

فقد جعلت قلوبنا ضدّ الالم حصينة

ولا نعتبر حتى "كليفتون" عظيمة

سوى لأنها طوعت إرادتنا لخدمة دولتنا

- السير هنري نيويولوت، ناظر مدرسة

كليفتون كرادج ١٨٨٦

كان اللاهوت هو ما شكّل بداية السير أرنولد تالبوت ويلسون، ذاك الرجل المنسى الذى أنجب العراق بحدودها الحالية. كان رجلاً طويلاً "سنة أقدام" داكن العينين، مهيب النظرة والهيئة. قبيل وفاته عام ١٩٤٠، كتب نصاً يوضح عقيدته وكأنما كان يكتب مرثية ذاتية. قال "قبل الحرب العظمى عمل جيلى فى خدمة رجال آمنوا بالمبررات الأخلاقية الدينية للمهام التى أناطها الله بهم، وشاركناهم إيمانهم وعقيدتهم. كانوا الكهنة، وكنا نحن الشمامسة فى طقوس عبادة - أيقونة سلام بريطانيا - من أجلها عملنا بسعادة، ولو اقتضت الحاجة، لقدّمنا حياتنا فداء لها بسرور، كان كيرزن وهو فى أفضل أحواله، المتحدث، باسمنا، والشاعر كيبلينج فى أكثر قصائده نبلاً ملهمنا.. قرأنا أناجيلنا، كثيرون منا، وعشنا حياتنا مكتلة، وأحببنا وضحكنا كثيراً. لكننا كنا نعلم فيما كنا نفعل ذلك أنه سوف يحكم علينا طبقاً لثمار أعمالنا، فى المستقبل الآتى".

يبدو أن أرنولد تالبوت كان قد جُبل منذ نعومة أظفاره، وبنما خطأ، على أن يكون شماساً في كنيسة عبادة بريطانيا العظمى. لم يكن ثمة ما هو غير مألوف في أن يقوم والده المقدس جيمس ويلسون، رجل الدين الإنجليكاني، بتدريس العلوم لمدة عشرين عاماً بمدرسة راجبي Rugby لطلبة من أمثال طوم براون وزميله الفاسد هاري فلاشمان. لكن لأنَّ يصبح المقدس ويلسون، بعد أن رُسِّم كاهناً، ناظرًا لمدرسة كليفتون كوليديج فهو أمر يكاد يكون من الخوارق. تحتل كلية كليفتون مكانة خاصة في عالم المدارس البريطانية الداخلية القريب. تقع المدرسة على تل أعلى مدينة بريستول. أعدت، وخُرِجت آلافاً من جنود وإداريي الإمبراطورية، وتفخر بأنه قد تخرج فيها عدد من جنرالات الحرب العالمية الأولى، (بمن فيهم القائد العام للقوات المسلحة دوجلاس هيج)، ومن "الأبطال" الإمبرياليين (من بينهم السير فرانسيس

يرونجهزياند الذى غزا التبت) عدداً يفوق ما خرجته أية مدرسة أخرى. لدى زيارتنا لكنيسة الكلية ذات السراييب، وجدنا أن معتقدات ومقولات كيبلينج وكيرزن قد تحولت إلى كلمات تذكارية على نُصب خريجي كليفتون الذين حاربوا وماتوا فى سبيل التاج والإمبراطورية. كان الشاعر الذى صاغ تلك الأبيات التذكارية هو السير هنرى نيويولت الذى كان أيضاً أحد خريجي كليفتون.

تتوقَّ الصبى أرنولد فى لعبة الراجبى "كرة القدم الإنجليزية"، وفى سنته السادسة، فاز لكليفتون بكأس الراجبى الذى طالما تمنته. درس الكلاسيكيات، وتمعن فى قراءة التاريخ العسكرى، وتعلم الفرنسية أثناء رحلة بالقارة وأظهر انضباطاً واكتسب من المعرفة ما حاز على إعجاب حتى والده الصارم. فى عام ١٩٠٢، اتبع ابن الناظر المتقاعد المسار المعتاد من كليفتون إلى ساندهيرست، أى الكلية الحربية الملكية، وهناك احتل قمة المتفوقين فى فصله وحاز على نيشان الملك، وسيف الجدارة العامة. تم تعيينه بالهند وعمل بالفرقة الثانية والثلاثين لرواد السيخ، واكتسب مهارة فى لعبة البولو وأتقن اللغات الآسيوية، وفى غضون عامين كان قد ترقى إلى "القسم السياسى" الذى كان يعين نصف موظفيه من الموظفين المدنيين بالهند، ونصفهم الآخر من الجيش. فى عام ١٩٠٨، وحينما كان ملازماً فى الثالثة والعشرين من العمر، بُعث به إلى جنوب غرب فارس كممثل (عميل) سياسى.

كان ذلك منصباً مباشراً فى وقت هرج. تشير إنجازات أرنولد ويلسون اهتماماً من نوع خاص لأن حياته تُعتبر نموذجاً على التأثير الذى يمارسه مسئول متوسط المكانة له أجنحة أيديولوجية على رؤسائه المُفترضين، تماماً مثلما يجرف التيار التحتى القوى مسار فرطاقة تكاد ألا تتحرك لانعدام الرياح. ليس ويلسون وحده هو الذى شكّل لحظة هيمنة بريطانيا فى الشرق الأوسط باستثناء إنجاز مهم واحد - أى رؤيته لكيان قابل للحياة يسمى العراق - وهو فى هذا قد ترك بصمته على خريطة العالم، أيّاً كانت عواقب ذلك.

كان التوقيت الذي باشر فيه الملزم إيه تى. ويلسون مهامه نموذجياً. وصل إلى فارس في الوقت الذي كانت فيه البحرية الملكية قد بدأت تستخدم السفن الحربية فيها النفط وقوداً بدل الفحم وما تبع ذلك من مكاسب ملموسة في الطاقة البشرية والكفاءة. لكن البحرية كانت قلقة، وكما كان لوردات البحار يعلمون فإن الإمبراطورية الثرية في مختلف الموارد، كانت فقيرة نفطياً. ومع مساعدة سرية من الأميرالية، بدأت مؤسسة مقرها لندن في بداية القرن الجديد تجتهد في البحث عن النفط الذي كان يُعتقد ومنذ زمن طويل، أنه موجود بكميات وفيرة في بلاد فارس. وفيما مضى المسعى قُدماً، عقدت بريطانيا وروسيا صفقة برجماتية لإنهاء تنافسهما الجيوسياسي في آسيا، كي تستطيع كل منهما مجابهة منافسيتها الجديدتين، اليابان وألمانيا. كان أحد النصوص المهمة في المعاهدة الأنجلو روسية لعام ١٩٠٧ يقضى بتقطيع أوصال بلاد فارس (إيران) إلى ما سُمي "مناطق نفوذ". وفيما حازت روسيا لنفسها المنطقة الشمالية الأكبر بما فيها طهران، استولت بريطانيا على الجنوب الشرقي فيما تم تعيين المنطقة الجنوبية الغربية الواقعة بينهما على أنها منطقة محايدة. حدث ذلك فيما الإيرانيون مشغولون بأحداثهم الدرامية الخاصة التي سارعت من وتيرتها قيام الثورة البيضاء ضد الشاه الهرم، الذي أجازوا رغماً عنه، إجراء انتخابات لمجلس نيابي غير مسبوق. صاغ نواب المجلس دستوراً، الأول من نوعه أيضاً، وقَّعه الملك قبل موته. ثم، بعد ذلك، أقنعت روسيا وحلفاؤها من الملكيين خليفة الشاه الطيع بحل المجلس النيابي الذي كان يُعتبر نموذجاً مستفزاً لراعايا القيصر. تلى ذلك حرب أهلية واجه فيها الملكيون الفرس الإصلاحيين وزعماء العشائر. واستناداً منها إلى المعاهدة التي كانت قد وقَّعت لتوها ويتواطأ مع البريطانيين، تدخلت روسيا عسكرياً في طهران وأخمدت الثورة الدستورية الواعدة (مزيد من التفاصيل في الفصل التاسع).

كان ذاك هو المشهد حينما نصب أرنولد ويلسون وفرقة الفرسان المصاحبة له.

خيماهم عام ١٩٠٨ بالقرب من مسجد إى سليمان على هضبتة فى جبال زاجروس. هنا كانت مؤسسة بريطانية شبه مفلسة قد وافقت على أعمال تنقيب تجريبية أخيرة عن النفط. كانت التجهيزات تتوهج تحت الإشراف اليقظ لجورج رينولدز المهندس البالغ من العمر خمسين عاماً والذي عُرِفَ عنه تحديه العدوانى لجميع المعوقات البشرية وغير البشرية. وعلى الفور كوّن ويلسون صداقة مع رينولدز الصموت، وكتب عنه فى خطابه لأهله يقول إنه "رصين فى المفاوضات، سريع فى أفعاله وطيد العزم فى تصميمه للعثور على النفط".

أنت جهود رينولدز وتصميمه ثمارها فى ٢٥ مايو ١٩٠٨، اندفع تدفق بعلو خمسين قدماً وأغرق فريق التنقيب الذى أخذ فى التهليل. وهكذا أطلقت إيران شرارة طفرة الشرق الأوسط النفطية وكان من حسن حظ ويلسون أن كان موجوداً لدى مُستهلها. وعلى الفور أصدر الضابط الشاب أوامره إلى فرقة حاملى الرماح البنغالية بمحاصرة حقل النفط وكأنما هو أرضٌ بريطانية (هذا على الرغم من ان الحقل كان داخل نطاق المنطقة المفترض أنها محايدة) ثم أبرق ويلسون رسالته المشفرة إلى رؤسائه "انظر المزمور ١٠٤ آية ١٥ جملة ٣: (وخمرُ تفرح قلب الإنسان وجهه أكثر من الزيت..). آنذاك، كان المسئول السياسى المُستجِد الذى دانعاً ما كان يرتدى زى الأهالى قد اطلق لحيته، تعلم طهو الأطعمة المحلية، وصادق شيوخ العشائر المحلية الذين كان الكثير منهم عرباً يتمتعون بشبه استقلال ذاتى عن طهران البعيدة، كان تكريسه يثير الرهبة، ومطاقته لا تنفد. كتب إلى أهله بإنجلترا يقول "لا بد أن أُغرق نفسى تماماً فى حياة هذا المكان - جيولوجيته، تاريخه الطبيعى، حياته النباتية والحيوانية، لهجاته، أعراقه، آثاره وحفريات - حتى يصبح جزءاً من حياتى". وأثناء ما يربو على السنوات الخمس التى قضاهها ببلاد فارس، تنتقل فى أنحاء جبال زاخروس واستكشفتها (كانت حتى آنذاك لم يزرها أى أوروبى، ولم تُرسم لها أية خرائط، وكانت غير متاحة تقريباً) وقام بعمل مسح

لحوالى ثلاثة آلاف ميل مربع سيراً على الأقدام أو منتظياً جواده. جمع الأقاعي
للتحف بومباي، وأرسل خبيثة من العملات المعدنية القديمة لتحف كلكتا، وتعلم أن
يعيش على الكفاف فى الكهوف كى يهرب من حرارة الصيف (درجة الحرارة ٥٤°)
واسحقق بأسلوب رومانسى فى مشهد جبال زاخروس الأخاذ، كما نتبين من تلك
اللقطة من مذكراته:

"يأتى الفجر متباطئاً وتكشف كفافات التلال العارية المحددة مكسوة، فعلاً،
بجميع الألوان على خلفية عليا رمادية.. يتقدم قرص الشمس الذهبى فوق كتف
التل، ويبدأ نشاط المعسكر فيما تختفى بقعة الصقيع الرمادية من فوق سطح
خيمتى. التلال والسهول مفروشة بالزهور.. وفى الوادى، توجد هنا وهناك أحواض
كبيرة لزهو النرجس. ينحنى رجالى، مثلما يفعل الفرس، من على خيولهم التى
تسير ببطء ليستنشقوا عيبرها. لا أستطيع تذكر أن عقلى وعينى وأذنى قد
استمتعت فى أى وقت مضى بهذا الكم الهائل من الأشياء الجميلة المثيرة. وكما
يكتب هنرى نيوبولت آه أيتها الأرض الأم، أقسم بالشمس العظيمة فوقك إننى
أحبك، آه، أهلك".

أصبح ولسون يُتقن اللهجات المحلية بدرجة أنه حينما أسره بعض رجال
القبائل المعادية طلباً للعدية استطاع إقناعهم بإطلاق سراحه: "امتنعتُ عن أخذهم
على محمل الجد، ومضيت أتحدث عن مواضيع خفيفة عملاً بمقولة روبرت والبول
التي مفادها أنه دائماً ما كان يتحدث عن أشياء بذيئة بعد العشاء بحيث يستطيع
الجميع الاشتراك فى الحديث". أطلق روساء العشائر أسيرهم حلو الحديث. وبعد
عامين ولدى رحيله إلى إنجلترا فى إجازة عمل على الباخرة كوقاد فحم من أجل
توفير بعض النقود وتقوية عضلاته. ولدى وصوله إلى مرسيليا بفرنسا، اشترى
دراجة قطع بها الأميال التسعمائة المتبقية حتى وصل إلى منزل أسرته. أنفق
مدخراته على شراء بذلة أنيقة صنعت خصيصاً له. لا غرو إذن، أن ولسون، ومنذ

البداية، جذب انتباه السير بيرسي كوكس (١٨٦٤-١٩٣٧) كبير مسئول الراج (حكومة الهند البريطانية) السياسيين في الخليج الفارسي الذي سيأتي ذكر دهانه ومكره على صفحات كثيرة من هذا الكتاب.

لكي نفهم كوكس، سيكون علينا أيضاً أن نفهم الوضع الشاذ للبريطانيين في الخليج الفارسي. نظرياً، كانت بلاد فارس قوة مستقلة ذات سيادة، وكان للملكها السلطة على موانئ الخليج، إضافة إلى ذلك، كان من المفترض أن تكون إمارات الخليج العربي مثل الكويت ومسقط تابعة للإمبراطورية العثمانية المضمحلة. أما في الواقع، ومنذ القرن الثامن عشر فقد تعامل حكام الهند البريطانية مع الخليج الفارسي بصفته بحيرة مملوكة لبريطانيا واعتبروا إماراته توابع شبه منفصلة. كان مفتاح نفوذ بريطانيا هي قوتها البحرية، حيث استخدمت السفن الحربية والتجارية لتخليص الخليج من القرصنة والقضاء على تجارة الرقيق البحرية، واستخدمتها استراتيجياً لفتح المناطق المجاورة أمام التجارة البريطانية ومنع المنافسين المعادين من تهديد الهند. وكان الراج (نظام الحكم البريطاني بالهند) باستخدامه لضغوطه يستنسخ نظام حكمه غير المباشر بالهند، حيث يقوم مندوب سام بريطاني بتقديم "نصائح" لولاية على رأسها أمير تتمتع اسماً فقط بالحكم الذاتي.

كانت شركة الهند الشرقية، ومنذ عام ١٧٨٩، قد قامت بتعيين مندوبين ساميين في ميناء بوشاير (اسمه الآن بوشهر، المركز الرئيسي لأنشطة إيران النووية). وفيما تنامي نفوذ بريطانيا وتجارتها، تنامت أيضاً سلطة مندوب الراج السامي في بوشاير ومن بوشاير. انتشر مندوبون ساميون آخرون ومسؤولون سياسيون في أنحاء الخليج من أجل تقديم "المشورة" للشيوخ والسلطين والأمراء. ضمن هذا التواجد التراكمي للهند البريطانية دوراً لا حدود له في تشكيل الحياة السياسية ببلدان الشرق الأوسط الإسلامية.

ومن هنا كانت أهمية السير بيرسى زكاريا كوكس، الذى ولد عام ١٨٦٤ لأسرة تنتمى للطبقة الوسطى، وتعلم بمدرسة هارو الداخلية وكلية ساندهيرست الحربية وأصبح أنفه المكسور نتيجة إصابة اثناء ممارسته الرياضة أحد ملامح شكله المميزة. كان ماهراً فى الرماية، ويجيد ركوب الإبل والخيول، وكان فضوله وحبه استطلاع النهم ومهاراته اللغوية مثار إعجاب، تبع كوكس المسار المعتاد من كلية ساندهيرست إلى الهند. وهناك ولكى يتحاشى منصباً غير واعدٍ، تطوع عام ١٨٩٣ للعمل مندوباً سامياً فى الصومال البريطانية بالقرن الإفريقى التى كانت تعمرها الفوضى. وحينما واجهه هناك تمرد قبلى، تولى كوكس أمر قيادة ٥٣ من رجال الهجانة المدربين الهنود والصوماليين و١٥٠٠ جندى غير نظامى، والذين أثبتوا، وكما دون هو فى منكراته، أنهم غير أهل للثقة. وفى غضون ستة أسابيع من الحرب غير المصرح بها كان قد هزم المتمردين بريادة جاش حازت على إعجاب اللورد كيرزن حاكم الهند. آنذاك عرض كيرزن على كوكس منصباً حساساً، كمسئول (عميل/ سياسى) وقنصل بمسقط التى كان سلطانها قد وقّع قبل ذلك بعقد من الزمان معاهدة سرية مع الهند البريطانية، انتهكها وعمل على اهترائها من خلال الميزات التى منحها لفرنسا دون إذن من حاكم الهند البريطانى. تمكن كوكس من استعادة العلاقة الودية بفضل معرفته للعربية، وكياسته الصبورة، ومظهره الذى يشبه الدوق ولينجتون. وبناء على ذلك، قام حاكم الهند البريطانى بزيارة رسمية لمسقط (فى حضور كوكس)، وقام بأسلوب الإمبراطورية الفخيم، بخلع أرفع النياشين على فيصل حاكم مسقط.

كانت تلك الواقعة إلماًحاً بأسلوب عمل كوكس. كان مستمعاً ماهراً يومئذ فى صمت وبيتسم بتواطؤ، كان يحدد بدقة مدى تعليقاته وتوجيهاته. ينقل لنا أرنولد ويلسون لمحة عن هذه الخاصية بتسجيله الحادثة التالية معه:

- "وصلنى خطاب سعادتك (كوكس) لدى بئر عين فارس."

- "لقد قام جدك بتنظيفه وتعميقه، أليس كذلك؟".

- "نعم سعادتك".

- "لم أستطع المجئ قبل الآن لأن ابن جاسم كان معي".

- "زيد بن جاسم الذي يمتلك في...؟"

- "نعم، هذا الرجل قُتِلَ شقيقه الشهر الماضي في الفارة التي شنتها عجمان".

- "من ثم، سلكت طريقاً آخر؟.."

نعم، أرى أنك تفهم صعويتي...."

في عام ١٩٠٤ أصبح الماچور كوكس المسئول السياسي الرئيسي بالنيابة والمندوب السامي في بوشاير، حيث وصل قبيل اضطرابات ثورة إيران الدستورية. كان قد أبدى أثناء جولته الزاخرة بالأحداث، حساً لا لبس فيه للتعرف على قادة المستقبل كان من بين الأوائل الذين تنبئوا بقدرات عبد العزيز بن سعود واستشفوها والذي كان آنذاك من لوردات الحرب الأعراب وقد استعاد لثوه عرش قبيلته في نجد.

عمل كوكس على إتمام نقل ويليام هنري شكسبير، ذلك الشاب البالغ الخامسة والعشرين من عمره، والواعد سياسياً، نقله من موقعه بميناء فارسي قصي ليصبح مندوباً سامياً بالكويت، وبذلك، أصبحت الكويت قاعدة ويليام هنري شكسبير لينطلق منها ويستكشف قلب الجزيرة العربية غير معروفة الملامح والمعالم ويعقد صداقة مع ابن سعود الذي أسس، فيما بعد المملكة، وأعطاه اسمها.

منذ البداية، عرف كوكس أن آيه. تي. ويلسون، الذي كان قد تخرج بعده في ساندهيرست سيكون له مستقبل مرموق. أُثنى عليه حينما قام بحصار حقل النفط الفارسي بواسطة مقاتلين بنغاليين. وصف ويلسون لقاعهم التالي في مقدمته لكتاب عن حياة كوكس:

فى مايو عام ١٩٠٩ أتى لورانس للتفاوض على المعاهدة مع شيخ مُحَمَّرَة نيابة عن شركة البترول الأنجلو فارسية كما أصبحت تعرف، تم استدعائى من مسجد/ إى. سليمان لأساعده وقضيت أسبوعاً كاملاً أعمل ككاتب شفراء وكاتب على الآلة الكاتبة بالطبع. كان يستجوبنى بدقة بشأن كل مرحلة من أنشطة الشركة، ويقدر معلوماتى، وأيضاً بشأن كل ما رأيته وفعلته بعربستان وإقليم بخنيارى.. كان قد جاب أراضى غير معروفة بالجزيرة العربية وقام بعمل بعض المسوحات، من ثم كان بوسعه أن يوجه النقد عن معرفة ويتحدث بثقة كان. يعلم الكثير عن الطيور ويراقب عن كُتُب الحيوانات البرية والحياة النباتية، كان يتكلم العربية بطلاقة وكانت هيئته مهنية.

منذ البداية، مارس نفوذاً هائلاً على شيخ مُحَمَّرَة، لكنه حرص على ألا يضغط عليه باكثر مما يجب. كانت تلك هى تجربتى الأولى فى هذا النوع من المفاوضات، وفى الأسلوب الذى كان البريطانىون يتبعونه فى البيزنس. كان كوكس يرتضى الجلوس على الوسائد على الأرض مثل الشيخ... وكان يولى بالغ الأهمية لإبداع ألفاظٍ لا تؤدى إلى جدالات، ودائماً ما كان يصيغ البنود بالعربية أو الفارسية ويناقشها بشكلها هذا وحينما يتم التوافق عليها باللغة المحلية كان يحاول الترجمة إلى الإنجليزية.

بإمكاننا أن نلمح، فى هذا المقطع، الأساليب التى اكتسب بها مبعوثو وُرسَل إنجلترا - تلك الجزيرة الصغيرة التى لا تتعدى مساحة ولاية ماساتشوستس إلا قليلاً - اكتسبوا تلك السطوة المهيمنة فى الشرق الأوسط، لكن أيضاً، فإن مصير الشيخ وما آل إليه، والذى يأتى ذكره فى الفصل التاسع، يوحى بأن مصافحات مبعوثى إنجلترا وتحيااتهم سرعان ما كانت تقابل ببرود. لدى انتهاء جولته فى بلاد فارس، انضم أرنولد ويلسون إلى لجنة الحدود الدولية التى كُلِّفَت عام ١٩١٣ برسم حدود واضحة بين بلاد فارس وتركيا. وينشأه المتعاد، تمكن ويلسون من

رسم الحدود بحيث يحافظ على المصالح النفطية البريطانية في بلاد فارس، ثم، وفي ٢٨ يونيو ١٩١٤، أنهت رصاصة أطلقت بسرّا في فترة السلام المخادع الطويلة التي تمتعت بها أوروبا.

مع اندلاع الحرب العظمى في يوليو ١٩١٤، وبعد أن انضمت بريطانيا إلى القتال، أمدتها الهند باحتياطي من القوات بدا لا نهاية له. علّق اللورد ساليسبري آخر رئيس وزراء للملكة فيكتوريا، ذات مرة بصراحة قائلاً إن الهند شكلت عسكرة إنجليزية في البحار الشرقية يمكن لإنجلترا أن تأتي منها بأي عدد من القوات دونما أن تدفع لهم أي شيء. كان هذا صحيحاً. فقد أمدت الهند البريطانية الحلفاء بقوات المشاة - قوات بلغ عددها ١.٢ مليون جندي ما بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، وكان نصفها يقاتل بالشرق الأوسط، ومعظم الباقين في خنادق فرنسا - لكنها أيضاً دفعت "النفقات العادية" للقوات التي أرسلت إلى الخارج، وأضافت الهند إلى ذلك منحة قدرها مائة مليون جنيه إسترليني لخدمة قضية الحلفاء. وبنهاية الحرب كان ٢٥٠٠٠ من القوات الأنجلو/هندية مازالوا يخدمون في الميدان في فرقة ما بين النهرين (العراق) بما في هذا كتائب كانت تحارب البلشفيك في بلاد فارس والقوقاز.

ومع أخذ هذا الإسهام في الاعتبار، توقّع حكام الهند البريطانيون أنهم يستحقون مقعداً متساوياً على المائدة التي كان يجلس عليها من يخططون استراتيجية الشرق الأوسط ويصوغونها. حينما دخلت تركيا العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا في نوفمبر ١٩١٤، انتهز حاكم الهند البريطاني الفرصة. في غضون ساعات من إعلان بريطانيا الرسمي، وفي عملية كان قد تم التخطيط لها منذ زمن، اتجهت القوات الأنجلو/هندية إلى الخليج الفارسي حيث استولت على البحرين والفاو في مدخل شط العرب، لدى الحدود بين بلاد فارس وما بين النهرين. كانت

الأوامر الاستهلاكية التي تلقاها الجيش والتي أشير إليها بصفتها غاية في الأهمية، هي حماية ناقلات النفط، وخطوط الأنابيب، ومعامل التكرير، وحقول النفط التي تخص شركة النفط الأنجلوفاخرسية من أى هجوم تركى محتمل. كان نفط فارسى قد أصبح ضرورياً للبحرية الملكية بدرجة أن البرلمان صوت فى يونيو ١٩١٤ على تفويض الحكومة لشراء أسهم الغالبية فى شركة النفط.

وبطول يوم ٢٤ نوفمبر، كانت ثلاث فرق هندية قد استولت على البصرة بالقرب من مصب نهر شط العرب وأقرب ميناء لخطوط أنابيب شركة النفط الأنجلو فارسية ومعامل تكريرها. احتل الغزاة مدينة القُرنَة على رأس دلتا النهر وضمّنوا بذلك الهيمنة البريطانية على الخليج الفارسى ونقطه. ومنذ آنذاك وحتى نهاية الحرب، تشكلت المسرحية من فصلين أحدهما عسكري والآخر مدنى. تأرجح الممثلون فى كل منهما بين التفاوض المفرط والكأبة المتعمقة، وكان يتبع ذلك عادة أزمة وتجديد، فيما عُدّ الأمور فى تلك الأثناء الصراع بين المسؤولين فى نيودلهى، ونظرائهم بلندن، والوكلاء (العملاء) فى المكتب العربى بالقاهرة الذى كان على وشك التأسيس. كان لكل مركز أولوياته وعقائده، وكان بكل مركز أيضاً شخصياته القوية حيث أسهم كل منها فى "الخليط" النهائى - شرق أوسط ليس بالحر واقعيًا، ولا يخضع تماماً للمسئولية الإمبريالية وبعد نهاية "الحرب ابنة الحرّام" كما أسماها قدامى المحاربين الذين تجرعوا مرارتها، ولدت سياسات الحلفاء فى الأراضى العثمانية سابقاً ما يمكننا أن نسميه عن حق "سلاماً ابن حرام".

عسكرياً، بدت الأمور فى البداية وأنها تسير سيراً حسناً بالنسبة للجيش الأنجلو/هندى. تم صد الهجمات التركية المعتادة بدرجة من السهولة تمكن معها الغزاة من اجتياح المنطقة الواقعة أعلى نهر الفرات لمسافة ٧٥ ميلاً واحتلوا مدينة العمارة، ثانياً مدينة مهمة. اندفع الجيش، وقد أسكره النصر، أعلى النهر لمسافة ١٥٠ ميل حتى وصل إلى مدينة الكوت، ومن هناك إلى الناصرية حيث يلتقى دجلة

والفرات. وفي هذا الصدد كتب غليب مايسون الذى عمل سابقاً مع حاكم الهند البريطانى، فى تاريخه العسكرى بعنوان مسألة شرف (١٩٧٤) يقول "تم التفوق على الأتراك من حيث القيادة والقتال فى اشتباك رائع تميزت فيه بخاصة الكتيبة ١١٧ المؤلفة من رجال المهرات. والآن، أصبحنا نسيطر على زوايا المثلث الثلاث وبذا كان وقت التوقف قد حان. فى ٢ نوفمبر ١٩١٥ قال أسكويث رئيس الوزراء، مزهواً، لمجلس العموم لا أعتقد انه كان ثمة سلسلة من العمليات، فى مسار الحرب جمعيتها، افضل تخطيطاً واروع تنفيذاً (من تلك)، كما أنها تسمى إلى أرجحية أفضل للنجاح النهائى". لكن مايسون يضيف قائلاً "كانت الكلمات الأخيرة المنثرة الثلاث تعنى بغداد".

بالنسبة لأسكويث، كان للاستيلاء على بغداد "الأمر الذى دعا إليه كوكس وويلسون" أهمية رمزية واستراتيجية أيضاً. فقد كانت مدينة اسمها معروف لكل من قرأوا ألف ليلة وليلة، كما أن بإمكان الاستيلاء عليها تحويل الانتباه عن فشل هجوم الحلفاء فى غليبولى حيث كانوا قد أرادوا بهذا الهجوم إخراج تركيا من الحرب كانت خطة البريطانيين فى غليبولى من بنات أفكار ونستون تشرشل. وفى البداية عارضها جون فيشر قائد الأسطول البحرى، ثم قبلها. كانت الخطة قد أثارت توقعات منتشية. كانت تهدف إلى الاستيلاء على الدردنيل من خلال هجمة برية على شاطئ غليبولى ثم بعد ذلك يواصل الجيش المسيرة للاستيلاء على العاصمة التركية. كان الشاعر روبرت بروك ضيفاً القوات البريطانية، الأسترالية، النيوزيلاندية، الفرنسية التى تم حشدتها من أجل الأتراك بغليبولى وكتب يعبر عن أمه المنتشى فى سقوط العاصمة التركية الأمر الذى سيتيح له أن يشهد أبراجها تنهارى وأن يتمكن من نهب الفسيفساء من أية صوفيا!!

وفى الواقع، فبعد الهجوم البحرى الاستهلالى فى ١٨ مارس ١٩١٥، وللحظة واحدة مجيدة، بدا وأن بإمكان الحلفاء أن يندفعوا خلال المضيقين، ويستولوا على

إسطنبول ويخرجوا تركيا من الحرب، وبهذا يفتحوا الدردنيل أمام السفن الروسية كان أداء تركيا العثمانية، أو رجل أوروبا المريض، بأنساً في جميع الحروب الأخيرة التي خاضتها. لكن سارت جميع الأمور على غير ما يرام بعد فشل الأميرال الفعلى في ٢٤ إبريل: أغرق الديناميت التركي سفن الحلفاء المتهاكّة، كما فشل الأميرال مفرط الحرص في التقدم إلى إسطنبول التي كانت بلا دفاعات. ضلت بعض السفن طريقها نظراً لسوء الخرائط ورست على الشاطئ الخطأ، ولم يصل الدعم الضروري، كما ظلت الرسائل نوناً أن تُسلم. أما الأهم من كل ذلك، فقد كان على رأس المدافعين الأتراك قائد عبقري هو مصطفى كمال، أو أتاتورك كما أسمى فيما بعد.

كان عدد قتلى الحلفاء في غليبولي ٢٥٠٠٠ جندي، وتكبد الأتراك عدداً مماثلاً. شوّعت تلك الورطة سمعة تشرشل ورسخت صيت مصطفى كمال. وبعد شهر من الجلاء عن غليبولي، صادق أسكويث الذي تملكه الارتباك، على التقدم إلى بغداد، هذا على الرغم من أن جيش المايجور جنرال تشارلس في إف. تاونسند كان قليل العدد وكانت خطوط إمداداته قد قاربت على النفاد. في سبتمبر ١٩١٥ شرعت قوة أنجلو/هندية قوامها عشرون ألف جندي في التقدم أعلى النهر إلى أن أصبحت على بعد ١٦ ميلاً من بغداد. رد الأتراك بهجمة ثائرة قاتلة في كتسيفون، بعد أن دعمت غليبولي معنوياتهم وأعدّاهم.

في ٣ ديسمبر ١٩١٥، "تراجع" (اللفظ المجازي الذي تستخدمه التقارير الرسمية) الجنرال تاونسند عن طريق النهر إلى الكوت، وهي بلدة عربية كان يسكنها حوالي ٦ آلاف نسمة. أعدت قوته التي تقلص عددها ولم يعد لديها سوى ثلاثين مدفعاً، نفسها لحصار ملحى. بعد ستة أسابيع، ذكر الجنرال في تقاريره إلى البصرة أن لديه تمويناً يكفي اثنين وعشرين يوماً، وأضاف "لكننا إذا أكلنا الأحصنة فيمكننا أن نبقى مدة أطول كثيراً". انتظر، نوناً جندي، مقدم إغاثة.

وفى أبريل ١٩١٦، وبعد أن صمد لمدة ١٤٧ يوم استسلم تاونسند. قام الأتراك بأسر ٢٧٧ ضابط بريطاني، و٢٠٤ ضابط هندي، ٩٥٨٠ رجل هندي مُجند، و٣٢٤٨ من غير انقذاتين. لقي الضباط معاملة حسنة في الغالب: عومل تاونسند كضيف مميز وأقام في فيلا ممتعة (سكنها تروتسكي فيما بعد) على إحدى جزر البرينسس بالقرب من إسطنبول.. لقي غالبية الأسرى حتفهم نتيجة الجوع والمرض - يتذكر الجيش الهندي تلك الفاجعة بمرارة. يعلق نائب رئيس الأركان الهندي السابق الجنرال إس . إل. منرس على ذلك بسخرية لازعة في كتابه "الوفاء والشرف" (١٩٩٣) أن "سبورت" كلب تاونسند لقي معاملة أفضل وكان حظه أحسن كثيراً من الأسرى الهنود الذين ماتوا. فقد تم نقله إلى بريطانيا، حيث لحق به صاحبه حينما أُعيد إلى وطنه".

في أواسط عام ١٩١٦، أعادت القوات البريطانية تجمعها لتشن هجمة ثائرة على بغداد. أنيط بالجنرال السير فريدريك ستانلي مود (كلية إيتون، ساندهيرست، وفرقة كولستریم) قيادة جيش ما بين الرافدين. أمضى مود، الذي كان قد حارب بالسودان، وحرب البوير، وعُرف بدقة تخطيطه الذي لا تشوبه شائبة أمضى أربعة أشهر يُعد للهجوم الذي بدأ منهجياً في ديسمبر. رسَّخ مقاتلوه التحكم في الأنهار الرئيسية، وأعادوا الاستيلاء على الكوت، وفي ١١ مارس ١٩١٧، دخلوا بغداد منتصرين. لكن ظل أمر كيفية حكم بغداد، بل معظم بلاد الرافدين غير محسوم.

كان لدى حكام نيودلهي، بدءاً من نائب الملك ومن يليه من المسؤولين، مدرك مشترك عن الشرق الأوسط متجذر في تجربتهم الطويلة في حكم ما كان الجميع يسمونه "الشرق". كان افتراضهم البدهي هو أن البريطانيين يمتلكون مقدرة استثنائية على الحكم الكولونيالي، كما أثبتته حقيقة أن الهند، بملايينها مختلفي اللغات، ومتنوعي الديانات كان يحكمها بضعة آلاف من المسؤولين دونما صعوبة

تُذكر. أما الفرضية الأخرى المتعلقة بالأولى (والتي كان يعتقد فيها كارل ماركس وفريدريتش إنجلز، رغم غرابة ذلك) فهي أن أسيا تخلفت عن الغرب بسبب ما أسماه ماركس "الاستبداد الشرقي" الخارج عن سياق التاريخ. من ثم، فالإمبريالية ذاتها هي نوع من التحرير، مِنَّه من الشعوب المُستعمِرة على الأعراق التابعة، طريق مختصر للانتقال من الشعوذة إلى التنوير، ممر إلى نعم التقدم العديدة. من ثم، فإن تهاوت الإمبراطورية العثمانية العلية سيكون من الممكن أن تصبح "بلاد العرب التركية" (التعبير الذي كان يطلق على أرض الرافدين قبل الحرب العالمية الأولى) إضافة منطقية مفيدة للإمبراطورية البريطانية كمستعمرات أو محميات. وإلى أن يحدث ذلك، فليس ثمة من هو أفضل لإدارة الشؤون المدنية في "بلاد العرب التركية" المحتلة من السير بيرسي كوكس ومعه صنيعته وتلميذه النجيب، أرنولد تي. ويلسون.

منذ البداية، ويصفته كبير المسؤولين السياسيين في البصرة التي كان قد تم غزوها مؤخراً، جاهر كوكس بمعروفه أبناء عمومته في نيودلهي في إعلانه الاستهلاكي لقد احتلت الحكومة البريطانية البصرة الآن، لكن، ورغم أن حالة الحرب مع الإمبراطورية البريطانية مازالت قائمة، لكننا لا نُكِنّ عداً أو نية سيئة للسكان الذين نأمل أن نصبح أصدقاء وحماة لهم. لن يتبقى أى أثر للإدارة التركية بالمنطقة. من ثم، ارتفع العلم البريطاني هنا الذي في ظله ستمتعون بمزايا الحرية والعدالة في شؤون دينكم ودنياكم". وهكذا أصبحت الرواية الهندية عملة الاحتلال. طُبِع فوق طوابع البريد العثمانية أشكال هندية. طُبِّقَت مدونات القوانين البريطانية وحكَّم بمقتضاها قضاة هنود، وحلَّ موظفون سياسيون هنود محل موظفي المجالس المحلية التي كان الأتراك قد أقاموها مؤخراً.

تولى نائب كوكس تنفيذ قرارات رئيسه بهمة ونشاط. كان أرنولد ويلسون قد طرح رؤيته في رسالة إلى نيودلهي: "أودُّ لو تم الإعلان عن أن بلاد ما بين النهرين

سنضم إلى الهند كمستعمرة للهند والهند، وأن الهند ستدير شئونها، وتأتي تدريجياً بالزراعة إلى سهولها الصحراوية الخالية من السكان. وتسكنها بأعراق من محاربي البنجاب. ولدى نقله من موقعه كمسئول سياسى إلى رتل كان يتقدم باتجاه مدينة العمارة كتب ويلسون فى خطاب إلى أسرته يقول:

"لا أرى داعياً للقلق بشأن العمليات العسكرية برأس الخليج فإننا حذرون جداً، ولدينا مائة عام من خبرة العمل المتواصل خلفنا.. السكان العرب هنا مدعنون وقد لُقن من هم ضمتنا فى الطرف الآخر من البلاد درساً فى الأيام القليلة الماضية بدرجة أننى أعتقد أنهم لن يتسببوا لنا فى المشاكل مرة أخرى. لديهم أمام أعينهم باستمرار سكان عرب كثيرون يعيشون فى سلام تحت سلطتنا (أى المصريين)... أما عن الطبيعة الاعتبارية والاستبدادية لقدمنا هنا، فأنا أوافق، لكن هذا لا يجعل منه بالضرورة غير ملائم أو نفعي. علينا مواصلة التوسع، ربما ببطء لكن علينا أن نستمر فى التوسع إلى أن يقضى الله بأننا وصلنا إلى حدنا الأقصى".

مما لا شك فيه أن حماس ويلسون كان له أثره على السير تشارلس هاردينج، نائب الملك بالهند، الذى أكد للملك جورج الخامس بثقة فى أكتوبر عام ١٩١٥ قائلاً: "إن مشهدى الصغير فى بلاد الرافدين مازال يمضى قويا وأمل أن ندمج بغداد سريعاً فى الإمبراطورية البريطانية". وفى تلك الأثناء، جمع كوكس طاقماً إدارياً موهوباً بمساعدة إية. تى. ويلسون الذى لا يكل ولا يمل. كان الفريق السياسى المكون من تسعة عشر شخصاً والذى جمعه كوكس، كانوا جميعهم باستثناء شخص واحد على معرفة وثيقة بالمنطقة ويتحدثون اللغات المحلية. وفيما بعد، أصبح الكثيرون منهم لاعبين نافذين على مسرح الشرق الأوسط.

كان كوكس وويلسون يتحدثان باسم نيودلهي. وفيما مضت الحرب قدما، هيمنت آراء مختلفة فى لندن والقاهرة. وبإيجاز، فبالنسبة لأسكويت، رئيس الوزراء وخليفته لويد جورج، كانت الأولوية الأهم فى أوروبا هى مساعدة فرنسا وروسيا

التي أنهكتها الحرب وتشجيعهما واسترضاهما. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، دخلت لندن في تفاوضات سرية عام ١٩١٦ حول تقسيم الإمبراطورية العثمانية المقطعة أوصالها، وقت السلم. وعدت بريطانيا روسيا بأن تمنحها المضائق وأسطنبول، فيما وعدت فرنسا بسوريا ولبنان، على أن تحسم التفاصيل بعد الحرب. في تلك الأثناء دعم المسؤولون البريطانيون بالقاهرة "الثورة العربية" التي أعلنها حسين، شريف مكة. تأرجحت لندن بين نيودلهي والقاهرة. أوجز هيبورت يونج الخبير في شئون الشرق الأوسط بوزارة الخارجية، الموقف عام ١٩٢٠ كالتالي: أثرت شخصيتان قويتان - ولن أقول تحكمت - في سياستنا بالشرق الأوسط أثناء السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة.. لدينا على الجانب السوري، الكولونيل لورانس الذي يشجع الطموحات العربية.. وعلى جانب بلاد الرافدين لدينا السير أرنولد ويلسون الذي يكبح نفس الطموحات ولا يحاول إخفاء أسبابه لفعل ذلك. ويمرر الوقت، فاز لورانس وكتب رائعته "أعمدة الحكمة السبعة" التي احتفى فيها بانتصاراته؛ وبمعنى ما، كانت أكسفورد في مواجهة كليفتون وانتصرت أكسفورد.

وعلى الرغم من ذلك، تكهن أحد المراقبين الأمريكيين في وقت مبكر أن الإمبراطورية لم يكن لديها، بمعنى مجازي، ملابس، أي كانت عارية. كان المراقب هو ويليام بيل، التنفيذي في شركة للنفط والذي أصبح مراسلا محككا يكتب التقارير لوزارة الخارجية الأمريكية أثناء الحرب العالمية الأولى. كتب بيل في تقرير سري أرسله إلى وزير الخارجية بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩١٧، قال فيه عن السياسة البريطانية في سوريا "يعمل الدور الذي يلعبه البريطانيون لأن يجعل الناس يعتقدون أنهم يؤدون لعبة عميقة جداً، ذات هدف شديد التحديد، سيكشف عنه في اللحظة المناسبة. بيد أن الحقيقة تبدو وأنه ليس للحكومة البريطانية سياسة محددة.. وأنها لم تعد علامها وممثلها بأي برنامج واضح لينفذ".

تعمق التشوش في مارس ١٩١٧ حينما سقطت بغداد في أيدي القوات الأنجلو/هندية: قوبل هذا النصر بهتافات الاحتجاج في لندن لأنه ساعد على التعويض عن الإلمتهان الذي واجهوه بالكوت. لكن، ماذا كان من الواجب فعله وقوله بخصوص رعايا جلالتة الجد؟ حنر فاتح بغداد، الماچور جنرال مود، وهو يردد نصيحة السير بيرسى. كوكس من أن "الأوضاع المحلية لا تسمح بتعيين سوى الضباط البريطانيين من ذوي الكفاءة في التعاطي مع السلطات العسكرية، ومع شعب البلد، تعيينهم في المراكز المسؤولة. وقبل أن يكون باستطاعتنا استخدام أية واجهة عربية حقيقية لتغطية حقيقة تحكمنا. يبدو أنه من الضروري ترسيخ أسس القانون والنظام كما يجب أولاً".

تحدى السير مارك سايكس من وزارة الخارجية، والذي كان قد أصبح آنذاك صوتاً له نفوذ في مجال شئون الشرق الأوسط، تحدى وصفة مود. كان سايكس قد حذر، بالفعل، مجلس وزراء الحرب بقوله "إذا علمت من الهند فسنعود إلى الأسلوب التقليدي للأسود والأبيض، ولا نستطيع إدارة شئون العرب على أساس أبيض وأسود" من ثم، حينما تقدم مود وكوكس بمسودة إعلان يدعوان فيه البغداديين للتعاون مع الإدارة الأنجلو/هندية وأرانوا الحصول على موافقة عليها تم رفض المسودة. وبدلاً منها أعد سايكس الأكثر ليبرالية خطاباً آخر صادق عليه وزراء لورد جورج. أعلن الخطاب أن "جيوشنا قد قدمت إلى مدنكم وأراضيك، ليس كغزاة أو أعداء، بل كحريين" (ترددت هذه التعبيرات مرة أخرى في إعلان مماثل حينما، سقطت بغداد مرة أخرى في أيدي قوات الولايات المتحدة في ٩ أبريل عام ٢٠٠٣). عبر الإعلان الذي باركته لندن عن الأمل في أن ينهض الجنس العربي مرة أخرى ويستعيد مجده، ثم وجه الدعوة لنبلانهم وحكمائهم وممثليهم للمشاركة في الحكومة. ولتسريع هذه العملية أصدرت لندن الأوامر في نفس الوقت بسحب العاملين الأنجلو/هنود من أرض الرافدين المحتلة.

ومع كل الاحترام لإعلان بغداد، فقد كان البريطانيون في واقع الأمر غير متيقنين من حجم السلطة التي كانوا على استعداد لإيصالها لسكان بلاد الرافدين المتنوعين. وحينما اتضح أن القليلين فقط من أهل البلاد هم من كانوا مؤهلين ليحلوا محل الإداريين الأنجلو/هنود قررت لندن الإبقاء على مسؤولين هنود "مؤقتاً". وكما ذكر الباحث الأمريكي دايغيد فرومينج في كتابه "السلام الذي أنهى كل سلام" (١٩٨٩) فقد وجد الجنرال مود نفسه في وضع زائف حيث مضى يدعو إلى الحكم الذاتي فيما كان يُشبّه عملياً. ربما قُصِدَ بصيغة الترسوية التي توصل إليها البريطانيون تحديداً، إثارة التذمر والقلق، فبعد أن تطوعوا بما بدا وأنه تعهد بالاستقلال لمنطقة لم تطالب به شرع الجيش والسلطات المدنية لقوة الاحتلال في إجراءات عدم السماح به (الاستقلال).

حاول السير بيرسي كوكس، الذي كان قد تم تمكينه مؤخراً بصفته المندوب السامي المدني في بلاد الرافدين واتخذ من بغداد مقراً له بدلاً من البصرة، حاول انتزاع إجماع من تلك الإشارات المختلطة المعارضة. انضم، إليه كمساعدته الرئيسي، ويلسون الذي كان قد غدا شخصية مهيبة. كان قد شرع ينظر إلى المعارك كتنشيط كشتفي استخباري وكان أداؤه بالناصرية قد كسب له استحسانات وسام رفيع. حينما كان يتحدث بإسهاب في مطعم القوات المسلحة، قامت منتصبه في زيه ذي الباقة العالية والشارة البيضاء الخاصة بتحدد وضعه كقائد "سياسي" كان زملاؤه الضباط يُصفون باهتمام إلى آرائه التي كان يعبر عنها بيقين واضح، ويدعمها بالحكم الكلاسيكية التي كان مغرماً بها وسرعان ما كان له تلاميذه النجباء المُصطفون الذين أُسموا "شبيبة ويلسون"، كما كانت الشخصيات النافذة التي تزور البصرة من أمثال رونالد ستورز، الذي كان يتقن عدة لغات والذي أصبح فيما بعد حاكم القدس، يسعون إليه. حاز ويلسون إعجاب ستورز الذي قال عنه: "ويلسون المسئول السياسي، صفى كوكس، وسيم الطلعة، بارع ذكي، شديد

الطموح. أضاف أنه فقد شقيقين له في الحرب وأن من حسن حظه أنه عمل مع رئيس ممتاز لمدة أحد عشر عاماً، وما زال يعمل معه.

• حينما استدعى كوكس إلى فارس عام ١٩١٨ للتفاوض على معاهدة معقدة، أصبح ويلسون المنوب السامي المدني بالنيابة في بلاد الرافدين بعد أن كان قد وصل إلى رتبة مقدم (كولونيل). ذكر الكولونيل الذي كان آنذاك في الرابعة والثلاثين، متعجباً في خطاب إلى والديه في مطلع عام ١٩١٨ "لا أكاد أستوعب أنني الآن مسئول أمام الحكومة البريطانية" عن إدارة تلك المساحة الشاسعة جميعها. لا يكاد يكون لدى عاملين ولا يمكن تجميعهم عشوائياً؛ وأجتهد، وكأني ساحر، أن أبقي على جميع الكرات في الهواء ولا أدعها تسقط على الأرض. طورت إلى الرمادي - على بعد ٨٠ ميلاً وعدت، أقلت في السادسة والنصف وصلت في السابعة وأربعين دقيقة، وتناولت الإفطار وأنهيت عملي، وعدت في العاشرة والنصف. يحذوني الأمل أن الحكومة سترسل لجنة، ويدأت بالفعل بتجميع المواد لها. بدون شك، سيكون لي كلمتي المسموعة، وحينما أنتهي من هذه المهمة، ويتم إعلان السلام ساكون على استعداد لوضع قلبي والذهاب في إجازة".

آنذاك، كانت أحكام ويلسون قد تبيست دونما أمل في تغييرها. أعتقد أن بلاد ما بين النهرين ملك لمن غزوها بصفتها محمية إمبريالية تحت السلطة المباشرة لبريطانيا. رأى أن أراضيها يجب أن تشمل أقاليم بغداد والبصرة والموصل العثمانية. كانت الموصل قد وعدت لفرنسا، وكان الاعتقاد أن بها نفطاً، مما كان يعني أن دمجها في العراق يمكنه أن يضمن الدخل الكافي للمحمية الجديدة. في سبتمبر ١٩١٨، وعملاً بسلطته هو، ألقى ويلسون الوضع المستقل للبصرة ولم يقابل قراره هذا بأي اعتراض في مجلس الوزراء البريطاني الذي كان مشغولاً. وفيما اقتربت الحرب من نهايتها، أصدر ويلسون أوامره باحتلال الموصل بأكملها، لأنه وكما نكر أيماً كان شكل الحكومة التي ستقام في بلاد الرافدين في نهاية المطاف،

فإنه يجب، ومن أجل استمرارها الفاعل، أن تضم الولايات الثلاث، أي البصرة، بغداد، والموصل. استمرت القوات الأنجلو/هندية، حتى بعد هزيمة ١١ نوفمبر، في طرد الأتراك من الموصل.

وقبل وقف إطلاق النار بثلاثة أيام، ولدهشة كل المعنيين في الشرق الأوسط، اتفقت بريطانيا وفرنسا على إعلان يعرض على جميع الشعوب التي "قمعها الأتراك لزمن طويل" الحرية في اختيار حكوماتها المستقبلية. أكد الإعلان المشترك، في إشارة واضحة إلى سوريا والعراق، أنهما، وكأبعد من أن يريد فرض أي وضع معين، فليس للحليقين أي اهتمام سوى دعم الحكومات التي ستختارها تلك الشعوب التي قُيِّمت لفترة طويلة وإيرانتها الحرة. رد هذا الإعلان صدى النقاط الأربع عشرة التي أعلنها وودرو ويلسون في ١٩١٨، بعد تسعة أشهر من دخول أمريكا الحرب. نصت النقطة الثانية عشرة على أن جميع "القوميات" تحت الحكم التركي لها الحق "في فرصة كاملة، بدون أية مضايقة للنمو المستقل الذاتي الأمر الذي فهمه العرب على أنه الحق في تقرير المصير، ذلك التعبير الذي طرحته المفدرالية "الاشتراكية الثانية" وصادق عليه بجرارة لنين ومعه الرئيس ويلسون.

ربما استاء البعض من النقاط الأربع عشرة (اشتكى رئيس الوزراء الفرنسي جورج كلمنصو من أن الله أنزل عشر نقاط فقط)، ولكن مع تبدي مؤتمر السلام في الأفق، وبخول قوات وودرو ويلسون الوشيك منتصرة إلى عواصم الحلفاء، كان من المستحيل تجاهل النقاط، أو تجاهله. وأكثر من أي شيء آخر، فإن عدم التزام بريطانيا وفرنسا فيما بعد بوعود زمن الحرب أو الوفاء بها ترك الشعوب التي "قمعها الأتراك لزمن طويل" بحس بالخيانة مازال قائماً. لكن كان هذا من شئون المستقبل. شعر الكولونيل ويلسون الذي كان يعتقد أنه ليس للعرب القدرة على حكم أنفسهم، بالحيرة والاستياء من الإعلان الأنجلوفرنسي. احتج لدى السير آرثر هيرتزل وكيل الوزارة الدائم لمكتب الهند برئاسة مجلس الوزراء البريطاني قائلاً

تبرطنا هذا الإعلان هنا وعلى الفور في استخدام رياء ديبلوماسي نجحنا إلى الآن في تحاشيه، ووضوح سلاحاً نافذاً في أيدي غير المؤهلين للتحكم في أقدار الأمة.. يرى العربي العادي، بالتقابل مع حقبة من السياسيين الهواة ببغداد، المستقبل وأنه يسوده التعامل المنصف والتقدم المادي والأخلاقي تحت رعاية بريطانيا العظمى... إن أفضل طريق لنا هو أن نعلن بلاد الرافدين محمية يُمنح في ظلها جميع الأعراق والطبقات أقصى حد من الحرية والحكم الذاتي بما يتفق مع الحكم البريطاني الرشيد الأمن".

أو، وكما فصلٌ بعد ذلك بشهر، فإن إعلان العراق محمية سيكون له معنى وأهمية استراتيجية، بما أنه من المحتم أن تصبح بغداد مركزاً للمنطقة بكاملها قال إننا "باحثاننا بغداد فقد دققنا إسفيناً في قلب العالم الإسلامي، وبهذا نمنع توحد المسلمين ضدينا في الشرق الأوسط. أؤكد أن سياستنا يجب أن تبقى على بلاد الرافدين إسفيناً، منطقة يتحكم فيها البريطانيون، ولا يمكن استيعابها في العالم العربي أبداً بل يجب أن يبقى عليها.. معزولة بقدر ما يمكن، وتكون نموذجاً للآخرين". (وكما سنرى، ومن منظور نقيض فقد طرح تي. إي. لورانس، بين الحين والآخر، رأياً مماثلاً).

من ثم، لم يكن هناك إجماع حول مستقبل الشرق الأوسط بين الحكومات المنتصرة، أو داخل كل منها، والتي اجتمع قادتها بمؤتمر السلام ببباريس من يناير إلى يونيو عام ١٩١٩. وأثناء تلك الأشهر الطويلة، كان الثلاثة الكبار - رئيس الوزراء لويد جورج، والرئيس ويلسون، ورئيس الوزراء كلمنصو - يجتمعون يومياً، أحياناً، لموازنة شروط السلام، والتعاطي مع مظالم الشعوب التي لا نول لها، وتقسيم مغانم الإمبراطوريات الميتة الثلاث. وللأسف، وكما وصفت مارجريت مكميلان (حفيدة لويد جورج) مجدداً في كتابها "باريس ١٩١٩" فغالباً ما نسي

أولئك الحكام الثلاثة ما كانوا قد وعدوا به، ولم كانت وعودهم. وفيما كانوا يعملون على قراراتهم التي وضعت نهاية للحرب التي أنهت كل الصروب خشي أحد البريطانيين (أرشيبالد ويلز الذي كان قد حارب في فلسطين) وبعد أن تبددت أوهامه، أن تنمة ذلك المؤتمر ستكون "سلاماً ينهي كل سلام". أتت من الشرق الأوسط قافلة من المتوسلين. في حالة العراق وسوريا كان ثمة بريطانيون ثلاثة نافذين على استعداد لتقديم النصيحة: الكولونيل ولسون، وسكرتيرته لشئون الشرق المستعربة جرتروود بل الشهيرة؛ والكولونيل تي. إي. لورانس، المعرض على الثورة العربية. وفي المقايضة التي تلت، حصل إيه. تي. ولسون، نو الإصرار والجلد، على الدعم لإقامة عراقه المكون من ثلاثة أقاليم. كانت رئاسة مجلس الوزراء البريطانية تفضل إقامة دولة كردستان المستقلة، واقترح لورانس إمارتين منفصلتين للبصرة وبغداد؛ ضغط الأمير فيصل (نجل الشريف حسين) من أجل إقامة فدرالية من سوريا والعراق، وأراد الفرنسيون ضم الموصل (ونظفها) إلى سوريا. حاز الكولونيل ولسون على موافقة لويد جورج الحاسمة، وصدق عليها في حديث موجز مع كلمنصو، على أن يتم تقرير الحدود لاحقاً. يقول جون مارلو، مؤرخ إيه. تي. ولسون، عن حق إنه "إن كان ثمة رجل واحد بالإمكان تسميته مهندس دولة العراق الحالية، هذا الرجل هو أرنولد ولسون".

لكن أرنولد ولسون أثبت أنه أقل قدرة على الإقناع فيما يتعلق بوضع العراق في المستقبل. كان قد تم استبعاد فكرة المحمية البريطانية فقد تغير الزمن. وكان الرئيس ولسون قد عمل على نشر تعبير الانتداب وإضفاء الشعبية عليه، وكان يعني مرحلة انتقالية تخضع فيها "الشعوب المتخلفة" لتحكم سياسي خارجي حتى يحكم عليهم أنهم صالحوون لحكم أنفسهم - كانت تلك هي التعبيرات التي استخدمها الأمريكي الذي ابتدع مفهوم الانتداب، أي جورج لويس بير المؤرخ الناقد لما أسماه "النظام الكولونيالي القديم". كان بير، بصفته عضواً في فريق

مستشارى الرئيس ولسون، قد وضع العراق نصب عينيه بصفتها حجر أساس نظام للانتداب قُصد به التوفيق بين مثالية الرئيس ولسون وواقعية القوة العظمى. أو، وفقاً لحكم الأكاديمي البريطاني الليبرالى الذى لا يعرف المواراة إتيش. إيه. إل. فيشر "تم تغذية فجاجة الغزو بحجاب من الأخلاقيات" (ترك فيشر هذه الجملة دونما تغيير فى الطباعات المتتالية من كتابه "تاريخ أوروبا" ذى التأثير العميق.

كان من يديرون سلطة الانتداب على غير الأوروبيين - فى الشرق الأوسط، ومستعمرات ألمانيا السابقة بإفريقيا، وجنوب المحيط الهادى - كانوا نظرياً مسؤولين أمام مؤسسة عصبية الأمم التى كانت فى حالة جنينية. كان الأمريكيون مهتمين بخاصة بغرضاع الأراضى العثمانية سابقاً حيث كان المبشرون البروتستانت قد أقاموا، منذ عقود عديدة، كليات، وكنائس ومدارس. ولهذا السبب، جزئياً، لم تعلن الولايات المتحدة الحرب على تركيا، بل فقط على القوى المركزية "ألمانيا والنمسا"، من ثم كانت الولايات المتحدة رسمياً قوة مشاركة لا حليفة. وبمعنى أعم، فقد كانت ما تسمى بالإمبريالية المحجبة هى التى تناسب المزاج السائد آنذاك. لفت السير مارك سايكس قُبيل وفاته المبكرة عام ١٩١٩، الانتباه إلى التوجه الأوروبى المتغير بعد دخول الولايات المتحدة الحرب وقيام الثورة الروسية (البلشفية) فى مذكره كان قد أرسلها إلى وزارة الخارجية حيث حذر قائلاً لقد تم استبعاد "تعبيرات الإمبريالية، والضم والانتصار العسكرى، وعِبء الرجل الأبيض من المفردات السياسية الشائعة. من ثم، يجب وضع الألفاظ من أمثال المحميات، مجالات النفوذ، الضم، القواعد العسكرية.. إلخ فى غرفة الخزين الدبلوماسية".

وعلى الرغم من أن هذا قد يكون ما جاهر به الخطباء، إلا أن البريطانيين والفرنسيين المنتصرين لم يقنعوا بأى شكل من الأشكال أن المناطق التى استولوا عليها حديثاً يمكن أن تصبح حرة، أو يجوز لها ذلك.. فى حالة العراق، سعت بريطانيا إلى الجمع بين مبدأ الانتداب مع ممارسة الحكم غير المباشر الذى استخدمته طويلاً فى ولايات الإمارات الهندية (ونيجيريا) أى إناطة الحكم، ظاهرياً،

بشخص عربي لكن مع "استشارة" المنسوب السامي البريطاني وإشرافه. أبلغ هيرتزل، من وزارة الهند، إيه. تى ويلسون بصراحة "ما نريده هو نوع من الإدارة بها مؤسسات عربية نستطيع تركها بأمان، فيما نحرك نحن الخيوط بأنفسنا، شيئاً لا يكلفنا كثيراً، ويصبح بإمكان حزب العمال أن يبتلعه لاتساقه مع مبادئه، لكن مع ضمان أمن مؤسساتنا الاقتصادية والسياسية".

وفيما انتهى مؤتمر باريس للسلام، كان الاتفاق لم يتم سوى على كفاف الشرق الأوسط الجديد. ويعد أن كان الأمريكيون قد دعوا إلى دولتين مستقلتين للإكراد والأرمن، بدأوا يتراجعون، متوترين، عن أي تورط جدي في المنطقة. كان مفهوم "وطن قومي" يهودي في فلسطين وفقاً لوعده بلفور، مازال ضبابياً حتى أن الأمير فيصل، بعد أن حفزه لورانس، أبدى موافقة مشروطة على الفكرة. أما الوعود الإقليمية لروسيا القيصرية أثناء الحرب، فقد اعتبرت ملغاة بعد الثورة البلشفية، لكن بريطانيا وفرنسا، وحسب اتفاقهما أثناء الحرب، استعدتا لتطبيق سياسة الانتداب لكل منهما في سوريا ولبنان والعراق وفلسطين. عاد تى. إى. لورانس من باريس إلى وطنه ليقود حملة من أجل الحقوق العربية، فيما استأنف الكولونيل ويلسون، وقد أصابه الإحباط مسؤولياته ببغداد.

أما چرتروود بل، فقد قالت متأسية في خطاب لها إلى صديقها عضو مجلس العموم، ورفيق اهتماماتها بالشرق أوبري هيرت "بالأسف، إنهم قد جعلوا من الشرق الأدنى "لخبطة" بشعة.. أتوقع بيقين أنه سيصبح أكثر سوءاً بكثير مما كان عليه قبل الحرب - باستثناء بلاد الرافدين التي قد نتمكن من الحفاظ عليها بعيداً عن الفوضى العامة".

لكن بل كانت مخطئة حول العراق. بعد المراسم النهائية لمؤتمر السلام التي أقيمت بقصر فرساي، بوقت قصير، بدأت تقارير الصحافة البريطانية تصور بلداً

محتلاً بغور ويمور بالقلق والاضطرابات. جاء في تقرير لمراسل التايمز في سبتمبر ١٩١٩ ما يلي "أظن أن الرأي السائد حول بلاد الرافدين لدى كثير من الإنجليز هو أن السكان المحليين سيرحبون بنا لأننا أنقذناهم من الأتراك، وأن البلد لن يحتاج سوى للتنمية من أجل تسديد الكلفة الهائلة من القتلى الإنجليز، وأموال الإنجليز. لن يصمد أي من هذا أمام الفحص. من وجهة النظر السياسية، فنحن نطالب الشخص العربي أن يستغنى عن كبريائه واستقلاله نظير القليل من الحضارة الغربية التي لابد وأن تمتص تكاليفات الإدارة أية أرباح قد تجنى منها". (من المحتمل أن هذا المراسل المجهول كان پرسيفال لاننون، الذي رافق، غزوة يونجهازبانلد للثبّت مراسلاً للتايمز في عامي ١٩٠٣-١٩٠٤).

في إبريل ١٩٢٠، أطلق مؤتمر دعا إليه الفرنسيون والبريطانيون في منتجع سان ريمو بالريفيرا الإيطالية جذوة اللهب. أعلن المؤتمر بسان ريمو في ٥ مايو، نونما حتى استشارة رمزية للشعوب المعنية، أن الأراضي العربية التركية سابقاً الممتدة من البحر المتوسط وحتى فارس ستخضع لسلطة الانتداب البريطاني والفرنسي. تقسم سوريا العثمانية إلى لبنان وموسع وسوريا متقلصة، وكلتاها تحت الانتداب الفرنسي وتُقطع فلسطين من سوريا وتوضع تحت سلطة الانتداب البريطاني، مع إضافة شرط وهو تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود هناك. تخضع العراق، بعد توسيع أراضيها (على حساب سوريا أيضاً، والفضل يعود إلى إيه. تى. ويلسون) بضم الموصل الغنية بالنفط، تخضع، للنفوذ البريطاني. أوجز العنوان الرئيسي لصحيفة واشنطن بوست ما اقترفه المؤتمر: "تقطع تركيا إلى شرائح". كان تقطيع الأوصال هذا إيذاناً بمولد مشاعر جديدة في العالم العربي وفقاً لجورج انطونيوس الكاتب اللبناني في مؤلفه المؤثر "يقظة العرب" (١٩٣٨)، أي مشاعر الاحتقار القوى للغرب. لم يكن فقط إنكار الهدفين الاثريين للاستقلال والوحدة هو الذى أثار الشعور بالاشمئزاز - بل كان هو، وعلى مستوى أعمق،

خيانة العهد.. كانت قرارات سان ريمو، ترقى إلى الخيانة في أعين العرب، وحقيقة أن تلك القرارات انتهكت ميثاقاً تم التوقيع عليه بالدم، جعل الخيانة أكثر مدعاة للبغض والاحتقار.

ظل ما قاله أنطونينوس عن حدث بريطانيا بوعدوها محل جدل منذ وقت طويل، لكن، ومما لا مجال للشك فيه، فإن قرارات سان ريمو التي تم نشرها كمرسوم واجب التنفيذ، أثارت حقن النخبة السياسية الوليدة بالعراق. ذُكر وجهاء بغداد البريطانيين أن الفعل to manate يضع تحت الانتداب وفقاً لمعاجمهم الإنجليزية، يعني "يسيطر، يأمر، أو يحظر" وأن هذا أبعد ما يكون عن مفهوم الديمقراطية، علاوة على ذلك فقد أتى إعلان مايو في أعقاب تدمير، ظلت نبرته ترتفع، من زيادة قيمة الضرائب، التي فُرِضت للمساعدة على سد نفقات الاحتلال، ومصادرة المنازل لحساب العاملين البريطانيين: تلك الممارسات التي كانت دائماً وقوداً للضغط ضد الاحتلال. بيد أن العراقيين أضرموا أيضاً مظالم أخرى محددة، في الجنوب، هاجم رجال الدين الشيعة الخضوع لسلطة الكفرة، وذكروا الأهالي أنه، وأياً كانت عيوب الأتراك، فهم إخوة مسلمون.

أما في الشمال، فقد احتج الأكراد على دفع الضرائب لبغداد التي لا تأبه بهم، كما اعترام القلق حول من سيتحكم في حقول نفطهم المرتقبة. وجهر كثير منهم بالمطالبة بالاستقلال الذين اعتقدوا أن وودرو ويلسون قد وعد به. وعبر جميع الأطياف الإسلامية، اعتمدت صدور المسلمين الشيعة والسنة بالغضب إزاء ما أحسوه من تحيز الإنجليز للمسيحيين الأرمن واليونانيين والآشوريين، الذين كان بعضهم قد هرب إلى العراق من مذابح الأتراك الطائفية.

عقدت العوامل الخارجية حالة الاضطرابات والقلق. كان الأمير فيصل قد افترض بذهاً، وكما أوضح كبير مساعديه نوري السعيد في نوفمبر ١٩١٩، أن مملكته ستشمل الأقاليم المحررة من سوريا وبلاد الرافدين لتشكّل مجموعة واحدة

من ولايات فدرالية على غرار الولايات المتحدة الأمريكية". وحينما حثت رئاسة مجلس الوزراء البريطاني الإحابة على نوري باشا، الذي قد كان هرب من الجيش العثماني ليحارب مع فيصل، أجابهم الكولونيل ويلسون أنه من غير اللائق به مخاطبة "شخصية ثانوية". لم يُرضِ هذا وزارة الخارجية، وبخاصة خبيرها في الشؤون العراقية الذي كان قد عُيِّن مؤخراً، المAJOR هوبرت يونج وكان قد خدم في بلاد الرافدين. أعدَ مذكره أوضح فيها أن من بين الضباط البريطانيين البالغ عددهم ٢٢٢ والذين يعملون بالإدارة المدنية العراقية، كان أربعة منهم فقط هم من تجاوزوا سن الخامسة والأربعين. ألهمت تلك المعلومة برقية غير معتادة بعث بها اللورد كيرزن الذي كان قد أصبح وزيراً للخارجية إلى السير بيرسي كوكس الذي كان مازال بمهمته المستطالة بطهران. قال كيرزن المسن في برقيته "إن الوضع الحالي في بلاد الرافدين يتسبب في قدر كبير من القلق. إن الإدارة العسكرية الموجودة والتي اقتضتها ضرورة ظروف الحرب متييسة صارمة، وباهظة التكاليف وتعيق تطور إدارة مدنية. وهي في معظمها في أيدي ضباط شباب يفتقدون الخبرة بالضرورة. من الواضح أن نظام الحكم المدني الذي يقام الآن لا يحقق إعلان نوفمبر ١٩١٨ المشترك ولا يرضى الطموحات المحلية.. إنه نظام للحكم البريطاني يعمل العرب فيه مستشارين (وهذا بقدر قليل فقط) بدلاً من أن يكون حكماً عربياً مع مستشارين بريطانيين. يصمر الفرنسيون على التناظر التام بين بلاد الرافدين وسوريا ويسألون عن السبب الذي من أجله نفعل في بلاد الرافدين ما نعترض عليهم نفعله في سوريا".

أنهى كيرزن برقيته بأن بيّن أن الجميع يتفقون على الرغبة في عودة كوكس السريعة إلى بغداد، على الرغم من عدم إمكانية هذا قبل أن يكمل التفاوضات التي كانت قائمة مع فارس. وباستثناء هذا، ماذا كان رأى السير بيرسي؟ في رده على كيرزن، دافع كوكس بلباقة عن صنيعته الكولونيل ويلسون، أعاد النص على

تحفظاته بشأن الإعلان الفرانكو/بريطاني، وقلل إلى الحد الأدنى من أخطار استياء العراقيين. وسرعان ما تبين، أن تفاؤل كوكس كان في غير موضعه.

ما الذي سارع حقاً بالتمرد الذي اجتاحت الفرات في ربيع عام ١٩٢٠؟ ذكرت برقية نمطية أرسلها المندوب السامي المدني النيابية، أكثر من دسنة أسباب لفقدان إدارته "الشعبية التي تمتع بها يوماً ما" وبدأ باكتشافه أن شيوخ القبائل العراقية لم يكن لديهم السلطة المفترضة على رجال قبائلهم. ومن حسن الحظ، وبمحض الصدفة أيضاً، أن شاهداً أمريكياً مؤهلاً كان موجوداً ببغداد أثناء نزوة التمرد العراقي وظل هناك حتى تم قمعه في الخريف، كان هو كورنيليوس شان إيتش إنجرت (١٨٨٧-١٩٨٥) وكان أوروبياً نشأ بكاليفورنيا وتعلم بهارفارد. وكمسئول ناشئ بوزارة الخارجية، فقد تم تعيينه بتركيا العثمانية لدى اندلاع الحرب العظمى وهناك أتقن التركية وعمل مترجماً وكتب تقارير مفصلة عن مذابح الأرمن العثمانيين بين عامي ١٩١٥ و١٩١٩، والتي يُعتقد بعامة أنها أول إبادة جماعية في القرن العشرين. في عام ١٩٢٠ كان إنجرت في طريقه إلى منصب دبلوماسي جديد بفارس، حينما وجد نفسه عاجزاً عن مغادرة بغداد فيما انتفض العراقيون ضد البريطانيين، أو بتحديد أكثر ضد ويلسون. تَكَوَّن أوراق إنجرت، المتاحة بجامعة جورج تاون بواشنطن، أرشيفاً قيماً غير معروف، ونادراً ما يتم الاطلاع عليه عن تاريخ الشرق الأوسط. نورد هنا تقريره الموجز عن التمرد العراقي (الثورة العراقية: الترجمة) في ٧ أكتوبر ١٩٢٠ والذي أرسله إلى وزير الخارجية الأمريكية روبرت لانسينج:

"بما أن الهدنة لم تُعَيَّن الحدود بين سوريا وبلاد الرافدين، سرعان ما اندلعت الاضطرابات بين المواقع المتقدمة للبريطانيين بمحاذاة الفرات العلوي والعرب الذين كان يُتحكم بهم من حلب ودمشق. انسحب البريطانيون من دير الزور في ٢٥

ديسمبر لتحاشي المشاكل، ثم انسحبوا أيضاً من قرية أبوكمال في فبراير من العام الحالي. تم شن غارات محدودة على خط بغداد/ الموصل الحديدي بدءاً من شهر مارس، وفي ٢٤ مايو تم إحراق أحد القطارات. في ٤ يونيو، قتل ضباط وموظفون بريطانيون وأوقع بعربيتين مصفحتين في كمين وقتل راكبهما. انتشرت الاضطرابات سريعاً بين القبائل الأخرى. وعلى الرغم من أن البريطانيين أعادوا احتلال تلعفر، إلا أن الغارات استمرت على القرى المسيحية شرقى دجلة، وفي نفس الوقت تمت محاولة في بغداد لإطلاق سراح أحد الموظفين المطيعين بالقوة، وكان قد تم اعتقاله بناء على خطاب تحريضى، ثم جابت دوريات العربات المصفحة الشوارع. في ١٦ يونيو تمت محاولة لإخراج قطار عن الخط بالقرب من الحلة، وأصبح جلياً أن الاضطرابات تتخذ توجهاً جديداً حينما اكتشفت لافتات تحرض على قتل الضباط البريطانيين. تمت الدعوة إلى الثورة العلنية في التجمعات القبلية ومن ثم، قصف البريطانيون بعض القرى المتمردة واعتقلوا القادة.

أمد إنجرت الوزير لانسيج بتقارير عن كل معركة على حدة لهجمات المتمردين وهجمات البريطانيين المعتادة، وانقضاؤ الفدائيين الشامل على نظام خطوط السكك الحديدية جميعه (الأمر الذى منع سفره إلى فارس). ذكر تفاصيل الصعوبات التى تواجهها قوات الاحتلال البريطانية غير كافية العدد، حيث كان قد تم تقليص عددها لتوفير النفقات، وأنيطت قيادتها إلى الجنرال المتقاعد ومُعْتَلّ الصحة إيلمر هالدين الذى لم يكن يعلم شيئاً عن العراق والذى غادر البلاد فى إجازة فى اللحظة الخطأ. ووفقاً لإنجرت، ونقيضاً للتقارير الأخرى، كان الحجم الحقيقى للحامية البريطانية فى أغسطس ١٩٢٠، ٥٠٠٠ بريطانى، و٣٠٠٠ هندي من المقاتلين، مما يعنى أن رقم الـ ٩٠٠٠ الذى ذكرته المقالات الناقدة لويلسون كان مبالغاً فيه لأن ذلك الرقم "تضمن فرقا من العمال المحيطين". وبحلول فصل الصيف، وفيما بلغ التمرد ذروته - وفقاً لويلسون ومصادقة إنجرت - بُتِّ عدد

القوات عند ٤٧٠٠٠ مقاتل، منهم ٤٢٠٠٠ بريطاني فقط، و ٣٠٠٠٠ هندي متاحين للخدمة في بلاد الرافدين، والباقيون موجودون بفارس أو مرضى، أو في حالة عبور من مكان لآخر. قدر المفوض السامي المدني بالنيابة التكلفة السنوية للحماية بـ ٢٥٠٥ مليون جنيه إسترليني، وهو مبلغ ضخم بالنسبة للمملكة المتحدة التي كانت تئن تحت وطأة ديون الحرب التي لم تسدد، وانتفاضة أيرلندا، وأعمال الشغب المعادية للكونبالية التي انتشرت من القاهرة إلى أمريتسار بالهند، والاضطرابات بفارس والحرب غير المعلنة ضد روسيا البلشفية.

في العراق - هكذا روى إنجرت - واجهت القوات البريطانية عدة مئات لآلاف من الفرسان العرب سريعي الحركة الذين لم تُنزع أسلحتهم أبداً، وكانوا منتشرين بطول البلاد وعرضها. حصل المتمردين على الأموال والأسلحة من تركيا القومية بقيادة مصطفى كمال، كما ذكر إنجرت، ومن عملاء الملكية التابعين للأمير فيصل الذي كان الفرنسيون قد خلعوه عن عرش سوريا. كثيراً ما كان يقود كوابر المتمردين ضباط جيش أترك. وفقاً لشهادة إنجرت، وكان رجال الدين المسلمين يُحيونهم ويمطرونهم بوابل من الثناء وكذلك فعلت روسيا البلشفية، بل إنها نادى بآبى أحد آيات الله الشيعة بكربلاء "بطلاً للتحرير".

قد يشعر الشخص الأمريكى بوخزة منذرة وهو يقرأ التقارير عن هذا التمرد كانت الثورة قد شهدت اندلاعها العنيف فى تلغفر، ذات القرية الواقعة على الحدود السورية التى استشهد بها الرئيس جورج دبليو. بوش عام ٢٠٠٦ كنموذج للهدوء والتصالح. فى عام ١٩٢٠، قاتلت القوات البريطانية من منزل إلى منزل فى المدن التى أضحت أسماؤها مألوفة الآن مثل النجف وكربلاء والفلوجة وسمراء، فيما وصل عدد القتلى المدنيين الذروة فى يوليو وأغسطس. يقول إنجرت إن إصابات كثيرة وقعت نتيجة للصيف مفرط الحرارة. تجعل الأنهار المنخفضة بدرجة غير عادية الملاحة الصعبة. تم حرق المؤن العسكرية لعام كامل بمخزن التموينات

بيغداد.. لا يمكن للطائرات أن تعمل إلا لبضع ساعات في الصباح المبكر بسبب الحر القانظ. إن قصف القرى غير مجدٍ عسكرياً، وينطوي على تدمير عشوائى وقسوة غير مجدية أو أليمة. لاقت القوة الجوية منخفضة النفقات قبولاً من الاستراتيجيين البريطانيين، وبخاصة من ونستون تشرشل بصفتها السلاح المفضل لقمع المتمردين، وسنورد تفاصيل ذلك فى الفصلين الخامس والثامن. أتى تشرشل أيضاً بتغيير لافت فى الاستراتيجية السياسية وكان رئيس الوزراء لويد جورج قد استيق تلك النقطة أثناء جدل بمجلس العموم فى مارس ١٩٢٠ بأدر به سلفه، ومنافسه زعيم حزب العمال الليبرالى هربرت إتيش اسكويث الذى حث، وبدعم من السير تشارلس تاونسند (نفس الجنرال الذى كان قد استسلم بمدينة الكوت، ثم ولد من جديد كنائب بالبرلمان)، على قصر سلطة بريطانيا بالعراق على "منطقة البصرة". وجد لويد جورج أن من المستغرب أن يقترح أى أحد التخلي عن الموصل الواعدة والغنية بالنفط ثم أضاف التفاصيل التالية:

"ماذا سيحدث إذا انسحبنا؟.. بعد التكلفة الهائلة التى تحملناها لكى نحرر ذلك البلد من طغيان الأتراك المهلك، فإننا بتسليمنا إياها مرة أخرى للفوضى والإرباك، وعدم تحمل مسؤولية تنميتها، سيكون فعل حماقة لا يمكن الدفاع عنه.. إذا حرمتهم من الحكومة المركزية الوحيدة التى شهدها (أى العرب) فعلياً أن نضع حكومة مركزية أخرى مكانها.. لقد تمت استشارتهم بشأن رغباتهم فى هذا الصدد، وأعتقد أنهم، وبدون استثناء حريصون على أن يظل البريطانيون هناك. لا نقترح أن نحكم البلد وكأنه جزء من الإمبراطورية البريطانية ونسن قوانينها. ليست هذه وجهة نظرنا فإننا نرى أنهم يجب أن يحكموا أنفسهم ونكون نحن مسئولين، بوصفنا قوة انتداب عن تقديم النصع وإرشادهم ومساعدتهم، لكن لا بد أن يكون الحكم عربياً".

كان جلياً أن نظرة لندن إلى مستقبل العراق كانت تختلف عن رؤية بغداد وكان

من الواضح أيضاً أن المفوض المدنى بالنياابة، أى ويلسون، كان غير مواكب، ومن المحتمل له أن يفقد منصبه. أما من دبر الدفعة القوية الحاسمة، فكان هو الكولونيل تى. إى. لورانس.



فى عام ١٩١٩، كان حديث حى وست إند الراقى بلندن، هو تلك المحاضرة المصورة التى كان يرويها صحفى أمريكى غير معروف، كان مازال فى العشرينيات من العمر، واسمه لويل توماس. كان توماس وكمراسل صحفى يبحث عن قصة، قد وقع مصانفة على ما يناظر منجم ذهب إعلامى فى الشرق الأوسط. افترض عرضه للشرائح المصورة بعنوان "مع اللنى فى فلسطين ولورانس فى بلاد العرب" افترض بمقموعة استهلاكية عزفت فيها ستون آلة محاكاة للأذان.. ومن الظلام أرى المشاهدين صوت لويل توماس الصافر وهو يقول "كل ما أنتم على وشك مشاهدته: الرحلة التى انتم على وشك القيام بها - كل هذا كان من المفترض أن يعرض فى أمريكا فقط. لم يراودنى، حتى فى الأحلام أن البريطانيين قد يهتمون بسماع قصة حملتهم بالشرق الأدنى، قصة أبطالكم من خلال أنف يانكى أمريكى، إلى أن وصل إلى نيويورك بيرسى بيرتون منتج هذا العرض. لكننى هنا أمامكم الآن، تعالوا معى إلى الأرض، الأسرار، والتاريخ، والرومانسية".

كان من المفترض أن يستمر عرض توماس لمدة أسبوعين بعد استهلاله فى أغسطس. لكن نهم البريطانيين لخاتمة بطولية تعويضية عن الحرب المروعة بلغ درجة اضطر معها إلى عرضه مرتين فى اليوم أمام الجمهور فى صالة مكتملة العدد، ثم نُقل عرضه من كوفنت جاردن إلى رويال ألبرت هول الأكثر اتساعاً، ثم إلى كوينز هول. وبإجمالى أخذ لورانس محاضراته المصورة فى جولة حول العالم دامت أربع سنوات وشاهدها أربعة ملايين نسمة خلال أربعة آلاف عرض. وإلى حد كبير وبفضل شهرته الفجائية تبنت لورانس دوائر نافذة تضمعت برناردشو وزوجته

تشارلوت، وياسيل ليدلهارت المنظر العسكري؛ وونستون تشرشل الذي سرعان ما أصبح وزيراً للمستعمرات. كان يتم نوسل آراء لورانس عن كل ما يتعلق بالشرق الأوسط. بالنسبة للجمهور، (وفقاً لتعبير توماس لويل) كان لورانس 'ملك العرب غير المتوج' الذي قام، وهو يتحدث العربية الفصحى السليمة بقيادة جيش قوامه مائتا ألف شخص وأصبح بطل العالم في تحطيم القطارات ومن ثم أنجز 'ما لم يستطيعه أي سلطان أو خليفة طوال خمسمائة عام'. من ثم كان هذا الاهتمام حينما طرح لورانس الذي كان مؤخراً قد أصبح لورانس العرب - آراءه بعد أن تمعن في التمرد العراقي، في خطاب إلى صحيفة التايمز في يوليو ١٩٢٠ أعطاه المحررون عنوان 'تحقيق العرب - سياستنا في بلاد الرافدين'.

كتب لورانس يقول إنه 'لا غرو في أن تتدلع انتفاضة لأن نظام الحكم الذي أقمناه هو نظام يعمل بالأسلوب البريطاني ويسير الأمور باللغة الإنجليزية. لدى الحكومة ٤٥٠ ضابط تنفيذي يديرونها ولا يوجد عراقي واحد. في عهد الأتراك، كان ٧٠٪ من الموظفين المدنيين محليين. تقوم قواتنا البالغ عددها ٨٠٠٠٠ بمهام بوليسية، لا بحراسة الحدود.. إنهم يقمعون الشعب'. اقترح لورانس تقليص عدد العاملين الأجانب بشكل جذري وسحب جميع القوات الأنجلو/هندية في غضون اثني عشر شهراً. ختم خطابه قائلاً: 'أعتقد أن العرب في ظل مثل تلك الأوضاع سيبشبتون ولاهم مثل أي من شعوب الإمبراطورية الأخرى، ولن يكلفونا سنتاً واحداً. بالطبع ثمة نفط في بلاد الرافدين، لكننا لن نقترّب منه طالما ظل الشرق الأوسط في حالة حرب، وأعتقد أنه في حالة الضرورة فبالإمكان جعله (النفط) موضوعاً للمساومة، وفيما غدا مقولة تتردد كثيراً، قال إنه يأمل أن يصبح العراق أول ديمقراطية بريطانية أسمر (دولة مستقلة تعترف بالتاج البريطاني حاكماً لها)، لا آخر مستعمرات بريطانيا السمراء.

تبع لورانس هذا الخطاب بمقالات موقعة بالأويزرغر، والدليى هراال العمالية

والصنداي تايمز التي نشر فيها مقاله الأكثر صراحة في ٢٢ أغسطس. بدأ مقاله "لقد اقتيد شعب إنجلترا إلى مصيدة في بلاد الرافدين. تم إيقاعهم فيها من خلال منع مضطرب للمعلومات. تصل البلاغات الرسمية من بغداد بعد فوات الأوان وهي غير صادقة وغير مكتملة. فالأمور أكثر سوءاً بكثير مما أبلغنا إياه، وإدارتنا أكثر دمية وعدم كفاءة بكثير مما يعرفه الجمهور.. إن الخطايا التي ارتكبت هي من فعل المسؤولين البريطانيين المدنيين في بلاد الرافدين (الكولونييلات بخاصة) الذين أطلقت لندن أيديهم. لا تتحكم فيهم وزارة للخارجية، بل المساحة الخالية التي تفصل مكتب الشؤون الخارجية عن مكتب الشؤون الهندية". والنتيجة؟ طرح لورانس فيضا من الأرقام: "أنفقنا في السنة الحالية ٩٢٠٠٠ رجل و ٥٠ مليون جنيه إسترليني... إن حكومتنا أسوأ من النظام التركي القديم. كانوا يحتفظون بـ ١٤٠٠٠ مجند محلي مدمجين في الجيش وكانوا يقتلون مائتي عربي كل عام في المتوسط أما نحن فلدينا ٩٠٠٠٠ رجل بطائرات، وسيارات مصفحة، وسفن مدفعية وقطارات مصفحة. قتلنا حوالي ١٠٠٠٠ عربي في انتفاضة صيف هذا العام. تحكم كرومر في ستة ملايين مصري بواسطة قوة بريطانية قوامها ٥٠٠٠ جندي ويفشل الكولونيل ويلسون في التحكم في ثلاثة ملايين عراقي بواسطة قوة قوامها ٥٠٠٠٠ جندي (سلاح القارئ تنوعاً كبيراً في تلك الإحصائيات تبعاً للمسئول الذي يطرح وجهة نظره).

ليس من قبيل المصادفة أن تُثار نفس القضية في مجلس الوزراء من خلال وزير الحرب آنذاك ونستون تشرشل. كان تشرشل قد أدان رفض لورانس قبول أية أوسمة من الملك جورج الخامس لاعتقاده أن بريطانيا قد حنثت بوعودها للعرب أثناء الحرب.. لكن تشرشل كان كلما علم المزيد عن لورانس زاد إعجابه به. اعتقد مثملاً اعتقد لورانس، عام ١٩٢٠ "أن التمرد الخطير بالعراق" والذي اقتضى استخدام قوات قوامها ٤٠٠٠٠ جندي بتكلفة قدرها ٣٠ مليون إسترليني سنوياً "لا

يجوز له أن يستمر". وعلى الرغم من أن الإجماع السياسي الذي تبدي آنذاك على وجوب تغيير المسار قد لا يكون قد استُلم من الجهات الرسمية، إلا أن حملة لورانس الصحفية بعثته. وفي بغداد استشعر ويلسون النقلة في التوجهات، وحاول، متباطئاً، تغيير توجهه من خلال عكسه آراءه السابقة، حيث اقترح على وزارة الخارجية أن حليف لورانس، الأمير فيصل، وبعد أن خلعه الفرنسيون عن عرش سوريا، فمن الواجب أن يقدم إليه عرش العراق.

لكن هذا لم يحدث فرقا، إذ اتفق تشرشل وكيرزن على أنه يجب أن يحل السير بيرسي كوكس، وقد أكمل مهماته بطهران، محل ويلسون. وفي ١٢ أكتوبر، وصل السير بيرسي إلى بغداد وقد خُلع عليه لقب المندوب السامي، واستقبله وجهاء بغداد بحفاوة، الأمر الذي أدخل الطمأنينة على قلوب رؤسائه بلندن. وفي غضون أشهر وبعد أن أصبح تشرشل وزيراً للمستعمرات، أقتنع لورانس بالعمل رسمياً كمستشار لإقامة نظام سياسي جديد بالشرق الأوسط.

وفيما كان يستعد للرحيل، أسرَّ الكولونيل ويلسون في خطاب له إلى والديه بأنه يجد صعوبة في فهم حقيقة أن أناساً مثل لورانس "يجرون على التحدث بحزم وثقة عن بلاد الرافدين، في حين أنهم لم يسبق لهم التواجد هناك. لقد قضى لورانس هنا أسبوعاً أثناء الحرب. وخلال هذا الأسبوع لم يحدث وأن تحدث لشخص واحد من أهل البلد، وعلى الرغم من ذلك ظل يكتب عن بلاد الرافدين بنفس السهولة والثقة التي يكتب بها عن سوريا، وينفس القدر من عدم الدقة". وأضاف: "إذا كنتُ بدرجة السوء التي تصوّرني بها التايمز والكولونيل لورانس وشركاؤهما، فمن المؤكد أنني لست أكثر سوءاً من أفضل سياسي، من ثم، فلا داعي للقلق". يشعر المرء بقدر من التعاطف مع هذا الديناصور السياسي. المكّرس العنيد المتشامخ. فعلى الأقل لم يخدع ويلسن نفسه بشأن الهشاشة الكامنة للبلد الذي ناضل من أجل اختراعه.

وكما كتب إلى أحد حلفائه العسكريين، أى الكولونيل السير چورج مكمون ففى غضون شهر ساكون قد سلّمت (منصبى) إلى السير كوكس.. لقد كانت الوظيفة صعبة قاسية لقد قتل بعض أفضل ضباطى والفوضى تعم جميع النواحي، ولا يوجد أى تفهم أو تعاطف فى لندن حيث يجثم السياسيون المتجهمون ويبركون كل شىء.. ما نحن إلا زاعه الآن هو الفوضى مضافاً إليها التعصب. ليس ثمة سوى شعور قليل بالوطنية، هذا إن وُجد.. لقد نُهيت المدن، الواحدة تلو الأخرى.. يُقتل اليهود وتُغتصب النساء.. لقد وضعت حكومة جلالة نبيذاً جديداً فى زجاجات قديمة، وانفجرت تلك الزجاجات.. ثم أُردف قاتلاً عن الجنرال هالدين شريكه العسكرى أثناء الانتفاضة إنه مريض، مكتئب، سريع الانفصال: تسببت تاراجحاته الدائمة فى شعور جنرالاته باليأس. لا يصلح لهذه الوظيفة بسبب كبر سنه ووهنه.. قال عن الطائرات الحربية فى وجود قوات غير كافية العدد "كانت إنفاذاً لنا. أعتقد فعلاً أن لولاهما لكنا خارج بغداد الآن".

أثناء أسابيعه الأخيرة، تحدّث ويلسون باستفاضة مع إنجلترا لدرجة أنه أعطاه مقدماً نسخة من نص خطابه الوداعى الذى كان مقررأ أن يلقيه فى ٢٠ سبتمبر (النسخة موجودة بين أوراق إنجلترا). عبّر فى هذا الخطاب عن بغضه للقومية التى هى مفهوم غريبى اعتنقته شعوب لها أجزاءها فى الإمبراطوريات القائمة، تم التأكيد فيها على المصالح المشتركة أكثر من الاختلافات بين الأجزاء المكونة لها، لكنهم لم يروا ذلك.. فضلوا أجزاءً أصغر، وكانت حماية حقوق الأمم الصغيرة هو ما حارب الحلفاء من أجله. لم تكذ أية فكرة أخرى تلقى مثل هذه الاستجابة الشائعة لدى الأعراق المختلفة المكونة للإمبراطورية البريطانية. ثم أعلن ويلسون: أخرس نقاد القومية كسياسة بناءة وتم فرض الصمت بالقوة على المشككين فيها. غدا للقومية الصوت الأعلى، وأكد كل تصريح رسمى للحلفاء، ولقادة الدول الحليفة المختارين، أكدوا عليها بصفتها أساس السياسة فى المستقبل.. لكن، هكذا

استطرد، كان الأمر برمته ضبابياً. وحينما غزت بريطانيا بلاد الرافدين، توقف كل شيء في انتظار مؤتمر باريس للسلام، ومرت الأشهر، كان ثمة حرب على حدودنا.. أصبحت الإدارة العسكرية المؤقتة واستمرار أوضاع الحرب في المدن الكبيرة تسبب أقصى الانزعاج والضيق لطبقات معينة، لكن لم يكن بوسعنا فعل أي شيء، لإرشاد نمو الرأي العام. كانت الأوامر واضحة. لم يكن لنا أن نبني (قواتنا) لكن كان بإمكاننا أن نتنبأ أن التأخير كان يعني المتاعب. على أية حال فقد استمر تسريع الجنود حتى شهر مايو الماضي، ولم يعد لدينا سوى ٥٠٠٠ جندي بريطاني و٣٠٠٠٠ جندي هندي من المقاتلين.

لهذه القصة التي تم نسيانها أصداء مألوفة حزينة تتردد الآن. في عراق عام ١٩٢٠ كانت قوات الاحتلال البريطانية أقل مما يجب لأسباب تتعلق بالميزانية. تم تسريع القوات التركية التي كانت موجودة من قبل بأسرع مما يجب. كانت حدود العراق مع سوريا وتركيا مليئة بالفجوات؛ تطايرت الأيديولوجيات الراديكالية - الدينية، القومية، البلشفية - كالشرارات في مخزن تبن، وعُد العراقيون الذين قد غُزوا حديثاً بالحرية لكن بدون خطة: بذر الاعتماد على سلاح الطيران المارّة بين جميع الأطراف الإثنية للأمة المشظاة؛ واشتعلت في البنية المتقلقة الواهنة جميعها. وعلى الرغم من ذلك، فبالإمكان القول على سبيل التبرير ولو جزئياً، إن البريطانيين، في الشرق الأوسط، كانوا يخوضون منطقة لا معالم لها لديهم وأنهم كانوا يتحسسون طريقهم وسط طموحات العراقيين الجديدة إزاء حق تقرير المصير. كانت بريطانيا قد استنزفت لحد الإفلاس من خلال الحرب، وكانت خزائنها منضبة لأسباب ليس أقلها أنه كان عليها أن تسد ديون الحرب للولايات المتحدة التي كانت تمارس عليها الضغوط (لقد استنجروا أموالنا) هكذا قال رئيس الولايات المتحدة كاليفين كوليدج ببرود ولا مبالاة). ليس بالإمكان الحديث عن مبررات مثيلة لما تلى ذلك من عمليات غزو واحتلال للعراق وغيرها.

وكما سنفصل في الفصل التالي، وفي عام ١٩٢١ ارتجل تشرشل حلاً لفترة انتقالية في الشرق الأوسط أثناء مؤتمر عُقد بالقاهرة وحضره أرتولد ويلسون كمراقب مدني من منطلق منصبه كعضو مجلس الإدارة المنتخب في الخليج الفارسي لشركة النفط الأنجلو/فارسية. أثار قبوله هذا المنصب الذي أضمر تعارضاً واضحاً للمصالح مقالاً افتتاحياً حاداً لصحيفة التايمز (جاء في المقال "تنظر بقدر من الاستنكار لأن تستوعب فروع كبرى شركات النفط خدمات كبار موظفي الدولة") وحفز جدلاً موجزاً بمجلس العموم. لم ير ويلسون أي داع للاعتذار. دافع عن نفسه في خطاب له أمام جمعية آسيا الوسطى قائلاً: "لم أكن لأعجكم بهذا البيان لولا حقيقة أنه قد تم التساؤل في البرلمان عن مدى صواب الخطوة التي اتخذتها.. لم يكن الدافع هو فرصة حصولي على مرتب أكبر، بل فرصة إتاحة عمل مسئول بناءً في منطقة كرسْتُ لها أفضل سنوات حياتي". كان هذا حقيقياً إلى حد كبير.. بيد أنه حينما سعى أنجرت في عام ١٩٢٠ إلى الحصول على تصريح لاثنتين من الجيولوجيين العاملين بشركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا للتقيب عن البترول العراقي، منع ويلسون دخولهما، وكتب برقية ملتبسة يوضح فيها الأسباب حيث قال "الهدف الأساسي المنظور هو استخدام النفط مصدراً للدخل من أجل تخفيض عبء تحمل دافعي الضرائب البريطانيين للتفقات في بلاد الرافدين". (إذن، لم عدم الترحيب بالأمريكيين؟).

لدى عودته إلى بريطانيا بعد استقالته من خدمة الحكومة، مُنح ويلسون وسام الفروسية وتزوج من أرملة أحد ضباط الجيش اسمها روز كارفر، وكانت في الثلاثين من العمر. نشر كتباً من عدة أجزاء عن سنوات خدمته أثناء الحرب، وأيضاً كتاباً ضخماً عن تاريخ الخليج الفارسي، ثم انتُخب عام ١٩٢٣ عضواً عن حزب المحافظين في البرلمان عن دائرة في الريف الإنجليزي. كان ينظر إلى نفسه على أنه رايديكالي في الشؤون الداخلية وإمبريالي في الشؤون الخارجية. بيد أنه كان سانجاً

بخصوص هتلر وموسوليني ورأى ضرورة إرضائهما واستشهد كعادته بالإنجيل: "ومن منكم وهو يريد أن يبني برجاً لا يجلس أولاً ويحسب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله؟" (لوقا ١٤: ٢٨) ليدعم فكرة التسوية مع ألمانيا. لكنه، يُحسب له بفخر، أنه حينما اندلعت الحرب في سبتمبر ١٩٣٩، خاطب ويسون أعضاء دائرته في هيتشين قائلاً: "لا أرغب أن أعيش خلف متاريس من ملايين جثث الموتى". وبعد أسبوعين تطوع كمدفعي في القوات الجوية. قاد طائرات لقصف روتردام، ونامور وأخن. وفي ٣١ مايو ١٩٤٠، لقي مصرعه في إرينجهيم بالقرب من دنكيرك حيث دُفنت بقاياها. هناك نقش على الصليب الخشبي الموضوع فوق قبره الكلمات التالية "مات هنا، وانطلقت جميع الأبواق في الجانب الآخر تحية له". كان السير المدفعي Gunner كما اعتاد زملاؤه أن يلقبوه شماساً، تم ترسيمه كاهناً وكانت عيونه مصورها عقيدته، لا طبيعته.

الفصل الخامس

"غارقة حتى رأسى فى تصنيع الملوك

والحكومات"

چرترود بل

١٨٦٨ - ١٩٢٦

من شرق البلاد لغربها

ينصاع الباشوات لها

تأمر فيهم وتتهى

عن هذا الشأن أو ذاك

أبيات مجهولة

تجمّع كل من هم على علاقة بـبزنيس تصنيع ملوك الشرق الأوسط بفندق سميراميس بالقاهرة لحضور مؤتمر عُقد يوم السبت ١٢ مارس ١٩٢٦ واستمر أسبوعين. وصف تى. إى. لورانس هذا المقر الواقع قرب النيل بأنه "رخام وبرونز، مكلف جداً ومترفّ قال إن هذا المكان "الرهيب" جعله بلشفيّاً بيد أنه كتب لشقيقه يقول "إن جميع من لهم علاقة بالشرق الأوسط موجودون هناك".

كانت الطائرات الحربية البريطانية تطلق فى السماء فيما تجمع آلاف المتفرجين بميدان المحطة. لكن حينما وصل القطار بعد أن تأخر لنصف ساعة، شعر الوجيهاء، المنتظرون والذين كانوا قد تم تفحصهم بعناية بالإحباط. كان ونستون تشرشل وزير المستعمرات الذى كانوا فى انتظار استقباله، قد غادر القطار فى محطة بالضواحي، وركب السيارة دون "أن يراه أحد أو يزعجه" إلى سميراميس، متحاشياً "الغوغاء" الذين احتشدوا خارج فندق شبرد وهم يهتفون "يسقط تشرشل".

أبلغت جرتروود بل، التى وصلت فى اليوم التالى، زوجة أبيها أن لورانس استقبلها بالمحطة (رافقها والدها هيو) : "سُريت لرؤياه. ذهبنا مباشرة إلى غرفة نومي وتحدثنا لمدة ساعة، وبعدها تحدثت طويلاً إلى كلمنتاين، فيما اجتمع سير بيرسى كوكس مع تشرشل فى جلسة مغلقة. لم أر الأخير بعد لأنه خرج لتناول العشاء. دعوت الجنرال كلايتون للعشاء وحديث مستفاض، ثم بعد ذلك قضينا أمسية مسلية. السير جون ماكسويل موجود هنا للسياحة، وقد قدم نفسه إلى. إيه. تى (ويلسون) موجود أيضاً! لا لحضور المؤتمر بل كعضو مجلس الإدارة المنتخب لشركة النفط الأنجلو/ فارسية. كان لنا لقاء ودى لكننى لم أره يتحدث ولا أريد ذلك... أعتقد أن المؤتمر سيكون لطيفاً... مثيراً للاهتمام بدرجة هائلة".

كانت، بل هى المرأة الوحيدة التى دُعيت للمؤتمر: أما باقى النساء اللاتى ظهرن

في الصورة (التذكارية) وهن يمتطين الجمال، فكن زوجات.. كانت بل، التي كان إلامها بتعقيدات الشرق الأوسط يفوق أيًا من الموفدين، مصدر إزعاج ضروريا بالنسبة لصناع السياسة هؤلاء. كان تقريرها المكون من ١٤٩ صفحة بعنوان "مراجعة للإدارة المدنية لبلاد الرافدين" قد قُدم مؤخرًا لمجلس البرلمان وتسبب في كثير من الضوضاء الصحفية. أرسلت إليها بعض قصاصات الصحف حيث كتب هي معلقة على الخط الذي اتبعه غالبية المعلقين "إنه من اللافت أن يستطيع كلب الوقوف على ساقيه الخلفيتين - أي أن يستطيع امرأة كتابة تقرير كهذا... بالمناسبة لا يجوز أن تعتقد أسي أن إيه. تي (ويلسون) هو من طلب مني كتابته - لقد كتبت بناء على طلب مكتب الهند، وأصررت ضد إرادته على كتابته بطريقتي، التي، وعلى الرغم من أنها قد لا تكون جيدة، فهي على الأقل، أفضل من طريقته. على أية حال، فقد انتهى الأمر بأنا كانت النتيجة كما أنني معتنة لأنني لست بإنجلترا حتى لا يضايقني الصحفيون".

وكقاعدة عامة، كانت چرتروود بل تتحاشى الصحافة، وتستنكر الإعلان عن نفسها بهذا الأسلوب، كما أنها أكدت أنها كانت تُلقى بجميع الخطابات التي تطلب منها حوارات صحفية أو صوراً في سلة المهملات على الفور. كانت بل تسيطر على كثير من النقاشات وذلك لحماسها، نوبات الحب التي تصيبها، واندفاعها، ومظهرها الذي يشع "ابتهاجاً ورُقياً"، ومناعتها ضد النقد.

كان الاقتصاد البريطاني قد انهار بعد أن كان على دافعي الضرائب البريطانيين تحمل نفقات غزو روسيا، احتلال إسطنبول (الاستانة)، فلسطين ومصر؛ والحفاظ على الطرق المفتوحة المؤدية إلى الهند وضبط الأمن بأيرلندا. فحتى التاييمز، التي كانت بوق الإمبريالية، حينما كانت الأوقات أفضل، أكدت في مراجعة نشرتها عن أحداث عام ١٩٢١ قائلة "علينا الجلاء عن بلاد ما بين النهرين

فيما نحن قادرون على فعل ذلك، والآن، قاللحظة مناسبة" وأوصت في سلسلة من المقالات أنه "طالما ظللنا هناك سيستجد من الأسباب ما يجعلنا نبقي، وستستجد الأسباب لمزيد من الإنفاق فلننهض ونرحل".

كانت الإمبراطورية قد تمددت بإفراط ولم يكن سوى قليل من الحماس لمزيد من المغامرات الإمبريالية. لكن حتى إذا لم يتقرر التخلي عن بلاد ما بين النهرين فقد كانت شمة حاجة لوجود نوع من القوة العسكرية، على الرغم من أن تشرشل كان قد اعترف أن الجيش كان "بالغ الضعف والحفاظ عليه صعب جدا ومفرط التكلفة كما أننا لم نضمن صديقاً واحداً من القوى المحلية".

كانت أحلام البريطانيين بالإبقاء على القاهرة ودلهي جزءاً من الامبراطورية قد بدأت تنهار. حينما تجمعت خيوط سياسة الشرق الأوسط في قسم فرعي من وزارة المستعمرات كان لوزير المستعمرات الجديد، ونستون تشرشل أن يتحمل "ورطة ما بين الرافدين البغيضة". اعتقد اللورد كيرزن وزير الخارجية أن تولى تشرشل هذا الشأن محمّل بالمخاطر لأن ونستون، وفقاً لكيرزن، "لم يكن على معرفة كافية بأراء دول الشرق الأوسط أو مصالحها". اعتقد تشرشل، ومعه المسؤولون بمجلس الوزراء أن تكلفة الإبقاء على ما بين النهرين كانت باهظة إلى أقصى الحدود. كتب تشرشل في تقريره عن "تقييمات الجيش" لعام ١٩٢٠ يقول "لا تضغط الأركان العامة من أجل الاحتفاظ ببلاد ما بين النهرين أو أى جزء منها على أسس استراتيجية من أجل أمن الإمبراطورية، هذا على الرغم من أهميتها كحلقة وصل في الطريق الجوى إلى الهند، والدفاع الجوى في الشرق الأوسط والأهمية العسكرية لمخزوناتهما النفطية". وفي تعليق آخر له على سلوك لويد جورج، قال إنه يشعر أنه من غير المسوّغ تبديد الموارد العسكرية الضعيفة وتدفق "الجيش والأموال على تلك الصحارى الجاحدة".

كان من المفترض ان يساعد تي. إى. لورانس تشرشل في القاهرة. كانت من

بين موضوعات المناقشة كيانات فلسطين وشرق الأردن الجديدة؛ كيفية حماية مصالح النفط البريطانية في فارس، كيفية ترقيع "أقاليم ما بين الرافدين العثمانية الثلاثة معاً" - أى إقليم البصرة، بغداد، والموصل - بتكلفة رخيصة مع استخدام القوات الجوية بدلاً من الأرضية؛ ثم الإتيان بملك طيع وتنصيبه على عرش العراق ضد رغبات أهالي البلاد الذين من غير اليسير إخضاعهم.

سيصبح مؤتمر القاهرة ذاك علامة نروة تشكيل السياسة البريطانية في الشرق الأوسط في زمن ما بعد الحرب. انقسم "الأربعون حرامى" كما أسامهم تشرشل إلى لجنتين: لجنة سياسية بإشراف وزير المستعمرات وأخرى عسكرية. ومنذ البداية، بدا لمحترفي بيزنس السياسة هؤلاء أن لورانس قد انتصر على البطة العرجاء أى الكولونيل إيه. تى. ويسون بحيث كان المزاج العام يتجه إلى منح البلد "الحكم الذاتى" بدلاً من ضمه مباشرة إلى بريطانيا. أتت "النتيجة الإجماعية" بمؤتمر القاهرة بالموافقة على تقديم عرش العراق إلى الأمير فيصل الذى كان واعداً من حيث إنه "مثل أفضل الطول وأقلها تكلفة". كتب تشرشل إلى لويد جورج، رئيس الوزراء منكرأ إياه بأسباب استحالة تزكية أى من المرشحين الآخرين "سيُفِرَق ابن سعود البلد بأكمله فى جحيم دينى. أما سيد (طالب ابن حاكم البصرة)، الذى يخطط بنشاط وإحكام لتولى المنصب فهو شخص فاسد غير أهل للثقة. كما أن النقيب (حاكم بغداد بالوراثة عبدالرحمن الجايلانى) فهو متهاك وعلى شفا الموت. يتيح نظام الأشراف (تقديم عرش العراق لفيصل) فرصاً أفضل كثيراً لنا من الباقين وهذه فى واقع الأمر هى السياسة الوحيدة القابلة للتنفيذ".

ونظير تنازله عن مطالبته بالعراق، مضى البريطانيون يعدون عبد الله، شقيق فيصل الأكبر، وكان شخصاً ممثلى الجسد، حلو الحديث، متغربنا بدرجة أنه كان يتلقى نسخة من يومية الفيجارو الفرنسية معظم أيام الأسبوع، يُعدونه لتولى عرش شرق الأردن المجاورة (أدان لورانس طموحات عبد الله لتولى عرش العراق، وقال

للمؤتمرين إن الأمير كان كسولاً ليس بإمكانه السيطرة بأي حال من الأحوال). أيضاً كان كوكس يفضل فيصل لحكم العراق لأن بطولته أثناء الحرب تؤهله لتكوين جيش بسرعة. رأى المؤتمرين أنه بالإمكان رشوة ابن سعود، الحاكم الأقوى في المنطقة، بأن يُدفع له ١٠٠٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً يسلم جزءاً منها كل شهر وذلك لضمان استقرار وسط الجزيرة العربية، أي موطنه بنجد. يُدفع أيضاً مبلغ مماثل للشريف حسين والد فيصل كي يحمي مكة والمدينة المقدستين.

كانت مازالت تواجههم مشكلة "تلميع فيصل" لأن التضامن الفرنسي البريطاني كان قد تحلل مع مقدم السلام. من ثم لم تكن إعادة بعث فيصل، الذي كان الفرنسيون قد طردوه من سوريا مؤخراً، لتلقى القبول من وزارة الخارجية الفرنسية. كان القائم بالأعمال الفرنسية قد حذر من أن تتوجع فيصل سيُنظر إليه على أنه عمل غير ودي تجاه فرنسا، وكانت الصحافة الفرنسية قد مضت تتناذب بشأن "الأمير الأنيق بيميدان بيركلي". (كان لوردانس مؤخراً قد عمل رقيقاً لفصل بلندن الذي ذهب بدعوة من الحكومة البريطانية حيث التقى الملك جورج الخامس، واجتمع بوزير الخارجية كيرزن ثلاث مرات قال الوزير بعدها لتشرشل بما يشبه الهذيان إن الأمير تصرف مثل جنتلمان حقيقي، وبمس مرهف بالشرف والولاء).

لكن كانت الفكرة هي أن الفرنسيين لن يكون بوسعهم المعارضة إذا بدا الأمر وأن العراقيين هم من اختاروا فيصل تلقائياً. والحال كذلك فكيف يكون للبريطانيين مبرر للاعتراض على ترشحه!! استعلم تشرشل ما إن كان بوسع كوكس ويل أن يجريا استفتاءً شعبياً تأتي نتائجه في صالح فيصل. سأل "أبستطاعتكما التأكد من أن يتم اختياره محلياً؟". كان المناط بهما تنفيذ هذه الاستراتيجية هما كوكس، الذي كان قد عاد ليشغل منصب المندوب السامي، ويل، سكرتيرته للشؤون الشرقية. لكن بل كانت قد عبرت مؤخراً عن عدم موافقتها على هذه الاستراتيجية حيث كتبت في تقريرها الذي قدمته بعنوان "مراجعة للإدارة المدنية لبلاد ما بين النهرين" تقول "إن

جمهورية القبائل، الرعاة، سكان الأحراش، زراع الأرز والشعير والتمور بجلية والفراة، والذين لا تتخطى معرفتهم بشؤون إدارة الدولة مجرد التكهنات حول أداء جيرانهم لم يكن من الممكن سؤالهم عن يفضلونه حاكما بلدهم فى المستقبل، ووفقاً لى دستور ولو أن هذا قد تم، فلم يكن لهم أن يفعلوا أكثر من توريد الصيفة التى يآمر بها رؤسائهم المباشرين، من ثم، كان من المفيد والأسرع إحالة تلك الأسئلة على الرؤساء فقط، وعلى الرغم من ذلك ترك لكوكس ويل أمر إجراء استفتاء عام وإدارة مسرحية دخول فيصل منتصراً إلى العراق.

أتت بل أثناء أحد الاجتماعات، بتعليق طائش كان الجميع بحاجة إليه وكما روى السير هيوبرت يونج، أحد المشاركين، والذى عمل سابقاً فى مكتب الشؤون العربية ثم أصبح السكرتير الجديد فى قسم الشرق الأوسط بوزارة المستعمرات، روى ما يلى "أثناء أحد النقاشات الجادة أتى لورانس بتعليق طفولى نزق لم يستطع أحد التعليق عليه. هنا، استدارت چرتود نحوه وقالت "ياك من شيطان صغير مزعج". كانت تلك هى المرة الوحيدة التى رأيت فيها لورانس يتفاجأ لدرجة الإحراج. احمر وجهه حتى أنذنيه ولم يقل شيئاً".

أمام اللجنة العسكرية، لخص المارشال الجوى السير هيو ترنشارد مقترحاته للتحكم فى بلاد الرافدين: خمسة أسراب من السلاح الجوى الملكى تشمل وحدتين للقصف، تدعمها ثلاث سرايا من العربات المصفحة البريطانية (فى ٢٩ أغسطس، كتب تشرشل الذى كان قد وصف استخدام الألمان للغازات بأنه "سم جهنمى"، كتب خطاباً سبى السمعة إلى ترنشارد كبير ضباط السلاح الجوى، دعا فيه إلى المضى فى استخدام تجربى لقنابل الغازات، وبخاصة غاز الخردل، الذى من شأنه أن ينزل العقاب بالأهالى المتمردين بدون إصابات خطيرة. وفيما بعد، أصبحت القنابل أحد مكونات الاحتلال الأكثر إثارة للجدل، بعد أن أطلق البريطانيون الغازات المسيلة للدموع على المتمردين الأكراد).

كانت الطائرات، فوق كل شيء، أحد أساليب الترهيب الأقل لفتاً للنظر من القوات الأرضية، وكما أوضح ضابط بال سلاح الجوى الملكى: “يجب انتقاء أحد الأهداف - من الأفضل إحدى القرى التى من الصعب الوصول إليها والتابعة لأهم قبيلة نرغب فى عقابها.. يجب أن يكون الهجوم بالقنابل والمدافع الآلية بلا هوادهى ومطر، ينفذ باستمرار ليل نهار، على المساكن، السكان، المحاصيل والمواشى. ليس ثمة أنباء تنتقل مثل الأنباء السيئة. ستسرى تلك الأنباء مثل النار فى الهشيم وستثبت الوحشية أنها حل ناجح. إذا تم استيعاب الدرس كما يجب”. كانت الغاية هى تخفيض النفقات المذهلة للاحتلال العسكرى للبلد باستخدام قوات عربية محلية وتقليص عدد القوات البريطانية من حوالى تسعين ألف جندي، إلى خمسة عشر ألفاً.

ناقشت اللجنة السياسية أيضاً إمكانية إنشاء منطقة صمد عازلة، دولة كردستانية مستقلة بين تركيا والعراق. كان تشرشل قد عبر بالفعل عن بعض المخاوف -- وكان محقاً -- عن مدى تواؤم الاكراد مع حاكم هاشمى^(١) يدعمه جيش عربي، لكن ولسوء الحظ، قررت اللجنة أنه ومن أجل أن يصبح العراق دولة قابلة للحياة لابد من أن تتكون من الأقاليم الثلاثة معاً.

فى يوم الأحد، أُرجنت الاجتماعات، حيث ذهبت المجموعة فى زيارة للأهرامات، تم تخليدها لأجيال المستقبل عن طريق الصور الفوتوغرافية. جاء بإحدى الصحف

(١) يشير اللفظ العربى إلى الشخص الذى يتسبب إلى عشيرة بنى هاشم، إحدى عشائر قبيلة قريش لكنه أيضاً يدل على اتساع الشخص إلى سلالة الرسول من خلال ابنته فاطمة. وكان هؤلاء تقليدياً أشرافاً يعملون. رعاة لكمة حتى عام ١٩٢٤ حينما طردهم عبد العزيز بن سعود من موطنهم وموطن أسلافهم بالحجاز. وكان للشريف حسين خمسة أبناء، على، الذى خلف والده لفترة وجيزة بالحجاز، عبد الله، الذى أصبح اميراً للاردن ثم ملكاً لها، فيصل، الذى كان ملكاً لسوريا حتى خلعه الفرنسيون ونصبه الإنجليز على عرش العراق والامير زيد الذى لحق بفيصل فى العراق وحسن الذى مات فى صباه. (المؤلفان)

الخطية أن تشرشل سقط من على دابته مما دفع زوجته إلى التعليق بالقول "ما أسهل سقوط الأشداء" لكن، حينما عرض عليه المصريون حصاناً بدلاً من الناقة رفض قائلاً: "لقد بدأت على جمل وسأنتهى على جمل". أحضروا إليه ناقة سهلة الانقياد، وامنطأها وزير المستعمرات وعاد بها إلى ميناهاوس، فيما فضل لورانس، وبِل والآخرين العودة بالسيارة (لم يَبْه تشرشل بحقيقة بغض المصريين له - علقت عربات كثيرة لافتات كتب عليها "عباس" - وفضل التركيز أثناء ساعات فراغه على رسم الأهرامات جالساً على كرسي يُستخدم في الخيام وفي حراسة عربة مدرعة).

بعد انتهاء المؤتمر أبرق تشرشل إلى لويد جورج رئيس الوزراء، يعلم أن قرص ما بين النهرين واعدة. شعر أن بإمكانه طمئنة مجلس العموم أن أهدافه الأساسية قد أُنجزت: تقليص عدد القوات البريطانية المحتلة بالعراق، ضمان الخطوط الجوية؛ تقليل عبء النفقات على دافعي الضرائب بمبلغ قدره ٥ ملايين جنيه إسترليني في العام الأول، و١٢ مليون جنيه إسترليني في العام الثاني. ذكر تشرشل أن العراق أو "البركان الجاحد" كما أسمى البلد قد يصبح نموذجاً عربياً للحكم الدستوري وحليفاً صديقاً. وفي نفس الوقت تقبل نظام الانتخاب المقترح الذي كان قد أسماه "الهرء الذي عفا عليه الزمن" بصفته حلاً برجماتياً.

في عام ١٩٢٢، عبر تي. إي. لورانس، الذي شعر بالارتياح، عن حكمه على ما سم في المؤتمر لروبرت جرايفر، مؤرخه الميكرو قال: "بإمكانني أن أنسب الفضل لنفسى لقرارات تشرشل المُرضية بشأن الشرق الأوسط، ففيما كان هو المنقذ ساعدته أنا بما لدى من معرفة وطاقة. كان لديه من الخيال والشجاعة ما يجعله ينمي منحيّ جديداً، ومن المهارة ومعرفة الإجراءات السياسية ما مكنه من وضع ثورته السياسية موضع التنفيذ... بالطبع كانت العراق النقطة الرئيسية وذلك لأنه لم يكن من الممكن وجود أكثر من مركز واحد للمشاعر القومية العربية؛ أو الأجدى لا يجوز أن يوجد؛ ومن المناسب أن يكون هذا المركز في المنطقة البريطانية لا الفرنسية."

أسرّت بل إلى أحد الأصدقاء قائلة لقد كان رائعاً. حاز مستر تشرشل على الإعجاب، كان على استعداد تام للقاء الجميع فى منتصف الطريق، بارعاً فى توجيه الاجتماعات الكبيرة، وتسيير أمور اللجان السياسية الصغيرة الى قُسمنا إليها. كان من محاسن الصدف أننى والسير بيرسى حينما توصلنا إلى برنامج محدد وجدنا أنه لدى فتحنا مظاريفنا ان برنامجنا يتطابق تماماً مع البرنامج الذى توصل إليه وزير الخارجية. إننى على اقتناع بأن الخط العام الذى تم تبنيه هو الخط الوحيد الذى يُعطى أملاً حقيقياً فى النجاح“.

كانت چرتروود مارجرت لوثيان بل هجيناً معيَّزاً، جزئياً، امرأة عصرية جديدة، وجزئياً امرأة فيكتورية محتشمة. كانت تماثل شخصيات بعض مسرحيات جورج برنارد شو، وروايات هنرى جيمس. كانت تخطو وهى ترتدى فستانها الباريسى وتلتزم بسلوك البريطانيات المحافظات إلى داخل خيمات شيوخ العشائر بخطوات ذكورية واثقة. كثيراً ما تكون الكُنى علامات دالة على الشخصية مثلها مثل العلامات المائية على الورق. كان ويلسون يُكنى بالحرفين ”إيه تى“، كنية موجزة لا معنى لها. على حين أصبحت كنية السير بيرسى هى ”كوكوس“ وفقاً للنطق المحلى لاسمه Cox. فى عام ١٩١٧ كتبت چرتروود من بغداد إلى أسرته معلقة على تلك الاققاب: ”يخل لفظ كوكس سريعاً إلى اللغة العربية، ليس كاسم، بل كلقب مثل استخدامهم للفظى فرعون وكسرى. أوصف الآن بأننى كوكوسة مؤنث كوكوس. أليس هذا لذيذاً“.

بعد أن ترسخت سلطتها أصبحت تلقب بالفتون، كونها سيدة مهمة، وغدت واحدة من القلة من ممكلى حكومة جلالة الملك الذين يتذكركم العرب بشىء يعامل مشاعر الود.

وُلدت كوكوسة عام ١٨٦٨، ابنة خضراء العينين، بنية الشعر للسير هيو بل صاحب مصانع الحديد الثرى المثقف، وزوجته مارجرت التى توفيت حينما كانت

چرتروڊ في الثالثة. وحسب تعبير جيمس موريس الدقيق، نمتجت عائلة بل من إقليم ديرام توجه تفكيرهم الليبرالى "عاشوا في يسر وسخاء، قرأوا كثيرا أصبحوا بارونات وزملاء في الجمعية الملكية، بنى لهم فليب ويب منازلهم، وصمم ويليام موريس بيكورات صالوناتهم". كان مستقبل چرتروڊ الفكرى الواعد جلياً منذ طفولتها. في سن العشرين، أصبحت ميس بل أول امرأة بجامعة أكسفورد تتأهل لدرجة جامعية بمرتبة امتياز (First Class) التي يطمح إليها الكثيرون من الطلبة النابهين، في التاريخ. قالت لمحتننها، إس. آر. جاردينز، المرجعية العظيمة في تاريخ أسرة ستوارت الملكية، إنها "تختلف مع تقييمه للملك تشارلس الأول". (بيد أنه كان من غير المسموح للنساء أن يحزن على درجات جامعية من أكسفورد حتى عام ١٩٢٠).

بعد ذلك، اضطلعت بجسارة مركزة، برحلة سفريات كبرى مرهقة، وتراوحت الأماكن التي زارتها بين أعجوبات أوروبا الثقافية والطبيعية، والحوارى المتربة للشرق الأوسط العثماني. تركت وهي في مصر، بطاقتها مع اللورد كرومر. كانت هذه بداية صداقاتها التي دامت مدى الحياة مع اللوردات النافذين نوى السطوة - كرومر - كيرزن، وروبرت سيسل. شاركتهن فيما بعد آراهم المعارضة لحقوق المرأة، كما أهدت أحد كتبها إلى اللورد كرومر. يعطينا مجتزأ من يومياتها (٢ يونيو ١٨٩٨) فكرة عنها وهي في الثلاثين، أو عن ذلك الدينامو المتحرك: "استيقظت في الخامسة صباحاً وذهبت إلى الأهرامات. أكوام من الجمال العرب، الحمير، الفلاحين تعبر الكوبرى. نساء متشحات بالسواد، نوات قوام رائع، يحملن غالباً أشياء على رؤوسهن. اخترقتُ حدائق الجيزة، ثم الطريق الطويل الذى ينتهى بالأهرامات التى تقف حارسة على حافة الصحراء التى ترتفع عن الوادى والمليئة بالصخور والتلال الرملية. وقفت أسفل منزل بناء الخديوى إسماعيل لولى عهد إنجلترا. خرجتُ وسرت إلى أبوالهول يتبعنى عرب يرتدون ثيابا بيضاء وعبابا

سوداء، طوال القامة أوجههم جميلة ومعهم الجمال. يبرز رأس أبو الهول الصغير المستدير فوق الرمال، وجهه خالٍ من التعبير ينظر من على السهل إلى الصحراء المقابلة والشمس ساطعة على وجهه. يمتلئ محيطه بتلال رملية صخرية وكأنما أنقاض معركة بين عمالقة. عيناان واسعتان مفتوحتان تنظر وتنظر وتنتظر وتنتظر ثم امتطينا الجمال إلى الهرم الثالث حيث دُفِعنا وجُدُنَا إلى داخله وخارجه، ثم عدنا إلى المنزل. كان ترجماننا يدعى حسن. توقفنا بمتحف الجيزة المبهر: موميאות رهيبة مثيرة؛ امرأة متوجة بالأزهار؛ كاهنة مسنة ترقد على جانبها تماماً كما كانت لحظة وفاتها، تماثيل لباني الهرم الثاني، رهيبة بشكل استثنائي، تماثيلان عملاقان لإلهين، موميאות إغريقية ورومانية بصور على صناديق الموميאות. عدت إلى الفندق حيث تركتُ مورييس وذهبت إلى القلعة، ثم مسجد حسن الأول؛ والمسجد غير المكتمل المواجه له والذي بدأته أم الخديوي إسماعيل ولم تكمله؛ منظر بديع من القلعة مجرى العيون، والأهرام، وأهرام سقارة عن بعد؛ هرم دهشور يحجبه الضباب والغبار، جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، وقباب وماذن كثيرة.

لكن لم يكن في القاهرة، بل في لندن، أن التقت بل بصديقة أخرى دامت صلتها مدى الحياة، أي الليدي أن بلانت زوجة ويلفريد سكاون بلانت. كتبت لبيدي أن، التي كانت مولعة بالأسفار وركوب الخيل، تعبر عن إعجابها بزميلتها الأصغر سناً. وعلى الرغم من فرق العمر البالغ ثلاثين عاماً، كتبت بلانت في مذكراتها قائلة إن بل كانت "حيوية بطبيعتها، تعشق الكلام، تتمتع بنشاط جسماني هائل... وإلى جانب معرفتها الاستشرافية، تهتم بالقراءة العامة، الصور واللوحات، المجتمع، والصيد؛ كما أنها متسلقة جبال ماهرة وقامت بعدد من الرحلات المفامرة".

في عام ١٩٠٥ وجدت جرتروود نفسها في بيروت "في أعماق الشائعات الشرقية". ثم غامرت عبر الصحراء السورية إلى منطقة جبل الدروز وهي رحلة

لخصتها في كتابها "الصحراء والأراضي المبنورة". وأفست بذلك في نفس الوقت فرص أحد الرحالة الآخرين الذي له مثل صيتها، أي مارك سايكس الذي لم يستطع الحصول على تصريح المرور الضروري من الأتراك بسبب أفعال بل الطائشة. كتب لزوجته يقول "١٠٠٠ من أسوأ الألفاظ التي في جعبتي على رأس تلك الحمقاء الملعونة". (كانت قد أخبرت، أحد الحكام المحليين، فيما بدا وأنه بدون قصد، أن صهر السير مارك هورنيس وزراء مصر، على حين كان السير جون إلدون جورست مستشار الخديوي المالي فقط). وصفها سايكس لإديث بقوله إنها "عاهرة"، كذابة جهنمية، "رعب الصحراء" وبأنها "ثائرة متبجعة مفرورة مندفعة، مسترجلة، صدرها مسطح، جولة في أنحاء الأرض، جحشة هاذرة تهزمن مؤخرتها". ويروها، اتهمت بل سايكس بأنه يضخم نفقات الأسفار ويدفع أموالاً مبالغاً فيها نظير الخيول والبغال والحمير والترجمات.

عزت بل قدرتها على البقاء بمفردها وبوتما مساعدة، هذا على الرغم من أنها كانت تملك من الموارد المالية ما يمكنها من استئجار ٢٠ ناقه، وفرق من البغالين والترجمات لنقل الخيام والبياضات والأوعية الخزفية الرهيفة وأطقم السفرة الفضية ومعها أدوات قياس الزوايا والبناق للاستخدامات العملية، عزت قدرتها هذه إلى كونها إنجليزية. قالت إن أسهم البريطانيين كانت قد ارتفعت في العالم منذ خمس سنوات وذلك بسبب أصدقائها اللوردات من أمثال كيرزن وكرومر: "أعتقد أن نجاح حكومتنا في مصر هو ما يأخذه المتعلمون، إلى حد كبير، في الاعتبار هؤلاء الذين يرون أن باستطاعة إخوانهم في مصر أن يكتبوا ويدرسوا كما يحلو لهم. تمثل هزيمة روسيا (بين عامي ١٩٠٤ و١٩٠٥ في الحرب الروسية/ اليابانية) أهمية كبيرة، وانطباعي هو أن لسياسة اللورد كيرزن في الخليج الفارسي وعلى الجبهة الهندية أهمية أكبر وأكبر. لا يستطيع من لا يعرف المشرق ارتباط كل هذا ببعضه. لا أعتقد أنه من المبالغة القول إنه لو كانت الحملة الإنجليزية قد طردت

من على بوابات كابول لكان السائح الإنجليزي شخصاً غير مرحب به فى شوارع دمشق.

وبعد أن صقلت مهاراتها فى عمل مسوحات للأماكن فى الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، قامت بل، فى رحلات لاحقة لها بالشرق الأدنى، برسم خرائط مناطق قُفر لم يكن قد جرى مسح لها من قبل. ترك لنا السير ويليام ويلكوكس، الذى كان يقوم بعمل مسح كبير لمنطقة ما بين الرافدين حينما التقاها، ترك لنا صورة لتلك الرحالة الجسورة. كان ثمة فريق من راكبي الجمال يتجه نحوى. كان من الواضح أن جميعهم عرب باستثناء ما بدأ وأنها امرأة. وفيما كانوا يقتربون سمعت من يوجه إلى التحية الإنجليزية. كانت چرتروود بل وقد وصلت لتوها من رحلة الخمسمائة ميل عائدة من دمشق. لم أكن أتوقع مقدمها، وكدت لا أصدق عيني حينما رأيت امرأة أنيقة نظيفة المظهر بالرغم من الأسابيع التى قضتها فى الصحراء. لم أنس أبداً هذا الانطباع اللافت.

وبعد رحلة أخرى استمرت خمس ساعات امتطت فيها بل ظهر ناقة، هبطت على موقع كركميش. الحيثي، حيث قابلت شابين أركولوجيين هما كاميل طومسون، وتى. إى. لورانس. ورغم أنهما قالا إنهما يعملان على غريلة الرمال، فقد كانا أيضاً يراقبان الألمان الذين كانوا يبنون جزءاً من خط سكك حديد برلين- بغداد بالقرب منهما. أرياهما ما عثرا عليه، فيما هى صويت فى نظرة استهجان إلى حفرياتهما قائلة إن طريقتهما تنتمى إلى عصور ما قبل التاريخ. مضت، وقد كانت قد قدمت مباشرة من المواقع الألمانية التى حُفرت ببقة متناهية تلقنهما الدروس عن أساليب الحفر الحديثة. صمم الرجلان على "سحقها باستعراض ثقافتهما وعلمهما". ووفقا للورانس "اصطحبناها (فى خمس دقائق) إلى أفاق معمارية بيزنطية، صليبية، رومانية، حيثية، وفرنسية (قمت أنا بهذا)، وإلى أفاق الفنون الشعبية الإغريقية، المعمار الآشورى، وأعراق ما بين النهرين (طومسون) ثم تكلفتُ بأن أحدثها عن

خزفيات وعدسات ما قبل التاريخ المُقرَّبَة، وعن تقنيات معادن العصر البرونزي، وأيضاً عن الكاتب مريدث، وأناقول فرانس والكتوبريين، ومضى طومسون يخبرها عن حركة تركيا الفتاة، وأسعار ركوب الجمال، وعادات الدفن الآشورية وأساليب الحفر الألمانية ومعها سكة حديد بغداد. كان ذلك مجرد مقبلات، ثم جلسوا لتناول الشاي فيما بدت جرتود "مترنحة ومنبهرة في أن" وفقاً للورانس الذي وصفها بأنها "لطيفة، في حوالى السادسة والثلاثين" (كانت في الثالثة والأربعين) ليست على شيء من الجمال (إلا إذا ارتدت حجاباً). قالت بل عن لورانس إن سيصبح "رحالة متميزاً" مذاك، غدا "الصبي العزيز" و"جرتي" صديقين حميمين طوال حياتهما.

تركبتها مغامراتها القصيرة، الفاشلة للارتباط بالرجال، وكانت أكثرها جدية مع رجل متزوج هو الماجور تشارلس هوشمان مونتاجيو الذي مات في غليبولي، ومنع بعد وفاته وسام صليب فيكتوريا، تركتها حرة لتركز على أسفارها. توغلت ما بين عامي ١٩١٣ و١٩١٤ عميقاً في صحراء الجزيرة العربية في رحلتها الشهيرة إلى حائل، حيث التقت ابن رشيد أمير منطقة جبال شمر الوسطى. حازت على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية عام ١٩١٤ عن هذه الأسفار. (كانت أيضاً إحدى أوليات النساء اللاتي انتُخبن زميلاً بالجمعية عام ١٩١٣).

وعلى الرغم من ذلك، كانت تعاني نوبات اكتئاب تسبب فيها "شك عميق عما إن كانت تلك المغامرة، بعد كل شيء، تستحق كل هذا العناء والإنفاق. ليس هذا بسبب الأخطار - لا أبه بها - لكنني بدأت أعجب أي ربح سيعود عليّ منها. تجوال وعبر لبلد كان معروفاً بشكل أو آخر، إضافة بضعة أسماء للخريطة - أسماء جبال حجرية وسهول جرداء، وبئرين صحراويين عميقتين (كنا نتزود بالمياه من بئر آخر) - وربما كان هذا كل شيء.. أكاد أتمنى حدوث شيء ما - شيء مشير، غارة أو معركة.. ثمة طريق طويل بيني وبين الخطابات، أو بيني وبين أي شيء، ولا أشعر

أننى ابنة ملوك كما يظنوننى هنا. من الممل أن تكون امرأة فى بلاد العرب”. بعد وفاتها، امتدحها الأركيولوجى دايڤيد هوجارث، الذى ربطته بعيس بل صداقة وإعجاب لوقت طويل، وأبدى تقديره لهذه الرحلة الرائدة بالذات التى، إلى جانب مراكبتها كمية كبيرة جداً من المعلومات عن القبائل فقد “وضعت على الخريطة خطأ من الأبار، لم تكن هناك، أو كانت غير معروفة، وأيضاً، ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ تخوم الصحراء السورية؟

ومع معرفتها المباشرة بشيوخ القبائل والعشائر المحليين، ومهاراتها فى رسم الخرائط، أصبحت بل فى وضع يسمح لها، لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى، وبعد أن تخيرت تركيا العثمانية بحماقة بعد تردد أن تنضم إلى جانب الإمبراطوريتين الألمانية والنمساوية / النغارية، وضع يسمح لها بتقديم الخدمات إلى بلدها فى منطقة الشرق الأوسط^(١). سافرت فى نوفمبر ١٩١٥ إلى مصر للتحقق بالمكتب العربى الذى كان قيد التكوين آنذاك بالقاهرة. كانت مهمة المكتب، وتحت إشراف الجنرال كلايتون، هى جمع الاستخبارات، ورسم الخرائط، وتوليد البروياجندا، وحفز العرب للثورة على الأتراك. تعاقد مديره هوجارث مع متخصصين مُجربين فى أعمال الحفريات كثير منهم من جامعة أكسفورد وكان بينهم لينارد وولى، الذى اكتشف فيما بعد موقع أور (بجنوب العراق). أنقاض أور السومرية التى يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد. وكانت عاصمة السلالتين الأولى والثالثة، ومنها نرح إبراهيم الخليل: الترجمة) وتى. إى. لورانس. بدأت تعمل على كتيب عن قبائل البدو فى شمال الجزيرة العربية وأنسابها المعقدة.

وجدت بل نفسها، أثناء عشاء بفندق الساقوى “الشيك” بالقاهرة حيث كان

(١) أى أنها عملت جاسوسة تخطط لى تكسب إنجلترا الحرب دون أى اعتبار لمصالح بلدان المنطقة (الترجمة).

المكتب العربي يحتل ثلاث غرف مكاتب له مجهزة بكل شئ، حتى مراوح السقف الكهربائية، وكان بين الحضور عدد من ضباط الأركان يرتدون البوتس الصحراوية ويحملون عصيهم القصيرة، وجدت نفسها تدخن السيجارة في أعقاب الأخرى، وتتفق مع زملائها على ما أصبح يعرف بـ"إجماع القاهرة". في خطوطه العريضة، رأى المسئولون البريطانيون بالقاهرة أن طموحات فرنسا لما بعد الحرب في سوريا كانت لا تُحتمل ويجب مقاومتها بعنف، وأن المرشح المرجح لقيادة ثورة عربية تدعمها إنجلترا هو الشريف حسين، شريف مكة وملك الحجاز، وليس منافسه عبد العزيز بن سعود الحاكم المحارب للإقليم الشرقي من بلاد العرب والمتزوج من ست وخمسين امرأة، والذي يعتقد المذهب الوهابي البيوريتاني المتشدد.

بعد عام، حينما التقت ابن سعود، أسرها رجل بلاد العرب القوي وقالت عنه "شخص فذ - أحد أكثر الشخصيات النين التقيتهم إبهاراً رائع المظهر" - قارب طوله المترين - ثم مضت وقد ملأها الحماس تقول "يملؤه الجلال والوقار ورباطة الجأش". أما ابن سعود وإن كان لنا أن نصدق ما قاله إيتش. إس. جيه. فيليب في هذا الصدد، فقد أبهر المحيطين به وهو يقلد نغمة صوت بلّ العالية وهي تقول: "أبدو الأزيز (عبدو العزيز) أبدو الأزيز انظر إلى هذا! ما رأيك في ذلك؟".

وعلى الرغم من أنها استمرت أسيرة العمل مع زملائها بفندق سافوي إلا أن فترة إقامتها بالقاهرة كانت وجيزة. بعد مجرد شهرين، كانت على ظهر سفينة نقل الجنود SS Euripides في طريقها إلى الهند بدعوة من اللورد هاردينج نائب الملك بالهند الذي كان صديقاً لأسرتها، هذا على الرغم من أن الأرجح هو أن ثالثتاين تشيرون، مراسل التايمز، كان هو الذي اقترح دعوتها. كانت العلاقة بين العاملين البريطانيين بالقاهرة ودلهي قد تدهورت بدرجة أن بلّ كتبت قائلة إنه "لا يوجد أي اتصال بيننا سوى تبادل البرقيات الغاضبة". كانت مهمتها هي "إرساء علاقات ودية مباشرة، بحيث يتوقف الطرفان عن النظر لبعضهما على أنهم حفنة من الأشرار".

قضت بل وقتها بالهند تدرس الملفات الاستخبارية وتساعد على تجميع مادة للورية جازيت أوف أرابيا، وتحاول أن تصل إلى أفضل أسلوب تستطيع به الهند، التي كانت طبقتها السياسية تخشى من تمرد داخلى للمسلمين، والقاهرة التي كان الخبراء البريطانيون بها يراهنون على اندلاع ثورة عربية بقيادة الهاشميين، إلى أسلوب يستطيع به الطرفان التعاون معاً بحيث لا تتقاطع إجراءاتنا أو تتكرر.. يبدو من المنطقى أنه لا يجوز لنا أن نعمل منفصلين فى غرف محكمة، لكن هذه الفكرة لا تسيطر على التعاملات الرسمية، هذا على الرغم من أننى أجد أن الجميع على استعداد لقبولها بمجرد أن تناقش. لكن، وطوال فترة الثورة العربية، مضى رجال حكومة الهند البريطانية يعبرون عن شكوكهم حول حكمة البريطانيين الذين يعملون بمكتب القاهرة ويزعمون أنهم محبوبون للعرب.

حينما زارت بل دلهى كان الجميع يتحدث عن المعركة الكبيرة التي تدور رحاها بمدينة الكوت بين الأتراك والجيش الأنجلو/هندي. هناك ناقشت چرتروود الحملة الحربية فى أرض الرافدين مع كبار المسئولين البريطانيين بدءاً من نائب الملك. فى بداية ربيع ١٩١٦، بعث اللورد هاردينج چرتروود بل إلى البصرة وكانت ما زالت لا تتقاضى راتباً، ومعها خطاب توصية قوى إلى پيرسى كوكس الذى كان يعمل آنذاك كبير المسئولين السياسيين جاء به إنها امرأة ماهرة بدرجة لافتة، لها عقل رجل. نقلها ضباط قوة الحملة الهندية إلى شرفة لطيفة خلفها غرفة معتدلة الحرارة، حيث ساعدت على رسم الخرائط وأوصت ببعض الرجال لإرشاد الجيش الذى كان يكافح باتجاه بغداد. وجدت أنها كانت بحاجة لجميع من لها صلة بهم لكسب العشائر المحلية ومشايخها من أجل الحصول على مساعدة لهزيمة الأتراك وتحويل العشائر للوقوف فى صف البريطانيين. تحدث أحد المشايخ إلى أتباعه قائلاً: تعلم جميعنا أن الله خلق المرأة أقل مرتبة من الرجل. إذا كانت جميع نساء الإنجليز مثل هذه المرأة، فلا بد وأن رجالهم يضاهون الأسود قوة وشجاعة ومن الأفضل لنا أن نسالهم.

تعاطى العاملون السياسيون بمكتب السير بيرسى مع بل بأقصى درجات الشك. كانوا يتجاهلون، بمطعم الضباط ووصفوها بالغرور، ومضوا يحاضرونها عن "قانون الأسرار الرسمية" ويخضعون خطاباتها للرقابة. لكنها ثابرت، وامتحنتها وزارة الخارجية التي ذكرت أنه لم تصل أية معلومات مهمة إلى القاهرة أو لندن قبل مقدمها.

تعاطفت بل مع الجيش الذي كان يواجه ندرة في الأطعمة، وحرارة جو غير معتادة. في ٢٦ إبريل، اليوم الذي استسلم فيه الجنرال تاونسند بالكوت حيث اقتيد رجال الحامية البريطانية البالغ عددهم ١٢٢٠٩ - معظمهم هنود - إلى الأسر، في ذاك اليوم أسرت في خطاب كتبه لأسرتها بالتالي:

"لا ألتمس العذر لحكومة الهند، لكن من الإنصاف أن نتذكر أن اللورد كيتشنر القائد البريطاني، استنزف الهند تماماً في بداية الحرب من القوات والمتطلبات الحربية بما في ذلك المستشفيات والأطباء، وأن إنجلترا أجبرت حكومة الهند على إرسال الحملة وكان ذلك حينما تطور الوضع وأصبح شديد الخطورة - وضعاً أكبر كثيراً من أن تتعاطى معه الهند حتى ولو كانت تحوز كل مواردها - لم يكن ثمة قوات، مدفعية، وحدات مستشفيات، قوة طيران، ولم يرسل أى شيء في موعده بحيث يمكن الاستفادة منه. أما ما قد يكون أكثر خطورة فهو أنه كان قد تم إرسال أفضل جنراتهم جميعاً إما إلى فرنسا أو غليبولي حيث لم يعد كثيرون منهم أبداً.

"سياسياً أيضاً، اندفعنا في هذا الشأن مع تجاهلنا المعتاد لخطة سياسية شاملة. تعاملنا مع بلاد ما بين النهرين وكأنها وحدة منعزلة بدلاً من كونها جزءاً من البلاد العربية ترتبط سياستها بأسلوب لا يقصم عراه بالمسألة العربية العظمى بعيدة المدى.. كان لابد لتنسيق السياسات العربية ووضع سياسة عربية موحدة أن يتم في بريطانيا -لا يمكن أن يُنجز هذا بنجاح هنا. لم يكن ثمة من يقوم بهذا، ولم يفكر أحد أبداً في هذا، وترك الأمر لأناسنا في مصر لرسم نوع من الخطة

العريضة التى ستشكل فى نهاية المطاف، أساساً لعلاقتنا مع العرب، وبهذا يحاولون إقناعى، وتُرك كل هذا ليفعله مسئولونا بمصر فى مواجهة المعارضة المتشددة من الهند ولندن. حسناً، يكفى هذا عن السياسة. لكن حينما يتحدث الناس عن خطواتنا المخيطة المشوشة بملكنى عظيم الغضب. نعم، خطواتنا متعثرة ملخبطة! نعم، نحن نفعل ذلك - نخوض فى بحور من الدماء والدموع التى ما كان يجوز أبداً أن تُزف أو تُراق.

كانت تلك هى أفكار چرتروود بل حينما تقاطع طريقها مع أرنولد تى. ويلسون الذى تمت الموافقة على إرساله للمركز الرئيسى لجيش الحملة بالبصرة ليتولى منصب نائب رئيسه السابق المفوض العام السير بيرسى كوكس. وحينما اتضح أنه كان شمة حاجة لمهارات كوكس الديبلوماسية بلندن وطهران، مما اقتضى فترات غياب مستطالة، أصبح ويلسون الإدارى الرئيسى لشئون ما بين النهرين.

ذكرت چرتروود بل، ما يلى فى خطاب لها لأسرتها تصف فيه الكابتن أرنولد ويلسون كست متأكدة أنكم تتركبون من هو، مخلوق شديد التميز، فى الرابعة والثلاثين، قدرات رائعة، مزيج من القوى الجسدية والفعلية، وهو أمر نادر إلى أقصى درجة. من الحقيقى، وكما فصلت فى خطاب آخر، فقد تجاهلها ويلسون فى البداية بصفتها ”مخادعة بطبيعتها تحيك المكائد“، لكنها ذكرت أن الأمر انتهى بهما بأن يصبحا ”صديقين وطيبين، كما أننى أكنُ أقصى درجات الاحترام لذكائه المذهل. أعتقد أننى ساعدت قليلاً على تعلمه، لكنه يعلم نفسه وسيصبح ذات يوم رجلاً ذا شأن. لقد أصبح أكثر تسامحاً وصبراً لدرجة كبيرة، رجل دولة كما يجب أن يكون. أحب العمل معه.

لم يبادل ويلسون بل هذه المشاعر الدافئة إلا نادراً. وكما ذكر صديق بل المتعاطف هارى سانت چون فيلبى، والد كيم سبنر السمعة، لم يجعلها ويلسون أبداً موضع ثقته فى القضايا السياسية التى كانت ”تتنقل بالبرقيات المشفرة والرسائل

السرية بين مقر مجلس الوزراء البريطانية بلندن والمقر الصيفى للحكومة الهندية. وأُنكر عليها أية معرفة مسبقة بها. وكان عليها أن تعتمد فى معرفتها لمحتوياتها على ما ينطق به ذلك الرجل "العظيم" ويزج به بأسلوب عرضى فى أحاديثه على موائد الشاى بمطعم السياسيين".

اعترف ويسون، الذى كان أعزب، بلهجة متعالية، أنها كانت مفيدة فى تنظيم الحفلات. وفى الواقع، فإن بل اجتذبت بمظهرها الذى ينم عن شعورها بقيمة نفسها كراهية الذكر. كانت تعرف أنها مغرورة، وفوق كل شيء، فقد كانت تنقذ اللبابة. مثال واحد يكفى. قالت فى تعليق لها على قبوليت، عروس زميلها هارولد ويسون الإنجليزية "من المؤسف أن يمضى الشباب الإنجليز الواعون ليتزوجوا مثل هؤلاء الحمقات". (وأصبحت بل عضواً رئيسياً ومعها اللورد كرومر واللورد كيرزن فى عصبة معاداة حقوق الاقتراع للمرأة). وحتى كرومر الذى كان معجبا بها، كتب يقول عنها فى خطاب إلى كيرزن "لا تمتلك كثيراً من الحكمة وتمتلك لساناً".

كانت آنذاك قد أصبحت "الختون"، السيدة المهمة، من ثم اعتادت تخطى سلسلة القيادات وممارسة الضغط على رؤساء رؤسائها. منحتها قرايباتها النافذة، وتعليمها النخبوى، وأسفارها العديدة فرصة الوصول إلى شبكة من نوى النفوذ الأقوياء - تمتلئ خطاباتها بأسماء مونتاجيو، هرتزل، هاردينج، ترفيليان، ستانلى، راسل، لاسلى، وكافنديش، بل حتى اسم هنرى جيمس الروائى الأمريكى المغترب، كما أنها كانت تتمتع بوضع مطلع متعضون فى الصحافة - كانت تربطها بالثلاثين تشريل، الشاب المترف اللتحى أحمر الشعر، والذى كان محرر الشؤون الأجنبية بالتايمز قبل أن يلتحق بوزارة الخارجية - تربطها به صداقة وثيقة. لم تقتصر أسلحة بل على الحيوية وسرعة البديهة، بل أيضاً كان هناك مخزون معرفتها عن المنطقة التى غدت أهميتها الاستراتيجية تناظر جهل الطبقة الحاكمة وتشوشها بقبائلها المشاكسة وعقائدها المتصارعة.

وعلى الرغم من مصاعبها مع ويلسون، اتفق كوكس والمسئولون بالقاهرة ودلهي على أن تبقى بل هناك، مؤقتاً، وتحمل لقب "السكرتير الشرقى"^(١) بمرتبة ثلاثمائة روية، مما جعلها الأنثى الوحيدة التي تعمل مسئولاً سياسياً في القوات البريطانية (كان مرتبها خمس ما يتقاضاه ويلسون وغيره من الرؤساء وأقل من نصف ما يتقاضاه موظفو البريد)، كتبت تقول لوالدها "لا أستطيع بأي حال أن أغادر المكان الآن" وعبرت عن أملها عن أن يكون لها "سلطة حاسمة في القرارات النهائية.. إنه لأمر مدهل.. إن عالماً جديداً يُصنع الآن". في تلك الأثناء أسهمت بمقالات في لورية أريبيان ريبورت Arabian Report التي يحررها هوجارث وذى آراب بولتين The Arab Bulletin اللتان كانتا تُعتبران أفضل مصدر معاصر في حرب الصحراء. لكن أمل بل في تقرير بغداد من آراء المكتب العربي بالقاهرة كان بلا جدوى إذ كان كل من كوكس وويلسون ثابتين في معسكر دلهي.

في ١١ مارس ١٩١٧، استولت القوات الأنجلو/هندية على بغداد، وقد قوبل هذا النصر بالتهليل وسيل من الأوسمة في لندن لأنه ساعد على محو نكريات المهانة بالكوت. عادت جرتود بل، التي كان شعرها، كما علقت هي، قد أصبح أبيض، للاستقرار ببغداد. وهناك في بيت من طابق واحد على شاطئ النهر، مخبئاً بالأسلوب العربي خلف جدار عالٍ بشارع ضيق (أسماء مرسوها متفاهكين رفاق العفة) كانت تقيم حفلات الشاي في أيام الأحاد (أصبحت تلك العصاري تُعرف PSAs أي Pleasant Sunday Afternoons). ثم، وبناء على اقتراح كوكس، كانت تدعو زوجات الوجهاء العرب أيام الثلاثاء لتناول الشاي معها، وكانت غالبتهن مُحجبات. زرعت في حديقته الواسعة الورد، وفرضت شجيرات الزهور

(١) وفقاً لتعريف السير رونالد ستوريز نفسه فإن "السكرتير الشرقى بالقاهرة، أي الشخص الذي يحتل هذا الموقع الرئيسي وهو "أعين، أذان، مؤول، واستخبارات (وبالمعنى العسكري)، رئيسه ويحتمل أن يصبح أكثر من هذا كثيراً" (المؤلفان)

الإنجليزية المستوردة - النرجس البري - الهوليهوك، والأقحوان - على مشهد بغداد القاحل بنفس درجة الضراوة التي طَبَّقَتْها فيما بعد، بصفتها المسنولة الإمبريالية، على المهام التي أوكلتها إلى "مشايخ القبائل والعشائر القليلين المتنازين التي أناطت بهم المسئوليات وحفظ النظام".

في عام ١٩١٤، كان إيه. تي. ويلسون قد كتب يقول "أود بقوة لو شهدت إعلان ضم بلاد ما بين النهرين للهند كمستعمرة للهند والهند" وأن أشهد صحاريها القاحلة تسكنها "أعراق محاربة من البنجاب". أعتقد أن العراق، تحت الحكم البريطاني المباشر ستصبح "جوهره متلثة في التاج البريطاني". سيتطلب الدفاع عن أرضها جهود جميع ولاية بغداد والبصرة والموصل العثمانيين. ومن الحقيقي أن الإقليم الأخير "الموصل" كان قد وُعد لفرنسا لكن بدأ الآن وأن المنطقة قد تكون غنية بالنفط (بدأ الحفر عام ١٩٢٧) وأنه بالإمكان استخدام عائداته لتمويل الدولة البازغة. آنذاك، وافقت بل على معظم هذا، وكتبت إلى تشيرون تقول إن هذا سيتسبب في حدوث تشوش واهتياج.

رأت في خطاب إلى والدها أنه "لا يحدث كثيراً أن تبْلُغ الشعوب بأن مستقبلهم كنول في أيديهم ويسألوا عما يريدونه (في هذا الخصوص)". لكنها قالت إن جميع الأهالي تقريباً في بلاد الرافدين يتفقون على نقطتين. "يريدوننا أن نتحكم في شئونهم ويريدون أن يكون السير بيرسي هو المندوب السامي. وفيما عدا ذلك فهناك اختلافات. يريد غالبية أهالي المدن أميراً عربياً لكنهم لا يستطيعون تحديد الشخص. عقيدتي (رغم أنه ليس بإمكانى بعد أن أعرف تحديداً) أن الجماعات القبلية في المناطق الريفية لن يرغبوا في أمير طاملاً أن بالإمكان أن يكون السير بيرسي هو من يحكمهم - له صيت هائل بينهم - وأعتقد شخصياً أن هذا هو الأفضل. إن إقامة بلاط وسلطة لأمر جلل".

لم يكن أهل السنة الحضريون هم من مثّلوا المشكلة العظمى، الأخرى بل كانوا الشيعة الذين وصفتهم قائلة "المواطنون الّذين الّذين المتجهمون الموجودون بالمدن المقدّسة وبخاصة المرجعيات الدينية، المجتهدون الذين يؤوّلون الألفاظ كما يرون وفقاً لسلطنتهم الّتي تستند إلى إمامهم الوثيق بالمعارف المتراكمة الّتي لا علاقة لها بالشأن الإنساني ولا قيمة لها في أي فرع من النشاط البشري". كان التحكم في مدينتي النجف وكربلاء المقدستين أمراً ملحاً، لكن لم يكن لدى بل سوى أوهى السبل للوصول إلى قادتهم الّذين كان أبرزهم هو آية الله العظمى السيد إسماعيل الصدر (جد السيد مقتدى الصدر الّذي يمثل إله الانتقام لقوات الاحتلال الأمريكي في الوقت الراهن). كانت لا تستطيع الوصول إليهم، وفقاً لما قالتها لأن تعاليمهم تحظر عليهم النظر إلى امرأة غير محجبة، وتعاليمي تحظر على ارتداء الحجاب، (ليس من قبيل الخيال القول إن تاريخ العراق كان سيختلف لو أن بل، الّتي كان لها تأثير نافذ على السير بيرسي، استطاعت إقامة علاقة عمل وثيقة مع القادة الشيعة كلّك الّتي كانت لها مع الوجهاء السُنّة).

في تلك الأثناء، كانت بل تقضي وقتها تسافر في أنحاء الريف ممتطية الجواد، أو راكبة السيارة، تزور شيوخ العشائر وتعود إلى بغداد بهدف إقامة، وكما علقت إحدى الصحف ساخرة مستاءة، حكومة بريطانية ومعها مستشارون عرب بدلاً من الحكومة العربيّة والمستشارين البريطانيين كما كان الأهالي قد وُعدوا. كتبت بل تقول "إنها لعبة مسلية حينما تكون على معرفة تامة بالبلد مثلي، فأنا أكاد أعرفها جميعها، أليس من حسن الحظ البالغ أنني قد قطعتها ذهاباً وإياباً، في جميع الاتجاهات تقريباً؟".

أثملتها سطوتها تلك - كتبت خطاباً لعائلتها تقول "أشعر أحياناً وكأنني الخالق في منتصف الأسبوع. لا بد وأنه، وقتئذ، كان يتعجب بشأن ما ستكون عليه خليفته" ثم وقّعت الخطاب: المحبة، المنوب السامي: جرتود. لكن النوايا الحسنة الّتي كانت

قد عبّرت عنها تجاه رئيسها قد بدأت تتدهور فيما تشعبت آراؤهما حول مستقبل العراق حينما انتدبها ولسون لتمثل المصالح البريطانية في مؤتمر باريس للسلام. وبمجرد وصولها هناك، وقعت تحت تأثير تي . إي . لورانس والتقت بصنيعته الأمير فيصل.

ذكرت بأسلوب عملي في خطاب لها لأسرتها "سأتناول الغداء غداً مع المستر بلفور. أمل أن أتمكن من الإمساك بلويد جورج من ذيل سترته إذا استطعت وأعتقد أن بإمكانني كسب تعاطفه مع آرائي. في تلك الأثناء، أرسلنا في طلب حضور الكولونيل ولسون من بغداد، والمستر هوجارت من القاهرة - الأخير بتحريض مني - وحينما يحضران سأقترح أن نكوّن كتلة صلبة ومعنا المستر لورانس ونقدم رأياً موحداً. بخلاف ذلك، كان رفيقها الدائم هو تي . إي . لورانس الذي مضت تدعوه بـ "العفريت الصغير" و"الصبي الشقي العزيز".

كان لورانس مرشدها إلى مطاعم باريس الفخمة بعينيّه اللزيريتين وزيه الكاكي وغطاء رأسه العربي. وبعد عشاء آخر، شرح لورانس الوضع بين فيصل وأهالي سوريا من ناحية، وفرنسا من ناحية أخرى، والخطوط العريضة لبرنامج الاتفاقية الممكنة.. فعل ذلك بأسلوب يحوز الإعجاب.. ترك سحره، بسلطته، وإخلاصه أثراً عميقاً وأقنع مستمعيه.

قدّم لورانس بل إلى فيصل. وكعائتها في الافتتان بمن تراهم، أعجبت بل بوجه فيصل الذي يماثل وجه الصقر، وحسّه الفكاهي الماكر، وبساطته وصدقته، تلك السمات التي كان يعبر عنها أحياناً بلغة فرنسية محببة تعلمها في المدرسة بالآستانة. لكنها لم تكن الوحيدة التي أسرها سحره. عبر عن ذلك أحد المراقبين الأمريكيين بلغة محملة بالأفكار الاستشراقية حيث قال عن الأمير إن "صوته يعبق بقطر البخور ويوحى بوجود الأراك زاهية الألوان، والعمائم الخضراء، وبريق الذهب والمجوهرات".

في طريق عودتها من فرنسا، زارت بل دمشق حيث اعترفت بأن "الحكومة العربية أسوأ من حكومة الأتراك في جميع المناحي بدرجة ملموسة". ردت في تقريرها المعنون "سوريا في أكتوبر ١٩١٩" قولها بأن الحكومة المحلية تحت إمرة فيصل^(١) تركت الكثير مما هو مطلوب لكنها إذا فشلت سيكون ذلك بسبب "عدم مبالاة البريطانيين وطموح الفرنسيين". انتهت إلى أنه ليس ثمة خيار للبريطانيين سوى دعم قيام حكم ذاتي عربي في بلاد ما بين النهرين (بعث ولسون بمقترحاتها هذه ومعها مذكرة تغطية بتعليقاته الخبيثة: زعم أن اقتراحاتها بإمكانية قيام دولة يحكمها العرب في بلاد ما بين النهرين كحل "عملي" ذي شعبية كانت "خاطئة").

بعد إطاحة الفرنسيين بفيصل عن عرش سوريا، غدت بل نصيره الذي لا غنى عنه في بغداد. كانت قد كتبت في ورقة نبوية قبل ذلك تقول:

"إن الاتحاد السياسي مفهوم غير مألوف في مجتمع لازالت تشويه إلى حد بعيد سمات أصوله القبلية وعناصر التنظيمات القبلية الكثيرة التي تعمل على تمزقه.. إن الشخص الوحيد الذي يمكن اعتباره رئيساً سورياً ممكناً هو ملك الحجاز (الشريف حسين والد فيصل)، ورغم أن من المحتمل له أن يكون ممثلاً للوحدة الدينية بين العرب، فلن تكون له أية أهمية سياسية حقيقية، ولأن غالبية سكان بلاد ما بين النهرين من الشيعة، فليس لاسمه أهمية هناك.. يعتبر وضعه الديني مكسباً، وربما كان هذا هو العنصر الوحيد الموجود للاتحاد. لكن لا يمكن تحويله إلى تسيد سياسي".

لكن انقلابها المفاجئ ودعمها للهاشميين كان له أن يؤدي إلى صراع مباشر مع ولسون الذي حمل لورانس وفيصل مسئولية مشاكل الحدود العراقية/السورية التي كانت قد أخذت تتحرك شرقاً مع بداية عام ١٩٢٠. أعلن العراقيون في دمشق أن العراق يجب أن تصبح ملكية يحكمها عبد الله شقيق فيصل. لكنها كانت تتفق مع

(١) كان فيصل ملكاً لسوريا من مارس ١٩٢٠ وحتى هزمه الفرنسيون في معركة ميسلون (٢٧ يوليو ١٩٢٠) كان يتصور تشكيل مملكة موحدة من سوريا والعراق تحت إمرته. (المؤلفان)

رئيسها (ويلسون) حول نقطة واحدة: كان ثمة حاجة لمزيد من القوات. لم يكن بوسع ويلسون ان يتوقع ان يحكم ١٥٠٠٠ ميل مربع بواسطة سبعين ضابط شرطة، لكنه رأى أن الانسحاب كان يمثل أسوأ خيار. "إذا تركنا هذا البلد يذهب إلى الجحيم سيعنى هذا إعادة التفكير في وضعنا في آسيا بأكملها. إذا تركنا ما بين النهرين، سنفقد بلاد فارس حتماً وبعدها الهند. وسيحتل المكان الذي نتركه سبعة شياطين أكثر سوءاً بكثير من أى شيء كان موجوداً قبل مقدمنا".

تم توزيع سلطات الانتداب على أراضي الإمبراطورية العثمانية سابقاً في مؤتمر سان ريمو في إبريل ١٩٢٠: تظل الجزيرة العربية مستقلة؛ تذهب سوريا إلى فرنسا، وما بين النهرين وفلسطين إلى بريطانيا. ثم حدث بعد ذلك وأن انفجر "بركان" تشرشل "الجاحد"، أى العراق. سعى القوميون إلى استقلال تام، واندلعت المظاهرات ضد الانتداب في مايو أثناء شهر رمضان ببغداد؛ نادى رجال الدين في مساجد السنة والشيعة بالجهاد. واثناء الصيف، وفيما انتشرت الثورة، سقط الكولونيل جerald ليتشمان الذي كان يماثل لورانس من حيث شخصيته الأسطورية، لكنه كان مكروهاً إلى أبعد الحدود لأنه كان يدعو إلى قتل المتمردين بالجملة، سقط في كمين وقُتل بالقرب من الفلوجة. (بعد سنوات طويلة، تلقى صدام حسين البندقية ماركة Bmo التي استخدمها الشيخ ضارى في قتل ليتشمان هدية في عيد ميلاده. عُرِضت في مكان بارز بمتحف قائد النصر). دعا القادة الشيعة بالنجف وكربلاء والكاظمية، بمساعدة عملاء فيصل الذين عبروا الحدود السورية، إلى وحدة السنة والشيعة وحرّضوا أتباعهم ضد البريطانيين. فقط بغداد هي التي ظلت هادئة، وكان ذلك، جزئياً، بسبب جهود السيد طالب، أكبر أبناء نقيب البصرة السني، والذي كان قد عاد مؤخراً إلى العراق بعد منفاه في الهند الذي أجبرته عليه بريطانيا. علقت بل، والتي كانت قد استفاقت من أوهامها، على الوضع بالعاصمة "إن عدم وجود سوى قلة قليلة من الحكماء - أى أشخاص يريدون الانتداب البريطاني - في بغداد

لأمر بالغ الدلالة. لا أحد يعرف ماذا يريدون تحديداً، بل إنهم هم لا يعرفون سوى أنهم لا يريدوننا".

كان ويلسون الذي كان قد أصبح استبدادياً بأسلوب متزايد، قد تمكن، في وقت من الأوقات من ممارسة التحكم من خلال قوات الطيران. وفقاً لإليزابيث مونرو، الباحثة المتخصصة في شؤون الشرق الأوسط، كانت طائرات القوات الجوية الملكية "تحمل القائم بأعمال المنوب السامي لإزالته في مكان ما، وبعض القنابل إسقاطها في مكان آخر". ورغم ضغط ويلسون، كان الجنرال السير أيلمر هالدين، قد اتخذ قراراً طائشاً بالرحيل فجأة في شهر يونيو ومع قواته إلى مواقعهم الصيفية على حدود فارس. تناولت بل الغداء مع السير أيلمر في اليوم الذي رحل فيه، وجلسا يشترنان عن معارفهما المشتركين في لندن فيما كان يتناولان البطيخ المشج والمايونيز. قالت فيما كان يغادرها "أظن أنك إذا سمعت لدى وصولك إلى مدينة كاريند الحنودية أن القبائل قد استولت على بغداد، ستمضي إلى كرمشاه بالداخل الإيراني؟". أجاب "لا أشعر بأية مسئولية عما يحدث في غياي". اشتكت بل الغاضبة إلى والدها قائلة "لسنا معتادين على وجود قيادات عسكرية لا تشارك بحماس في اللعبة مثلنا، وقد ترك تخليه عنا في مثل تلك اللحظة أثراً ماضياً في حذته".

فسدت العلاقات بين ويلسون ووكيلته بشكل لا رجعة عنه حينما تبادل بل نسخة من الدستور الذي صاغه أحد القوميين مع صديق عربي. وكما ذكرت في خطاب إلى والدها، تملك الغضب من ويلسون: أخبرني أن حماقاتي لا تحتمل، وأنه لا يجوز لي أن أقرأ ورقة أخرى بالملعب. اعتذرت عن تلك الحماقة بعينها لكنه مضى يقول إنني تسببت في أضرار أكثر من أي شخص آخر، ولولا أنه كان على وشك الرحيل لطلب فصلي منذ شهور عديدة - أنا وأميري". كانت تلك الخلافات القائمة آنذاك تتمحور حول تبنيها، منذ لقائهما مع لورانس وفيصل بباريس، حلاً هاشمياً. وفي وقت مبكر في ذاك العام، كانا قد تشاجرا حول رسائل بل التحذيرية إلى الحكومة البريطانية معبرة عن آرائها الشخصية.

وصفت هي إحدى تلك الرسائل، وكانت قد أرسلتها إلى إدوين مونتاجيو وزير الدولة لشئون الهند بأنها "خطاب بالغ الأهمية" عن نوع الحكومة التي يجب أن نقيمها هنا وأنها "مسودة لصيغة للدستور". ويخها مونتاجيو في برقية شخصية سرية قال فيها: "إذا كان لديك آراء تريدنا أن نأخذها بعين الاعتبار، أكون مسرورا لو أنك طلبت من المفوض السامي المدني إيصالها إلينا، أو أن تقدمي على إجازة وتحضري إلى الوطن لطرحها". أرسلت رسالة أخرى إلى السير آرثر هرتزل، نائب وكيل وزارة الدولة لشئون الهند، تذكر فيها الخطر الوشيك المستطير من سوريا في الغرب ومن البلاشفة في الشمال. وكما كتبت إلى والدتها "لا بد أن يُبصروا. لا بد أن يعرفوا في الوطن. لا يمكن أن يكونوا على هذه الدرجة من العماء بحيث لا يُبصرون ما هو مكتوب بحروف عملاقة على الجدران أمام أعينهم".

اعتذرت، لكن ولسون كان "يخفه الغضب". بعث سريعا بخطاب إلى كوكس اقترح فيه فصل محدثة الشغب على الفور. قال "إذا استطعت أن تجد وظيفة ليس بل في إنجلترا أعتقد أن من المستحسن أن تفعل هذا، إن أنشطتها غير المسئولة مصدر بالغ القلق لي، كما أن المسئولين السياسيين مستاءون منها. بنهاية الشهر ستكون قد انتهت من "الكتاب الأزرق". [مراجعة إدارة ما بين النهرين المدنية] وبعد ذلك لن يكون لديها ما تفعله في واقع الأمر".

كتبت بل بعد أن تسلم إيه. تي. ولسون وسام الفروسية تقول "أنا مسرورة جدا. إنه يستحقه عن جدارة، ومسرورة بخاصة لاعتراف جلالة الملك بعمله"، لكنها مضت تقول غاضبة "أود وهم يمنحونه الفروسية، لو أنهم علموه أيضا السلوكيات التقليدية التي يتميز بها الفارس". وفي تلك الأثناء، استمرت تعبير عن أرائها الصريحة، وإن كان بأسلوب غير مباشر في الخطابات التي ترسلها إلى أسرتها، تلك الآراء التي أوحث بأن رئيس الوزراء السابق هيربرت أسكويت، وتشيرول يشاركها فيها.

عبر تشرشل، وقد حفزته دونما شك مقالات لورانس بالتأييم، عن سخطه على ويلسون في خطاب إلى لويد جورج، لم يرسله، قال فيه: "إنه لأمر غير طبيعي أن تنجح الإدارة المدنية البريطانية في وقت قصير في التسبب في اغتراب البلد بأكمله لدرجة أن العرب طرحوا جانبا ضغائن الثأر التي يُكُونُها لبعضهم منذ قرون، ومضى السنة والشبيعة يعملون معا. لقد أشير علينا محليا أن أفضل طريقة ترسل بها إمداداتنا أعلى النهر هي أن نرفع العلم التركي الذي يحترمه رجال القبائل".

وكان لبل تعليقها حيث قالت "أظن أننا لم نقدّر حقيقة أن هذا البلد هو في واقع الأمر كتلة بدائية من القبائل ليس بالإمكان بعد إخضاعها لنظام. لم يفرض الأتراك حُكماً وحاولنا نحن أن نحكم.. لكننا فشلنا".

استمر "التمرد" في بلاد ما بين النهرين عدة أشهر. ثم تم قمعه في النهاية حينما حظر ويلسون الاجتماعات بالمساجد وفرض حظر تجول عاماً. كانت التكلفة قتل عشرة آلاف عربي، قُدِّرَ أن تسعة آلاف منهم قتلوا في عمليات قصف القوات الجوية الملكية، كثير منها على أهداف مدنية؛ وبضع مئات من القتل الهنود والبريطانيين، وفاتورة قدرها ٥٠ مليون جنيه إسترليني. كتبت بل تقول "قد تكون هجمة القومية الجامحة المتمردة الآتية من سوريا، والإسلام المتمرد من تركيا قد برهنت على أنها تفوق قدرتنا على بعد النظر، لكن هذا لا يبرر عماساً".

أنت نهاية الثورة معها بنهاية لويلسون ومحاولته "مدنة" بلاد ما بين النهرين، وأيضا بنهاية النظام العسكري وبداية الحوكمة العربية المؤقتة. فضل ويلسون الاستقالة على أن يتحمل إنزال رتبته (كان كوكس في طريق عودته من طهران حيث كان وزيرا بالنيابة ليشغل منصب المندوب السامي بالعراق). لم تشعر چرتروود بالأسف على رحيل ويلسون وأقسمت أنها تفضل رؤية المستقبل في أيدي رجال قدراتهم العقلية أقل وقدراتهم الإنسانية أعظم.

فى ١٧ أكتوبر عام ١٩٢٠، استُقبل السير بيرسى كوكس على رصيف محطة سكك حديد بغداد بسبع عشرة طلبة بندقية ترحيباً به فيما عزفت الفرقة الموسيقية لحن "ليحمى الله الملك"، وكذلك بحشد من المهللين، وسكرتيرته للشئون الشرقية وهى تردى فستانا باريسيا جديداً. كانت مشاعر بل تجاه كوكس رومانسية بدرجة لا براء منها: "شعرتُ وهو يقف هناك، بمقدمة قميصه المصنوعة من الدانتيل الأبيض والذهبية، ومظهره الجميل الجليل البسيط أنه ما وصل أحد أبداً أكثر أهمية وكاريزما - لم يصل أحد أبداً تركّزت عليه مشاعر وآمال، وشكوك، ومخاوف أكثر تناقضاً، لكن فوق كل هذا تركّزت الثقة فى نزاهته الشخصية، تخيرت الشمس المنخفضة أن تسطع على شخصه الطويل الأبيض من بين المحيطين به الذين يرتدون الأزياء الكاكي وكانما عينها مثل أعيننا جميعاً الذين كنا فى انتظاره لم تُثبت على أحد سواه. حينما دخل المساحة المُسيجة وقدمنى السير إيجار (بوتام كارتر، مستشار وزارة العدل) إليه وفيما انحنيت تحية له، كان كل ما باستطاعتي أن أفعله هو منع نفسى من البكاء".

فوض السير بيرسى، على الفور، بل وچاك فيلبى لإنشاء مجلس للحكومة المؤقتة. ومن قراءة بل للصحف، ظهر أن مستوى التوقعات فى إنجلترا قد ارتفع بدرجة كبيرة: "يبدو وأنه لم يكن على السير بيرسى سوى أن يقول: توأ وفى الحال، إلا وتقفز حكومة عربية على المسرح وكأنها أثينا أخرى وهى تقفز من جبهة الإله زيوس. بالإمكان القول، إن أردت، أن السير بيرسى سيلعب دور الإله زيوس، لكن أثينته ستجد المسرح تعوقه تفاهات مثل مشكلة الشيعة، مشكلة القبائل وشئون أخرى، التى من المحتمل لها أن تجعل حتى الإلهة تتعثّر. لكنه وإن لم يكن زيوس، فهو طبيب شديد المهارة، طبيب يُكنّ له مريضه ثقة مضمرة".

بعد ذلك، كان السؤال الصعب هو كيفية التعاطى مع عقوبة "المتمردين" القليلين. كان جوهر المشكلة كما عبرت عنه چرترود هو: "كيف يتسنى لنا عقاب أناسٍ لتمردهم على الحكم العسكرى البريطانى الذى لم يعد موجوداً؟ بالإمكان معاقبتهم

على الدمار الذي ألحقوه ببلدهم، لكن حتى في تلك الحال، فليس ثمة أمر يقيني، لأن معظم الدمار أحدثته القوات البريطانية. من ثم، وبعد انتهاء العمليات الحربية، لا يترك لنا سوى إصدار عفو شامل مع استثناء الأشخاص الذين عُرف عنهم أنهم ارتكبوا جرائم قتل.

كان قد وُعد بانتخابات، لكنها لم تُجرَ. وبدلاً من ذلك، جمعت بل وفيلبي حكومة مؤقتة لها مجلس مكون من وزراء، اختارهم السلطات البريطانية وفقاً للممارسة العثمانية من بين الأقلية السنية، ثم ألحق البريطانيون أنفسهم بكل وزارة كمستشارين. وحينما احتج الشيعة، أوضحت بل لوالدها أنهم ليسوا عراقيين في واقع الأمر لأن "قادتهم، ومرجعياتهم الدينية، رعايا فارسيون" أصبح نقيب بغداد ورئيس الأهالي السنة رئيساً للوزراء وعُيّن السيد طالب، ابن نقيب البصرة الذي كانت تدعمه القبائل السنية بالجنوب وزيرا للداخلية، ويهودي بغداد البارز ساسون أفندي، وزيرا للمالية.

كان بين القوميين العرب الذين حرروا دمشق مع فيصل ثم انضموا إليه في العراق، جعفر باشا العسكري وزير الدفاع الجديد، وصهره نوري باشا السعيد. فيما بعد رافق كلاهما بل وكوكس في رحلتهما إلى مؤتمر القاهرة الذي عُقد بعد بضعة أشهر، كما أن كليهما لقياً حتفهما فيما بعد في انقلابات عسكرية. وعلى مدى السنين، سيصبح نوري السعيد، ضخم الجثة، أزرق العينين، ذو الصوت الرصين رئيساً لوزراء العراق أربع عشرة مرة، وحليف بريطانيا الوثوق.

أدركت بل على الفور فائدة نوري باشا: "بمجرد أن رأيته تحققت أننا أمام قوة شديدة البأس ومطواعة علينا إما أن نستخدمها أو نشترك معها في معركة صعبة". تسجل بل أيضاً حديثاً مع جعفر باشا يصف فيه كيف أنه يجد القوميين المتطرفين بالعراق عازفين عن الاستماع إلى صوت العقل تماماً كما كان أقرانهم في سوريا

إلى عهد قريب: "أقول لهم" أتريدون استقلالاً تاماً؟ هذا ما أريده أيضاً. ألا يحلم كل منا جميعاً بعزاء جميلة في الرابعة عشرة، يصل شعرها إلى وسطها؟ لكنها غير موجودة بالنسبة لأعمارنا! وهكذا الاستقلالاً في ظل الأوضاع الراهنة: إنه مستحيل، أسهبت بل قائلة إن الاستقلال التام هو ما يرغب البريطانيون في منحه في نهاية المطاف. لكنه رد قائلاً "سيدي، إن الاستقلال التام لا يُمنح أبداً؛ إنه دائماً يُنتزع...". وكان أن انتزع، كما كتبت بل في خريف ١٩٢٠ "لم يكن أحد بإطلاقه، ولا حتى حكومة جلالت، ليفكر في إعطاء العرب حرية التصرف في شئونهم بهذه الدرجة كما سنفعل الآن - نتيجة للتمرد".

بدأ عام ١٩٢٦ بنقاش بين سير بيرسي ويل عما إن كان على البريطانيين، وبالنظر لعدم دعمهم لفكرة احتلال عسكري مستدام، التخلي عن بلاد ما بين النهرين. اقترح تشرشل انسحاب القوات من الموصل لكن هذا كان يعني إمكانية استيلاء الجيش التركي، الذي أعيد إحيائه بقيادة كمال أتاتورك، عليها. اقترح أن ينسحب البريطانيون إلى البصرة، لكن بل أقنعت كوكس باستحالة بقاء البريطانيين في البصرة في وجود دولة مسلمة ذات حكم ذاتي تطالب بمينائها الوحيد.

سرت شائعة بأن الحكومة السنية المؤقتة بقيادة نقيب بغداد كانت تفكر في تنصيب أمير تركي على العراق لأنهم، وكما ذكرت بل "يخشون اجتياح الشيعة لهم ويعتقدون أن الأمير التركي سيكون دعامة أقوى من ابن الشريف (حسين)". وفي تلك الأثناء، لم يتم فعل أي شيء لاسترضاء الشيعة. كتبت بل لشقيقها هيو تقول "تجري الآن دراسة عدد من التعيينات الإدارية في الأقاليم؛ جميع الأسماء المرشحة تقريباً من السنة، حتى للأقاليم الشيعية على نهر الفرات مع استثناء كربلاء والنجف حيث لا يملك حتى البريطانيون قدراً من الصلافة والجرأة يمكنهم من اقتراح شخصيات سنية".

كان هذا هو الوضع لدى عودة بل من مؤتمر القاهرة وقد تملكته "حُمى الاستثارة" واستُحثت على بدء وظيفتها الجديدة كصانعة للملوك. لكن، وعلى الرغم

من نشاط تشرشل وطلاسته، ومع الآمال الرائعة التي عبر عنها تي. إبي. لورانس وچرترود بل، وبالرغم من شعبية بيرسي كوكس الجليلة كأول منوب سام بالعراق، فقد فشل البريطانيون. لم يكن العيب عيب النجوم، لكن في افتراض البريطانيين البدهي بحتمية عرفان الأمة العراقية الجديدة الموحدة على أسس هشة، عرفانها بالجميل، عندما عادت من المؤتمر، اعترفت بل أن فرض فيصل كان نتيجة الضعف لا القوة. كتبت تقول لكورنيليوس إنجرت، صديقها الديبلوماسي الأمريكي إن قبائل الفرات وقد أثبطهم فشل الثورة الذي ينظرون إليه الآن على أنه انتكاسة مجنونة، يشعرون الآن بالحيرة والارتباك لأننا نعتبر آل الشريف الذين كانوا في العام الماضي (هكذا أبلغوا) حريصين على طردنا، مصدرا مناسباً للأمير المرتقب.

كانت بل على استعداد للتفاوض عن الدور الذي لعبه فيصل (وعملوه) في إثارة الحمى الثورية منذ عهد قريب. تصف فيصل، في نفس الخطاب بصفته "رجلاً ذا مبادئ عالية ومثل رفيعة". اعتقدت، ومعها لورانس، أنه بمجرد أن يلتقي رؤساء القبائل العراقية ذلك المطالب الكاريزمي بالعرش الجديد، سيملّوهم الإعجاب. فيعد كل شيء، كان الأمير فيصل من نسل الرسول المباشر، وقائد الثورة العربية وابن شريف مكة. كان هذا أقرب ما توصل إليه البريطانيون لإنشاء أسرة مملكة يمكن إرسال أبنائها إلى مدرسة هارو النخبوية الإنجليزية وكلية ساندهيرست العسكرية مثل أبناء الأسرة المالكة الإنجليزية (ومثل السير بيرسي كوكس نفسه).

بيد أن الهاشميين كانوا من أهل السنة، المذهب الغالب في الإسلام. أما طبقة الشيعة الدنيا، والذين كانوا يشكلون غالبية العراقيين، فـ "سادتهم الشكوك، عن حق، في أن البريطانيين كانوا يدعمون فيصل من أجل تمكين أقليتهم المفضلة^(١)". هذا علاوة على أنه إلى جانب نقيب بغداد الذي رأى أنه مسن بدرجة لا تمكنه من الحكم، كان شمة مطالب آخر برئاسة الدولة، ألا وهو السيد طالب الذي كان يقود

(١) ولزوع جذور عميقة للشقاق المذهبي عملاً بالمبدأ البريطاني المفضل "فرق تسد".
(الترجمة).

حملته تحت شعار "العراق للعراقيين" ويمنع آلاف الجنيحات الإسترلينية لداعمي المحتلطين. وصفته بل بأنه "الرجل الأكثر مهارة وذكاء، وربما كان الوغد الأعظم الذي لم يتم شنقه حتى الآن"، وكان جاك فيليب، مستشار وزارة الداخلية العراقية يعتبره "شخصية ذات مقدرة وإن كان مراوفاً زلقاً". أما بل، فكان حكمها على طالب أشد قسوة حيث رأته أنه زعيم دهماوي بلا أخلاق أو ضمير "يمكن له فعل أي شيء" وساعدت السير بيرسي على التخلص من ذلك المرشح المشكوك في أمره.

أقام طالب عشاء دبلوماسياً في إبريل على شرف برسفال لاننون مراسل صحيفة الديلي تلغراف. كان بين المدعويين القنصلان الفارسي والفرنسي، وأثر تود رجل الأعمال الإنجليزى صديق بل. تغيب بل وكوكس وفيلبي. وفي خطبة له بعد العشاء، اشتكى طالب أن ثمة أشخاصاً في بطاقة كوكس (كان يعنى بل) يمارسون نفوذاً مفرطاً لصالح فيصل. أراد أن يوضح لجميع الحضور أن شعب العراق لا يمدون ملكاً هاشمياً. ثم أطلق إنذاراً متوعداً البريطانيين بأنهم إن لم يتبرأوا العراقيين يختارون شكل الحكم الذى يريدونه فسيحرص على رفع ٣٠ ألف جنيهة ضدهم. قال إن والده نقيب البصرة "سيناشد الإسلام والهند وفرنسا وإسطنبول ومصر وباريس"^(١).

(٢) ما يخبرنا به المؤلفان هو فقط وجهة نظر بل وفيلبي ولورانس وكوكس وغيرهم من المستعمرين البريطانيين المفاشرين صناع الملوك والحدود. أما السيد طالب، فى التاريخ العراقى، ووفقاً لما جاء فى كتاب الأعلام الجزء الثالث لمؤلفه خير الدين الزركان فقد كان طالب النقيب ابن رجب بن سعيد محمد سعيد الرفاعى النقيب، من أعيان البصرة. ولد وتعلم بالبصرة وكان سياسياً محكماً أجاد العربية والتركية والفارسية والإنجليزية وجمع حوله أنصار وقوى نفوذه فى بلده فدعاه السلطان عبد الحميد إلى الأستانة لأنه كان قد نعى إليه أن طالب يدعو إلى الثورة واستقلال العراق وأرسل إليه جيشاً بالبصرة للقضاء عليه لكنه أظهر الطاعة واحسن السياسة فانعم عليه السلطان بالرتب وأهداه ميقفاً مرصعاً.. ولما أعلن الدستور العثمانى (سنة ١٢٢٦ هـ) استقر طالب فى بلده، فانتخب ميعوثاً عنها فى مجلس النواب العثمانى. فشنخص إلى -

أسرع تود إبلاغ بل التي أرسلت تقريراً في اليوم التالي إلى السير بيرسي تقول فيه: "كان هذا تحريضاً على التمرد لا يقل سوءاً عن أي شيء قاله الرجال الذين حرضوا البلاد على "التمرد" العام الماضي، ولا يبعد كثيراً عن كونه إعلاناً للجهاد. ليس من غير المستبعد أن يواصل طالب حملته الانتخابية، بدرجة من الضراوة بحيث يجد نفسه داخل السجن". شعر كوكس أنه سيتعذر عليه الدفاع عن موقفه إن هو تقاضى عن مثل تلك التهديدات وقرر بعد أن أقنعت بل، اتخاذ إجراءات عنيفة صارمة.

وجهت ليدى كوكس إلى طالب دعوة إلى الشاى، وعملت بل مترجمة. وفي طريقه إلى منزله، وفي خرق لقواعد الضيافة (الإنجليزية!!) والعربية تم إلقاء القبض عليه ودفع به إلى سيارة القائد العام المدرعة، ودُخِلَ في ظلمة الليل إلى جزيرة سيلان (سريلانكا الآن) التي كانت تحت الحكم البريطاني حيث سرعان ما لحقت به عائلته. أخبر أحد الشيوخ المحليين الروائي الأمريكي جون دون پايسوس الذي كان في

"الأسنانه، فكان من أعضاء مجلس الأعيان ومنح رتبة سامية. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى كان في البصرة. واحتل البريطانيون العراق فنفضوه إلى الهند. فاقام زهاء عامين وأخلى سبيله. فزار مصر وعاد إلى العراق فولى وزارة الداخلية - ببغداد - وعيّن المستر فيلبس (المستشرق البريطاني) مستشاراً له. واتجهت سياسة الحكومة البريطانية إلى إقامة ملك سوريا السابق "فيصل بن الحسين" الهاشمي، ملكاً على العراق. ولم يكن له مزاحم غير السيد طالب. وجاهر هذا بالخلاف، فاخطفه البريطانيون وحملوه إلى الهند ثانية، حيث نفى بدعوى أنه هدد باستعمال القوة المسلحة إذا لم تنجز بريطانيا للعراقيين وعدها باختيار نوع الحكومة التي يريدونها وحاكمهم الذي يتفقون عليه. ثم سمحوا له بالسفر إلى أوروبا فذهب إلى ميونيخ، وأجريت له عملية جراحية لم يحتملها فمات متأثراً بها ونقل جثمانه إلى البصرة. كان جريحاً مفامراً، رقيق العنق سريع الغضب، محباً للالتقام، كرهما بإفراط. (الأعلام، الجزء ٢ ص ٢١٥ - ٢١٦). (الترجمة)

زيارة لبغداد ما يلي "سرنا بمساعدة الإنجليز في حريهم ضد الأتراك، لكن الأمر مختلف الآن. فالإنجليز يماثلون البحار العجوز: في البداية كانوا بالغى الخفة، لكنهم غدا أثقل وأثقل... وإذا عارضهم أحد الرجال المهمين.. يدعوهم كوكوس على الشاي.. ثم يستيقظ غدا ويوجد نفسه في طريقه إلى سيلان". قال له إن جميع الشخصيات العراقية "يتملكهم الخوف الشديد من أن يدعوهم كوكوس على الشاي".

قال فيليبى الذى كاد ألا يصدق ما حدث، والذى أوفد بعد ذلك للقاء فيصل فى البصرة ومرافقته لدى دخوله بغداد "إن أكثر رجل دهاءً فى بلاد العرب قد دخل إلى أكثر الفخاخ بساطة". لكن، وعلى الرغم من أن الأمير فيصل قد زعم انتسابه إلى الرسول فقد كان استقباله فاترا فى المدن الشيعية المقدسة بكريلاء والنجف. لم يكن قد زار العراق أبداً من قبل، وكانت لهجة العربية غريبة على أذان العراقيين، كما أن معرفته بالسياسات القبلية العراقية المعقدة (والذى كان وزير الشؤون الشرقية قد أوجزها له) كانت مازالت معيبة. علاوة على ذلك فقد شعر فيصل بالأسى عندما أخبره فيليبى وهما فى طريقهما أنه على الرغم من أن الختون (بل) تريده، فقد كان كوكس محايدا، أما فيليبى نفسه فكان يفضل نظاما جمهوريا.

لم يُغفر لفيليبى طيشه هذا: أُجبر على الاستقالة. علّقت بل قائلة وإنها مأساة حقيقية، لقد تم فصله، لكنه لا يجوز أن يلوم إلا نفسه لقد منحه السير بيرسى قدرا كبيرا من حرية التصرف والعمل. من الصعب معرفة أى شيطان تملك المستر فيليبى، لكن النتيجة النهائية هو أنه غدر برئيسه وعصى أوامر حكومته. لا يتردد السير بيرس أبداً فى عمل ما يعتقد أنه واجب، وأنهى المشكلة بالطريقة الممكنة الوحيدة. وعلى الرغم من ذلك، فأنا أشعر بقدر كبير من الأسى.

ويرحيل طالب، مُهدٍ الطريق لإجراء استفتاء فى يوليو، بيد أنه تقرر أن الانتخابات العامة ستحتاج إلى وقت طويل للإعداد لها. وبما أن عامة العراقيين لم يكن لهم رأى فى هذه العملية، فمن الصعب وصفها بالديمقراطية. كان الاستفتاء

مكثُناً من سؤال واحد وضعه كوكس ويل: ”هل تريد فيصل ملكاً؟.. وكانت نتيجة الاستفتاء هى موافقة غالبية العراقيين الساحقة (٩٦٪) مما أثار الشكوك حول العملية. لم يصوتَ الاكراد الذين كانوا يعارضون حكم شخص عربى، كما أن شيعة جنوب العراق لم يصوتوا أيضاً. حينما سأل دوس پايسوس الشيخ الأعرابى المحلى عن الاستفتاء ضحك وقال ”آه، بالطبع، لقد وزعوا أوراقاً فى الأسواق لكنها كانت الأوراق المطبوع عليها أيضاً استفتاء عن حكومة الانتداب بحيث يصوت الجهلة فى صالح الحكومة لئلا يدركوا ذلك. اليهود وقلة قليلة من الجهلة هم من صوتوا؛ إذ كيف لأى رجل متعلم ويلم بالقانون أن يخط من نفسه ويدلى بصوته على أية حال؟“ علّق پايسوس بالقول ”إلى أين تؤدى لعبة حق تقرير المصير هذه؟“.

لم تكن بغداد عام ١٩٢١ مدينة إمبراطورية، ولم تكن قد استُخدمت عاصمة منذ انتهاء حكم الأسرة العباسية عام ١٢٥٨. لم يكن هناك سوى شارع رئيسى واحد موحد أطلق عليه اسم الجنرال مود بعد موته أثناء وياء الكويليرا عام ١٩١٧، وكان هو من استولى على بغداد. لم يكن بالمدينة التى كانت منازلها مبنية من القرميد الطينى، ثمة مكان يصلح لسكنى فيصل، ومن ثم نزل مؤقتاً بالقلعة. قامت جرتود بل بالترتيبات لمراسم تتويج فيصل بفناء سراى بغداد فى الساعة السادسة مساء ٢٣ أغسطس. تقدم الملك وهو يرتدى البزة العسكرية الكاكي فى ممر مغطى بالسجاد حتى وصل إلى المنصة التى وضع عليها عرش خشبى منمذج على العرش البريطانى الموجود بوستمينستر (لكنه، وفقاً لإحدى الروايات فقد تم تجميع ذلك العرش على وجه السرعة من خشب حاويات البيرة الفارغة). نظرت بل، وهى تجلس مع ١٥٠٠ ضيف آخر وترتدى وسام نجمة القائد العسكرى بالجيش الإمبراطورى وشرائط الحرب الثلاث، نظرت إلى عيني الملك وأومت إيماءة خفيفة بالتحية. وبمساعدة والدها، انشغلت باختراع تقاليد ملكية للبلد الجديد: صمّمت علماً جديداً،

وشعار نبالة ونسب دقيق ومعه السترة الملكية التي تلبس فوق الدرع، ونشيدا وطنيا، هذا على الرغم من أن الفرقة عزّفت النشيد الوطني البريطاني "ليحفظ الله الملك" أثناء تتويج فيصل. وصفتها التقارير الإخبارية بأنها "ملكة العراق غير المتوجة" (وعدها فيصل أيضا بكتيبة عسكرية عربية - كتيبة الختون الخاصة - لكنه لم يوفِ بعهده). على أية حال، وكما كتبت إليزابيث مونرو، فلبضع سنوات تالية احتفظت جرتروود بعلاقتها الوثيقة مع فيصل، كانت تركب الخيل معه، تختار له أثاث منازلها، وتضع بروتوكالات لنساء القصر، وتقدم له المشورة بشأن وصيقات الملكة، أو هو الشخص التالي الذي عليه أن يستقبله. كانت لصداقته قيمة كبيرة لديها بدرجة أن شعرت بعميق القلق حينما ظنت أنه يساير الأحزاب والطوائف المختلفة ويتفاوض معهم، ويتصرف بأسلوب اعتقده غير لائق. ولدهشة بل واستيانها أنه بمجرد أن تم تتويجه، عارض فيصل المصادقة على معاهدة تُنبت سلطة بريطانيا بصفتها حاكم العراق الخاضع للانتداب، وترسّخ "الحقوق" البريطانية بالعراق. ذلك لأن الملك الجديد كان أجنبياً بلا أتباع حقيقيين في البلد، من ثم، فسرعان ما اكتشف أن الهجوم على البريطانيين كان هو الموضوع المحتمل له أكثر من غيره أن يوحد رعاياه ويثير حماسهم وهتافهم. وصل الأمر بكوكس الذي أصابه الإحباط لحد وصفه صنيعته بأنه خبيث وغير مخلص. أدانت بل، في لقاء مع الملك على الشاى في يونيو ١٩٢٢، دعمه "للمطرفين العُقَرَاء"، وفي خطاب إلى والديها وصفت بصراحة ما ظنته ضعفا بالغا في شخصيته "رغم مثله بالغة السمو، نجده يتعثر كل لحظة في أكثر العوائق حقارة - لقد شد عُرْبَتِه وثْبَتُها في النجوم، لكن العبل الذي استخدمه طويل بدرجة أنه يتعقد في كل مُنْعَفَطٍ" أخبرت بل الملك وقد شعرت بالنعاسة "لقد كونت صورة جميلة نبيلة ورأيتها تنوب أمام عيني. فضلت لو أنني رحلت قبل أن يلمس الكفاف النبيل بأكمله بالرغم من حبي للأمة العربية وشعوري بالمسؤولية تجاه مستقبلها، لم أعتقد أن بإمكانى تحمل رؤية تبخر الحلم الذي كان مرشدي". كانت قد لعبت بورقتها الأخيرة.

كانت تلك عملية تعليمية بالنسبة لجرتروود بل التي أوجزت العيوب في السياسة

البريطانية فى خطاب حكيم نبوى: ثمة قناعة راسخة فى خلفية تفكيرى بأنه لا يوجد شعب يحب أن يحكمه آخر بشكل دائم. والآن، فنحن نحاول تبني التوجهات القومية، لكننى مستعدة على النوام للاعتراف بأن القومية التى ليست معادية للحكم الأجنبى من المرجح لها أن تكون نباتاً ضعيف النمو. إن فيصل الذى يسير يدا بيد معنا لا يُحتمل له أن يكون الشخصية الرومانسية كفيصل الذى يقود الجهاد! لكنه لن يقود جهادا، فليس هذا توجهه، أبسطا عتتا أن ننفت فيه الحياة بدون تبنيه لهذا التوجه، بحيث نمكنه من أن يبيت إلهاما حقيقيا فى الدولة العربية؟ .. يتوقف هذا جميعه على شخصيته وعلى حذر السير يبرسى وحرصه على عدم الظهور اللافت وعلى أن يظل فى الخلفية“.

فى أغسطس، وفى الذكرى الأولى لارتقاء فيصل عرش العراق، ومع انقسام العراقيين العميق حول المعاهدة مع بريطانيا، تعرض كوكس ويل اللذان كانا قد ذهبا لتقديم تهانئهما، إلى إهانة أخيرة: كان ثمة حشد غاضب بقيادة اثنين من القوميين يُلقيان خطبا معادية للبريطانيين من شرفة القصر الملكى ويصيحان وسط عاصفة من التصفيق ”يسقط الانتداب“. وحينما طلب كوكس معاقبتهما، أحجم فيصل، وادعى إصابته بالتهاب الزائدة الدودية، من تم، تولى كوكس أمر الحكومة بنفسه، وأصدر الأوامر بالعقوبات: تم إلقاء القبض على المحرضين الرئيسيين وأغلقت الصحف المتطرفة. وفى النهاية، وبعد حصول فيصل على تطمينات من الحكومة البريطانية تحفظ له ماء وجهه بأنها ستزكى عضوية العراق الفورية بمعصبة الأمم بصفتها دولة ذات سيادة، أقنع البرلمان بالمصادقة على المعاهدة غير ذات الشعبية. ظلت الأوراق الراحبة بحوزة البريطانيين: احتفظ المنوب السامى البريطانى بحقه فى استخدام الفيتو على قرارات الحكومة العراقية: كما استمرت بريطانيا تتحكم فى الشؤون الخارجية للعراق وفى سياساته المالية والبقاعية.

استمر تشرشل فى النظر إلى فيصل بصفتة خادما مطيعا لبريطانيا: كتب يقول

لكوكس عام ١٩٢١ "لا يمكننا القبول بوضع يكون لفصل فيه حرية التصرف ثم يرسل إلينا الفاتورة في النهاية.. إذا كان علينا دفع أجر الزّمار فلا بد أن يكون لنا رأى نافذ فى النعمة التى يعزفها". بعد عامين، كان بإمكان تشرشل أن ينتهى إلى أن مناورة القاهرة قد أنتت ثمارها: "لقد تقلصت مصاعبنا ونفقاتنا بمرور كل شهر. تنامى نفوذنا ورحلت جيوشنا". رحل أيضا السير بيرسى، كلىّ الاممية، حيث تقاعد عام ١٩٢٣. خلفه فى منصب المنوب السامى نائبه هنرى دويس، الذى كان قد عمل سابقا مديرا للإيرادات العامة والذى زكته لتولى منصبه بالعراق مصلحة الأموال فى هيئة الخدمة المدنية الهندية. لم يكن دويس يتحدث العربية، ولم يتشاور مع بل، سكرتيرته للشئون الشرقية. كان دويس، الذى كان يتمتع بسحر أسر، يشاركها كراهيتها لإيه. تى. ويلسون، لكنه، وفى وجود الضغط الداخلى للانسحاب، كان واقفيا. كتب يقول "أملى هو أن يتمكن العراق من تسيير أموره بالأسلوب الشرقى الفاسد غير الكف، بأفضل قليلا مما كان تحت الحكم التركى.. إذا تحققت هذه النتيجة، وبالرغم من عدم كونها شيئا رائعا، سنكون قد شيدنا بنيانا أفضل".

جيم تعنى جرتروود

ملكة العرب، وأم المؤمنين

إذا دخلت الجنة مع الصالحين

ستسأل الله:

ما اسم قبيلتك؟ وما موقعها من الحدود؟

(أهزجة من وضع المبشر الأمريكى جون فان إس)

كان لها منزل مريح، مزين بالستائر الفاخرة، والسجاجيد الفارسية، يحوى قطعا أثرية سومرية، وخدما، وكليين من نوع السلوفى شعرهما كالحرير، وفرساً بيضاء، وأحيانا، غزالا أليفة. حياتها مكرسة لرحلات نورية، السباحة فى نهر دجلة، مباريات فى ركوب الخيل، حفلات صيد، حفلات راقصة، وجلسات للعب البريدج-

وكانت تلك أنشطة تميز حياة البريطانيين المغتربين. لكن، مع تناقص أعبائها، اضطلعت بل بدور جديد، مديراً شرفياً للمقتنيات الأثرية بمتحف بغداد الذى كان يقع فى القصر الملكى، تُشرف على الحفريات، وتقسّم ما يُعثر عليه من آثار بين بغداد، لندن، وفلادلفيا!! وفيما أرضى لقبها الجديد غرورها، كانت تعلم أن منصبها مؤقت: إذ لا بد لمدير متحف بغداد أن يكون مسئول متحف مديراً، مُلماً تماماً بالأحرف المسماة السومارية القديمة.

أثقلها حزنها على وفاة أخيها غير الشقيق هوجو عام ١٩٢٥، وإحباط مشاعر الولع تجاه زميلها المتزوج: كينان (كن) كورنواليس الذى كان يصغرها بكثير من خمسة عشر عاماً. تلقى تعليمه بكلية هايلبرى المتميزة التى كان يتدرب بها موظفو الإمبراطورية المدنيين، ودرس بيونيفرستى كوليدج، أكسفورد حيث اشتهر فى مسابقات ربيع الميل. ثم خدم بالسودان ثم بالجيش، ووزارة الخارجية وانتهى به المطاف فى العراق. فى عام ١٩١٤ تم تعيينه بالكتب العربى، وخلف هوجارث مديراً له. وصف الكولونيل لورانس معاصره المقدم كورنواليس فى كتابه “أعمدة الحكمة السبع” بقوله “رجل يوحى مظهره بالفظاظة والقسوة، لكنه من الواضح أن المعدن الذى صُنِع منه لا تُصهره سوى حرارة تبلغ آلاف الدرجات. من ثم، كان باستطاعته أن يظل عدة أشهر أكثر حرارة من حرارة الرجال الآخرين البيضاء وبالرغم من ذلك يبدو بارداً صلباً”.

أنابه اللورد كيرزن، كونه صديقاً لفيصل موثقاً به، ليعرض عليه عرش العراق، ورافق الأمير فى رحلته من جدة إلى العراق فى يونيو ١٩٢١. قضى كورنواليس أربعة عشر عاماً مستشاراً دائماً لوزارة الخارجية ومستشاراً شخصياً لفيصل، ثم تقاعد، فى النهاية، كسفير عام ١٩٤٥. كتب بل تقول “قد يمسك الملك بيدى كثيراً، لكنه يعانق المستر كورنواليس أكثر. تتبادل الملاحظات”. وصفت رفيقها فى حفلات البريدج والعشاء وفى صناعة الملوك بأنه ملاذ حصين وقلة من الحكمة. اعتقدت أن

بإرشاده فيصل، فإن كليهما كان يوجهان مصائر العالم العربي. كانت قد أملت أن يتزوجها كُن حينما رحلت زوجته فجأة عائدة إلى إنجلترا وأُنعت زواجهما عام ١٩٢٥. لكن، لم يكن لهذا أن يحدث. وعلى الرغم من أن اغتصابهما الذي تلى ذلك كان بسبب آمالها المحببة، إلا أنها رقت العلاقة في النهاية؛ بسبب اهتمامهما المشترك بأمور كلاهما.

مضت بل، ويزايد، تشعر بالوحدة والاكتئاب، وتراوحت خطاباتهما لعائلاتها بين الآمال المشرقة واليأس المرير. لم يعد فيصل يستشيرها "باستثناء المتحف، لا تُمتعني الحياة بإطلاق" هكذا كتبت لصديقها جيه. إم. ويلسون "يفامرني حس حاد بقربي من نهاية الأشياء مع عدم وجود أى يقين عما سأفعله بعد ذلك، وإن كنت سأفعل أى شيء. أيضا، الحياة كئيبة جدا باستثناء العمل.. الحياة هنا الآن تشعرني بالوحدة الشديدة". وازدادت مرات مرضها، وفي زيارتها الأخيرة لإنجلترا عام ١٩٢٥ أشار عليها أطباء لندن بتحاشي جو العراق القاسي. لكن، عودتها إلى إنجلترا بدت أمرا غير وارد. قالت "لا أبه كثيرا بأن أكون موجودة بلندن.. أحب بغداد وأحب العراق. إن هذا هو المشرق الحقيقي، ملئ بالحركة والنشاط؛ تحدث أمور رومانسية كثيرة هنا، تؤثر في رومانسية الأمور جميعها، وتستغرق كيانى".

فى مساء ١١ يوليو ١٩٢٦، وقبل عيد ميلادها الثامن والخمسين بأيام ثلاثة، ووبنما أن تترك رسالة على الرغم من أنه كان معروفا أنها تشعر باكتئاب، ابتعلت جرعة حبوب مميتة وتوفيت أثناء نومها. طلبت فى آخر رسالة منها لزميلها كُن أن يرعى كلبها إذا حدث أى شيء لها. (لم يفعل). تم تكريمها بتسيير جنازة عسكرية لها، وتبع آلاف العرب نعشها إلى مداخل البريطانيين ببغداد، حيث تولى زملاؤها مهمة السير به ورفعها قبل أن ينزلوه إلى قبرها - الذى تحجبه الآن أنقاض وزارة التعليم العالي التى قصفتها القوات الأمريكية. أقيم لها قداس تذكارى بكنيسة سانت مارجريريت بوستمينستر (لندن).

كال فيصل لها المديح المتدفق بعد موتها وهو يرثيها فى حوار أجرته معه صحيفة إفروديز ويكلي: ”إن چرتود بل اسم كُتب فى التاريخ العربى بأسلوب لا يُحى - اسم يُنطق برهية - مثل اسم نابليون، نلسون أو موسولينى.. بالإمكان القول إنها كانت أعظم نساء عصرها. وبدون شك فإن مكانتها العظيمة تماثل مكانة چان دارك، فلورانس نايتنجال، إديث كافل، مدام كورى وأخريات. وبعد أن حذف البعثيون ذكرها من تاريخ العراق عام ١٩٧٣، فقد أعيدت سيرتها الآن لتتضمنها المقررات التعليمية (وفقا لما نشرته الديلى تلجراف بتاريخ ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٤، أى بعد الاحتلال الأمريكى للعراق). بيد أن فيلبى، الذى كان قد اغترب عنها ذات مرة، هو من كتب أبلغ مريثة لها بعد وفاتها بحوالى عشرين عاما:

”على الرغم من التغييرات التى طرأت على مكانة المرأة وأنشطتها المدنية أثناء القرن الحالى، فمن الصعب التفكير فى أية امرأة من زماننا يمكن مقارنة إنجازاتها، على وجه جاد، بسجل چرتود بل الفريد. بالإمكان القول إنه باستطاعتنا مضاهاة عملها وجودته، وليس تفاصيله فقط، بأفضل ما أنجزه عظماء الرجال على مر العصور. كما أنه يمكن تقدير جودة عملها على أحسن وجه إذا أدركنا أنها فى عصر كان يُبسط فيه اقتحام النساء لمجال ظل حصريا على الرجال منذ القدم، وفى جزء من العالم يمثل نوعها عائقا دائما فى طريق النجاح ، أدركنا أنها لم تنجح فقط فى الاضطلاع بعمل من النوع المقصور على الرجال، بل أنجزته بتميز لم يقترب منه أبدا سوى أفضل الذكور من معاصريها. لم تتلق نظير هذا أيا من المكافآت المعتادة نظير العمل الجيد - لا مناصب عظيمة فى الدولة، لا مكافآت مالية تستحق الذكر، ووسام واحد فقط قليل الأهمية! لكنها كانت فى غنى عن مثل هذه الأشياء، كان عملها ينطوى على مكافآته الخاصة به. وبعد كل شيء، فقط خلقت بالفعل مملكة، فيما كان تأثيرها على السياسة البريطانية أثناء السنوات المهمة بين عامى ١٩١٦ و١٩٢٣ أعظم كثيرا مما يدركه غالبية الناس“.

أثناء المؤتمر الذي استمر خمسة أيام عام ١٩٢٢ بعقير شرقي السعودية، أقر السير بيرسي ابن سعود، ملك الجزيرة العربية في المستقبل، بالاعتراف بالعراق، وطبقاً لنصيحة بل المعتادة، رسم حدود العراق مع الكويت، ومع نجد (فيما بعد المملكة العربية السعودية)^(١). وعلى الرغم من نجاح ابن سعود في طرد منافسيه من نجد، مضى بيرسي كوكس يعامله وكأنه تلميذ شقي (وفقاً لمذكرات هارولد بيكسون الملحق العسكري بالكويت). قرر كوكس أنه هو وحده من له حق تقرير الحدود. رسم كوكس الحدود بين العراق ونجد، وينفس الأسلوب رسم أيضاً الحدود بين سوريا وشرق الأردن. أما حدود سوريا والعراق مع تركيا فقد تركت للجنة الحدود الدولية عام ١٩٢٦. احتفظت العراق بالموصل ونفطها (منح امتياز النفط لشركة النفط العراقية التي كانت ملكاً للمساهمين البريطانيين، الفرنسيين، الأمريكيين والشركة الأنجلو/ هولندية).

نابراً ما كانت تلك الخطوط الحدودية العشوائية تتوافق مع أي واقع سياسي أو جغرافي، ولم تعكس قط رغبات السكان. كما أن حكومة العراق لم تكن تمثيلية أو ذات شعبية، حيث كانت مكونة من الأقلية السنية الحضرية^(٢). علّق الحكيم البغدادي، المؤرخ إيلي قدوري، الذي اعتبر الحل الهاشمي كارثياً، علق في مقال له بعنوان Chatham House Version: "حينما نتأمل تجربة بريطانيا الطويلة في حكم البلدان الشرقية ونقارنها بأسلوب الحكم البائس الذي خلّعه على سكان ما

(١) أعلن صدام حسين في حرب الخليج ١٩٩١ - ١٩٩٥ أن تلك الحدود الخلافية جائرة وغير صحيحة. (المؤلفان)

- (كعدهم دائماً، زرع البريطانيون عامدين، بذور الخلاف والشقاق برسهم العشوائية للحدود بين البلدان العربية، (الترجمة)).

(٢) بمعنى آخر، ابتدع البريطانيون الحاصصات الطائفية ولم يشكلوا الحكومة على أساس المواطنة العراقية والكفاءة، بل على أساس المذهب وفال هذا الوضع آفة يعاني منه العراق حتى يومنا هذا (الترجمة).

بين النهرين تتملكنا دهشة غاضبة.. لا نملك منع أنفسنا من التعجب من كيفية نبذ البريطانيين كل هذا (خبرتهم الطويلة فى فنون حكم البلدان الشرقية)، وكيف أنهم بعد أن غزت جيوشهم بلاد ما بين النهرين، مضوا يتقاذفونها، جينة ورواحا، بين مهارة لويد جورج وفصاحته فى الترويج لأساليبه، وخطب اللورد كيرزن الطنانة العبيثة، بين الفينة والأخرى، وأكاذيب الكلونيل لورانس الهستيرية، ومهارة ميس بل الهشة وانفعاعاتها العاطفية، وإذعان السير بيرسى كوكس وخنوعه.

كما أنه لم تكن ثمة نهاية سلمية للدولة التى ابتدعوها ومعها أساليب الحكم والإدارة. فى عام ١٩٣٠ تفاوض رئيس الوزراء نورى السعيد على معاهدة مع بريطانيا تنص على "تحالف وثيق"، الأمر الذى كان يعنى استشارة البريطانيين فى شئون السياسة الخارجية، وأيضا أنه فى حالة وجود تهديد باندلاع الحرب سيشترك الطرفان فى الدفاع المشترك. وبهذا ضمنت بريطانيا لنفسها، من خلال تلك المعاهدة، ليس فقط القواعد الجوية فى العراق، بل أيضا الحق الحصرى فى تزويد العراق بالسلاح وتدريب الجيش العراقى، علاوة على عدم خضوع العاملين بالجيش البريطانى هناك للضرائب والقوانين العراقية. فى عام ١٩٣٢، أصبحت العراق أول عضو عربى فى عصبة الأمم، وغدت رسميا، ذات سيادة. لكنها، وحيث إن الحراب البريطانية هى التى كانت تدعم استقرارها، فقد كانت العراق، فى أفضل الأحوال، ديمقراطية زائفة.

فيما كان جلوب باشا (سنلقاه لاحقا) يجول فى أنحاء وادى الفرات عام ١٩٢٧، التقى أحد زعماء الشيعة القبليين الذين كانوا قد شاركوا فى ثورة العشرين التى نتج عنها تمكن فيصل وأتباعه من الإمساك بالسلطة. علق جلوب قائلا للزعيم القبلى بأن لدى العراق الآن "حكومة، وبستوراً، وبرلماناً، ووزراء، ومسؤولين" فماداً يريد العراق أكثر من هذا؟ أجاب الزعيم القبلى بمرارة "نعم، لكنهم يتحدثون بلكنة أجنبية". وعدت العراق، لدى قبولها عضوا بعصبة الأمم بحماية أقلياتها الدينية. وعلى الرغم من ذلك،

فبعد وفاة الملك فيصل عام ١٩٣٣ أُبينت القوات العراقية، عن حق، بارتكاب مذبة ضد الجالية المسيحية الآشورية التي كانت تعيش بإقليم الموصل.

شارك اللورد لوجارد في نقاش اندلع في أعقاب المذبحة التي أوضحت تقلبات الحكم غير المباشر السلبية. ويصفته عضواً في مفوضية الانتداب التي كان مقرها جنيف، قضى لوجارد عام ١٩٣١، بأنه لم يكن بوسع عصبة الأمم فعل أي شيء لمعاقية العراق حينما ارتكب جيشها تلك المذبحة ضد هذه الجالية المسيحية. كان هؤلاء القوم الرعاة البالغ عددهم حوالي أربعين ألف نسمة، يسكنون في الأصل، الجبال الجنوبية الشرقية لتركيا كما هي الآن، وكان ينظر إليهم أثناء الحرب العالمية الأولى على أنهم حلفاء خونة للغزاة الروس. وبعد الانهيار العسكري للجيش الروسي، هرب الآشوريون للعراق المحتلة من قبل البريطانيين ووجدوا أنفسهم في خضم فوضى ثورة العشرين ضد الحكم الأجنبي. حاربت الميليشيات الآشورية في صفوف البريطانيين مما نجم عنه حتمياً توليد مشاعر عداية ضدهم بين العراقيين. وحينما سئل اللورد كيرزن في البرلمان في ١٧ ديسمبر عام ١٩٢٠ عن مصيرهم أجاب بقدر ما أنهم الآن مستقرون داخل حدود النفوذ البريطاني، فنحن نؤكد لهم على اهتمامنا الودي وحمايتنا^(١).

وفي عام ١٩٢١ حينما درست عصبة الأمم إنهاء حكم الانتداب البريطاني على العراق، والاعتراف بها دولة مستقلة، سعى الآشوريون للحصول على الحكم الذاتي. أنكر عليهم ذلك وكان أفضل ما استطاعوا الحصول عليه هو وعود أبلغها العراقيون لمفوضية البلدان الواقعة تحت الانتداب بقيينا بعدم القيام بأعمال عداية ضد

(١) ما لم يذكره النص أن الغرب ظل، وما زال، يمارس سياسة فرق تسد التي يجلونها منذ القدم. فهم يستقطبون أطرافاً لا مصلحة لها في التعاون معهم بحيث يضمنون عدم استقرار البلدان الواقعة تحت نفوذهم أو التي بها مصالح لهم. وزرع الفتنة بين أهلها ويضمنون بذلك لجوء تلك الأطراف إليهم وطليها حمايتهم نظير القيام بالأدوار التي يحدونها لهم ثم يتخلون عنهم كهدهم دائماً. (الترجمة).

جاليتههم. ويدافع الحذر، سافر قادة تلك الجالية صعبة المراس التي تعمل بالرعى إلى سوريا سعياً للحصول على حق عودتهم للاستيطان هناك من السلطات الفرنسية. ومرة أخرى، تم رفض طلبهم، وفي طريق عودتهم "اشتبكوا في عراك مع حراس الحدود العراقيين وقتلوا واحدا منهم" وفقا لويليام بيل المراقب الأمريكي الموثوق. أثار هذا صراعا مسلحا بين المقاتلين الآشوريين الذين كان البريطانيون قد دربهم، وبين الجيش العراقي الجديد. يكتب بيل الذي كان قد أصبح مستشار وزارة الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط قائلًا: "وقيل أن تعلم الحكومة المدنية ببغداد بما حدث، كان القائد العراقي الجنرال بكر صدقي، والذي عرف عنه عداؤه للآشوريين، قد سمع بقتل ٤٠٠ آشوري أعزل ودعا رجال القبائل الكردية والعربية لنهب القرى الآشورية".

لكن، ما كان أمام مفوضية البلدان تحت الانتداب فعله للدفاع عن تلك الأقليات الموصومة المعرضة للخطر؟ في خطاب أرسله إلى لوجارد، احتج إليه .تى. ويلسون، الذي كان قد شغل منصب القائم بأعمال المفوض السامي المدني في أرض الرافدين، على أن السلطات البريطانية كانت ترغب الآن في التخلص من مسئولياتها تجاه العراق. "وإذا أدى ذلك إلى تعرض أوضاع الأقليات للخطر، فهذا من سوء حظهم. إنه لموقف فظ أنأني سيقود حتما إلى مصاعب خطيرة في المستقبل تبلغ ذروتها، في حالة المسيحيين، إلى إبانتهم فعليا". صدر عن جيلبرت موراي، أستاذ العلوم الكلاسيكية الأسطوري باكسفورد، والاب الروحي لعصبة الأمم، احتجاج مماثل وإن كان محملا بظلال من المعاني. حذر من أن العراق كان بحاجة إلى خمسة وعشرين عاما على الأقل كي تصبح أمراقه المختلفة ("الأكرد، الآشوريون، الكلدانيون، اليهود، اليزيديون وبقيتهم"^(١)) "على التعاون مع القبائل العربية لصنع مملكة موحدة". وأضاف أن تحقيق هذا هو "الهدف الرئيسي للانتداب"^(٢).

لكن لوجارد لم يتقبل أيأ من هذه الآراء، فقد أصر على أنه بمجرد أن وافق

(١) يتم هنا الخلط بين الملل والنحل والأديان والأعراق (الترجمة).

البريطانيون على المعاهدة التي تعترف باستقلال العراق لم تعد الشئون الداخلية العراقية موضع اهتمام خاص منا^(١). كان هذا عمليا يعني نعباً لجاليات الأقليات التي خاطر أعضاؤها بالتعاون مع إدارة المستعمرين التي كانت تعمل وفقاً لمبادئ لوجارد للحكم غير المباشر.

توفي الملك غازي بن فيصل وخليفته عام ١٩٣٩ في حادث سيارة غامض (يقال إنه قُتل بأوامر من نوري السعيد، رئيس الوزراء الذي كان البريطانيون يدعمونه^(٢)) أما الحكومة فقد برهنت على أنها على نفس الدرجة من الهشاشة: تولت خمس وسبعون وزارة الحكم في الفترة ما بين صعود فيصل إلى عرش العراق عام ١٩٢١ ومقتل حفيده عام ١٩٥٨. تُعتبر مذكرات آلان ماك دونالد ضابط الاستخبارات بالقوات الجوية الملكية والتي يصف فيها انعامين اللذين قضاهما بالعراق قبل أن نحصل على سيادتها الاسمية عام ١٩٣٢، تُعتبر جد كاشفة. كان ماك دونالد يتحدث العربية وكان مقر عمله في جنوب العراق. يقول في مذكراته انني نشرها بعنوان "منفى الفرات" (١٩٣٦)، والتي كتبها بأسلوب مباشر صريح لاذع يدكرنا بچورچ أوريل، يقول ما يلي:

"هنا في العراق، لا نستطيع الهمس بالكلمات، ليس بوسعنا قبول الحقيقة البشعة، أي أننا غير مرغوب فيها، محل كراهية، بل ويغض حقيقى. تُرسم سياستنا بافتراض أن علاقتنا مع هؤلاء اناس دافئة وحميمة.. ثمة كراهية سائدة، وعلى الرغم من ذلك، يُزعم أن تلك الكراهية ليست شخصية، وأنه، ويقرر وجود تلك الكراهية السياسية، فهي محصورة داخل نطاق شرائح الطبقات المتعلمة غير المهمة والتي غالباً ما تكون عاطلة عن العمل".

(١) كان غازي داعماً للتيارات القومية الراديكالية التي ظهرت في العراق وكان معادياً للبريطانيين وبيغض نوري السعيد. ابناً مخطبة إعدامه: لخاصة التي كانت تشجب المخططات الأنجلو صينيونية بالنظام.. ثم حاول استخدام العناصر القومية بالجيش للإطاحة بالوزراء المواليين لبريطانيا (طارق على، بوش في بابل) (ويرجع هذا ان موته كان مدبراً) (الترجمة).

ثم يَمْضى يقول إن هذا حقيقى جزئيا، لكن علينا أن نتذكر أن المسؤولين العراقيين يعلمون أنهم لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة البريطانيين، وأن الاختلافات فى اللغة والثقافة كانت تمثل عوائق كشودة فى طريق تكوين صداقات بين البريطانيين والعراقيين العاديين. ثم يضيف:

"والنتيجة هى وجود عدم تناغم سياسى هائل يتغذى على خزعبلات الماضى الكثبية ويعيق فاعليتنا فى الشرق .. تقلبنا القديم للإمبراطورية، تحيزاتنا ضد اللون والعرق ورضاؤنا الطاغى عن القدرات التى نمتلكها واقتناعنا بها. أمن البائع على الدهشة أن يثير هذا الرضا عن الذات الاستياء والغضب؟ لم يصل العراقيون بعد إلى المرحلة التى يستطيعون فيها النظر إلى كل هذا بسخرية واستهزاء، أى السلاح الوحيد الذى يمكنهم بفاعلية ومقدرة من مجابهة هذا الوضع".

لدى وفاتها، بدا وأن صيتها قد ترسخ دون أدنى شك. وكما عبرت النيويورك تايمز فى مراثية لها "لم يحدث، منذ أيام زنوبيا، أن لعبت امرأة مثل هذا الدور الطاغى فى مصائر الشرق الأوسط". ومن الحقيقى أن زملاها النكور بينوا سرعة تقلب آرائها. (كتب لورانس يقول إنها كانت تتبع عواطفها وأهواها، "تغير توجهاتها كل مرة مثل تقلبات ديك الرياح). تقلبت بين تأييد استقلال العرب، ثم حكم البريطانيين المباشر لهم، وفى النهاية إقامة حكم ملكى هاشمى على العراق. لكن، بالإمكان القول الآن، إنها تبدو أنها كانت أكثر حرصا بكثير من زملائها، تدمعها الشكوك من قراراتهم. بل ربما أن نعزو تأرجحاتها إلى قدرتها المفرطة على الإلمام بالجوانب العديدة للرؤى- رؤى وزارة الخارجية، مكتب الهند، وزراء المستعمرات الذين كانت تراسلهم، وأخيرا رؤى العراقيين. وفرت ممارسات چرترويد بل المتمسكة فى السعى إلى لقاء شيوخ العشائر فى مواقعهم وزيارة حريمهم واستضافتهم لتناول الشاى معها. وفرت لها درجة من الإلمام بأراء العراقيين لم يشاركها فيها زملاؤها النكور. بعد وفاتها، انهال عليها الإطراء واللوم بسبب أهم

إنجازات حياتها: خلق سلالة ملكية هاشمية في العراق. لكن ذلك النظام ظل صامدا لحوالي أربعين عاما قبل وقوعه تحت وطأة الثورة وإراقة الدماء^(١). أحبطت ما أملت فيه بقسوة من خلال صعود صدام حسين، ثم في عام ٢٠٠٣ تم تدمير متحف بغداد الذي أسسه ونهيه، فيما وقف (الغزاة الجدد) الأمريكيون يتفرجون لكن المسؤولية الأكبر لمأساة العراق المبكرة تقع على عاتق المنوبين الساميين البريطانيين الذين كانوا يجيئون ويرحلون، وعلى رؤسائهم في مجلس الوزراء البريطاني بلندن. وعدوا بدعم حكم ديمقراطي بالعراق، ثم مضوا يفرضون معاهدات تجعل من الحكم البريطاني غير المباشر جزءا متأصلا من نظام حكم العراق الأمر الذي بذر الاحتقار والاستياء وأدى بأسلوب مميت إلى تاكل شرعية الملكية التي زوعها الأجانب، كما ظل الشقاق بين الأكراد والسنة والشيعة قائما^(٢). لا يستطيع أحد، بالتأكيد، إلقاء اللوم على نوايا جرتروود بل النبيلة (!!) أو على خبرتها التي اكتسبتها بشق النفس في تعقيدات السياسات العراقية. لكن، لا يمكن لسفينة الإبحار لمسافة طويلة في وجود عارضة فولاذية معينة بها، وبالرغم من كل النجاحات التي حققتها (لنفسها وبلدها) فقد ساعدت جرتروود بل على إغراق العراق في بحر مرير ملئ بما أسماه الشاعر الروماني فيرجيل دموع الأشياء.

(١) كان ذلك نتيجة طبيعة لما يسمى باهم إنجازات جرتروود بل التي حققها بعشوائية وفقا لأهوائها ولما فيه مصلحة للمستعمرين البريطانيين. (الترجمة)

(٢) الأمر الذي يعود الفضل فيه إلى البريطانيين الذين عمدوا إلى المحاصصات الطائفية والعراقية واتبعوا سياسة فرق تسمد. (الترجمة)

الفصل السادس

جنون الشهرة

توماس إدوارد لورانس

(١٨٨٨ - ١٩٣٥)

جميع الرجال يحلمون
لكثهم في هذا غير متسلون
هناك من يحلمون ليلا
في نروب حقولهم المترية
ثم يستيقظون نهارا
ليجندوها خيلاء تافهة
أما الحالمون بالنهار
لرجال مقاطر وأخطار
نراهم يتبعون الحلم المستحيل
ليجعلوه ممكنا يسيرا
وهذا ما فعلت أنا

توماس إدوارد لورانس

أعمدة الحكمة السبعة (١٩٢٦)

هاهم العرب يصنعوننى
واللدى وكلايتون يتقون بى
ها هم حراسى يموتون من أجلى
وأعجبى!!
أتقوم الشهرة ولجوع الصيت
على الجبل والخداع والتزوير؟

تأملات لورانس لدى بلوغه الثلاثين "أعمدة الحكمة السبعة"

بين الملايين الذين قاتلوا في الحرب العالمية الأولى، ذلك الصراع الذي دام سنوات أربع وتورطت فيه ثمانى إمبراطوريات ومعها الولايات المتحدة، وقُدِّر ضحاياه بـ ٩٤٨.٣٢٧٨ شخص، ثمة اسم واحد من بين هؤلاء الملايين مازال يتنكره الجميع بأسلوب شعولى. وبعمامة، فقد تم نسيان آلاف الجنرالات، البريجاديرات، الأميرالات، والكوماندرات - الذين تكفى أعدادهم لقلب بارجة حربية كبرى - ومعهم جميع رؤسائهم السياسيين تقريبا. لكن ليس لورانس العرب. يرجع الفضل فى هذا إلى عبقريته فى مواجهة كل الأرجحيات، فقد أصبح أعظم مقاتلى هذه الحرب نبوعا وشهرة هو ضابط المخابرات ذاك ضئيل الحجم، نو التوجهات الجنسية الملتبسة، والذي حوّل تمردا مغمورا إلى عمل فنى خالد. هنا، نجد تناظرا مضمرا بين هذا وبين اهتمامات لورانس الأدبية. ظل، ومنذ أن كان طالبا بتكسفورد، مولعا بالشاعر هوميروس، وقام عام ١٩٣٢ بنشر ترجمة بليغة للمحمة الأوديسة (الترجمة الثامنة

والعشرين إلى الإنجليزية وفقا لإحصائه هو). وحتى لا ننسى، فإن هوميروس، ذلك الشاعر الأعمى، يركز في ملحمة الإلياذة، السابقة على الأوديسة، والتي تروى أحداث حرب طروادة، يركز على أخيل، لورد الحرب الأقل مرتبة والأحدث سنا، الذي اكتسب شهرة خالدة من خلال ثأره لزميل سقط في القتال.

كان لورانس أخيل الحرب العظمى، الممثل الكومبارس الذي يسرق العرض هيمنته راسخة. مثلا، في نوفمبر ٢٠٠٦، ذكر اسمه ١٩٢٠٠٠ مرة على الشبكة العنكبوتية في أنحاء العالم، وكان أقرب منافسيه من العسكريين البريطانيين هم كيتشنر (٣٢٩٠٠٠ مرة)، وألنبي (٤١٩٠٠) وهيغ (٣٣٦٠٠). ومثل البقايا عصر الأوسطية المقدسة، فقد اكتسب كل ما لمسته يدا لورانس هالة قدسية (تسويقية).

في سبتمبر ٢٠٠٦، بيعت بوصلة نحاسية قيل إن لورانس استخدمها لمعرفة اتجاهاته وناقته في الصحراء أثناء الثورة العربية بمانتين وأربعة وستين ألف جنيه

إسترليني بصالة كريستي للمزادات (الشارى كان مجهولا وكان تقدير ما قبل البيع هو ١٦.٠٠٠ استرليني فقط؛ تم تبديد الشكوك، على الفور، حول أصالة البوصلة وصحة نسبها). يذهب أعداد لا حصر لها من أتباعه المتحمسين فى رحلات للحج من مسقط رأسه بإقليم ويلز وعن طريق أكسفورد إلى كوخه بدورست ومثواه الأخير بكنيسة قريبة فى مورتون. تعلن الوكالات السياحية بالأردن عن "رحلات لورانس" إلى مدينة البتراء بوادى رمّ. حتى أن أوهى الأشياء التى تنسب لى. إى تكتسب تقلا وأهمية. يمكن لزوار فندق البارون المهيب بمدينة حلب السورية التمعن بوقار فى فاتورة للورانس موضوعة بإطار (لم يُسدها) نظير ست زجاجات من الشمبانيا. ولدى جولة مؤلفى هذا الكتاب فى أنحاء سوريا اكتشفا طبعة ثانية غالية الثمن من الصعب العثور عليها من رسالة تخرج لورانس من أكسفورد بعنوان "قلاع الصليبيين" (والتي ساعدته على الحصول على مرتبة الشرف فى التاريخ التى هى مطعم ليس سهل المثال) فى خانٍ للمسافرين متاخمٍ لمدينة الميرا (تدمر شرقى حمص) التاريخية.

تعتبر ما يسميه هواة جمع القيم من المطبوعات "مادة لورانس" ظاهرة تماثل العبادات السرية. صدر من الطبعة الأولى، أو طبعة كرانويل Cranwell من "أعمدة الحكمة السبعة" عام ١٩٢٦ عدد محدود من النسخ بلغ حوالى مائتى نسخة بيعت كل منها بثلاثين جنيهًا إنجليزيًا. وخلال أشهر معدودة عُرِضَت النسخة الواحدة بخمسمائة وسبعين جنيهًا. واليوم، يُعلن عن وجود نسخة واحدة من طبعة كرانويل فى إحدى صالات البيع بأسلوب مدوّ وكأنا هى طبعة أولى من إحدى مسرحيات شكسبير. تُرجم "أعمدة الحكمة السبعة" إلى عشرات اللغات - وهو من الكتب الكلاسيكية الحديثة التى لا يُعثر عليها بسهولة - وتقرب مبيعاته من مليونى نسخة على المستوى الكوكبى.

أما فى عام ١٩٨٤، فقد ذكرت إحدى الإحصائيات صدور ثلاثين سيرة كاملة

للورانس بالإنجليزية؛! ووفقاً لإحصائنا، فقد تضاعف هذا الرقم، مع عدم تضمين ما كتبه الأتراك، الأرجنتينيون، العرب، الإيطاليون، الفرنسيون، الألمان، والإسبان عن حياته. وحقا، فيمكن الآن للفرد المهتم الرجوع إلى خمس بيبليوجرافيات رئيسية تتضمن أعمالاً كتبها لورانس وأخرى عنه، وقد جمع أحدث تلك البيبليوجرافيات في ٨٩٤ صفحة فيليب أوبريان أمين مكتبة كلية ويتيار Whittier College ومدرّب سباق الضواحي. وعلى الرغم من ذلك، كاد لورانس ألا يكون معروفا أثناء الحرب العظمى، واكتشفه مصادفة صحفي أمريكي غرّ.

ما يلي هو رحلة انتقائية خلال تلك الأدبيات الضخمة في محاولة منا للتعاطي من جديد مع أسئلة ثلاثة: هل يتناسب صيته بأية درجة عقلانية مع إنجازاته؟ كيف اكتسبت أسطورة لورانس تلك الأبعاد الملحمية؟ وعلى أية حال، أيستطيع أحد تفسير إغرائه المتنامي المتطور في عصر يقلل من قيمة البطولات؟

من الأمور الدالة أن فيلما سينمائيا كان أول من استحضّر "لورانس العرب" وسحره. باستطاعتنا استحضار صورته السينمائية في مخيلتنا: في بداية عام ١٩١٨ يصل شاب يُعرف باسم لول توماس في العشرينيات من العمر، شبّ في ولاية كاليفورنيا، وصُقل في جامعة برينستون، يصل إلى لندن سعياً وراء دعاية لقضية الحلفاء ترفع المعنويات. يطلب النصع من الروائي جون بوكان مدير المعلومات في زمن الحرب بوزارة الخارجية. يعلم توماس أن دايفيد لويدي جورج رئيس الوزراء البريطاني قد سمّم الطريق المسدود الذي انتهت إليه الأوضاع على الجبهة الغربية، وأنه قد أرسل السير إدmond أللنبى، الجنرال بسلاح الفرسان المولع بالقتال والذي كان يخدم آنذاك بفرنسا، كي يحرك "المشهد الفلسطيني" ويزلزله.

نقلة مفاجئة سريعة إلى الشرق الأوسط حيث يصل الشاب لول وينضم إليه هارى تشيز المصور الأمريكي. يتذكر توماس قائلاً لم أكد أصل القاهرة إلا وانهارت

الشائعات المتعة عن ثورة عربية ضد الأتراك. بيد أنه من اللافت أن اسم لورانس لم يكن معروفا سوى لحفنة من الضباط البريطانيين، تحدث بعضهم عنه بلا مبالاة، أو شوها أفكاره بصراحة، ومعها تكتيكاته، وتعلمه بالروتين المقدس للجنود المهنيين. وفيما مضى بخترق سيناء، فى طريقه إلى فلسطين، أخذ الأمريكى يسمع المزيد والمزيد عن ذلك المحارب غريب الأطوار، ولم يكن لقاؤهما الأول بالقدس محبطا. يُبصر توماس رجلا نحيفا قصيرا مكسواً ("اللفظ الوحيد لوصف ملبسه") برداء أبيض فخيم بطوق حزام علّق فيه رمح من الذهب، يرتديه عادة نسل الرسول. يحملق توماس فى تلك الشخصية المهيبة الباردة الذى قدمه إليه السير رونالد ستورز الذى كان قد جَمَعَ لثوّه حاكما للمدينة المقدسة. وتحت الفترة البيضاء المثبتة بمُقال ذهبي، يرى الأمريكى عيني لورانس الزرقاوين النواضيتين وملامحه النورمندية/ الإنجليزية: "بدا حقا نجسيدا لجندى صلبى فى جيش الملك ريتشارد -، ولو أنه كان قد أنعم عليه بجسد قرى ضخّم، لكان تجسيدا لقب الأسد ذاته".

كان ذلك لقاءً أوليّاً تمت روايته ببراعة تماثل تلك التى استخدمها صحفى آخر، أى مورتون ستانلى فى روايته للقائه بالكتور ليفينجستون (مكتشف شلالات فيكتوريا) فى برارى أوجيجى. يرافق لول توماس، وقد وقع فى أسر سحره، فى خطواته إلى دمشق فيما تلتقط كاميرا هارى تشيز، جزافيا، صورةا للورانس الراغب فى ذلك "فى ثيابه الأكثر بريقا". وعلى الرغم من ذلك، فحينما قام توماس بدور الراوى فى العرض المصور الذى دام طويلا وأُطلق بذلك اسم "لورانس العرب"، أكد على تواضع اكتشافه (لورانس) وإنكاره لذاته، ولم يصحح توماس الذى كان أول من قام بالدعاية للورانس. ما قاله فى هذا الصدد إلا بعد حادث الموتوسكيل المميت بشوارع بدورست والذى راح ضحيته لورانس عام ١٩٢٥. اعترف لول توماس فى كتاب تنكاري جمعى عن لورانس بالقول: "والآن، وقد رحل، فليس ثمة ضرورة لمثل هذا الهراء. فقد كان لورانس يتموضع أمام الكاميرا لالتقاط صور له بزيه العربى برغبة منه، بل إنه أيضا، حضر فيما بعد، سراً، خمسة من عروض توماس المصورة عن أسفاره وسيرته فى لندن: "لم أخبر أحداً أبداً بمكانه ولم أقل شيئا عن تلك

الزيارات. وبما أنني، كنت، وبكل إخلاص، أرسم له صورة كأكثر الرجال تواضعا بإطلاقه، أردت أن أتأشى التفسيرات المعقدة (أى أنه كان تواقا للشهرة لكنه لم يكن على استعداد لتقبل ثمنها بتطفل الناس على حياته). جاء حكم توماس المدروس فُطناً، يليق ببطله الأنجلو/ نورماندى، وختمه بفقرة غدت الآن مبتذلة لكثرة تداولها:

“أعتقد شخصياً أنني ارتكبت خطأ جسيماً فى علاقتى بلورانس. كثيراً ما كان يكرر أنه يرغب أن يتركه العالم وحده. وكان يصبر ضاحكاً أنه لم يُرد أبداً أن يقال كلمة واحدة عنه. لكنه كان يحب ذلك فى أعماقه (أن يكون موضوعاً للأحاديث). الخطأ الذى ارتكبته هو أنني صدقت قوله فى نهاية المطاف. وبعد أن كرست عدداً من السنوات لنشر قصة إنجازاته، تركته وحده تماماً. من ثم، فربما اكتسب الانطباع بأننى فقدت اهتمامى به.. ثمة مثل تركى قديم يوضح جيداً شخصية تى. إى وتعنى ترجمته امتلاك عبقورية الرجوع إلى بريق الشهرة”.

قال جورج أرويل عن غاندى إنه يجب الحكم بإدانة جميع القديسين إلى أن تثبت براءتهم. كان من المحتم أن يصبح لورانس هدفاً لا يقاوم للهدم والتقويض، وهى عملية استهلها فى بريطانيا الروائى ريتشارد ألدينجتون الذى نبش فى كتابه “Biographical Enquiry” (١٩٥٥) أحداثاً متنوعة كانت قد ظلت مجهولة بدا فيها تى. إى بأسلوب جلى أو ظاهرى يطلب المستحيل. ولأول مرة أخرج ألينجتون إلى العلن ما ظلت أسرة لورانس وأصدقائه يخفونه: أن لورانس كان ابناً غير شرعى لبارون أنجلو/أيرلندى يسمى تشابمان كان قد هرب مع مربية العائلة، وهجر زوجته وبناته الأربع واستقر بويلز ثم باكسفورد حيث نشأ “تد” (لورانس) وأشقائه الأربعة (كان السير توماس تشابمان قد غير اسمه قانونياً، وعُرف “تد” فى صباه حقيقة نسبة بما يضره هذا من ظلالٍ فروسيةٍ ومخزيةٍ فى آن).

وبعد ذلك بعقد من الزمان حينما وثقت صحيفة الصنداي تايمز ميول لورانس السابو/مازوكية الشاذة اتسعت الشروخ المعيبة لسمعته. وفى عام ١٩٧٧ كتب

الراحل هيو ترفور - روبر، المؤرخ باكسفورد (الذي يعتبر مقياسا موثوقا للتوجهات الأكاديمية في عصره) كتب مستخفا بلورانس بصفته أقل "المشعوزين والمحتالين" جانبية في ذلك القرن. رأى ترفور - روبر في مقاله بالنيويورك تايمز أن الأمر الذي لا يصديق هو نجاح ذلك، أي أن ثمة عقلاء فطنين أخذوا "نجالا علقا" على محمل الجد، نجالا سجله الحربى ملتبس مشبوه، تماما مثل طموحاته الأدبية، هكذا أكد ترفور- روبر.

لكن، وعلى الرغم من الوقائع التي فضح ألدنجنون أمرها، فإن التيار تحول مرة أخرى لصالح لورانس في المخيلة الشعبية. أظهر المخرج دافيدلين تعقيدات شخصية لورانس واستغلها دراميا في فيلمه المسمى "لورانس العرب" الذي حاز على الأوسكار، والذي جسّد فيه بيتر أوتويل شخصية لورانس بأسلوب لا يحى ذكره. ومنذ حرب الأيام الستة، ولدى كل انفجار للأحداث في الشرق الأوسط، يعيد المدنيون والجنود معا اكتشاف "الثورة العربية" من خلال الفيلم والكتاب. في ربيع ٢٠٠٥، كانت ذروة الموسم بلندن معرضا تفصيليا بعنوان "لورانس العرب: السيرة، الأسطورة" بمتحف الحرب الإمبريالي، رافقته سيرة تصويرية سخية، وبنفس العنوان، جمّعها مالكولم براون منتج البي بي سي. (بين الأشياء اللافتة في العرض، كان إكليل من البرونز وضعه القيصر ويلهم الثاني على قبر صلاح الدين بدمشق، واستولى عليه لورانس وأرسله إلى متحف الحرب ومعه تعليق بالقلم الرصاص: "انتزعته لأنه لم يعد يصلح لصلاح الدين"). كانت رسوم الدخول إلى المعرض ٧ جنيهات إسترليني، وبغ كل من مهاويس لورانس ٢٥ جنيتها إسترلينا لحضور منتدى ليوم واحد عنه. اكتملت احتفالية تالية لورانس بإعلان البي بي سي عن أنهم يعنون فيلما وثائقيا مهما آخر عن الكولونيل لورانس، فيما بُت العديد من القصص الإخبارية على جانبي الأطلس وتقارير تقول إن قوات التحالف في العراق يقرأون تأملاته عن التمرد، وعن الشراكة مع العرب ويتمنعون فيها!!!

بالإمكان فهم هذا الاهتمام المتجدد، وعلى الرغم أن لورانس كان غير تقليدى

كاستراتيجي إلا أنه من الصعب القول إنه كان نبّالاً. كان السير بازيل ليدل هارت، المحلل العسكري البريطاني الفذ (١٨٩٥-١٩٧٠) من أكثر المشاهير اللامعين الذي دافعوا عنه. كان قد حارب على الجبهة الغربية، ومن ثم غدا يبعث الأسلوب المتبدل لاستنزاف الدماء في الخنادق. وبعد الحرب، وفيما كان يعمل مراسلاً حربيًا للدليلى تلجراف، استرجع ليدل هارت إنجازات "القادة العظام" من أمثال چنكيز خان الذين اعتمد رُماتهم وهم يمتلكون الخيول على المفاجأة والحركة لسحق الأعداء الذين يفوقونهم عدداً. أصبح ليدل هارت من المناصرين المبكرين للحروب المميكة وطبق نظرياته بنجاح مفرط الجنرال هاينز جودريان من القوات الألمانية. انتهى ليدل هارت بعد أن درس كتاب "الثورة العربية للورانس" إلى أنها قلبت المبدأ العسكري التقليدي بأسلب حول ضعف العرب إلى قوة وقوة الأتراك إلى ضعف، لا تستطيع أية دولة محاربة خوض حرب برية دون أن تعتمد على خطوط السكك الحديدية من أجل الإمدادات، هكذا ذهب منطق، وتنبأ بأن ما فعله العرب أمس، من المحتمل أن تضطلع به غدا الطائرات والبيات ورجال حرب العصابات المتحركون.

حدث وأن كان ليدل هارت المحرر العسكري لدائرة المعارف البريطانية، وفي عام ١٩٢٧ حت لورانس على كتابة مدخل عن حرب العصابات. أجباه لورانس من الهند، حيث كان متموضعا كقنى طائرات فى سلاح الطيران الملكى، يعمل تحت اسم شو، واقترح عليه أن يجمع معا مجتذات ذات علاقة من "أعمدة الحكمة" ومن مقال له عن الثورة العربية كان قد نشر عام ١٩٢٠ بنورية أرمى كوارترلى. وهكذا فعل ليدل هارت، وضمت الطبعة الرابعة عشرة من دائرة المعارف البريطانية (١٩٢٩) تحليلاً مستقى من المصدر مباشرة عن الحرب غير النظامية. وتحت توقيع لورانس بالحروف الأولى "T.E.L." حينما يُقرأ اليوم، نجد به ترددات واضحة للمشاق التى يواجهها الأمريكيون بالعراق.

يرى لورانس أن التمرد بدأ عام ١٩١٦ بهجوم شنه رجال قبائل تعوزهم الخبرة على حامية تركية بالمدينة المنورة. فشل الهجوم وتمكن الأتراك من إرسال دعم للحامية بالقطارات من سوريا. ثم تمكن المحاربون العرب من الاستيلاء على مكة التي تقع على بعد ٢٥٠ ميل من المدينة. تقدمت بعض من القوات التركية، بعد أن تأخرت، لاسترداد مكة. وفي هذه الأوضاع، هكذا يكتب لورانس، فإن الجنود من جميع البلاد اعتمدوا فقط على النظاميين لكسب الحرب. كان الرأي العسكري مهووسا بمبدأ فوخ (المارشال الفرنسي فرديناند فوخ) بأن قاعدة الحرب الحديثة هي السعى إلى جيش العدو، مركز قوته، وتدميره في المعركة. وبما أنه لم يكن لغير النظاميين أن يهاجموا المواقع، فقد رأى أنهم غير قادرين على فرض القرار.

بعضى يقول في مقاله بالموسوعة إنه قد خطر للكاتب أن فاعلية غير النظاميين تمكن في (الضرب) في العمق، لا في المواجهة، وأن السبب في تردد العدو طويلا كان هو التهديد بحدوث هجوم على الجناح الشمالي للجيش. كان الجناح الفعلي التركي يمتد من خط الجبهة إلى المدينة، لمسافة تبلغ حوالي ٥٠ ميلا، لكن إذا تحركت القوات العربية شمالا باتجاه خط الحجاز الحديدي خلف المدينة، فقد يمتد هذا التهديد (ومعه جناح العدو) حتى يُحتمل له الوصول إلى دمشق.. كان لهذا التحرك الغريب مفعول السحر.

ظلت نصف القوة التركية بالمدينة المنورة وسيطرت عليها حتى الهدنة، فيما تم نشر بقية الجنود بمحاذاة خطوط السكك الحديدية في مواجهة رجال حرب العصابات العرب. وطوال المدة التي تبقت من الحرب، ظل الأتراك في وضع دفاعي وكسب رجال القبائل العرب الميزة بعد الميزة حتى أنهم، حينما حل السلام، كانوا قد أخذوا ٣٥٠٠٠ أسير تركي وأوقعوا مثلهم من القتلى والجرحى والمنهكين. واحتلوا ١٠٠٠٠٠ ميل مربع من أراضي العدو ولم يتكبدوا سوى خسائر قليلة.

وفي الواقع، فقد كانت الحسابات في صالح غير النظاميين. قدر لورانس أن المنطقة المتنازع عليها تتكون من حوالي ١٤٠٠٠٠ ميل مربع. وبنون شك، كان

بإمكان الأتراك الدفاع عن كل تلك المنطقة بحفر خندق لو أن العرب حاربوا كجيش نظامي بأعلام مرفرفة. لكن تخيل المتمردين وأنهم شيء أشيرى، شيء يتعذر إلحاق الضرر به أو إصابته، غير ملموس، نونما مقدمة أو مؤخرة، ينجر في الأنحاء كالغاز؛ كانت الجيوش كالنباتات، ثابتة كوحدة مكتملة، متجذرة بـرسوخ، تتغذى من خلال سيقانها الطويلة حتى الرأس. وكان العرب يماثلون البخار، يهبون موجحين ضرباتهم حيثما تخيروا. بدا وأن الجندي النظامي عاجز في عدم وجود هدف. بإمكانه أن يشعر أنه يمتلك الأرض التي يجلس عليها والهدف الذي يستطيع توجيهه بنقبيته إليه. وفقا لحسابات لورانس، كان الأتراك بحاجة إلى ٦٠٠٠٠ جندي ليتمكنوا من التعاطي بفاعلية مع هجمات الأعراب المحليين مجتمعة - لكن لم يكن لدى الأتراك سوى ١٠٠٠٠ رجل متاح. (قُدِّرَت مساحة العراق، على سبيل المقارنة بـ ١٦٩٢٤٩ ميل مربع).

أما عن الوضع القانوني لرجال حرب العصابات، فمن المجدي أن نضيف أن ذلك المقال الذي نشر في دائرة المعارف البريطانية سبقته فقرة بليغة محكمة كتبها السير توماس باركلي عضو الجمعية القانونية الدولية. أوجز الأحكام التي تم الاتفاق عليها في بروكسل عام ١٨٩٩ ولاحقاً عام ١٩٠٧ ونصت على أن غير النظاميين يستحقون الاعتراف بهم كمقاتلين شرعيين إذا كانوا يقاتلون تحت إمرة قائد، ويرتدون سمة مميزة، ويحملون الأسلحة علناً، ويعملون وفق قوانين الحرب. وفي حالة الغزو أو الاجتياح، فإن من يحملون السلاح تلقائياً "سوف ينظر إليهم على أنهم قوات مقاتلة إذا حملوا الأسلحة علناً واحترموا تقاليد الحرب وأعرافها، هذا على الرغم من أنهم قد لا يكون قد أُتيح لهم الوقت لتنظيم صفوفهم".

بيد أن سجل الحسابات هذا بحاجة إلى ترصيد وموازنة. إن استراتيجية لورانس هي صياغة لإنكار النصر، تنويع على القول المأثور أن رجال العصابات يكسبون إذا هم لم يخسروا، وتخسر الجيوش إذا لم تكسب. وفي الواقع، فقد

احتاج الأمر إلى جيش ألباني الضخم التقليدي في عامي ١٩١٧ - ١٩١٨ لاقتلاع القوات التركية والاستيلاء على القدس ودمشق، في وجود القوات غير النظامية تقرب بنور داعم. لم يكن لورانس جنديا محترفا، وكان يعمل ضابط علاقات استخباراتية مع العرب. لا كقائد أو استراتيجي كبير. استاء ضباط الجيش البريطاني الذين كانوا يتعاونون كفريق مع الضباط الأتراك الهاربين من الجيش، استاءوا من خص لورانس بالمدح المفرط لتدميره خطوط إمدادات الجيش التركي. كما عاب الأتراك الموالين عليه عدم اهتمامه الواضح بالضحايا المدنيين نتيجة منعه نقل شحنات الأطعمة والمواد الطبية إلى المدينة المنورة. أما ليدل هارت فيشك المرء أن تكريسه لمبدأ الحركة شكل بذرة المنظار الذي كان ينظر من خلاله إلى "الثورة العربية"، ورأى ما كان يرغب في رؤيته، (ومضى حتى وفاته عام ١٩٧٠ يدافع عن لورانس ضد جميع ناقديه).

إن النقاط الأكثر هشاشة وأكثر عرضة للتفنيد في عمل لورانس كمخطط استراتيجي تكمن في مجال أهداف ما بعد الحرب، ذلك المجال الرخو المطاط المليء بالسام. كان أحيانا يتحدث عن رجال حرب العصابات بصفتهم محاربين بارزين من أجل الحرية يقودهم أمراء مستثمرون سعوا إلى استعادة مجد بلاد العرب القديم بشراكة ودية مع البريطانيين. كان هذا هو البعد النفسي الذي أكد عليه في "أعمدة الحكمة" وعلق على رجال حرب العصابات بالقول "كانت عقولهم غريبة مظلمة، مليئة بحالات الاكتئاب والانتشاء، تعوزهم الأحكام والقواعد، لكنهم يفوقون أي أحد في العالم من حيث الحماس والولاء وخصوبة عقيدتهم. كانوا شعب بدايات فقط، الأفكار المجردة هي أقوى حوافزهم، يُبدون شجاعة بلا حدود وتنوعا أثناء المسيرة، لكنهم لا يكملون حتى النهايات ولا أهداف لهم". وباستثناء حديثه عن تقسيم المملكة العربية المستقبلية بين أبناء حسين، فليس ثمة إلمام في كتابات لورانس بما ستكون عليه تلك المملكة في المستقبل، أو أين تقع حدودها، أو ما سيحدث لأقلياتها الدينية والقبلية والإثنية كبيرة العدد. ومثل رجاله في حرب العصابات، كانت أفكار لورانس وخططه السياسية مجرد بخار.

أضيف إلى هذا قدر متعارض من البرجماتية الصلبة القاسية. كان، ومع معظم الضباط البريطانيين بمسرح الأحداث، يعارضون المخططات الفرنسية الكولونيالية بالنسبة لسوريا ولبنان. لكنه كان يعلم أن اتفاقية سايكس/بيكو سيئة السمعة لعام ١٩١٦ كانت بالفعل قد قسّمت أراضي الإمبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وكانت الشام من نصيب فرنسا. يعترف في "أعمدة الحكمة" بأنه كان منذ وقت مبكر قد أفشى سر وجود المعاهدة إلى الأمير فيصل، القائد العسكري للثورة، وحثه على أن يساعد البريطانيين لدرجة تجعلهم، بعد تحقق السلام، لا يستطيعون، خجلاً منه، أن يطلقوا عليه التيران كي ينقنوا بنود المعاهدة. ثم نراه، في كتابات أخرى، وهو يخاطب رؤسائه سرا، يكتب باحتقار متعالٍ عن العرب، كما جاء في ورقة استشارية كتبها لهيئة الأركان عام ١٩١٦ حيث قال "إذا تم التعاطي معهم كما ينبغي فسوف يظلون في حالة من الفسيفساء السياسي، نسيجا من الإمارات والولايات الصغيرة المتنافسة غير قادرين على التلاحم (وهذا هو الهدف)" (كتب هذه الجملة بأحرف مائلة على سبيل التوكيد).

وككل، فقد ترك لورانس وراءه كتابات محيرة مربكة. أحيانا نجده مدافعا تقليديا يتبنى المصالح الإمبريالية البريطانية، وأحيانا أخرى نجده على عكس ذلك مدافعا عن المقموعين، ويتوقف هذا على اللحظة التاريخية، النزوة، أو الظروف. تعبر عالمة النفس البريطانية كاثرين تيدريك عن إحباط شائع في دراستها عن المستعمرين البريطانيين عام ١٩٩٢، تكتب قائلة "لا يمتلك أي أحد منا اتساق الشخصية، تلك السمة التي نحب أن نعتقد أنها طبيعية معيارية. لكن يبدو هذا التوجه (عدم الاتساق) مبالغا فيه في شخصية لورانس. إنه حرباء متلونة متقلبة بما يفوق أي أحد منا، جزئيا بدافع فضوله عن نفسه وعن تأثيره فيمن حوله، وجزئيا لأن لم يكن بوسعهم سوى ذلك". لا يملك المرء أن يعجب ما إن كان لورانس الحقيقي قد تبلور وأصبح متسقا أبدا في سنوات نضجه!

وعلى الرغم من شخصيته المتلونة المتقلبة، فقد ترك لورانس بصمته المهمة على

السياسة. والفهم السبب، علينا أن نقدم رسماً تخطيطياً للمشهد. لدى اندلاع الحرب العظمى عام ١٩١٧، لم يكن سوى القليلين من النخبة الحاكمة يملكون خبرة واقعية مباشرة عن الشرق الأوسط العثماني. كان بين هؤلاء السير مارك سايكس عضو البرلمان المداهن المتعلق، وعضو آخر ماهر بالبرلمان هو المحترم أوبري هيربرت؛ والسير رولاند ستورز المثقف سريع البديهة والذي كان يحتل منصب وزير شؤون المشرق بالقاهرة، وچرترود بل والتي كانت قد أصبحت بالفعل شخصية بارزة في مجال الدراسات العربية؛ واللورد كيتشنر بطل أم درمان الذي ترك منصبه كبروفيسور بريطاني في مصر ليتأسس مكتب الحرب (وزارة الحرب) بلندن.

كان هؤلاء هم من كان يطلق عليهم "المشرقيين"، وكان دورهم مفصلياً إذ كان عليهم عكس استراتيجية بريطانيا تجاه الإمبراطورية التركية متعددة الإثنيات تلك الاستراتيجية التي ظلت تتأمرس لمدة قرن من الزمان. كانت السياسة الإمبريالية البريطانية التي ظلت راسخة لمدة طويلة هي الحفاظ على سلامة آسيا العثمانية لأسباب واقعية - حماية الطرق المؤدية للهند، كبح جماح توسع روسيا باتجاه الشرق، وتعزيز التبادل التجاري حتى فيما أصابت الإمبراطورية التركية الشيخوخة والوهن. لكن، ومنذ اللحظة الطائشة التي تخلت فيها تركيا عن حياها لتتحالف مع ألمانيا في أواخر عام ١٩١٤، تحدى "المشرقيون" تلك السياسة التقليدية.

لكن حتى قبل دخول تركيا، رسمياً، الحرب، كان الشريف حسين، راعي مكة، وحاكم الحجاز، قد كتب خطاباً في سبتمبر ١٩١٤، إلى كيتشنر وزير الحرب البريطاني، يقترح فيه أن العرب بإمكانهم مساعدة الحلفاء بغالعية. أتت إجابة كيتشنر في أكتوبر، والتي ربما كان ستورز هو من صاغها، مرحبة أشد الترحيب "ظللنا حتى اللحظة ندافع عن الإسلام ونؤازره في شخص الأتراك: لكن من الآن فصاعداً (سنفعل ذلك) في شخص العرب النبلاء. ربما يتولى عربي أصيل الخلافة في مكة والمدينة، ومن ثم، قد ينجم الخير، بعون الله، من كل هذا الشر القائم الآن".

(كان السلاطين العثمانيون قد تولوا منصب الخلافة بعد أن غزت تركيا بلاد العرب في القرن السادس عشر، وكان الخليفة هو أسمى منصب روحاني، وكان العرب قد سعوا منذ وقت طويل، إلى عودة نظام الخلافة).

كان لدى مارك سايكس، وبدرجة أقوى من غيره، موهبة، استبصار مغزى تلك التوجهات والتغيرات المتقلبة، من ثم أسرُّ إلى صديقه أوبري هيربرت ذى الصلات الجيدة، ونجل إيرل كارنارفون بما يرى أن على البريطانيين فعله من أجل اغتنام الفرص:

"إن بنى صدر هم من علينا أن نجتذبهم إلى صفوفنا. إنهم بنو صحراويون ويكرهون الأتراك من أعماقهم. بيد أن عليهم هم أن يأتوا إلينا، لا العكس. وعلينا أن نقيم قاعدة في العقبة ونعين بها ضابط استخبارات له سلطات واسعة.. على ضابط الاستخبارات هذا أن يستشف أفكارهم - عليه أيضا أن يعرف ما إن كان بنو صدر على استعداد للصلح مع النورث. ثم يعرض عليهم أثمانا عالية مبالغا فيها نظير الجمال، ولنقل ما بين خمسين وستين جنيها إسترلينا عن الناقة الواحدة، ثم مكافآت (لتخريب) أعمدة التلغرافات، ٢ فرنك عن كل عامود، ثم مكافآت عن أعمال تدمير خط الحجاز الحديدي، وأثمان مرتفعة نظير مدافع موزر التركية، ومبالغ تدفع للهاربين من الجيش التركي - سيتولى بنو صدر تلك الأمور كلها كما يجب^(١)."

ثمة ما يُقال في صالح سايكس إلى جانب نوره في معاهدة سايكس/ بيكو المُدانة على نطاق واسع. لقد كان صديقا للحركات القومية - العربية، الصهيونية، والأرمنية - وكان هو صاحب فكرة إقامة "المكتب العربي"^(٢) بالقاهرة الذي كان تى. إى. لورانس بطل العملاء به. كان سايكس، قد ثنبا في خطابه إلى أوبري هيربرت، وبأسلوب يدعو للاستغراب، بالمسار الذي ستتبعه الثورة العربية (التي كان

(١) الأرجح أنه كان يقصد بنى صغرى، لا بنى صدر، وهذا منطلق من الناحية الجغرافية.

(المؤلفان)

(٢) مكتب استخباراتى للتجسس. (الترجمة)

هو قد صمم لها علمها). دعا، جوهرها، إلى دعم سخي للانتفاضة القومية، وإلى تقديم حوافز مالية للمتحررين، وإلى تخريب خطوط السكك الحديدية التركية، والاستيلاء على ميناء العقبة ثم استخدامه قاعدة، وفي تلك الأثناء، يتم الاعتماد على العملاء البريطانيين لإنشاء روابط مع البدو الرحل، أو العرب النبلاء الخالصين- أي الأعمدة السبعة جميعها تقريبا، لخطة لورانس، مع عدم اهتمام مماثل بما قد يحدث بعد ذلك.

في ذاك اليوم من شهر أغسطس الذي دخلت فيه بريطانيا الحرب كان لورانس موجودا بإنجلترا ومعه عالم الحفريات لينارد وولي، لإكمال مسحهما المشترك لشبه جزيرة سيناء، لحساب "صندوق استكشاف فلسطين"^(١). كان لورانس آنذاك قد قضى أربعة فصول مع وولي يعملان على حفريات لإحدى المدن الحيثية على شاطئ الفرات (موقع الحدود السورية التركية الآن) وكان يعلم مواقع المنطقة وتضاريسها، وفي غضون أسابيع كان قد استلم منصبا بالقسم الجغرافي بوزارة الحرب، ثم في ٢٦ أكتوبر تم تقيده رتبة ملازم ثانٍ. بعد ثلاثة أيام، وفيما أعلنت تركيا الحرب رسميا، توجهت قوة مهام أنجلو/هندية إلى ما بين الرافدين. وبعد أن احتلوا البصرة، بدأ الغزاة في التحرك أعلى النهر باتجاه بغداد، أول هجوم في العملية التي سرعان ما أطلق عليها المقاتلون مسرح ما بين النهرين Mesopot Theater.

أُرسل لورانس، في شهر ديسمبر، إلى مصر حيث انضم إلى وحدة الاستخبارات التي يرأسها الكولونيل المجرّب جيلبرت كلايتون، وكانت تلك هي الشرقة التي خرج منها فيما بعد "المكتب العربي Arab Bureau" الشهير. كتب مؤرخ المكتب، بروس وسترايت يقول إن لورانس اندفع فجأة إلى القاهرة بحماس

(١) لخدمة المشروع الصهيوني (الترجمة).

يفوق توقعات رتبته "استغرق باستماتة في دور الشخص المزعج الخارج على الجماعة- مضى يلوى قواعد العمل الرسمي الرصينة المبجلة كلما سنحت له الفرصة". أسمى هو وزملاؤه أنفسهم "المقتحمين Intrusives" وكان هذا هو الاسم الكودي للتغرافي المقرر العام للاستخبارات. فيما بعد كتب لورانس يقول في هذا الصدد "كان مقصدنا هو اقتحام صروح السياسة البريطانية التقليدية، وتشكيل شعب جديد في الشرق". كان بين الوافدين الجدد لينارد وولي، أوبري هيربرت، وفليب جريفر (مراسل التاييمز المتحدث بعدة لغات). ثم زارتهم فيما بعد چرتروود بل، "المقتمة" الأنثى الوحيدة. اتخذوا من فندق السافوي، الذي كان ييكوره مزيجا من الموتيغات الشرقية والغربية، عريضا لهم، وكان يؤم باره العسكريون من مختلف الرتب.

أثناء عام ١٩١٥ بدت جبهة الشرق الأوسط وأنها تمر بالتوقعات. في إبريل انضمت إلى المتطوعين من أستراليا ونيوزيلاندة تحت القيادة البريطانية قوة فرنسية من أجل بدء هجوم دام عشرة أشهر على غليبولي، تلك المحاولة المجهضة لإخراج تركيا من الحرب. في بلاد الرافدين، توقع جيش أنجلو/ هندي مستعدا، بقيادة الماچور جنرال السير تشارلس تاونسند، لهجوم خانق شامل للاستيلاء على بغداد. في تلك الأثناء، كان الملازم لورانس يجلس على مكتبه، بصفتة محلل خرائط، ومستجوبا للأسرى. بدأ نافذ الصبر قائم المزاج بسبب المنبحة التي حدثت بفرنسا وكان بين ضحاياها شقيقه الأكبر فرانك، والأصغر ويل. في نوفمبر، كتب لأسرته خطابا يقول فيه "لا يبدو من الصواب، بأسلوب ما، أن أمضى أميش في سلام بالقاهرة. بيد أنه كان ثمة تبادل للخطابات أثناء الحرب، هو الأكثر إثارة للفضول والجدل حتى الآن، والذي أدى إلى إرسال لورانس إلى بلاد العرب دونما تخطيط، وتبتيته هناك.

أتت المبادرة من حسين شريف مكة بالورثة والذي كتب إلى السير هنري

مكماهون المنوب السامى البريطانى بمصر، يقترح فيه القيام بـ "عملية مشتركة" نظير اعتراف بريطانيا باستقلال "الامة العربية جمعاء". التَّكْطُ عرضه، أُضيفت إليه التفاصيل، وُضِعَتْ له شروط، وأعيد تعريفه بأسلوب مُلتبسٍ فى مراسلات سرية استمرت حتى مارس ١٩١٦، مؤلدة جدلا خلافيا مازال قائما حول من وعد ماذا ولئن. تزامن ذلك التبادل مع مفاوضات سايكس بيكو السرية مع فرنسا أولا، ثم مع روسيا حول تقسيم الفنائم العثمانية بعد الحرب. كان ثمة تناقض واضح فى المغزى، إن لم يكن فى المحتوى الحرفى، بين اتفاقية سايكس بيكو والرسائل المتبادلة بين مكماهون وحسين. وعلى الرغم من ذلك، وكما تُذكرنا المؤرخة إليزابث مونرو، لم يبدُ الفرق كبيرا آنذاك، إذ إن "عام ١٩١٦، كان آخر أعوام العالم القديم المألوف للإمبراطوريات سليمة الوجود، للخطابات المتبادلة بين الشخصيات المختلفة، للاتفاقيات السرية التى يتم التوصل إليها فى الخفاء، وللتعاطى مع جميع السكان المختلفين وكأنهم ملكيات منقولة وعبيد. كان أيضا العام الأخير لغياب النقد من قبل الحلفاء المعادين للإمبريالية".

كان ذاك هو المشهد فى يناير ١٩١٦ حينما، وبمبادرة من سايكس، ومعارضة قوية من اللورد تشارلس هاردينج نائب الملك بالهند، حينما وافقت هيئة من مختلف النواثر والأقسام على إنشاء مكتب عربى بالقاهرة. لكن بحلول الربيع، كان الحماس قد فتر بالقاهرة. انهارت حملة غليبولى وفشلت، وأجبرت قوة تاونسند الأنجلو/ هندية، بعد أن كادت تصل إلى أبواب بغداد، على الانسحاب إلى مدينة الكوت الصغيرة الواقعة على شاطئ النهر. وفى الكوت، عاش حوالى ١٣٠٠٠ جندي، ومعهم مدنيون غير مقاتلين على حصص طعام مقننة شحيحة وسط العرب المتمللمين، بانتظار قوة الإغاثة المرتقبة التى لم تصل. وفى لندن، سعت حكومة الائتلاف المتملمة، وقد واجهتها الخسائر على جميع الجبهات، إلى عقد صفقة لإخراج القوات من مدينة الكوت. ولتحقيق هذا، تم إرسال لورانس إلى بلاد

الرافدين، وكانت تلك أولى مهامه الميدانية، حيث ذهب إلى هناك بزعم إعطاء المشورة حول الرقابة الجوية، فيما كانت حقيقة مهمته هي المساعدة على دفع فدية نظير إطلاق سراح الجنود المحاصرين. بمجرد وصوله إلى البصرة، انضم إلى أوبري هيربرت الذي كانت رئاسة مجلس الوزراء البريطاني قد فوضته في تقديم مليون جنيه إسترليني (تضاعف هذا المبلغ فيما بعد) إلى خليل باشا القائد التركي نظير رفع الحصار عن القوات. تجاهل الجنرال العثماني بعجرفة عرض الفدية قائلا إنه لن يوافق إلا على تبادل الأسرى الجرحى وعلى شروط متساهلة لاستسلام الجنرال تاونسند (وكلية). وبعد ١٤٧ يوم، اقتيد ١٣٠٠٠ جندي معظمهم من الهنود، ومن غير المقاتلين كآسرى حرب: لم يتبق منهم على قيد الحياة بعد الحرب سوى حوالي ربعهم.

ساعدت هذه المهمة على تشكيل لورانس، أتاحت له إطلالة مباشرة على الجيش التركي وقادته، وأيضاً على قوة المهمات الأنجلو/هندية (لفت نظره ما بدا وأنه نفور الهنود من العرب). التقى بالبصرة باللاعبين السياسيين البريطانيين الرئيسيين، ومن بينهم السير بيرسي كوكس المسئول السياسي البريطاني رفيع المستوى في بلاد الرافدين. لكن وبشكل أعم، كانت مهمته إيذاً بالجانب الأكثر فظاظة من الاستراتيجية البريطانية، اعتمادها على الذهب كطعم ورافعة.

بحلول ربيع ١٩١٦، كان صناع سياسة الشرق الأوسط برئاسة أعضاء مجلس الوزراء البريطاني، قد اتفقوا على الخطوط العريضة لما شعروا بأنه الطريق الصائب إلى الأمام. ورغم حواشيها غير المصقولة كانت صفقة ما بعد الحرب لتقسيم الإمبراطورية العثمانية - سايكس/بيكو - قد عُقدت مع فرنسا وروسيا. كُشِفَ عن فحواها، لا عن تفاصيلها، لكبار المسئولين البريطانيين بمصر. كان المكتب العربي الوليد بالقاهرة قد اكتسب هيكله وحصل على هيئة العاملين به. أما

الشريف حسين، فقد أعلن بدء الثورة العربية في مايو ١٩١٦، عملاً بالوعود شديدة الحذر من مكماهون، المندوب السامي البريطاني. ونتيجة لحفز أبناء حسين الأربعة - فيصل، عبدالله، علي وزيد - استولى آلاف المقاتلين غير النظاميين العرب على مكة، رايغ، الليث، الطائف وينبع، لكن المدينة المنورة صمدت. وبحلول الخريف كانت الثورة قد توقفت. لم يكن لدى محاربي العصابات سلسلة قيادة، أما بالنسبة لمستشاري الثورة البريطانيين فقد رأوا أن هؤلاء الأعراب لا يتعدون مجموعة من الفوغاء غير المنظمين. خشي رؤساء الاستخبارات بالقاهرة من أن الانتفاضة قد فشلت. لكن ليس لورانس، الذي كان، ومنذ البداية، يعتقد في الحركة العربية القومية، وكما تذكر لاحقاً فقد كان "واثقاً، قيل أن أحضر، أنها كانت فكرة لتعزيز تركيا إرباً، لكن الآخرين بالقاهرة، كانت تعوزهم الثقة، ولم يكونوا قد تعلموا شيئاً على أي قدر من النكاء عن العرب في الميدان". وفي أكتوبر، وبعد أن علم أن رونالدستورز كان ذاهباً إلى جدة، حصل لورانس الذي كان مازال لديه عشرة أيام رصيда من إجازته، على إذن بالذهاب هناك، للقاءه ولتقييم قادة التمرد، بالمرّة. استمع لورانس، وهو على ظهر الباخرة لورا في الطريق إلى جدة، إلى ستورز (الذي كان يتحدث الألمانية، الفرنسية والعربية) وهو يناقش فن الموسيقيين دوبروس وشاجنر مع عزيز المصري، الضابط التركي الهارب والذي كان آنذاك قد أصبح قائداً في جيش الأشراف (كما كان رعاة الجيش بمصر يسمونه). وفي جدة، التقى لورانس أولاً بالأمير عبدالله الذي وصل إلى القنصلية البريطانية منتظلاً فرساً بيضاء ويرفقه دسنة من العبيد المسلحين. لم يترك عبدالله انطباعاً حسناً على لورانس. بدا له، وكان في الخامسة والثلاثين، مفرط السمرة وقصر القامة، مفرط الطموج بشكل واضح "مفرط الاتزان ورياسة الجأش"، ذا حس فكاهي مفرط، بدرجة لا يصلح معها نبياً!!". وعلى الرغم من ذلك، تمكن ستورز، بموافقة الأمير، من إقناع الشريف حسين الممانع (عبر الهاتف إلى مكة) بأن يسمح للورانس

بتوسيع نطاق رحلته. وفي رابع، تفحص لورانس الأمير على ووجده جنتلمان لطيفا، حتى الضمير، تعوزه قوة الشخصية، متوترا، يبدو تعباً. ويعدده الأمير زيد الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة، خجول أجرد ليس هو القائد بالسليقة الذي أسعى إليه، بدرجة أقل حتى من عبدالله.

وفي النهاية، تعرّف لورانس، بقرية الحمراء غير مميزة الملامح والتي لا يتجاوز عدد منازلها المائة، على شخص في ثياب بيضاء، كان يترقب مقدمه متوترا شعرت من اللحظة الأولى أن ذاك كان هو الرجل الذي قُدمتُ إلى بلاد العرب سعيا إليه - القائد الذي سيأتي بالثورة العربية إلى مجدها الكامل. بدا فيصل فارّه الطول يماثل العمود، شديد النحافة، يرتدى ثيابا حريرية بيضاء، ويثبت غترته البنية بعقال قرمزي ونهبي متألّق. كانت جفناه مسدلتين، ولحيته السوداء ووجهه الشاحب قناعا بالتقابل مع يقظة جسده الغريب الساكن. كانت يدها متقاطعتين أمامه على راحته. كان من العوامل المساعدة أن فيصل الذي كان في الثالثة والثلاثين قد درس بالآستانة وكان يتحدث اللغات الأوربية وبدا غير متعصب دينيا. شعر لورانس أنه، في شخص فيصل، فقد تم تقديم نبى إلى الأيدي البريطانية التي يجب أن تكون كبيرة بما يكفي لتلقيه، القائد الذي سيمنح الثورة العربية شكلها: لقد كان هذا كل ما تمنيناه بل وأكثر منه، أكثر بكثير مما تستحقه مسيرتنا المتوقفة. لقد أنجز هدف رحلتي.

لكن، وبمرور الوقت، سيمضى لورانس يبدى نفس الثقة العظمى الذاتية في القضية العربية - وفي قدرته على التأثير في فيصل - الأمر الذي أدى به في النهاية إلى مقارنة نفسه، ككاتب، بثلستوى، بل إنه من الأمور الأكثر بعتا للدهشة، فقد أقنع، بأسلوب ما، رؤسائه، الأقل منه خيالا وأكثر واقعية أن يعملوا وفقا لحذسه وإلهامه. في العامين التاليين، راهن البريطانيون، فعليا، بمليارات الدولارات بقيمة اليوم، على احتمالات تحيطها المخاطر في سبيل قضيت، وإقامة سلالة ملكية حاكمة، لم يعرفوا عنها، أو عن أفرادها، سوى القليل نسبيا.

من الصعب المبالغة في أهمية "الإعانات المالية"، ذلك التعبير الرسمي الذى كان يُستخدم مجازاً عن السبائك والجنبيئات الذهبية التى استُخدمت لضمان ولاء الشريف حسين، وأتباعه القليلين. أُورد برووس وسترايت، باستنادٍ إلى سجلات بريطانية عن تاريخ "المكتب العربى" ظلت سرية لوقت طويل قبل الإفراج عنها، أُورد تفاصيل المبالغ التى نُفعت بدما بالعشرين ألف جنيه إسترليني التى تسلمها حسين كقسط استهلاكي، والتى تضخمت لتصبح ١٢٥٠٠٠ جنيه إسترليني معونة تدفع شهرياً، ومعها منح مالية متكررة من الجنرال السير فرانسيس ريناد وينجيت سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان. (حدث فى إحدى المرات أن منحه وينجيت ٣٧٥٠٠٠ جنيه إسترليني لتغطية نفقات الحج). وبالرغم من ذلك، اشتكى شريف مكة من أنه مازال بحاجة إلى ٧٥٠٠٠ جنيه إسترليني إضافي كل شهر تم منحها إياها على مضض وذلك لأن (وفق ما قاله وسترايت) "المستولون البريطانيون كانوا يعلمون أن معظم الذهب قد اختفى ببساطة، وتُرك رجال العشائر المتملكين دون استلام حصصهم من النقود لأشهر عديدة".

كان نقل هذا الذهب إنجازاً لوچستيا. كان ويندهام بيدز أحد خريجي كلية إيتون القدامى، والجندى السابق فى فرقة الرماة الملكية، الذى خدم بعد ذلك فى الدرك العثماني، هو من يتولى شأن الإعداد للنقل. كان يقضى أيام السبت (وفقاً لما وجدته دافيد فرومكين أثناء إجراء أبحاثه لكتابه "السلام الذى أنهى كل سلام") يعبئ الجنبيئات الإنجليزية الذهبية فى صناديق الخراطيش، ثم يشرف على تمويهها فى أخراج الإبل المتجهة إلى الجزيرة العربية. أثبت لورانس أنه كان محاسباً لا مبالٍ. حدث ذات مرة، وبونما تفويض من أحد، أن نقل ٢٥٠٠٠ جنيه من الذهب من العقبة، وأرسلها إلى الأمير الخطأ الذى كان قد تسلم بالفعل مبلغاً مماثلاً من القاهرة. لا غرو إذن أنه، وبعد مرور نصف قرن، حينما سُئل شيخ بدوى عما إن كان قد عرف لورانس، أجاب مبتسماً "كان هو الرجل الذى ليه الذهب".

تتعارض صورة لورانس كصراف مع لورانس الذي كان يسرف في الثناء على وحشية الببو النبيلة. وبشهادة شبه إجماعية، فقد كان لورانس يتعامل مع العرب باحترام وتماهٍ، واكتسب ثقتهم. وعلى الرغم من ذلك، فقد لوّث الذهب علاقتهم، وليس ثمة شاهد على ذلك أفضل من الملك الذي اختاره لورانس، حيث حذر الملك فيصل وهو يتحدث عام ١٩٢٠ إلى الكابتن جون باجوت جلوب (جلوب باشا في المستقبل) قائلاً: "بالإمكان استثارة الببو لفعل أي شيء في سبيل الشرف، لكن بمجرد أن تمنحهم الأموال، تنخفض النغمة الأخلاقية لعلاقتك بهم". وبأسلوب أعم، اصطنع لورانس فسيغفساء من الأوهام الرومانسية عن الحركة العربية، رعاها واحتفى بها. في فقرة كاشفة بأعمدة الحكمة يصف لورانس مارك سايكس بصفته "مدافعا خياليا عن الحركات العالمية غير المُقنعة" ويأته "حزمة من التحيزات، والبدعيات الهندسية، وأنصاف العلوم" وأن أفكاره متقلبة لأنه يعوزه الصبر لاختبار المواد قبل اختيار أسلوبه للبناء. لكن إذا أضفنا إلى ذلك درهماً من العبقرية، يمكن لهذا المزيج أن يكون وصفاً جيداً للورانس نفسه.

لنأخذ، على سبيل المثال، رواية لورانس في أعمدة الحكمة السبعة عن الاستيلاء على دمشق في أكتوبر ١٩١٨، أو الخاتمة العسكرية للثورة العربية. كان هجوم اللبني الهائل الشامل الذي كان رأس حربه قوات الأتراك الأسترالية/ النيوزيلاندية بقيادة الجنرال الأسترالي السير هنري تشوفل، كان هو ما جعل النصر ممكناً. كما سهّل حدوث الانتصار الرحيل المفاجئ لمسؤولي المدينة الأتراك، الذين أنهوا بذلك بأسلوب مخزٍ أربعة قرون من الحكم العثماني. لكننا نجد في "أعمدة الحكمة" أن الأشراف هم من يهيمنون على الدراما. يُستقيل فيصل بهتافات مدوية، ويتظاهر ومعه لورانس بأنهما صديقا حينما يُخبران أن بريطانيا قد وعدت سوريا للفرنسيين وفقاً لمعاهدة سايكس بيكو، ويأتهما يجهلان المعاهدة تماماً. وكما اعترف لورانس بصراحة، فقد كان أعمدة الحكمة "سردا شخصيا تم تجميعه من الذاكرة" بعد

سنوات من الأحداث التي رواها. اعترف لورنس في خطاب له إلى مؤرخ سيرته روبرت جرايغر بأنه كان "في وضع مخاطرة حينما كتبتُ الفصل الخاص بدمشق" الذي كان "مليئاً بأنصاف الحقائق". وكمثال على أنصاف الحقائق تلك، إلقاء مسؤولية تدمير المستشفى العسكري التركي ونهبه على المغيرين من الجزائريين، أو الدروز المجانين الذين قيل إنهم ارتكبوا تلك الأعمال الفوضوية.

تصادف حضور شخص أمريكي: ويليام بيل التنفيذي في شركة النفط والذي تحول إلى دبلوماسي في الشرق الأوسط (مسرح عسكري كانت الولايات المتحدة محايدة فيه لأنها لم تكن قد أعلنت الحرب على تركيا). رُوِّع بيل لما رأى أنه تدمير شأري قام به البدو العرب للمستشفى. في عام ١٩٦٦ حينما حاوره الدكتور جون إي. مالك، المحلل النفسي بجامعة هارفارد وأحد مؤرخي لورانس، تذكر بيل أنه احتج لدى السلطات البريطانية التي أبلغته "ألا يتدخل فيما لا يعنيه لأنه ليس جندياً".

ثمة كثير من الأدلة على أن البدو اشتركوا بنشاط في أعمال النهب التي تلت الغزو، وأن جنود الأشراف غير النظاميين لم "يُحرروا" دمشق، وأن معاهدة سايكس/بيكو كادت ألا تكون سرا - نشر البلشفيك في روسيا نصّها كاملاً قبل ذلك بعام - وأن استقبال فيصل كان فاتراً في أحسن الأحوال. بالإمكان استدعاء شاهدين مُصنّقين. كان ألك كيركبرايد ملازماً بالجيش البريطاني يتحدث العربية وكان قد وصل إلى دمشق في معية محاربي فيصل غير النظاميين. أدهشه الاستقبال البارد للمطالب الهاشمي بالعرش: "لم يكن ثمة هتافات أو مظاهر للفرح، تلك الأمور التي قد يتوقعها المرء من سكان يُفترض أنهم في مسيرة للتحرير.. شعرت بقدر من الألم لغياب الحماس الشعبي".

انضم كيركبرايد إلى لورانس حيث وجد أن لغته العربية فصيحة وإن كانت نبرتها أجنبية واضحة ("كان يشقى أصله في اللحظة التي يتحدث فيها"). ويضيف في تعليق آخر (مخالف لتصوير بيتر أوتول الدموي لشخصية لورانس):

كانت ميوله أبعد ما تكون عن التعطش للدماء، بدأ وقد أصابته صدمة حقيقية من استخدامى الدائم لمسدى أثناء المساء الذى أعقب دخولنا دمشق.. لابد وأننا بنونا شخصين غير متسقين، كان هو قصيرا فى رداء عربى، لا يعمل سلاحا باستثناء رمح للزينة، وكنت أنا طويلا هزيلا يتدلى من ملايسى مسدس خدمة ضخم. حينما كنا نجد أى أحد ينبج الأتراك كان يذهب إليهم ويسألهم (أن يتوقفوا) بصوت رقيق، فيما كنتُ أنا أفق ألوح بمسدسى. وبين حين وآخر كان أحدهم يتصرف بعذوانية (أى الأتراك) وكنت أطلق عليه الرصاص على الفور قبل أن تنتشر أعمال الشغب. كان لورانس يملكه الغضب ويقول "توقف عن تلك الدموية بحق الإله".

يضيف كيركبرايد أن المشكلة تمثلت فى أن العثمانيين الهاربين خلفوا وراهم فراغا وكان ثمة ندرة فى قوات الاحتلال: يكتب قائلاً إن الشرطة الدمشقية كانت قد توقفت عن العمل وكانت ثمة معارضة سياسة لاستدعاء القوات البريطانية التى كانت تعسكر على تخوم المدينة لدخولها لأن ذلك كان يعنى الاعتراف بأن الإدارة العربية الجديدة كانت عاجزة عن التحكم فى أناسها".

أما الشاهد الثانى فهو بدر الدين صلاح، الذى كان قد ظل طويلا كبير طائفة التجار بالمدينة، وعثر عليه الكاتب الأمريكى ميلتون فيورست وحاوره، وكان قد بلغ الرابعة والثمانين. قال إنه كان فى الثالثة عشرة حينما وصلت قافلة فيصل:

"كان معظم الأهالى مشغوفين مرتيكن. لم يكن سوى القليل من القوميين. كان شبابنا مازالوا يحاربون فى صفوف الجيش العثماني. رحبت الجماهير بفصل لكن ليس بدافع الوطنية بل لأنهم أملوا أن التحرير سيضع نهاية لمعاناتنا زمن الحرب. كانت مشاعرنا متناقضة تجاه العثمانيين. لم تكن نعتبرهم قوة استعمارية لأنهم كانوا مسلمين مثلنا، وكنا نعتمد عليهم ليحمونا ضد روسيا القيصرية والعلمانية الأوربية. لكن حكمهم لنا كان سيئا. كان معظم شعبنا فقراء ولم يكن يوجد سوى حفنة من المتعلمين، غالبيتهم فى مدارس إسلامية. كان من المثير للأسى أنه فيما كانت أوروبا تمشى عصرا نهيبا كانت الحياة كئيبة قاسية فى سوريا.. اعتقد غالبية الناس أن الوقت قد حان لبداية جديدة. ولهذا كان الترحيب والفرح".

تتوافق رواية بدر الدين مع ما قاله الراحل ألبرت حوراني الأكاديمي البارز بجامعة أكسفورد ذو الأصول اللبنانية المسيحية والذي كان والده يعرف لورانس. رأى حوراني أن ثلاث مجموعات فقط ذات مصالح جد مختلفة دعمت الثورة العربية: "أولا، كان ثمة مجموعة صغيرة جدا غالبيتها من السوريين ومعهم بعض العراقيين. كان هؤلاء قوميين وكانت غالبيتهم جنوداً في الجيش العثماني، أو مسئولين. ثانيا، الهاشميون، الشريف حسين من مكة وأبناؤه. وثالثا، الحكومة البريطانية". كان لكل مجموعة أجندة مختلفة، وكانت كل منها لا تتق في الأحزاب، ولم يكن لأياها أتباع من أهالي البلد الأصليين، وطوال الحرب، فكرت كل منها جديا (بما في هذا البريطانيون) في عقد سلام منفرد مع العثمانيين. الحقيقة اللافتة هي أن لورانس تمكن من إضرام نار من تلك الجذوة شبه الخاملة - هذا على الرغم من حكمه المعيب على الهاشميين. برهنت الأحداث على أن الشريف لم يكن بأي معيار صنواً لمنافسه العربي الرئيسي عبدالعزيز عبدالرحمن بن سعود، الذي وحد المملكة التي تحمل اسم عائلته وأسسها (والذي أطاح بحكم حسين في الحجاز موطنه ومواطن أجداده). وكما أثبتت الأحداث أيضا، فإن الثورة العربية لم تنبثق عن حركة قومية ذات قاعدة عريضة، بل برهنت (وفق التعبير اللاحق لأحد وزراء الخارجية المصريين) على أنها تحالف لقبائل تحمل أعلاما (وحتى الأعلام كانت من تصميم الأجانب). وعلى الرغم من ذلك، فإن تأثير لورانس وسحره الشخصي لم يكن لافتا فقط، بل استثنائياً أيضا. وفي هذا قدر من التفسير لإغرائه الذي مازال قائما مستمرا. كتب حوراني قائلا: "لم يعتقد أحد من كل الذين قابلوه، حتى هؤلاء الذين التقوه قبل ١٩١٤، أنه كان يماثل الرجال العاديين، وهذه حقيقة علينا أن نتذكرها عنه". وجده المبجل أوبري هيربرت، وكان حكماً لازعا، بعد لقائه الأول به عام ١٩١٦ "عفريتا، قزما غريباً، نصف وغد - به لسة من العبقريّة".

تبنت تلك العبقريّة الشاذة في أعقاب "انسحاب" لورانس المفترض من الحياة

العامه سنة ١٩٢٢. كان آنذاك قد ساعد فى التنسيق لاندلاع انتفاضة من رجال حرب العصابات، وكان قد دعم بشرف الأمير فيصل فى مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩، وقدم أيضا، بصفته مستشار تشرشل المختار، بعد ذلك بعام، المساعدة الحاسمة لضمّان صعود الملكين الهاشميين إلى عرش العراق وشرق الأردن (أيضا، حاول بدون قدر كبير من النجاح، أن يتقبل القادة العرب إنشاء "وطن قومي" صهيوني فى فلسطين). لدى عودته إلى إنجلترا، انتُخب لورانس زميلا بكلية أول سولز All Souls باكسفورد، وبدأ فى كتابة ما أُمِّل أن تكون رائعة تناظر أعمالا مثل "الحرب والسلام"، "مويى ديك" و"الإخوة كرامازوف".

ولتحقيق هذا الهدف التقى لورانس بشو. هاردى، وفورستر، وكيبيلنج، أو تراسل معهم أوصادقهم؛ وأيضا بأصوات مميزة قيمة، قديمة وحديثة، مثل تشارلس مونتاجو داوتى، مؤلف "الصحراء العربية Arabia Deserta" المجلد، وفرانسيس بيتس براون الرّمّاح البنغالى الذى حققت مؤلفاته أعلى المبيعات؛ ومعهم مواهب بارزة مصقولة مثل دايفيد جارنت، وروبرت جرايفز (كاتب سيرته الأول). كان أيضا ملّما بأسماء كل الحداثيين فى الفنون جميعها. خلط تحت مقاطع من قصيدة تى. إس. إليوت "الأرض اليباب" واقتنى أعمال جيمس جويس جزما جزما، وأثنى بإفراط فى مقاله بدوريه Spectator كتبه باسم مستعار على روايات دى إيتش. لورانس الإبداعية. يعلق الناقدان الأمريكان ستانلى وروبل وينتراوب بقولهما "من الجلى أنه كان يحب التمهّل فى اختيار النعوت المميّزة، وتُمتعه التغيرات الأسلوبية، الأمر الذى كان لابد وأن يُنهك صبر الكاتب ذى الخبرة".

ثم تلى ذلك الفصل الثانى - بل الثالث فى الواقع- الذى لم يكن بوسع أى كاتب مسرحى أن يصنع حيكته. فى يناير ١٩٥٢ كتب خطابا إلى المارشال الجوى السير هيو ترنشارد يقول فيه إنه يود الالتحاق بالقوات الجوية ("فى صفوف الجند بالطبع"): خشى لورانس من أنه وقد بلغ الثالثة والثلاثين فقد لا يجتاز "الكشف

الطبيّ" وسعى إلى نفوذ ترنشارد للتأثير في مكتب التجنيد. دافعه؟ كان كتابه عن الثورة العربية الذي كان قد أكمل معظمه "يكاد يكون جيدا" و كان يسعى للحصول على مادة جديدة له وهو في القوات الجوية لأن "أفضل مكان لرؤية الأشياء هو القاع أو القاعدة. الكتابة من موقع الضباط لن تكون دقيقة أو ملائمة". في ٢٠ أغسطس غادر فني الطائرات بال سلاح الجوى تى. إى. روس (كما أصبح يدعى في الأوراق الرسمية) مكتب التجنيد بكوفت جاردن وهو يشعر بالرضا، بعد، ووفقا لاتفاق مسبق، أن ذكر أنه كان في الثامنة والعشرين ومهنته "مساعد مهندس معماري". تلقى روس تدريبه كمجند عادى في منطقة أوكسبريدج، ثم في مدرسة القوات الجوية الملكية للتصوير بفارنبرو. فيما مضى يرأسل برنارد شو، طوال الوقت، حول اختزال "أعمدة الحكمة" الذي كان قد تمدد، إلى مجرد ١٣٠٠٠ كلمة. كان من المحتمل، ولأن هويته كانت معروفة لزملائه المجندين ولرؤسائه، أن تتسرب الأخبار وظهرت النواوين التالية بالدليلى إكسبيرس "الملك غير المتوج" كعسكري مجند/ لورانس العرب بطل الحرب الشهير يصبح مجندا يسعى إلى السلام، ولفرصة لإكمال كتابه".

استاء السير صمويل هور، وزير الدولة للشئون الجوية من كشف الصحافة للأمر، وكذلك (كما زعم لاحقا) ضباط القوات الجوية الذين كانوا يدربون المجند الجديد: "كان من الطبيعى أن يتساءلوا كيف لهم التعاطى في ميدان الثكنات مع عسكري مجند كان كولونيلا سابقا وحاملا لوسام الاستحقاق وأكثر أبطال الحرب شهرة؟". تم تسريح المجند روس. لكن هذا لم يشه عن هدفه حيث أقنع لورانس وزارة الحرب بالسماح بتجنيدده في فرقة الدبابات الملكية، مرة أخرى كعسكري مجند. وفي مارس عام ١٩٢٢ قدم لورانس نفسه لاستلام مهامه إلى معسكر بوفينجتون في نورست لبدء تدريبه الأساسى لمدة ثمانية أسابيع بصفته تى. إى. شو العسكرى المجند بفرقة الدبابات (في وزارة الحرب، أبلغ أحد الضباط لورانس

أن عليه اختيار اسم جديد. رد لورانس. ما اسمك؟ أجاب الضابط "لا، ليس هذا". فتح تى. إى قائمة بأسماء جنود الجيش كانت قريبة منه، واختار عشوائيا أول اسم من مقطع واحد صافه - شو - على الأقل وفقا لروايته).

أكمل المجند شو مسودته الأولى من "أعمدة الحكمة"، ثم حاز على كوخ صغير بمنطقة كلاوبز هيل (على بعد ميل من معسكره) وفي نوفمبر، سلم مخطوطة ضخمة (٣٣٠٠٠ كلمة) من الكتاب إلى دار نشر أكسفورد. وحينما رفض مراجعو دار نشر أكسفورد "أعمدة الحكمة"، وقد خشوا أن تكون ذات صبغة تشهيرية، قرر لورانس نشر نصه الأصلي على نفقته. كانت حسابات لورانس متفائلة، إذ قدر أنه إذا نشر طبعة محدودة من حوالى مائتى نسخة تباع كل منها بثلاثين جنيتها إنجليزية، فسيغطي هذا تكاليف ورقها الفاخر وتغليفها المميز، وأيضا رسوماتها الكثيرة ومن بينها رسوم لثلاثين صورة، غالبيتها من الحياة مباشرة، قام برسمها إريك كنيجتون (ذهب الفنان فى جولة بالشرق الأوسط كى يرى بعينه مصادر رسوماته ولوحاته).

وكما تنقلتُ بروقات الكتاب المطبوعة ذهابا وعودة بين مختلف الأيدي، هكذا فعل مؤلفه، الذى، وبعد أن سئم من سلاح الدبابات، مُنح، على مضض، إذنا بالعودة إلى سلاح الطيران الجوى - هذه المرة باسم شو لا روس". فى يناير ١٩٢٧ كان تى. إى. شو، الفنى بسلاح الطيران على متن سفينة لنقل الجنود متجهة إلى كراتشى، بعد أن وافق على اختزال كتابه "أعمدة الحكمة" الذى نشره جوناثان كيب بعنوان "ثورة فى الصحراء" للكاتب تى. إى. لورانس" نُشر منه عشرون مجزأً على حلقات بالبلي تلجراف، وحينما نفدت تسعون ألف نسخة من الكتاب، أمر لورانس/ شو بسحبه من الأسواق. كتب لوكيل أعماله ريموند سافيدج الذى أصابه الذهول يقول "لقد وضعت الأوزة حصتها من البيض" إن المبالغ التى جلبها لى "أعمدة الحكمة"

كافية وليس شمة سبب للمضى فى تحقيق مزيد من الأرباح غير المرغوب فيها على حساب راحتى وحسى بالأصول واللباقة. وتمضى القصة لتصبح أكثر غرابة. من الواضح أن الكلمة التمهيدية للكتاب والتي كانت موقعة بالأحرف الأولى تى. إى. إل T.E.L. كان يرئاد شو هو من كتبها، وحينما تلقى لورانس نسخا مُجلدة فى كراتشى، اقترح إضافة كلمة المؤلف التالية، أو للفتات الذى قُدِّف به لاسترضاء من هم فى مناصب عليا:

”يرجع تاريخ النص إلى عام ١٩١٩، حينما كان مصير الأقاليم المتحدة بالعربية التى كانت تابعة للإمبراطورية التركية، مازال على المحك، ومن ثم تأثرت نفعته بعدم اليقين السياسى الذى أحاط بالعرب. لكن بعد عامين، أوكل مجلس وزرائنا المنهك إلى المستر ونستون تشرشل عملية التسوية بالشرق الأوسط، وفى غضون أسابيع قليلة بمؤتمره بالقاهرة، حلَّ جميع التعقيدات، وأوجد حولا أوفت (على ما أعتقد) بوعودنا، بنصوصها وروحها، وبقدر الممكن دونما تضحية أى من مصالح الإمبراطورية، أو أى من مصالح الشعوب المعنية. ومن ثم، انتهينا من المغامرة الشرقية لزمى الحرب بأيد نظيفة، بعد كل شىء“.

عمل لورانس فى كراتشى على ترجمته للأديسة وأكمل مسودة The Mint، وهى مذكرات لحياة ثكنات سلاح الطيران اللكى محملة باللغة الفظة (نُشرت على حسابه عام ١٩٣٦، وتجاريا فى نسخة معدلة عام ١٩٥٥). وفى أثناء تلك المهمات الأدبية، كان ثورة فى الصحراء مازال فى أكشاك الكتب، أتى جدلٌ غير متوقع بلورانس إلى العناوين الرئيسية مرة أخرى. كان قد نُقل فى مايو ١٩٢٩ إلى موقع متقدم للقوات الجوية بوزيرستان على حدود الهند المتوترة الشمالية الغربية. استقر، ومعه حوالى عشرين من القوات الأنجلو/ هندية، فى قلعة ميرانشاه المُتربة القصية، على بعد عشرة أميال فقط من أفغانستان. كتب لورانس خطابا إلى الوطن، وقد شعر بالسأم والتعطش إلى الموسيقى، اشتكى فيه من عدم وجود جرافون. فى ١٦

أغسطس، ذلك "اليوم المشهود" بما أنه كان "عيد الميلاد الأربعين الأوحد الذي ساحتفل به أبداً" تلقى جرامفونا فخماً، هدية من تشارلوت شو، زوجة جورج برناردشو. وتكر ممتناً "استمعت إلى سيمفونية إلجار اليوم.. وفيما أُصِيتُ أشعر دوماً أنني على الحافة المثيرة لفهم شيء شديد الندرة وعظيم وبالطبع أخذ يتسرب مبتعداً".

انتهت تلك الفترة الرعوية في خريف ١٩٢٨. في أفغانستان، اندلع تمرد قبلي ضد أمان الله خان، الملك التحديثي الذي أغضب السلفيين المسلمين بتعزيزه التعليم الغربي، وأُليت عليه جهوده لجمع الضرائب لوردات الحروب. (تسبب أمان الله أيضاً في توتر الغرب لاعترافه بالاتحاد السوفييتي وإقامة علاقات ودية معه). في ٢٦ سبتمبر أعلنت الإيفنيج نيوز اللندنية ما يلي: "مهمة لورانس العرب السرية/ مجابهة الأنشطة الحمراء بالبنجاب/ يتقمص شخصية القديس/ يمنع الحسد ويشفي الأمراض". زعم مراسل الصحيفة في بومباي أن لورانس يسكن "منزلاً للشواذ"، في أحد شوارع أمريستار القصية، ويتظاهر بأنه أحد أولياء الله المسلمين وأنه يمتلك قوى خارقة. وأن ذلك هو غطاؤه لإحباط المؤامرات السوفييتية.

ثم تلى ذلك قصص إخبارية مثيلة غير محتملة بالتايمز في ٩ يناير ١٩٢٩، وبالدليلى هرالذ ذات التوجهات اليسارية التي وصفت تي. إي بصفته "كبير الجواسيس في العالم". التقطت كبريات الصحف الأوربية القصة وزخرفتھا، وكذلك الصحافة السوفييتية لكن بأسلوب أكثر قتامة. في ١٦ ديسمبر أكدت الإمبراير نيوز، التي اختفت منذ آنذاك، أن الكولونيل لورانس كان قد زار كابل خلال الأسبوع الثالث من نوفمبر، يُطلع الملك، ورئيس الشرطة على المستجدات ثم رحل "وفي مكان ما في جبال أفغانستان المقفرة الموحشة، أعلى المنحدرات الصخرية، وعلى مقربة من سكان الكهوف، يقبع في الأعالى على ضفاف مجرى مائي جبلي رجل مقدس نحيل يرتدى رموز الحجاج والنسك ويمضي وحيدا في طريق رحلته المقدسة. إنه

الكولونيل لورانس أكثر رجال الإمبراطورية غموضاً. إنه، في واقع الأمر، بروفنسل بريطاني المطلق في الشرق. يشترك في المعركة الآن رسول الكراهية ورسول السلام". (كانت القصة ملفقة بكاملها، وقد نُسبت إلى أحد المبشرين غير الموجودين، والأرجح أنه كان قد تم تلفيقها في أحد بارات فليت ستريت. وفي مجال الصحافة فإن القاعدة الخالدة هي أن قصص الجواسيس مُحصنة بأسلوب مريح ضد دعاوى التشهير، وضد إنكار المسئولين).

بيد أنه كان ثمة بذرة صغيرة من الحقيقة في كل هذا المزيج. في الواقع، فإن أفغانستان أوقعت غرائز صناعة الملوك لدى لورانس. في خطاب إلى إدوارد مارش، صديق تشرشل ومساعد، شكك لورانس في حماس رئيسه "للهجوم على روسيا" إذ إن بريطانيا لا تستطيع سوى الذهاب من تركيا، فارس، أفغانستان، أو الصين، واتخاذ أن الجيش الأحمر لديه القدرة الكافية أن يحول أيًا من تلك البلدان إلى جزء من الاتحاد السوفييتي. أما النقطة الأكثر خطراً فهي أفغانستان. أتعلم أنني كنت على وشك الذهاب هناك الأسبوع الماضي؟ يحتاج الملحق البريطاني في أفغانستان إلى كاتب من القوات الجوية، ولو أنني كنت أمتلك سرعة أكبر في الكتابة على الآلة. لرشحتني الجهة التي أعمل بها للمنصب. ثم نكّر مارش بأن له خبرة طويلة في العمل السري وأضاف: "وتثير روسيا اهتمامي بقدر كبير. من المحتمل أن يقع الصدام، هكذا أعتقد". وعلى أية حال، تنازل أمان الله عن العرش في بداية عام ١٩٢٩. ومنحته الهند حق اللجوء السياسي، ثم استقر في إيطاليا وتوفي في سويسرا عام ١٩٥٠. (بإمكاننا أن نعجب عما إن كان لهذا التاريخ أن يصبح مختلفاً لو أن "شو" كان أكثر كفاءة في استخدام الآلة الكاتبة؟).

أثارت التقارير عن دور لورانس السري أسئلة بالبرلمان، تبعتها إنكارات مبهمة من وزارة الطيران. وبعد فترة عامين قضاها بالخارج تم تهريب المجدد شو إلى الوطن في فبراير ١٩٢٩، حيث رسا في بلايموث في ملابس في خليط من أعمال

جون بيوكان والإخوان ماركس. توخى رئيس أركان الطيران ومجموعة مرافقيه من القوات الجوية توخوا السرية والحرص. لكن، وكما يقول چيرمي ويلسون مؤرخ لورانس المفوض، "قُشلت محاولتهم للإبقاء على أماكن تواجد لورانس على الكتمان فى كل خطوة تقريبا. ولكى يتحاشوا محطة سكك بلايموث، ذهبوا بالسيارة إلى نيوتن آبوت، لكن بمجرد صعودهم القطار المتوجه إلى لندن تم التعرف عليهم ولدى وصول القطار إلى بادينجتون كان ثمة حشد من الصحفيين بانتظارهم. كان ترنشارد قد طلب من لورانس أن يتحاشى إجراء حوارات صحفية معه بقدر ما يستطيع. من ثم، شقوا طريقهم بين الصحفيين دونما النطق بكلمة. بعد ذلك حدثت مطاردات هزلية بسيارات الأجرة دامت حوالى الساعة. زحف سائق التاكسى الذى كان يستقله لورانس ببطء، وكان قد تلقى رشوة ليفعل ذلك. حتى ساوث كنسينجتون يحيطهم من الجانبين حشود الصحفيين الذين يطاردونهم وهم يصيحون. كانت الكلمات الوحيدة من طرفيتهم الصامتة هي "لا، اسمى هو المستر سميث".

من المعقول أن نفترض أن لورانس قد خشى أن الضجة قد تُنهى عمله بالقوات الجوية، لكن هذا لم يحدث. تم استبعاد إرساله إلى الخارج، لكن سطوة أسطوريته (وشبكة أصدقائه) كانت من القوة بدرجة أن استمر "قنى الطائرات شو" فى وتليفته بالملكة المتحدة حتى تقاعده من الخدمة فى فبراير ١٩٣٥. وطوال حياته بالقوات الجوية مضى لورانس يعبر عن مخاوفه وقلقه بشأن تلقى الجمهور والنقاد "أعمدة الحكمة السبعة"، ذلك الكتاب الذى أمل أن يحوز مكانة أسطورية عملاقة.

من النادر أن ظلت رائعة أدبية على قيد الحياة بعد حملٍ عسير كان قد بدأ أثناء مؤتمر السلام بباريس عام ١٩١٩، وقيل إن مسوداته المبكرة فُقدت أو سُرقت بمحطة قطار بريطانية، وأضيف المزيد إلى مادته فى القاهرة أثناء مؤتمر آخر، ثم عمل مؤلفه عليه بجدة وعمان، وتم تنقيحه بكلية أول سوانز باكسفورد، وصنّفه وتملكه القلق بشأنه أثناء تعيينات متتالية بعدة مناصب فى أنحاء نصف الكرة الأرضية.

ومثل أشجار الزيتون، أنبت النص حلقات جديدة. عنوانه مستمد من سفر الأمثال:
٩: ١ "الحكمة بَنَتْ بيتها. تحت أعمدتها السبعة"، أو كما أوضح أرنولد، شقيق
المؤلف الأصغر، الذي قال إن "العنوان في الأصل كان اختياراً للمؤلف لكتاب عن
سبعة مدن. لكنه قرر عدم نشر ذلك الكتاب المبكر لأنه اعتبره غير ناضج ثم نقل
العنوان كتذكار".

لكن الإهداء الذي ظهر على الكتاب كان أكثر إبهاماً: إلى إس إيه S.A. TO،
يتلو أربعة مقاطع شعرية لها أصداء هومرية نورد هنا الأولين منها:

أحببتك

وجذبت طوفان الرجال إلى كفى

وكتبت وصيتي بالنجوم عبر السماء

كي أمنحك الحرية.

المنزل المجيد ذو الأعمدة السبعة،

من أجل أن تضيء عيناك لي

حينما تأتيه.

على الطريق بدا الموت تابعي،

حتى اقتربنا ورأيتك تنتظر

مروء وتخطائي حسوداً حزينا

وفرقني عنك، اصطحبك

إلى صمته وسكونه

لم يحدث منذ أهدى شكسبير سوننتاته إلى "W.H" أن سأل هذا الكم من المداد
ويُدد على لغز أنبي لا حل له جوهرياً. لا يسمع المرء سوى أن يساوره الشك في أن

لورانس روس شو، الذي أسمته جرتروود بل "العفريت الصغير المؤذى" قد زرع
ألفارزه عن عمد. أُعطي، بمكر وخبث، عنواناً فرعياً لأعمدة الحكمة، ألا وهو
"انتصار"، بيد أنه كان ثمة انتصار أكثر شمولية مازال في الطريق.

يظل سؤال توجه تى. إى. لورانس الجنسي (وفقاً للغة عصرنا الطنانة) لا إجابة
له. وقد يكون من المحال الإجابة عنه. لم يكن لديه أية علاقات حب معروفة مع
الإناث، وما زالت النقاشات المشتعلة تدور حول درجة ميوله المثلية المحتملة. أكان له
عشاق عرب؟ من المؤكد أنه كتب بأسلوب حسى شهوانى عن الصبية البو. أتعرضُ
لتجربة اغتصاب أليمة حينما كان أسيراً في مدينة درعا التي كانت تحت الحكم
العثمانى بأوامر من البيه التركى الذى لم يُدرِك، وضد كل منطق، أن أسيره كان
جاسوساً إنجليزياً يرتدى ثياباً عربية؟ يؤكد لورانس فى أعمدة الحكمة حدوث هذا،
وكتب تفاصيل محنته فى خطاب إلى تشارلوت شو فى مارس ١٩٢٤. لكن
المتشككين يستشهدون بوثائق تشير أنه كان فى مكان آخر فى نوفمبر ١٩١٧ فى
الأيام التي زعم فيها أنه جُلد واغتُصب من قبل الرجال الأتراك. (بعد عقود، فُتد
البيه التركى الذى كان مازال حياً الحكاية بأكملها حين اتصل باثنين من كتاب
سيرة لورانس التعديليين وهما الصحفى الأردنى سليمان موسى، والكاتب
البريطانى دزموند ستوارت).

بيد أن ثمة محاولة لحسم تلك الألفاز بشكل قطعى قام بها جيمس بار الباحث
البريطانى الشاب فى كتابه "إشعال النار فى الصحراء" (٢٠٠٨). كان الروائى
سومرست موم قد أُسرُ إلى ريشارد ألدينجتون، الذى صور لورانس فى كتابه *Bi-*
ographical Enquiry بصفته كذاباً ومحتالاً: أُسرَ له بالحكاية الأقل احتمالاً.
أبلغ موم ألدينجتون أن ترنشارد أخبره أن لورانس علم بأنه يواجه القبض عليه
بتهمة إغراء الجنود ومراودتهم عن أنفسهم وأن الحادث المميت الذى تعرض له كان
محاولة انتحار لدره الفضيحة. المشكلة رقم ١: كان معروفاً عن موم أنه مغرم بنشر

الشائعات السامة المفروضة، رقم ٢: لم يُعثر على أى دليل داعم لشائعة كان الدينجتون نفسه غير راغب فى نشرها، رقم ٣: يبدو تصادم الموتوسكيل الذى كان يسير على السرعة الثانية وسيلة غير محتملة لشخص أراد قتل نفسه. (فى واقع الأمر، فقد ظل لورانس فى غيبوبة لمدة ستة أيام، وكان، قبيل تلك الحادثة، قد أرسل برقية يوافق فيها على الغذاء مع الكاتب هنرى وليامسون إلى اتحاد الفاشيين البريطانيين برئاسة سير أوزولد موزلى الذى كان يعتقد بحماس أن هتلر ولورانس يجب أن يلتقيا).

بيد أن الأكثر مصداقية كانت هى تلك التقارير التى ذكرت أنه كان يشارك عام ١٩٢٢ فى حفلات جلد بالأسواط كان يستضيفها رجل ألمانى زلق يعرفه زبائنه والشرطة المتربوليتانية باسم "ذى اللحية الزرقاء Bluebeard"، وكان يستضيفهم فى حى تشلسى بلندن. ويعد عامين وكما أكد مراسلان للصنداي تايمز يتشيمان الفضائح فى عام ١٩٦٨، فقد كان لورانس قد عمل الترتيبات مع شاب اسكتلندى يسمى جون بروس ليجلده على ظهره (بفعت له الصحيفة ٢٥٠٠ جنيه إسترلنى للحصول على التفصيلات منه)، وقالوا إن ذلك كان طقسا يبدو وأنه استمر لمدة عقد من الزمان. بيد أن لورانس جيمس وهو أحد مؤرخيه البريطانيين، يبلور النقطة الجوهرية بفتنة: "قيما لا بد وأن تظل البواعث الأساسية لميول لورانس الجنسية مبهما، فإن تجلياتها أثناء عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضى كانت تعنى أنه كان يعيش على شفا الفضيحة بدرجة خطيرة" - ومن المؤكد أن هذا كان طيشا يساعد على تفسير سحره الذى مازال قائما.

لكن الثابت بدرجة جازمة هو أن لورانس كان ومنذ صباه متيما بالآلات كما يدل على ذلك ولاؤه لدرجاته (موتوسكلاته) ماركة بروه ذات الإسطوانتين (٢ سيلندر). استمر يشترى الموبيلات المتتالية منها، وخلع على كل منها اسما إنجليزيا يعنى "آبناء الرعد". أبلغ صانعها جورج بروه، بشكل نبوئى، قبل عام من الحدث، إن

كسره عداد السرعة كان له أثر غريب إذ جعله يزيد من سرعته المعتادة، أى ستة أميال فى الساعة وأضاف أنه قاد الدراجة البخارية فى آخر رحلتين طويلتين له بسرعة ٤٩ و١٥ ميلا فى الساعة على التوالي وأنه يبدو من المحتمل له أن يكسر رقبته أثناء القيادة.

أحد عشاق لورانس وصفه بأنه "راهب الآلات". بارك لورانس وهو فى الجزيرة العربية أثناء الحرب "القديس رولز" و"القديس رويس". أبلغ روبرت جرايفر أنه انضم إلى سلاح الطيران الملكى "ليحقق هدفا ميكانيكياً، ليس كقائد؛ لقد ظللت ميكانيكياً منذ آنذاك، وميكانيكياً جيداً، لأن تدريبى لنفسى كى أصبح حرفياً فناً قد عمل على اتساع مجال إبصارى بدرجة هائلة". أوضح لورانس أن التحاقه بالقوات الجوية كان "أقرب مناظر معاصر للالتحاق بالدير فى العصور الوسطى". ورأى أن هذا حقيقى بأسلوب مزيج "لأن العمل كميكانيكى يمنع المرء من أى اتصال حقيقى بالنساء.. أعتقد أنه ليس بإمكان أية امرأة أن تفهم سعادة الميكانيكى وهو يستغرق فى آلاته وفى قطعها الكبيرة والصغيرة".

كان بين زوجاته الميكانيكية الطائرات البحرية والدبابات وقوارب السباح والدراجات الآلية، ومن البداية وحتى النهاية، الكاميرات. أثناء رحلته بالدراجة فى صباه لتفحص الكنائس والقلاع عصر الأوسطية بفرنسا، وأيضاً أثناء رحلته إلى الشام سعياً وراء القلاع الصليبية، كانت تلامه، الكاميرا الكوداك تماماً مثل دفاتر الرسم. عمل لورانس أثناء أربعة مواسم للتققيب والحفريات (١٩١٠-١٩١٣) فى موقع مدينة كركميش بسوريا مصوراً لبعثة الحفريات (قام فى كركميش أيضاً بتدريب سائق حمير مراهق، اسمه سليم أحمد كمساعد مصور معه. يظل سليم أحمد، وكنيته "داهوم" أو "الصبى الأسمر الصغير" المرشح الأول ليكون S.A الشهير الذى أهداه لورانس أعمدة الحكمة). يقال أيضاً إن لورانس، وهو يقوم بدور العميل البريطانى غير الرسمى، قد سلط عدسة كاميراته ماركة زايس من موقعه

على الفرق الألمانية التي كانت تشيّد خط سكك حديد برلين/ بغداد الاستراتيجي. في عام ١٩١٤ اشترك مع لينارد وولي في عمل مسح لسيناء لحساب صندوق استكشاف فلسطين (الصهيوني) (وزارة الحرب)، والتقط صوراً توضيحية لإرفاقها بالتقرير الذي كتباه، وحينما دخلت تركيا الحرب العظمى في أواخر عام ١٩١٤، وأضحى الشرق الأوسط "مسرحاً للعمليات وعرض القوة" كان لورانس بين أوائل رواد استخدام التصوير الجوي لتحديد أهداف قصف العدو بدقة.

وكما رأينا فإن شهرته بصفتة "ملك العرب غير المتوجّ" طُوّرت لأول مرة في عرض لول توماس للشرائح المصوّرة. من ثم كان من جد المناسب أن يؤلّه لورانس بعد موته من خلال إنتاج فيلم سينمائي عنه أخرجه دايفيد لين. واليوم حينما نفكر في لورانس نتخيل بيتر أوتول، الأشقر كرمال الصحراء، التصوير الباسل للعربي المضطهد المحقر، سوط الإمبرياليين الأشرار، والفنان الذي ينزف جرحه الداخلي. من المجدي تفحص كيفية حدوث تلك الملحمة، وما إن كانت قد أمسكت بجوهر تلك الحياة التي تفوق الخيال، وإن لم يكن بتفاصيلها.

من الواضح أن كتاب لورانس "ثورة في الصحراء" كان بطبيعته قابلاً للتحويل إلى عمل سينمائي جاذب للسينمائيين منذ صدوره. في عام ١٩٢٧، قاتح ركس إنجرام المخرج والمنتج الهوليوودي لورانس في الأمر. كان من بين أصدقاء إنجرام السينمائية الشهيرة فيلم حربي بعنوان "فرسان سفر الرؤيا الأربعة" (١٩٢١)، وفيلمان رومانسيان عن الصحراء: "العربي" (١٩٢٤) و"جنة الله" (١٩٢٧). قاوم لورانس العرض بأبد وقال إن القيمين على أعماله الأدبية قد رفضوا بالفعل عرضاً من هوليوود قيمته ٦٠٠٠ جنيه إسترليني "أو ما شابه ذلك". أضاف "أتمنى أن يستمروا طويلاً في الرفض. أكره أن أرى محاكاة لنفسى على أساس ما سجلته عما قام به رفائقي معي". لكن رفضه لم يكن قاطعاً، وسرعان ما تتالى الخطّاب.

كان ألكساندر كوردا، المنتج السينمائي المهيمن في بريطانيا، والإمبريالي الصريح بالرغم (أو ربما جزئياً بسبب) أنه كان من مواليد المجر، كان هو أكثر المتحمسين. حصل كوردا عام ١٩٣٤ على حقوق إنتاج "ثورة الصحراء" سينمائيًا من "صندوق لورانس". وقيل إن ذلك كان نظير ٦٠٠٠ جنيه استرليني، خصصها مجلس أمناء الصندوق لأرامل وأيتام سلاح الطيران الملكي. كان كوردا واثقا لدرجة أنه أعلن في مايو أن ليزلي هوارد سيقوم بالنور الرئيسي في الفيلم الذي سيخرجه لويس مايلستون (مخرج فيلم كل شيء هاديّ على الجبهة الغربية). بدأت النقاشات مع الكاتبة بازيل إيتش ليدل هارت الخبير العسكري، وكاتب سيرة لورانس، ليعمل مستشارا للفيلم. ولدى هذه النقطة، يبدو أن لورانس غير رأيه ووفقا لما رواه لتشاوولوت شو، فقد التقى، في يناير ١٩٣٥، المنتج كوردا، الذي أثبت، وخلافا للتوقعات، أنه شخص رقيق المشاعر: "حينما أوضحت له المتاعب التي سيتسبب فيها فيلمه المقترح لى.. أنهى النقاش بأن وافق على أنه لا يجوز محاولة إنتاج الفيلم دونما موافقتي وقال إنه لن يعلن عزوفه عن إنتاجه لأنه طالما ظل على قائمته سيتجنب المنتجون الآخرون التفكير فيه. لكن لن يُنتج". لكن خيار إنتاج الفيلم ظل قائما.

بعد الحادث المميت الذي تعرض له لورانس في مايو ١٩٣٥، تجددت فورة الاهتمام بـعيد الجنازة شبه الرسمية. حمل نعشه إلى المقبرة بكنيسة القرية في مورتون ستة أشخاص: السير رونالد ستورز، إريك كنينجتون، العريف برادبرى، المجدد راسل، بات نويلز وستوارت نيوكومب. كان في حياته قد رفض التكريم الملكي، تلقى في مماته من الملك جورج الخامس رسالة إطراء موجهة إلى شقيقه إيه. دبليو. لورانس: "سيعيش اسم أخيك في التاريخ، ويعترف الملك بامتنان بخدمااته المميزة لبلده". وبعد سبعة أشهر، كُشف النقاب في لندن عن تمثال للورانس في دهليز كنيسة سانت بول كجزء من تحية تذكارية أخيرة من جانب كبار القوم وعظمائهم.

وفي الحقيقة، كانت ملايسات موت لورانس حلم المهتمين بالدراما وكتابها. فقد

توفى فى ريعان شبابه، مثل جون كيندى وجيمس دين، ومن ثم، استطاع الهرب من بصمات الزمن التى لا ترحم. سرعان ما أنتج فيلم وثائقي مدته ست وثلاثون دقيقة اضطلعت به أقلام إيس واستند إلى فيلم أُلْتُقِطَ صوره أثناء الحرب، كما فوض "صندوق لورانس الائتماني" كوردا لتحويل "الثورة العربية" إلى فيلم سينمائي. كان كفاحه التالي الذى دام أربعة أعوام لتنفيذ الفكرة ملحمة فى حد ذاته. استُبعد تماما التصوير فى موقع الأحداث بفلسطين وذلك بسبب المعارك الدائرة (بين الصهاينة والعرب). كما ضغطت وزارة الخارجية من أجل حقوق الرقابة وبعد حصولها على مسودة السيناريو، احتجت السفارة التركية لدى الحكومة البريطانية لأنه "تم تصوير الأتراك كطفة قامعين للعرب" مما يُلَوِّث "التاريخ التركى والشخصية القومية". تكشف الوثائق التى تم الإفراج عنها عن نقاشات على مستويات عليا بشأن تلطيف التدخل الرسمى من خلال عرض رتبة الفروسية على كوردا. عارض السير روبرت فانسيثارت، وكيل وزارة الخارجية الدائم (قريب لورانس من بعيد، والذى كان قد وقَّع لتوه عقدا كمستشار لكوردا فى المواضيع الإمبريالية) عارض الفكرة بصفتها مُهينة.

امتدت المفاوضات برئاسة مجلس الوزراء لمدة أشهر. عرض المنتج تلطيف صور الأتراك والعرب السلبية وقدم موجزا للسيناريو مشهدا مشهدا. بيد أن رئيس مراجعى السيناريوهات فى المجلس البريطانى للرقابة على الأفلام، الكولونيل هانا، رأى أن إغضاب العرب فى تلك المرحلة سيمثل حماقة سياسية جسيمة. فى تلك الأثناء، طلب كوردا من شقيقه زولتان إخراج الفيلم، فيما استمر البحث عن ممثل مناسب يضطلع بالور الرئيسى فيه. كان بين المرشحين لورانس أوليفيه وروبرت بونات، لكن كوردا تمسك باختياره الأصلى، أى ليزلى هوارد. فى مقال له بدورية فيلم مجازين بعنوان "كيف سأمثل لورانس" شعر هوارد أن التيمة المركزية يجب أن تكون الهزيمة المتساوية لُمَثَل لورانس على أيدي البيروقراطية البريطانية الجامدة. ثم

مضى يقول "أمل، فى المشاهد أن الأخيرة، أن أظهره راكبا دراجته البخارية القوية إلى حيث يلقى حتفه فى الحارة الريفية. ثم لقطة سريعة، عودة إلى فلسطين بمؤامراتها وتمرداتها - أرض منهكة معذبة والتي، لو أتيح للورانس أن يحقق ما أراده، لكان من المحتمل لها أن تكون بلدا موحداً يعمه السلام (!!) (نُشر سيناريو كوردا (١٩٣٨) والحوار مع هوارد فى كتيب صغير عام ١٩٩٧، بعنوان صناعة فيلم تى. إى. لورانس جمعه ثلاثة من المؤرخين الثقافيين البريطانيين).

وإذا كان لابد من الاعتراف بجهود السير ألكساندر كوردا (الذى حصل بالفعل، فى النهاية، على الرتبة)، فقد كان ونستون تشرشل من حسم الأمر. بعد الحرب، نكر المنتج كوردا لابن شقيقه الناشئ مايكل كوردا مارلى "أردت أن أنتج أعمدة الحكمة بعد الحرب واعتقدت أن النور سيكون مثاليا لزولتان وأنه سيصبح فيلما رائعا، وأن علينا أن نسميه لورانس العرب. لكن زولتان لم تعجب الفكرة، جزئيا بسبب فلسطين، وكان تشرشل يشعر بالقلق لأنه اعتقد أنه من المهم جدا أن يكون الأتراك حلفاء لنا حينما تندلع الحرب. من ثم، لم نفعل شيئا. والآن، لا أدري، مازال من الصعب تنفيذه، وأيضا مع الصراع بين الإسرائيليين والعرب، لست متأكدا أن الأمر سينجح. إنه فيلم عظيم وليس لدى الرغبة فى صنعه، لذا، أظن أن على أن أبيع الآخرين". وهذا ما نجح فى إنجازه.

ذهبت حقوق "أعمدة الحكمة" أولا إلى جيه. آرثر رانك فى خمسينيات القرن العشرين والذي رشح أليك جينس للنور الرئيسى. بيد أن المشروع انهار حينما سدت مواقع التصوير المتتالية بتفجر المشاعر القومية فى الأردن، ثم التوتر الناجم عن حرب السويس فى مصر، ومذبحة الأسيرة الملكية الهاشمية بالعراق فى أعقاب انقلاب عسكري عام ١٩٥٨. وهنا يدخل سام سباجيل المنتج الهليوودى المولود بفيينا، الذى حصل بتصميم ودونما وجل على حقوق الفيلم من إيه. دبليو لورانس الذى كان آنذاك، يقوم بتدريس الأركيولوجى بجامعة كامبريدج. ثم مضى، بغروسية

رومانسية مثل الضابط البريطاني في فيلم دايفيد لين "كوبرى نهر كواي" (الذي أنتجه أيضا سبايجل وحاز على الأوسكار)، مضى مثابرا ضد جميع العقبات.

من العوامل المساعدة أن فيلم لورانس العرب كان مشروعا أنجلو/أمريكيًا، اشترك في تمويله أفلام هورايزن اللندية وشركة أفلام كولومبيا من لوس أنجليس كان البريطاني دايفيد منتجا مشاركا وأيضا مخرجا، واشترك في السيناريو مايكل ويلسون الأمريكي وروبرت بولت البريطاني. بعد حصوله على الأوسكار عن سيناريو "مكان في الشمس" (١٩٥١)، وُضِع ويلسون على القائمة السوداء في هوليوود كونه «شاهدا غير صديق» على أنشطة مضادة للروح والتقاليد الأمريكية. أصبح أحد المنفيين في عصر مكارثي، وكان أحد شروط عقده مع سبايجل أن يُقدّم إفادة مرضية عن تاريخه السياسي. على أية حال، لم يكن لين راضيا عن سيناريو ويلسون إذ رأى أنه "أمريكي بدرجة مفرطة" ومن ثم، توجه هو وسبايجل إلى بولت الذي كانت مسرحيته عن السير توماس مور "رجل لكل العصور" تُحقّق آنذاك، نجاحا كبيرا على مستوى دخل الشباب وعلى المستوى النقدي. تُسبب الفضل في كتابة سيناريو فيلم لورانس إلى بولت وحده، لكن المقارنة المتفحمة للسيناريوهات المتعاقبة تثبت أن بولت اتبع بنية ويلسون الروائية وتبنى كثيرا من أفكاره (التجأ ويلسون إلى نقابة كتاب السينما البريطانية التي حكمت لصالحه، لكن بولت رفض أن يشاركه أحد في التقدير الذي حظى به لكتابه ذلك السيناريو).

في البداية، فاتح سبايجل مارلون براندو، الذي كان مازال فخورا بانتصاره الذي حققه في الفيلم "On the Waterfront" (إنتاج آخر لسبايجل) ليقوم بالدور الرئيسي. لكن كان لدى براندو عرض لا يتطلب منه جهدا ماثلا ليلعب الدور الرئيسي في فيلم "ثورة على السفينة بونتي" وفضل التصوير في تاهيتي. وحينما رفض مرشحهما الثاني (ألبرت فييني)، غامر المنتج والمخرج بالرهان على ممثل مسرحي كاد لا يكون معروفا، أي بيتر أوتوول الذي كان ابنا لصانع كتب أيرلندي

وكان قد تلقى تعليما غير منتظم وكان أطول من لورانس بقدّم واحدة. وإعداداته لبعده في الفيلم أصبح شعر أوتوول أشقر (وظل هكذا) وأُخضع لعملية جراحية بأنفه. جمع بين التيه والخيلاء، وعذاب عدم الثقة بالنفس في أداء مؤسس على قراعه الخاصة لأعمدة الحكمة. وكما عبّر عام ١٩٦٢ في حوار صحفي، فقد قضى لورانس حياته في مسعى وراء الحقيقة عن نفسه، وحينما وجدها أخيرا، كانت مرعبة.

استغرق إكمال الفيلم عامين، وتضخمت ميزانيته لتتجاوز ١٢ مليون دولار. زعم صانعوه أن الأمر تطلب إنفاق ٨٠٠٠٠ دولار في اليوم في الموقع لنقل المياه بالشاحنات إلى ١٥٠٠٠ من العاملين، و٥٠٠٠ ناقة، و٥٠٠ حصان. ظهر أوتوول في كل مشهد تقريبا بالفيلم الذي يستغرق عرضه ٢٢٧ دقيقة وهيمن ظهوره على مجموعة قوية من الممثلين الذكور كان من بينهم آلِك جينس، كلود رينز، عمر الشريف، جوزيه فِرد، جاك هوكينز، أنطوني كوين، دونالد وولفيت وأرثر كيندي. تنقل الفريق، أو بعض أعضائه، ذهابا وأوبة بين مواقع في إسبانيا، المغرب، والأردن (حيث حظرت السلطة الملكية المتقلبة المتوترة عرض الفيلم في البداية). حضرت الملكة إليزابيث الثانية العرض الافتتاحي للفيلم في ديسمبر ١٩٦٢، وحينما افتتح بعد ذلك بأسبوع في نيويورك بلغ ثمن التذكرة سعرا غير مسبوق أي ٤.٨٠ دولار. وفي حملة دعائية تجارية، رُوّجت كواومبيا بيكشرز لـ "هُوس لورانس" وهي ظاهرة أسمتها مجلة فوج "إبهار الصحراء"، امتدت لتشمل منتجات شركة إليزابيث أردن لمستحضرات التجميل من كريم الشيخ للوجه إلى "برانس" لورانس الصغير للبلاغ والحمام التي سوّقتها شركة جيبس للملابس الداخلية بنيويورك. أتى التلقّي النقدي المبدئي متفاوتا. كان فيلم لورانس العرب قد رفض كlišيشيات الملاحم العسكرية وبدلا من ذلك صور بطلا مضطربا يثير تمردا قوميا ليعلم في النهاية أن المرجح هو أن يُخدع محاربوه ويُحرّموا من التحرر الذي وعدهم به. وجد محرر النيويورك تايمز بوزلي كروذر، وهو يتحدث بلسان متوسطي الثقافة المشوشين،

الفيلم مبهرًا بصريا لكنه "خالٍ من المشاعر الإنسانية" وأن السيناريو "يعوزه الرونق ووطنان في آن". لكن بولين كيل، الناقدة ثاقبة البصيرة من النيويورك، رأت أن الفيلم، من "أكثر الأفلام صقلا وإتقانا ورقيا وإثارة بمشاهده باهظة التكلفة" هذا رغم أنه من الواضح أن غالبية جمهور المشاهدين "ليس لديهم أدنى فكرة عما كان يفعله العرب والأتراك في الحرب العالمية الأولى، ولم يميزوا الأشياء والأشخاص أو يعرفوا سبب اهتمام الإنجليز". وتساءلت ما إن كان بإمكان الجمهور استيعاب الأحداث التاريخية المتداخلة، وطبيعة الابل المعقدة من خلال مشاهد فيلم.

وعلى أية حال، ليس ثمة سوى القليل من الأفلام التي شاهدها مثل ذلك الجمهور العريض أو بثت رسالة على ذلك النطاق الواسع مثلما حدث في حالة فيلم لورانس العرب. حصد الفيلم أيضا جوائز الأكاديمية لعام ١٩٦٢، وُرشح لعشر جوائز، وفاز بسبع جوائز أوسكار (أفضل فيلم، أفضل إخراج وتصوير وإخراج فني وموسيقى ومونتاج وصوتيات). حينما شاهد الشاب ستيفن سبيلبرج "لورانس" في تكساس قرر أن يصبح مخرجا، وهذه ظاهرة تكررت مع الكثيرين غيره. ومنذ آنذاك، وكلما اندلع الصراع في الشرق الأوسط، يتم إحياء الفيلم. أعيدت المشاهد التي كانت قد حُذفت من النسخة الأمريكية لتقصير مدة عرض الفيلم وتعتبر عمليات الإحياء تلك ليست فقط شاهدا على جودة الفيلم السينمائية بل أيضا على غموض رسالته الشعبية/ الإمبريالية. ووفقا لما انتهى إليه ستيفن سي. كايون أستاذ الأنثروبولوجي بهارفارد في تأويله المفصل للفيلم، فإن "لورانس العرب" معادٍ للإمبريالية واستشراقي فج في آن. ومن منظور كايون ما بعد الحداثي فإن سبب تعقيدات خطاب الفيلم وتصويره للأحداث والشخصيات تعود إلى تعاليمه الإمبريالية وإلى سياقات أصوله التاريخية (ما بعد حرب السويس) والثقافية (حركة الشباب الغاضبين).

وأيا كانت مكوناته، فقد أثبت مزيجها أنه لا يتأثر بمرور الزمن. صوّت صنّاع الأفلام في استطلاع للرأي أجرى عام ٢٠٠٤ على أن "لورانس العرب" هو أفضل فيلم بريطاني صنّع على الإطلاق (كان بين الأفلام المرشحة لقاء عابر Brief En

counter وأمال كيار. "Great Expectations" وبعد عامين، وفي مسح أجرتة Premiere، النورية السينمائية البريطانية، تم اختيار دور البطولة الذي أداه بيتر أوتويل أعظم أداء في تاريخ السينما. أيضا، زايد عملاء للقصر الملكي الأردني، بأسلوب غير مباشر، عام ٢٠٠٦ بصالة سوثي للمزادات على العلم القطني الفعلي الذي قيل إنه كان يرفرف على الحصن التركي بالعقبة والذي أعيد تمثّل عملية الاستيلاء عليه في مشهد مفعم بالفيلم، زاينوا بمبلغ ١٦٤٨٠٠ جنيه استرليني وحصلوا عليه. وعلى الرغم من كل ذلك، فمازالت الشكوك مثابرة. أكان الأمر كله مجرد تلفيق وجلاً واحتيالاً؟ أسمى لورانس التمرد العربي "مشهدا جانبيا لمشهد جانبي". هل أسطورة "ملك العرب غير المتوج" برمتها مجرد فيرقة؟

أضحت حجة هذا الادعاء مألوفة اليوم. من الجلي أن أفكار لورانس السياسية كانت غامضة مشوشة، متجذرة في مُثُل الفروسية التي علّا عليها الزمن، أضيفت إليها طبقة من الأبوية الإمبريالية لتجعلها خصبة. كان يجيد إبداع الخرافات، بالأسلوب الهومري إذا حكمنا عليه من منظور خير، لكن، يُعتقد بعامّة أنه كان مُلففاً بالسليقة اخترع أسطوريته التي أدّاها بنفسه دون غيره. سعى إلى الشهرة دونما خجل أو حياء، حتى حينما كان يُقلل من أهميتها. وبيون شك، كان يؤدى الألعاب التي يقوم بها بنوع من الاستغراق الذاتي المُستخفّ النزق، وأحياناً، أن يعترف بهذا بصراحة أسرة. كتب في خطاب له عام ١٩٢٩ يقول "لا بد أن أضيف كلمة أخيرة حول تصرفاتي الشاذة. لا بد لأى أحد صعد إلى القمة بمثل سرعتي (تذكر أنني كنت أكون عصامياً بالكامل، كان لوالدى خمسة أبناء وبخل لا يتجاوز ٣٠٠ جنيه إسترليني في العام) ورأى الكم الذي رأيته داخل قمة العالم، لا بد له وأن يفقد طموحاته وبنوافعه العادية التي حركته إلى أن وصل القمة. لم أكن مُلكاً أو رئيساً للوزراء، لكنني صنعتهم، أو لعبت بهم، وبعد ذلك لم يتبق لي الكثير مما يمكنني فعله في هذا الاتجاه".

من الواضح أن هذا هو مفتاح الموقف برمته. لم يأخذ لورانس نفسه أو الحياة على محمل الجد التام. ظل تلميذا نزقا حتى حادث التصادم المميت الأخير. بالغ البعض في أهمية ميلاده غير الشرعى التى عرفها العالم للمرة الأولى من خلال أدلينجتون عام ١٩٥٥. لكن من بين أولاد لورانس الأب الخمسة، وكلهم غير شرعيين، فقد أصبح ند Ned فقط لورانس العرب. ومن الحقيقى أنه ظل يتوق للاعتراف بنسبه إلى النبالة الأنجلو/ أيرلندية وفقا لرأى الدكتور حورانى الذى يعرضه باقتدار، لكن هذا ينطبق أيضا على أشقائه الذين لم يصنع أى منهم ملوكا أو رؤساء وزارات.

أما استنتاجنا الذى نعرضه ببساطة فهو أن شخص لورانس يلقى أصدقاء من ذلك الشيطان الشعبوى المشاغب الذى يكمن داخلنا جميعا، يروق لمحطم القواعد فى أعماقنا، متحدى الأرثوذكسية والإجماع الذى يُجبر العالم على قبول تقيييمه الخاص الوقح لذاته. قد يكون أسلوبه النثرى منمقا، لكنه نادرا ما يكون متكلفا طنانا. أضافت معرفته الأكاديمية بالأدب الكلاسيكى ومكانته ككاتب إلى سحره كرجل أفعال، وبخاصة بالنسبة للمثقفين المتصقين بمكاتبهم. من ثم، قلنوه مكانة فى مصاف المبدعين والعظماء بدءاً من أندريه مالرو، ووصولاً إلى الشاعر والروائى جابريل دانو نزيو، وإرنست يونجر. أما بالنسبة للعاديين من الناس، فقد كان لتكفيره عن ذنوبه بالتحاقه بصفوف المقاتلين نفس وقع سحر تخليه عن تقاهات المكانة الاجتماعية التقليدية. اقتربت معتقداته السياسية من العاطفية المتهافئة، وعصر الأوسطية البالية لكنها لم تكن وضيعة أو مبتذلة. بصرياً، كان رجلا يصلح لكل الوسائط. وجعلت نظورته الساخرة ثيابه العربية حصينة ضد الضحك. علّق أورويل على غاندى بقوله إنه بالرغم من كل أخطائه وعيوبه فقد خلف وراءه رائحة نظيفة، وهكذا فعل أيضا توماس إدوارد لورانس.

الفصل السابع

المرتدّ

هارى سانت چون بريدجر فيلبى

١٨٨٥ - ١٩٦٠

العقل مكان خاص مستقل بذاته

يستطيع بنفسه

أن يصنع من الجحيم جنة

ومن الجنة جحيمًا

ما أهمية المكان إن ظلتُ أنا كما أنا...؟

الأفضل أن أحكمُ في الجحيم على أن أخدم في الجنة

- الشيطان في "الفردوس المفقود"

للشاعر جون ميلتون (١٦٦٧)

إذا كان ٧ ديسمبر عام ١٩٤١^(١) يعيش في الذاكرة الجمعية الأمريكية يوما للعار، فكيف للمرء أن يصف ٢٩ مايو ١٩٣٣، ذلك التاريخ الأقل ذيوعا؟ تاريخ زواج نِسْر أعمى من ناقة صماء نتج عنه ذرية شائثة جروتسكية؟ بداية هطول مكاسب اقتصادية غير متوقعة، ولغز استراتيجي لا حل له؟ أم أنه كان في جوهره ثارا اكتمل أنجزه شخص بريطاني مُرتد؟ بالنظرة الارتجاعية، كان هذا التاريخ يعني كل هذا وأكثر.

المكان هو السعودية العربية: "مجموعة متناثرة!! من القبائل الخاضعة، جمعها معا عام ١٩٢٥ تحت وطأة السياط مؤسس الملكة عبدالعزيز بن عبدالرحمن سعود المعروف بابن سعود، أكثر منها أمة. المكان: قصر رث (الملك بحاجة إلى أموال)

(١) تاريخ هجوم بيرل هاربور (الترجمة).

بالنزلة، إحدى ضواحي جدة. الشخصيات الرئيسية في مراسم التوقيع هي الشيخ عبدالله سليمان، أمين الخزينة الملكية الماكر، ولويد هميلتون الأمريكي الدمث الذي يبلغ الأربعين من العمر وممثل شركة ستاندارد أويل أوف أمريكا (Socal). من الحاضرين أيضا المترجم نجيب صليّة، وكارل تويتشل مهندس التعدين الأمريكي، الذي وببصيرة مثمرة، عيّن الحدود في عقد يمنح شركة سوكال الحقوق الحصرية لاستخراج النفط من المنطقة الشرقية لمدة ستة عقود (بما في هذا التنقيب تحت سطح البحر وفي الجُرد) نظير مبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه إسترليني ذهب يدفع مقدما، يلي ذلك ٢٠٠٠٠ جنيه إسترليني ذهب بعد ثمانية عشر شهرا. كان ثمة ١٠٠٠ جنيه إسترليني من مجموع هذا المبلغ عبارة عن منحة مباشرة، والباقي ريع متوقع حُدّد بأربعة شلنات عن كل طن يُدفع ذهباً. تلك كانت هي العناصر الجوهرية لما أسمته وزارة الخارجية الأمريكية "الجائزة التجارية العظمى في تاريخ الكوكب".

تم منح مختلف المسؤولين الذين حضروا المراسم أقلام حبر وأهديت حقيبة أوراق إلى المترجم. يتذكر تويتشل قائلاً: "لم تدخل أية أموال أو هدايا أخرى تلك الصفقة مع الاستثناء التالي: منحتني الحكومة السعودية (جائزة) وفقاً لوعدهم ولم تعترض عليها الشركة التي أعمل بها". (من جانبها، تعرض عليه سوكال ١٠٪ ريعاً مستقبلياً لخدماته، لكن تويتشل، الأمريكي المُقتر، يختار بدلاً من ذلك تلقي استحقاقاته بفعلة واحدة قدرها ٧٥٠٠٠ دولار، وهو مبلغ ضخم في تاريخ شركات النفط الكبرى). ثم تحدث عقبة غير متوقعة. يصير ابن سعود على أنه لن يقبل سوى نقود ذهبية، وكانت إدارة فرانكلين روزفلت التي كانت قد تولت الحكم لتوها بواشنطن، قد قررت الاستغناء عن معيار الذهب الاحتياطي في محاولة منها للتعاطي مع فشل البنوك الضخم. تحاول سوكال الحصول على إذن باستثنائها، لكن دين أتشسون الذي كان قد عُيّن لتوّه مساعداً لوزير الخزانة يرفض ذلك. تلجأ شركة النفط بإلحاح إلى مكتب مورجان جرانتى بلندن ليحصل لها على ٣٥٠٠٠ جنيه ذهب من مصلحة سك النقود الملكية. تصل الجنيهات الذهب في موعدها في سبعة صناديق على سفينة للركاب تابعة لشركة P&O، وكل جنيه منها مدموغ بصورة أحد ملوك بريطانيا الذكور مراعاة لما يُفترض أنه الهاجس الذكوري لدى السعوديين. تتم كل هذه الترتيبات بمساعدة الشاب الأمريكي الدمث لويد هاميلتون الذي يصل إلى جدة مع زوجته إيرى وكأنما لقضاء إجازة (ومعه أقلام الحبر) ثم يخفي من التاريخ.

وبالأسطر التي خطتها تلك الأقلام، أنهت أمريكا السيطرة البريطانية على نفط الشرق الأوسط. أما ما لم يكن بنفس الدرجة من الواضح آنذاك فهو أن ذلك الحلف قد ورط واشنطن دونما رجعة في أحوال منطقة ترتبط بالكراميات والأحقاد الجهنمية كتلك التي تصورها قصيدة "الفردوس المفقود" للشاعر جون ميلتون أكثر

من ارتباطها بـ "حقوق الإنسان"، لطوم بين. لذا كان من المناسب أن يلعب دور القابلة في الصفقة هارى سانت جون بريджер فيلبى، الملاك البريطانى الذى هوى. كان فيلبى هو من وجّه الأمور باللعب ضد اتحاد شركات بريطانى كان يسعى للحصول على حق التنقيب بالسعودية. شجع فيلبى ذلك الاتحاد على رفع قيمة العطاء فيما طمأن وزارة الخارجية البريطانية مؤكداً أن كل معلوماتى وجهودى ستكون دونما تحفظ تحت إمرة السيد أندرو ريان الوزير البريطانى الموجود بجدة. وفى الواقع، كان فيلبى يتلقى سرا ١٠٠٠ دولار شهرياً من شركة كالفورنيا التى وعدته بزيادة سخية إذا فاز عطاؤها - ولم يكشف عن هذا الترتيب سوى كملاحظة استطلاعية فى سرد فيلبى لتفاصيل الصفقة الذى نشر فى عام ١٩٦٤ بعد وفاته من خلال معهد الشرق الأوسط بواشنطن.

بالنسبة لفيليبى أنتهت تلك الأتعاب فى وقت حرج. كان آنذاك مستشارا بدون أجر فى البلاط السعودى، وكان يحيا متقشفا على معاش متواضع من الحكومة البريطانية بالإضافة إلى عمولات من الشركات البريطانية التى كانت لها أعمال بالسعودية - عمولات مشروطة بتسديد القصر قيمة قواتيره المستحقة، الأمر الذى غالبا ما كان يستغرق سنوات. هذا علاوة على وجود مطالبات متراكمة على مكتبه بمصاريف المدارس الداخلية لبنائه الثلاث، ورسوم دراسة ابنه هارولد الذى كان طالبا بالسنة الأولى بكلية ترينتى بكامبريدج، الجامعة التى درس بها فيلبى. وقد هارولد عام ١٩١٢ عندما كان والده نجما صاعدا بالخدمة المدنية الهندية. لُقّب بـ "كيم" اسم الجاسوس الطفل فى رواية كيبلينج التى نشرت عام ١٩٠١. وهكذا حدث وأن سنوات كامبريدج التكوينية فى حياة أشهر جاسوس سوفيتى فى القرن العشرين مولتها شركة ستاندارد أويل أوف كالفورنيا التى كان يملكها جون دى. روكفلر الرأسمالى الكبير.

بيد أن النقود وحدها لم تكن حافز "چاك" فيلبى. لتأمل وصفه للقائه مع السير

أندريان بعد أن تمت الصفقة. كان فيليبي وزوجته دورا يستعدان للسفر للقاهرة حيث كان من المقرر أن يناقش أمر حصوله على توكيل سيارات شركة فورد بالسعودية (وقد تم له ذلك). يصف فيليبي ما تلى: تحدثنا عن كل شيء تحت الشمس العربية، لكن فقط كان حينما وقفتُ لأستأذنه في الذهاب أن قلت له: أظنُّ أنك قد سمعت أن الأمريكيين قد حصلوا على الامتياز خزل عليه قولي كالصاعقة وأعتم وجهه غضبا وإحباطا. كان قد تأكد أن نفوذه الذي مارسه من وراء الستار يوما تدخل مباشر، كان لابد أن يقلب الموازين في صالح المنافس البريطاني. لكن هذا لم يحدث: فحتى هو لم يُقدَّر المسألة الجوهرية التي كانت على المحك، أي حجم القرض المبدئي الذي كانت حكومة ابن سعود في أمس الحاجة إليه.

أضاف فيليبي بأسلوب مكبوح نادرا ما استخدمه "كان وداعنا الأخير على قدر من التوتر، هذا على الرغم من أننا كنا دائما قد أبقينا على علاقات ودية بالرغم من الفجوة العريضة التي تفصل آراءنا السياسية وغيرها، وطموحاتنا. كان حقا آخر الترجمات". تربي في مدرسة الهمينة الغربية التقليدية على العالم الشرقي، فيما كنت أنا بالتأكيد من أوائل مناصري تحرير الشرق من كل تحككات الغرب وحصوله على سيادته.

وكان هذا حقيقيا. كان في عام ١٩٢٥ قد استقال من منصب مميز في الخدمة السياسية الإمبريالية لأنه عارض سياسات حكومته شرق الأوسطية، وأيضا (وكان السببان مرتبطين) لأنه شعر أنه لم يكن ثمة تقدير كافٍ لنصائحه وجدارته. انتقل فيليبي إلى جدة، مقره في دوره الجديد كمستشار رفيع المستوى لابن سعود الذي كان قد التقاه أثناء عمله كعميل سياسي بريطاني في الحرب العالمية الأولى. كان قرارا جسورا في توقيت لم يسبق وأن خُطط له. كان ابن سعود مازال يتعلم أساليب القوى الأوروبية العظمى التي كان يحاكمها، بدورهم، أكثر منه جهلا بأهمية مملكته الوليدة. في عشرينات القرن العشرين، كانت المملكة العربية السعودية

ما زالت بشكل أساسي تعتمد للحصول على العملات الأجنبية من تدفق الحجاج الموسمي غير المنتظم على مكة والمدينة، اللتين أصبح ابن سعود راعياً لهما بعد إطاحته بحسين وابنه علي، آخر الأشراف الهاشميين. وعلى الرغم من ذلك، فمن تلك البدايات غير الواعدة، ظهر فيلبى كصانع ملوك غربي ترك أعرق البصمات الاستراتيجية على الشرق الأوسط.

بدا چاك فيلبى، وهو المقاتل، المشاكس، شديد التحمس لذاته، وأنه يحدد في العالم، كالبومة، من أيكته الخاصة. كتب السير ريدر بولارد، زميله عالى الرتبة، وكان أيضاً دبلوماسياً لا يتسمك بالتقاليد، لكنه يتمتع بموهبة وصف المواقف والشخصيات العبيثة، كتب يقول "كان به مسحة من الجنون. تشارك مع إدارات ثلاث - بالهند، العراق وشرق الأردن - ولا أستطيع أن أصدق أنه كان الشخص الوحيد الشريف ذا التفكير الصائب بين كل هؤلاء. بيد أن هذا كان اعتقاده الراسخ، وبهذا الإيمان، وطاقته الهائلة، والقدرة الحقة التي تعمل بالتوازي مع مسحة الجنون لديه، فقد كان يثير الكثير من المتاعب.. لا بد وأن فيلبى كان يشعر ببساطة أنه مثيل لبرمسيوس، يتحدى الآلهة من أجل الخير العام".

كان تقدير بولارد هذا (١٩٤٢) تنبئياً. بالنسبة لزملاء كثيرين كان فيلبى جلفاً. أرعن، لكن الدافع البرومثيوسى كان دائماً هناك. فوصف چاك ببساطة بأنه وغد يماثل وصف هاملت بأنه لا يعدو أن يكون شخصاً متناقضاً ودون جوان وأنه مجرد شخص شهوانى. وفى الحقيقة، كانت شخصية فيلبى معقدة تعقيد نشأته. أرسل والده هارى مونتاجو فيلبى وكان ابناً أصغر لأسرة متوسطة الحال بنوفوك، أرسل إلى سيلان فى سبعينيات القرن التاسع عشر لبدء حياته من جديد كمزارع بُن. وهناك، وعلى جزيرة كلونيالية عُرِف عنها تنوعها الدينى - البودية، الهندوسية، الإسلام، والمسيحية- وُلِد چاك عام ١٨٨٥. كان ثانى أربع أبناء لوالده "مونتى"

وزوجته كوينى الابنة الكبرى للكونونيل چون دانكان، قائد حامية كولومبو. ومثل ابنه، كان مونتى أيضا جلفا أرعن: كان يشرب ويقامر وكان فاسقا يطارد النساء، ومزارعا مقلسا. كانت كوينى التى كانت تتأبىها عائلتها باسم ماى هى التى كانت توجه قرارات الأسرة باتساق، وتلتجئ فى المآزق الحرجة لأقاربها الأكثر ثراء لدفع مصاريف مدارس أبنائها الداخلية بإنجلترا.

فى سنواته المبكرة بمدرسة قبل المرحلة الإعدادية، التى كان ناظرها فيه. فى ميلن (والد الكاتب إيه. إيه. ميلن) أبهر فيلبى الصغير مدرّسه. ويتوصية من ميلن، حصل جاك وهو فى الثالثة عشرة على منحة "الملكة" للدراسة بمدرسة وستمينستر التى كانت تقع (كما تُذكر هو وكله حنين إلى المكان) " فى ظل كنسية وستمينستر ومجلسى البرلمان، ورنات ساعة بيج بن تعلن عن الساعات المتلاشية". حصد كل الجوائز المتاحة - بساحة الكريكت وملعب كرة القدم، ورقعة الشطرنج، ومنصة المناظرات - وفى سنته النهائية أصبح قائد الطلبة بالمدرسة. كان فيلبى أحد الحاصلين على منحة الملكة الذين شاركوا فى قدّاس الملكة فيكتوريا الجنازى عام ١٩٠١ بكنيسة وستمينستر. ويعد ذلك بعام، ويصفته حاصلا على منحة الملك، ساعد فى حراسة الشعارات والأزياء الملكية أثناء مراسم تتويج الملك. عرّف نفسه بأنه "محافظ" و"مسيحي"، ولم يتسبب فى دهشة أحد حينما فاز بمنحة دراسية لدراسة الكلاسيكيات بترينتى كوليدج، كامبريدج.

ومثل وستمينستر، كانت ترينتى مهيبة، ملكية الطلعة والأصول. لا يستطيع الزائر الذى يلج من بوابتها العظيمة (بُنيت بين عامى ١٥٢٨-١٥٣٥) إلى فناءها العظيم (الأكثر اتساعا من بين كليات كامبريدج أو أكسفورد) سوى أن يستشعر أشباح إنجلترا (Albion الاسم الرومانى لإنجلترا) القديمة. تُذكر حجرات إسحق نيوتن التى تواجه الفناء الداخلى الزوار بتفوق ترينتى فى العلوم بدءا من فرانسيس بايكون وحتى نيلز بور. وفى عام ٢٠٠٧، كان باستطاعة الكلية أن تحصي ما لا يقل

عن واحد وثلاثين من خريجيه نالوا جائزة نوبل (أكثر من فرنسا وبلجيكا مجتمعين) وخمسة حائزين على ميداليات رياضية (ومثلهم في أفرع الرياضيات). ثمة تماثيل نصفية في جميع الأنحاء للعظماء في الكنيسة والدولة وسط تماثيل المهويين الذين أهدتهم ترينتي للآداب ابتداء من أندرو مارفل واللورد تينسون وحتى فلاديمير ناباكوف. وبين المقتنيات الثمينة في مكتبتها الرائعة التي صممها السير كريستوفر رن توجد أول مسوِّدة للفريوس المفقود للشاعر جون ميلتون. حينما التحق جاك فيليب بترينتي في الفصل الدراسي الذي يبدأ يوم ٢٩ سبتمبر (فصل القديس مايكل) عام ١٩٠٤، كان هذا الإرث موضع إعادة تفحص ضارٍ في جدالات حول الاشتراكية، فرويد، الحركة النسوية، حركات السلام، الإلحاد، وداروين (الذي كانت علاقاته وتلاميذه يطغون على المشهد).

تذكر فيليب فيما بعد ذلك المشهد حيث قال إن النقد والجدالات كانت تشكل "نكهة ومذاق الحياة بكامبريدج في تلك الأيام" وإن ترينتي كانت بالنسبة لكامبريدج ما كانته تلك الجامعة بالنسبة للمملكة المتحدة، أي منطقة الجدل الثقافي الحاد الحر. كان أبرز فلاسفة الجامعة (برتراند راسل، ألفرد نورث هوايتهد، وجي. إي. مور) من ترينتي، وكذلك كان المجنون الثقافيون الذين شكلوا الدائرة الداخلية في جماعة بلومسبري (ليتون ستراتشي، كلايف بل، ولينارد وولف، وكانوا جميعهم قد تخرجوا مؤخرًا في ترينتي). كانت "شلة" فيليب الخاصة تضم جيمس ستراتشي، شقيق ليتون ومترجم فرويد، وجواهرلال نهرو الذي دعم جاك عضويته لجمعية المناظرات بالكلية وكانت تسمى The Magpie and Stump. بيد أن فيليب، وطوال سنواته بالكلية أخفى رايكاليته المتنامية. ومن الأمور الكاشفة أنه عمل بالتمثيل واشترك في إنتاج طلابي لمسرحية الدكتور فاوستاس لمارلرو.

وفي الواقع، فقد كان فيليب قد أصبح بالفعل ضمن جماعة الفايبين، (أي أنه أصبح اشتراكيًا حر الفكر). وفي سنته النهائية بالكلية أجهت صراعاته الفكرية

المضطربة أزمة أخلاقية لديه. كان قد طُلب منه إعداد ورقة بحثية يُلقِيها في جماعة مقال الأحد المسائية بترينتي واختار موضوعه "الأعراف وإرباكاتها". قال فيلبس عن تلك الورقة إنها كانت آخر عمل (Swan Song) اختتمت به مرحلتى الأرثوذكسية، وأدركت فيما كنت أكتبها أنني لم أعد أؤمن بأى من الرؤى التى طرحتها. كان العالم الذى كنت قد عشتَه حتى آنذاك ينهار على مرأى منى، لكننى تمسكت ببناقدى دفاعاً عن أى موقف يتعذر الدفاع عنه. كان هذا قرب نهاية عامى الأخير بكامبريدج، وكان الميدان جد المختلف الذى ظهرت فيه لأول مرة كمُدافع عن الاشتراكية، والفكر الحر، واللاأدرية، وغير ذلك مما يحرمُه ذلك الكيان الشرانى الذى كان قد بدا حتى آنذاك آمناً ومُرضياً، كان ميداننا مختلفاً بالفعل. كان "الميدان جد المختلف" الذى أشار إليه جاك هو "المشرق"، كما كان الجميع يسمونه، بلغاته وعقائده المتعددة، وكان من جذب فيلبس إلى المشرق هو أستاذ مرموق بكامبريدج.

كان إيوارد جرانفيل براون بين المؤثرين على تفكير جيله عن "المشرق" رغم أنه لا يحتفى به كثيراً. أثناء السنوات التى قام فيها بالتدريس بكلية بمبروك بكامبريدج كان جميع من بالجامعة يعرفونه رؤية العين. كتب لورانس جرافتى - سميث أهد تلاميذه يقول عنه "من الناحية الجسدية كان تجسيدا لعمليات التطور: كان قصير القامة، عريض المنكبين، مُطأطأ الرأس ومُنحني الكتفين، تتدلى ذراعاها الطويلتان بأسلوب جروتسكى أثناء سيره المتشاقل. لكن وجهه ذا الملامح الوسيمة الواضحة كان يتوهج فكراً وحباً للبشر". أضاف جرافتى - سميث الذى أصبح فيما بعد مسئولاً قنصلياً بالشام قائلاً إن محاضراته كانت تماثل "قطيعاً من كلاب الصيد تنبح بأعلى صوته". كما تذكره بولارد الذى كان يعمل مساعد أستاذ بكامبريدج وأصبح ديبلوماسياً أيضاً بأنه كان "شهاباً، لا قاطرة" يلقي محاضراته بتدفق

وسرعة رهيبة. كان براون لغوياً لا يُتقن التركية والعربية والفارسية والهنديستانية إضافة إلى اللغات الأوربية المعتادة (وكان قد أتقن تلك اللغات وهو يستعد للحصول على درجته الجامعية بمرتبة الشرف رغم أنه كان قد تلقى التحنيرات من أنه لا تكاد توجد وظائف تدريس باللغات الشرقية). ترجم الأعمال الأدبية الفارسية التي كان يُقدِّرها أيما تقدير وأسف لأن إنجلترا لا تشجع أبنائها على دراسة اللغات الشرقية بما يكفي مقارنة بالأمم الأوروبية العظيمة.

وبإيجاز، كان براون مستشرقاً، نموذجاً لذلك الصنف من الأكاديميين الذين استهجنهم الراحل إدوارد سعيد بصرامة في كتابه "الاستشراق" (١٩٧٨)، وكان سعيد ذو الأصول الفلسطينية المسيحية قد رأى أن الأكاديميين من أمثال براون قد صنعوا الدرع الثقافي الواقى الذى برزوا به قمع الغرب للشرق وأعدوا له. بيد أن هجوم البروفسور سعيد، من حيث شموله وعنفه، لم يكن جد منصف لبراون، بين آخرين. فى عام ٢٠٠٦ نشر المؤلف البريطانى روبرت إيروين كتاباً بعنوان "شهرة المعرفة" ساق فيه محاجات يردُّ بها على اتهامات الراحل إدوارد سعيد. دافع إيروين عن براون ويبيِّن أنه لم يكن أبداً مؤيداً للمهيمنة الإمبريالية، بل بدلاً من ذلك كان يوجه النقد اللاذع لوزارة الخارجية. حينما قسمت بريطانيا وروسيا عام ١٩٠٧ بلاد فارس إلى مناطق لنفوذهما، ثم بعد ذلك أخمدتا معا الثورة الدستورية هناك، كان "جونى" براون هو الذى قاد، دون كلل أو ملل، الحملة المناهية بحرية الفُرس. وأصبح براون، المدافع الناري عن حقوق السكان الأصليين، وفقاً لتعبير إليزابث مونرو "أكثر الرجال شعبية بكامبريدج" (وهذه مرتبة بالإمكان القول إن البروفسور سعيد قد تمتع بها فى كولومبيا فى تسعينيات القرن العشرين).

بعد أن اجتاز فيليبى الاختبارات الصارمة التى أمكَّته للالتحاق بـ "الخدمة المدنية الهندية TCS أى بالشرحية الحاكمة بالإمبراطورية، وقع فى إسر سحر البروفسور براون. ولأنه لم يكن قد غادر إنجلترا أبداً منذ عودته من سيلان عام ١٨٩١، أقام

فيلبي بترينتي في محاولة منه لتعلم الهندوسمانية والفارسية. وفي ذلك العام، وبدافع من إحدى نزواته، قرر براون تدريس منهج للمبتدئين في اللغة العربية، الأمر الذي رآه فيلبي فيما بعد بأنه "كان إصبع القدر تستدعيني للسير في طريق لم أكن قد حلمتُ أبداً أن أخطوه". يصف فيلبي في سيرته الذاتية "أيام عربية" براون بأنه "كان بالتأكيد أكثر مدرس ملهم التقية في حياتي، مشاكسا متقلبا إلى أقصى الدرجات لكنه كان متحمسا بضمراوة - غزير الثقافة والعلم- بدرجة يصبح المرء معها وقد تملكه الشغف لمعرفة الشرق وأناسه".

في ديسمبر ١٩٠٨، رحل جاك فيلبي إلى الهند حيث توجه إلى لاهور، عاصمة إقليم البنجاب، ووصلها في وقت احتفالات الكريسماس بأسلوب المغتربين. بدأت الاحتفالات بحفل "لاهور" الراقص واستمر الرقص حتى الفجر، ثم تلاه مباريات في الكريكت والبولو. وبلغت الذروة في سباقات الخيل افتتح مراسمها نائب الحاكم السير لويس داين الذي وصل في عربة تجرها الجمال، تتبعه سيارة رولز رويس على شكل بجعة بداخلها أمراء هنود يرتدون عمامتهم. بعد ذلك استقر فيلبي في منصبه الجديد بچولوم، وهي محطة على طريق جراند تراك الذي يربط البنجاب بالحدود شمال الغربية. وهناك، عُرف مسئول المقاطعة الشاب بقراراته الحكيمة كقاض محلي، وتمكن من حفظ السلام بين السيخ والمسلمين والهندوس. وعملياً، مثل هذا انطلاقة على الطريق الوظيفي التقليدي بـ ICS.

لكن لم يكن له أن يسير في هذا الطريق.. في كلكتا، التي كانت مازالت عاصمة البنجاب، كان الإصلاحى اللورد مينتو قد خلف مؤخرًا اللورد كيرزن ذا العقلية الإمبريالية كنائب الملك، وترأس المكتب الهندي بلندن چون مورلي الليبرالى وكاتب سيرة جلادستون. كان مينتو قد تسبب في ترويع المسؤولين البريطانيين التقليديين حينما تحدث عن إضافة هندي حقيقى إلى "مجلس الحكم" وعن تقليص الغالبية

الرسمية أي البريطانية التابعة لسلطة الانتداب في مجالس الأقاليم. تمت الموافقة على هذا التغيير على الفور، وكانت إصلاحات ميتينو- موري بين الخطوات التجريبية الأولى باتجاه الحكم الذاتي بالهند. وسار التغيير قُدماً بشكل ملموس، لكن فيليبي استبق منحني السير بجسارة. يؤكد قائلاً في مذكراته "ربما كنت أول اشتراكي يدخل الخدمة المدنية الهندية، وأظن أنني رُوِّعت معظم أصدقائي بإعلاني منذ البداية أنني متمسك بمثال استقلال الهند".

حينما كان يظهر بمطعم سلاح الفرسان أو بنادى الضباط، كان يتسبب فورا في تلميحات الحضور وتعليقاتهم. أسموه الرابيكالي الشيوعي المتحمس. بيد أن أول تمرد لفيلبي لم يكن سياسياً، بل كان هو زواجه. في عام ١٩٠٩ التقى في حفل راقص براولبندي في الكريسماس بنورا جونستون وأغرم بها. كانت فتاة جميلة حمراء الشعر ابنة موظف بريطاني صغير. كتب فيليبي إلى والدته يقول "ميس جونستون إحدى فانتات راولبندي، رقصها جميل، وقد شرفتني بعدة رقصات في جميع حفلات الرقص التي استطلعت حضورها". بيد أن والدة فيليبي لم تعتقد أن مكانة نورا تليق بابنها الموهوب، وعارضت خطبتهما في إحدى الشجارات النادرة بينهما. في ١٩١٠، تزوج جاك وبنورا بالكثدرائية الأنجليكانية بموري، وهي مدينة جبلية قصد بها أن تُحاكي القرى الإنجليزية (وما زالت تحاول ذلك كما اكتشف مؤلفا هذا الكتاب لدى زيارتهما لباكستان عام ١٩٨٩). كان إشبين فيليبي الملازم برنارد مونتجومري قريب أمه الشاب الضابط بفرقة وارويكشير الملكية، (والذي اشتبك فيما بعد، وهو برتبة فيلد مارشال مع رومل قائد الجيش الإيطالية بإفريقيا، وأيضاً يبايتون في أوروبا).

بيد أن غضب نائب الحاكم داي من فيليبي تعمق حينما أتهم فيليبي، مسئول الإقليم الجديد، بتوجيه لكمة غير قانونية إلى أنني مدرس هندي قيل إنه أبدى ازدراءه أثناء شجار بالقرية. بيد أنه حينما عوقب فيليبي لانتهاكه إحدى السياسات

الراسخة للحكم المدني البريطاني (ICS) بالهند، لم يكتف بتحدى قرار دايين، بل إنه التجأ إلى نائب الملك حاكم الهند لعكس ذلك القرار، وكان هذا من حق العاملين بالخدمة المدنية. خفف نائب الملك العقوبة لكنه أبقى التوبيخ. يكاد يكون من المؤكد أن فيلبى لم يخضع لأى إجراء تأديبي آخر وذلك بسبب مهاراته اللغوية الهائلة، ووصول السير مايكل أوبياور، الرئيس الإقليمي الجديد، ذلك الأيرلندى الذى تربى بكلية باليول باكسفورد على قاعدة عدم تقويم اعتذارات أو تفسيرات أبداً. راقب دوراً وفيلبى للسير مايكل، وأعجب بروح فيلبى المشاكسة، وهناك ظنُّهُ فى أنه طلب من فيلبى فرض الرقابة على الكتابات المحرصة بالصحف البنجابية التى تُنشر باللغة المحلية. قال فيلبى فى خطاب إلى والدته "أحظرُ أوهى إشارة مُحرصة على العصيان، ولو أننى صحفى، لكتبت الأكثر تحريضاً، ولغوت شوكة فى جسد الحكومة". وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى أصبح فيلبى الشريك المحلى لـ"الفرع الخاص" ومقره لندن للرقابة على المقاتلين السيخ المشتبه فى تلقيهم مساعدة من ألمانيا، وبذلك اتسع نطاق مهامه.

وصلت إلى أسماع السير بيرسى كوكس تقارير عن نشاط فيلبى ومواهبه اللغوية، وكان كوكس مكتشفاً للمواهب من الدرجة الأولى وكبير المسؤولين السياسيين بالبصرة، قاعدة القوات الأنجلو/هندية التى كانت آنذاك تتقدم داخل بلاد الرافدين. وبتزكية- أوبياور - التحق فيلبى بالقسم "السياسى والسرى"، الذى كان يبدأ قرنه الثانى، بصفته وكالة الجاسوسية التى يفخر بها نائب الملك، حاكم الهند. كتب فيلبى إلى دوراً متحمساً "فرصتى أخيراً! المجال الذى ظلت أطلب بدخوله لوقت طويل". وكانت تلك حقاً فرصته، واستغلها إلى أقصى الحدود. فى نوفمبر ١٩١٥، وكانت چاكنه قد زينت لتوها بشارات "الضابط السياسى" البيضاء، ذهب فيلبى إلى البصرة لاستلام مهام منصبه. وسرهان ما كَوْنُ علاقات ودية مع تلميذة كوكس الموهوبة جرتود بل، المستعربة المتمكنة مثل فيلبى نفسه. وفى غضون

أشهر أصبح جزءاً من شبكة إقليمية من المسؤولين متوسطي المستوى - السير مارك سايكس، تى. إى. لورانس، دايفيد هوجارث، والكولونيل إيه. تى. ويلسون - الذين كان لكل منهم نهج جد مختلف لكنهم كان لهم ذات الهدف المشترك لجعل بريطانيا جزءاً عضوياً من الشرق الأوسط بمجرد انتهاء "الحرب العظمى من أجل المدينة والحضارة".

كانت العلاقة بين فيليبى الذى كان فى الثلاثين من العمر، وميس بل التى كانت فى أواخر الأربعينيات، ودية ورسمية فى آن. كانت چرترود تتاديه، لا باسمه "چاك" أو "سانت جون" بل "عزيزى المستر فيليبى"، ويدوره كان دائماً يدعوها "ميس بل" حتى حينما سافرا معا للاجتماع بشيوخ العشائر العربية فى الأحراش الجنوبية، أو لعمل مسح لشط العرب، النهر الذى يفصل بلاد الرافدين عن فارس. وأثناء عام ١٩١٦، بلغت تكسات البريطانيين العسكرية ذروتها باستسلام الجيش الأنجلو/هندي المحاصر بمدينة الكوت العراقية. وفى هذا العام المحيط، كانت مهمة فيليبى الشاقة هى المساومة مع العشائر المحلية حول تعويضاتهم نظير الأطعمة التى استولت عليها قوة المهمات الغازية. وهكذا تعلم المساومة والسباب بالعربية، مستخدماً اللهجات المحلية، أو اللغة التركية/ العربية الرسمية التى كان يُفضلها مشايخ العشائر. وفى مارس ١٩١٧، تحول التيار العسكرى فى صالح بريطانيا. اقتحم الجيش المتقدم بقيادة الماچور جنرال ستانلى مود بغداد، عاصمة المنطقة المحتلة التى كانت قد بدأت تُعرف باسم العراق. اتخذ كوكس بغداد مقراً له بصفته "المفوض السامى المدنى" ولحقت به چرترود بل كسكرتيرة للشئون الشرقية. سعى كلاهما للتوفيق بين رأى نيودلهى - جعل العراق "محمية بريطانية يستعمرها مهاجرون هنود" - ووعود لندن بالتحريض التى كان الجنرال مود قد أعلنها رسمياً.

فى مايو عام ١٩١٧، تم نقل فيليبى، مؤقتاً، إلى بغداد حيث رحبت به چرترود فور وصوله بتلك الكلمات الحارة (التي تذكرها فيليبى فيما بعد): "لقد سعدتُ

بقومك. إن الفوضى تعم المكان هنا. السير بيرسي مرهق فوق الاحتمال، ولا يوجد بالمكتب من يعرف المبادئ الأولية عن أي شيء؛ إنه لوضع بشع عليك أن تجعل الأمور تستقيم. يضيف فيلبي في مذكراته، في محاولة منه للتظاهر بالتواضع، "إن جرتود كانت دائماً تميل إلى استخدام صيغة التفضيل - ولم يكن في جعبتها ثمة نعوت معتدلة معتادة". حول المفوض السامي المدني الذي شعر بالارتياح والامتنان، الرسائل الواردة كي يقوم فيلبي بعمل غريبة أولية لها. صاغ جاك ريدو مناسبة ليعرضها على كوكس للموافقة، الأمر الذي كان يعني، كما تذكر أنني، وفي وقت وجيز، أصبحتُ ملماً تماماً بجميع شئون القسم السياسي، ومتبصراً بأبعادها. من ثم استطعت "أن أضمن أفكارى الخاصة بحرية فى المسودات التى كنت أقدمها لكوكس كي يتفحصها".

ومن موقعه المطلع المميز ذاك، علم فيلبي فى أغسطس ١٩١٧ أن الكولونيل آر. إى. إيه. هاميلتون، العميل السياسى بالكويت، كان يقترح إرسال بعثة خاصة إلى الرياض لاستطلاع احتمال التعاون مع شيخ القبائل العربية المساعد ابن سعود. وتصادف، فى ذات الوقت، وصول الكولونيل آرنولد ويلسون إلى بغداد على أمل إعفائه من مهامه الشاقة بالبصرة. بعد لقائه مع كوكس، توقف ويلسون فى مكتب فيلبي المجاور لمكتب كوكس. بدأ يقول "لقد تحدثت مع كوكس واقترح علىّ التحدث إليك.. إن الوضع الحالى مستحيل". سأل فيلبي (بأكبر قدر مستطاع من البراعة) لِمَ ماذا حدث؟. أجاب ويلسون "لا أستطيع إنجاز شىء مع كل تلك التجاذبات بين بغداد والبصرة. الأمور بحاجة إلى تنشيط هنا. هذا علاوة على أن كوكس مرهق بالعمل، ويحتاج إلى من يساعده". لدى تلك النقطة، تحدث فيلبي بأسلوب مباشر "انظر يا ويلسون، هل تعنى أنك تريد أخذ مكانى هنا على هذه المائدة؟" أجاب الكولونيل ويلسون "نعم، أظن أن هذا هو خلاصة الأمر". قال فيلبي "فى تلك الحالة، يمكن ترتيب الأمر بمنتهى السهولة - بشرط واحد. تعلم أمر البعثة المقترحة إلى

ابن سعود... أقنع كوكس بإرساله في تلك المهمة وإمكانك أخذ وظيفتي متى أردت". رد ويلسون "حسنا، سأذهب للقاء كوكس مباشرة".

وبعد خمس دقائق، عاد الكولونيل ويلسون، و الذي سرعان ما أصبح القائم بأعمال المفوض السياسي والمهندس لأراضي العراق وحدوده في المستقبل، عاد وقال ببساطة "كوكس موافق". وهكذا، تقاضى فيليب الكولونيل هاميلتون الذي كان يكبره بأربعة عشر عاما، والتف حوله، وأصبح مبعوث كوكس إلى ابن سعود. قال فيليب عن هذا برضا بعد ثلاثة عقود، "وبهذا الأسلوب وصلت إلى عتبة قدرى".

هنا، نصبح بحاجة إلى الخطو خلفا. في عام ١٩١٧، كانت ثمة ثلاث ممالك تتنافس على السيطرة في وسط شبه الجزيرة العربية. كانت هناك الحجاز التي يحكمها حسين شريف مكة، والذي كان في العام السابق، ويمساندة بريطانية، قد دعا إلى الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية، أما في حائل، فقد ظل أحد لوردات الحرب ويدعى ابن رشيد مواليا للأتراك ومعارضاً لكل من حسين، والأمير ابن سعود، حاكم نجد وعنو آل الرشيد التقليدي. ووسط ذلك التنافس كان ابن سعود يمتلك سلاحا حاسما ذا حدين: الوهابيين، المحاربين الجهاديين الذين اشتهروا منذ زمن بضراوتهم وتعصبهم.

كانت مملكة ابن سعود تدين بأصولها إلى مصلح إسلامي شهير اسمه محمد بن عبد الوهاب الذي وُلد عام ١٧٠٣، ويقال إنه حفظ القرآن في سن العاشرة. ويعون من عمله وحماسه، هاجم عبد الوهاب انحلال المسلمين، ووجه غضبه بخاصة إلى عبادة الأصنام والقديسين، وخص من بينهم الشيعة الكفار. كان أبرز معتنقي دعوة ابن عبد الوهاب عام ١٧٤٥ محمد بن سعود الذي أسس أول مملكة وهابية بنجد والتي تمت بأسلوب يثير الإعجاب لتصبح في ظل ابنه عبدالعزيز إمبراطورية صحراوية مهيبة. وبالتزامن مع هذا، بدأ المسلمون الذين يذهبون للحج يعتنقون

العقيدة الوهابية القتالية ويحملون رسائلها إلى أركان العالم الإسلامى القصبة التى تمتد شرقا من حدود الهند الشمالية الغربية إلى سومطرة التى كانت خاضعة للحكم الهولندى، وباتجاه الجنوب من السودان إلى الصومال والقرن الإفريقى.

أعجب الرحالة الغربيون المبكرون فى القرن التاسع عشر ببساطة الوهابيين الوردية لكن تعصبهم أثار قلقهم. كانوا يحظرون الموسيقى والرقص والشعر والأضرحة والزينة الجسدية لأنهم رأوا أن الرسول لم يقر تلك الممارسات. لم يوافق البدو جميعهم على هذا. وخلال قرن من الحروب القبلية المستدامة، تفاوت حجم المملكة الوهابية، وفى عام ١٩٠٠ انكمش تمددها الشاسع إلى مركزها الداخلى (نجد) حينما فقدت مكة والمدينة. وفى فترة الاضطرابات تلك، تعلم الحجاج المسلمون والرحالة الأوروبيون معا الإبقاء على مسافة بينهم وبين الوهابيين الفاضبين والذين كانوا يتميزون بلحامم الشعثة وأثوابهم القصيرة وسيوفهم المنذرة. حذر ويليام جيفورد بالجريف - تعلم باكسفورد، وعمل ضابطا بالجيش الهندى، ثم انضم إلى أخوية الجزويت الفرنسيين - حذر فى عام ١٨٦٥ من أن الوهابيين "لا يملكون القدرة على التقدم، يعاونون التجارة، ويبغضون الفنون بل وحتى الزراعة، ويتميزون بالتعصب والعوانية إلى أقصى الدرجات". كما عبر عن مخاوفه من أن تلك الطائفة تشكل مصدرا جديدا لحروب الإسلام المريرة التى قد تهدد العالم غير الإسلامى تهديدا خطيرا.

ردد مخاوفه الكولونيل لويس پلى، الذى كان خلفا لذلك شخصا تقليديا، وكان المنسوب السامى البريطانى فى منطقة الخليج الفارسى فى ستينيات القرن التاسع عشر، وكان لا يثق فى بالجريف بسبب ارتباطه بالفرنسيين والجزويت. وعلى الرغم من ذلك، فقد حذر بعد زيارته لنجد من أنه "على حين أن الإمام نفسه كان شخصا عاقلا ورجلا مجرباً.. إلا أنه كان محاطا بأكثر الرجال الذين يمكن للمرء أن يلقاهم خطورة وتعصبا وانعدام ضمير وسرعة احتياج". أو كما عبر مراقب آخر، أى

فيلبي، الذي تحدث مستندا إلى مرجعيته الخاصة، قائلا إن الحركة الوهابية متزاوجة مع فكرة عظيمة التي كان لابد من أجل الإبقاء عليها أن تظل مشتتة بدرجة حرارة عالية: "مثل حرائق الغابات التي لا يمكن السيطرة عليها طالما ظل هناك وقود يغذيها، وفي هذه الحال، فإن وقودها هو العدوان المستمر، والتوسع على حساب من لا يشاركونهم في تلك الفكرة العظيمة". هكذا كتب فيلبي عام ١٩٣٠ (كان الوهابيون يبادلونه الكراهية، وكان كلما وصل إلى الرياض للذهاب إلى بلاط ابن سعود يقابلونه بازدياء حقيقي).

بيد أن هؤلاء كانوا المؤمنين ملتهمي الحماس الذين مكثوا ابن سعود من طرد ابن الرشيد من الرياض عام ١٩٢٠ شم، وفي أعقاب حرب أهلية مستتالة، كانت سيوفهم هي التي استولت على مكة والمدينة من علي ابن الشريف حسين عام ١٩٢٥. وهكذا، جمع ابن سعود بالقوة إمبراطورية وهابية ثانية، خلع عليها بفخر عام ١٩٣٢ اسم عائلته. كان إنجازُه أكثر إثارة للإعجاب لأن لم يكن لديه جيش نظامي بل اعتمد على مقاتلي الوهابيين القبليين الذين كانوا يُعرفون بالإخوان ويسكنون تجمعات متغلقة متناثرة. لم يحتفظ الإخوان بأي أسرى، فقد أجادوا قطع الروس والأطراف واحتقوا بانتصاراتهم بصقوف من الروس المغروسة في أسياخ من الحديد مدببة الأطراف. وفي تقدير لناقد معادٍ لهم ومُطْلِع في أن الكاتب الفلسطيني سعيد ك. أبو ريش، فإنه ما بين عامي ١٩١٦ و١٩٤٧ حدث ستة وعشرون تمردا على الأقل ضد ابن سعود، وانتهى كل منها بعمليات قتل جماعي قادها الإخوان.

وعلى الرغم من أنه لابد من الإقرار بوجود قدر من التحيز والمبالغة، لكن، وبدون أننى شك فإن من عينوا أنفسهم "جنود الله" قتلوا مُبشرا بروتستانتيا كان من بين الأمريكيين الأوائل الذين سافروا إلى المنطقة الوسطى بجزيرة العرب. كان هو المقدس هنري بيلكرت، وكان مسافرا بصحبة تشارلس آر. كراين رجل البر من

شيكاغو، والذي كان مناصرا لحقوق العرب. أثناء الفصل معتدل الحرارة عام ١٩٢٩ كان متوجها بسيارته الشيفورليه من الكويت إلى الرياض على أمل لقاء ابن سعود. وبالقرب من سلسلة تلال حمصة سقطوا في كمين لمقاتلي الإخوان المميزين بغطاء رأسهم الأبيض ذي الشراريب السوداء، ولحاهم المصبوغة بالحناء، واللون الأسود المحيط بأعينهم. قُتل بيلكرت بإطلاق الرصاص عليه، لكن كراين نجا بأعجوبة ولم يصب بأذى. وفيما كان يتمثل للشفاء تلقى خطابا يقطر بالندم من ابن سعود (أغلب الظن بإيعاز من فيليبي)، أعرب فيه عن أسفه من أن يتعرض 'صديق للعرب للهجوم في أراضي العرب'. ودعا المليونير لزيارة الرياض.

تلقى هذه الحادثة وتتمتها (التي سنصفها لاحقا) الضوء على الإرباكات الراسخة التي تواجه نوى النوايا الحسنة (!!) من الغربيين الذين يحاولون جاهدين فهم المملكة العربية السعودية. من يصدق المرء من، وماذا يصدق؟ التصريحات الرسمية الحثيثة الجادة عن صداقة المملكة للغرب؟ أم الحقيقة الملموسة حيث تغرق نفس الحكومة التي تطلق تلك التصريحات الأموال والميزات على المقاتلين الإسلاميين الذين يزعمون التفويض الإلهي بذبح الكفار وتعذيبهم وتشويه أجسادهم؟

كانت تلك هي الحيرة التي وجدت بريطانيا العظمى نفسها تواجهها حول المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية أثناء السنوات المؤدية للحرب العالمية الأولى. طرح الكابتن ويليام هنري شكسبير، سمي جده الشاعر المسرحي، وأول مسئول بريطاني بحث على عقد تحالف عسكري مع ابن سعود، طرح تفسيراً متفائلاً لذاك الموقف الملفز. كان السير بيرسي كوكس، قد عين شكسبير ممثلاً لبريطانيا في الكويت وعميلاً له، وأضاف إلى مهماته أمر استكشاف منطقة الربع الخالي التي لم تكن موجودة على الخريطة. في يناير ١٩١٤، توجه شكسبير على ظهر ناقه إلى الرياض

لإجراء مناقشات مع ابن سعود الذي كان قد التقاه لأول مرة بالكوييت عام ١٩١٠. وبعد الترحيب به في الرياض التي كانت قد غدت مرة أخرى عاصمة المملكة الوهابية، أكد الحاكم الشاب للكابتن أنه كان شديد الاهتمام بالتحالف مع البريطانيين ضد تركيا. ذكر شكسبير أن الملك قال له "نحن الوهابيين نكره الأتراك، بدرجة أقل فقط من كراهيتنا للفرس، بسبب ممارساتهم الكافرة التي أتوا بها إلى العقيدة الحقبة النقية التي أنزلت علينا في القرآن". وفي الواقع، كما اختتم الكابتن، فإن كراهية الأتراك تبني الفكرة الوحيدة المشتركة بين جميع القبائل، من ثم، فليست الثورة فقط أمر محتملا، بل ستكون موضع ترحيب في جميع أرجاء شبه الجزيرة".

ومع اندلاع الحرب العظمى في أغسطس عام ١٩١٤، وجد تبني شكسبير لابن سعود دعما في نيودلهي أكبر مما وجده في لندن، حيث كان فريق "الشرقيين"، فيما كانوا يبحثون قيام ثورة عربية محتملة، يفضلون حسين شريف مكة، رأوا أن "حسين" وأبنائه، ولأنهم عاشوا بالاستانة كانوا أكثر صقلا ورقيا، من ابن سعود البدوي الفظ، وفي جميع الأحوال، فبحسبفتهم من نسل الرسول، كان من المحتمل للهاشميين أن يكونوا أكثر قدرة على حشد التأييد العربي. لكن تقدير شكسبير أثبت أنه نيوتني، وبمرور الوقت، قُدِّرَ لال سعود أن تكون أحد أكثر الذريات الملكية في العالم ثراء وقوة وعددا.

في ١٩١٥، توفي شكسبير بطلقات نارية بينما كان يوجه الوهابيين وهم يقاتلون أثناء معركة بين ابن سعود وقوات ابن رشيد الموالية للأتراك في حائل. كان الكابتن شكسبير في السادسة والثلاثين وقبل بدء القتال تم حثه مرتين على ارتداء الثوب العربي بدلا من زيه العسكري لكنه رفض في المراتين. استولى جنود ابن رشيد على خوذة شكسبير حيث عرضها الأتراك في المدينة المنورة كدليل على إدانة ابن سعود بالقتال ومعه أحد الكفار. نشرت دورية ذا وورلد البريطانية مرثية أكثر سماعة

ورُفياً في ٢٣ فبراير ١٩١٦ تكريماً للكابتن شكسبير جاء بها "كان أحد الرجال الإنجليز الذين كان كميليج يعشق تصويرهم في كتاباته. لم يشته شيء. كان يحمل اسماً إنجليزيا ليس من السهل إضفاء المزيد من المدح عليه، لكنه فعل". بعد سنوات، قال فيليبي مُسترجعاً الأحداث إنه كان من المحتمل لشكسبير أن يقود هو الثورة العربية بدلاً من لورانس وأنه بعد ما حدث "فقد تأثرت حكومة الهند عميقاً بموته لدرجة أنها قررت التخلي عن المغامرة العربية، وكان أن أمسك العاملون بمصر بزمام الإشراف عليها وأتت النتائج مرضيةً ورومانسية".

في نوفمبر ١٩١٧، كان فيليبي نفسه متوجهاً إلى الرياض منتظياً ناقة. كان قد أفاد من النوايا الطبية التي رعاها شكسبير ومما سبق من جهود دبلوماسية قام بها كوكس وبِل اللذان كانا قد التقيا معاً ابن سعود بالكويت قبل ذلك بعام وكونا معه علاقات ودية. ويفضل نفوذ كوكس بشكل أساسي، وافق البريطانيون على منح ابن سعود ٥٠٠٠ جنيه إسترليني ذهب شهرياً كجزء من تحالف محدود. كان المبلغ متواضعاً نسبياً، وحينما علم ابن سعود أن منافسه الشريف حسين كان يتلقى أربعين ضعف هذا المبلغ: ٢٠٠٠٠ جنيه إسترليني ذهب شهرياً وأطناناً من الأسلحة، جُرّحت كبرياؤه. لكنه قابل معاملته كشخص أدنى منزلة بعزة نفس. كان هذا متسقاً مع تقييم جرتود بل القاطع لشخصية ابن سعود الذي أعدته للمكتب العربي والذي تضمن هذه الصورة الكلامية بظلالها الحسبية:

"بلغ ابن سعود الأربعين لتوه رغم أنه يبدو أكبر من هذا ببضع سنوات.. تكوينه الجسماني رائع، ويبلغ طوله أكثر من ستة أقدام، ويتحرك بمظهر شخص متعود على الأمر والقيادة. ورغم أن بنيته الجسدية أضخم من المشايخ الرُحّل النمطيين إلا أن لديه شيم العربي الأصلي محمد الملامح كالنسر، منخاراه ممتلئتان، شفثاه ناتئتان، نفته طويل ضيق تُبرزه لحية منببة. يده جميلتان ذات أصابع نحيفة.. لا

تتوافق حركاته المتأنية وابتسامته الحلوة البطيئة، مع نظرة عينيه مسدلتى الجفنين المتأمل، ورغم ما تضيفه إلى سحره ووقاره، مع الدرك الغربي عن الشخصية النشطة القوية. بيد أن التقارير تعزو إليه قدرات على التحمل الجسدى نادرة من نوعها حتى فى بلاد العرب ذات الطبيعة القاسية.. أثبت كقائد للقوات غير النظامية جسامته، ويجمع مع مناقبه كجندى إلاما بفن إدارة الدولة ذى القيمة الكبيرة لدى رجال القبائل.. يمثل ابن سعود كسياسى وحاكم ومُغير نمطا تاريخيا. والرجال من أمثاله نادرون فى أى مجتمع، لكن الأعراب ينجبونهم بانتظام.

حينما وصل إلي تخوم الرياض، التقى فيليبي بالكولونيل هميلتون الضابط الذى كان سيحل هو محله، وأعطاه خطابا من كوكس يؤكد فيه على أن چاك سيكون هو المتحدث باسم بغداد. لم يعترض هميلتون، لكنه تمهل بأسلوب مهذب لعشرة أيام أجرى فيها محادثات مع ابن سعود ودعم مصادقة فيليبي على قائمة طلبات الأمير: أربعة مدافع ميدان، ١٠٠٠٠ بندقية بما يلزمها من ذخائر، ٢٠٠٠٠ جنية إسترليني تدفع مقدما للإمدادات، ٥٠٠٠٠ إسترليني شهريا لدفع رواتب ١٠٠٠٠ مقاتل من الإخوان فى حملة لمدة ثلاثة أشهر ضد ابن رشيد. ثم رحل هميلتون، وترك زميله الأصغر سنا لمواصلة المحادثات السرية مع زعيم الوهابيين.

لم يترك فيليبي سجلا مفصلا لتلك المحادثات، لكن إليزابيث مونرو وازنت بعناية بين الإشارات المتاحة وانتهت إلى أن المواضيع الرئيسية كانت هى موقف ابن سعود من المسيحية وطموحه لأن يبرز شريف مكة. ووفقا لإعادة تشكيل مونرو للأحاديث التى دارت بينهما فإن ابن سعود أكد أن المسيحية عقيدة تنتسب إلى أصول الدين الإسلامى وأن المسيحيين هم من أهل الكتاب، وأصر على أن "نقاء العقيدة كان أهم من أى شىء آخر بالنسبة له" (تضيف مونرو أن من الواضح إن ابن سعود لم يكن يعبر عن آراء الإخوان الذين كانوا يعتبرون المسيحيين كلابا، لا يجوز أن يأكل المرء معهم أو حتى أن يتحدث إليهم).

وحينما افترقا كان فيليبى مقتنعا أن ابن سعود كان مقدرا له أن يقود المنطقة الوسطى من جزيرة العرب ويوحدها، وأن الموجودين بالقاهرة قد أخطأوا بفداحة حينما وضعوا رهاناتهم على الشريف حسين. أبلغ ابن سعود صديقه الجديد بأسلوب شبه مازح ألا يعود إلا إذا أمدّه البريطانيون بكل المساعدات التى طلبها. وفى أول رسالة بعث بها إلى كوكس قال فيليبى إنه إذا كانت الأسلحة، والأموال الموعودة وشبكة الوصول "سيكون الجيش الوهابى على استعداد للسير للقتال ضد حائل فى مطلع إبريل ١٩١٨". ثم رحل لود أن ينتظر إجابة. قرر فيليبى أن يسلك الطريق الطويل إلى مصر بحيث يعبر شبه الجزيرة العربية من البحر إلى البحر. كان هذا عبورا وعرا شاقا لم يكمله قبله سوى شخص أوربى واحد، الضابط البريطانى الكابتن فوستر سادلير عام ١٨١٩. كان ذلك أول إنجاز لفيلبى فى قوة التحمل فاز عنه بوسام الفاوندر من الجمعية الجغرافية الملكية (يحتفظ أرشيف الجمعية الجغرافية بمذكراته المتسخة صفحاتها من كثرة التقلب والمبقعة بعرقه وما تحويه من وصف نموذجى للحياة النباتية والحيوانية للمنطقة. وأيضا مذكرات عن المسافات والارتفاعات والمعاليم المميزة).

توقف فيلبى فى طريقه بالحجاز حيث عقد اجتماعا مهذبا مع الشريف حسين الذى قبله على وجنتيه وخاطب إياه قائلا: "يا ابنى". رسم فيلبى صورة تمجيدية لعدو ابن سعود الرئيسى: رغم صغر بنية حسين واقترابه من سن السبعين آنذاك، إلا أنه كان منتصب القامة قاطعا فى حديثه.. كان يرتدى ثيابا حجازية جميلة فاخرة ويلف عمامة على طاقيته المكاوية. تحدث بالفصحى السليمة بجمل رنانة أنهجتنى، ونادرا، وفقط فى اللحظات العاطفية، ما ارتد إلى الاستخدامات المحلية للمدينة أو الصحراء.

ثم مضى فيلبى إلى القاهرة وارتاد "ملاهى مصر" للمتعة، حيث التقى السير رينالد وينجايت خليفة السير هنرى ماكماهون كمنوب سام، ودايفيد هوجارث

ومرّسبه بالمكتب العربي (باستثناء لورانس الذي كان برفقة الجيوش العربية وهي تتقدم إلى دمشق). تمكن چاك من القيام برحلة فرعية إلى القدس التي كانت الجيوش البريطانية قد استولت عليها لتوها وأقام بالفندق الذي أطلق عليه من جديد اسم "فندق" اللّنبى والتقى حاكم القدس المّعین حديثا السير رونالد ستورز. أسعده حظه واستطابه. تمتع ببهجة التحديق من جبل الزيتون حيث كان بإمكانه أن يرى خيام الأتراك بوادى الأردن. كانت الإمبراطورية العثمانية تنهار، وبدت الحرب الأوروبية الطويلة قرب نهايتها فيما بدأ تدفق المشاة الأمريكيين على الجبهة الغربية. من ثم كان الاهتمام الفاتر بزيادة المساعدات لابن سعود من أجل أن يخوض المعركة ضد ابن رشيد بحائل الأمر الذى نظر إليه على أنه عرض جانبي لعرش جانبي لعرش جانبي. وهكذا كان قدر فيلبى أن يعود إلى ابن سعود ومعه الأنباء غير المرحب بها. وكما جاء فى مذكراته:

"كان ابن سعود مبتهجا لعوبتى وكان شديد الاهتمام بسماع قصة تجارىي مع الملك حسين. سره أن يسمع أن السلطات العسكرية فى بلاد الرافدين كانت على استعداد لإمداده بـ ٥٠٠٠ بنديقة و١٠٠ صندوق من الذخائر ودعمه بخمسة آلاف جنيه إسترليني ذهب شهريا. وبنوره، كان بإمكانه أن يشير إلى الصحراء حيث كانت نوقه الملكية تملا بطونها بالكلا استعدادا للرحلة الشاقة للمعركة الوشيكة، وإلى خيام جزء من الحشود التى سترافقه. بدا هذا وأنه جيش مهيب."

غير الأمير، بحكمة، توجهاته تبعا للظروف المتغيرة، وتخير تلك المناسبة ليتيح لفيلبى لمحة عن عاداته الزوجية غير المعتادة. حوالى الساعة الواحدة صباحا علّق ابن سعود بالقول "حسنا، هذا يكفي الليلة. على الذهاب إلى زوجتى الجديدة - تعلم أننى تزوجت عصر اليوم". كان فيلبى قد سمع الأنباء بالفعل، لكن فى الصباح التالي، استيقظ محارب الصحراء فى الخامسة، ليرحل فى الفجر، ولا يرى زوجته التى قضى معها تلك الليلة مرة أخرى أبدا. كان قد تم طلاقهما رسميا، مُنحت

زوجته التي أضحت زوجة سابقة الهدايا الملكية وكما قيل، فقد شعرت قبيلتها بالامتنان لتوقف الملك لديها ليلة واحدة. علق فيليب قائلا: "أدركتَ ومع مزيد من الخبرة أن كثيرا من زيجات ابن سعود الأسطورية كان لها لون سياسي أو ديبلوماسي".

قيل إن ابن سعود ضاجع ما يربو على ستين من العذراوات، ومن المعروف أنه أنجب ثلاثة وخمسين ابنا معترفا بهم. لا يوجد أى إحصاء لعدد البنات اللاتي أنجبهن أو لذريته من جواريه العديداً. يكفى القول إنه وفي غضون أجيال ثلاثة ازداد عدد آل سعود أسياً؛ يبلغ عدد طاقم الأمراء ما يقارب السبعة آلاف أمير، غير أن العدد المضبوط يظل من أسرار النولة. من المقول أن تنخيل أن ابن سعود كان يروق له أن يدغدغ مشاعر فيلبى بالفوائد الأيروسية المغرية التي يجنيها الذكور من اعتناق الإسلام، ولنا أيضا أن نهدس أن چاك كان يُنصت إليه.

بعد أن تراجعت الحرب التي كان من المفترض لها أن تنهى كل الحروب في نوفمبر ١٩١٨، عاد فيلبى إلى إنجلترا في إجازة ممتدة بعد أن استحق المجد عن جدارة لمنجزاته في الصحراء. وفي لندن، تمت استشارته كما يجب برئاسة مجلس الوزراء، وبخاصة حول الصراع المتنامي بين الشريف حسين وابن سعود. ورغم انتهاء الحرب، استمر البريطانيون في دفع الدعم المالى المتفق عليه للطرفين المتصارعين مع زعمهم الحياد فى تلك الحرب الأهلية. وفى واقع الأمر، جزئيا ويفضل فصاحة تى . إى. لورانس وصيَّته، حابى مجلس الوزراء بالإجماع جيش الأشراف بالرغم من انتصارات المقاتلين الوهابيين غير النظاميين على النظاميين الحجازيين الذين سلحتهم بريطانيا. وخوفا من حدوث مذبحة فى مكة والمدينة، حث اللورد كيرزن بصفته وزيرا للخارجية فيلبى على الاضطلاع بمهمة لإحلال السلام. قبل چاك هذا التكليف بحماس، وفى طريقه إلى بلاد العرب، التقى لورانس، ووجد

(كما كان متوقعا) أنه ليس ثمة حاجة لخدماته لأن ابن سعود كان قد اتخذ قرارا حكيما بكبح جماح مقاتليه من الإخوان، وذلك، جزئياً، لتحاشي حدوث مواجهة مع بريطانيا.

وفي تلك الأثناء، كان تمرد قد اندلع في ربيع ١٩٢٠ في العراق بتلعغر في الموصل تم خلاله قتل حامية بريطانية؛ وسرعان ما انتشرت الثورة في منطقة أسفل الفرات رغم محاولات القائم بأعمال الحاكم المدني، إيه. تى. ويلسون لاحتوائها. تزامن هذا مع إطاحة فرنسا بفيصل ابن الشريف حسين عن عرش سوريا. ومرة أخرى، ظهرت الحاجة إلى مواهب فيلبى، وأيضاً إلى وجود السير بيرسى كوكس ببغداد (وكان هناك بالفعل) ليحل محل ويلسون المتخبط، لما له من قدرة على تهدئة الأوضاع. وهناك ببغداد، طلب كوكس من چاك أن يعمل مستشارا لوزارة الخارجية في الحكومة المؤقتة التي كانوا قد "رقعوها" من عناصر متنافرة. وهكذا، أصبح فيلبى صديقا وداعما لوزير الخارجية السيد طالب نجل نقيب البصرة، والذي كان سنياً وقومياً وكان كوكس قد نفاه إلى الهند عام ١٩١٥، لكنه عاد ليقود العراق (كما كان يأمل). استمر كوكس ينظر إلى طالب على أنه زعيم للدهماء، مثير للشغب، كما كانت جرتروود بل تحتقره وتميل إلى دعم الإشراف كحل، فيما اعتقد إيه. تى. ويلسون أن الحكم الذاتي العربى هو، جوهرى، إرداف خُلفى، أو جمع بين لفظين متناقضين. وكما فصلنا سابقا، تم اختطاف طالب بالقوة في الوقت المناسب، ونفيه إلى سيلان.

كانت السياسة البريطانية قد استقرت آنذاك، ووفقا لاتفاق تم أثناء مؤتمر رفيع المستوى بالقاهرة في مارس ١٩٢١، على خلق عرش لفيصل بالعراق، وتنصيب عبدالله، شقيقه الأكبر على شرق الأردن التي كانت قد أنشئت مؤخرا. وهكذا حدث أن طلب كوكس من فيلبى مرافقة فيصل في أول جولة له بالعراق للتعرف على رعاياه الجدد. ووفقا لما قاله شخصيا فإن فيلبى أخبر فيصل أنه من شبه المؤكد أن

يخسر في الاستفتاء النزيه الذي وعد البريطانيون بإجرائه في العراق. حينما عاد فيليب إلى بغداد استدعاه كوكس إلى مكتبه وقال له إنه يبدو أن الأمور لم تكن على ما يرام بينه وبين فيصل الذي اشتكى برمرة من موقفه منه أثناء رحلتها في أنحاء العراق وأعلن أنه لن يمكث هناك إلا إذا تأكد من دعم جميع المسؤولين البريطانيين له. أجاب فيليب ببراعة إنه التزم فقط بسياسة كوكس لأن البريطانيين كانوا قد وعدوا العراقيين باستفتاء والجميع كانوا يعلمون أنه ليس شمة فرصة لفصيل كي يفوز، وأنه قد أخبره بذلك بصراحة. أجابه كوكس قائلاً إنه يعلم أنه قد فعل ذلك، لكنه لا بد وأنه يعرف أيضاً ما تريده الحكومة البريطانية. رد فيليب بالقول إنه يعرف ذلك بالتأكيد لكنه لا يفهم لم لا تُعين الحكومة فيصل ملكاً بأسلوب صريح ومباشر إن كانت تريده ملكاً للعراق بدلاً من إصرارها على مهزلة الانتخابات. انتهت المقابلة باستقالة فيليب وتعبير كوكس المهذب عن أسفه ونقاش ودي حول الشخص المناسب الذي سيخلفه في منصبه.

لكن رد فعل دورا فيليب لم يكن وديا حينما أعلن زوجها أثناء حفل شاي في صالون الأسرة أنه قد استقال. حينما قالت چرتروود بل التي تصادف وجودها "چاك، أشعر بالأسف لسماعي هذه الأنباء" سارت دورا مسرعة متخفية إليها إلى الباب وقالت "لا، لست أسفة". كانت دورا حاملا، وقلقة بشأن كثرة التنقل، ولم تهدأ جزئيا إلا بعد أن سمح كوكس للزوجين بالإقامة مؤقتا بمنزلها في بغداد. لكنها انزعجت حينما أخبرها فيليب أنه سيتركها وحدها لمدة ثلاثة أشهر أثناء عطلة ببلاد فارس.

عاد فيليب من طهران في أكتوبر بعد مولد ابنته الجديدة بشهر. وعلى الفور، أطلعه كوكس على البرقية التالية من وزارة المستعمرات: "يريد لورانس الذي يعمل مؤقتا كبير ممثلي بريطانيا بشرق الأردن إعفاهه على الفور من منصبه ويقترح فيليب خليفة له نحن نوافق. فضلا اعرض المنصب على فيليب، وعليه، وفي حالة

قبوله، أن يذهب بالطائرة فوراً إلى عمان لإجراء مشاورات مع لورانس وعبدالله. ومن هناك، عليه زيارة المنسوب السامي بالقدس والذهاب من هناك في أسرع وقت ممكن إلى لندن حيث يقابله وزير المستعمرات (تشرشل). يتوقف تأكيد التعيين على موافقة جميع الأطراف المذكورة. استعلم كوكس "حسناً، وما رأيك؟" بالطبع أقبِل. عبّر كوكس عن ارتياحه وأبلغ فيلبس بالذهاب إلى عمان على أول طائرة متاحة، وأضاف إن دورا ستكون موضع الرعاية وأن بإمكانها اللحاق به بعد الولادة. يعلق فيلبس في مذكراته بالقول "تفاجأت زوجتي بهذا التطور الجديد، وربما شعرت بقليل من الحزن لتركها وحدها مرة أخرى في هذا الوضع الحرج. لكن حقاً، لم يكن لي خيار في الموضوع". توحى مثل تلك الجملة بالسبب الذي أدى إلى انفصال الزوجين لاحقاً رغم عدم طلاقهما أبداً. وإلى النهاية، ظلت دورا تدعم زوجها بإخلاص واستمرت تفعل ذلك حتى بعد أن تزوج فيلبس ثانية من جارية عربية، ورغم اعتراض والدته فإن چاك فيلبس (أو هكذا يبدو للمؤلفين) هو من كان قد تزوج من امرأة (دورا) تفوقه مكانة وجدارة.

بعد أن أصبح كبير المستشارين البريطانيين لدى الأمير عبدالله في أكتوبر ١٩٢١، استقر سانت جون ودورا في منزل غير مريح من أربع غرف ليس به صرف صحي أو مدفئة في عاصمة تشكلت بأسلوب فوري وكانت أشبه بمحطة قوافل كبيرة. يمكن تمييز ثلاث مراحل في علاقاته بعبدالله: شهر عسل قصير، هدنة طويلة، وأخيراً، حرب باردة. كانت ثمة مشاكل منذ البداية إذ اعتقد عبدالله أن مناطق سوريا والعراق وفلسطين وبلاد العرب المجاورة جزء من إرثه، وغدت الغارات عبر/الحدودية دائمة، دموية ومتبادلة. كان الأمر الأكثر حساسية هو تعاملات الملك مع السير هربرت صمويل، المنسوب السامي بفلسطين والذي كان يحكم في ظل "نظام انتداب" غير محدد الهوية أو الشكل من أجل إنشاء "وطن قومي" لليهود

العالم، دون توفير أى دور سياسى حقيقى لغالبية السكان الأصليين العرب. كانت علاقات قبلى بصمويل ودية. لكن فيما مضت الأشهر، تملكه الضيق حينما علم أن السير صمويل قد غرف من ميزانيته الخاصة ليرضى، سرا، إسراف عبدالله، الذى، وحتى كملك، قاوم توسلات فيلبى لكبح إسرافه والوفاء بوعوده بإنشاء برلمان.

كانت السنة الفاصلة هي ١٩٢٤ حينما أدت أحداث ثلاثة إلى قلقلة الشرق الأوسط الإسلامى. كان أولها هو قرار مصطفى كمال أتاتورك فى مارس إلغاء الخلافة، ومعها لقب الخليفة الوراثى الذى ظل يحمله السلاطين العثمانيون لفترة طويلة من الزمن، والذين كان مؤسس الجمهورية التركية الجديدة قد أطاح بأخهم قبل ذلك بعامين. كانت الخلافة منصبا روحيا له تاريخ معقد. فى قرون الإسلام الأولى، أدى الجدل حول من هو أحق بالخلافة إلى انقسام بين من أصبحوا شيعة "على" وبين أهل السنة. ويعد أن فتح الأتراك بلاد العرب اكتسب السلاطين العثمانيون لقب المنصب ومكانته. فى عام ١٩٢٤، تصادف أن أنهى البريطانيون الدعم المالى الذى كانوا يدفعونه أثناء الحرب للحفاظ على السلام بين الشريف حسين وابن سعود. منح هذا الإجراء ابن سعود حرية شن الحرب على حسين، الذى كان فى نفس العام ذاك - التطور الكبير الثالث - قد تهور ولقب نفسه "خليفة" بناء على حفز ابنه عبدالله أثناء زيارة رسمية قام بها الحسين لشرق الأردن. أدى ذلك إلى إغارة مقاتلى ابن سعود المتعصبين على الحجاز لمعاقبة "الخليفة" حسين الوق الذى تفرقت قواته فيما هرب الحاكم متنازلا عن سلطانه الملكية لابنه على. سقطت المدينتان المقدستان فى يد مقاتلى ابن سعود من الإخوان، وحوصرت جدة من قبل قائد وهابى نحيف أشعث أصبح فيما بعد أول ملك، منذ أكثر، من قرن يوحد الجزيرة العربية.

أنداك، كان فيلبى قد سئم نهائيا بلادة عبدالله؛ وكانت صورة ابن سعود هى التى تزيّن مكتبه. كانت انتصارات ابن سعود قد أشعرتة بالنشوة، ومن ثم قام فى

إبريل ١٩٢٤ بالاستقالة من الوكالة المدنية الهندية ليشق طريقه مستقلاً بنفسه. ندين للكاتب البريطاني إيتش. في. إف. ونستون الذي تخصص في التنقيب بون كلل في الأرشيفات الاستخباراتية ندين له بالمعلومة المثيرة التالية: كان أحد أجهزة الرقابة في القوات الجوية الملكية قد اعترض، بحسن نية، مراسلات فيليبي السرية مع ابن سعود في الوقت الذي كان يعمل فيه كبير الممثلين البريطانيين لدى الملك عبدالله، ومستشاره الموثوق به، وعندئذ (هكذا يكتب ونستون) "أدار فيليبي ظهره لكل الكيانات الواقعة تحت الانتداب وذهب لخدمة القائد العربي الوحيد الذي كان يكن له الإعجاب". كانت رسائل فيليبي السرية السابقة (قد اكتشفها موظف يدعى ديلون تعرف على خط فيليبي العربي ونبه رئاسة مجلس الوزراء إلى ولاء جاك المزوج).

وبعد أن تحرر أخيراً من قيود البيروقراطية، استغل فيليبي ما يستحقه من إجازة نهاية الخدمة عام ١٩٢٤ لإعادة صلته بجنوره الإنجليزية ولترتيب أمر استقرار دوراً وأطفالهما بلندن. وهناك، أمل أن يحول معلوماته ومعارفه الخاصة إلى ميزة ككاتب، وأيضاً أن يستخدمها بأسلوب مربح أكثر بالعمل كوكيل للمستثمرين البريطانيين. لكنه اكتشف أنه لم يكن ثمة اهتمام كبير بإقامة مشروعات في بلاد العرب. عبر دافيد هوجارت رئيس المكتب العربي زمن الحرب عن الحكمة السائدة في مجلس الوزراء البريطاني في محاضرة بعنوان: "الوهابية والمصالح البريطانية" ألقاها بلندن في يناير ١٩٢٥ أمام جمهور من النخبة. اعترف هوجارت بأن انتصارات ابن سعود كانت لافتة بالطبع، وبأن شبه الجزيرة العربية كانت بالفعل طريقاً سريعاً استراتيجياً إلى الهند، لكنه تساءل "ما مصالحنا في شبه الجزيرة العربية؟" وقدم هذه الإجابة "قد يكون الأفضل أن نذكر ما ليس ضمن مصالحنا. وعلى خلاف المصالح التي لنا في الأجزاء الأخرى من العالم فإن ما لنا من مصالح هناك لا تنجم بأية درجة تستحق الذكر من احتياجنا لأية منتجات لهذا

البلد أو من أى اهتمام بالتجارة معه. لا يبيع البلد أو يشتري قدرا شبيهاً كافٍ لرجحان الميزان السياسى لصالحه. كما أننى لا أتوقع، مع كل الاحترام للمضاربين من الهيئات والأفراد الذين مضوا يسعون وراء الامتيازات منذ الحرب، لا أتوقع أن يأتى اليوم الذى فيه يصبح هذا (عدم وجود مصالح) غير حقيقى. (من الأمور الدالة أن فى المناقشات التى تلت المحاضرة وسُجلت كتابةً، أنه لم يقدم أى من المرجعيات البارزة، بمن فيهم السير بيرسى كوكس والسير أرنولد ويلسون أى رأى مخالف).

ما كان يهم الحكومة البريطانية بالفعل هو أمن الأوروبيين الموجودين فى مصيدة بلاد العرب وبخاصة حينما حاصرت قوات ابن سعود جدة. تكس حوالى خمسين ألف مدنى أوروبى فى ثانى أقدم مدينة بالجزيرة العربية، ميناء بحرى يتمتع بالرياح المواتية وفجوة استراتيجية وسط الشعب المرجانية تحمى مرفأه على البحر الأحمر. كانت جدة تعتمد اعتماداً كلياً على الأجانب - على التجار، لكن وبدرجة أكبر على الحجاج المسلمين الذين كان يصل عددهم سنوياً، آنذاك إلى مائة ألف نسمة الذين لا يتكلم غالبيتهم سوى القليل من العربية ويحتاجون إلى "مطوفين" لرافقتهم إلى مكة. أما بالنسبة للبدو الذين كانوا يقيمون بالقرب منها فكانت جدة تعرف باسم "بلاد القناصل" المرافىء للمرقة والكفار. من ثم كانت المخاوف بالخارج حينما بدأت مدافع ابن سعود تدك أسوار المدينة العثمانية وتهدم مدينة جدة القديمة الجذابة بشوارعها الضيقة وشرقاتها المطلة عليها.

وعلى الرغم من أن قبلى كان مازال، رسمياً، موظفاً مدنياً بريطانيا إلا أنه توجه إلى جدة متطوعاً بخدماته لإحلال السلام، مما تسبب فى غضب وزارة الخارجية البريطانية. تلقى ريدر بولارد، القنصل البريطانى فى جدة التعليمات ليوضح للجميع أن قبلى لا يتمتع بأية صفة رسمية وأنه إن أبدى أى نزوع لعصيان أوامر حكومة جلالة الملك فسيخاطر بفصله وحرمانه من معاشه. تلافى

فيلبى بفطنة آية معركة مباشرة مع مجلس الوزراء، ومضى ينمى سرا روابطه مع ابن سعود، وترك الانتطباع بأنه مازال بشكل ما ممثلاً ذا نفوذ لدى حكومة جلالة الملك. حينما استسلم على، ابن حسين الأكبر، وأبلغ فيلبى أن باستطاعته دخول جدة بأمان، فعل ذلك وواجه نظرات مقاتلى الإخوان المنتصرين المحققة المعادية.

وصل دانييل فاندنر مويلن، القنصل الهولندى الجديد فى ذات الوقت الذى استولى فيه الإخوان على جدة. كان منصبه القنصلى ذا أهمية خاصة وذلك لأن (كما كان يحب أن ينكر من بيدهم السلطة محلياً) الملكة ويلهلمينا، ملكة هولندا كانت تحكم أكبر ثانى جالية مسلمة بجزر الهند الشرقية الهولندية (كانت أكبر جالية فى الهند). تعلم فاندنر مويلن أن يعيش فى ود وسلام مع عالمى جدة، عالم العرب المسلمين، وعالم المسيحيين الغربيين اللذين وحدهما آنذاك نفور مشترك من الوهابيين. أصبحت الهيويتانية (التشدد الوهابى) النظام السائد وكانت الشرطة الدينية (رجال الأمر بالمعروف) يفرضونها بصرامة. حظر التدخين ومعه كل أنواع الموسيقى، هذا مع السماح للغربيين باقتناء الإسطوانات طالما لا تلوث موسيقاها شوارع المدينة الضيقة. أمر جميع المسلمين بإطلاق لحاهم، أما من قاوم من الأجانب، فكانوا معرضين لجذب الأنظار إليهم واحتقارهم بصفتهم نصارى. وعسكرياً، ظل الإخوان قوة راسخة منثرة. ووفقاً لتقديرات القنصل الهولندى، فقد كانوا منتشرين فى مائتى مستوطنة، وكان بإمكانهم تجميع خمسة وعشرين ألف جندى فى الميدان بسرعة. ويعد انتصاراتهم فى الحجاز، بدأوا بأسلوب مُذتر فى الضغط لتوسيع الملكة الوهابية أكثر "لأن رسالتهم كانت مقدسة وكانت مشيئة الله وسيله واضحين أمامهم".

بعد لقائه الأول الودى مع ابن سعود تشجع فاندنر مويلن. حينما سأل عن استبعاد المسيحيين من مكة والمدينة أجاب الملك "كان الرسول يسمح للمسيحيين بالحق فى دخول مكة والبقاء فيها". هل كان ذلك يعنى أن بإمكان زائره الهولندى

الذهاب هناك؟ قال ابن سعود إن من حقه الذهاب لكنني لن أعطيك إذنً بذلك. إذا سمع زملائك أنك قد ذهبت فسيصرون على أن تكون لهم حقوق متساوية، وأنا لا أريدهم في مكة. هذا علاوة على أن أتباعي البدو متعصبون جهلة. ستواجه المشاكل معهم وقد تُقتل قبل أن أستطيع مساعدتك. يضيف فائدر مويلن في مذكراته قوله إنه لم يحدث وأن تحدث إليه أي مسلم، أو أي قائد مسلم بهذا الأسلوب الواضح الصريح. أحب الديبلوماسية الهولندية فيليبى وصادقه، وكان فيليبى يخبر جميع من كانوا على استعداد للاستماع إليه أنه مبتهج لتولي "مليكي" عرش الحجاز.

ذكر في خطاب أرسله إلى أسرته واختار، شبه مازح له عنوان "رسالة إلى الفيلبيين (أتباع فيليبى)" أنه حينما وصلت أنباء التتويج في مكة إلى جدة "رفرفت الأعلام مبتهجة على سواربها وأطلقت ١٠١ قذيفة مدفع تحية للمناسبة معلنة للعالم أن چاك كان مصيباً مرة أخرى. لكنه بالطبع دائماً ما يكون مصيباً!". لكن من الناحية المادية، كانت الفترة ما بين عامي ١٩٢٥، ١٩٣٠ سنوات عجافاً بالنسبة لچاك فقد كانت المشاريع التجارية التي بدأها قد نضجت لكنها لم تكن قد أثمرت بعد: كان، ومن أجل زيادة دخله الهزيل يرسل طوابع بريد عربية نادرة إلى دورا التي كانت قد استقرت نهائياً بلندن لإعادة بيعها إلى هواة جامعي الطوابع.

كان يشعر أنه بحاجة إلى الاقتراب أكثر من ابن سعود الذي احتفى باسمه في عديد من الكتب والمقالات. يذكر فائدر مويلن، الذي كان يتباهى بأنه يعيش بمودة وسلام على الخط الذي يفصل بين العالمين الإسلامي والمسيحي، يذكر أن فيليبى اقترح في نهاية عشرينيات القرن العشرين أن يخطوا معا عبر ذلك الخط: "فلنصبح مسلمين. إنك أيضاً تريد أن ترى المزيد على الجانب الآخر. إن نخسر شيئاً، بل ربما نكسب من هذه الخطوة". وبصفته مسيحياً ملتزماً، رفض فائدر مويلن بأدب، لكن فيليبى الذي كان قد عرف نفسه منذ وقت طويل بأنه "حر الفكر"، وجه ناظريه الآن إلى مكة لو أنني مسلم أو لو أصبحت مسلماً، أعتقد أنني سأحصل على تلك الامتيازات بمجرد طلبى إياها. هكذا كتب إلى دورا.

في عام ١٩٢٨، أبلغ ابن سعود أنه يرغب في اعتناق الإسلام، لكن الملك وقتئذ كان مشغولا في استرضاء محاربيه من الإخوان المتململين، وكان من غير اللياقة الترحيب باعتناق فيليبي الدين الحق. وبعد عامين، وكان ابن سعود وقتئذ قد أحكم قبضته بعد مواجهة دامية حاسمة مع تابعيه من الإخوان الجهاديين، أرسل چاك خطابا ثانيا يطلب فيه إذن الملك. أجاب ابن سعود بالهاتف (الذي كان فيليبي قد ساعد على إدخاله إلى المملكة) من منتجعه بمدينة الطائف قائلا إن على فيليبي الذهاب إلى مكة من أجل أداء الشعائر. وبسرعة، حزم فيليبي أمتعته وسافر إلى خارج المدينة المقدسة حيث كان اثنان من وزراء الملك بانتظاره، وارتدى ثياب الإحرام. وفي مكة أدى فيليبي، النائب، الطواف، وقبّل الحجر الأسود وبنى الدعوات، وصلى لدى مقام إبراهيم وشرب من مياه زمزم، وسعى بين الصفا والمروة، ولدى شروق الشمس نطق بالشهادتين. بعد ذلك استدعى إلى الديوان الملكي حيث تلقى من ابن سعود اسمه الجديد: عبدالله. بالنسبة لنقاد البريطانيين، كان اعتناق فيليبي هو خطوته الأخيرة في الردّة، لكنها كانت ردّة من نوع محير. قال السير جيمس كريج كمستعرب وديبلوماسي وزميل لفيلبي، والذي عمل ذات مرة سفيراً لبريطانيا بالسعودية، قال عن چاك: "كان متناقضا بأسلوب يثير الأعصاب، متسقا فقط في عدم اتساقه، نصيرا للعرب ومؤيدا للهجرة اليهودية إلى فلسطين، بريطانياً وطنياً تم اعتقاله أثناء الحرب بصفته خطرا على بلاده، متمردا على المؤسسة ومحباً لنادى الائتيم المؤسسى التقليدى، وللتايمز، ومباريات الكريكيت وقوائم الشرف. عامل زوجته بخساسة وسخاء ولم يلاحظ الفرق. كان أنانيا، سهل الاستثارة، لا يعرف التواضع، مرحسا صعبا وزميلا مستحيلا". وعلى الرغم من هذا، فقد كان ذاك الشخص "الجلف" هو من كان أيضا (باعتراف كريج) أعظم رحالة بالصحراء ومكتشفا لها في زمنه، وأيضا كان (وهذا ما لم يُصِفْ كريج) أكبر من أسهم أكثر من أى بريطانى آخر فى قلب أوضاع الشرق الأوسط رأسا على عقب.

أما بالنسبة للمسلمين فقد شكك الكثيرون ممن عرفوا فيليبي في صدق إيمان

أخيهم المسلم الجديد. علق الأمير عبدالله بن حسين نيابة عنهم بمقولته اللاذعة حينما أنهت الأبناء من مكة عن كبير الممثلين البريطانيين السابق لم يكسب الإسلام سوى القليل ولم تخسر المسيحية سوى الأقل.

ومنذ توجهه إلى مكة وحتى وفاته في لبنان في ٣٠ سبتمبر ١٩٦٠، عاش جاك فيلبس حياة مزبوجة متناقضة وغرائبية في تعقيداتها. كان يقوم برحلات شبه منتظمة بين بريطانيا العظمى والمملكة العربية السعودية (كما أصبحت تسمى في يناير ١٩٣٢). كان بيت بغداد، السكن الذي منحه إياه الملك في جدة، والذي كان ذات يوم مقر سكن الحاكم التركي، كان قصرا بمعنى الكلمة تقاسمه مع مجموعة من القروء أبقى عليها لإبعاد الحجاج المزعجين. إلى جانب ذلك، قدم الملك عددا من الجوارى للترويح عن الحاج عبدالله. وفي نهاية المطاف أهداه زوجة في السادسة عشرة، اسمها روزي، وصفها السائق الحاقد الذي سلمها كهدية بأنها فتاة ذات ثمانى سلندرات. من المحتمل أنها كانت ذات أصول فارسية، ومن الممكن أيضا أن يكون الملك هو من أنجبها. أنجبت روزي ابنتين لفيلبس، الأمر الذي أبهج ابن سعود فأهدى الوالد الذي كان قد تجاوز الستين من العمر قصرا يسكنه بالرياض. وأيضا، وبفضل رعاية الملك تمكن فيلبس بالقيام بغزوتين أمنيتين، مستطالتين اقتحما فيهما منطقة الربع الخالي ورُسِّخ بذلك مكانته كرحالة مكتشف.

دعم هذا الصيت، الذي عززته كتاباته الغزيرة، مكانته في لندن. وهناك، تحول الحاج عبدالله ليصبح المحترم هارى سانت جون بريджер فيلبس وهو يرتدى بذلك التويد من المرتادين الدائمين لنادى الأثنيوم، الذي كان يضم إلى عضويته الشخصيات العلمية والأدبية، حيث تم انتخابه سريعا كـ "عضو مرشح متميز". كان فيلبس، وهو جالس في صالون النادى الفخم، وجليونه مثبت بين شفتيه، يقرأ التايمز (دائما ما أحفظُ بصفحات البرلمان لأغلقها) ويتسامر مع أصدقائه عن التقدم

الدهش الذي يحرزّه ابنه كيم الذي كان قد تبع خطاً والده إلى وستمينستر وترينت
وبدا مُعداً لمنصب نافذ في الحكومة (وكان هذا طموحاً، وكما كان للعالم أن يعرف،
حققه كيم).

كان نور فيلبى المفصلى الذى لعبه فى تزواج أمريكا الكوربوراتية (الشركاتية)
والمملكة الوهابية هو الذى جعل حياته المزوجة ممكنة. لم يكن هذا التزواج سهلاً
أو واضحاً للعيان. بعد الحرب العالمية الأولى، كان البريطانيون مصممين يتصلّب
على الحفاظ على هيمنتهم على المصادر النفطية بالشرق الأوسط، إذ إن النفط كان
سلعة ضرورية للبحرية الملكية لم تكن موجودة بالإمبراطورية. فعلوا هذا بتملكهم
المباشر لشركة النفط الأنجلو/فارسية، وبالهيمنة السياسية على الشرق الأوسط
العربي، ومن خلال "نصوص تفضيلية" فى العقود لتشغيل المواطنين البريطانيين،
وبالتواطؤ مع الشركات الفرنسية والهولندية للحد من تنافس الغريباء (الأمريكيين).
فى عام ١٩١٩، كان باستطاعة قطب بترول بريطانى اسمه إى. ماكاي إيجار أن
يفاخز بئراً وضع بلاده (فى الشرق الأوسط) حصين. أعلن أن جميع حقوق النفط
المعروفة أو المحتملة خارج الولايات المتحدة موجودة "فى حيازة أمير بريطانية أو
تحت إدارة أو تحكم بريطانى، أو يمولها رأس مال بريطانى". وكان هذا، بالحد
الأدنى، وضعا ضايق منتجى النفط الأمريكيين ولفظاهم السياسيين؛ ولم تهدأ
الضغوط من واشنطن من أجل "باب مفتوح". اشتكى أكثر من شخص بريطانى
من أنه سيكون "باباً خفياً، له عادة الانغلاق بمجرد أن يدخل الأمريكيون منه". لم
يكن حتى عام ١٩٢٨ أن سُمح لأول شركة أمريكية بإجراء عمليات فى الشرق
الأوسط فقط كشركاء أصغر فى شركة النفط العراقية متعددة الجنسية والتي كان
يهيمن عليها البريطانيون. أيضاً كان على كل الشركاء فيها الحصول على موافقة
الأخرين جميعهم حينما يحاولون الحصول على امتيازات داخل "الخط الأحمر" الذى
كان قد تم رسمه حول الإمبراطورية العثمانية سابقاً. ثم تم حفر ثقب فى الخط

الأحمر حينما دفعت شركة من الخارج (ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا) مبلغ ٥٠٠٠٠ دولار للحصول على امتياز (للتنقيب) كان في حيازة عضو داخلي (جلف أويل) بالبحرين، وكانت جلف قد حصلت عليه قبل أن تصبح شريكا في الكارتل (المجموعة الاحتكارية). لكن حتى بالرغم من هذا، فقد أصر البريطانيون على أنه لا يمكن لحاكم الجزيرة (البحرين) الموافقة إلا إذا كانت الشركة الفرعية خاضعة للإدارة البريطانية. ثم تم العثور على وسيلة للاتفاف حول ذلك بتحويل شركة البحرين بترول يوم ليمتد وإخضاعها للقانون الكندي. وفي عام ١٩٣٢ تم العثور على النفط في البحرين، الأمر الذي كان يشتهيه حكام تلك الجزيرة الصحراوية الكبيرة التي تبعد عن المملكة بحوالي ٢٥ ميلا.

كان ابن سعود قد تهدد قبل ذلك بعام قائلاً: "آه يا فيليبس"، لو أعطاني أحدهم مليون جنيه لمنحته جميع الامتيازات التي يريدها". كانت خزينته الملكية خاوية (في الواقع كانت أمواله السائلة المتاحة توضع في صندوق صاج نقال يحمله أمين خزينته)؛ وكان الكساد الكبير قد قلل تنفق الحجيج إلى ٤٠ ألفا بدلا من مائة ألف سنويا؛ وكان بحاجة ماسة إلى الأموال لتحسين الخدمات الأساسية. من ثم وجد فيليبس (حسب روايته) أننا مصفية حينما ذكر الملك أن بلده كان مليئاً بالثروات المدفونة وأنه يعرف رجلا يمكنه المساعدة: "لقد أتى هنا منذ بضع سنوات، ورفضت لقائه. هو الآن بالقاهرة، وإذا حدثت وقتا تكون فيه موجوداً بجدة سبيلغه بالبرق وأضمن لك أنه سيحضر". كان الشخص الذي تحدث عنه فيليبس هو تشارلس كراين الأمريكي الذي اغتال الإخوان المتعصبون صديقه المقدس هنري بيركرت هام ١٩٣٩. أما هذه المرة، فلن تكون شمة مشاكل. فبعد أن وعد ابن سعود بلده وتملكه الغضب العارم من مثل تلك الأحداث، قام بالانقلاب بقوة ضد معاربيه المقدسين، وكبح عنفهم، وإن لم يكبح تعصبهم.

تشارلس آر. كراين رجل من الشخصيات التي لا يحتفى بها الكتاب. كان يظهر

خلسة فى التاريخ ويصادق صناعه ويعمل كوسيط مرموق، وبالرغم من ذلك يتملص من أعين الأجيال التالية ولا تدركه أبصارهم. كرس كراين حياته، بعد أن ورث ثروة من السباكة وصناعة الأنايب بولاية إلينوى، لشئون العالم، وبخاصة العلاقات بين الغرب والشرق، وأيضا للسياسات الأمريكية الليبرالية. فى عام ١٩٠٩، أمد السناتور الأمريكى روبرت إم. لا فولت الأب بالأموال الضرورية لإطلاق صحيفة ذا بروجرسيف the Progressive اللذاعة التى مازالت تصدر فى ماديسون. فى جامعة شيكاغو، أقام مؤسسة وقفية استضافت عام ١٩٠٢ سلسلة من المحاضرات ألقاها توماس ماساريك وبذلك استهل الرابطة التى أثبتت فائتها الكبرى فى إنشاء الجمهورية التشيكوسلوفاكية.

سافر كراين فى أنحاء الصين وروسيا وتعرف على الثوريين من جميع الطباف. وبعد رحلة له عام ١٩١٧ إلى پتروجوراد مع الصغفى لينكولن ستقنز، نبه وودرو ويلسون إلى اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم الشرق الأوسط قبل نشر البشفيك تفاصيلها. وفى مؤتمر باريس للسلام تم اختيار كراين - الذى كان قد تبرع بسخاء لحملة إعادة انتخاب الرئيس ويلسون عام ١٩١٦- ليكون رئيسا مشاركا مع الدكتور هنرى كينج رئيس جامعة أوبرلين، للجنة تقصى الحقائق التى أدان تقريرها الصهاينة فى فلسطين ودعم حقوق العرب فى فلسطين وسوريا ولبنان.

حينما وصل كراين إلى جدة فى فبراير ١٩٣١، كان قد أتى كصديق مُعلن للعرب وأول ضيف أمريكى على ابن سعود (لم يكن لدى وزارة الخارجية الأمريكية قنصلية أو سفارة فى السعودية حتى عام ١٩٤٢). كانت ذروة وليمة الترحيب به رقصة بالسيوف وتلاوة للقرآن بواسطة مقرئ ضريع، ثم سباقا للخيل والهجن، أهدى كراين أثناءها حصانين عربيين أصيلين. رد كراين الهدية بتقديم صندوق من التمر الذى زرعه بكاليفورنيا ويعرض لضمان القيام بمسح لموارد المملكة يقوم به كارل تويتشل مهندس التعدين الذى كان رجل البئر كراين قد عينه للاضطلاع بمشروع لتنمية الموارد المائية باليمن.

فى إبريل، أتم تويتشل رحلة تُقدّر بألف وخمسمائة ميل فى أرجاء شبه الجزيرة، تفحص فيها رمال المملكة بحثاً عن المياه والذهب والنفط. لم يجد سوى القليل مما يُثبت أن ثمة مياهاً عذبة، وبعض آثار للذهب وأعدة تجارياً، لكنه اكتشف فى الحسا بالمنطقة الشرقية بُنى جيولوجية على شكل قباب والتي قد تعنى وجود نفط. حينما عثر منقبو شركة سوكرال على النفط قريباً من شواطئ البحرين حصل تويتشل على موافقة ابن سعود ليستعلم ما إن كانت الشركة مهتمة بالحصول على امتياز التنقيب بالسعودية. أبدى تنفيذهها الاهتمام، وفى مايو ١٩٣٣، كما رأينا، فُتح الباب السعودى للولايات المتحدة حصرياً.

بدأت أعمال الحفر التجريبية فى عام ١٩٣٤ لكن النتائج الميدنية كانت محبطة، ثم تزايدت المخرجات تدريجياً. وفى النهاية، فى ١٦ أكتوبر ١٩٣٨ "انفجر" البئر بالدمام واندفع النفط منه بما يزيد عن ١٥٠٠ برميل يومياً بالمقارنة مع متوسط مخرجات آبار النفط بالولايات المتحدة والتي تبلغ حوالى ١٠٠ برميل عن كل بئر، وسرعان ما تسلم ابن سعود أول شيك مقابل حقوق الملكية (١,٥ مليون دولار)، الذى ألهمه بالذهاب إلى رحلة حج من نوع مختلف كما تصفها رايتشل بنسون الباحثة المقيمة فى مجلس العلاقات الخارجية فى كتابها "أكثر كثافة من الزيت". فى ١ مايو ١٩٣٩، استقل الملك ومعه حاشية تتجاوز ألفى شخص خمسمائة سيارة فى رحلة إلى حقول نفط المنطقة الشرقية. "أدار الملك الحفنية التى بدأت تدفق النفط فى أولى شاحنات النفط. وفى رحلة العودة، مضى الملك ومعه بعض إخوانه وأبناءؤه الأكبر سناً يَشْتُون بأهوازيج الغارات الببوية كما كانوا يفعلون فى شبابه".

وعندما واجهت شركة سوكال الإنتاج الموهل لنفط السعودية، سعت إلى شركاء ضروريين لضخ، نقل، تكرير وتسويق كنوزها. اندمج فرعها السعودى، شركة كاليفورنيا أرابيان ستاندارد للنفط عام ١٩٣٦ مع شركة تكساكو، وأفادت بذلك من شبكة التسويق التى تمتلكها تلك الشركة فى سوق كوكبى متحكّم فيه بإحكام. لكن،

وبالرغم من ذلك، ظلت ثمة حاجة لمزيد من رأس المال لامتياز يوازى تكساس ونيومكسيكو وأريزونا مجتمعة. وبعد شيك حقوق الملكية الأول، زاد ابن سعود مساحة امتياز الشركة بثمانين ألف ميل مربع مانحا إياها بهذا الحقوق الحصرية للنفط الموجود فى أكثر من ٤٤٠٠٠٠ ميل أو أكثر من نصف مساحة المملكة. فى عام ١٩٤٤، أصبحت كاسكو شركة النفط العربية الأمريكية (أرامكو)، والتي عقدت شراكة بعد ذلك بعامين مع شركة ستاندارد أويل أوف نيوجيرسى (إكسون) وشركة سوكونى/فاكيوم (موبييل) مكونة بذلك تكتلا ذا أبعاد إمبريالية. ارتفع إجمالى المخرَج السعودى من ٢١٠٠٠ برميل عام ١٩٤٤ إلى ٥٨٠٠٠ برميل عام ١٩٥٠، وظلت الملكية، بإصرار من الملك، أمريكية بالكامل وذلك لأنه لم يكن يتق فى الأوربيين.

كان لثقتة مربوذا أثناء الحرب العالمية الثانية. ظلت المملكة العربية على الحياد رسمياً، لكنها، ولأسباب براجماتية، كانت تميل إلى جانب بريطانيا لأن إمدادات الغذاء الضرورية كانت تأتيها من مصر والهند. ثم دخلت أمريكا الحرب وإنهالت مساعداتها فى أعقاب ذلك. فى عام ١٩٤٤ وجدت وزارة الخارجية أن أمن المملكة العربية السعودية مسألة حيوية بالنسبة للولايات المتحدة، مما أهل المملكة لمساعدات زمن الحرب الأمريكية المباشرة وغير المباشرة، التى وصل مجموعها عام ١٩٤٥ إلى حوالى ١٠٠ مليون دولار. كان قد استبق تطور سياسة واشنطن هذه مذكرة أعدها فى يناير عام ١٩٤٥ ولاس موراي مدير شئون الشرق الأدنى وإفريقيا بوزارة الخارجية لدين أتشسون مساعد وزير الخارجية. حثّر موراي إذا انهار اقتصاد المملكة العربية السعودية ونتج عن هذا تحلل سياسى، سيصبح ثمة خطر أن تحاول إما بريطانيا العظمى أو روسيا السوفيتية الدخول إلى المملكة لمنع الآخرين من فعل ذلك. قد يشكل مثل هذا التطور فى بلد ندى موقع استراتيجى وثروة نفطية مثل المملكة العربية السعودية سبباً لحرب تتهدد سلام العالم: من ثم، كانت الحاجة

الماسية للإبقاء على الموارد النفطية السعودية في أيد أمريكية، ولتطوير علاقة عسكرية توفر، مثاليا، قواعد عسكرية ومزايا لطائرات الولايات المتحدة الحربية.

تم التصديق على هذا الإجماع المتبدي وسط المراسم المناسبة في فبراير عام ١٩٤٥ حينما توقف الرئيس روزفلت في رحلة عودته من مؤتمر يالطا للقاء ابن سعود على متن البارجة الأمريكية كوينسي. ووفقا للتعبير الحماسي الذي أدلى به مسئول وزارة الخارجية الذي عمل مترجما للطرفين، ويليام إيه. إيدي فإن اللقاء كان "إنجازا مرغوبا فيه بورع وإخلاص" يؤذن بتحالف أخلاقي واستراتيجي مع شعب معادٍ للشيوعية من منطلق عقائدي في منطقة ثرية بالموارد. وكنتيجة لهذا التحالف الماكر والتأزري، ظلت المملكة الوهابية تنفق على الأسلحة أكثر من أى بلد آخر في العالم بالنسبة لنصيب كل فرد من سكانها، وظلت غالبية مشترواتها من الأسلحة من الولايات المتحدة مما جعلها العميل الأول للأسلحة الأمريكية. لكن، وبالرغم من تلك الأعداد الهائلة من الصواريخ والطائرات المقاتلة، برهنت المملكة على أنها عاجزة في عامي ١٩٨٩، ١٩٩٠، حينما هددت فيالق صدام حسين المملكة بعد أن ضمت الكويت إليها. اقتضى تحرير الكويت وحماية حقول النفط الحيوية بالمملكة اشتراك قوات أجنبية تعدادها نصف مليون جندي في عملية "عاصفة الصحراء".

أيضا، مما يثير الفضول بدرجة مماثلة على الأقل، فإن أقدم جالية من المغتربين الأمريكيين نمت جنوبها في بلد معادٍ للقيم الجوهريّة التي تمتعها الولايات المتحدة. تظل المملكة تخضع لحكم ملكي مطلق بدون برلمان، أو دستور أو انتخابات؛ تتجنب حرية العبادة، الكلام، الصحافة والتجمعات. لكن، داخل تلك البيئة غير الواعدة ووسط خواء المنطقة الشرقية التام، يوجد استزراع أمريكي غريب: ثلاث مدن لارامو تشكلت في الخمسينيات: الظهران (١٠٠٠٠ نسمة)، أبقيق (حوالي ٥٠٠٠ نسمة) ورأس تنورة (حوالي ٥٠٠٠ نسمة). كان حوالي ثلث سكان تلك المدن الثلاث

من العاملين بأرامكو الأمريكيين وعائلاتهم. كانت كل مدينة تتكون من حلقة داخلية بمساحات عشبية ومنازل من مستويين لكبار العاملين الأمريكيين، ومنطقة أخرى "متوسطة" أكثر تواضعا للعاملين الأجانب المهرة، ومنطقة أكواخ رثة نائية للعمال السعوديين. وبعد نصف قرن، مازالت تلك المنازل الغربية موجودة، وقد نجت بنسب ما من الحروب الإقليمية، الثورات، الهجمات الإرهابية، وأزمات الخلافة السعودية، "وصدمات النفط" لأوك، وتأميم أرامكو التدريجي الذي تم تنفيذه بالتعاون مع المدراء الأمريكيين الذين مازال العديد منهم يعملون تنفيذيين في الشركة التي تملكها الدولة.

وبالرغم من ذلك لا يمكن القول بأن القُرب قد ولد الاحترام ناهيك عن مشاعر الحبة والود. لعقود ظلت معنويات الأرامكويين تعاني من حظر الكحوليات، التدخين، القمار، ومن قواعد الزي القاسية للنساء اللاتي يفاقرن خارج حدود أمريكا الصغيرة، وحيث ظلت حتى زينات الكريسماس وصور بابا نويل تشير حفيظة رجال الأمر بالمعروف. وعلى الرغم من التواجد الأمريكي الذي طال أمده أو ربما، ومعه الاستياء من اعتماد السعودية على قوة عظمى متعالية، ظل النفور متبادلا بحرارة. وجد استطلاع رأى أجراه مركز جالوب للدراسات الإسلامية على عشرة آلاف مسلم في عشر دول إسلامية أن السعوديين عبروا عن أكبر قدر من الكراهية للولايات المتحدة، حيث كانت النسبة ٧٩٪ مقارنة بـ ٥٢٪ من المستطلعين بـ إيران المعادية رسميا لأمريكا^(١). علّق المؤرخ نبال فرجسون بريطاني المواد بالقول

(١) يتفاؤل المؤلفان عن أن سبب كراهية تلك الغالبية من الشعب السعودي، لا الحكام، للولايات المتحدة قد يكون مرده سياساتها الموالية لإسرائيل والصهيونية، واحتلالها لبلدان من العالمين العرب والإسلامي، وتواجدها العسكري الكثيف بالمنطقة، ونهبها لثرواتها، وأن ذلك لا علاقة له بتواجد الأمريكيين وقربهم الفضائي بأرامكو وغيرها» (الترجمة)

توحى تلك الأرقام بالتناقض الموجود بالعالم الإسلامي - إن الأكثر كراهية للولايات المتحدة ليسوا هم أعداء أمريكا، إنهم الشعوب في البلدان المفترض أنها صديقة للولايات المتحدة، إن لم تكن حليفة. هذا علاوة على أن أكثر المسلمين عداا يميلون لأن يكونوا المستطعين الأكثر ثراء وتعلما.

وبما لم يكن هذا ليتسبب في دهشة فيليبي الذي عاش طويلا بقدر كاف ليشجب نتائج هبوط الثراء الجم المفاجئ الذي غيّر المجتمع السعودي. عبر عن استيائه من أعداد السيارات المتنامية على الطرق السريعة السعودية، هذا على الرغم من أنه كان قد ظل الوكيل الرئيسي لشركة فورد للسيارات. تحدث في مقالات وكتب له عن إسراف الأسرة المالكة بالرياض وفسادها، مما جعل الملك سعود الابن الأكبر لابن سعود الذي خلفه على عرش المملكة عام ١٩٥٢، يشعر بالإهانة لدرجة أجبر معها فيليبي على الذهاب إلى المنفى واستقر ببيروت. لكن فيليبي لم يكن لديه أى نزوع للرقابة الذاتية. أثناء ثلاثينيات القرن العشرين، سعى دونما جدوى وبأسلوب كيشوطي للتوفيق بين الدول العربية والحركة الصهيونية مما نجم عنه غضب راعيه ابن سعود. كان، في فترات منوعة، اشتراكيا، داعيا للسلام، مسترضيا، ووطنيا. في عام ١٩٤٠ حينما خطط لرحلة لإلقاء المحاضرات بالولايات المتحدة، عبر عن آراء مشكوك فيها بدرجة أن ألقت الشرطة البريطانية القبض عليه في بومباي ورحلته إلى إنجلترا حيث احتجز في الحبس بسبب "أنشطة مجحفة بأمن المنطقة" حتى مارس ١٩٤١ حينما أطلق سراحه عن طريق نادى الأثينوم ليلحق بزوجته نورا. كان عنوان مذكرات فيليبي التي لم تكتمل "الخطوات المتنافرة" وهذا عنوان مناسب. بَقِن، بعد موته في بيروت عام ١٩٦٠، بمقبرة مسورة للمسلمين بحى البصرة، واختار ابنه كيم أن يكتب على شاهد قبره "أعظم الرحالة في بلاد العرب ومكتشفها". وبعد ثلاث سنوات، وحينما واجه كيم افتتاح ساح أمره كجاسوس للمخابرات السوفيتية، هرب من بيروت إلى موسكو. حيث لحق بزميله القديمين بكاميريدج جاى برجس ودينالد ماكلين.

يبدو أنه كان ثمة رابط تحتى يكاد يكون خفيا بين ردة جاك فيليبى وخيانة ابنه وهو موضوع بحثه باستقاضة أنطونى كايف براون فى السيرة المزبوجة التى كتبها بعنوان "الخيانة تسرى فى الدماء". فقد كانت حياة كل منهما تتميز بالشيزوفرانيا، وكان كلاهما يتقن الفنون السوداء للسحر البيروقراطى الشرير، وانقلب كلاهما على القيم التى تربيها عليها. بيد أنه يبدو ثمة توازن أقل وضوحا. يمكن النظر إلى حياة فيليبى الأب المزبوجة كمجازة لشراكة أمريكا مع السعودية، الدولة الوحيدة ذات السيادة فى العالم التى تحمل اسم عائلة مؤسسها. كان هذا أيضا تحالفاً شيزوفرانيا غير متكافئ^(١). إذا نظرنا إلى هذا التزاوج من مستوى معين فقد ضمن للولايات المتحدة إتاحة الطاقة الرخيصة الضرورية لثقافة السيارات. لكن تحقيق هذا كان يعنى التفاضى عن نظام سياسى متججّر يستهلك فى ظله حوالى سبعة آلاف أمير خمس ريع النفط المهول، وعن ثقافة تشوّه فيها سمعة النساء بصفتهم "عاهرات شيوعيات" لتجرّهن على قيادة السيارات (ما زالت القيادة غير مسموح بها للنساء). إن الظلم الفادح ملموس فى حياة الملكة بدرجة اعتماد حكامها المتوترين على الدين بإفراط لقمع المعارضة وإضفاء الشرعية على السلطة. لقى هذا المجهود مساعدة مفرطة تُغَلّ عن عواقبها من قبل الولايات المتحدة فى أعقاب الغزو السوفييتى لأفغانستان. طلب البيت الأبيض فى عهد كارتر من السعودية فى صفقة بدت وأنها حسيّفة دفع دلاور مقابل كل دولار تدفعه أمريكا لدعم المقاومة الأفغانية سرا. وافق الملك فهد بحماس لأن ذلك كان سبيلا لإرضاء واشنطن وتعزيز نفوذ الملكة الكوكبيى فى أن. وأيضاً شراء السلام فى الداخل السعودى. وسرعان ما صدرت عديد الكتب والكتيبات التى تدعو الشباب السعودى

(١) لم لا يُنكر فى هذا المقام تحالف البريطانيين مع ابن سمود ومعاريه الوهايين ودعمهم لهم بالمال والسلاح، ناهيك عن تحالف بريطانيا (العظمى) مع عدد آخر من الأنظمة الفاسدة والحكام الطفلة! ليس هذا تبريرا لأمريكا، بل فقط لفت نظر إلى ازدواج معايير المؤلفين. (الترجمة)

لشن حرب جهادية ضد الكفار الروس، وبحلول عام ١٩٨٤ كان حوالى ستة عشر ألف طالب قد التحقوا بكليات الشريعة بالمملكة. وفيما بين عامى ١٩٨١ و ١٩٨٦ زاد الدعم الأمريكى والسعودى للمتمردين الأفغان عشرة أضعاف (حسب تقدير رايتشل بنسون من ١٢٠ مليون دولار إلى ١,٢ مليار دولار دفععتها أمريكا والسعودية مجتمعتين. ومررت كل المساعدات إلى المجاهدين من خلال المخابرات العسكرية الباكستانية). كان هذا هو البرنامج الذى فرّخ القاعدة ومنع أسامة بن لادن قاعدته كلية الأهمية. حينما تطل الاتحاد السوفييتى عام ١٩٩١، وكانت هزيمته فى أفغانستان قد استبقت انهياره، ظهرت فرصة جديدة لنشر رسالة الإسلام القتالى. ذكرت وزارة الحج والأوقاف السعودية فى مطلع التسعينيات أنها رصدت ٨٥٠ مليون دولار لبناء المساجد وإرسال الأئمة لنشر صيغة الإسلام الوهابى فى الجمهوريات السوفييتية السابقة بوسط آسيا التى يسكنها غالبية من المسلمين. تعبر مسر بنسون بقدر كبير من الاعتدال عن النقطة الجوهرية التالية "ظلت الأسرة المالكة السعودية لسنوات طويلة تستغل الإجراءات السياسية الداخلية لإدارة تحديات الحرب الباردة. ومن أجل إقامة مشروعية داخلية وصمد العدوان الخارجى رعى القادة السعوديون العناصر الأكثر راديكالية فى المؤسسة الدينية بالمملكة. لم يكن الأمر أن واشنطن قد تجاهلت جهود المملكة فى الدعوة، بل الأحرى أن واشنطن قبلتها بل وأحياناً شجعتها عملياً لضمان أهداف استراتيجية. كان ثمة ثمن طويل الأمد كان على الولايات المتحدة أن تدفعه نظير تلك السياسات. وفى ١١ سبتمبر، حان موعد السداد".

كان بين التسعة عشر إرهابياً الذين نفذوا هجمات ٢٠٠١ الانتحارية خمسة عشر مواطناً سعودياً تمكنوا بسهولة من دخول الولايات المتحدة بموجب سياسة منح التأشيرات السريعة التى ظلت سارية منذ وقت طويل كميزة لرعايا المملكة - نوع من "المُهرِّ الديبلوماسى" الذى اقتضاه هذا الزواج السورىالى.. لكن أيضاً فإن

أحداث ١١ سبتمبر هي تعقيب تنكاري مناسب على حياة وأعمال هاري سانت جون
بريدجر فيليبى وعلى المملكة التى ساعد على إنشائها^(١). نتج عن صفقة النفط عام

(١) ليس ثمة سبب واضح مقنع يطرحه المؤلفان لاتهام فيلبى، وللهجوم الذى يشنانه عليه
وازدراءهما له، وذلك بعكس التمجيد الذى يضفيانه على غيره من الشخصيات التى
يستعرضانها وتسويفهما أخطأهما، تلك الشخصيات التى لابد وأن يُنظر إليها على
أنهم مفامرون وغادرون من منظور الشعوب التى تلاعبوا بمقدراتها ودمروا حاضرها
ومستقبلها من أجل مجد الإمبراطورية!!

وعلى الرغم من التناقضات فى شخصية فيلبى وفى بعض معتقداته، إلا أنه يبدو، من
سياق مقال المؤلفين، أنه اعتنق الإسلام لأسباب برجماتية بل وربما عن بعض القناعة،
كما أنه لا يمكن نعتة بالمرتد لأنه كان "حر التفكير" لا أدرياً، أى أنه كان قد تخلى عن
العقيدة المسيحية التقليدية، على عكس ما يلمح إليه المؤلفان بسخرية من أنه فعل تلك
لاتهازيته وتحت تأثير ابن سعود الذى أغراه بالملذات الشهوانية. فلم يتزوج فيلبى سوى
من روزى إلى جانب دورا التى كانت تعيش بعيدة عنه والتى ظل وفيها لها، كما أن
الكاتبين لا يمسوقان ما يثبت أنه انغمس فى الشهوات. أما القول بأنه ارتد وانقلب على
مصالح بريطانيا بأن فتح باب النفط السعودى للأمريكيين، فهو لم يفعل ذلك، ووفقاً لما
ينكره المؤلفان سوى من أجل إخراج راعيه ابن سعود من أزمته المالية حيث وفر له الحل
المتاح أمامه وقتئذ له رجل البر الأمريكى الذى كان، وخلافاً للبريطانيين، جاهزاً لإنقاذه.
ولم يُعرف عن فيلبى أنه أثرى من وراء ذلك بل كان يعيش على ما يكسبه من عمله
كوكيل لسيارات فورد. هذا علاوة على أنه حينما عزف آل سعود عن القيم السوية
والأخلاقية هاجمهم وكان مصيره النفى. ولا يمكن لمنصف أن يعتبره مسئولاً عن
تصرفات ابنه الذى أصبح جاسوساً. أو أنه كان ثمة عامل وراثى، كما أنه ترى بإنجلترا
بعيداً عن والده. من اللافت أيضاً أن المؤلفين لا يوفيان فيلبى حقه كرجالة ومكتشف
حقق إنجازات مهمة فى هذا المجال، كما لا يعيران كتاباته اهتماماً بل يمران عليها
مرور الكرام. ليس هذا دفاعاً عن فيلبى الذى لابد وأن ثمة تحفظات كثيرة على سيرته
وسلوكة، أو عن آل سعود، لكننا فقط نجذب النظر إلى الانحيازات التى لا يخلو منها
هذا الكتاب (الترجمة).

١٩٣٣ أن تدفق ربيع يُقدَّر بترايون دولار على تلك المملكة الصحراوية التي كانت فقيرة مجربة، ورغم ذلك فما ثمار ذلك؟ ثمة سعودي واحد يعرفه كل شخص ناضج على الكركب، وللأسف فهو ليس رجل دولة، أو عالماً، أو طبيباً من رجال الإعلام أو أكاديمياً أو باحثاً إنه قاتل جماعي، غداة دونما قصد منهم رعاية السعوديين والأمريكيين له.

الفصل الثامن

"جيش صغير رائع"

الفريق السير چون بايجوت جلوب

(جلوب باشا)

١٨٩٧ - ١٩٨٦

دولة فلسطين يهودية؟

إذا أقمته

لن أجنى سوى الندامة

دولة فلسطين عربية؟

اقتراح لا تقبله

الدول القوية.

لخرالية؟

تحت أى حيشة؟

يليه انفصال

ثم طلاق.

التقسيم؟

التقسيم والتجاور

أقل مشقة من الصبر على الصوصية

وتحميل الانتداب المسئولية

- چون جلوب، أسطر مَقفاة، تعليقاً على تقرير

اللجنة الأنجلو/ أمريكية (حوالى عام ١٩٤٦)

فى عام ١٩٢١، وبعد وعد بلفور بما يربو على سنوات ثلاث، كانت أرض فلسطين تمانى وتلقى. كان البريطانيون يحاولون إعادة توحيد العرب واليهود على أرض كان الطرفان يعتبرانها مقدسة. وحينما انتهى مؤتمر القاهرة، استدعى ونستون تشرشل وتى. إى. لورانس، شقيق فيصل الأكبر عبدالله، إلى القدس. عرض تشرشل الذى كان مصمما على وضع فيصل على عرش العراق، فى حضور لورانس الذى قام بالترجمة، عرض على عبدالله الذى كان يتوقع منه نفس المملكة، جائزة ترضية: إمارة خاصة به إن هو وعد بعدم مهاجمة الفرنسيين فى سوريا. فيما بعد تفاخر وزير المستعمرات بقوله إنه قد "خلق الأردن بجرة قلم عصر يوم أحد". أصبح عبدالله، بدعم مالى بريطانى، ومنسوب سام بريطانى يعمل مستشارا له، حاكم شرق الأردن التى تبلغ مساحتها مساحة ولاية إنديانا، وتقع شرق نهر الأردن على أرض كانت تعتبر أرضا خلفية لجنوب سوريا، التى غدت مملكة تحت

التجربة لمدة ستة أشهر. أثناء تلك الفترة التجريبية، منحت بريطانيا عبدالله راتباً قدره ٥٠٠٠ جنيه إسترليني شهرياً. وفيما بعد، ظلت فلسطين تحت الإدارة البريطانية المباشرة، وشرق الأردن جزءاً من منطقة يتحكم فيها الانتداب البريطاني. لكن وخلافاً لجارتها الغربية (فلسطين) لم تصبح خاضعة للاستعمار الصهيوني عملاً بوعده بلغور. وكان لعبدالله أن يصبح حاكماً رمزياً لشرق الأردن.

في عام ١٩١٩، كان ابن سعود قد حقق على الحدود الشرقية للحجاز جيشاً هاشمياً من ٥٠٠٠ جندي بقيادة علي، شقيق عبدالله. والآن، كان عبدالله محاصراً من قبل اللاجئين السوريين المصممين على الانتقام والعازمين على مواصلة الحرب على نطاق ضيق، وكان محاصراً أيضاً بحدود مملكته غير محددة، وحتى من قبل والده الشريف حسين الذي كان يطالب بشرق الأردن جزءاً مما تبقى من الحجاز. استقر عبدالله في قصر متواضع بوادي الأردن ومع زوجته ومحظية إفريقية،

ومضى يبدد راتبه الذى يمنحه إياه البريطانيون بدفع رشاوى لا جنوى من ورائها.

لا يعنى هذا أن عبدالله لم يكن له معجبون، وجده رونالد ستورز وزير كيتشنر للشئون الشرقية والذى كان قد التقى الأمير أثناء زيارة له للقاهرة قبل الحرب، وجده مزيجا أسرا يجمع بين المذاقة الجمالية ومناقب الجنود. وجد ستورز نفسه منهولا من كم معارف عبدالله، ونكر أنه قد جلس مسحورا فيما كان زائر يلقى على مسامحه "مقاطع رائعة من المعلقات، وأمجاد عترة بن شداد وأحزانه"، وهما يرتشفان القهوة العربية، ثم انتقل برهافة من "ماضى العرب القتالى المجيد إلى حاضرمهم الأعرل العاجز". وبعد ذلك، تسامع عبدالله بجسارة "عما إن كان البريطانيون سيوافقون على منح والده شريف مكة دسلة، أو حتى نصف دسلة. بنابق آلية". وحينما سئل عن هدفها، أجاب عبدالله بصراحة "للدفاع" ضد هجوم الأتراك. أبلغ ستورز الأمير، على مضض، أنه ليس بوسع البريطانيون إمداد والده بسلاح يستخدم ضد قوة صديقة - كان ذلك مطلع عام ١٩١٤- لكنهما افترقا وهما يعبران لبعضهما عن أفضل المشاعر. وعلى الرغم من أنه كان لفيصل علاقات أفضل مع العرب الآخرين، لكن عبدالله ظل الداعية الرئيسى للتحالف بين البريطانيين ووالده الشريف حسين.

وجد تى. إى. لورانس، الذى كان قد بُعث إلى عمان فى نهاية عام ١٩٢١ ليعمل "مستشارا" للأمير وجد عبدالله، ووفقا لتعبير إليزابث مونرو "يتحسس طريقه، أحيانا يهدد بالرحيل، وأحيانا أخرى يغازل فرنسا؛ وأحيانا يدرس إمكانية الاندماج مع الحجاز بهدف إنشاء مملكة نمائل مملكة فيصل بالعراق". كان لورانس مناصره المبكر حيث وصف إياه للمكتب العربى عام ١٩١٦ كالتالى "يبلغ من العمر ٣٦ عاما لكنه يبدو أصغر من هذا. قصير القامة نو بنية متينة، ومن الواضح أنه قوى كالحصان، عيانه ضاحكتان بُنيتان قاتماتان، وجهه مستدير أملس، شفاته مكتنرتان لكتهما قصيرتان، أنفه مستقيم، لحيته بنية.. سلوكه غير متحفظ باصطناع، لا

يتمسك إطلاقاً بالرسميات، بل يمزج مع رجال القبائل وكأنه أحد مشايخها. أما في المناسبات الجادة، فإنه يزن كلماته بعناية ويبرهن على أنه محاور ماهر. بيد أن حماس لورانس المبكر للأمير الأرمن المؤقت الذي كان قد وصفه بأنه "شخص ليس كلى السلطة.. بل يعتمد على حكومة جلالته للإبقاء على منصبه" تضال حتى وصل إلى خيبة أمل. أسر لورانس لچرتروود بل عام ١٩٢٢ بالقول إن "عبدالله شخص بغيض.. بغيض تماماً". بدا وأن عبدالله الكسول، والضعيف بدرجة لا يستطيع معها الحكم، كان بحاجة إلى شخص إنجليزي آخر قوى إلى جانبه. قرر هوبرت يونج، خبير الشرق الأوسط بوزارة المستعمرات، أن ذلك الشخص الإنجليزي هو هارى سانت جون بي، فيليبى.

كان أول لقاء لنا بـ "جاك" فيليبى بالعراق، حيث تبادل هو وچرتروود بل قصصهما عن إيه. تى. ويلسون الذى استدعى سخطهما. ظل فيلبى بالعراق حتى فصله السير بيرسى كوكس بعد معاملته الفظة لفيفل لدى مرافقته الملك المختار من البصرة إلى بغداد. أصبح فيلبى الإدارى المقدر، داعماً متحمساً لقضية عبدالله، قال "إنه ملك دستورى مثالى، لا يشارك بنشاط فى إدارة المملكة إلا حينما يحال إليه أمر لاتخاذ قرار أو مشورة من قبل الحكومة المحلية أو الشعب".

كانت أولى مهام فيلبى هى كبح إسراف الأمير المالى. أسر فيلبى إلى بل بقوله "بصراحة، إننى أحب عبدالله، رجل مختال لكنه قارئ جيد لديه أفكار معتادة، رغم عدم وجود مبادرات لديه أو طاقة للفعل. بالطبع لا يريد أى أحد هنا أو فى سوريا، ولا يريون أى فرد من أسرة الأشراف، لكن ما أهمية هذا؟ إنه هنا، وهو لا يقل صلاحية عن غيره لأن يكون ملكاً سورياً. طالما أنه لا يستنزف الدخل القومى الهزيل، فهو مقبول، لكن ديونه التى تبلغ حتى الآن ٢٥٠٠٠ جنيه استرليني تمثل مشكلة لأن يكون ثمة حل لها دونما صعوبات. من حين لآخر يرسل إليه "بابا" و"ماما" بخاصة مبالغ لا بأس بها، وقد قام مرة أو مرتين باعتراض مرتبات مرسله

إلى الحماية الموجودة بمعان ومصادرتها لحساب جيبه الخاص. أيضا، ألمح لفصيل منذ بعض الوقت بأنه، ونظرا لأنه اغتصب العرش الذي كان من حقه هو، فعليه أن يقسم للفنائم. أجاب فيصل بأنه لا يحصل على القدر الذي كان يأمله وأرسل له شيكا بألف جنيه استرليني ككل ما بإمكانه أن يوفره.

وعلى الرغم من القيود المالية التي وصفها فيليب، رفضت الخزنة البريطانية عام ١٩٢٤ تقبل أى سفه أو إسراف آخر. ومقابل دعم بريطانيا المالي، رأى أن يتولى كبير ممثلي بريطانيا، والذي أصبح فيما بعد المنوب السامي، التحكم فى خزنة الأردن وشئونه العسكرية بحيث يصبح، واقعا، السلطة العليا فى البلد. وبعد أن أجبر عبدالله على ذلك المازق المستحيل، شجع فيليب الأردنيين على المطالبة باستقلال عربي كامل والبرهان على أنهم قادرين على ذلك على أرض الواقع وذلك لقناعته أن "العرب لن ينجحوا أبدا فى إقامة حكومة (خاصة بهم) إلا إذا أتيح لهم تعلم الحكمة من أخطائهم". صدّ فيليب محاولات السلطات بفلسطين للتعدى على منطقة نفوذه، وأعطى المشورة لكنه لم يفضب لعدم اتباعها. لكن فى نهاية المطاف، لم يستطع فيليب ممثل بريطانيا العنيد المشاكس، مجارة السير هربرت صامويل المنوب السامي بالقدس والذي تشبث باعتقاده أن شئون شرق الأردن لا يمكن فصلها عن الشئون بفلسطين. وكما حدث فى حالة العراق، لم يوافق فيليب على سياسة الحكومة البريطانية المتقلبة العشوائية بالشرق الأوسط. واستقال من الخدمة العامة.

لم يئسف عبدالله على خسارة زميله فى لعب الشطرنج والذي كان قد أبقي على مكتبه صورة لابن سعود، أو خصم الأمير الرهيب الذى يفضسه. خلف هنرى كوكس عام ١٩٢٤ فيليب فى منصبه، ثم تلاه فى عام ١٩٤٠ أليك كيركبرايد (الذى مُنح لقب السير فيما بعد)، وكان قد عمل المنوب السامي البريطانى فى عمان. كان كيركبرايد الذى شب فى مصر يتحدث العربية بطلاقة، وكان قد حارب مع فيصل ولورانس فى "الثورة العربية"، وفى عامى ١٩٢٠ و ١٩٢١ أصبح رئيس حكومة

انتقالية بعد الحرب لم تدم طويلا في مؤاب (الكرك) وكان مقرها الرئيسي على بعد ٥٠ ميلا جنوبي عمان، أى في تلك المنطقة التى أصبحت بجرة قلم من تشرشل ”شرق الأردن“. كما عمل شقيقه الأصغر الآن رئيسا للحكومة المؤقتة فى عمان بين عام ١٩٢٠ و١٩٢١ أيضا.

قبل بضعة أشهر من انعقاد مؤتمر القاهرة فى ١٢ مارس ١٩٢١، غادر الشيخ عبدالله الحجاز فى قافلة جمال على رأس جيش صغير. كان شقيقه فيصل قد خلعهُ الفرنسيون عن عرش سوريا وأُشيع أن عبدالله كان يخطط لضربة استباقية باتجاه دمشق لطرد المفتشين واستعادة العرش للهاشميين. ويعد أن استقل قطارا من المدينة، وصل إلى معان بواسطة خط سكك حديد الحجاز فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٠ وفى معينه ثلاثمائة رجل وست بنادق آلية فى ”جولة تفقدية“. وبما أن معان كانت تقع فى إقليم تابع للحجاز يحكمه والده الذى أصبح يلقب بالملك حسين، لم يكن بوسع البريطانيين الخضوع لضغط الفرنسيين لطرده. غادر إلى عمان فى شهر مارس. وفى غياب أى تعليمات واضحة من صامويل بالقدس، قرر أليك كيركبرايد أن يذهب من الكرك إلى محطة القطار لاعتراض زائرهِ غير المرغوب فيه: سألهُ عبدالله بعظمة ”أمصيب أنا فى افتراضى أنك هنا للترحيب بى نيابة عن حكومة بريطانيا العظمى؟“.

أجابه كيركبرايد نو الأعوام الثلاثة والعشرين بدون أن يطرف له جفن... فى الواقع، أنا هنا مع زملائى للقاء معاليك بصفقتنا مجلس وزراء الحكومة القومية فى مؤاب.

أتوقع أن ترسل حكومة جلالة ملك بريطانيا ممثلا لها، فى الوقت المناسب، ممثلا يفوقنى مرتبة“ .

أجاب عبدالله بسحره المعهود ”لم أكن أتمنى أن يرحب بى أحد أكثر قبولا منك،

أنت الذي قاتلت منذ وقت ليس بالبعيد في الجيش الذي قاده شقيقى فيصل. كلنى ثقة أنك ستبقى كى تمنحنى دعمك ومشورتك فى الأيام القادمة الصعبة. وبالمنااسبة، هل نالت حكومة مؤاب النقومية اعترافا دوليا؟". أجاب كيركبرايد، معبرا عن تقديره العميق لكرم الشيخ وتعطفه، ثم أضاف "أما عن الحكومة المحلية، فلست متأكدا تماما من وضعها الدولى بيد أننى أشعر أن هذا سؤال أصبح ذا طبيعة أكاديمية إلى حد كبير بعد وصول معاليك هناك".

انحنى عبدالله أماما وقال، "آه، كنت متأكدا من أننا نفهم بعضنا".

وإذا كانت ضربة عبدالله الاستباقية فشلت فى تمكينه من الحصول على دمشق، فإن مسيرته إلى عمان كانت تعنى فى مؤتمر القاهرة، أن قبضته على شرق الأردن معترف بها كأمر واقع. وهكذا بدأ ارتباط كيركبرايد الطويل والمثمر بالملكة الهاشمية.

والآن، نلتقى بـجون جلوب، الذى عرفه العرب باسم أبوجنيك، وأصدقائه بـجك، وباقي الجمهور المهتم باسم جلوب باشا. يستحق جلوب، الذى قد يكون قد سقط تماما من الذاكرة اليوم، تخصيص فصل له فى هذا الكتاب لأسباب ستة: ١- لم يكن ثمة من هو أفضل من جلوب كنموذج للجندى المحترف الذى أولع بالببدو الرحل، والذى قاد الفيلق العربى وأمدّه بالنصيحة، ذلك الفيلق الذى كان الأفضل تجهيزا وتدريباً ونظاماً بين الجيوش العربية وأصبح العمود الفقري للمملكة الأردنية لمدة تربو على الربع قرن. ٢- أثناء عمله المبكر بالعراق كان بين الذين نفذوا إحدى أكثر السياسات الخلافية لسلطات الانتداب: ترويع القبائل عن طريق القوات الجوية. ٣- أثناء عام ١٩٤١، تلك الفترة اليائسة بالنسبة للبريطانيين بالعراق، منح جنود فيلق جلوب دعما حاسما للجيش فى معركته لإنقاذ العراق (للبريطانيين). ٤- قاد الباشا فيلقه إلى أحد الانتصارات القليلة فى الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، أى

احتلال القدس الشرقية. ٥- كان نموذجا لتناقضات الحكم غير المباشر ومعضلاته، كان وجوده ذاته وسلطته يقوضان شرعية الهاشميين، ومن ثم، ظل ولاؤه للأردن موضع شك دائم. ٦- كان فصله الفجائي من قبل حسين حفيد عبدالله في ١ مارس عام ١٩٥٦ هو الذي سارع بحدوث أزمة السويس التي انتهت بنفوذ البريطانيين وسيطرتهم على شرق المتوسط.

يبدأ جلوب تمهيداً لسيرته الذاتية وعنوانها "جندي مع العرب" (١٩٥٧) كالتالي "قضيت ثلاثين عاما أعيش وسط العرب. أثناء السنوات التسع عشرة الأولى من تلك الفترة، عشت كلية معهم، نادرا ما كنت أقابل أوروبا وأحيانا كانت تمضي الأسابيع مون أن أتمدد لفظا إنجليزيا واحدا. نهبتُ أولا إلى العراق عام ١٩٢٠ كضابط نظامي بالجيش البريطاني، سعيا وراء ميادين جديدة للمغامرة ومعرفة أوسع بفنون الجندية الكثيرة الحديثة. لكنني واعد أن أمضيت خمس سنوات مع العرب، قررت أن أغير أساس حياتي الوظيفية تغييرا كليا: اتخذت قرار الاستقالة من الجيش البريطاني وتكريس حياتي للعرب. كان قراري، إلى حد كبير، عاطفيا. لقد أحببتهم".

جسدُ جلوب شريحة من صبية المدارس العامة البريطانية التي وصفها المؤرخ الإمبريالي جيمس موريس حينما قال كان الأعرابي البدوي بأسلوبه الأبوي ومظهره الغريب اللات، وقطعان معيظه وجماله الكبيرة وذائقته للقهوة وللصبيبة والجمال، مزيجه من الصلابة وكرم الضيافة، حبه للأنسب، قدرته على القتال والتي ستسمى فيما بعد فحولته، كان تجسيدها لفكرة كل رجل إنجليزي عن جنسلمان الطبيعة. بل إنه كاد يبدو وأنه إنجليزيا تُرجم إلى تعبير أجنبي. كان للبريطانيين أن يؤسسوا بأسلوب متقلقل محفوف بالمخاطر وضعهم الجديد في الشرق الأوسط على هذا التثبيت الرومانسي، وتقديسهم لذلك النمط أو تلك الأسطورة".

ولد جون بايجوت جلوب لأسرة أنجلو أيرلندية عسكرية عام ١٨٩٧. كان والده

لواء في فرقة المهندسين، وتبعه جون بفرقة الألفام. بعد تخرجه من كلية تشلتنهام والأكاديمية العسكرية الملكية ببولويتش، خدم بفرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى. جُرح مرات ثلاث - كانت إحداها بفك أن تكون قاتلة - وتلقى وسام الصليب العسكري. عاد إلى الجبهة الغربية لكن بعد أن تشوه فكه (من هنا كانت كنيته: أبهنيك أو الحنك الصغير). وجد من الصعوبة، وكان رجلاً صغير البنية عالى الصوت، برئ الوجه، ذا شارب أصفر، وبسالة لافتة وتوق للعمليات الحربية، وجد من الصعوبة أن يرضى بتحوله إلى جندي لزمन السلام.

في عام ١٩٢٠، تطوع للخدمة في بلاد الرافدين التي كانت آنذاك تشهد ثورة كبرى. لكن حينما وصل جلوب إلى العراق في سبتمبر، كانت القوات الإمبريالية قد قمعت الثورة بين القبائل إلى حد كبير بتكلفة قدرها ما بين ٣٠ مليون و٤٠ مليون جنيه استرليني (تختلف التقديرات). لكن حينما تمكن الإنجليز من إحكام قبضتهم في فبراير ١٩٢١، كان السير بيرسي كوكس قد حل محل تي. إي. ويلسون، وكان مازال بالإمكان العثور على چرتروود بل، سكرتيرته للشؤون الشرقية، كلية الحضور وهي تعمل، وتستضيف الناس في نزاهات صغيرة وعلى موائد الغداء بمنزلها في "حارة العفة" (يظهر جلوب في مشاهد قصيرة في خطاباتها حيث تقول عنه كابتن جلوب، ضابط الاستخبارات الصغير الماهر).

قد يتذكر القارئ أن مؤتمر القاهرة اتخذ القرار المصيري بإلحلال القوات الجوية الملكية محل الجيش البريطاني (بالعراق). كان أبو هذا القرار هو المارشال الجوي السير هيو ترنشارد، وكان أبواه الروحانيان لورانس وتشرشل، وكانوا جميعهم قد أطلوا أن يحكموا بلاد الرافدين من خلال "الهواء الساخن، والطائرات، والعرب". واستخدم هذا النظام المثير للجدل لفرض الأمن من الجو - والذي كان له أن يجرب بالفعل في الصومال وأفغانستان - في أرجاء الشرق الأوسط حتى خمسينيات القرن العشرين. عرفه السير صامويل مور وزير الدولة للقوات الجوية في العشرينيات بأنه "التحكم يوماً احتلال". اعتقد نائب المارشال الجوي السير جون

سالمون والذي كان قد أوكل إليه تنفيذ مهمة وزارة المستعمرات لإخضاع القبائل المتمردة، اعتقد في وجود ثلاث آليات قمعية ممكنة - التدمير، تحطيم المعنويات، والتدخل - وكلما عظم التدخل تعاظم القمع. تبدو نظرتي، التي فصلتها باستطلاعة في مذكرة للعاملين عام ١٩٢٤، وكأنها كتيب إرشادي تكتيكي خُصص للقوات الجوية السودانية بدارفور فيما بعد. جاء به:

"تعلم القبيلة التي تزعج القيام باضطرابات جيدا متى ينفذ صبر الحكومة. دائما ما تنتهي المفاوضات حتميا بما هو في واقع الأمر إنذار بشكل أو آخر. إن المفاجأة الكاملة محالة، ويكمن الثقل الحقيقي للعمليات الجوية في زعزعة الاستقرار اليومي للحياة العادية، ولفترة غير محدودة إذا اقتضى الأمر، فيما لا يتيح ذلك سوى فرص ضئيلة لأعمال النهب والضرر التآري. يمكن أيضا تدمير سقفوف الأكواخ والحيلولة دون إصلاحها، وهو أمر مزعج في فصل الشتاء - يمكن أيضا لتلك العمليات تعويق حرق الأرض والمصايد - وهو شأن حيوي؛ ويمكن أيضا إحراق مخازن الوقود الذي بُذل جهد كبير في تجميعه وتخزينه لاستعماله في الشتاء؛ أو الهجوم على الماشية التي تشكل رأس المال الأساسي ومصدر الثروة للقبائل الأقل استقرارا، وبالإمكان أيضا، عملياً، فرض غرامة كبيرة، أو التدخل الخطير في مصدر الطعام الفعلي للقبيلة - وفي النهاية، يجد رجال العشائر أن الأفضل كثيرا هو إطاعة الحكومة".

حينما كان جلوب مازال في فرق الالغام والخنابق، أنيط به بناء أكواخ وحظائر طائرات لقاعدة القوات الجوية الملكية بالهندي على مشارف بغداد. وحينما حان الوقت ليصبح ضابط استخبارات في القوات الجوية الملكية مسئولاً عن توجيه ضربات على مساحة تمتد لحوالي خمسمائة ميل بمحاذاة شاطئ الفرات، كان يتحدث العربية بطلاقة (وقبل فيما بعد) بأفضل مما يتحدث بها معظم العرب. أشرف على عمليات كادت تكون مستمرة. ووفقا لما ذكره جلوب في كتابه "مشاهد الحياة

المتخيرة" (نشر عام ١٩٨٣): "كانت النظرية هي أنه حينما تندلع التمردات القبلية في أي أقليم - ربما على بعد مئات الأميال - تنقل الطائرة من هنيدي وتقصف المتمردين.. وهكذا تنتهي أعمال الشغب فيما بين الإفطار والغداء". أما على الصعيد العملي فقد تسبب السهل الطويل المغبر الذي تقاطعه أعداد لا نهاية لها من القنوات وحُفر الرى، في صعوبة تحديد الطيارين للأهداف، واعترف جلوب بأنه، كان يحدث أحيانا أن تُقصف أكثر العشائر ولاء للحكومة عن طريق الخطأ.

كانت قبائل بنى هشيم قد ظلت تعسكر بمحاذاة الفرات جنوبي العراق على مسافة قريبة منذرة من خط حديد بغداد /البصرة، حيث كانوا مصادر متاعب لا تنتهى. كانوا من كبار المقاتلين في ثورة العشرين- لم يستطع البريطانيون مهاجمتهم في موطنهم بسبب العقبات الفيزيائية العديدة ومن بينها حفر الرى العشوائية الكثيرة التي جعلت من المستحيل على الدواب أو السيارات المرور. كان العشانيون قد فرضوا ضرائب على القبائل لكنهم لم يجتهدوا في جمعها. والآن، رفض بنو هشيم الاعتراف بحكومة فيصل. وكما علق زميل لجلوب بالقول إنه بما أن القبائل لم تتلق أية عائدات ملموسة نظير الضرائب التي كانوا يدفعونها "فقد شعر الكثيرون منهم أنهم يزبون الأفندية من أكلى الطماطم في بغداد بالأموال". كانت ضرائبهم متأخرة، والغرامات على البنائى لم تجمع، ولم يعاقب أحد على أعمال الإغارة والخطف. ويتوصية من وزير الداخلية العراقي، أُتخذ القرار بتلقيين عشيرتين - بركات وسفران - من تلك القبائل درسا قاسيا.

كانت مهمة جلوب هي تحديد مشايخ معينين، وقصف "الذين كان نفوذهم بين رجال القبائل يجعل منهم هدفا مناسبيا بغاية للهجوم عليهم". وفي صيف عام ١٩٢٣، ارتحل الكابتن جلوب ومعه خادم ومرشد فقط، مرتديا عباءة على زيه العسكري، ودخل إلى قرية الشيخ بركات. قُدمت له ضيافة الشيخ ويعددها زار قرى

القبيلتين. كتب في تقريره أن القبيلتين كانتا "فقيرتين بدرجة استثنائية"، وأنهما قد تركتا الفلاحة كلية بعد أن حول أحد زعماء العشائر الأكثر قوة مياه القبيلتين إلى قنواته. ذكر جلوب أن "من الحقائق المؤسفة أن الحكومة الآن تقدم نفسها لهم على أنها مالك أرض متغيب ولا تهتم بهم أبداً إلا من حين لآخر حينما تطلب الجبايات". يكتب جلوب قائلاً بصراحة إنه أثناء تلك الرحلتين، وفيما كان يتمتع بكرم ضيافة القبائل، كان يرسم الخرائط لتمكين سلاح الطيران الملكي من قصفهم. يتذكر أنه شعر أن عليه تحذيرهم من أنه، بشخصه، سيقود القاصفات إذا تمروا.

وفي الوقت المناسب، أسقطت طائرات السلاح الجوي منشورات على قبيلتي بركات وسفران استدعت فيها المشايخ للذهاب إلى بلدة سماوه القريبة بعد إعلانهم بثمان وأربعين ساعة. وهناك تلقوا إنذاراً بأن عليهم دفع مقدم مالى لضمان أن تدفع قبائلهم الضرائب والحفاظ على أمن الحياة. برهن ذلك على أنه مستحيل. أصر المشايخ على أنهم فقدوا القدرة على التحكم في رجال العشائر منذ وقت طويل، وعلينا الرجوع إلى ما كتبه جلوب لمعرفة ما حدث بعد ذلك. "حينما استدعوا، لم يذهب المشايخ، وقمت بتوجيه القاصفات كما كان مخططاً، وكان لدى كل قائد طائرة نسخة من خريطتي. وحالما سمعت القبائل صوت الطائرات - وكانوا قد عرفوا منى ما كان مخططاً له أن يحدث - هروا إلى خارج قراهم ورقدوا في حفر الرى. لم يُقتل سوى امرأة واحدة. بيد أنه، وكنتيجة للقصف، ذهب كل مشايخ القبائل (ليس فقط بركات وسفران) إلى مقر الحكومة، وتم التحكم في المنطقة جميعها دونما إراقة دماء".

بيد أن ذكريات جلوب التي دونها فيما بعد تتناقض بشكل مؤسف مع التقرير الرسمي الذي يذكر تفاصيل يومين من القصف المتواصل بواسطة طائرات دو هافيلاند، وكانت بعض الهجمات تحدث بالليل للحاق برجال القبائل لدى عودتهم إلى قراهم بعد غزواتهم بالنهار. (ألقي جلوب نفسه قنبلة كبيرة على الهدف الرابع عشر من على جانب مقعد الملاحظ في الطائرة القائدة). ووفقاً للتقرير الرسمي

توفى ١٤٤ شخص وجرح أعداد كبيرة لم تحصى. ومن أجل مزيد من التفاصيل عن العمليات، ورد فعل بغداد المستحسن، علينا أن نتوجه إلى بل كلية المعرفة في خطاباتها إلى والدها:

"تحقق إنجازات هائلة. آخر نجاح لنا هو بعض العمليات ضد قبائل متعردة بإصرار بالقرب من سماوة - أعتقد أنني أخبرتك أنه لم يكن ثمة ما هو سياسي في ذلك - لقد رفضوا إطاعة الأوامر وانتظروا يتحدّ ليروا ما هو حادث. ولقد حدث بالفعل، وكان التنظيم رائعاً. أوكل إلى فرقة عراقية أمر حراسة كبارى السكك الحديدية والمطارات. وتم قصف القبائل واستسلموا رجلاً رجلاً. وفي اليومين التاليين هدمت الشرطة حصونهم جميعها. أتى الجميع من بعيد ومن قريب. وأمس، ذهب كين [كينهان كورنواليس المستشار العسكري البريطاني لحكومة فيصل] ووزير الداخلية [علي جوّدت] بالطائرة وعقدوا مجلساً ضخماً وأوضحوا كل ما عليهم فعله مخبرين إياهم أنه قد تم العفو عنهم... رائع، أليس كذلك؟".

حذر تشرشل السير بيرسي كوكس في يونيو ١٩٢١ قائلاً: "العمليات الجوية وسيلة مشروعة لقمع الاضطرابات وفرض النظام، لكن لا يجوز بأي حال أن تستخدم لدعم إجراءات سياسية محضة مثل جمع الضرائب والجبايات"، وبالرغم من ذلك غدا القصف الجوي لعدم دفع الضرائب سياسة حكومية. وفيما رأى فيصل تكوين جيش أكبر من المجندين، كان البريطانيون يفضلون فرض الأمن عن طريق القصف الجوي الذي كان "فاعلاً إلى أقصى الحدود" و"آلية رحيمة الحكم". أوضح جلوب في مذكرات للجيش عام ١٩٢٦ أن "الطائرات. كقاعدة عامة، لا تحدث إصابات ثقيلة. يرجع أثرها المعنوي الهائل إلى فقدان الروح المعنوية الذي يولده في رجال القبائل المس بالعجز وعدم القدرة على الرد بفاعلية على الهجوم".

يمكن اعتبار تجارب السلاح الجوي الملكي بالعراق، أي استخدام أقل قدر من القوة لإحداث أكبر الأثر، عودة إلى الممارسات البريطانية في الهند في القرن التاسع عشر حيث كان يتم ربط مثيरी الشغب إلى المدافع وتمزيقهم إرباً مع إطلاق المدافع. وبهذا كان يتم بعث رسائل إلى المتفرجين، ونادراً ما كان يناقش هذا

الجانب الخفى من الحكم غير المباشر. ويصفها هذه، كانت تلك الممارسات نموذجاً معيارياً مبكراً لاستراتيجية "الصدمة والترويع" التى مارسها البنتاجون فى القرن الحادى والعشرين.

أول من عبر بأسلوب محدد عن تلك الرسالة الرمزية كان هو إيه. تى. ويلسون عام ١٩٢٠، ثم استخدمها السير بيرسى كوكس وهنرى دويس بفاعلية وفقاً لما سجلته بل عام ١٩٢٤.

كان أكثر ما حدث أثناء الأسبوع إثارة للاهتمام هو أداء القوات الجوية، تجربة القصف. أنت أكثر لفتاً للنظر مما رأيناه العام الماضى فى استعراض القوات الجوية لأنها كانت أكثر واقعية. كانوا قد صنعوا قرية متخيلة على بعد حوالى ربع ميل من أماكن جلوسنا لدى دىالى وذهبت القنبلتان الأوليان اللتان ألقيتا مباشرة من ارتفاع ١٢.٠٠٠ قدم إلى وسطها وأشعلت فيها النيران. كان ذلك رائعاً ومروعاً. ثم ألقوا القنابل فى جميع أنحاءها وكاننا للحاق بالفارين. وأخيراً استخدمت القنابل الحارقة التى، وحتى فى ضوء الشمس المشرق، صنعت ألسنة لهب ذات شعل متوهجة.. ترك الغرض انطباعاً هائلاً على ونال إعجابى. إن الحرب من الجو لا تعرف الرحمة، ورهيبة بدرجة مذهلة مروعة.

أسرّ أحد رجال العشائر لأحد زملاء جلوب قائلاً: "ثمة شيئان فقط يخشاهما المرء، الله، وحكومة الطيارات". لكن، وحتى بالرغم من أن سلطة الانتداب قد ذهبت إلى أن القصف الجوى كان نوعاً من الحروب المشروعة، إلا أن المذابح التى ارتكبت فى حق المدنيين حفزت، وكما كان محتماً، مساءلات برلمانية. وصف جورج لانسبرى النائب العمالى، وزير الطيران بأنه من نسل المغول الهون وأضاف قائلاً: "أعلم أن ثمة شعوراً بأن الشخص الملون أقل قيمة من الأبيض، لكننى لا أعتقد ذلك. أعتقد أنكم قتلة أطفال، وقتلة أطفال مجريون من الرحمة، سواء قتلتم طفلاً أسود أم طفلاً أبيض. لا أرى أى فرق. أعتقد أن تلك جريمة والأخرى جريمة أيضاً".

قام وزير الدولة لشئون المستعمرات، ليوبولد إمري بجولة فى العراق عام ١٩٢٥ لتقييم الحكم غير المباشر وفرض الأمن من الجو. أعجب بخفض النفقات من ٢٠ مليون جنيه استرليني فى الفترة ما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٢ إلى أقل من ٣,٤ مليون، وذهب إلى أن العراق كان مفيداً جداً كميدان تدريب تجريبى رائع للقوات الجوية الملكية. ثم انتهى إلى أنه "بالنسبة للقوات العسكرية، فإن القوات الجوية الملكية.. هى العمود الفقرى لكل هذا التنظيم. ويرجع الفضل كلياً للطائرات البريطانية فى فرض إرادة الملك فيصل على جميع أنحاء المملكة.. أما إذا سُحِبَت الطائرات غداً فمن المحتمل أن ينهار البنيان كله ويصبح أنقاضاً. لا تستطيع أية قوات يتم تشكيلها محلياً الإبقاء على النظام الداخلى أو مقاومة العدوان الخارجى يوماً مساعدة من الجو. لا أعتقد فى احتمال وجود أية شكوك حول هذه النقطة".

من غير المستغرب. أن قام قائد السرب آرثر هاريس باتخاذ العراق حقلاً لإجراء تجاربه فى الغارات الجوية على الأهداف المدنية، تلك الغارات التى أتقنها هناك ثم استخدمها لاحقاً فيما بعد على المدن الألمانية ذات الدفاعات الضعيفة فى الحرب العالمية الثانية، مما أكسبه لقب "القصف". كتب هاوس نفسه عام ١٩٢٤ وهو يكاد يزهو: "يعلمون [العرب والاكرد] الآن ما يعنيه القصف الحق من حيث الإصابات والأضرار، يعلمون إنه بالإمكان عملياً محو قرية كاملة فى غضون خمس وأربعين دقيقة، وقتل ثلث ساكنيها أو إصابتهم". علّق ويليام بيل، الأمريكى الذى كان شاهداً على جل هذا التاريخ بالقول إن البريطانيين، عملياً، قد ضمنوا فى العراق "مصالحهم الإمبريالية بدون أعباء الحكم الاستعمارى المثير للبغضاء".

كان للتبعات السياسية للحرب الجوية التى شُنت على السكان المدنيين العزل أن تطارد البريطانيين طوال فترة الانتداب، كما كان للقوة الجوية أن تظل وسيلة العقاب المفضلة، ميزة تكنولوجية تطورت لتصبح بديلاً للإدارة الديمقراطية. أصبح قصف الاكرد أكثر سهولة من حكمهم.

في عام ١٩٢٦ حينما استقال جلوب من الجيش لينضم إلى الإدارة البريطانية بالعراق، كان قد كون علاقات وثيقة مع البو المحليين بالصحراء الجنوبية، وسافر لمسافة خمسمائة ميل من العراق إلى الأردن معطيا ناقة بصحبة خادمه علي فقط، وكان جلوب محاربا سابقا بالعمليات التي تم شنّها على المغيرين الوهابيين الأصوليين (المعروفين بالإخوان)، والذين كان لابن سعود، راعيهم، أن يظل يمثل الشوكة الكبرى في جانب الهاشميين.

وعلى الرغم من أن جلوب كان يرى وجوب زيادة القوات الأرضية، إلا أن القوات الجوية كانت هي التي أخضعت الإخوان، في النهاية ولو مؤقتا. كتبت بل في هذا الصدد تقول الملك.. جد مسرور بما حدث للإخوان - وكذلك أنا. في اليوم التالي لتوجيههم النيران إلى طائرتنا قصفنا معسكرهم. هربوا إلى مسافة ٤٠ ميلا جنوبا وفي الصباح التالي تعقبته طائرتنا وقصفته مرة أخرى. كانوا قد شنوا هجوما بدون أي استفزاز منا، ونهبوا الرعاة المسالمين وقتلوه واستولوا على قطعانهم. لا أعلم أنني شعرت بمثل هذا الفخر لقدرتنا على توجيه الضربات الشارية. يثير في الإخوان واحتكامهم المتعصب إلى عقيدة عصر أوسطية أكثر أشكال البغض قتامة.

في عام ١٩٢٨ تم تعيين جلوب المفتش الإداري للصحراء الجنوبية، وحضر اجتماعا بجدة حيث قابل ابن سعود للمرة الأولى ووجده "شخصية هائلة" مبينا أن شخصا مثله "كان لا بد أن ينتهي به الأمر رئيسا للوزراء في أي بلد بالعالم". يذكر سعيد أبو الريش في كتابه آل سعود The House of Saud أنه فيما مضى ابن سعود يعزز سلطته في أنحاء شبه الجزيرة العربية" تم قتل أو جرح ما لا يقل عن ٤٠٠٠٠ شخص لأن الإخوان لم يحتفظوا بأسرى حرب، بل كانوا، في غالبية الأحيان، يقومون بقتل المهزومين". كان جلوب قد راقب المذابح، وعمليات الهروب الهلعة، وحينما تم إخضاع منطقة الحجاز، شهد قبيلة شمر، إحدى كبرى قبائل الحجاز، وهي تفر مذعورة شمالا باتجاه العراق.

حينما تقدم جنود جيش الإخوان الكبير وهم يركبون الجمال باتجاه عمان عام ١٩٢٥، لم ينقذ العاصمة سوى العربات المصفحة والمدافع الآلية التي كانت بريطانيا قد زودت بها المقاتلين، و معها قاصفات السلاح الجوي الملكي مجمعة. وكننتيجة لهذا، تمت دعوة جلوب للالتحاق بفيلق الأردن العربي برتبة فريق من أجل حفظ أمن الحدود وإنهاء المنازعات بين/ القبلية. قبل جلوب العرض مباشرة لأنه كان قد توقع عدم وجود مستقبل له كجندي إنجليزي بالعراق بعد توقيع المعاهدة الأنجلو/عراقية عام ١٩٣٠ .

لم يكن الفيلق العربي الذي سيرتبط به جلوب دائماً من إبداعه، بل من ابتكار شخص إنجليزي آخر، أي فردريك جرارد بيك (١٨٨٦ - ١٩٧٠) الذي اشتهر باسم بيك باشا. بعد تخرجه في كلية ساندهيرست خدم بيك في سيناء عام ١٩١٨، حيث تولى قيادة فرقة الهجانة المصرية التي ساعدت لورانس في هجماته على خط سكة حديد الحجاز. وفي نهاية الحرب، تمت التثنية على اقتراح بتعيين بيك، والذي كان برتبة مقدم، لمنصب مفتش الدرك بشرق الأردن. في عام ١٩٢٣، أعاد تنظيم قوات الدرك ودمجها مع قوات الاحتياط والشرطة وأسمائها الفيلق العربي (أعلن البريطانيون أن ١٥٠٠ رجل لا يمكن أن يسموا جيشاً). كان بيك، وهو من كان يتمسك بالإتيكيت والبروتوكولات، يرتدى الزي الرسمي لدى تناول العشاء رغم أنه عادة ما كان يتناوله بمفرده. ولأنه لم يكن من مهاويس البدو الرُحَّل، فقد جمع قواته في بلدات وقرى شرق الأردن وفلسطين. في عام ١٩٢٦، أنيط بوحدة إمبريالية، وهي قوة شرق الأردن الحنودية، التي كان البريطانيون يدعمونها ماليا ويمدون بها بالضباط تحت القيادة العملياتية لسلاح الجو الملكي والقيادة العليا لفلسطين وشرق الأردن. أنيط بها مسئولية حماية حدود البلد. صدرت الأوامر إلى تلك القوات في الأعوام ١٩٢٩، ١٩٣٦، ١٩٣٩، ١٩٤٥، و١٩٤٨ بالدخول إلى فلسطين لقمع أعمال العنف المعادية للصهيونية وبذلك أصبح الفيلق العربي، أو الجيش العربي التابع للأمير عبدالله وقد تقلص عدده، قوة أمن داخلية.

وصل جلوب عام ١٩٢٠ ليصبح الرجل التالي لبيك باشا في القيادة. كانت ضمن أولى إجراءاته جعل قوة الحدود تتسحب من الصحراء لتحل محلها قوة تعرف بالبادية، أو بدوية الصحراء. كانت تلك القوة التي تشكلت في البداية من عشرين رجلاً يركبون أربع شاحنات بويك مسلحين ببنادق آلية من نوع لويس وفيكرز من مخلفات الحرب العالمية الأولى، كانت تتكون من مجندين بنو من قبائل الصحراء مثل شمر وبنى صخر والحريطات التي كان شيخها عودة أبوطاية حليفاً للورانس وفصل. قوْلُ جلوب هؤلاء الرجال ليشكلوا وحدة نخبوية تمتطي الإبل وخصص لهم معاقل إقليمية صغيرة تتصل ببعضها بالبرق. قبل ذلك، كان التحيز ضد البدو سائداً في أنصاء الشرق الأوسط. قال عنهم لورانس إنهم حينما يُستشارون يصبحون متقلبين مثل الماء، وانزعج الضباط الأردنيون من دعم منافسيهم الصحراويين وتعزيز مكانهم. لكن كان لجلوب أن ينجح بتلك القوة الصغيرة المتحركة بزيتها المميز- عباات كاكى على بنطالات قطنية بيضاء يُربط حولها أحزمة حمراء عريضة تستخدم للاحتفاظ بالطلقات، ورماح فضية، ومسدسات - كان له أن ينجح بمرور الوقت في قمع الإخوان المغيّرين وصدّ هجماتهم. لكن كان لقمعه سرقة الماشية آثار سلبية غير مقصودة: كان الغزو والإغارة مصدر دخل ومتهمة (رياضية) للبدو. كتب جلوب أنه حينما انتهت أعمال الغزو اكتشفنا بأسلوب غير متوقع أن الغزو لم يكن يمثل فقط تسليّة للفرسية العربية لكنه كان أيضاً نظام ضمان اجتماعي ونتج عن تدخلنا سيئ التوقيت تدمير التوازن“.

كان رجال جلوب مكرسين وموالين - كان بعضهم قد تبعوه من العراق. فيما بعد، زعم إلك كيركبرايد أن قدرة الباشا على جذب العرب والاحتفاظ بولدهم كان مردداً إلى أن أصوله كانت من أيرلندا وكورنويل ولم يكن مثل الشخص الإنجليزي النمطي. كان خيراً وأبويًا الأمر الذي أدى إلى ظهور عُرف سبب إزعاجاً له:

”إن إحدى المضايقات الجدية والمتزايدة بوضوح في الصحراء هي تلك الموضّة التي تنتشر بين الآباء البدو المحتضرين الذين يختارونني وصياً على أطفالهم. يزعم العرب أنه لا بد من احترام تلك الرغبات التي يعبر عنها على فراش الموت والالتزام بها وأنه ليس شمة

وسيلة شريفة للهرب. وبالطبع، فإن أولئك الآباء المهتمين يموتون دائماً وأحوالهم المالية متردية إن لم يكونوا غارقين في الديون.. ولو أن الأمر اقتصر على المشايخ لما كان بهذه الدرجة من السوء، لكن في شرق الأردن، يوجد في كل نقطة شرطة بالصحراء اثنان أو ثلاثة ممن هم تحت وصايتي حيث يتعلمون القراءة والكتابة. يغفل الآباء عن ترك شيء لأولادهم وديعة لدى الوصي، وتكلفهم ملابسهم ومطعمهم مسئولية شهرية ثقيلة.

كان جلوب مسيحياً ورعاً ذا نوازع سخية، وكثيراً ما كان يدفع مصروفات المدارس ونفقات المستشفيات لرجاله من راتبه المتواضع. كان جلوب أبوياً لكنه لم يكن متعالياً أبداً، ومن ثم كان يسرع للدفاع عن رجاله ضد تحيزات الضباط الإنجليز مفضلاً الضباط الذين يراعون مشاعر الغير على نوى التدريب العسكري الأفضل. دائماً ما يتم تصويره وهو يتمتع بكرم الضيافة العربي حيث يجلس مربع الساقين على أرض الخيام المصنوعة من شعر الماعز يرتدى الشماغ ويحرك حبات المسبحة (كان دائماً ما يرتدى زي التدريب العسكري الكاكي ولم يرتد أبداً الثياب العربية الحريرية الفضفاضة مثل لورانس). وفيما بعد، حينما كان الباشا يظهر ببرزته العسكرية، كان يزيناها بخمسة صفوف من شرائط الأوسمة.

كانت تقارير جلوب الشهيرة إلى المقر الرئيسي للفيلق العربي تُرسل إلى القدس، ومن هناك إلى لندن. ورغم تعبيراته الطنانة، وهراحتة وتشبثه بأرائه فإن تلك التقارير تشكل قراءة أسيرة. كان أحدها، والذي اجتراه جيمس لانت كاتب سيرة جلوب، يدور حول ما أشيع عن اكتشاف النفط في السعودية: "إذا كان هذا صحيحاً فقد يعني تغييراً في التاريخ المستقبلي لشبه جزيرة العرب. سياسياً، فربما يمكن هذا آل سعود من إحكام قبضتهم على الحجاز واستبعاد الأشراف". عبر جلوب عن قلق نبؤي بانه إذا تملك الوهابيون النفط فإن هذا سيفير جذريا أسلوب حياتهم كعرب رحل وسيكون له أثر هائل على بقية الشرق الأوسط.

لم يكن البريطانيون أبداً موضعاً للكراهية في الشرق الأوسط ممثلاً أصبحوا بعد سحقهم للثورة العربية في فلسطين بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩. فجروا المنازل، وحياً بأكملهم في حيفا وسجنوا الثوار أو أعدموهم ونفوا قاداتهم. كانت بداية الثورة

إضرابا عاما دام لسته أشهر من قبل الفلسطينيين وشمل التوقف عن العمل ومقاطعة البيزنسات التي يملكها البريطانيون والصهاينة. أمدتها بالوقود إجراءات الريخ الثالث المعادية للسامية مما أدى إلى تزايد سريع للهجرة اليهودية إلى فلسطين وزاد ليهيها التحريض المعادي للصهيونية للحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر. كان السير هربرت صامويل المنسوب السامي والنائب الليبرالي السابق، في إيماءة غير محسوبة، قد اخترع لقب "المفتي الأكبر"، الذي كان حامله يعتبر ذا منزلة أرفع من باقي المفتين، وعينه كبير الجالية الإسلامية بفلسطين (كان هربرت، اليهودي، شديد الاهتمام بأن يبدو في غاية الإنصاف للعرب وعدم إبداء تحيز للصهاينة).

وعلى الرغم من أن شرق الأردن ظل هادئا نسبيا أثناء الثورة، إلا أن "المخربين" هاجموا تجهيزات الاتصالات في البلد، وأنابيب النفط، والمكاتب الحكومية. حاول البريطانيون عكس سياسة السماح بدخول مزيد من اليهود إلى فلسطين وقيّدوا الهجرة، وهي خطة أوضحت تفاصيلها "الورقة البيضاء" لعام ١٩٣٩، ووافق عليها مجلس العموم. وعلى الرغم من ذلك، فحينما جاءت الحرب، كان عبدالله هو الحاكم شرق الأوسطى الوحيد الذي قدم المساعدة. أمل القادة العرب الآخرون في هزيمة بريطانيا. لكن وحتى وقوع انقلاب موالٍ للنازيين في العراق في مطلع شهر إبريل عام ١٩٤١ بتحرير من أربعة كولونيالات (المربع الذهبي) ودعم رشيد على الجيلاني رئيس الوزراء، ظلت مهمة الفيلق العربي الوحيدة هي حراسة مطار بريطاني في فلسطين.

كانت تلك هي أهلك الأوقات بالنسبة لبريطانيا العظمى المنزلة. بعد سقوط فرنسا وجلاء البريطانيين عن دنكيرك في مايو/يونيو ١٩٤٠، انتقلت العمليات العسكرية إلى الشرق الأوسط والبلقان. في إبريل ١٩٤١، أُجبرت قوة مهمات بريطانية كانت قد أرسلت في محاولة ياشسة للدفاع عن اليونان على الانسحاب إلى البحر. أيضا كان الفيلق الإيطالي الإفريقي بقيادة الجنرال إيروين روميل قد أجبر قوات أرشيبالد واثل القائد العام البريطاني في الشرق الأوسط على الانسحاب من بنغازي باتجاه مصر

وقناة السويس. وحاصرت مدرعات روميل ميناء طبرق بليبيا بالغ الأهمية بالنسبة لطريق الإمدادات البريطانية والذي كان يسيطر عليه الأستراليون. وبعد استسلام الفرنسيين في أوروبا، انتقل التحكم في سوريا ولبنان إلى نظام فيشي العميل، وأصبح الجنود الفرنسيون، وكان بينهم كثيرون من شمال إفريقيا، أعداء. استقبلت المطارات السورية واللبنانية طائرات نول المحور، ونقلت قطاراتهم الذخيرة والمؤن حتى الموصل كان عملاء، نول المحور الذين اتخذوا من دمشق قاعدة لهم يعملون بحرية في الأرضين الأمر الذي سبب الانزعاج لعبدالله. تم التعبير عن نوايا هتلر الاستراتيجية بوضوح في مذكرة عسكرية توجيهية بتاريخ ٢٣ مايو لقد قررت الدفع قدما بالعمليات بالشرق الأوسط من خلال الذهاب لدعم العراق.

في العراق، كان غازي قد خلف والده الملك فيصل، ثم مات في حادث سيارة (مدبر) عام ١٩٣٩، تاركا مملكة متقلقلة في رعاية عبدإله، الوصي على العرش الموالي للبريطانيين، وابن شقيق الأمير عبدالله، وعم فيصل الثاني - الملك الطفل. وبعد إبلاغه سرياً عن انقلاب الكولونيلات الوشيك، تم تهريب عبدإله، وهو يرتدى بيجامته، خارج بغداد يوم ٣١ مارس في المقعد الخلفي لسيارة ميعوث أمريكي إلى قاعدة القوات الجوية الملكية بالجبانية، ثم نُقلَ جواً إلى البصرة حيث استقل الزورق الحربي البريطاني كوكتشيفر، ثم، وفي عمان الآمنة نسبياً، كان عليه أن ينتظر الأحداث مع نوري السعيد رئيس وزراء العراق السابق الموالي لبريطانيا، وفيصل، الملك الطفل الذي كان في السادسة من العمر.

في ١٩ إبريل، واستناداً إلى الحقوق البريطانية بمقتضى معاهدة ١٩٢٠ - التي مُنحَ بمقتضاها العراق السيادة الشكلية لكنها تركت لبريطانيا الحق في القواعد العسكرية، والحق في استخدام السكك الحديدية، والأنهار، والموانئ، والمطارات، ووسائل الاتصالات العراقية - رست فرقة بريطانية هندية مشتركة بعث بها الجنرال كلود أوتشليك القائد العام بالهند، رست بالبصرة من أجل إقامة قاعدة عسكرية وحماية النفط الفارسي. وفي بغداد، شجب رشيد على المعاهدة بعد أن رست فرقة ثانية من القوات الهندية بالبصرة. وفي ٣٠ إبريل، استيقظ نزالاً قاعدة

القوات الملكية الجوية بالحبانية ليجدوا الجيش العراقي، وقد شعر بالبهجة للانتصارات التي كان الألمان قد حققوها مؤخراً بشمال إفريقيا والبلقان يحتل التلال المحيطة بالقاعدة الجوية. كان يسكن معسكر الحبانية تسعة آلاف مدني إضافة إلى ٢٢٠٠ من الجنود ورجال القوات الجوية داخل محيط قدره سبعة أميال. وفي بغداد، أحاط كوريون من الشرطة العراقية بالسفارة البريطانية التي كان قد احتشد فيها أعداد غفيرة من المدنيين الأجانب والديبلوماسيين ومن بينهم السير كينان كورنواليس السفير البريطاني والذي كان قد وصل حديثاً، والذي كان يعرف العراق منذ وقت طويل وكان قد وصل لتوه؛ وكذلك فريا ستارك، كاتبة الأسفار.

كان المفتي الأكبر، الموالى للنازية قد هرب من فلسطين وأجبر على مغادرة لبنان، ثم وجد ملاذاً بالعراق. كان البرلمان العراقي بدعم من المفوضية الإيطالية قد وافق على منحه الأموال، ومكنه ذلك من أن يصبح مصدراً للمخططات المعادية للبريطانيين والصهاينة. (وفقاً لوصف فريا ستارك له، بعد لقائهما ببغداد، فقد كان رجلاً شاب المظهر رغم بياض شعره، وسيماً، يرتدى عمامته وكنها هالة نورانية، عيناه زرقاوان فاتحتان متألقتان، ويحيطه وهج وكأنما إبليس قد هوى لتوه^(١)). تسارعت بروياجندا الحرب حينما حاز ممثل ألمانيا الرئيسي وداعيتها المتحمس

(١) تكال التهم للحاج أمين الحسيني وتشوه صورته ويصور على أنه تجسيد للشيطان وذلك لتصديده للمؤامرة البريطانية الصهيونية للاستيلاء على فلسطين لحساب الصهاينة. الم يكن هذا من حقّه بل ونحمد له؛ حينما التجأ أمين الحسيني طالباً للمساعدة من الفاشيست والنازيين فلم يكن ذلك لإيمانه بمبادئهم بل لأنهم أعداء لإنجلترا وجيوشها التي ارتكبت من الجرائم والمذابح ما ارتكبته في حق الثوار الفلسطينيين والعراقيين باعتراف الكاتيبين. هذا علاوة إلى أن عدداً من المفكرين والأدباء البريطانيين اعتنقوا الفاشية في وقت ما، بل إن الشاعر البريطاني الشهير إزرا پاوند كان يهت إذاعات مؤيدة لهتلر، ولم تشوه صورة أي من هؤلاء، بل اعتبر ذلك إما حرية رأي، أو خطأ ارتكب نتيجة التضليل؛ الم يتعاون الصهاينة أنفسهم مع النازيين لتحويل ممتلكات اليهود الألمان إلى فلسطين والسماح بالهجرة كما هو مثبت بالوثائق؟ (الترجمة).

فريتز جرويا على صحيفة العالم العربى التى نشرت ترجمة عربية لكتاب هتلر "كفاحى" على حلقات. بث راديو برلين "أدلة" على أن البريطانيين دسّوا السم ليفصل الأول ثم قتلوا ابنه غازى.

كان وضعاً محفوفاً بالمخاطر بالنسبة للبريطانيين: إذا فقدوا العراق، فقد تقف إيران وأفغانستان إلى جانب دول المحور، ويصبح من المحتمل لبريطانيا أن تواجه شورة بالهند، هذا علاوة إلى أن الرابطة الجوية الحيوية بين مصر والهند قد تُقطع وتتعرض إمدادات البريطانيين من النفط للأخطار. حث وايلز والسفير كورنواليس على التفاوض مع رشيد على، بل إن كورنواليس حتى اقترح الاعتراف بالحكومة العراقية الجديدة كأمر واقع لخشيته من أن أية عملية تُستخدم فيها القوة قد يُنظر إليها على أنها اعتداء على استقلال العراق وأنه من المحتمل جداً أن بإمكانه [رشيد على] إثارة ذلك الشعب المتعصب عديم التفكير ضدنا. ذكّر وايلز، وفى مواجهة الوضع المتدهور بشمال إفريقيا، تشرشل بتحذيراته ضد التورط فى العراق، وأقسم أنه بغير الإمكان وصول أية مساعدات من فلسطين إلى العراق فى الأوضاع الحالية.. إن قواتى تمددت إلى حدها الأقصى فى جميع الأماكن، وببساطة لا أستطيع تحمل المخاطرة ببعضها فى عمل لا يمكن أن يكون له تأثير. رد تشرشل الذى لم يقتنع قائلًا: "من الأمور بالغة الأهمية أن نفعل كل ما فى وسعنا لإنقاذ الجبانية والتحكم فى خط الأنابيب إلى البحر المتوسط". لكن وايلز المتشائم مضى يصر عن أنه حتى إذا تمكنت قواته المجهدة من إنقاذ قاعدة الجبانية فلن تتمكن من دخول بغداد أو التحكم فى العراق. كان وايلز يرى أنه من المحتمل للتدخل حفر انتفاضة عربية بما لهذا من عواقب عسكرية رهيبة سيكون لها ارتدادات فى فلسطين، عدن، اليمن، مصر وسوريا الأمر الذى قد يتطلب نسبة كبيرة جداً من قواتى للحفاظ على النظام الداخلى.

لكن تشرشل، الذى دعمته حكومة الهند، وأيضاً أوتشينيك القائد العام للقوات

المسلحة، انتصر لرأيه. وافق وايثل على نقل كتيبة من فلسطين، تم استدعاء جلوب إلى القدس للقاء ضابط القيادة في فلسطين والأردن الجنرال السير هنري ويلسون، والذي كان معروفا باسم "جامبو" وكان قد وصل حديثا بعد الهزيمة الكارثية في اليونان. كان تعداد الفيلق قد بلغ حوالي ١٦٠٠ جندي، وكان، مع دعم بريطاني اللوجستي له، القوة العربية المقاتلة الرئيسية. حينما نوقشت خطط "قوة الحبانية" التي كان من المفترض أن تنقذ القاعدة الجوية، سأل ويلسون جلوب "هل سيقا تل الفيلق العربي؟"، طمأنه جلوب. وبالتقابل، فإن قوة شرق الأردن الحربية التي كان يقودها ضباط بريطانيون ويمولها البريطانيون أعلنت العصيان: رفضت إحدى فرقها عبور الحدود، وتأمّر سبعة من ضباط الصف للاستيلاء على السلاح ومحاربة البريطانيّين، بزعم أنه "لا يوجد بيننا وبين العراقيين أي نزاع وأن البريطانيّين يجعلون الآخرين يحاربون نيابة عنهم"^(١). تجمعت "قوة الحبانية"، وكان قوامها حوالي ٦٠٠٠ جندي، فرقة فرسان ملكية بأسلحة آلية، وكتيبة من فرقة إسكس، وبطارية مدفعية ميدانية، وسرية من الشاحنات تحمل الإمدادات، تجمعت لدى H4 مستودع شركة نفط العراق بالصحراء الأردنية، بهدف القيام بما اعتُقد محليا أنها عملية محكوم عليها بالفشل: التقدم إلى بغداد للإطاحة برشيد علي. وافق قوة الحبانية ثلاثمائة وخمسون رجلاً من كتيبة الفيلق العربي بأسلحتهم الآلية. حُمِلوا في شاحنات مفتوحة ماركّة فورد مجهزة بمدافع ماركّة لويس من الحرب العالمية الأولى، وأيضاً في أربع سيارات مصفحة محلية الصنع.

كان "فتيات جلوب" - هكذا أسماهم البريطانيون بسبب شعورهم الطويلة السوداء المعقوصة، وثيابهم الفضاضة- يحملون البنادق والرماح، ولم يكن لديهم مدفعية أو هاونات (كان ضمن بنود معاهدة ١٩٢٠ التي تسببت في رجحان كفة القوات العراقية، بند اقتضى أن تكون تجهيزات القوات المسلحة العراقية مماثلة

(١) وهذا موقف كان يجب الإشادة به لا إدانته. (الترجمة)

لتجهيزات القوات البريطانية مما كان يعنى أن يواجه جنود الفيلق بأسلحتهم التى عفا عليها الزمن القوات العراقية المسلحة بأحدث مدافع بيرن الآلية). قامت قوة الحبانية، وقد أعاققتها وسائل النقل غير الكافية، بمصادرة سيارات، وشاحنات وسائقين مدنيين غاضبين من فلسطين. ذكر كيركبرايد، أنه لدى تعطل إحدى المركبات، كان يتم دفعها إلى جانب الطريق وتركها هناك. ووفقا للتقديرات الاستخبارية، واجه الفيلق أربع فرق، أو حوالى ستين ألف عراقي. اتخذت إحدى الفرق موقعها شمال العاصمة للدفاع عن حقول النفط فى محيط كركوك؛ وشكلت أخرى طوقا حول الحاميات البريطانية بالبصرة، أما الاثنان الأخيرتان فوُضعتا لحراسة مطار الحبانية وبغداد. ونظرا لإلمامه المتمكن بالسياسات القبلية العراقية، استطاع جلوب حفز ثورة داخل العراق فى وجود الفيلق يخدمه كمراقف وحارس له. كان قدبنى طويلا فكرة القوة غير النظامية - قوة صغيرة، مدربة، ذات دوافع حماسية مسيطرة - يمكن أن تنتشر بسرعة كبيرة للقيام بعمليات فدائية؛ وحات له الفرضية لإثبات فكرته. لكن كان على جلوب أن يتغلب أولا على تحيزات بريجادير (قائد) الفرقة. كان القائد جيه. چيه. كينجستون قد تمت قاتلا لضابط مخابراته الكابتن سومرست دوتشير، والذي كان أيضا عضو البرلمان عن حزب المحافظين قاتلا عن جلوب هذا الرجل يعتقد أنه ملك السعودية. سأتخلص منه بمجرد أن يغادر هذا المكان. لكن المشكلة، أننى لا أدري إن كان أعلى منى رتبة أم لا. أكد جلوب لكينجستون أنه لم يكن حتى ضابطا بالجيش البريطانى، بل كان مدنياً، وحيث استطاع الاثنان التعاون عن كثب (على الرغم من شكوك جلوب أن السبب فى إرسال رجال فيلقه فى المقدمة، كان بأمل القضاء عليهم).

عبر رجال الفيلق العربى الحدود العراقية ووصلوا إلى قلعة الرطبة الضخمة فى ٥ مايو. ويعد أن وجدوا دفاعات القلعة قوية، انسحبوا فى نفس اللحظة التى ظهرت قوة آليات عراقية دعمت حامية القلعة، لكن القوات الجوية الملكية قصفت القلعة بنجاح ليلا وأجبرت العراقيين على تركها واحتلت قوة الحبانية قلعة الرطبة فى ١١

مايو. حينما وصلت القوة البريطانية الرئيسية في المساء التالي، تم الاتفاق على ترك مائة من مقاتلي الفيلق كحامية بالرطبة، فيما يرافق الباقي وعددهم ٢٥٠ جندي رتلًا يُدعى "كينجكول" على اسم قائدته، ومعا يمضون قدما لتحرير الحباينة.

في ١٢ مايو، غادر الرتل الرطبة إلى الحباينة وكان الفيلق العربي في المقدمة. لكن حينما وصل مقاتلو الفيلق على مسافة مرمى البصر من بحيرة الحباينة لم يكن ثمة أثر لسرب كينجكول. استاء جلوب حينما وجد أن الجيش كان مغرورا في رمال الصحراء لأن ضباطه، كما كان قد خشي، كان لديهم "النزوع القاتل" للاعتماد على بوصلاتهم بحرفية مفرطة. اضطلع رجال الفيلق العربي، وكان بعضهم من أهالي العراق، بمهمة إنقاذ رتل الجنود. كتب دوتشير يقول في كتابه "السجادة الذهبية".

"كانت الصحراء بيئتهم الطبيعية يعرفونها بالفطرة، وكانوا يجوبون في أنحائها وهم يهرولون في دوائر حولنا وكأننا هم مدمرات ترشد قافلة من السفن الكبيرة؛ كثيرا ما يختلفون من آفاقنا القاسية المحددة ليعودوا للظهور فجأة من اتجاه غير متوقع". قاد رجال جلوب القوات في أنحاء الحباينة ليجدوا أن الحصار كان قد رُفِع في ٦ مايو حينما أصاب الجيش العراقي الذعر نتيجة مدفعية وقنابل القوات الجوية الملكية، ولأن دعم دول المحور لم يصلهم، فقد انسحبوا إلى الفلوجة.

وعلى الرغم من أن الفيلق لم يتكبد سوى إصابتين (تعرضا لإطلاق النيران من مدافع ألمانية) فقد وصلت التقارير إلى الصحف البريطانية والأمريكية في منتصف مايو بأن الرجل الذي يدعى "لورانس العرب الثاني" قد قُتِل في العمليات. وفيما بعد ذكرت التقارير أنه جُرح في اشتباكات مع العراقيين ثم زال عجب جلوب حينما تبين أن تلك التقارير كانت معلومات مضللة نُسبت إلى رشيد علي.

وفيما بقيت القوة الرئيسية بالحباينة، تم نشر الفيلق العربي بطول الطريق بين دجلة والفرات حتى سمراء شمالا والكاظمية (من ضواحي بغداد اليوم) جنوبا. استولى رجال جلوب على محطة السكك الحديدية بالمشاهدة وقطعوا خط سكك

حديد بغداد الموصل وخطوط الهاتف لمنع الإمدادات والأسلحة من الوصول إلى العاصمة. بدأ التقدم النهائي إلى بغداد في ٢٧ مايو بتحرك الفيلق من الشمال ودرتلين بريطانيين من الغرب والجنوب. وبعد يوم من هذا التاريخ أُسر رجال الفيلق حاكم بغداد المتمرد، ونظرا لعدم وجود تعليمات لديهم، وضعوه في قارب على مياه نهر دجلة. في ٣٠ مايو، فاتح عمدة المدينة والضباط المتمردون السفارة البريطانية بطلب هدنة. وخشية منهم من تطويق العاصمة، فرّ رشيد على والموفدون الإيطاليون والألمان ومعهم الحاج أمين الحسيني إلى إيران. تم توقيع اتفاقية هدنة، صاغها جلوب جزنيا، نص البند الثاني بالاتفاقية على السماح للجيش العراقي بالاحتفاظ بجميع أسلحته وتجهيزاته ونخبرته.

حينما وصلت عمّان أنباء استيلاء البريطانيين على بغداد، عاد الوصي على العرش ونوري السعيد رئيس الوزراء العراقي الموالي دائما لبريطانيا. في ١ يونيو، وفيما كان الفيلق المنتصر يعد نفسه للرحيل إلى شرق الأردن كان اليهود يحتفلون بعيد الشافوت. هاجم الدهماء مجموعة منهم كانت تعبر جسر الفلوج ببيداد. وكما حدث في دمشق عام ١٩١٨ وفي بغداد عام ٢٠٠٣ فشلت قوات الاحتلال في الحفاظ على الأمن بالمدينة. (قيل) إن وأيقل الذي كان مازال يتولى القيادة ساوره القلق من أن يبدو جيش الاحتلال وكأنه ينتهك استقلال العراق^(١). وخشي ضباطه من القتال في الشوارع الضيقة. نتيجة لهذا، ظل البريطانيون على الضفة اليمنى لنجلة حيث كانت تقع السفارة البريطانية. يزعم سومرست دو تشير قائد قوة الحياينة في سرده للحملة العراقية بكتاب "السجادة الذهبية" أن التعليمات بالبقاء خارج بغداد أتت من وزارة الخارجية: "نفذت تعليماتهم من ساعة وقف إطلاق النار. فبعد أن قاتلنا وشققنا طريقنا خطوة خطوة إلى أعقاب المدينة، كان علينا الانتظار خارجها. كان من الواضح أن الوصي على العرش، حليفنا، إذا شوهد مدعوما بالحراب

(١) أي استقلال هذا والعراق محتل! ما اشبه الليلة بالبارحة (الترجمة).

البريطانية لدى وصوله، فإن هذا سيعمل على تدنى هيئته وكرامته. وفي غياب أية حكومة ببغداد مضى مثيرو الشغب، وكان الكثيرون منهم من الجيش والشرطة العراقيين، ينهبون الأحياء اليهودية بالمدينة ومحلاتهم بشارع الرشيد.

وأخيراً تم فرض حظر التجول، لكن أعمال العنف كانت قد استمرت يومين. حدثت أسوأ أعمال النهب في اليوم الثاني حيث عبرت حشود البدو الجسور غير المتحكم بها من غرب بغداد. جاء بتعليق لقرى ستارك أن القوات البريطانية 'كانت حريصة على عدم دخول المدينة إلا إذا تمت دعوتهم، كما حرصت قوات فرض القانون العراقية على كسب معركتهم دونما مساعدة'. وهكذا تم الحفاظ على الزعم بأن البريطانيين لم يهزموا الجيش العراقي وأن الوصي على العرش 'سيعود لاستئناف مهام سلطته الشرعية التي قوطعت مؤقتاً من قبل حفنة من المتأمرين الذين ولوا هاربين'. وقبل أن يفرض الوصي على العرش حظر التجول، كان حوالي سبعمئة عراقي، معظمهم من اليهود وقلة قليلة من المسيحيين قد قتلوا وأصيب آخرون لا حصر لهم^(١) كانت إحدى نتائج أعمال العنف هي تأكيد ظن العراقيين أنها قد تم تدبيرها من قبل البريطانيين الخبثاء غير الجديرين بالثقة لتحقيق نوايا شيطانية؛ إذ بدا من غير المتصور أن يسمح رجال لهم من الخبرة ما لدى وايلز وكورنواليس بوقوع مثل هذا الهجوم على اليهود. كانت تلك الأعمال إيذاناً بالتدمير الشامل بعد عام ١٩٤٨ لأكبر جالية يهودية وأقدمها في الشرق الأوسط العربي.

وعلى الرغم من أن جنود الفيلق لم يلقوا سوى القليل من المقاومة ولم يتكبدوا

(١) لا يذكر المؤلفان أن أيًا من المسلمين قد قتل أو أصيب وهذا عكس الواقع. كما أن إقحام المسيحيين هنا لا يخلو من هدف ليس بالبرئ. ويُغفل المؤلفان تماماً أسباب الهجوم على "اليهود" الذين كانوا قد ظلوا يعيشون بأمان حتى تدخل البريطانيين. لذا ان تقارن هذا بأعمال العنف الطائفية والعراقية التي ارتكبت ومازالت ترتكب في العراق بعد الاحتلال الأمريكي. (الترجمة)

سرى إصابات خفيفة، فقد رأى قائدهم أنهم "إن لم يكونوا موجودين، ما تم الاستيلاء على بغداد". كان جلوب يزعم باستمرار بأنه يتجنب السياسة، لكن أراءه حول النظام الملكي الذي فرضه البريطانيون على العراق، كما عبر عنها في تقرير كتبه لوزارة المستعمرات، كانت قاسية:

"وهكذا، استطاعت مجموعة صغيرة من السياسيين احتكار المناصب طوال خمسة عشر عاما تقريبا. كان كل مجلس وزراء يضم نفس المجموعة القديمة التي تتبادل المقاعد مع كل تغيير حكومي. وأثناء تلك العملية أثروا ثراء فاحشا، وأصبح غالبيتهم ملاكا لضيعات وأراض شاسعة على حساب الفلاحين وصغار المزارعين الذين أصبحوا أجراء زراعيين لدى كبار السياسيين بعد أن كانوا من صغار المستأجرين والملاك المستقلين. وفي تلك الأثناء، استعار هؤلاء السياسيون مصطلحات الديمقراطية ورطانتها من إنجلترا وأمريكا، كما تحكموا أيضا بالصحافة والإذاعة.. من ثم، فالبنسبة للمراقب غير الخبير، تركت العراق الانطباع بأنها ديمقراطية نموذجية صغيرة فاعلة. أما على أرض الواقع فقد مضت عصاة من المرتزقة السياسيين المبتذلين تعزف نفس النغمات النشاز القديمة وتتسول بها على الأرغن الديمقراطي، فيما اشتغل عامة الناس، الذين تملكهم اللامبالاة وقدر من الحق نتيجة لتلك الضوضاء المتنافرة، انشغلوا فقط بكسب رزقهم وقوت يومهم".

كانت بغداد هي أولى المدن الكبرى التي سقطت في يد البريطانيين بعد الجلاء عن دنكيرك، وأتى احتفاء فريا ستارك بتحرير السفارة متمثلا في شراء ثلاث قبعات جديدة حيث بدت حملة العراق "نقطة تحول في الحرب الشرق الأوسطية". بعث جلوب بتقارير عن نجاحات الفيلق وإصاباته الخفيفة إلى عبدالله الذي ابتهج ثم عبر الفيلق الصحراء السورية ليحاصر القلعة الواقعة على أطلال مدينة الباميرا (تدمر) الرومانية. استسلمت الحكومة التابعة لفيشي في دمشق في ١١ يوليو. واستولى الفرنسيون الأحرار المواليون لديجول على السلطة مما أحيأ آمال عبدالله مرة أخرى في أن يصبح ملك سوريا العظمى.

وصف دوتشير في كتابه ”السجادة الذهبية“ إسهام جلوب بأنه حاسم، وكتب يقول إن أسطورة جلوب متجذرة بثبات في قلوب البدو أكثر من أسطورة لورانس.. كان اسم لورانس اسماً ذا تأثير واسع في الشرق الأدنى، أما اسم أبوحنيك فقد تم تقيله على أنه أمر واقع ثابت كالشرق الأدنى نفسه“. حرم انتصار بريطانيا في العراق هنتر من الوصول إلى الجزء الشرقي من الشرق الأوسط وأيضاً من النفط العراقي والإيراني. كتب جلوب يقول ”لو تمكنت قبضة الألمان من العراق لأصبح الأمر مسألة وقت فقط، بل ووقت قصير أيضاً قبل أن يغزو شرق الأردن وفلسطين، ثم يتقدموا إلى مصر شرقاً فيما كان روميل يهاجمها غرباً. لم تكن لدينا أية فكرة آنذاك أن ألمانيا ستهاجم روسيا بعد بضعة أسابيع، وأن أنهاراً من الذخائر والمؤن ستندفق بطول طريق حيفا/بغداد ومن الخليج الفارسي ثم إلى البصرة لنجدة حليفنا (السوفييت) في مأزقهم وسد حاجتهم“.

في تقريره عن ”حرب الثلاثين يوماً“ أمام مجلس العموم، حيث بلغ مجموع القتلى البريطانيين أربعة وثلاثين فقط (مقارنة بعملة ما بين النهرين في الحرب العالمية الأولى التي استغرقت ثلاث سنوات وكانت كلفتها حوالي مائة ألف قتيل أنجلو/هندي) عظم تشرشل من شأن ذلك النصر إلى الدرجة القصوى:

”لو أن أحداً قد تنبأ منذ شهرين حينما كان العراق في ثورة، وكان أناسنا في مأزق خطر، وعلى شفا الموت بالحيانية وسفيرتنا معتقلاً في سفارتنا ببغداد، وحينما اجتاحت السباح الألمان جميع أنحاء سوريا والعراق اللتين كانتا في أيدي قوات تتحكم فيها السلطة الألمانية بأسلوب غير مباشر وإن لم يكن أقل سطوة – لو أن أي أحد تنبأ أنه بحلول منتصف يوليو (بعد الاستيلاء على سوريا) سنكون بالفعل قد نظفنا الشام باكمله وحققنا هذا الانتصار الكبير، وأعدنا ترسيخ سلطتنا هناك لأجل، لاعتُبر مثل هذا النبى مفراط الحماسة“.

بعد أن امتازت ثقة تشرشل في وايل، عين أو تشينك مكانه في يونيو. أقام رشيد على مؤقتاً بالسعودية. واستمر الحاج أمين الحسيني المفتى في ترحاله، ونزل

ضيفا في برلين كموظف في وزارة الخارجية حيث قام بتجنيد المتطوعين العرب في صفوف الألمان حتى سقوط الرايخ الثالث. وحينما عاد نوري السعيد إلى السلطة تم إعدام الكولونيلات الأربعة الذين خططوا للانقلاب، ثم تملهي الجيش والشرطة من مئات عدة من الضباط المتمردين وكان بينهم خير الله الذي، وبعد قضاء خمس سنوات بالسجن، عاد إلى العوجة، قريته الواقعة بالقرب من تكريت. أصبح خير الله ناظر مدرسة وربي ابن شقيقته صبيحة وكان في العاشرة من عمره واسمه صدام حسين. (بعد أعوام، قام صدام، الذي لم يكن أبدا عاطفيا، بخلع خاله عن منصبه كعمدة بغداد متهما بإياه بالفساد).

وعلى سبيل المكافأة لها على ولائها أثناء الحرب، مُنحت الأردن استقلالها الرسمي عام ١٩٤٦، استقلالا كُلتته معاهدة تحالف جديدة مع البريطانيين الذين تلقوا تسهيلات عسكرية واسعة (بالأردن) ومرة أخرى، أحبط أمل عبدالله في إقامة سوريا العظمى الموحدة (رأى تشرشل أنه إذا كان للبلاد العربية أن تُوحّد فمن الأفضل أن يتم هذا تحت لواء ابن سعود). في ٢٤ مايو، ازدهمت الطرق المؤدية إلى عمان بالجمال والحمير والسيارات. نُبِحت مئات الأغنام لولائم دامت ثلاثة أيام. تنافست طلقات المدافع الاحتفالية مع رنين أجراس الكنائس وأصوات الأذان من على المآذن. توج عبدالله نفسه، وهو يرتدي العباة وغطاء الرأس العربيين بصفته "الملك عبدالله بن الحسين" ملك المملكة الأردنية الهاشمية.

وبعد مراسم القصر، استعرض عبدالله الفيلق العربي - فرقة الهجانة، الفرسان، وفرقة مزودة بمدافع الميدان الآلية - بمرافقة موسيقى القرب وآلات النفخ النحاسية. وإلى جانب الملك، وقف البريجاير جلوب مرتديا بزّة عسكرية صيفية، وخوذة، وسيفا. وفيما بعد أقام وليمة ضخمة للملكة ولكبار الزوار.

لم يلاحظ سوى القليلين أن السلام الوطني الذي أُعدّ سريعا لحفل التتويج

وسُمع وسط أنغام موسيقى القرب كان يبدو، وبأسلوب مثير للشكوك، مثيلاً للسلام الوطني الإنجليزي ”ليحمي الله الملك“. وحتى حينما انتهى الانتداب، استمر أبناء الحكام الهاشميين يتحدثون الإنجليزية بلكنة خريجي كلية هارو، ويتلقون تدريبهم الإلزامي كضباط في الأكاديمية العسكرية الملكية بساندهيرست. أيضاً، مضوا حتى الآن يستعرضون ولعهم بالسيارات السريعة والطائرات، ويشعرون بالآفة وهم يرتدون البذلات الإنجليزية من الماركات الراقية الشهيرة والأزياء العسكرية باكثر مما يشعرون به وهم يرتدون الثياب العربية. بعد أن أصبح عبدالله ملكاً بأسلوب رسمي وشكلي، كتب السير أليك كيركبرايد مستاءً ”لقد أمسك، تدريجياً، بالسلطة بدرجة لا تكاد تتسق مع وضع شرق الأردن كمملكة دستورية“

في انتخابات عامة غير متكافئة أجريت عام ١٩٤٥، تولت حكومة عمالية بقيادة كملت أتلي السلطة في بريطانيا الحرب، مما تسبب في دهشة عارمة. كانت استراتيجيتها المبدئية بالنسبة لفلسطين هي تحاشي التقسيم وإقامة دولة ثنائية القومية تضمن الحقوق السياسية والاقتصادية للأقلية اليهودية في ظل بلد عربي. كانت تلك الخطة مناسبة لعبدالله طالما أصبح هو ملكاً، لكنها كانت غير مقبولة للصهاينة. وعلى الرغم من التزامه بالوفاء بتعهد بريطانيا، إلا أن وزير الخارجية إرنست بيغن ومعه كثير من مواطنيه بمن فيهم چرترود بل كانوا يعتقدون أن وعد بلفور كان ”أعظم خطأ في التاريخ الإمبريالي“. بلغت عمليات الصهاينة الإرهابية ذروتها في ٢٢ يوليو ١٩٤٦ بتفجير فندق الملك دافيد (داود) رمز الحكم البريطاني وقتل في العملية واحد وتسعون بريطانيا وعربياً ويهودياً. (فيما بعد، تباهى مناحم بيغن، قائد الأرجون قائلاً لجولدا مائير ”لقد ابتدعنا أسلوب حرب عصابات المدن“).

كان بيغن يدرك الأثر المدمر (الصورة بريطانيا) وهي تبدو وكأنها تشن حرباً على الناجين من الهلوكوست من خلال نشرها قوة من مائة ألف جندي - عُشر عدد

القوات المسلحة البريطانية بأكملها - للدفاع عن مساحة لا تتجاوز مساحة منطقة ويلز البريطانية. أيضا، كان بحاجة إلى قروض أمريكا وتعاونها في هذا، لكن ترومان انحاز للصهاينة. كما أنه كان يتوود إلى النازيين اليهود، إذ كانت لا تفصله عن الانتخابات سوى سنة واحدة. (أما وزارة الخارجية، ومدير قسم شئون الشرق الأدنى والشئون الإفريقية بها، روى هندرسون، فقد ثبتوا في موقفهم المؤيد للعرب بسبب قلقهم على إمدادات النفط). وأخيرا، وبعد أن كبّله اقتصاد بريطانيا الذي أضعف بعد الحرب، والتعامل مع المطالبات باستقلال الهند، ومواجهة التهديد السوفييتي في اليونان وتركيا، خضع بيغن للضغوط الصهيونية والأمريكية وأحال المشكلة إلى الأمم المتحدة.

من جانبه، سعى عبدالله لتوسيع حجم مملكته من خلال ضم أجزاء من فلسطين مجاورة للأردن. فضل الصهاينة مملكة مجاورة موسعة وصديقة في أن على وجود فلسطين عربية مستقلة يرأسها قائد معاد - ربما المفتي نفسه. تقاسم عبدالله آراهم، بمساندة من جلوب وكيركبرايد، بأسلوب غير رسمي، مع الوكالة اليهودية، ذلك الكيان الذي كان قد مضى يُجرى مفاوضات سرية مع عبدالله منذ ثلاثينيات القرن العشرين.

في ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧، صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، مع اتفاق غير معهود بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، على قرار تقسيم فلسطين إلى قسم عربي وآخر يهودي، مع وضع القدس الكبرى تحت التحكم الدولي. كانت مصر، والعراق، ولبنان، والسعودية، وسوريا واليمن بين الدول الثلاث عشرة التي رفضت القرار. شجب المتشددون من العرب ومن عصابة الأرجون، والذين كانوا يعارضون أية تسويات أو تنازلات، القرار. وفيما شكل فيما بعد سابقة بائسة، لم ترسل الأمم المتحدة قوة دولية لتفعيل قرارها. ومن جانبهم، لم يعمل البريطانيون على نقل السلطة بطريقة نظامية بل عجلوا بسحب قواتهم من فلسطين وتركوا العرب والصهاينة يواجهون بعضهم.

وسرعان ما اشتعلت الحرب "الأهلية" بعد تبني الأمم المتحدة القرار مباشرة، وتصاعدت في الأشهر الأخيرة للانتداب. في ديسمبر، وبعد عودة المفتي من ألمانيا إلى الشرق الأوسط، أرسل كتيبة فدائيين - رائدة جيش التحرير العربي - إلى فلسطين بأوامر بالتحكم في طريق القدس/ تل أبيب والاستيلاء عليه، وكان العرب يأملون أن ينطلقوا من هناك لاجتياح المنطقة اليهودية. تبع ذلك وقوع قتلى كثيرين فيما كانت قوافل المركبات اليهودية تُهاجم، لكن الخطة فشلت واستولى الصهاينة بدورهم على جزء كبير من الأراضي العربية. وفي تلك الأثناء شنت عصابة الأرجون بقيادة مناحم بيغن وعصابة شتيرن بقيادة إسحق شامير حملة وحشية تضمنت اختطاف جنود بريطانيين وشنقهم، وارتكاب مذبحه دير ياسين في يومي ٩ و١٠ إبريل، التي قتل فيها ٢٤٥ فلسطيني غالبيتهم من المسنين، والنساء والأطفال، ونهبهم وتشويه جثثهم.

وفي فبراير عام ١٩٤٨، التقى وفد أردني رفيع المستوى في لندن بوزير الخارجية بيقن لتوضيح ترتيبات المعاهدة مع بريطانيا. رافق جلوب، الذي كان قد أصبح مؤيداً للتقسيم، الوفد بصفته مستشاره العسكري. طلب توفيق أبو الهدى، رئيس الوزراء الأردني لقاء خاصاً بوزارة الخارجية مع وزير الخارجية في يوم ٧ فبراير الساعة الحادية عشرة والنصف، استُبعد منه وزير الخارجية الأردني. وافق بيقن، في حضور جلوب الذي كان يقوم بالترجمة بين الطرفين، على الخطة الصهيونية/الأردنية التي تقضي بسيطرة الفيلق العربي على الضفة الغربية للحفاظ على النظام والقانون. ووفقاً لرواية جلوب فقد علّق بيقن بالقول "يبدو هذا هو الشيء الواضح الذي يجب فعله، لكن لا تذهبوا واحتاجوا مناطق مخصصة لليهود".

في ١٢ مايو، وصل عزام باشا، أمين عام الجامعة العربية (التي كانت قد تشكلت عام ١٩٤٥) إلى عمان لإبلاغ الأردنيين أن الجامعة العربية قررت الحرب وأن المصريين سيجتاحون فلسطين، ويبتطلون بذلك اتفاقية التقسيم المزعومة التي

عقدها عبدالله مع الدولة اليهودية. وفي ذات المساء، وبناء على أوامره سحب جلوب جنوده من القدس، الأمر الذي حفز فيما بعد اتهامات العرب له بأنه ترك المدينة تحت رحمة العصابات الصهيونية^{١٤} ويثنّ الفيلق العربي هو كتيبة بريطانية في قلب العالم العربي^{١٥}. وفي منتصف ليلة ١٤-١٥ مايو، سحب الملك عبدالله مسدسه وأطلق "رصاصة رمزية" في الهواء فيما كان رتل طويل من جنود الفيلق يعبرون جسر ألتلبي ليحتلوا الضفة الغربية الفلسطينية. رحل البريطانيون في اليوم ذاته، وفي تل أبيب، أعلنت حكومة مؤقتة برئاسة دافيد بن جوريون، قيام دولة إسرائيل. وقبل انتهاء اليوم، منح الرئيس ترومان الدولة اليهودية اعترافا بصفتها أمرا واقعا، وتبعه السوفييت، ثم اجتاحت خمس جيوش عربية دولة إسرائيل الوليدة، مصر من غزة، والعراقيون من الضفة الغربية (يهود والسامرة)، (هذا على الرغم من أنهم ومثل الأردنيين حرصوا بعناية على عدم عبور المناطق التي حددتها الأمم المتحدة لليهود). دخلت وحدات رمزية سورية إلى الجليل (وحرك اللبنانيون قواتهم إلى حدودهم). وفقط حينما أصبح من الواضح أن الإسرائيليين عازمون على احتلال القدس في انتهاك منهم لقرار الأمم المتحدة بوصفها تحت تحكم دولي، وبناء على أوامر عبدالله المتكررة التي أصدرها بعد صلاة الاستخارة، قاد جلوب، على مضض، ثلاثمائة رجل إلى داخل المدينة القديمة.

وبعد شهر من القتال الضارئ ضد قوات "الدفاع" الإسرائيلية، التي كانت سابقا عصاة الهاجاناة غير النظامية، استولى المصريون على النقب ووصل العراقيون إلى مسافة خمسة عشر ميلا من حيفا واحتلوا جزءا كبيرا من الجليل. وبعد قتال عنيف من حارة إلى حارة، استولى الفيلق العربي على القدس الشرقية. بعد ذلك، حرك جلوب ثلاث كتائب إلى اللطرون لاعتراض طريق تل أبيب/القدس، لكنه حرص كل الحرص على عدم الاشتباك مع قوات "الدفاع" الإسرائيلية في مناطق خصصها قرار الأمم المتحدة لليهود. (من جانبهم كان اليهود أقل حرصا في

شنهم هجمات داخل المناطق المخصصة للعرب). وأثناء القتال، احترق البريطانيون والأمريكيون القرارات الدولية بحظر الأسلحة عن المنطقة فيما نقلت تشيكوسلوفاكيا الأسلحة والنخائر إلى إسرائيل بالطائرات. وغدا من الواضح بتزايد أن الجيوش العربية قليلة العدد والعتاد، غير المنظمة، المحبطة سيئة التجهيز والتسلح والإعداد لم تكن ندا للإسرائيليين المنظمين نوى الأهداف والنوافع القوية الواضحة.

ويعد أشهر من القتال المتقطع الذي أثبت فيه الفيلق أنه أكثر الجيوش العربية فاعلية توسطت الأمم المتحدة في التوصل إلى اتفاقية هدنة في مطلع عام ١٩٤٤ وسُعت بها أراضي الأردن، مصر، وإسرائيل^(١)، وقسمت القدس، وتركزت أكثر من سبعين ألف فلسطيني مشردين بلا وطن. انسحب العراقيون، وواجه الأردنيون وحدهم الإسرائيليون بمحاذاة حدود طولها ثلاثمائة ميل. أُجبر الأردنيون، في مواجهة التفوق الساحق لخصمهم، على الإذعان لطلبات إسرائيل وتنازلوا لها عن شريط من الأرض بمحاذاة البحر المتوسط، وعن اللد والرملة، مما عرض جلوب وعبدالله لكثير من النقد. هرب الفلسطينيون من يافا وحيفا ودُمّرت أكثر من خمسمائة من قرأهم، ومورست عليهم عمليات التطهير العرقي^(٢)، مما أشعل مزيدا من الغضب العربي الذي لا يهدأ. يسمى الفلسطينيون طردهم من موطنهم وموطن أسلافهم "النكبة".

كان جلوب يدرك جيدا أن ولاءه منقسم بين سيدين: المكتب الكونبالي وعبدالله. كانت برامجتيه قد أفادته جيدا أثناء فترة الانتداب. أما الآن، فقط أصبح هو المصد الذي يتلقى الغضب المعادى للبريطانيين. وأثناء السنوات القليلة التالية تمكن

(١) لم تمنح اتفاقية الهدنة مصر والأردن ملكية الأراضي الفلسطينية بل الحق فقط في إدارتها. أما إسرائيل فقد توسعت في المناطق الفلسطينية (الترجمة).

(٢) هذه مغالطة أخرى فقد كان الاقتلاع قد بدأ ونُفذ قبل اتفاقية الهدنة بكثير واستمر بعدها نتيجة هجمات العصابات الصهيونية الإرهابية (الترجمة)

من الحفاظ على هدنة هشة، يقاتل ضد المغيرين الإسرائيليين على أراضي الأردن، وضد المتسللين العرب، لكن عبدالله أهمل الاهتمام بتحذيراته ضد إدماج فلسطيني الضفة الغربية في شرق الأردن. وأصبح اللاجئون الفلسطينيون يشكلون ٦٠٪ من رعايا عبدالله، ويعد عقد من الزمان، كتب جلوب، باكتئاب، يقول "أدخل اتحاد شرق الأردن مع فلسطين العربية سكانا جددا إلى البلد - سكانا تكبدوا ظلما مهولا نتيجة للسياسات الغربية. وتدرجيا، غُمر سكان شرق الأردن الأصليون جزئيا، وتحلت صخرة الأردن بأعتدالها الحكيم واستيعابها واسع الأفق للشرق والغرب، لتصبح قِيضَاناً من الكراهية".

في سنواته الأخيرة، غدا الملك عبدالله حاكما محبطا، إن لم يكن مهزوما. فقد فشل أن يصبح ملك سوريا العظمى أو حتى فلسطين الكبرى. لم يُعد فتح الحجاز، إرث أجداده، ولم تتحقق آماله بتوحيد الأردن والعراق بعد وفاة فيصل. كان اليهود لا يثقون فيه، وغالبية العرب يبغضونه: كان الفلسطينيون في المقدمة، لكن السعوديين، والمصريين، والسوريين واللبنانيين كانوا أعداءه أيضا. غادر الملك عمان يوم ٢١ يوليو ١٩٥١ ليصلي الجمعة في الحرم الشريف بالمسجد الأقصى أقدم موقع لدى المسلمين بعد الحرمين المكي والمدني. رافق عبدالله حفيده حسين. توسل كيركبرايد إلى الملك بعدم الذهاب إلى القدس لكنه رفض وقال له مثلا عربيا مفاده أنه حتى حين الأجل لا أحد يستطيع أنزيته، وإذا حان أجله لا يستطيع أحد حمايته. كان الجو متوترا في عمان. كان بعض القوميين السوريين قد اغتالوا رئيس الوزراء اللبناني السابق رياض الصلح منذ ثلاثة أيام وهو في طريقه من القصر الأردني إلى المطار. وكان عبدالله قد تلقى، قبل يومين، خطابا من مجهول يقسم فيه أنه وجلوب سيقتلان. وحينما سمع جلوب باحتمال أن يكون أحدهم قد تسلل عبر الحدود الإسرائيلية القريبة وأرسل بضع مئات من جنود الفيلق إلى القدس. وفي يوم الجمعة، قامت الكتيبة الملكية الهاشمية بمسح الطريق الذي سيمر به عبدالله من مقبرة والده حسين أعلى التل وحتى المسجد الأقصى.

وقبيل الظهر مباشرة وحينما تراجع حرس الملك الخاص خطوة إلى الوراء ليتيحوا لشيخ عجوز بالمسجد تقبيل يد عبدالله، قفز القاتل من وراء باب الدخول الضخم وأطلق على عبدالله الرصاص خلف أذنه اليمنى من على مسافة قريبة. كان القاتل فلسطينياً في الحادية والعشرين يعمل صبياً لخياط وكان يرتبط بصلات عائلية مع أسرة المفتي. وفيما تدحرجت عمامة الملك على الأرض الرخامية انطلقت رصاصة ثانية ثم ارتدت عن وسام كان يرتديه الأمير حسين على صدره. قام أحد حراس الملك بإطلاق الرصاص على القاتل وأرداه قتيلاً على الفور مع عبدالله. تملك الذعر من رجال الفيلق العربي، في غياب جلوب، وأخذوا يطلقون النار عشوائياً. قُتل عشرين شخصاً وجرح حوالي المائة. اتضح فيما بعد، أن عبدالله التل، أحد ضباط الفيلق العربي السابقين، وحاكم القدس العسكري، وكان قد فر إلى القاهرة بعد محاولة انقلاب فاشلة، اتضح أنه هو من خطط لعملية الاغتيال بالقاهرة هو والدكتور موسى الحسيني شريكه الرئيسي، من أولاد عمومة المفتي من بعيد. عُقدت محكمة خاصة لمحاكمة عشرة رجال: برئ أربعة منهم وشُنق أربعة آخرون وحُكم على عبدالله التل وموسى الحسيني غيابياً بالإعدام، لكن لم يكن بالإمكان استرداهما من مصر.

علق ونستون تشرشل وهو يرثيه "لقد فقد العرب مناصراً عظيماً، وفقد اليهود صديقاً كان من المحتمل له توفيق المصاعب، و... فقدنا نحن صديقاً وحليفاً مخلصاً" خلف عبدالله ابنه الأمير طلال المريض نفسياً والذي حكم لعام واحد قبل أن يتنحى ثم خلفه حفيد عبدالله حسين، وكان في السادسة عشرة ومازال طالباً بكلية هارو. لم يكن بوسع كيركبرايد أو جلوب إقامة علاقات وثيقة مع حسين كثلك التي كانوا قد تمتعوا بها مع عبدالله. ذكر جلوب أن "الضوء خبا من حياة كيرك بموت الملك"، لكن، فإن "سنواته الذهبية" (جلوب) انتهت أيضاً بانتهاء حياة عبدالله.



في الخمسينيات وُلد فيلق عربي موسع من جديد وعُرف باسم الجيش الأردني

العربي الذي بلغ عدد جنوده حوالي عشرين ألف رجل. كان جلوب قد أمّل، بتفضيله البو على الحضريين المُسيّسين المتعلمين، في تعقيم الجيش الأردني ضد التدخلات الحكومية والمحسوبيات التي كانت قد أفسدت القوات المسلحة السورية والعراقية. والآن، كان الكثيرون من المجندين الجدد فلسطينيين ممن لا يُكنون ولاءً خاصا للملك. تمت زيادة عدد الضباط البريطانيين بالجيش الأردني على الرغم من احتجاجات جلوب. كانت الخزانة البريطانية تدفع قيمة فواتير (الجيش الأردني) مقابل احتفاظ البريطانيين بقواعد جوية هناك.

كان جلوب، كما وصفه ضابط بريطاني بالفيلق العربي، حرياء، شخصا متولنا من الطراز الأول لم يكن بالإمكان معرفة ما يدور في ذهن جلوب أبدا.. كان عقله قد بدأ يعمل بالأسلوب العربي. كان يتعاطى بغموض وغير تحديد.. تعامل مع القصر الملكي كعربي، وكبدوى مع القبائل، وكضابط بريطاني مع لندن. وباستثناء جلوب، لم يكن ثمة من يعرف ما يحدث فعلا. شك العرب في أنه منع تدخل الفيلق عام ١٩٤٨، والآن، اتهموه بعدم الاستجابة كما يجب لغارات إسرائيل على قرى الأردن الحدودية. في إبريل عام ١٩٤٨، قام أحد السوريين بزرع قنبلة خارج منزله مما أدى إلى جرح زوجته روزماری، ومن ثم، أصبح الباشا يتحرك في عمان بقافلة من سيارات الجيب. اعتقد اليهود أنه كان يعد لمسيرة إلى تل أبيب! وهددته عصابة الأرجون بالقتل.

وجد الصحفيون في جلوب باشا مادة جيدة للنشر، ومن المحتمل جدا أن استعداده الدائم لتزويدهم بالبيانات وعقد المؤتمرات الصحفية أسهم في سقوطه. خلعت عليه الصحافة لقب "ملك الأردن غير المتوج" وأيضا "لورانس الحديث"، مما أدى، دونما شك، إلى إثارة حفيظة الملك الشاب. كان الجيش قد أصبح الصناعة الرئيسية للأردن، وكانت مهارات الملك حسين العسكرية - درس مُقرر تدريبي مكثف بكلية ساندهيرست - هزيلة مقارنة بمهارات جلوب. زعمت "نكتة" إسرائيلية

تم تداولها آنذاك أن أول صوتٍ نطقت به الأميرة علياء بعد مولدها كان "جلوب، جلوب، جلوب". رأى حسين أنه "ظالماً ظل جلوب يتحكم بالأردن، ستمضى الحكومة الأردنية تستشيرهُ هو أو السفارة البريطانية حينما تواجه قراراً سياسياً مهماً، قبل أن تستشير مليكها".

كان عبدالله قد وفر للأردنيين استقراراً وهمياً. بعد اغتياله بثلاث سنوات، خشي جلوب من أن تصبح الأردن "مرة أخرى بلداً عربياً غير مستقر، يسوده العساس العاطفي، ملطخاً بالدماء". اختلف حسين وجلوب حول الدفاع عن الضفة الغربية: فضل جلوب انسحاباً عسكرياً إلى أن تستطيع بريطانيا التدخل وفقاً للواجبات التي تلقيها عليها المعاهدة؛ ورفض حسين ذلك. قدم جلوب إلى حسين قائمة بأسماء ضباط من الجيش زعم أنهم "مخربون انقلابيون" غير موثوق بهم ويجب فصلهم؛ رفض حسين. وكما يقال، كان حسين يعتبر جلوب شخصاً متعالياً، عجزاً، لا صلة له بالواقع، كما أن عدم استطاعة الباشا جذب مزيد من التجهيزات العسكرية البريطانية أحبب الملك. وفي ١٩٥٥، وفي محاولة من جانب بريطانيا تعزيز نفوذها الأقل في الشرق الأوسط، حثت الأردن على الانضمام إلى تركيا، العراق، باكستان وإيران في حلف بغداد (يعرف أيضاً باسم CENTO) أي -Cen-tral Treaty Organization والذي كان ينظر إليه بعامة على أنه تحالف معارٍ للسوفييت ومعادٍ لمصر. شن الرئيس عبدالناصر، وقد استأثره السعوديون الذين كانوا يوزعون الرشاوى بسخاء على الأردنيين النافذين، حملة على الحلف، واتهم نوري السعيد بالخيانة لحساب "الإمبريالية والصهيونية". رفضت الأردن وسوريا الانضمام إلى الحلف.

انصاع حسين في ١ مارس عام ١٩٥٦، في وقت شهد ذروة الناصرية، وكانت فيه إذاعة القاهرة تبث بانتظام الهجمات على جلوب، الذي اتهم حتى بأنه يترأس مؤامرة بريطانية للتحكم في القوات المسلحة الأردنية، انصاع حسين للضغوط

القومية وقام بفصل جلوب ومعه عدد من كبار الضباط البريطانيين والأردنيين، وبدا الأمر وكأننا حسين قرر أن يسير في ركاب ناهصر. تم تغيير أزياء الفيلق العسكرية الجذابة وكأنما نكاية في جلوب، وبدلاً من الأثواب الفضفاضة والكوفيات الكاروهات ارتدى الجند الزي الكاكي وكأيات الميدان. وحلت الدبابات والعربات المصفحة محل الخيول والجمال.

ولخشية حسين من حدوث انقسام في الجيش وانقلاب محتمل من قبل مؤيدي جلوب من البدو، منح جلوب بضع ساعات يغادر بعدها البلد. أسرع جلوب بسيارة القصر إلى المطار ومعه عائلته وحقبة ملابس واحدة وصورة موقعة للملك (عبدالله) حيث استقل طائرة خاصة إلى قبرص. ورغم أنه شعر بالإهانة العميقة من أسلوب طرده، إلا أنه سلك مسلك الجندي الصالح النموذجي. في تصريح مقتضب للصحافة لدى وصوله إلى لندن، أكد جلوب على العلاقات الوثيقة التي تربط الأردن وبريطانيا وأعلن أن آخر ما يرغب فيه هو التسبب في إضعاف تلك الصداقة. "لست مصدوماً، مذهولاً، أو غاضباً. لقد قضيت ما يربو على ثلاثين عاماً في خدمة ثلاثة أجيال من الأسرة الملكية الهاشمية.. وظللت أعامل دائماً بأقصى درجات الكرم من قبل الأسرة الملكية، وليس لدى ما أشكو منه. كان لي شرف الخدمة لمدة ستة وعشرين عاماً كضابط بالفيلق العربي لا أتردد في القول إنه جيش صغير رائع، أتمنى له من كل قلبي كل نجاح في المستقبل".

لدى سماعهم الأنباء، رقص آلاف الفلسطينيين في الشوارع.. اتهم تشارلس ديوك، سفير بريطانيا في عمان الملك حسين بأنه طرد جلوب وكأنه "خادم حرامي". تسببت المعاملة الفظة التي لقيها جلوب في حالة من الغضب العارم في بريطانيا، حيث رد رئيس الوزراء البريطاني أنطوني إيدن بسيل من البرقيات السريعة إلى عمان ينصح فيها حسين بأنه "لا يستطيع التنبؤ بعواقب هذا الفعل النهائية على العلاقات بين البلدين". وأمل إيدن، وقد ساورته الشكوك بدور لعبدالناصر في

الموضوع، في أن الأردن ستعيد النظر في القرارات لكن حسين، وقد استغرق في متعة التأييد والثناء العربي، رفض. حث جلوب السلطات البريطانية على توخي الحذر، وتم استدعاء كيركبرايد - الذي كان قد تقاعد - إلى مجلس الوزراء للتشاور في الأمر. أشار عليهم بضبط النفس وقد خشي من احتمال الإطاحة بالملك.

في ٢٦ يوليو ١٩٥٦، وأثناء حفل عشاء برئاسة مجلس الوزراء البريطاني أقيم على شرف الملك فيصل الثاني ملك العراق ورئيس وزرائه نوري السعيد، أُبلغ إيدن أن عبدالناصر قد أُم قناة السويس. أمل نوري السعيد، وقد تملكه الغضب من عدم استشارة ناصر للعراقيين، أن تقوم بريطانيا بالثأر سريعا. انضم إيدن، الذي كان ما زالت تؤله الضربات المتتابة التي تلقاها من رجل كان يعتبره ديكتاتورا مغرورا مدعيا، انضم إلى فرنسا في مؤامرة للإطاحة بناصر، بمساعدة من إسرائيل. فشلت المؤامرة التي مكثت أيضا نهاية هيمنة فرنسا وبريطانيا على الشرق الأوسط.

حينما اندلعت أعمال العنف المعادية للهاشميين والمؤازرة لناصر في الموصل، النجف، الكوت وبغداد، فرض نوري السعيد الأحكام العرفية، وعُلق عمل البرلمان، وألقي بمئات من معارضيه في السجون. بلغت الأمور ذروتها في ١٤ يوليو ١٩٥٨ حينما حاصرت القوات الموالية لعبدالكريم قاسم والمسلحة بمدافع البازنكا والمدافع المضادة للدبابات الفيلا التي كانت تُخدّ قصرا ملكيا وأشعلوا فيها النيران. هربت العائلة الملكية إلى البدروم. أمر الوصي على العرش، وفيصل الثاني وبقيّة أفراد الأسرة الملكية بمغادرة البدروم والمدافع مصوبة إليهم، ثم أُعدموا بإطلاق الرصاص عليهم. زحف نوري السعيد، الذي كان قد تولى رئاسة الوزراء أربع عشرة مرة، خارج منزله وهو متخفّ في زي امرأة. أبصر واحد من الحشود المتجمهرة بيجامته تحت زي التخفي. خُلع عنه ملابسه، وقتل وأُخصى، وقطعت أوصاله، وسحلت جثته بدون أطراف في الشوارع خلف شاحنة. ووفقا للتقارير من

بغداد، فقد تم قتل جميع أفراد عائلة نوري السعيد بمن فيهم زوجته المصرية وطفلاه^(١).

يسجل جيمس موريس المشهد حينما تجمع الدماء حول السفارة البريطانية، بجانب النهر والتي كانت حتى آنذاك كلية القوة والحضور "اندفعوا متخطين حراسها وداسوا بأقدامهم مساحات الحشائش الحبيبية، ونهبوا مكاتبها، وقتلوا قهرمانها الملكي، وحطموا تمثال الجنرال مود الذي كانت جيوشه قد طردت الأتراك من بغداد منذ أربعين عاما. التجأ السفير إلى غرفة بفندق قريب حيث زاول أعماله هناك، وقام سكرتيه بترتيب أمور السفارة جالسا على مكتب الاستقبال".

في عام ١٩٦٧ تكبد العرب نكستهم الخاصة حينما هزمت إسرائيل هجوماً جماعياً من جيرانها العرب^(٢). حدثت إسرائيل الملك حسين على عدم دخول ما أصبح يعرف بحرب الأيام الستة. وبدلاً من ذلك، انضم الجيش الأردني إلى الجيش السوري والسعودي^(٣) تحت لواء القيادة المصرية: وفي غضون ست وثلاثين ساعة، فقد حسين كل ما كان جلوب قد كسبه له عام ١٩٤٨. طرد الإسرائيليون الأردنيين خارج القدس الشرقية والضفة الغربية. كان عبدالله ووالده حسين الكبير قد طُردا من الحجاز؛ وفقد فيصل الأول سوريا، وفقد حفيده العراق. أما الملك حسين فقد فقد ضفة الأردن الشرقية.

(١) يمسرد الكاتبان الواقعة وكانما ما حدث هو نتيجة وحشية الشعب العراقي الذي استشارته إذاعات القاهرة وخطابات عبدالناصر. لا يذكران شيئاً عن نتائج الأحداث التي أدت إلى انتقام العراقيين من نوري السعيد والهاشميين، وما أوقعه هؤلاء بهم من مذلة وتبعية وقتل وسجن وتنكيل". (الترجمة)

(٢) مغالطة فجة أخرى. فلا بد أن المؤلفين قد اطلعوا على الوثائق التي أصبحت متاحة ومتداولة والتي تثبت أن الهجوم العدواني كانت إسرائيل هي من شنته. (الترجمة).

(٣) فرية أخرى. فلم يشارك الجيش السعودي في تلك الحرب، فقط بعد اندلاعها أرسلت السعودية قوة رمزية. (الترجمة).

وصل جلوب بريطانيا وهو فى التاسعة والخمسين وليس معه سوى خمسة جنهيات استرليني. لم تمنحه بريطانيا أو الأردن معاش جنرال، رغم أن الملكة منحته لقب فارس. وكان عليه إعالة روزمارى وأطفالهما الأربعة. أصبح مسيحياً ورعاً "وُلِدَ من جديد"، والتجأ إلى قلمه وإلى إلقاء المحاضرات، غالبها بالولايات المتحدة، لإعالة أسرته. كُتِبَ جلوب اثنين وعشرين كتاباً، تراوحت بين السيرة الذاتية، والكتابات التاريخية. يظل كتابه عن سنواته بالعراق "حرب فى الصحراء" (١٩٦٠) كتاباً عسكرياً كلاسيكياً. تبادل الباشا الرسائل مع زميله القديم جاك فيلبى الذى أبدى شماتته فى فشل السياسة الخارجية البريطانية. كتب فيلبى فى أحد خطابات له: "الخط الذى يفصلنى عنك وعن أمثالك هو قناعتك أنه لا يمكن تحقيق مصالح العرب سوى بشكل من خضوعهم للسياسة الإمبريالية البريطانية مع تحليلها بمساعدة مالية بريطانية سخية، على حين أننى مقتنع بنفس الدرجة أن العرب لن يستطيعوا تحقيق مصالحهم سوى بإقامة الوحدة بينهم.. ربما لن توافقنى على أنكم قد خسرتم قضيتكم إلى الأبد".

فى ١٧ مارس عام ١٩٨٦، توفى جون بايجوت جلوب أثناء نومه قبل عيد ميلاده التاسع والثمانين بشهر. أقيم له قداس بوستمينستر أبى حضره الملك حسين الذى غدا يدرك فضائل الجندى الذى كان قد فصله على نحو مفاجئ: "انتمى إلى جيل فريد من رجال مرموقين سخّروا حياتهم بأكملها لترسيخ فهم حقيقى، صداقة عميقة، واحترام متبادل بين المملكة المتحدة ومملكة الأردن الهاشمية.. كان جندياً واقعياً، ذا قلب رهيف وأسلوب حياة بسيط، واستقامة معصومة، كان يؤدى المهام التى كان بلده الثانى الأردن ينيطها به فى لحظة حاسمة من تاريخها ونموها فى صمت وتواضع".

لا بد وأن جلوب كان سيسره أن كُتِبَ الأردن الدراسية تعمل على استدامة تلك الأسطورة القومية (التي كان يعلم أنها غير صحيحة) بأن الهاشميين لم يكونوا

أفراداً من النخبة الحاكمة العثمانية بل شيوخوا بنوا من سكان البلاد الأصليين، رموزاً أبوية لبلدهم، اكتسبوا شرعيتهم من نسيهم المباشر للرسول ومن نورهم في الثورة العربية. لا يذكر دور بريطانيا في اعتلاء تلك الأسرة العرش. ولا يُعترف بدور الباشا الهائل في بناء الجيش وقيادته، ذلك الجيش الذي ضمن للأردن القدس الشرقية والضفة الغربية عام ١٩٤٨. مازالت نكزى جلوب تعيش بين جنوده البدو القداماء، لكن لا ينكره أحد من السياسيين بعمان سوى بسبب واقعة طرده. يتمثل ما بقي من إرث جلوب في الاستقرار النسبي الذي تتمتع به الأردن في الشرق الأوسط الإسلامي. وخلافاً لتظيراتها في غالبية المنطقة - سوريا، مصر، العراق - فقد أثبتت القوات المسلحة الأردنية القدرة على الاستمرارية بقوة وبخاصة أثناء أزمات خلافة العرش.

في عام ١٩٩٩، وفيما كان حسين يخضع لعلاج كيمياوى واستزراع للنخاع لإصابته بالورم الليمفاوى بمستشفى مايو بالولايات المتحدة، استعد شقيقه الحسن ولي العهد المسمى لخلافته على العرش لدرجة أنه أشيع أن زوجة الحسن، الأميرة ساراغات ذات الأصول الباكستانية، كانت تعد القصر الملكي وتغير ديكوره. كتب حسين وقد تملكه الغضب خطاباً لشقيقه واتهمه بعدم الولاء. عاد إلى الأردن ليموت، لكن ليس قبل أن يسمى خليفة جديداً، عبدالله الثانى أكبر أبنائه من زوجة إنجليزية (كانت والدته ابنة ضابط إنجليزى يعمل بالجيش الأردنى)^(١).

لم تكذ تهاداً نغمات موسيقى الغرب الجنائزية، حتى قام الملك عبدالله الثانى بصفته القائد الأعلى للجيش، ويتجاهل منه لفترة الحداد التى تستمر أربعين يوماً، بفصل أربعة من كبار الجنرالات لتأكيد تحكمه في الجيش، الذى بدا وأن فيه بقية

(١) ثمة رواية أخرى في هذا الصدد وهى أن الأمريكيين. وقد تحققوا من دنو اجله. ارسلوه إلى الأردن للقيام بهذا التغيير، إذ إنه من المعروف أن الأمير الحسن كان ذا ميول إسلامية وقومية. (الترجمة).

من دعم للأمير الحسن. كانت وصية الملك حسين قبل موته هي أن يكون الأمير حمزة، ابنه من زوجته الأمريكية الملكة نور، هو ولي العهد. لكن الملك عبدالله الثاني حرم فجأة أخاه غير الشقيق من هذا اللقب في نوفمبر ٢٠٠٤ ومنحه لحسين، ابنه من زوجته الفلسطينية الملكة رانيا. وعلى الرغم من ذلك، فمن بين كل الممالك شرق الأوسطية، التي أقامتها بريطانيا أو حكمتها بأسلوب غير مباشر، ظلت أسرة ملكية واحدة تتوارث العرش لما يقرب من قرن، أي الأسرة الهاشمية الأردنية. مازالت تلك المملكة التي تعوزها الموارد والموقع الجغرافي المتميز قائمة حتى تاريخه (٢٠٠٧) في وقت غدت جاراتها العربية التي تتمتع بميزات كبيرة تعاني إما من الديكتاتورية^(١) أو الفوضى^(٢).

(١) ألا تعاني المملكة الأردنية الهاشمية من الديكتاتورية؟ (الترجمة).

(٢) يصور النص الذي يقدمه المؤلفان جلوب على أنه "صانع" ملوك من الطراز الأول وقد كان بالفعل كذلك، إذ صنع من عبدالله ملكاً على المقاس البريطاني. يتفق المؤلفان المناقب والمواقف والأفعال التي تصنع في مجموعها صورة رجل كرس حياته لتشكيل الفيلق العربي وروعايته وتدريبه، ذلك الفيلق الذي أصبح "جيشاً صغيراً رائعاً" وحقق مفاويزه البطولات.

لكن القراءة المتمنعة تخبرنا بأن ذلك المستشرق المغامر فهم صفات البدو وطبيعتهم، وبأنهم يدينون بالولاء، لا لأرض أو قضية بل لمولاهم... وكان هو مولاهم. دربههم وطوعهم لإرادته، لخدمة الإمبريالية البريطانية، سواء في العراق حيث جعلهم يقتلون أبناء جلدتهم، أو للمساعدة على تحقيق أهداف الصهاينة بفلسطين، أو لضمان حكمها المباشر وغير المباشر للمنطقة. وتجلي ذلك في أنه صنع من عبدالله ملكاً سورياً، وفق قوله، وأصبح فيلقه العربي عمود المملكة الفقري في خدمة بريطانيا العظمى. (الترجمة).

الفصل التاسع

انقلاب بریطانی جدا

البریجادیر جنرال السیر پیرسی مولزورث

سایکس

(۱۸۶۷ - ۱۹۴۵)

ثلاثة رجال اسمهم بيرسي
ملأوا جيوب فارس من الخزائن البريطانية
أغلق بيرسي كوكس عليها الجنيئات الذهبية
ليقيها شر الصنمات الخارجية
ثم بدد الأحقق بيرسي سايكس
مزيدا من الذهب على البنائى لفارس الجنوبية
كوكس الحريص! سايكس الشجاع
ذهبت جهودهما أراج الرياح!
فليمالف الحظ بيرسي أوف لوراين
ليسترد ما ضيعه الأخران!

- كتبها أندرو بارستو بمناسبة تعيين بيرسي أوف

لوراين وزيرا مفوضا بفارس عام ١٩٢١

طهران، ٢٥ أبريل ١٩٢٦. العاصمة الفارسية تفرقها الشمس ويغطيها السجاد- الكيرمان، الكاشان، الكشمير - يمتد من حافة إلى حافة، يغطي الشرفات والنوافذ. تمتد الرايات الحمراء، البيضاء، والخضراء عبر الشوارع، ومئات من صور العامل الجديد، الكولونيل القوقازي والفارس السابق، معلقة على السقالات. يشق رضا خان بهلوي، في عربته المزجاجة التي تجرها ست أحصنة، طريقه من قوس النصر، وسط صفوف من الجند، إلى مراسم تتويجه. وبعد أن يمر بمبنى البنك الإمبريالي الفارسي المنخفض الرمادي، يصل إلى قصر جوليستان الذي تكسو واجهته القراميد الملونة. ينتظره في البهو المقنطر، حيث تعلق الرايات والذي يُستخدم اليوم كغرفة تتويج، كاهن أرمني يكاد يختنق في زيه القطيفة الثقيل الأرجواني؛ رجل دين تركماني يرتدي رداءً كهنوتياً طويلاً من الحرير القرنفلي

والأحمر وتلتف حول رأسه قبعة ضخمة من صوف الغنم؛ ومجموعة من الأكراد في
عمائمهم الحريرية المزينة بالشراشيب؛ ومجموعة من رجال العشائر البختيارية
يرتدون قبعات سوداء؛ والملاي الشيعة الملتحون في أرديتهم الطويلة وعمائمهم
الضخمة. في أحد الأركان المضامة بالشموع الخافتة تجمع عدد من أقارب حاكم
القاجارى الذى كان قد أطيح به مؤخرًا. وعلى اليمين، يقف أمير بخارة الطويل ذو
اللحية السوداء، الذى كان البلشفيك قد طرده من موطنه بأسيا الوسطى. كان بين
المشاركين أيضا شيخ الحمرة جليل الطلعة بثيابه السواد وكوفيته العربية، وكان
صديقًا للبريطانيين حرمه رضا من استقلاله القبلى. كان قد أصبح منفيًا في
طهران بعيدا عن قصره المهيّب بالقبيلة الذى تحيطه بساتين النخيل على شاطئ نهر
قارون.

التجّ الفارسيون، ونظرا لعدم وجود خبرة لديهم فى مراسم التتويج - لم يكن القاجار يتبعون أية تقاليد راسخة فى هذا الصدد - التجّوا إلى مشورة الليدى لورين، زوجة رئيس البعثة البريطانية^(١) السير بيرسى لورين، وإلى فيتا ساكفيل - سوت المتزوجة من هارولد نيكلسون الذى كان قد عيّن قنصلا مؤخرا. استغرقت السيدتان فى دراسة تفاصيل وصف تتويج جورج الخامس بكنيسة وستمينستر ودقتا فى رموز السلطة - العروش، السيوف، الأحجار الكريمة، التيجان، الخواتم، والصولجانات - تلك الأشياء التى عزمتا على محاكاتها فى المراسم الفارسية. قامتا بتقتيش الدهاليز والأقبية التى اعتاد القاجار أن يخبئوا فيها مجوهراتهم، انطلق الخدم يضعون الأشياء الثمينة التى عثرتا عليها على مائدة مغطاة بالنسيج الأخضر. فيما بعد وصفت فيتا ساكفيل المشهد قائلة:

"كانت الأكياس الكتان تفيض منها المجوهرات المصنوعة من الزمرد واللؤلؤ؛ اختفى وسط المائدة الأخضر وأصبح بحرا من الحجارة الكريمة. فُتحت الشنط الجلدية لتعرض السيوف الحدياء المرصعة بالجواهر، والرماح التى يعلوها الياقوت، وتُوكات الأحزمة المنصوتة من زمردة واحدة، وعقود من لآلى ضخمة. ثم أتى الخدم مرة أخرى من غرفة داخلية يحملون أزياء رسمية مخططة بالماس؛ طاقيّة بحليّة طويلة تمسك بها ماسة أكبر من ماسة كوهى النور؛ تاجان يماثلان عمامتين كهنوتيتين ضخمتين، أو إكليلين بربريين مرصعين، مكونين من أزوع اللاكى الشرقية.. غرسنا أيدينا حتى الرسغين فى أكوام من الزمرد الخام، وتركنا اللاكى تتساقط من بين أصابعنا. نسينا فارس الحديثة، وانجرفنا عودة إلى عهد القائد أكبر وغنائم الهند".

وسرعان ما أرسلت الطلبات إلى المحال فى جميع أنحاء إنجلترا. مُنحت فيتا السلطة لطلب الأوانى الصينى، والزجاجية، وأنوات المائدة، والأوراق والأقلام من الموزدين الملكيين بإنجلترا. كلّفت المختصين بعمل بزات لخدم القصر على غرار تلك

(١) كان رئيس البعثة البريطانية وزيرا مفاوضا. أصبحت البعثة أثناء الحرب العالمية الثانية سفارة وترقى رئيسها سفيراً بدلا من وزيرا مفاوضا. (المؤلفان).

التي يرتديها خدم البعثة البريطانية. درست وزارة الخارجية منح رضا شاه وساما بريطانيا لكنها رفضت الفكرة لاعتقادهم أنه سيرفض ذلك لكي لا يبدأ حكمه وكأنه مدين بالفضل للبريطانيين، كتبت فيتا ساكفيل - وست تقول لجرترود بل بخصوص استعدادات التتويج إنها ولوين لورزين مشغولتان بطلاء غرفة العرش باللون القرملي.

في الثانية والنصف، احتل الديبلوماسيون وهم يرتدون جاكثاتهم الطويلة الرسمية والدانتيل الذهبية، والمستشارون العسكريون، أماكتهم على منصة مرتفعة. انتظر الجمع ساعة في صمت؛ لم تُعزف الموسيقى احتراماً للملأى. وفي الثالثة والنصف، سار ولي عهد فارس محمد رضا البالغ من العمر ستة أعوام، وهو يرتدي نسخة مصغرة من بزة والده العسكرية ويؤتس من الجلد المصقول اللامع، سار وحده خجلاً عبر الغرفة، ثم أدى التحية، وجلس في مكانه على الدرجة السفلى من نسخة طبق الأصل من "عرش الطاووس" - كان العرش الأصلي الذي أخذ غنيمة من المغول قد دُمّر، لكن تلك النسخة كانت أيضاً مثيرة للإعجاب. كان مغطى بالذهب والمينا والأحجار الكريمة وتتدلى من نراعيه شراشيب زمردية. دخل القاعة الجنرالات والوزراء يرتدون بزات رسمية من الأزرق الفاتح، وعباءات كشمير شرقية. ثم دخل الشاه. كان أطول من الغرفة، يرتدي زيّاً عسكرياً محلياً بميداليات تم صكها حديثاً، وأوسمة، ووشاحاً يعلوه ثوب فضفاض من القطيفة الزرقاء المزركشة المرصعة باللؤلؤ. كان غطاء رأسه العسكري الفرنسي مزينا حول أطرافه بحلية مثبتة بجوهرة تعرف باسم "محيط النور Daria-I-Nur"، أكبر ماسة نقية في العالم. وفيما سار باتجاه العرش انحنى أعضاء الوفود الأجنبية بالتحية، وتقدم الملأى إلى الأمام، واختبأ ولي العهد خجلاً، تحت طرف من عباءة والده. قدم وزير البلاط، عبدالحسين تيمور تاش الذي عمل بلا كلل على مساعدة رضا على تولي السلطة، قدم التاج المتألق الجديد للشاه، الذي صنعه جواهرجي روسي محلي، على

وسادة. (كوفي) تيمورتاش، على ولائه، بأن قُتل في زنزانتة بالسجن بعد سبعة أعوام. كان من بين التهم التي وُجّهت إليه، بخلاف المعهود منها مثل الرشوة والفساد، تهمة التآمر للإطاحة بمليك). كان من أعراف التتويج لدى القاجار، أن يقوم أحد كبار أفراد العائلة بوضع التاج على رأس العاهل الجديد، لكن، ونظرا لتواضع أصول الشاه الجديد لم يكن ثمة قريب لائق في أسرة بهلوي، لذا خلع الشاه الكاپ العسكري، ووضع التاج بنفسه على رأسه.

كتبت مسز ستوارت وورترلي، حماة لوردين، التي كانت في زيارة إلى طهران: "خلع رئيس المجلس عليه الصولجان المرصع بالجواهر، وجشا وزير الحرب وثبت سيف ندير شاه المرصع بالماس. وهكذا، وبعد أن لبس التاج، وحمل الصولجان، وطُوق بالحزام المثبت عليه سيف الفاتح العظيم، قرأ الشاهنشاه خطاب العرش بصوت خفيض، نونما أية إيماءات. وخلا سلوكه من أي شيء مسرحي، وكأنما لم تكن اللحظة هي الأعظم في حياته... وحينما انتهت المراسم، وقف الشاه، وسقطت عباة كاشفة المجوهرات الرائعة التي رُصّع بها زيه. سقط الضوء على ماسة داريا - إي - نور، وتلا مقبض سيفه، ويرأس أبي مرفوع، غادر ذلك الملك العسكري القاعة". علّق السير بيرسي بامنتان أن المراسم كانت "اقتصادية، تبعث على الإعجاب بقدر، وجيزة".

أصبح رضا شاه مؤسس أسرة بهلوي، وعضوها قبل الأخير. نسب التاريخ الفضل في وضع الشاه على العرش إلى جنرال بريطاني اسمه السير إدموند أيرونسايدي، هذا على الرغم من أن مذكرات هنري سميث، الرجل الذي كان يلي الجنرال، والتي اكتُشِفَت مؤخراً، تلقى ببعض الشكوك على هذا الإسهام. في نفس يوم الانقلاب، كان أيرونسايدي في طريقه إلى القاهرة لحضور مؤتمر عام ١٩٢١، وبدا أن رئاسة الوزراء ببريطانيا والبعثة البريطانية بطهران لم يكن لديهم معلومات عنه. لكن، وكما هو الحال في الشرق الذي يسيطر عليه هاجس المؤامرة، فإن الحقيقة ليست على مستوى أهمية ما اعتقدت أجيال الإيرانيين أنه هو الحقيقة. وفي

هذا الصدد، علّق أحد المراقبين الأمريكيين بالقول "لا يوجد مكان في العالم من يبالغ فيه في قدر دهاء البريطانيين بهذه الدرجة من الإفراط كما هو الحال في إيران، ولهذا السبب لا يوجد مكان أيضاً تعتمد فيه نفوس الشعب بكرهية البريطانيين مثل إيران".

لمعظم سنوات القرن العشرين - أي قبل ثورة ١٩٧٩ - كانت قصة إيران هي قصة شاهين من أسرة بهلوي ومحاولتهما، غالباً في مواجهة التدخلات الأجنبية والمعارضة الدينية المحلية، لتحويل إيران إلى دولة حديثة تقدمية قبل نضوب نفطها. كان التدخل الأجنبي قبل عام ١٩٥٣ بريطانياً وروسيا، ثم انضمت أمريكا إلى ركبهما فيما بعد. كانت آلة التحكم البريطاني الأصلية هي شركة الهند الشرقية. كانت الشركة، التي منحتها الملكة إليزابيث الأولى صك امتياز، وسلطة إصدار العملة وإقامة الجيوش، كانت شبه مستقلة ذات سيادة حتى الثورة الهندية بين عامي ١٨٥٧-١٨٥٩. تمكنت الشركة من مقرها في كلكتا، ومن خلال المارك والرشاوي، من إخضاع غالبية الهند وحكمها مباشرة أو عن طريق وكلاء من الأمراء. آنذاك، كان الخطران التوأم اللذان يتهددان نائب الملك (حاكم الهند) هما فرنسا وروسيا، المتحالفان وقتئذٍ، وكان نابليون وألكساندر الأول قيصر روسيا قد بحثا بالفعل بالمقتضيات اللوجستية لهجوم مشترك على الهند. خمسين ألفاً من جنود الجيش الفرنسي العظيم يسيرون بطريق البحر عبر فارس وأفغانستان لينضموا إلى جيش ألكساندر من القوقازيين ثم يقطعوا نهر الهندوس (السند) إلى داخل الهند. أرسل البريطانيون المنزعجون بعثات دبلوماسية إلى طهران وكابل. ثم انهار التحالف. في عام ١٩١٢، أحرق الفرنسيون بقيادة نابليون موسكو؛ رد ألكساندر الأول إمبراطور روسيا بأن سار إلى الشانزليزيه عام ١٩١٤. راقب البريطانيون الوضع متوترين فيما تقلصت المسافة بين الإمبراطورية الروسية والهند - ألفي ميل في

مطلع القرن التاسع عشر - لتصبح فى. نهاية القرن، وفيما توسعت الإمبراطورية الروسية شرقاً بسرعة مذهلة بلغت فى المتوسط خمسة وخمسين ميلاً مربعاً فى اليوم، لتصبح المسافة التى تفصل الإمبراطوريتين فى منطقة جبال الپامير بآسيا اوسطى مجرد عشرين ميلاً. وبين تلك القوتين المتوسعتين انحشرت فارس التى وصفها جورج ناثنيل كيرزن، الذى كان نائب الملك بالهند، ثم وزيراً للخارجية بأنها "أحرى القطع على رقعة شطرنج تجرى عليها مباراة للهيمنة على العالم".

فى عام ١٧٨٥ ظهرت أسرة فارسية حاكمة جديدة، أى القاجار الذين اشتهروا بالرشاوى المخجلة التى كانوا يتقاضونها والردائل التى قيل إنهم كانوا يمارسونها جلس القاجار، الذين كانوا من نسل زعماء العشائر التركمانية فى آسيا الوسطى، متقلبين على عرش الطاوس. عمد المبعوثون البريطانيون، وقد شعروا بتزعزع شهادتهم الشمانية، إلى إشباعهم بالتملق والرياء حينما كانت الرشاوى والاستثناءات تغشل. وعلى مدى قرن من الزمان، ضمن البريطانيون لأنفسهم دوراً مميزاً فى البلاط الفارسى وفازوا بامتيازات استثنائية. ومما فاقم تلك التعقيدات كان ذلك الترتيب الشاذ الذى بمقتضاه كان البريطانيون يرسلون مجموعتين من المبعوثين. كان المبعوث إلى بلاط القاجار بطهران يمثل لندن وكان مسؤولاً أمام وزارة الخارجية. وفى تلك الأثناء عينت كلكتا، بداية من تسعينيات القرن الثامن عشر منوباً ساميل لها يمثل حكومة الهند، ويقيم فى بوشيار (بوشهر الآن). وهى مدينة غير جذابة على الشاطئ الجنوبى للخليج. وهكذا بدأ التنافس الذى كان له أن يفسد العلاقات بين وزارة الخارجية وبين عدد متالٍ من نواب الملك أو الحكام العامين. كانت حكومة الهند تفضل نظاماً فارسياً لا مركزياً إلى درجة كبيرة، ومن ثم ومنذ البداية، عمد المنوبون السامون المتتالون ومن بينهم الماجور السير بيرسى كوكس (١٩٠٤ - ١٩١٣) والليفتنانت كولونيل إيه. تى ويلسون (القائم بالأعمال بين عامى ١٩١٢ - ١٩١٣) إلى تنمية روابط مع المشيخات القريبة. فى زيارة له

لفارس عام ١٨٨٩، أبصر اللورد كيرزن العلم البريطاني يُعرف أعلى السارية بمقر المنوب السامى. وكتب معلقاً إن هذا لم يكن مجرد رمز لا جدوى له للسلطة البريطانية، بل إن المنوب السامى البريطانى هو حتى هذه الساعة الحكم الذى يلجأ إليه جميع الأطراف. وبما أن لديه، تحت تصرفه، قوة بحرية فاعلة يستغلها حسب إرادته، فبالإمكان أن يُلقب بملك الخليج الفارسى غير المتوج.

توافد الممولون، التجار، المضاربون، والمغامرون إلى بلاد فارس، وكان غالبيتهم من بريطانيا وروسيا. فُتحت الأسواق فى المناطق الناشئة، وازدهرت القنصليات، وبدأت شركات الملاحة الأجنبية تتنافس على الأسواق الفارسية. أتى البارون جوليوس نو رويتر، البريطانى الجنس الذى وُلد بألمانيا، ومؤسس وكالة الأنباء التى تحمل نفس الاسم، أتى باكراً انقلاب مذهل عام ١٨٧٢. بضرورة واحدة، فاز بحق بناء خطوط سكك حديدية، وإنشاء بنك، و جمع الجمارك لمدة عشرين عاماً. ولم يكن هذا هو كل ما فى الأمر. فقد تم منحه الحقوق الحصرية لسبعين عاماً للقيام بأعمال التعدين، وتسيير خطوط الترام، إنشاء محطات المياه، وحفر قنوات الري، وقطع الأخشاب، علاوة على خيار إنشاء المرافق، ومكاتب البريد ومشروعات أخرى. قال اللورد كيرزن عن هذه الصفقات إنها تخلق لملكة عن مواردها الصناعية وتسليمها لأيد أجنبية بشكل استثنائى وكلى تماماً، الأمر الذى من المستبعد له أن يكون قد راود أحلام أحد، ناهيك عن أن يكون قد تحقق طوال التاريخ.

يُبين السير بنيس رايت، المبعوث البريطانى الرسمى إلى طهران، فى كتابه "الإنجليز وسط الفرس" إن اهتمام الشاه لم يكن مالياً فقط "فقد كان، هو ورئيس وزرائه يعتريهما القلق من التهديد الروسى لاستقلال فارس. اعتقدا - أو أنهما أملا أن منح البريطانيين مصالح اقتصادية كبرى فى البلاد يجعلهم يلتزمون بالدفاع عن استقلالها".

إلا أن الروس ورجال الدين فى فارس ساعدوا على استثارة الرأى العام ضد

الأجانب. تراجع الشاه وألقى امتياز خطوط السكك الحديدية لكن رويتر استطاع، بدعم من وزارة الخارجية البريطانية، الاحتفاظ بحقوق البنوك والتعدين.

وهكذا ولد بنك فارس الإمبريالي، الذي حقق صيتاً لنزاهته. لكن الغضب الشعبي للانبطاح الفاسد أمام رغبات الأجانب تفاقم حينما منح الشاه أحد ضباط الجيش البريطانيين احتكاراً مدته خمسون عاماً لإنتاج التبغ وبيعه وتصديره، وكان الماچور جرالڊ تالبوت قد دفع ٢٥٠٠٠ جنيه إسترليني لملك الملوك و١٥٠٠٠ جنيه إسترليني لرئيس الوزراء، ليحصل على هذا الحق في الاحتكار. كانت تلك الصفقة بغضبة بدرجة أن خشى الدبلوماسيون من حدوث مذابح للأوروبيين فيما خرجت التظاهرات العارمة في أعقاب دعوة رجال الدين الشيعة غير المعتادة بالامتناع التام عن التدخين. وحينما وجد نفسه في مواجهة مقاطعة آخذة في التجمع، ألقى الشاه الامتياز، ودفع تعويضاً قدره نصف مليون إسترليني - اقترضها من البنك الإمبريالي البريطاني - إلى شركة التبغ الإمبريالية التي يملكها تالبوت.

في مقابل البنك البريطاني أنشأ الروس بنكهم الخاص في فارس الذي تدعمه الدولة وكان مفيداً في منح "قروض" لكبار المسؤولين. أيضاً حصل الروس على ترخيص ببناء الطرق في منطقتهم. وحينما قام الشاه نصر الدين بزيارة جارته الشمالية عام ١٨٧٩، أبدى إعجابه بفرقة ألكساندر الثاني من القوقازيين بدرجة أنه أنشأ حرسه الإمبراطوري الخاص، أي كتيبة القوقاز، ورغم أن الفرس كانوا هم من تكفلوا بنفقات الكتيبة، إلا أن ضباطها كانوا من الروس ويتلقون أوامرهم من وزير الحرب الروسي. فيما بعد برهنت الكتيبة على فاعليتها في قمع أعمال الشغب، بيد أنها فشلت في منع اغتيال الشاه نصر الدين فيما كان يزور أحد الأضرحة وسنقرأ المزيد عن كتيبة القوقاز الفارسية لاحقاً.

كانت فارس في مطلع القرن الماضي أرضاً تعهما الفوضى، ملعباً للجواسيس الروس والبريطانيين. كانت مكاناً ينظر إليه على أنه خطر بدرجة أنه، ضد رغبات الفرس الذين انزعجوا، فقد أبقى القناصل البريطانيون علاوة على الحرس الفارسي، على مرافقين من السباهيين والسوار (الهنود المجندين في الجيش البريطاني) يرتدون أزياء فرقة الملكة العسكرية، والراحين البنغال وغيرها من الفرق. فيما رافق الروس جنود من فرقة القوقاز الروسية.

كانت مشهد، عاصمة إقليم خراسان الشمالي، ذات أهمية خاصة في اللعبة الكبرى المندلعة بين الأسد والدب. غدت مشهد، المدينة التي يؤمها الحجيج، موقعا للتصتت يقوم فيه الروس بتجنيد العملاء ومراقبة الحدود الأفغانية. ومن مشهد كانت الاستخبارات البريطانية تبعث بعملائها إلى آسيا الوسطى لمراقبة أفضل لتقدم روسيا باتجاه الهند.

حينما مرّ كيرزن بمشهد أثناء، رحلته الكبرى في أنحاء فارس عام ١٨٨٩، ترك المقر الروسي الضخم وحرسه المهيب انطبعا عميقا لديه "إن ممثلا روسيا نشيطا بمشهد لرمز مرثى للقوة الواقعية التي غدت حركاتها ونواياها تشكل موضوع الحديث في كل بازار شرقي، تلك التي يتبدى ظلها الذي لا يتوقف عن التضخم أبدا والذي تبصره شعوب البلاد وأهاليها بنوع من السكون العاجز، يتبدى مثل سحابة رعدية فوق البلاد". استاء كيرزن أيضا من القنصلية البريطانية التي كان مبناها لا يوفر "أدنى دليل ممكن على مكانة ساكنها أو أهميته. يكاد يكون من المخزى أن يجبر القنصل العام البريطاني على سكنى هذه البيئة الهزيلة البائسة". حينما تجاهلت وزارة الخارجية توصياته، كتب كيرزن بصحيفة التايمز يطالب بأن يكون للقنصلية "مقر على قدر من المهابة بحيث يترك في عقول الأهالي انطبعا بمكانتنا كقوة عظمى ثرية". تم بناء سكن لائق من طابقين على الطراز الهندي بأعمدة يونانية وفراندا متسعة وسط مجمع على شمانية فدادين ضم منازل، ومكاتب

واسطبلات لفرقة الفرسان الهندية المرافقة للقنصل والمؤلفة من أربعة وعشرين شخصا، ولفرقة التركمان المؤلفة من اثنين وعشرين جنديا والتي كانت تنقل البريد بين مشهد وهرات، ومن هناك إلى الهند عن طريق أفغانستان. مولت حكومة الهند المبنى، وتسببت المبانى الفاخرة والتمويل السخى - كانت ميزانيتهم حوالى عشرة أضعاف ميزانية البعثة البريطانية بطهران - فى انزعاج مجلس الوزراء البريطانى وغيرتهم. كانت قنصلية مشهد مسئولة أمام حكومة الهند البريطانية التى كانت أيضا تعين العاملين بها، رغم أن مشهد سارت على غرار طهران من حيث إبلاغ وزارة الخارجية مقدما عن التقارير الرسمية المرسلة إلى كلكتا.

وفى تطور غير متوقع مثير للاهتمام، كان للعبة الكبرى أن تنتهى بالتعادل فى أعقاب الاتفاقية الأنجلو/روسية لعام ١٩٠٧. ومن المفارقات أن هذا النموذج الوقع من الصلافة الإمبريالية كان نتاج حكومة ليبرالية تزعم أنها معادية للإمبريالية. كانت انتخابات عام ١٩٠٦ العامة قد أدت إلى غالبية ليبرالية كبيرة بالبرلمان. كان السير اوارد جراى، وزير الخارجية الجديد، عازما على تسوية الأمور مع سانت بطرسبورج. كان اللورد مورلى، الليبرالى المحترم، والذى أصبح وزير الدولة لشئون الهند، قد رأى منذ وقت طويل أن التهديد الروسى مبالغ فيه وأن التوافق أفضل من المواجهة. هذا علاوة على أن ألمانيا وقبصرها ويلهلم، وأسطول بوارجها الثقيلة الضخمة، هى التى ظهرت كمنافس رئيسى لبريطانيا، وليس روسيا. والآن، فاثحت لندن سانت بطرسبورج بشأن الوصول إلى اتفاقية شاملة حول أفغانستان، التبت، وفارس - تلك المناطق التى كانت قد حفزت تنافسا أنجلو/روسياً استمر قرنا. أخذ السفير البريطانى السير آرثر نيكولسون (الذى أصبح فيما بعد اللورد كارتوك، ووالد الكاتب والديبلوماسى هارولد نيكولسون). أخذ مبادرة المفاوضات مع وزير الخارجية الروسى ألكساندر إيزفولسكى.

فى ٣١ أغسطس، تم توقيع الاتفاقية. ويدون إبلاغ قادتها، ناهيك عن استشارتهم، قُسمت القوتان فارس، إلى منطقتين للنفوذ: منطقة بريطانية فى

الجنوب الشرقى، وأخرى روسية فى الشمال. فى وجود منطقة محايدة (حيث كانت بوشاير تقع) تعهد فيها الروس والبريطانيون، بأسلوب متبادل، بعدم السعى إلى الحصول على امتيازات حصرية بها. وعلى الرغم من أن حقول البترول فى المنطقة المحايدة كانت تكتشف إلا أن ثراها لم يكن معروفا بعد. كانت منطقة النفوذ الروسى أكبر كثيرا وشملت طهران العاصمة، إلى جانب تبريز وأصفهان الأمر الذى عكس نفوذ روسيا الجارة الأقوى. عبر وزير جلالة المفوض بطهران، السير سيسيل سبرينج - راييس عن مشاعر الحكومة السائدة: "إذا استطاع جراى (وزير الخارجية) الوصول إلى اتفاق فعلى مع روسيا فإن هذا الاتفاق يستحق أن نُضحي بفارس رغم أن الدول العظمى لا تملك أن تكون خسيسة حتى فى أمر أبسط من هذا بكثير". هاجم اللورد كيرزن، الذى لم يعد نائب الملك بالهند بل زعيما للمعارضة بمجلس اللوردات، المعاهدة وزعم أن بريطانيا قد ضحت بجهود قرن كامل "تظير لا شيء، أو ما يكاد يكون لا شيء". اعترف سبرينج - راييس أنه بالتنازل لروسيا عن كل هذا "نعتبر أننا قد خذلنا الشعب الفارسى". (!!!) وبالتقابل، ضجّ مجلس الدوما بسانت بطرسبورج بصيحات "براغو" حينما كُشِفَ النقاب عن المعاهدة.

أصيب الفرس بالذهول. تزامنت أنباء تقسيم بلادهم جراحياً، مع الثورة الدستورية التى هدفت بشكل أساسى إلى استرداد استقلال فارس واحترامها لذاتها. أذعن مظفر الدين شاه، الحاكم القاجارى الذى أضعف، بعد أن وُجّهت إليه الاتهامات بالفساد وإساءة الحكم، أذعن بعد ثورة بيضاء فى ديسمبر ١٩٠٥، لانتخاب مجلس قومى، الأول من نوعه فى فارس. اجتمع المجلس على الفور وصاغ دستوراً جديداً من واحد وخمسين بنداً وقعه الشاه بفتور قبل موته. حشدت روسيا حلفاءها الفرس لتقويض البرلمان، الذى كان قد رفض، مزهواً، قرصاً روسيا جديداً، والذى قد خشيت من أن يصبح استقلاله نموذجاً مقلداً لراعايا القيصر المسلمين فى المناطق المجاورة. يكتب روح الله رامزاني، من مواطنى طهران، فى

كتابه عن تاريخ إيران الديبلوماسية أن تدخل روسيا التالي هدم أسس الحكومة الدستورية مرتين في حوالي أربع سنوات.

بدأ محمد علي شاه: الحاكم القاجاري الإقطاعي العنيد، والذي كان قد تُوِّج حديثاً، إجراءات العدائية على الفور عام ١٩٠٨ بسجن رئيس وزرائه. وبواسطة قرض وافق عليه البنك الروسي... رهن مجوهرات تاجه ضماناً له، استأجر الشاه مشيرين للشغب لاقتحام المجلس. وحينما قاوم النواب الهجوم بنجاح، تحركت كتية القوقاز بضباطها الروس سريعا لتحل البرلمان وتقرض الأحكام العرفية. أطلق القوقاز النيران على مبنى البرلمان وأشعلوا نيراناً دمرت سجلاته وقتلت ثمانية إيرانيين. أعلن قائد الكتية الروسي نفسه حاكماً عسكرياً لتهران. أما في لندن، فلم يعبر السير إدوارد جراي عن شيء سوى عن الحيرة والارتباك. يوجز رامزاني الموقف غاضباً بقوله "قبل اتفاق عام ١٩٠٧، كانت بريطانيا تعمل قابلة للنظام الجديد، لكن، وبالرغم من نوايا جراي الطيبة، كان الأداء البريطاني بعمامة يحابي روسيا على حساب إيران. كانت سياسة جراي تجاه إيران منذ البداية وحتى النهاية هي عدم التدخل، والحرص على صداقة روسيا". وعلى الرغم من ذلك، اشتكى جراي بقوله "أفقدني هذا القدرة على الاحتمال أكثر من أي أمر آخر"

ثم، وبأسلوب غير مصدق، وُحِدَت انتفاضة شعبية الفصائل الإثنية، والدينية والمتغربة التي لم تكن تتفق على أي شيء آخر، وسحق المتمردون قوات الدرك الفوقازية وأجبروا الشاه المحترق على التنحي. نودى بابيه أحمد البالغ من العمر اثني عشر عاماً خليفة له. وفي عام ١٩١٠ اختير مالك أراضٍ من حمدان يدعى عبدالجاسم خان ناصر الملك، والذي كان قد زامل كيرزن وجراي وسيسل سبرينج - ريس في كلية باليول، أكسفورد، اختير وصياً على العرش. وكما لم يكن متخيلاً، سجلت الصحافة الحرة التي كانت قد ظهرت أثناء المجلس الأول تاريخ كل تلك الأحداث. ووسط تلك الاضطرابات، أصدر وزير الخارجية الفارسي تعليماته إلى

سفارتة بواشنطنون للبحث عن "خير أمريكي محاييد يعمل مسئولاً عاماً عن الخزانة" كي يؤسس لفارس، التي كانت على شفا الإفلاس، نظاماً صحيحاً لجباية الضرائب. وقع الاختيار على دبليو. مورجان شوستر المحامي الأمريكي البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً والذي اشتهر عن جدارة كجامع للجمارك في جمهورية كوبا الجديدة. كان شوستر أيضاً، بين عامي ١٩٠١ و١٩٠٦ قد أعاد تنظيم جباية الضرائب بالقلبين بدعم كامل من الرئيس الأمريكي تافت الذي كان قد عمل سابقاً حاكماً عاماً بمانيتا. وافق شوستر على العمل ثلاث سنوات بفارس. أبحر، برفقة أربعة من مساعديه من نيويورك في إبريل عام ١٩١١ متجهاً إلى فارس. وعلى الفور قوبل ببرود (بادله شوستر من قلبه) من الجالية الأوروبية بطهران وكان عليه أن يتعلم بسرعة كيف له أن يميز بين أصدقائه من الفرس وبين أعدائه المداهنيين. ثم وصله التقرير الذي أفاد أن الشاه المخلوع، كان يتآمر لاستعادة العرش بدعم روسي. حدث المشهد الختامي في نوفمبر ١٩١١ حينما انطلق رجال شرطة شوستر الخاصة بخفة متجاوزين حارساً قوقازياً وحجزوا على منزل شقيق الشاه المتغيب نظير عدم دفع ضرائب متأخرة. طالبت السلطات الروسية، بدعم من البريطانيين، فصل شوستر لتعديده على مناطق نفوذهم. حينما لم يستجب المجلس، تقدمت القوات الروسية إلى طهران وقتلت الليبراليين ورجال الدين المعادين لروسيا وقصفت المجلس. قام الروس أيضاً بقصف ضريح الإمام رضا بمشهد مما استحث أعمال الشغب من قبل المسلمين الشيعة. وبعد أن أنزل البريطانيون قواتهم في الجزء الجنوبي لفارس بزعم حماية منطقة نفوذهم، وقفوا ينظرون دون أن يحركوا ساكناً فيما احتل الروس الشمال. وفي يوم الكريسماس طردت حكومة فارس الدستورية شوستر الذي كتب وهو في طريقه إلى وطنه سرداً مفعماً عن مهمته بعنوان "حَقِّ فارسي" ختمه بالتالي:

"يستحق الشعب الفارسي، الذي يكافح من أجل فرصته في العيش وحكم نفسه بدلا

من أن يظلوا عبيد أرض للحكام الغلاظ الفاسدين، يستحقون مصيرا أفضل من أن يجبروا، كما هو حادث الآن، على أن ينحطوا مرة أخرى إلى وضع أسوأ من عبودية الأرض، أو أن يطاربوا ويقتلوا بصفتهم "حثة ثوريين". تمنى الجميع، باستثناء الوجهاء الفاسدين والموظفين العامين المنحطين، أن تنجح. أدركت روسيا هذه المشاعر، وبدون قصد، وجهت إلينا الثاء بخوفها من أن تنجح في مهمتنا. وهذا ما لم تكن أبدا لتسمع به، أما باقي الخلاف فمجرد تفاصيل.

كان هذا هو الثمرة الاستهلاكية لاتفاق عام ١٩٠٧. علق سفير بريطاني سابق في طهران، السير دنيس رايت، فيما بعد قائلا "صدم الفارسيون الذين كانوا قد أخذوا بتزايد ينظرون إلى بريطانيا بصفتها حاميتهم ضد روسيا والمدافعة عن الأفكار الليبرالية، صدموا إلى أقصى الحدود المتخيلة من هذا التحالف مع الشيطان". يكتب فيروز كاظم زاده الباحث بجامعة ييل في كتابه المرجعي "روسيا وبريطانيا في فارس: ١٨٦٤-١٩١٤" قائلا: "كان في سبتمبر ١٩٠٧ أن تبلورت الصورة الفارسية الحديثة عن بريطانيا.. وسواء كان هذا مبررا أم لا، فمنذ آنذاك وحتى الآن ظل غالبية الفرس على استعداد لاعتقاد الأسوأ عن بريطانيا". أما الحساب فلم يحن إلا بعد عقد من الزمان، بعد الحرب العظمى.

دافع السير إدوارد جراي عن الروس فيما شجبههم اللورد كيرزن. وفي واقع الأمر، فقد كان جورج ناثنيل كيرزن، ماركيز كدلستون، هو من أبقى الخليج الفارسي على أجندة بريطانيا الإمبريالية، وكان إبقاؤه عليه هناك فكرته الخاصة الثابتة المسيطرة. كان وهو عضو بالبرلمان في الثلاثين من العمر، قد زار فارس لأول مرة على صهوة جواد عام ١٨٨٩. وتبقى كيرزن تلك الرحلة التي استغرقت ستة أشهر في كتابه المرجعي المؤلف من جزأين "فارس والمسألة الفارسية" الذي نُشر عام ١٨٩٢ فيما كان يعمل وكيل الوزارة لشؤون الهند. في عام ١٩٠٣، ذهب، بصفته نائب الملك بالهند، في زيارة أخرى أكثر مهابة على متن سفينة برفقة أسطول (أرمادا) الخليج البحري المؤلف من السفينة التجارية هاردينج، وأربع طرادات.

وبعض القوارب الأصغر. عقد معاهدة مع شيخ الكويت المبهور الذي وافق على عدم التخلي عن منطقته لأي طرف ثالث، وأجبر سلطان مسقط (حيث كان يبرسى كوكس صنيعة كيرزن منموضِعاً) على إلغاء عقد إيجار مع الفرنسيين لإقامة محطة للتزود بالفحم الحجري. أرسل برقية سريعة إلى لندن زعم فيها أنه "يجب إغلاق الخليج الفارسي، حتى بالمخاطرة بحرب، في وجه جميع النخلاء". كان كيرزن أيضاً هو الذي أطلق تحذيراً لا يُنسى بأن طموح روسيا النهائي هو السيطرة على آسيا. علّق في مذكرة عام ١٩٠١ بالقول "إن هذا لهدف أبى، ليس وضيعاً، جدير بالجهود العقلية العمليّة لامة قويّة نشيطة". بيد أنه إذا كان من حق روسيا تحقيق أهدافها فإن لبريطانيا حقاً أقوى، بل إنها مجبرة على الدفاع عما كسبته، ومقاومة الانتهاكات والاعتمادات الثانوية التي هي جزء من خطة أشمل. من ثم يجب تحاشي التنازلات التدريجية لأن كل قطعة "تشخذ الشهية للمزيد وتشعل العاطفة للهيمنة على آسيا بأكملها". إن وحدة بلاد فارس وسلامة أراضيها هي التي يجب أن تُسجّل بصفقتها من التعاليم الرئيسية في عقيدتنا الإمبريالية.

كان الذي جعل من فارس أولوية عليا للبريطاني هو ذلك المكوّن الجديد الذي هيمن على دبلوماسية القرن العشرين: النفط. أثبتت الحفريات أن النفط كان معروفاً في بلاد الرافدين وفارس منذ العصور القديمة. كان النفط في باكو المطة على بحر قزوين يرشح، حرفياً، من التربة، الأمر الذي وضع روسيا على الطريق لأن تصبح قوة نفطية عالمية. في عام ١٨٩٢، زعم مقال كتبه جاك دو مورجان الأركيولوجي في دورية حوليات المناجم أن ثمة تراكيمات نفطية في جنوب غرب فارس. وكان الكاتب قد لاحظ تسريبات نفطية أثناء رحلاته في فارس. وُضِعت استنتاجات مورجان تحت تصرف المفوض العام البريطاني في فارس الذي فاتح السير هنري دروموند وولف، عضو البرلمان عن حزب المحافظين، في الأمر وأثناء

معرض باريس لعام ١٩٠٠. وبدوره، قدمه وولف إلى وليام نوكس دارسي المليونير المضارب المغامر و الذي كان يُنفق ببذخ. وكان قد راكم ثروته أثناء "هوجة" الذهب بأستراليا. حينما طُفّت التقارير عن النفط الفارسي على السطح، تناقست روسيا مع بريطانيا للحصول على الامتيازات، لكن كان لعملاء دارسي الغلبة من خلال المساعدات الدبلوماسية ودفع الرشاوى لمن فى يدهم الأمر. ونظير ٢٠٠٠ جنيه إسترليني نقداً، إضافة إلى ١٦٪ من صافي الأرباح، و ٦٥٠ إسترليني إيجارا سنوياً، ورشاوى للوجهاء، انتزع أصحاب الامتياز فى عام ١٩٠١ الحقوق الحصرية من شاه فارس. كان العقد، الذى كُتِبَ بالفرنسية، سارِى المفعول لمدة ستين عاماً وغطى ثلاثة أرباع (٤٨٠٠٠٠ ميل مربع) مساحة بلاد فارس، واستثنيت الأقاليم الشمالية احتراماً لروسيا. يكتب البروقسور كاظم زاده قائلاً "كان هذا هو العقد الذى اتضح أنه أحد أهم الوثائق فى القرن العشرين، لم يكن بإمكان الموقعين أن يتكهنوا بمصيره فيما بعد، أو بالمجمّع الصناعى الهائل الذى قام نتيجة له، أو بالكرامية العميقة التى أثارها، أو بالصراعات التى عجل بها.. هؤلاء الموقعون النبين قاموا، فى مدينة قصية عن مراكز القوة العالمية، وفى شبه سرية تامة، بأداء تلك الدراما التى لم يكونوا سوى نصف مدركين لتضميناتها".

وعلى الرغم من ذلك، فقد كاد ذلك الامتياز السخى أن يؤدى إلى إفلاس دارسي الذى أنفق ما يزيد على ٢٢٠٠٠٠ جنيه إسترليني - أى قيمة فدية ملكية آنذاك - لتوصيل النفط إلى الأسواق. كانت شراكته مع شركة نفط بورما ومقرها جلاسكو، هى التى أنقذته حيث نُقِلَ إليها امتياز دارسي وضخت مزيداً من رأس المال، إضافة إلى جورج رينولدز التقنى البريطانى (وردت حكاية الاكتشاف بمسجد - أى - سليمان بالفصل الرابع). ثم بعد ذلك، تم نقل جميع الحقوق عام ١٩٠٩ إلى شركة النفط الأنجلو فارسية (APOC) التى تطورت بعد لتصبح شركة النفط الأنجلو إيرانية (APOC)، وفى النهاية أصبحت بريتش پتروليوم (BP) كما نعرفها

اليوم. تفاوضت BP مباشرة مع زعماء البختياري المحليين (الخانات) الذين كانوا يتحكمون في المنطقة التي كان يجري فيها التنقيب عن البترول، ونظير حماية أبارهم، اتفق على خصم ٣٪ من أرباحهم من حصة طهران (رغضت الحكومة الفارسية الاعتراف بتلك الاتفاقية لعام ١٩٠٥).

وبضربة معلّم، تفاوض المنسوب السامي السياسي للراج (حاكم الهند) في بوشاير، وبروقنصل الخليج على أرض الواقع، الماچور پيرسي كوكس، بمساعدة أرنولد ويلسون الضابط السياسي المسئول، على اتفاقية عام ١٩٠٩ مع خازال شيخ محمرة (خورامشهر اليوم). تضمنت أراضيها التي كانت تعرف باسم عربستان (خوزستان) شط العرب حيث كانت أنهار دجلة والفرات وقاريون تلتقي وتتدمج. تم الاتفاق على أن تقوم BP بإنشاء معامل تكرير في جزيرة عبادان التي تبعد ١٢٨ ميل عن حقول النفط. ونظير عقود استئجار سنوية تمنح الشركة بتمتقهاها ستانة فدان، توسعت لتصبح ٢٤٠٠ فدان عام ١٩١٨ لتضمن حق طريق لخط أنابيب. نظير هذا سُمح للشيخ أن يُمنع قرضاً قدرة ١٠٠٠٠ إسترليني مع ضمان نوايا بريطانيا الحسنة وحمايتها: "ستكون حكومة جلالة الملك مستعدة لتوفير الدعم اللازم لكم للحصول على حل مُرضٍ في حالة انتهاك الحكومة الفارسية لنطاق سلطنتكم وحققكم المعترف به على أملاككم في فارس".

انزعجت طهران من أن البريطانيين، وفي جميع تفاوضاتهم، تعاملوا مع الشيخ العربي والزعماء المحليين وكأنهم مستقلون نوو سيادة. بعد إتمام الصفقة عام ١٩١٠ أبحر كوكس إلى أعالي شط العرب في لشبه الرسمي "لورانس" وكانت حملته ٩٠٠ طن، وخلع على الشيخ، في حفل رسمي مهيب، وسام القائد الفارس من أعلى المراتب في إمبراطورية الهند، ومنحه البريطانيون أيضاً تحية من ١٢ طلقة مدفعية. ومقابل ذلك، أمدتهم الشيخ بألف عامل من القرى المحيطة، وفي انتهاك منهم للسيادة الفارسية، قُتحت على الفور مظلة حماية بريطانية على الحقل،

فيما تم استيراد ألف عامل آخر من الهند. اعترف ويلسون في مذكراته حول تلك التفاوضات قائلاً: "قضيت أسبوعين أدير شأن شركة النفط، وأتوسط بين الإنجليز الذين لا يستطيعون دائماً أن يقولوا ما يعنونه والفرس الذين لا يعنون دائماً ما يقولونه. فكرة البريطانيين عن الاتفاقيات هي أنها وثائق مكتوبة بالإنجليزية تصمد أمام هجوم المحامين في المحاكم؛ أما فكرة الفرس فهي أنها إعلان عن نوايا عامة من الطرفين، مع دفع مبلغ نقدي كبير سنوياً، أو دفعة واحدة".

خصصت BP أفضل الوظائف للبريطانيين والهنود، وأولت إلى الفرس الأعمال الوضيعة، مما أصبح مصدر شكوى مزمنة. احتل الأجانب أفضل المنازل، وحصلوا على عضوية النادي الفارسي النخبوي، وألحقوا أطفالهم بمدارس في كانتونات منفصلة، حتى أنه كان ثمة نوافير كُتِبَ عليها "محظورة على الإيرانيين" مما غذى دورة الاستياء الذي ظل قائماً والذي ميز العلاقات فيما بعد.

كانت السرعة التي بها ألزمت بريطانيا نفسها بالنفط الفارسي مدينة بالكثير للصدقة القائمة بين دارسى، والأميرال السير جون فيشر رجل البحرية البريطاني البارز والمهووس بالنفط. كان أول لقاء لهما في يونيو ١٩٠٣ بمرينباد المنتجع الصحي البوهيمي الراقى، الذي كان "جاكى" فيشر يرتاده بانتظام للراحة والمتعة والانغماس في الرقص الذي أولع به طوال حياته. كان اهتمام فيشر المسيطر هو تحويل البحرية البريطانية من الفحم إلى النفط. راقه دارسى، وحينما أصبح لورد البحار الأول بعد ذلك بعام، وجد فيشر الدعم الضروري للإبقاء على العملية الفارسية قائمة. ثم تلاقت كل هذه العناصر - تزويد الأسطول البحري بالنفط، امتياز دارسى، والاستراتيجية البريطانية - عام ١٩١١ حينما أصبح ونستون تشرشل، وكان مازال عضو برلمان بازغاً، لورد الأميرالية الأول. كان تشرشل معجب جاكى فيشر المكرس، وتمكن من إغراء الأميرال العجوز - الذي كان قد

تقاعد وكان يبلغ من العمر ضعف أعوام تشرشل السبع وثلاثين - يترأس اللجنة الملكية للوقود والالات.

كان قد تبدى فى آفاق عابرات المحيطات البريطانية أسطول ألمانيا البازغ نو البوارج الثقيلة. كانت السفن التى تعمل بالنفط أسرع، وتقطع مسافات أطول، ولا تحتاج إلى فصائل من الوقادين أقوىاء الجسد. قام تشرشل، وقد تسلم بهذه المعلومات بالمضى قدما فى تنفيذ المشروع وأصبح التحول واقعا. لكن إحلال النفط الذى لم يكن متوفرا لدى بريطانيا أو مستعمراتها، محل الفحم الذى كانت تمتلكه بكميات كبيرة، تطلب ٥٠ ألف طن من النفط سنويا. فى ١٧ يونيو عام ١٩١٤ وضع تشرشل أمام البرلمان اقتراح شراكة جسوراً: تستطيع الحكومة البريطانية نظير ٢.٢ مليون إسترليني تملك ٥١٪ من أسهم شركة دارسى الأنجلو/فارسية للنفط إضافة إلى مقعدين فى مجلس إدارتها المكون من البريطانيين فقط. بإمكان ذلك أن يضمن للبحرية الملكية الحد الأدنى من أسعار نفط APOC لمدة ثلاثين عاما، الأمر الذى ثبتت صحته بالفعل (ظلت الأسعار المحددة سرا لعقود عديدة). فى ٢٨ يونيو وافق البرلمان على صفقة لم يكن ثمة منافس لها سوى الانقلاب الذى قام به ديزرائيلى بحصوله على حصة الأغلبية من أسهم شركة قناة السويس. فى نهاية الحرب، علق كيرزن بالقول إن الحلفاء "طلقوا إلى النصر على موجة من النفط".

لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى، أعلنت فارس على الفور وقفها على الحياد رغم أن مشاعرها كانت مع ألمانيا التى كانت تخوض حربا مع أعدائها القدامى بريطانيا وروسيا. لم يردع هذا الطرفين المتحاربين عن انتهاك الأراضى الفارسية منذ المظلة الأولى وحتى وقت طويل بعد المظلة الأخيرة. حينما بدأت الحرب العالمية الأولى احتلت القوات الروسية تبريز، مشهد ومندأ شمالية أخرى. احتل الطابور الخامس الروسى، أى فرقة القوقاز الفارسية المدعومة من القيصر والتى يقودها ضباط روس، موقعا قرب طهران وأقامت حامية هناك. ثم حينما انضمت تركيا إلى

القوى المركزية في نوفمبر ١٩١٤، دخلت كتابها إلى المنطقة الغربية في إيران لتحول دون مزيد من الإغارات الروسية. وزاد الفوضى فرقة درك فارسية تشكلت مؤخرا وكان يُعتقد أن ضباطها السويديين موالين لألمانيا.

وحتى قبل اندلاع أعمال القتال، أرسلت بريطانيا كتيبة فرسان هندية لتتقدم أعلى شط العرب لحماية معامل تكرير النفط. بمنتصف عام ١٩١٥ كان ثمة حوالي ٢٥٠٠ من القوات في فارس، لكن البريطانيين كانوا قد أُجبروا على سحب الحرس القنصلي من وسط فارس لتوفير القوات للجبهة الغربية ولحملة بلاد الرافدين. ثم حدث في عام ١٩١٦ أن شكل اليريجانير جنرال السير بيرسي سايكس، الضابط ولعب البولو، والذي كان قد عمل مكتشفا وقنصلا بإيران، شكل قوة من المحليين وأدمج فيها قوة درك شيراز ووضع على رأسها ضباطاً بريطانيين. بدل السويديين الموالين لألمانيا. وبعد الثورة الروسية، كانت حتى كتيبة القوقاز الفارسية بقيادة الكولونيل ستاروسلسكي من روسيا البيضاء تعتمد على بريطانيا لدفع نفقاتها. ولدى نهاية الحرب، كاد الطعام يفتقر وذلك لأن محصول عام ١٩١٧ كان ضعيفا وأخفى ملاك الأرض الفرس الحبوب على أمل الاستفادة المادية من ندرة الغذاء. مما جعل الأمور أكثر سوءاً هو أن الروس كانوا قد صادروا أسقف المنازل والنوافذ ولطارات الأبواب لاستخدامها وقوداً للتدفئة، الأمر الذي أدى إلى تشريد آلاف الفارسيين. مات ما يربو على مائة ألف فارسي من الجوع والكوليرا، وهُجرت عشرة آلاف قرية مما دفع الديبلوماسي البريطاني هارولد نيكلسون إلى أن يُلقِ متأسياً "لقد تعرضت فارس لانتهاكات ومعاناة لم يتكدها أي بلد محايد آخر".

كان الحرمان والفوضى منتشرين بدرجة جعلت القوات البريطانية تحتل مساحات من الأراضي الفارسية عام ١٩١٨ وذلك بشكل أساسي للحيلولة دون تقدم البلاشفة بعد الثورة في الأراضي الإيرانية. ولدى انتهاء الحرب كان ثمة

حوالى ٥٥٠٠ رجل فى كتيبة جنوب فارس للرماة وأصرت الحكومة البريطانية، بعد أن تمددت قواتها فى بلاد الرافدين بإفراط، وفى مواجهة الثوار الأيرلنديين والاضطرابات العمالية بالداخل، أصرت على تخفيض النفقات وتسريع المجندين. وعلى الرغم من ذلك، رأى اللورد كيرزن الذى كان قد أصبح القائم بأعمال وزير الخارجية، وقد خشى من توجه البلشفيك نحو الهند، رأى أن الوقت كان حان لوضع علاقات بريطانيا مع فارس على أسس ثابتة. وفى مذكرة لمجلس وزرائه، ذهب إلى أنه من المستحيل أن نسمح لفارس أن تتحلل وتفسد بهذا الأسلوب الغريب.. إن موقعها الجغرافى، ومصالحتنا الهائلة فى ذلك البلد، وأمن الإمبراطورية الشرقية فى المستقبل، يجعل من المستحيل علينا الآن- كما كان من المستحيل علينا أيضا فى أى وقت فى غضون الخمسين عاما الأخيرة - ألا نبالى بما هو حادث فى فارس.

صاغ كيرزن بنفسه معاهدة جديدة ردد بندها الأول "بأسلوب بالغ النعمية التعهدات التى قدموها تكرارا فى الماضى بالاحترام المطلق لاستقلال فارس وسلامة أراضيها". أجازت المعاهدة الأنجلو/فارسية (فى بند عرفه السير بيرسى كوكس بأنه "مساعدة مباشرة") تعيين خبراء بريطانيين لإنشاء جيش قومى، وبناء خطوط السكك الحديدية، والتزويد بالأسلحة، وإعادة تنظيم الشؤون المالية القومية، ومراجعة التعريفات الجمركية - يمول كل هذا من قرض قدره ٢ مليون استرلينى يُسدّد من العوائد التى يجمعها المسئولون البريطانيون. كانت مبادرة استثنائية من حيث سوء التوقيت. نظر الفرس إلى ذلك المخطط ذى النوايا الحسنة وسبب التوقيت فى أن على أنه دليل على رغبة بريطانيا فى أن تحول فارس إلى دولة أخرى تابعة عميلة مثل مصر.

حينما سئل عن تصوره لمجابهة المعارضة الفارسية للمعاهدة، كان جواب كيرزن الفورى "سيتم تسوية المسألة بالنقود". ويعد تفاوضات مستطالة أجراها السير بيرسى كوكس الذى كان قد أصبح الوزير المفوض فى طهران، وفى وجود الأموال

السائلة للتزيت، قُدِّرَت بـ ١٢١.٠٠٠ إسترليني - نُفِعت سرا للثالث الذي كان يدير الحكومة، تم توقيع المعاهدة في أغسطس ١٩١٩ . زعم كيرزن النصر قبل الأوان ("انتصار عظيم حققته وحدي بمفردي"). حينما افترض أمر الرشاوى، اعترض المجلس سبيل المعاهدة، وسقط ثلاثة رؤساء وزارة متتالين (غفل كيرزن عن الانتباه لمسألة فنية: اقتضت المادة الرابعة والعشرون من دستور فارس دائم الانتهاك مصادقة المجلس الذي لم يكن قد اجتمع منذ عام ١٩١٥، على المعاهدات).

ومن حسن حظه، هرب كوكس إلى بلاد الرافدين تاركاً خليفته هرمان نورمان يواجه غضب كيرزن. حذر نورمان قائلاً: "نحن نحلّ محل الروس المكروهين وعلى حكومة جلالته أن تقرر ما إن كنا سنسمح بفقد النقود التي أنفقناها في فارس، وتدمير تجارتنا.. وانهايار مصالحنا ووضعنا في البلد.. ونبذ سياستنا كما تمنّها الاتفاقية الأنجلو/فارسية، وتحويل بلاد الرافدين إلى مكان لا يحتمل، وتهديد لتحكمنا في الهند". يبين السير دنيس رايت أن نورمان استمرّ يحذر كيرزن في خلال سلسلة من التقارير الشجاعة من أنه يراهن بنقوده (بأسلوب يكاد يكون حرفياً) على الخيول الفارسية الخطأ ومن أنه من المستبعد أن تنجح معاهدته المقترحة. لم يكن هذا ما كان كيرزن يود أن يسمعه، أو ما كان مستعداً لتصديقه. ونتيجة لهذا، استدعى نورمان، الذي أثبتت الأحداث صواب آرائه، إلى لندن ولم يُعَيِّن مرة أخرى أبداً في وزارة الخارجية".



نشرت الثورة البلشفية وما تبعها من حرب أهلية بين الجيوش الحمراء والبيضاء في القوقاز وآسيا الوسطى - الفوضى على حدود فارس الشمالية. في عام ١٩١٨ فشلت حملة إلى باكو بقيادة الماجور جنرال ليونيل دانسترفيلد وأجبر البريطانيين على الانسحاب. وفي فجر ١٨ مايو ١٩٢٠، استولى الجيش الأحمر على أسطول صغير لروسيا البيضاء عند بندر أنزلي على بحر قزوين الذي كان، اسمياً، تحت

الحماية البريطانية. وتبعاً لذلك، تشكل حزب شيوعي فارسي في الإقليم. كان من الواضح عدم قدرة القوات البريطانية المتقلصة على حماية حليفها. وعلى الرغم من ذلك، أمرت الحكومة البريطانية بتسيير جيش آخر، فرقة فارس الشمالية الغربية، إلى طهران ومحيطها في خريف ١٩٢٠.

كان الماجور جنرال المغمم بالحوية السير إدموند أيرونسايدي هو قائد هذه الفرقة. كان قد وُلِدَ عام ١٨٨٠ لكبير أطباء خيالة المدفعية الملكية الإسكتلندي. كان أيضاً لغويا موهوباً لدرجة أنه تعلم اللغة الأفريقية كي يصبح عميلاً سرياً في حرب البوير. ومع توارده ذكره في الرسائل والبرقيات لشجاعته في جنوب إفريقيا، تجذرت أسطورة أيرونسايدي - زُعم أنه ضغط على أحد البوير حتى الموت بيديه العاريتين. بعد ذلك، وكجاسوس متخفي كسائق سيارات من البوير، رافق حملة ألمانية عسكرية إلى جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا اليوم) كانت مهمتها سحق تمرد للأهالي. كانت تلك الواقعة وراء النظرية القائلة بأن أيرونسايدي كان النموذج الحي الواقعي الذي ألهم الكاتب جون بيوكان بشخصية الجاسوس الإسكتلندي الخارق ريتشارد هاناي في روايته "الدرجات التسع وثلاثون" و"المعطف الأخضر". وكضابط مدفعية، كان بين أوائل الضباط البريطانيين الذين رسوا في فرنسا عام ١٩١٤. انتهى من الحرب وهو برتبة بريجاير جنرال، وبعد الهدنة، أرسل كقائد عام لقوات مختلطة من البريطانيين والفرنسيين والروس البيض كانت تحارب البلشفيك في شمال روسيا بين عامي ١٩١٨-١٩١٩. أشرف أيرونسايدي، يرافقه كلبه الضخم القوي، وكان قد عُرف عنه آنذاك أنه "أستاذ فن الانسحاب" على انسحاب القوات من تلك المغامرة التي كان محكوماً عليها بالفشل. مُنح وسام الفروسية، وُرقى إلى ماجور جنرال (لواء) وكان أصغر من يحمل تلك الرتبة في الجيش البريطاني. ثم بُعث به إلى المجر التي كان يحكمها الأميرال ميلكوس هورثي ليشرف على جلاء آخر - جلاء القوة الرومانية المحتلة - ولرسم الحدود بين

البلدين. تبع ذلك انسحاب ضخم شامل تركيا، حيث تولى قيادة جيش أنجلو/يوناني كان قد قام بمحاولة فاشلة لاقتطاع جزء من الإمبراطورية العثمانية.

بعد أن التقت جرتروود بل ذلك الضابط الذي كان يزن ٢٧٥ رطل (١٣٢، ١١١ كيلو) بالعراق، كتبت تقول: "إنه مخلوق فذ، كونه أولا أحد أضخم من رأيهم من الرجال، وثانيا، لما لديه من معرفة سليمة دقيقة بالأمور ابتداءً من أرخانجسك (مرقا في أقصى شمال روسيا) وحتى البحر الأسود. ماچور جنرال في السابعة والثلاثين، مترجم من الدرجة الأولى بسبع لغات- وكل ذلك ليس بالهين، لكن فوق كل شيء فهو رجل، من ذلك النوع الذي يمكن إيجاد وظيفة نافعة له في شمال فارس". يصف جون سي. كيرنز في منخله الصريح بـ "معجم البيوجرافيا القومية" أيرونساید كما يلي:

"سليم الجسد، قوى البنية، وسيم في شيخوخته، لديه ما يشبه الذاكرة الفوتوغرافية، دافئ المشاعر، حساس، تلقائي، متقلب المزاج، غير مجامل. لا تكاد تكون لديه أية ذائقة للموسيقى أو الشعر، والقليل منها للمسرح، ولا يتنوق الرقص بإطلاقه، لكن يكتب بسهولة ويدون أخطاء، وأفضل بكثير مما يعتقد. يبهجه التصوير، المعمار، والحرف اليدوية، ليس غريبا على التحيزات العرقية الثقافية والذكورية الفجة لطبقته وأمه وزمانه، من ثم كان يصدر أحكاما قاسية فظة حتى على الأصدقاء، ودائما نقدا مدحرا للآخرين- وبخاصة مارشالات القوات الجوية، والجنود الانتهازيون، والسياسيون، ودعاة السلام من أساتذة الجامعة، والديبلوماسيون، ورفاقه على متن البواخر، وجميع النساء تقريبا العاملات في مجال كان يعتبره قصرا على الذكور، وغالبية الأجانب. ولأنه كان متيقنا من سمو البريطانيين، فقد جاهر بكراهية خاصة للأيرلنديين، اليهود، اللاتينيين، والأعراق الأدنى، أي غالبية البشر".

كانت الأوامر الصادرة إلى أيرونساید بفارس هي "التمسك بالقلعة حتى صدور

قرار مجلس الوزراء بانسحاب جميع القوات.. عدم توريث القوة في البلد (فارسي).. استخدام نفوذه لقمع ستاروسلسكي (قائد القوقاز الفرس).. والقوات الفارسية الأخرى (المعادية) للسلطات السياسية في لندن. لكن أيرونسايد وسع نطاق الأوامر الصادرة إليه بتجربة حظه في مجال صناعة الملوك.

فيما كان البريطانيون ينسحبون، وحكومة طهران تفقد سيطرتها على البلد حيث كان هرمان نورمان يعمل فيه وزيرا (مفوضا) قليل الحظ وينفذ أوامر كيرزن، بدأ أيرونسايد أيضا الذي شكك في استراتيجية الحكومة البريطانية التي كانت تقضي بتقدم القوات - رأى أنه يجب الدفاع عن الهند من خلف حدودها، وليس من أمامها - في تنفيذ سياسته الخاصة بفارس مستقلا. رفض المصادقة على الأعباء المالية - التي كانت تتحمل غالبيتها حكومة الهند - والتي جلبتها سياسة كيرزن التي تقضي بتقدم القوات. رأى أنه حتى لو نجح التقدم باتجاه الهند سيؤدي هذا إلى ترك حدود فارس مع روسيا دون دفاع على حين أن جبال الهند تجعل الاحتياج الروسي أمرا مستبعدا. اعتقد أيرونسايد، ووافقته حكومة الهند، على أنه من الضروري فقط الدفاع عن جنوب فارس حيث تقع مصالح بريطانيا النفطية ومنشأتها. رأى أيرونسايد، وفقا لما سجله في مذكراته أن "الديكتاتورية ستحل مشاكلنا وتجعلنا نغادر البلد دون أي قلق أو عناء بالمرّة".

بدأ باجتماعات الضباط الروس من كتيبة القوقاز الفرس التي كان يقودها الكولونيل ستاروسلسكي، لكنها كانت تُزود بالتجهيزات من المخازن والمحال البريطانية وتُدفع نفقاتها بأموال بريطانية. ثم، وبمساعدة الليفتانت كولوئيل هنري سميث، قام بهندسة الإطاحة بالقائد الروسي الأبيض. دعم نورمان قرار فصل ستاروسلسكي. وافق أحمد شاه على مضي، لكن رئيس الوزراء الذي استقال احتجاجا على هذا عارضه. حذر كيرزن الوزير المفوض نورمان، حيث كان مازال يأمل في المصادقة على المعاهدة الأنجلو/فارسية وينظر إلى تلك الأحداث من بعيد

باستياء، حذره قائلاً: "لابد أن تدركا بوضوح، فى اختياركما لسياسة جديدة، وانتقائكما لعملاء جدد لتنفيذ تلك السياسة، أنك والجنرال أيرونسايڊ قد اضطلعتما بمسئولية ليست هينة، مسئولية تقتضى أن يبررها نجاحكما".

وفى تلك الأثناء كان أيرونسايڊ قد أبصر أثناء عرض عسكري الكولونيل رضا خان، متتصباً كمدق البندقية أسفل قبعته المصنوعة من صوف الغنم النقيس، متينا مثل بويتس مصنوع من الجلد، والذي كان يكنى بـ "رضا المدفع الرشاش" (لأنه كان يحمل مدفع فرقته ماركة ماكسيم). علقت فيتا ساكفيل - وست بالقول "لا ريب أنه كان له حضور ملكى. لكن ذلك الرجل المُنذر بأنفه الضخم، وشعره الأشيب، ودمدمته المتوحشة" ينم مظهره عن أنه "جندى فى فرقة القوقاز". تردد أيرونسايڊ. سجل فى مذكراته ما يلى "رجل، وأكثر من قابلتهم إلى الآن استقامة (انتصاباً). بدا وأنه حياة العرض العسكري الحقيقية وروحه". عيّن أيرونسايڊ رضا خان قائدا لفرقة قوقاز قزوين. قبل مغادرته فارس إلى القاهرة فى ١٢ فبراير، أبلغ أيرونسايڊ رضا خان، فى لقاء عقده معه ومع سميث، الذى كان، واقعياً، قد أصبح كبير أمناء الإمدادات لفرقة قوقاز قزوين وصراف رواتبها، أبلغه أن بريطانيا لن تعارض فى استيلائه على السلطة إذا وافق على عدم الإطاحة بأحمد شاه. وافق رضا خان. فى ليلة ٢٠-٢١ فبراير، قاد رضا خان مسيرة استمرت طوال الليل إلى طهران على رأس رتل مكون من حوالى ستمائة قوقازي^(١). كانت طهران بدون دفاعات. وكانت الأوامر قد صدرت إلى فرقة الدرك والشرطة بالبقاء فى مقارهم. وفى انقلاب، كان يكون أبيض، أطاح رضا خان بمجلس الوزراء. فى وقت الانقلاب، كان أيرونسايڊ قد نجا بأعجوبة من ارتطام للطائرة لدى هبوطها فى المرحلة الأولى من رحلته إلى مؤتمر القاهرة. يكتب ريتشارد أولمان، الباحث بجامعة برينستون، فى سرده الدقيق

(١) تتراوح الأرقام حول عدد القوقازيين بين ستمائة وثلاثة آلاف. وقد اخذنا الرقم الأقل الذى ذكره اللغتناات جنرال مرتضى يازدا پانه الذى شارك فى الانقلاب. (المؤلفان).

أحداث ١٩٢٠-١٩٢١ من غير المجدى التكهّن عما إن كان لرضا خان أن يمسك بالسلطة فى وقت أو آخر حتى لو لم يختره أيرونسايڊ (للمهمة)، لكن من الواضح أن أيرونسايڊ ومعه زملاؤه البريطانيون كان لهم الدور الأكبر فى وضع رضا خان فى مركز مكته من القيام بانقلاب ٢١ فبراير عام ١٩٢١ الأمر الذى وضع السلطة الفعلية فى يديه. فى ٢٣ فبراير ذكر أيرونسايڊ، الذى كان ببغداد آنذاك، فى مذكراته "أتخيل أن الجميع يعتقدون أنني قد هندست الانقلاب العسكرى، وأعتقد أنني فعلت بمعنى محدد".

فى إبريل، انسحبت "قوة جنوب غرب فارس" من طهران وتركت وراءها أسلحة صغيرة، ذخائر، مدفعية، وحيوانات - هدايا لقوزاق رضا. وعلى الرغم من أن أيرونسايڊ كان قد حذر نورمان المتشكك قبل الانقلاب، إلا أن كثيرا من المسؤولين البريطانيين تفاجئوا. تحول هذا إلى استياء حينما قام سيد ضياء الدين طبطبانى، رئيس الوزراء الذى عُيّن مؤخرا، وكان قبل ذلك رئيس تحرير إحدى الصحف، باعتقال أصيقاتهم الأقوياء الأثرياء، على الأرجح لإجبارهم على دفع ثرواتهم التى اختلسوها. لكن سيد ضياء الدين مضى يمارس إصلاحات اقتضت أحد أمرين كلاهما بغيض: قروضا أجنبية أو مزيدا من الضرائب- وغدا تحالفه الذى توسط فيه نورمان مع رضا، الذى أصبح وزير الحرب، قصير الأجل. تخلص منه رضا بدعم من الشاه والوزير السوفييتى المفوض. علقت جرتروڊ بل من بغداد، يوم ٢٩ مايو قائلة: "أخبارنا هذا الأسبوع فارسية بشكل رئيسى. سيلقى سقوط سيد ضياء الدين بلاد فارس فى بوتقة انصهار، وأخشى أن السائل الناتج سيكون شديد الانفجار. أطاح به قائد فرقة القوقاز، شخص يدعى رضا خان وهو جندى جاهل ليست له أية قدرة على الإدارة، ويعمل جاهدا على إقامة ديكتاتورية. وبمجرد انسحاب قواتنا، استولى على السلطة الفعلية فى البلد".

كان من أولى إجراءات النظام الجديد استدعاء المجلس الذى رفض أعضاؤه

معاهدة كيرزن، وتعهدوا فعل هذا في ذات اليوم الذي وقّع فيه مبعوثو بلدهم معاهدة روسية/فارسية (كان البلاشفة، في خطوة محسوبة لكسب استحسان الفرس وتقويق التوسع البريطاني، قد ألغوا بالفعل معاهدة ١٩٠٧ الأنجلو/روسية، وأعلنوا المزايم القيصرية جميعها باطلة وكأن لم تكن). أذعن كيرزن لفشل سياسته رغم أنه فضل إلقاء اللوم على الآخرين زاعماً أن سحب القوات البريطانية قد حطم ثقة الفرس في استعداد بريطانيا وقدرتها على حماية فارس. أسهب نيكولسون في هذا الصدد حيث قال "كان الأخطر هو فهمه الخاطئ لموقف الرجل الفارسي العادي من روسيا وبريطانيا العظمى. لم يدرك أنه في عام ١٩١٩ كانت بريطانيا العظمى هي من يُنظر إليها على أنها القوة القائمة، وروسيا الصديق المحتمل".

لم يقع أبداً اجتياح السوفييت لفارس كما كان كيرزن ونورمان يخشيان. وعندما أصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة، رفض رضا الإبقاء على أي ضباط بريطانيين، كما عارض وجود المستشارين الماليين البريطانيين الذين كانوا هم أيضاً قد أُجبروا على الانسحاب في مطلع شهر سبتمبر. سجّل وزير الشؤون الشرقية، غاضباً، ما يلي "إن عدااء الجماهير المزعوم، والانطباع بأن البريطانيين مسئولون عن الانقلاب العسكري، أدى إلى الاعتقاد بأنه من المستبعد للنظام الحالي أن ينجح". ومنذ آنذاك، نظر غالبية الفرس إلى الانقلاب كبرهان على غدر بريطانيا. وأنهى سوء تعامل كيرزن مع المعاهدة الأنجلو/فارسية، عملياً، عقدين من الهيمنة البريطانية على الشؤون الفارسية.

بعث كيرزن السير بيرسي لورايين إلى طهران، التي غدت ينظر إليها على أنها "مقبرة الطموحات الديبلوماسية"، ليحل محل نورمان الذي كان قد استدعى وجعل منه كبش فداء لعدم التصديق على المعاهدة. كان السير بيرسي الذي درس وصقل في كلية إيتون، ونيوكوليدج أكسفورد، يجيد الألعاب - البولو، الهوكي، البريدج والطاولة. كان مُجدداً، حريصاً، متباعداً، نزاعاً إلى كتابة الرسائل الطنانة - خلع

عليه زملاؤه بوزارة الخارجية اسم "پيرسى المُلّ". أعجب الوزير المفوض الجديد، من الوهلة الأولى، برضا لصراحته وأبلغ كيرزن يطرق فوراً ما يريد قوله، لا يضع الوقت في تبادل المجاملات ذات العبارات الرقيقة وعديمة الجدوى في أن والتي يولع بها الفرس... رجل جاهل غير متعلم، لكنه لا يشى بأى تعلّم في السلوك أو خُجل، يمتلك قدراً كبيراً من الجلال الفطري، ولا يُستشف من حديثه أو ملامحه أى انعدام لضبط النفس".

ولأنه رأى رضا خان فائزاً محتملاً، اقترح لوراين اتباع سياسة حيادية جديدة. تلقى خطاباً مؤيداً مطمئناً من چرتروود بل في بغداد "يبدو أن سياسة الجلوس بتباعد ستعمل على الدفع قدماً بمصالحنا أكثر من أى دفاع حماسى عنها. غير متأكدة أنا ما إن كان هذا لا ينطبق على الشرق بعامة. إذا لم نفرض أنفسنا عليهم، فمن المؤكد أنهم سيتوجهون إلينا". وعن هذا أجاب لوراين بإبرار وإع "كل ما أشعر أننى متيقن منه هو أننى أتبع الخط الصواب والوحيد الذى يحتمل له أن يوصل البضاعة، وإن يكن ليس بالشكل والأسلوب المعبدين اللذين قد يروقان للورد كيرزن أو كما يتوقعه. على الفرس أن يتعلموا بأنفسهم، وإذا أردناهم أن يفعلوا ذلك فمن غير المجدى التدخل فى شئونهم، ناهيك عن التدخل والتظاهر بأننا لا نفعل. هذه السياسة بدأت تحدث أثراً. ومعسكرى، وبالرغم من صمته وجبنه، أخذ فى النمو باضطراد".

لكن، وعلى الرغم من قسّمه على عدم التدخل، دعم لوراين رضا بأساليب عديدة مهمة. أقتنع لندن بإقراض رضا النقود لجيشه، والذى كان قد بلغ تعداده ثمانية عشر ألف جندي؛ أقر مهمة الأمريكى إيه. ميلسپو لإصلاح أمور فارس المالية وتقويمها؛ وإنحاز إلى رضا ضد حليف بريطانيا الشيخ خزال.

تعتبر قصة علاقات بريطانيا العظمى بخزال، شيخ المحمرة، شائنة حتى وفقاً للمعايير الإمبريالية الفجة. فى عام ١٩٢٦، قدم خزال الذى كانت أراضيهِ القبليّة

تضم (إلى جانب عبدان حيث توجد معامل التكرير) جزءاً من المساحة حول البصرة، قدم نفسه كمرشح للعرش العراقي. ثم في عام ١٩٢٢، اقترح تقسيم إيران ورشح نفسه حاكماً لجنوب فارس في المستقبل. استبقه رضا خان الذي كان مكرماً لحكومة مركزية قوية بإجراء دفاعي، بأن زعم أن الشيخ توقف عن سداد مبلغ كبير من المال ضرائب مستحقة لطهران، فيما زعم خزال بعبوره أنه قد دفع مبلغاً مماثلاً نفقات دفاع عن حدود فارس الجنوبية أثناء الحرب. في عام ١٩٢٣، استقبل سعادة الشيخ السير خزال خان، لوردين في المحمرة وتحدث عن ويلسون وكوكس وعن ولائه لبريطانيا. (كان خزال قد برهن على أنه صديق موثوق، ودافع عن مصالح بريطانيا النفطية ومنشأتها أثناء الحرب، وفي عام ١٩١٩، أهداه البريطانيون سفينة بخارية نهرية، وأربع مدافع جبلية، ومدافع لإطلاق التحية في المراسم والمناسبات، وثلاثة آلاف بندقية من أحدث طراز نظير خدماته). كان لوردين يحمل رسالة من رضا خان أكد فيها أنه لا يكن للشيخ نوايا خبيثة، وأنه يُعول على تعاونه. حاول لوردين أن يكون وسيطاً، وانتزع اعتذاراً متواضعاً من الشيخ، ووعداً (حَث به فيما بعد) من رضا خان بعدم العبور إلى أراضي الشيخ بخوزستان. لكن في ربيع عام ١٩٢٤، دعا خزال البختياريين والقشاجيين إلى الانضمام إليه لمقاومة الحكومة. مازال من غير الواضح ما إن كان خزال قد توقع دعماً بريطانياً. لكن رضا خان رد على هذا الإجراء بحشد جيش كبير على حدود خوزستان.

تُرِكَ اللوردين أمر تقرير الوفاء بعهود بريطانيا التي قطعها بيرسي كوكس وأرنولد ويلسون (الذي كان آنذاك قد أصبح يترأس عمليات APOS في الخليج الفارسي) على نفسيهما بإرسال قوات من الهند لمساعدة خزال وعدم السماح لرضا بأن يهيمن. انصاعت المبادئ للذرائعية والمنفعة، ولم يحرك البريطانيون ساكنات فيما تقدم رضا خان واستسلم خزال لقوات خان التي تفوق قواته عدداً. وودع الشيخ رضا خان بولائه وأقسم على دفع الضرائب المستحقة المتأخرة.

وعلى الرغم من ذلك، تم إلقاء القبض عليه وحُمل إلى طهران. وكما كان السير أير كرو، و كيل ووزارة الخارجية الدائم، قد حذر لورين، فقد كانت بريطانيا دولة قليلة التسلح.. يعارض الرأي العام فيها أى استخدام للقوة فى أية ظروف - سواء كان ذلك فى حال القضية العادلة، أم الخطأ. ونظراً لدعمه الجواد الرابع كوفى لورين بمنحه مرتبة الفروسية، وإحدى كبرى جوائز الإمبراطورية: أصبح مندوب بريطانيا السامى فى مصر والسودان فى عام ١٩٢٩. لكن، وكما اعترفت جرتروود بل، فإن لورين قد خدع رضا خان لورين تماماً فيما يتعلق بشيخ المحمرة رغم أنه ماضٍ فى كتابه عدداً ضخماً من الرسائل ليثبت أنه لم يخدعه. قد يكون قد نجح فى إقناع حكومة جلالة الملك بذلك، رغم أنه لم يقتنعنا. ظل الشيخ رهن الإقامة الجبرية فى طهران إلى أن توفى فى ظروف ملتبسة عام ١٩٣٦. (اتخذ وريثه عبدالله خطوة حكيمة بأن هرب إلى العراق). ظلت بل تنتقد دور حكومة جلالة الملك فى العملية (هذا على الرغم من أن السير بيرسى كوكس كان هو من أجرى التفاوض فى البداية): كان من المؤسف أننا كنا معتادين على الدخول بخفة فى ارتباطات سيكون تنفيذها بالغ الصعوبة لدى الحاجة إلى ذلك. بالطبع، فقد خذلنا الشيخ، لكن أكان من الممكن لأية حكومة أن تدخل فى حرب مع بلاد فارس.. من أجله؟ كانت حكومة جلالاته على استعداد، فى لحظة الخطر الحاسمة، أن تستدعى فرقتين من الهند، بتكلفة مرتفعة، وفى تلك اللحظة كنا متورطين فى مازق بمصر وكانت فكرتهم الوحيدة هى تحاشي أية التزامات أخرى.

كان إخضاع خزأل الخطوة الأخيرة فى توحيد رضا خان لإيران، والآن، أعطى لورين الضوء الأخضر لرضا خان ليرتقى العرش. حينما أُبلغ بأن رضا خان يريد التخلص من القاجار لكنه كان يخشى ألا توافق لندن، أبلغ لورين المسئول الذى حمل الرسالة عن نفسه لم أعرف ما كان يأمل رضا خان فيه أكثر من موقفنا الموالي الودى، وعدم التدخل التام. وحينما قام المجلس بخلع الشاه القاجارى،

وبعد أربعة أشهر توج رضا نفسه بصفته رضا شاه بهلوى شاهنشاه بلاد فارس، جاء تعليق وزارة الخارجية "لقد مرت الثورة بهدوء". لكن، حينما سقط الملك المخلوع، فقد البريطانيون امتيازاتهم، محاكمهم القنصلية الثلاث وعشرين، مرافقيهم من جنود السوار، تحيتهم العسكرية بالمدافع، قواعدهم البحرية الفارسية، ومقر المنوب السامى المستقل ذى السيادة ببوشاير.

من كان رضا خان، الذى، وبدعم من البريطانيين، تولى الدور الرئيسى على المسرح السياسى بفارس؟ ولد عام ١٨٧٨ بقرية الشط الصغيرة بالشمال لأب فارسى وأم قوقازية تتحدث التركية. فى الخامسة عشرة، وكان لم يتلق أى تعليم تقريباً، تطوع صبيّاً بأسطبلات الفيلق القوقازى، وبفضل ديناميته وقدراته الطبيعية وصل إلى رتبة كولونيل فى عام ١٩١٥. اكتسب صيتاً "كرجل مطافئ": أى كشخص يخمد الاضطرابات أو يطلق اللصوص ويجمعهم. كان فى الثالثة والأربعين وقت الانقلاب.

قبل أن يؤسس سلالة بهلوى الملكية، كان رضا خان قد غازل فكرة إعلان جمهورية على غرار كمال أتاتورك، الجندى/ الإصلاحى التركى الذى كان يسعى رضا إلى محاكاته. زعم ملك الملوك أنه حاكم بالرغم منه، وافق على اعتلاء العرش فقط بناء على إلحاح الملالي الذين اعتقدوا أن الأمور فى بلاد فارس المحافظة ستكون أفضل فى ظل حكم الشاه منها فى ظل حكم ديمقراطى. آنذاك كانت الأقاب الملكية قد انتشرت فى هواء الصحراء - الملك فيصل، الملك ابن سعود، الأمير عبدالله. من ثم، اختار رضا اسم "عرش الطاوس". هذا الخيار يوحى بمقدار الفرق بين الرئيس أتاتورك ورضا شاه. أراد رضا كلتا الحسنيين: الحفاظ على الامتيازات الإقطاعية مثل الولاء، وأيضاً السعى للمكانة الكوكبية بصفته عاهل فارس المستنير التحديثى.

وعلى غرار أتاتوك، أنشأ رضا شاه جيشاً قومياً موحداً قوياً. أدمج البلد ومدّ

خطوط السكك الحديدية في بحر قزوين إلى الخليج الفارسي (الأولى في بلاد فارس)، أنشأ ٢٥٠٠ مدرسة وعديدا من المستشفيات ومصانع أسمنت ونسيج تعمل بالطاقة وزودها بخطوط كهربائية جديدة. علاوة على هذا، أرسل بعثات للدراسة بالخارج وبخاصة في الجامعات الألمانية والفرنسية. نزع أسلحة القبائل وقوض سلطة العلماء، واصطدم مع الملالي حول زى المرأة - عمل على إصدار قانون في عام ١٩٣٩ منَع النساء اللاتي يرتدين الشاور من الدخول إلى الفنادق، المطاعم، دور السينما، الحافلات، والتاكسيات، وقد أثبت هذا القانون عدم شعبيته وسرعان ما ألغى. منع الطرابيش والسرداريات، بلاطى الرجال التقليدية. ألغى الانقلاب التى كانت تُمنح لمسئولى الحكومة مثل: مساعد الملكة والمدافع عن السيادة- وكما فعل أتانورك، أمر بأن يضاف لأسماء الأفراد الذين لا يحملون سوى أسمائهم الشخصية وأسماء آبائهم لقباً ولكن اسم مكان أو حرفة. أيضا سعى إلى تجسيد الروابط مع إمبراطويات فارس قبل الإسلامية (اكتسبت سلالاته اسم بهلوى من اللغة التى كان يتحدث بها الساسانيون). أصر على إحياء اسم 'إيران' القديم اسما لبلده، وهكذا أصبحت APOC عام ١٩٢٥ شركة النفط الأنجلو/إيرانية.

كانت نزوات رضا شاه لا تُحصى، وذاكرته استثنائية، وتعطشه للثأر مضربا للأمثال، وجُلده رقيقا كنسيج العنكبوت. لم يُسمح لنظام دستورى انتخابى أن يتجذر في ظل أسرة بهلوى، وهذا انحراف آخر عن نموذج أتانورك. لم يستطع الشاه، الذى لم يكن قد سافر إلى الخارج، استيعاب مفهوم الصحافة الحرة. وحينما اكتشف رضا أن الإيرانيين كانوا مازالوا يستخدمون طوابع بريد تحمل صورة أحمد شاه المخلوع، أرسل قواته لمصادرة الكمية الموجودة كلها. ظلت إيران لمدة أسابيع دونما طوابع بريدية، ونظرا لأن الطوابع الجديدة التى تحمل صورة رضا تأخرت في الوصول من هولندا، اقتضى الأمر استعادة الطوابع القديمة

وتداولها لكن بعد طمس صورة الشاه المنفى.

كان أحد الإصلاحات الأكثر إثارة للجدل هو السماح لملاك الأراضي بمصادرة الأرض من الفلاحين التي آل الكثير منها إلى العرش. ذاعت على نطاق واسع أنباء شهية الشاه المُرَضِيَّة للأرض بدرجة أن الفرنسيين سخروا منه في رسم كاريكاتوري يصور "Le chat de Perse" (Chat تعني قطة بالفرنسية وتُنطق شاه) يلتهم إيران. وحتى البريطانيون شعروا بخيبة الأمل في رجلهم. كتب جودفري هافارد، وزير الشؤون الشرقية عام ١٩٢٧: "أصبح الشاه مكروها لأقصى درجة. إنه أسوأ ألف مرة من أحمد شاه من حيث حبه للأموال والأراضي، وخلال العامين منذ أن نودي به شاهًا، راكم ثروة ضخمة ضخمة".

وفقا لاي من المعايير المنطقية فقد كان غضب رضا شاه العام حول النفط مبررا. كان امتياز دارسي، الذي كان مازال قائما، قد عدل عام ١٩٢٠ (لكن بدرجة متواضعة كما علق الفُرس بمرارة، وذلك بسبب أن السير سيدني أرميتاج سميث مسئول الخزانة البريطاني كان هو كبير المفاوضين عن الجانب الإيراني). وحينما هبط ريع حقوق الملكية بحدة أثناء الكساد الكبير، ألغى الشاه المتحدى في ١٩٣٢ امتياز الشركة من طرف واحد. تبع ذلك أعوام من المباحكات التي لم تؤد إلى نتيجة حاسمة بشأن المظالم الفارسية التي كانت قد ظلت قائمة منذ وقت طويل: وهي أن الشركة فسرت "صافي الأرباح" على أنها تنطبق فقط على عمليات داخل فارس، وأنها تهربت من الضرائب، وأنها منعت ريع حقوق الملكية كتحويض عن فشل فارس الحتمي في منع الهجمات على خطوط أنابيب الشركة أثناء الحرب. هذا علاوة على أن رضا شاه كان مستاءً من اعتراف بريطانيا بمملكة العراق الجديدة على الحدود الغربية لفارس، وهي مملكة اعتبرها "توليفة" إمبريالية. ضاعف هذا كله وعقده وضع شركة النفط شبه الحكومي. ووفقا لتعبير دانييل بروجين، "كان بإمكان إدارة الشركة الأنجلو/فارسية أن تكرر إلى ما لا نهاية أن الشركة كانت تعمل

لكيان تجارى، مستقل عن الحكومة، لكن لم يكن لأى فارسى أن يصدق هذا التاكيد الجازم.

وأخيرا، وبعد توسط عصبة الأمم، وافق الطرفان عام ١٩٣٢ على عقد جديد قلص امتياز الشركة الأنجلو/فارسية إلى ١٠٠٠٠٠ ميل مربع، وحدد ربيع جديد عن حق الملكية بأربعة شلنات عن كل طن من البترول المباع أو المُصدّر، مما ضمن لفارس ٢٠٪ من أرباح حملة الأسهم فى جميع أنحاء العالم التى تتجاوز ٦٧١٢٥٠ إسترليني. ضمنت الصيغة الجديدة عائدات سنوية لفارس قيمتها ٧٥٠٠٠ جنيه إسترليني على الأقل. بدا هذا انتصارا لفارس بما أن الشركة وعدت أيضا بإعادة حساب عائدات حق الملكية عن السنوات السابقة، وبالإسراع فى "قرسنة" قوة العمالة. وفى واقع الأمر، وفيما ارتفعت أسعار النفط وأرباحه ارتفاعا كبيرا فى السنوات اللاحقة، كانت قيمة ضرائب الشركة المدفوعة لبريطانيا حوالى ثلاثة أضعاف قيمة ما تدفعه من عائدات عن حقوق الملكية لإيران، وعلاوة على ذلك، لم تُنَحّ دفاتر الشركة المحاسبية واقعيًا للإيرانيين. ومن ثم ظلت أسعار "قاع الصفقات" (أقل أسعار ممكنة) التى اشترت بها البحرية البريطانية ما تحتاجه من نفط، ظلت سرا.

لا غرو إذن، إذا أخذنا فى الاعتبار مزاجه القتالى وشكّه فى البريطانيين، أن بدأ رضا شاه يتوجه إلى ألمانيا ككُتْلٍ موازن محتمل فى مواجهة بريطانيا والاتحاد السوفيتي. كان الألمان قد بدأوا، فى مطلع العشرينيات، فى التقاطر على طهران: تبرعت فجأة جميعات الصداقة، وبرايمج تبادل الطلبة. تسارع هذا فى الثلاثينيات حينما سعى رضا شاه إلى تقليص حاد فى التجارة مع الاتحاد السوفيتي الذى تزايدت هيمنته. وصل التبادل التجارى مع ألمانيا إلى الذروة فى عامى ١٩٤٠-١٩٤١: أنت حوالى نصف وارداتها جميعها من الرايخ الثالث وذهبت ٤٢٪ من الصادرات الإيرانية هناك. من الصعب التأكد مما إن كان رضا شاه، أيديولوجياً،

موالياً للنازيين. أصر ابنه وخليفته محمد رضا بهلوى على أن هذا كان زيفاً، رغم أن صياغته لهذا كانت أقرب إلى القدر: "لم يثق والدى فى هتلر منذ البدايات الأولى، إن لم يكن لآى سبب آخر سوى أنه، كحاكم سلطوى كان عميق الشك فى نظيره الذى استخدم مثل تلك الأساليب الوحشية.. من الحقيقى أننا كنا نستخدم عددا من التقنيين الألمان، لكن وظائفهم لم تكن لها أية علاقة بالسياسة".

على أية حال، فقد أصبح رضا شاه يبغض بريطانيا وروسيا معا ولا يثق بهما، ويذا وأن حساباته انتهت به إلى أن هتلر سيهيمن. ومما لا جدل فيه أن الحلف النازى - السوفييتى لعام ١٩٣٩ أفقده توازنه، ولا شك أيضا أنه كان صادقا فى تكبده على رغبة إيران فى البقاء على الحياد لدى اندلاع الحرب فى الشهر التالى. كما أنه بالإمكان فهم تشوشه وارتباكك بعد اجتياح ألمانيا للاتحاد السوفييتى فى يونيو عام ١٩٤١ حينما أصبح الروس والبريطانيون حلفاء. فى ذاك الصيف أصدروا إنذارا لفارس (كان تشرشل قد أصدر تعليماته لمسئولى باستخدام اسم البلد القديم لأنه كان ثمة نزوع لدى القوات المسلحة للخط بين العراق وإيران) يطلبون فيه طرد جميع الألمان. وتبع الجنرال أرشيبالد ويقل الإنذار بأن كتب للشاه قائلا: "إن كانت الحكومة الحالية على غير استعداد لتسهيل ذلك، فلا بد من جعلها تتنحى لأخرى تضطلع بذلك". والأهم من ذلك أن البريطانيين اعتقدوا أن إيران كانت ضرورية للدفاع عن الهند، وحينما انضمت الولايات المتحدة للحرب غدت إيران الطريق الذى كانت الإمدادات تصل منه إلى الاتحاد السوفييتى. وحينما لم ينفذ رضا شاه الإنذار، اجتاحت القوات البريطانية إيران فى ٢٥ أغسطس عام ١٩٤١. قصفت البحرية البريطانية موانئ إيران جنوب الغربية، وتدفق ٢٥٠٠٠ جندي بريطانى على أقاليم إيران الجنوبية. عبر السوفييت حدود أذربيجان بقوات يقدر عددها ١٢٠٠٠٠ جندي، وقصفت قواتهم الجوية تبريز. وتحت وقع الانسحاق انهار الجيش الإيرانى فى غضون يومين وتوسل السلام. تنحى الشاه موضحا لابنه

لا أستطيع أن أكون رئيسا اسميا لدولة مُحققة يُملَى على فيها الأوامر ضابط صفيح إنجليزى أو روسى.

سرعان ما نادى المجلس بمحمد رضا بهلوى، الذى كان فى الحادية والعشرين، ملك الملوك الجديد فيما كانت القوات البريطانية والسوفييتية تدخل طهران. وُضع الشاه السابق ومعه أسرته على متن سفينة بريطانية اتجهت إلى جزر الموريشيوس بالمحيط الهندي، حيث تلا عليه الخبران المحنكان فى لعبة القوة الأوراسية (الأوربية الآسيوية)، السير كلارمونت سكرارين، نائب القنصل السابق بكرمان، والسير أولاف كارو، حاكم حدود الهند البريطانية الشمالية الغربية فى المستقبل تليها عليه التعليمات والأوامر بأسلوب مهذب. اشتكى رضا شاه من مناخ موريشيوس غير الصحى، وبعد بعض التفاوضات، نُقل إلى جوهانسبرج بجنوب إفريقيا حيث وُضع رهن الإقامة الجبرية حتى وفاته من أزمة قلبية عام ١٩٤٤.

أما عن صناع الملوك، فقد تَوَجَّ السير بيرسى كوكس حياته الوظيفية بتعيينه مندوبا ساميا بالعراق. مُنح وسام الفروسية GCMG عام ١٩٢٢، وترأس لجنة قمة إفرست. وأصبح رئيس الجمعية الجغرافية الملكية فى عام ١٩٣٣. سعى الأباء العراقيون جيلا من أطفالهم "كوكوس" تكريما لذكراه. رفض كيرزن لقاء هرمان نورمان بلندن بعد استدعائه هناك فى أعقاب كارثة المعاهدة. رفض نورمان تعيينه وزيرا مفوضا فى سنتياجو وتقاعد عام ١٩٢٤. ولدى نهاية الحرب، كان السير بيرسى سايكس الذى جاهر بمعارضته للمعاهدة عام ١٩١٩، قد عمل بذلك على نفور كيرزن منه الذى حرّسه على ألا يُعين سايكس فى أى منصب آخر. أيضا، كان قد تسبب فى غضب وزير الخارجية السير آرثر بلفور بسبب غطرسته من أجل خدمة مصالحه الذاتية. استُدعى سايكس إلى لندن ثم تقاعد من الجيش. شغل سنوات تقاعده بالكتابة واللقاء المحاضرات والمراجعات حتى وفاته عام ١٩٤٥؛ كان أيضا قد عمل سكرتيرا شرفيا لجمعية آسيا الوسطى الملكية. ترقى السير بيرسى

لوريان في سلم السفراء وانتهى به المطاف في روما . لكن نجاحه في تربية الخيل، وكان هو أول من اعترف بذلك، غطى على إنجازاته السياسية (كان قد دعم استرضاء إيطاليا وفشل في الحيلولة بينها وبين دخول الصرب). أتى ترتيب داريوس، أحد خيوله، الثالث في سباق ديربي. مازال شعار نبالته كفارس من مرتبة سان مايكل وسان جورج معلقاً بكنيسة هكسام، في نورثمبرلاند. أما المتباهى الماجور جنرال السير إدmond أيرونسaid، فقد تلقى، لدى رحيله، أرفع أوسمة الفرس من الشاه، أي وسام الأسد والشمس. استُدعى من إيران ليعين رئيس الأركان العامة الإمبريالية، لكن ثبت أن التعامل معه كان أمراً صعباً. أقاله رئيس الوزراء نقيل تشامبرلين في يناير ١٩٤٠ . أشرف في شهرى مايو ويونيو من تلك السنة الكثيبة، على آخر انسحاب له، الجلاء عن دنكيرك. ويعيد ذلك مباشرة منح رتبة الفيلدمارشال (المشير) وتلقى عصا الرتبة. عُنِيَ بعد ذلك قائدا للقوات الداخلية، لكنه تشاجر مع تشرشل الذى فضّل إدارة حروبه بنفسه. تقاعد الفيلدمارشال فجأة لكنه مُنح مرتبة البارون عام ١٩٤١ وأصبح البارون أيرونسaid. توفى عام ١٩٥٩ وشيّع في جنازة شرفية عسكرية كاملة، بما في ذلك طلقات المدفع الواحدة وعشرون للتحية، وقُداس بكنيسة وستمينستر.

الفصل العاشر

الأمريكي الهادئ

كرميت (كيم) روزفلت الابن

(١٩١٦ - ٢٠٠٠)

"أتوا وسطنا، هؤلاء الجواسيس الأمريكيون الطموحون، مثل فتيات برثيات
تخرجن لتوهن في مدارس تعليم السلوك الراقى، أتوا كي يتعلموا الأساليب
المنكئة المشبوهة للقدامى الممارسين - في هذه الحالة وكالة الاستخبارات
البريطانية الأسطورية"

- مالكولم ماجريدج

حوليات الزمن الضائع (١٩٧٣)

- "أبنيُ بعرضي لله، لشعبي ولجيشي - ولك..."

- محمد رضا شاه لكرميت روزفلت

مجتزأ ورد في كتاب "الانقلاب المضاد: الصراع للتحكم في إيران" (١٩٧٩)

‘كان النهار لزجاً والأمطار توشك أن تهطل. توقعاتي عالية، لكن كان يصحبها وخزات رعب. في هذا اليوم ٢٥ يونيو ١٩٥٢، سيتم تقرير مسيرة الأحداث، هل ستبقي الخطة التي اتفقت عليها مع البريطانيين، غير القاطعة في ذهني، والمحسومة في أذهانهم؟’. هكذا بدأ كتاب كرميت روزقلت “الانقلاب المضاد” (١٩٧٩) الذي سرد فيه تفاصيل “الصراع للتحكم في إيران”. كان رئيس عمليات الشرق الأدنى في وكالة الاستخبارات المركزية في طريقه لحضور اجتماع بمكتب جون فوستر دالاس وزير الخارجية، ويحمل معه خطة من اثنتين وعشرين صفحة بها تفاصيل “عملية أجاكس” التي كانت تهدف إلى الإطاحة بالحكومة الدستورية بطهران وإحلال شخص آخر محل رئيس الوزراء الدكتور محمد مصدق. كان جون فوستر دالاس وشقيقه الأصغر آلن دبلو دالاس مدير الاستخبارات المركزية، على علم تام بالتهديد السوفييتي لإيران، وكانا أيضاً شريكين في مؤسسة سوليفان وكرومويل القانونية

والتي كانت تمثل قائمة من كبرى الشركات متعددة الجنسية بما فيها شركة النفط الأنجلو إيرانية. كان آلن دالاس، قد قضى سنوات الحرب في بيرن بسويسرا حيث حصل على شاراته الاستخباراتية فيما كان يعمل بمكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS). وبعد الحرب، ساعد في إنشاء المي سي أي إيه عام ١٩٤٧، متبعا الأسلوب البريطاني، بتجنيد أفضل الرجال من جامعات النخبة. كان دالاس، والذي كان يضع نسخة من رواية كيبلينج "كيم" بالقرب من فراش موته، يؤمن تماما بفكرة أن بإمكان بضعة رجال متميزين، وباستخدامهم رافعات خفية في المكان والزمان الصحيحين، أن يحركوا العالم.

كان مجنده اللامع، والذي كان في طريقه الآن إلى مكتب دالاس، هو كيرميت (كيم) روزفلت، في السابعة والثلاثين، حفيد تيودور روزفلت، وابن بل ويلارد (ابنة سفير الولايات المتحدة بإسبانيا) وكيرميت الأب، الرحالة والجندي المرموق كان

كرميت أيضا ابن عم، من بعيد، لفرانكلين دى. روزفلت، وكان قد وُلد في بيونس آيرس، وتبع خطوات بقية الذكور في عائلته بأن التحق بمدرسة جروتون، بماساتشوستس ثم بجامعة هارفارد حيث تخرج بدرجة امتياز في عام ١٩٣٧، تزوج ماري "بولي" جانيز وأنجبا أربعة أطفال. وفيما كان يدرس بهارفارد، وبمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، درس أيضا للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ، وكانت رسالته بعنوان "أساليب البروياجندا في الحروب الأهلية الإنجليزية" وعكست اهتمام حياته بكيفية استغلال الإعلام. كتب كرميت أيضا مقالا عن نوع التنظيم الاستخباري السري التي ستحتاجه الولايات المتحدة في حالة نشوب حرب. أرسل نسخة من المقال لقرينه جوزيف ألسوب الشيوعي، الذي اقترح عليه إرساله إلى رئيس OSS، المajor جنرال ويليام بونوقان.

بعد الحرب، التحق كيم بالسي آى إيه التي كان يعمل بها بالفعل عدد كبير من الجواسيس "الجنتمن"، وسرعان ما ترأس قسم الشرق الأدنى وإفريقيا وكان مقره القاهرة. وصف كيم" الثاني، أى إيتش إيه. آر. فيليبى زميله "الأمريكي الهادئ" بأنه "مستشرق دمث، خفيض الصوت، روابطه الاجتماعية راقية لا تشوبها شائبة، جيد التعليم أكثر من كونه مثقفا، كئيس ومتواضع كمضيف وضعيف.. وحقا، فهو آخر شخص ممكن أن تتوقع أن يكون غارقا حتى رأسه في الحيل القذرة". لكن روزفلت ونائبه رونالد ويلبر ومايلز كويلاند، مثلهم مثل فيليبى، أصبحوا مشاركين رئيسيين في جاسوسية الحرب الباردة. ووفقا لكويلاند، فإن نزوع روزفلت للمغامرة، هو ما حفزه في اختياره لحياته الوظيفية.

كان الحضور الآخرون بالملابس الرسمية في ذلك الاجتماع بوزارة الخارجية هم الأخوان دالاس، لوى هندرسون سفير الولايات المتحدة بطهران؛ تشارلس ويلسون، وزير الدفاع؛ الجنرال والتر بيدل "بيدل" سميث، وكيل وزارة الخارجية، روبرت بوى مدير العاملين بتخطيط السياسة في وزارة الخارجية؛ هنرى "هانك" بايرون، وكيل

وزارة الخارجية لشئون الشرق الأدنى، وإفريقيا وجنوب آسيا، وروبرت دى. مورفى، نائب وكيل الخارجية للشئون السياسية وأحد جنود الحرب الباردة البارزين.

عرض دالاس وروزفلت الخطوط العريضة لسيناريو "أچاكس" الذى استند على خطة بريطانية اسمها الكودى "عملية بوبت"، راجعها دونالد ويلبر، عالم الحفريات، والمؤرخ المعمارى، وهامى جمع السجاد، ورجل الاستخبارات البريطانية بطهران. كان هدف العملية كما وضع ويلبر تفاصيلها طبقاً لنسخة السى آى إيه الرسمية المهمة هو "التسبب فى سقوط حكومة مصدق؛ وإعادة ترسيخ مكانة الشاه وسلطته؛ وإحلال حكومة تحكم إيران وفق سياسة بناءة محل حكومة مصدق. وتحديدًا، كان الهدف هو الإتيان إلى السلطة بحكومة تتوصل إلى تسوية نفطية مُنصفة، تمكن إيران من أن تصبح مستقرة اقتصادياً، قادرة على الوفاء بالتزاماتها المالية، والتى يُمكنها بنشاط وفاعلية محاكمة الحزب الشيوعى القوي لدرجة الخطورة".

وفى نهاية العرض، طلب دالاس من الجميع الإدلاء بأرائهم. أيدت الغالبية الخطة بدرجات متفاوتة من الحماس. فقط ظل موقف بوى وبيايود من وزارة الخارجية ملتبساً. ومن الواضح، ووفقاً لروزفلت، لم يكن السفير هندرسون مسروراً. قال "لا يعجبني مثل هذا العمل بإطلاقه. لكننا نقف فى مواجهة وضع بائس وخطر، ورجل مجنون على استعداد للتحالف مع الروس. ليس لدينا خيار سوى المضى قدماً فى هذه المهمة. وليكتب لنا الله النجاح". وإذا كان لنا أن نصدق مذكرات روزفلت، فحينما تمت المصادقة على خطة "أچاكس" وانفض الاجتماع، نظر دالاس حول الغرفة وقال "انتهى الأمر؛ فلنبدأ".

كان الأمريكيون، ومنذ انتهاء محاولة مورجان شوستر القضاء على الفساد الفاضح فى جباية الضرائب بفارس عام ١٩١١، كانوا قد ظلوا محبوبين فى إيران.

تذكر الأشخاص الفارسيون الأكبر سناً أن ووبرو ولسون كان قد دعم طلب فارس (والذي استخدمت ضده بريطانيا حق الفيتو بصفته تدخلًا) لمخاطبة مؤتمر باريس للسلام من أجل الحصول على تعويضات عن الأضرار التي لحقت بها أثناء الحرب. وأيضاً كان ثمة مستشارون أمريكيون أثناء صعود رضا شاه: في عام ١٩٢٢، وصل الاقتصادي الأمريكي آرثر ميلسبوه مع مجموعة من مواطنيه لإعادة محاولة حفز إصلاح مالي بإبخال عدة ضرائب وإلغاء الإعفاءات التي كانت تُمنح لوجهاء فارس وورثتهم. ووفقاً لاتفاق مسبق تلقى رضا خان، وزير الحرب وقتئذٍ، نصيب الأسد من العائدات لجيشه. لكن بعد انتهاء عقد الأمريكي الذي كانت مدته ثلاث سنوات (نُقِلَ عن أحد الزوار البريطانيين أنه قال يُعير ميلسبوه شئون فارس بنفس الأسلوب الذي يدير به كرومر شئون مصر) تم إلغاؤه لعدم وصول الفيز المتوقع من رأس المال الأمريكي، أي السبب الأصلي وجود ميلسبوه.

كان البريطانيون يحترزون لعدم انتهاك منطقتهم الخاصة والمشاركة في الغنائم. قوبلت معاهدة اللورد كيرزن الأنجلو/فارسية بالاستياء في واشنطن، وأصدر روبرت لانسينج وزير الخارجية التعليمات إلى سفيره في واشنطن جون دايفيز بإطلاع كيرزن على عدم رضا أمريكا، لكن وزير الخارجية البريطاني الذي لم يستطع أن يستوعب الموقف، أعطى محاضرة للرسول الذي أبلغه الرسالة، أي الدبلوماسي الأمريكي كورنيليوس إنجرت، جاء بها "سبينو من الطبعي جداً لى شخص مطلع على الأحوال في فارس وطبيعة شعبيها أن تتوجه إلينا فارس للإرشاد والدعم. لقد عرفناهم ربما بأفضل مما عرفهم أى أحد آخر، وقد فعلنا الكثير من أجلهم، وأنفقنا نقوداً في بلدهم بما يفوق ما أنفقته أى أحد آخر أو فعله، ثم ثم، ليس بوسعي أن أفهم أن تعترض الولايات المتحدة، أو أية قوة أخرى علي وضعنا في فارس. يبدو أنكم ترون من المسلمات أن الشعب الفارسي يتوق بحماس للأمريكيين كي يساعده. لكنكم مخطئون تماماً في هذا: يطلب الفرس فقط الأموال الأمريكية كي ينفقوها حسب ما يترأى لهم".

كان يكمن خلف شقاق شريكى الحرب العالمية الأولى الشبهة فى رغبة الولايات المتحدة فى الحصول على امتيازات نفطية بالشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن ستاندارد أويل كانت قد زودت الحلفاء بربع حاجتهم من النفط، لكن بنهاية الحرب، كانت أصول أمريكا الثابتة من النفط فى طريقها إلى النضوب سريعاً. كانت علاقة الصب بين الولايات المتحدة والسيارات قد تمكنت منها وكان من الواضح أن على أمريكا البحث عن آبار نفط أجنبية. كان أحد الحلول المحتملة تكمن فى العراق وفارس. لكن احتياطي العراق لم يكن قد عُرف بعد، وكانت جميع الامتيازات الموجودة تملكها شركة النفط التركية التى كانت تتكون من اتحاد شركات تركى لم يتبلور بعد، رغم أنه بدأ وأن زمام أموره كانت فى قبضة شركة النفط الأنجلو/فارسية. ولفترة من الزمن بدا من المحتمل لستاندارد أويل الأمريكية، بدعم من المجلس (مجلس النواب الإيراني) أن تفوز بامتياز خمسين عاماً فى شمال إيران، لكن بريطانيا استدعت حقوقها الحصرية فى النفط الفارسى. ثم واجه البريطانيون الموقف بأن قدموا لستاندارد أويل أوف نيوجيرسى صفقة مشروع مشترك مع APOC . لكن فى ١٠ يونيو عام ١٩٢٣، أصدر المجلس قانوناً يمنح الحكومة سلطة التفاوض على امتياز المنطقة الشمالية مع أية شركة أمريكية مستقلة مسنولة بشرط أن تستطيع الشركة توفير القرض المقدر بعشرة ملايين دولار كاملاً. حظر بند آخر نقل الامتياز إلى أية شركة غير أمريكية، مما قضى على احتمال مضاربة مشتركة بين APOC شركة النفط الأنجلو فارسية وستاندارد أويل، ثم ظهر راعب آخر فى الامتياز. نالت شركة سينكلير النفط دعم المجلس، وبمع تشارلس إيفانز هيويز وزير الخارجية، لكنها لم تستطع توفير الأموال الأساسية المطلوبة.

لدى انتهاء الحرب العالمية الثانية فى أغسطس ١٩٤٥، كانت منطقة شمال إيران

تقع على الهامش، بعيداً عن مرأى الحلفاء، لكنها كانت حاضرة بقوة في ذهن ستالين. لم يكن ثمة خط مُستمر قد ظل حاضراً بقوة في السياسة الخارجية السوفيتية أكثر من خط اللعبة العظمى ومن تصميم قائد السوفييت على استعادة ملكية كل "شقة" أرض كان قد طالب بها القيصر. كان ستالين قد بدأ تاريخه اللوثيقي الثوري بعمله مُنظماً للاتحادات العمالية في حقول نفط باكو. كان مطلعاً على جغرافية أقاليم آسيا الداخلية، ومدركا لأهمية النفط الاستراتيجية - فشل هجوم هتلر على روسيا، جزئياً، بسبب عدم استطاعة مدرعاته الوصول إلى حقول نفط القوقاز. اعتقد ستالين أيضاً أن شمال إيران يجب أن تكون ضمن منطقة النفوذ الروسي وفقاً لما نصت عليه الاتفاقية الأنجلو روسية لعام ١٩٠٧.

من ثم كانت الأزمة حول إيران التي استتقت الحرب الباردة. في إعلان طهران، أكد ستالين، وتشرشل، وفرانكلين روزفلت، الذين اجتمعوا بالعاصمة عام ١٩٤٢، على استقلال إيران وسيادتها وسلامة أراضيها. وفي نهاية الحرب، اتفق الاتحاد السوفيتي والبريطانيون على الالتزام بسحب جميع قواتهم بحلول مارس ١٩٤٦. وفيما اقترب الموعد النهائي، بدأ السوفييت في تسليح حركة انفصالية أذربيجانية في شمال إيران، فيما منعت قواتهم القوات الإيرانية من دخول المنطقة. في واشنطن، أدرك القائم بأعمال وزير الخارجية، دين أتشسون أنه ليس للولايات المتحدة سوى رافعة عسكرية ضئيلة هناك، لكنها كانت تمتلك سلطة معنوية كبيرة. تخير أتشسون الرد الحازم فيما تحاشى الإنذارات، تاركاً بذلك مخرجاً مُشرّفاً للسوفييت. أوبرق إلى موسكو محذراً من المزيد من تحركات القوات باتجاه شمال إيران. حذر من تعقيدات دولية خطيرة وحث السوفييت على التوصل إلى صفقة مع الإيرانيين - أي المخرج المشرف. نجحت تكتيكاته بعد وعد من إيران بامتياز نفطي محتمل (لم يتحقق أبداً)، إلى جانب وكر الولايات المتحدة. انسحبت القوات السوفيتية.

كان ثمة أسباب إنسانية ومعنوية للتواجد الأمريكي بإيران، لكن كوردل هال،

وزير الخارجية، كان قد أشار على الرئيس روزفلت بأنه "من وجهة نظر أنانية مباشرة، فإن من مصلحتنا ألا تستقر أية قوة على الخليج الفارسي في مواجهة الاستثمارات النفطية الأمريكية المهمة بالسعودية". جرى إيضاح الموقف الأمريكي بالتقابل مع الموقف البريطاني من خلال رد روزفلت على تساؤل تشرشل المباشر عن اهتمام الولايات المتحدة بالنفط الإيراني، و عد روزفلت رئيس الوزراء قائلاً: فضلاً تقبل التاكيدات بأننا لا ننظر بغرامٍ إلى حقولكم النفطية بالعراق، أو إيران، هذا على الرغم من أنه اعترف أن وزارة الخارجية كانت تدرس المسألة. شكره تشرشل ورد قائلاً "دعني أبادك المجاملة بتاكيدى التام أننا لا تراودنا أية فكرة بالتطفل على مصالحكم أو أملاككم بالسعودية".

في عام ١٩٥١، صب مَجْلِسُ البرلمان الإيراني جام ما اختزنوه من غضب لسنين طويلة وصدقوا على تأميم شركة النفط الأنجلو إيرانية. كان هذا قد أعقب رفض البريطانيين تعديل شروط امتياز عام ١٩٣٢ يجعلها تتوافق أكثر مع اتفاقية المناصفة التي كانت قد تفاوضت عليها أرامكو لتوها مع السعوديين. وعلى الرغم من أن حكومة العمال البريطانية كانت قد أمتت مؤخراً صناعات النفط والفحم البريطانية، إلا أن رئيس الوزراء البريطاني كلمنت أتلي رأى أن اتفاقية معاملة لتلك التي عقدتها أرامكو مع السعودية لابد وأن تكون استباقاً لكارثة تماثل فقدان الإمبراطورية بالنسبة لوضع البريطانيين في الشرق الأوسط. كان موقف بريطانيا غير المرن، كما عبر عنه السير دونالد فرجسون وكيل وزارة الوقود والطاقة الدائم، هو أن نفط إيران تملكه بريطانيا كحق لها: "كانت المشاريع والمضاريب البريطانية، ومهاراتهم وجهودهم هي التي اكتشفت النفط تحت تربة فارس، والتي استخرجته، والتي أقامت معامل التكرير، والتي طورت الأسواق للنفط الإيراني في ثلاثين أو أربعين بلداً، بأرصفة الموانئ، وصهاريج التخزين والضغط، والناقلات البرية والسكك

الحديدية. ومنشآت التوزيع الأخرى، وأيضاً أسطول هائل من ناقلات النفط. تم كل هذا في وقت لم يكن فيه ثمة منفذ سهل للبترول الفارسي للتنافس مع صناعة النفط الأميركية المهولة. لم يكن بوسع الحكومة الفارسية أو الشعب الفارسي تحقيق أي شيء من هذا^٢.

حينما طلبت إيران الاطلاع على دفاتر شركة النفط الأنجلو إيرانية المحاسبية، ودراسة زيادة عدد الموظفين الإيرانيين، وتسعير النفط في الداخل الإيراني وفقاً للتكلفة لا تبعاً للمستويات العالمية، توسل چودچ ماكجي، مساعد وزير الدولة من الشركة ومن وزارة الخارجية البريطانية منح الإيرانيين تلك الطلبات التي تكاد تكون غير ذات أهمية كبيرة، بيد أن العرض البريطاني جاء أقل بكثير من المطلوب وأيضاً بعد فوات الأوان. دهمت الأحداث ذلك الطريق المسدود حينما اغتيل الحاج علي رازمارا رئيس الوزراء في ٨ مارس أثناء تشييعه جنازة أحد الملالي. كان رازمارا يضع لتفاقية المناصفة التي أعدها (لشركة النفط الأنجلو/إيرانية) في جيبه وفقاً لأحد عملاء الاستخبارات البريطانية M16 المقيمين بإيران. وفي ١٥ مارس ١٩٥١، وافق المجلس بالإجماع على مشروع قانون لتأمين صناعة النفط. علق أنشمسون الذي كان قد أصبح وزيراً للخارجية وقتئذٍ على التعنت البريطاني قائلاً: لم يحدث أبداً وأن فقدت قلة قليلة كل هذا الكم الضخم بذلك الغباء وتلك السرعة^٣.

بوسط استحسان جامع، عين الشاه الداعية الأولى للتأميم، محمد مصدق الذي كان في عامه السبعين، رئيساً للوزراء. كان مصدق محامياً ثرياً تلقى تعليمه بسويسرا وكانت والدته أميرة قاجارية. تولى أول وظيفة حكومية له ولم يكن قد تعد السادسة عشرة حيث عين رئيس مراجعي الضرائب لإقليم خراسان حيث خبر مباشرة الفساد المتوطن الذي تميزت به نخبة إيران الحاكمة. ولدى عودته إلى طهران منحه الشاه لقب "المُصدِّق". كان نحيلاً مثل طائر اللقلق، ذا أنف مستدق كالمنقار أمتعت رسامي الكاريكاتير. كان في شيخوخته يعاني من مختلف القُرَح،

وكان معرضاً لنوبات الغضب والدموع، ونوبات إغماء أسطوانية. في عام ١٩٢٥، في الوقت الذي عارض فيه المجلس بصوت مرتفع تنصيب رضا شاه نفسه شاهاً، هجر مصدق السياسة، وتقاعد في مزرعته، ثم انعزل في منفى اختياري بأوروبا. حينما عاد إلى إيران، اعتقله رضا شاه، قبيل إجبار البريطانيين ملك الملوك على الذهاب إلى المنفى، وتتوجه ابنه الصبي بدلاً منه.

والآن، كان "موصي العجز" يتولى قيادة الجبهة القومية، وهي تحالف من الساخطين العلمانيين، القبليين، ورجال الدين. كان أهم حلفائه من رجال الدين هو آية الله عبد القاسم كاشاني، الخطيب المتوهج المبعث للمعادى البريطانيين الذي بشر بثورة آية الله الخميني عام ١٩٧٩. كان أشد أعداء الأسد المسن (مصدق) ضراوة هم من اليساريين. هاجمته حشود الدهماء التي نظمها حزب تودة الشيوعي الإيراني بصفته عميلاً رأسالياً.

في تلك الأثناء، بدأت حكومة العمال في بريطانيا في مطلع الخمسينيات في التفكير ملياً في التدخل العسكري لإنقاذ حقول النفط. حذر وزير الدفاع إيمانويل شينول "لو سُمح لإيران فعل ذلك دون عواقب وخيمة، فقد يحفز هذا مصر، ودول شرق أوسطية أخرى على التفكير في أن بإمكانها تجربة مثل تلك الإجراءات. وقد تكون الخطوة التالية محاولة تأمين قناة السويس". كان رأي لندن، كما عبرت عنه صورة شخصية رسمتها له الأوزيفر هو أن مصدق كان "محصناً تماماً ضد نقاش المنفعة العقلاني" وأنه "محاط بالمحتالين المخادعين، والمغامرين والمجانين" وأنه كان "فرانكشتاين عن حق". ذهب محطو وزارة الخارجية أبعد من ذلك قائلين إن مصدق كان "خبثاً" "مراوغاً" "عديم الضمير تماماً" قصيراً، منقوس الساقين "يمال حصان جر العربات" وينشر حوله رائحة أفين خفيفة.

أغلق البريطانيون معمل تكرير البترول بعبدان، أكبر أصولهم الخارجية، وطبقاً لطقس إمبريالي مألوف، نقلوا بعض المظللين إلى قبرص، وسفينة حربية إلى الخليج

الفارسي. وبدا للحظة وكأن من يرغبون في تسوية الموضوع بالقوة قد هيمنوا. لكن واشنتون رفضت تماما مسايرة هذا التوضع العسكري: أكد محللوها على أن إيران هي مزود النفط الرئيسي لأوروبا التي كانت مازالت تتعافى بعد الحرب. وافق مجلس الوزراء البريطاني، بعد إصرار البيت الأبيض على مهمته وساطة خاصة يقوم بها الدبلوماسي المحتك، ألفرل هاريمان، الذي أصبح بعد وقت قصير محافظ نيويورك. فشلت مهمته في طهران. وفي تلويح نهائي حاسم، تجمع موظفو شركة النفط الأنجلو إيرانية، وهم يجمعون مضارب التنس والجولف، أمام نادي جيمهانا بعدن، واستعدوا للإبحار إلى البصرة. ووفقا لتاريخ الشركة الرسمي "عُرفت فرقة السفينة، التزاما منها بالسلوك "الصحيح" إلى النهاية، النشيد القومي الفارسي، وبدأت اللنشات رحلاتها المكوكية.. أبحرت السفينة موريشيوس ببطء أعلى النهر، ومضت الفرقة تتزلف، فيما وقف جميع موظفي الشركة بمحاذاة القضبان وهم يرددون بصوت جميع هادر صيغة غير لائقة من أهزوجة "كولونيل بوجي". وفي اليوم التالي، قاد روس ومايسون (مسئولان كبيران) سيارتهما وغادرا المكان. وبهذا توقف أعظم مشروع تجاري بريطاني على أرض أجنبية.

تبع هذا فرض عقوبات اقتصادية على إيران، الأمر الذي أسرع بتنفيذ مقاطعة للنفط الإيراني من قبل جميع كبرى الشركات الدولية. ثم جمد مجلس الوزراء البريطاني أرصدة إيران بالإسترليني، وحاولوا إغراء أمريكا بالتحرك مباشرة ضد مصدق. قاوم الرئيس ترومان ووزير الخارجية أنتشسون، اللذان كانا يميلان لجانب مصدق، وحاولا دونما جدوى التوسط بين الطرفين لدى زيارة القائد الإيراني لواشنطن في أكتوبر ١٩٥١، قالوا الإغراءات بصلابة. كانت وجهة نظر واشنتون هي أن "مصدق يلقى دعم غالبية الشعب" وأنه كان "متيقظا". و"ودودا" "صادقا" و"جيد الاطلاع". تخيرت تابم مجازين القائد الإيراني "رجل العام" لسنة ١٩٥١، بصورة غلاف عرّفته فيها بأنه "الدرويش الذي يرتدى بذلة ذات خطوط رفيعة".

ويدون ناقلة نفط واحدة تمتلكها، ويدون الخبرات اللازمة لتشغيل معامل التكرير، ترنحت إيران فيما توقف العمل في عبدان. برهنت المحادثات مع مصدق على عدم جدواها. فتنش الإيرانيون منزل رئيس مكتب الشركة بطهران ونبشوا وثائق، نُشرت فيما بعد، تثبت أن شركة النفط كانت تتدخل في جميع أوجه الحياة السياسية الإيرانية. كان نواب بالمجلس ووزراء سابقون عارضوا شركة النفط الأنجلو إيرانية قد أُجبروا على ترك مواقعهم: قُدمت الرشاوى إلى الصحف لنشر مقالات تشوه سمعة أعضاء حزب مصدق. نشرت صحيفة يومية إيرانية افتتاحية عنيفة منذرة جاء بها:.. والآن، رُفِع الستار وكُشِفَت الهويات الحقيقية للخونة الذين اختبأوا خلف مواقعهم كصحفيين، نواب بالمجلس، ومحافظين، بل وحتى رؤساء للوزارات، لا بد من إطلاق الرصاص على هؤلاء وإلقاء جثثهم للكلاب.

ذهبت إيران بالقضية إلى المحكمة النولية التي أصدرت حكماً بعدم اختصاصها. بعد ذلك، مثل مصدق وتحدث أمام الأمم المتحدة، لكن دونما جدوى. لكن لم يكن هذا برمته خطأ بريطانيا. فمثل الزعماء الشعبويين الآخرين، اتُفن مصدق فن الهجوم، لكنه تردد عن قول الحقائق الصعبة لمؤيديه. فيما بعد، كتب أتشسسون في هذا الصدد قائلاً: لقد بذرت هذه الشخصية الرياح وحصدت الغوامات.

في لندن، وفيما ضاقت مساحة التسمويات، استعدت وزارة الخارجية لحل جذري. تبدت الشرارة الأولى في مقال غير موقع نشرته التايمز بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٥١. كانت الكاتبة هي أن كاثرين سواينفورد لامبتون، مساعدة أستاذ في الدراسات الفارسية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، والتي كانت قد أدت الخدمة أثناء الحرب بالسفارة البريطانية بطهران. ندد المقال بعدم استقرار إيران وغباء الطبقات الحاكمة بفارس وطمعها وافتقارها إلى الحكم السديد، مما

نتج عنه حكومة فاسدة طفيلية. أدى المقال إلى عقد اجتماع مع لامبتون برئاسة الوزارة، اقترحت فيه تبنى خط متشدد تجاه مصدق وعدم تقديم تنازلات، وأعصاب هادئة ثابتة، وتغيير حكومة طهران "بوسائل سرية". أضافت أن روبين زهنر المحاضر في الدراسات الفارسية، وأستاذ الديانات الشرقية بكلية أول سولز باكسفورد في المستقبل، والذي كان يخزن الأفيون ويفرط في الشراب، سيكون "الرجل المثالي" لتمهيد الطريق. لم يكن زهنر، ذاك الرجل غريب الأطوار حاد الصوت خياراً لافتاً كعميل استخباراتي، لكنه كان يملك مؤهلاء استثنائياً: كان قد عمل خفية بإيران أثناء الحرب.

أرسلته وزارة الخارجية والاستخبارات البريطانية M16 إلى طهران، وسرعان ما نظم شبكة من كارهي مصدق ومحبي الإنجليز، وكانت الجائزة الخاصة هي الأشقاء "رشيد" الثلاثة الأثرياء، سيف الله، وأسد الله، وقدره الله. برهنوا، وهم المستوردون للبضائع البريطانية، وممولو حزب الإرادة القومية، على أنهم خبراء في حشد الدفء. وصف المؤرخ جيمس إيه. بل هؤلاء الثلاثة الذين استخدمتهم الاستخبارات البريطانية M16 أرصدة لها كالتالي: "صفي الله، الشقيق الأكبر، موسيقى وفيلسوف، كان عقل هذا الثلاثي، محدث رائع ومضيف متميز. دارس للتاريخ السياسي وكان يحب الاستشهاد بمكيافيلي حرقياً. كان أسد الله، المنظم، ناشطاً سياسياً المؤتمن على أسرار ابن رضا شاه، محمد رضا شاه، وخلفه اللصيق، في حين كان قدرة الله هو رجل الأعمال المضارب في المشروعات. ورغم ثرائهم المستقل - كانوا يحتفظون بجناح عائلات بشكل دائم بفندق جروفنر، لندن - كان الأشقاء يتلقون دعماً مالياً قيمته ١٠٠٠٠ استرليني (حوالي ٢٨٠٠٠ دولار) شهرياً من الجهات التي يعملون لحسابها استخدموهم لرشوة رجال الدين، الصحفيين ونواب المجلس لنشر دعاية معادية لمصدق بالصحف والبارازات. كانت الاستخبارات الخاصة لشركة النفط الأنجلو/إيرانية تقوم بالمساعدة، ومعها مكتب

المعلومات المركزي، الذي كان له اتصالات واسعة بين الصحفيين وروابط مع قبيلة بختياري القوية سياسيا والتي أثرت من النفط ثم تدهورت أحوالها نتيجة وقف الدعم المالي الذي كانت تتلقاه من الشركة.

في تلك الأثناء، تولى رئيس جديد معيّر الأمور في محطة الاستخبارات البريطانية M16 بطهران. أثناء الحرب، وبعد أن ترقى سى. إم. مونتى وودهاوس إلى رتبة الكولونيل فى سن السابعة والعشرين، ترأس مهمة عسكرية للحلفاء للعمل مع رجال حرب العصابات فى اليونان التي كانت تحتلها ألمانيا. هذا الجنتلمان الإنجليزي الذي ينتمى للطبقة الراقية - زوجته كونتيسة ووالده من طبقة النبلاء - مثل دائرة أكسفورد، فيما بعد، كعضو عن حزب المحافظين بالبرلمان. وكرئيس جديد لمحطة الاستخبارات البريطانية M16 بين عامي ١٩٥١، ١٩٥٢، كان وودهاوس يقطن منزلا داخل مجمع السفارة البريطانية الضخم: كانتون مساحته ١٥ فدانا، محاطا بجدار، ومروج كالعليفة الخضراء. كان يساعده نائبه نورمان داربيشاير الذي يتحدث الفارسية، والذي كان قد أرسل أثناء الحرب العالمية الثانية ليتوضع فى إيران، والذي صاغ فيما بعد الخطة الأصلية لـ "العملية بوبوت".

وفقا لدستور ١٩٠٦، كان للشاه سلطة تعيين رئيس الوزراء أو إقالته. والآن، تصادم مع مصدق حول مطالبة الأخير بسلطات أوسع، وبخاصة على وزارة الحرب. فى يوليو عام ١٩٥٢، أجبر الشاه رئيس وزرائه على تقديم استقالته، لكن بعد ثلاثة أيام من التظاهرات وأعمال العنف، كان على العاهل المرتبك المهتاج، بعد أن أساء تقدير مدى شعبية مصدق، إعادة تعيينه ومنحه غالبية مطالبه. ثم تجاوز مصدق الحدود. مدّد العمل بالأحكام العرفية، وفرض حظر التجول، وعلق الانتخابات للمجلس القومي، وألغى مجلس الشيوخ، وحلّ المحكمة العليا. وفى سبتمبر رفض صيغة التسوية النزاع النفطي كان قد صابق عليها ترومان

وتشرشل، الذي كان قد عاد لتوه منتصرا إلى نوانينج ستريت كرئيس للوزراء. تعمقت الأزمة حينما طرد مصدق البعثة الدبلوماسية البريطانية، ودافع عن إجراءاته كالتالي "لا تعلمون مقدار خبثهم وحيلهم. لا تعرفون مقدار شرهم. لا تعرفون أنهم يلوثون كل شيء يلمسونه". وبعد إهمالهم عشرة أيام للرحيل، سلمت M16 "أرصدها" الاستخبارية، بما فيها الأشقاء الرشيدي الثلاثة إلى الأمريكيين، فيما مضوا يتابعون الأزمة عن كثب من قبرص.

بعد انتخاب نوايت أيزنهاور رئيسا في نوفمبر ١٩٥٢، توقفت الخلافات الأنطو/أمريكية حول إيران. بعد انتصاره بثلاثة أسابيع، التقى الرئيس المنتخب أنطوني إيدن وزير خارجية تشرشل، لبحث "المسألة الفارسية". بعد أسبوع، اجتمع كرميت روزفلت بنظرائه من M16 بلندن. سافر وودهاوس أيضا إلى واشنطن لمناقشة "أولاد العم" الأمريكيين من جديد. اعترف وودهاوس قائلا: "حينما عرفنا طبيعة تحيزات (الفريق الجديد)، استغللنا تلك التحيزات بمزيد من القوة". كانت ثمة حرب مندلعة ضد كوريا الشمالية، وكان جوزيف ماكارثي يلقي خطابات مؤثرة في مجلس الشيوخ، وكان الأخوان روزبيرج قد حوكموا وأدينوا وحكم عليهم بالإعدام بتهمة التجسس؛ من ثم، تخير وودهاوس التأكيد "على التهديد الشيوعي لإيران بدلا من الحاجة إلى استرداد الصناعة النفطية". ذهب نقاشه إلى أنه "حتى لو أمكن التوصل إلى تسوية للخلاف النفطي مع مصدق من خلال المفاوضات، وهو أمر مشكوك فيه، فإنه يظل غير قادر على مقاومة أي انقلاب يقوم به حزب توده الشيوعي إذا دعم السوفييت مثل هذا الانقلاب. من ثم، يجب الإطاحة به". وبالإضافة، سيقوم الاتحاد السوفييتي "بالاستيلاء على البلد كما استولى على تشيكوسلوفاكيا". (كانت وفاة ستالين في مارس ١٩٥٣ من محاسن الصدق بالنسبة للأمريكيين، حيث تركت وفاته حزب توده يواجه حالة من الفوضى والاضطراب).

وافقت السى أى. إيه على دراسة العملية المقترحة على الرغم من أن رئيس

محطة السى أى. إيه استقال حتى لا يكون ضالعا فى دعم الولايات المتحدة للكلونيالية الأنجلوفرنسية. من جانبه، أغدق وودهاوس الاحتقار والازدراء على مسئول رفيع المستوى بوزارة الخارجية الأمريكية، لم يذكر اسمه، كان قد فضل الحل الديبلوماسى (كان المتهمان المحتملان بهذه الجريمة هما هنرى بايرون وكيل وزارة الخارجية، والسفير تشارلس تشيپ بولهن). اقترح الأمريكون بدلا من ذلك تشويه سمعة أية الله كاشانى المعادى للبريطانيين وأصدقائه اليساريين "بحيث يصبح من السهل على مصدق اتخاذ إجراءات فاعلة ضد حزب تودة". أوضح وودهاوس بازدراء "كانت تلك عينة من البلاءة الحصيفة التى تميز هؤلاء الأمريكين الذين كانوا مازالو يعتقدون فى إمكانية الإبقاء على مصدق واستغلاله، والذين كان يملؤهم الرعب من تبعات سقوطه".

كان لدى واشنطنون، بالفعل تواجد ديبلوماسى (٥٩ شخصا) وعسكرى (١٢٣ شخص) فى إيران، وكان دونالد ويلبر فى السى أى إيه قد جند فريقا من العملاء المحليين للتعاطى مع الصحافة وتجنيد "الفنوت" الراغبين. وبمنتصف شهر إبريل، كان العمل على التخطيط لعملية أجاكس (الاسم الذى خلعه الأمريكيون على عملية بوبوت البريطانية) قائما على قدم وساق، وتمت المصادقة على ميزانية لها. عمل سفير الولايات المتحدة لوى هندرسون قناة لنقل المعلومات بين البريطانيين والشاه. تولت وزارة الخارجية عملية نقل تقديراته الكاشفة إلى وزارة الخارجية البريطانية: كان الشاه يعترف على وتر واحد: موضوع أن البريطانيين كانوا قد أطاحوا بالأسرة الملكية القاجارية، وأتوا بوالده، ثم تخلصوا منه. والآن، كان بإمكانهم أن يبقوا عليه فى السلطة، أو يطيحوا به، تبعاً لما يرونه مناسبا. إذا رغوا فى بقاءه، وبأن يحتفظ التاج بالسلطات التى خولها له الدستور، فعليهم أن يخبروه. أما إن كانوا يرغبون فى أن يرحل، فعليهم إخباره على الفور كى يستطيع أن يمضى بهوده.

وفىما تطور زخم العملية السرية، لازم وزير الخارجية أنطونى إيدن، الذى كان

قد درس العربية والفارسية باكسفورد، ومن ثم، كان قد عين نفسه خبيراً في جميع الشؤون الخارجية بمجلس الوزراء، لازم الفراش لمرضه، وتولى رئيس الوزراء تشرشل، الذي يفوقه قدرة على استباق الأحداث، مهامه مؤقتاً. حث تشرشل الشاه على إقالة مصدق، بل أنه حتى قدم له التعليمات حول كيفية فعل ذلك. تستحق رسالته، التي اكتشفها الكاتب البريطاني ويليام شوكرس، ونشرها في كتابه "ركوب الشاه الأخير" اجتراحاً كاملاً: "سيسرني أن ينقل المستر هندرسون، (سفير الولايات المتحدة، للشاه الملاحظة التالية ذات الطبيعة العامة والتي أعتقد أنها صائبة ومتماشية مع المبادئ الديمقراطية، من واجب أى ملك يحكم بمقتضى الدستور، أو أى رئيس جمهورية، حينما يواجه بأفعال وإجراءات عنيفة استبدادية من قبل أفراد، أو أحد أحزاب الأقلية، أن يتخذ الخطوات الضرورية لضمان خير الجماهير الكادحة، واستمرارية الدولة النظامية. النهاية".

والآن، سافر روزفلت ومعه ويلبر من السى آى إيه، إلى لندن مع خطة الانقلاب التي صاغها معا بقبرص. بعد اجتماعات مع M16، خرجت نسخة منقحة. ثم سلّمت للأمريكيين في اجتماع ٢٥ يونيو الشهير الذى نكرناه من قبل. أعطى تشرشل الضوء الأخضر للعملية فى ١ يوليو، وتبعه الرئيس أيزنهاور فى ١١ يوليو، (يذكر وودهاوس أن "تشرشل كان يستمتع بالعملات المثيرة ولم يكن تقديراً كبيراً للدبلوماسيين الجبناء"). أطلق ويلبر ما أسماه "حرب أعصاب" ومعه اثنان من "الأصدقاء" الإيرانية، اسم أحدهما الكودى نرين والآخر سيلى. وصل مراسل من السى آى إيه يحمل عدداً كبيراً من رسوم الكاريكاتير والملصقات المعادية لمصدق، مما مكن ويلبر من شن حملة بروباجندا جماهيرية شاملة تهدف إلى تشويه سمعة حكومة مصدق. زُرعت مقالات تؤكد على الخطر الشيوعى بالصحف النولية والمحلية. تم نسج شبكات استخبارية، واستنجار عملاء متخصصين فى إثارة

الشغب والاضطرابات يُمكن إلقاء مسئوليتها على الشيوعيين. كما تم توزيع الأسلحة على القبائل. خطفت عصابة مسلحة رئيس شرطة طهران وعذبتة وقتلته. أما أية الله العظمى فقد أصدر فتاوى حسب الطلب ضد الشيوعيين.

كانت الخطى العملية قد تسارعت وقت أن شق كيم روزفلت، تحت وقع وخز أعصابه وارتفاع معنوياته، طريقه من بيروت إلى دمشق. عبر حدود إيران باسم مستعار، جيمس إف. لو شريدج، وهو يحمل ما قيمته مائة ألف دولار بالعملات الإيرانية الصغيرة، ووصل إلى طهران يوم ٢٥ يوليو لينبر العملية.

كان الأمريكيون قد أخضعوا خليفة لمصدق للتجربة ووجدوه صالحا. كان ذلك هو الجنرال فضل الله زاهدي، رجل مكرس للملكية، مُتَرْفٌ مَرَحٌ، وكان قد عمل وزيرا للداخلية في وزارة مصدق الأولى. لم يرق البريطانيون هذا الاختيار. وفي عام ١٩٤٢، وفي عملية اسمها الكودي "بونجو"، تم اختطاف زاهدي ونفيه إلى معسكر اعتقال بفلسطين بتهمة التخطيط مع النازيين. قاد عملية "بونجو" العميل الأسطوري فيتزرروي ماكليّن: (الذي يقال إنه ألهم شخصية جيمس بوند). (وفقا لماكليّن فإنه حينما قام بتفتيش غرفة نوم زاهدي بأصفهان، عثر على "مجموعة من الأسلحة الأتوماتيكية ألمانية الصنع، كمية كبيرة من الملابس الداخلية الحريرية، بعض الأفقيّن، سجل مصور لعاهرات أصفهان، وعدد كبير من الخطابات والصحف").

والآن عملت متاعب زاهدي مع البريطانيين لصالح روزفلت لأن الجمهور الإيراني كان يعتقد بعامّة أن الجنرال كان معاديا للشيوعيين وغير موالٍ للبريطانيين. وكان لأردشير، ابن زاهدي، الذي درس بجامعة بسولت ليك سيتي أن يعمل كحلقة اتصال بين والده والأمريكيين. (أصبح أردشير، الذي تزوج من ابنة الشاه قبل علاقته باليزابث تايلور التي استمرت لفترة، سفير الشاه في واشنطن ولندن وكان ينفق النقود ببذخ)

كان خطوة روزفلت التالية هي الاجتماع بالشاه المزعور والذي كانت قبضته على

العرش محفوفة بالمخاطر - نجا من محاولتي اغتيال ولم يكن قد ولد له بعد وريث للعرش. أشار ويلبر على رؤسائه بأن الشاه كان بحاجة إلى إعداد خاص: تنظرا لأنه بطبيعته شخص متردد غير قادر على اتخاذ القرارات، يعاني من شكوك ومخاوف لا شكل لها، فلا بد من حفزه على لعب دور، ويتطلب هذا الدور الحد الأدنى من الفعل الإيجابي الذي يستغرق فترة موجزة بقدر المستطاع. كان الشاه يُظهر أيضا "خوفا مَرَضِيًّا" من "يد المملكة المتحدة الخفية". كان المتآمرون بحاجة لأن يُوقَّع قتي الكشافة، أي الشاه كما كانوا يُكْتَوْنه، فرمانين ملكيين: أحدهما بإقالة "الوطني العجوز" (كما كانوا يلقبون مصدق وفقا للفتهم المنحلة: الترجمة)، والآخر بتعيين زاهدي خلفا له. طمأن ويلبر زاهدي بقوله إنه إذا دعت الضرورة سُنْفَذ الانقلاب "ونعما تعاون إيجابي من الشاه".

ثم تمت مفاتحة الأميرة أشرف شقيقة الشاه التوأم ذات الشخصية التأمرية القوية والتي كانت وقتئذ تقضى وقتها في المقامرة بكازينوهات فرنسا، مفاتحتها كي تحاول تقوية عود الشاه. تم التغلب على عدم حماسها للمهمة لدى إهداء الاستخبارات البريطانية لها معطفاً من الفراء الثمينة ومبلغا كبيرا من المال. حاولت زيارة طهران سرا، لكن كان عليها مغادرتها بعد خمسة أيام بأوامر من مصدق بعد لقاء عاصف مع شقيقها. رتبت M16 أيضا الأمور بحيث تجعل بث البى بى سى الليلى بالفارسية ينبه الشاه. كان البث أن يبدأ كالتالي "منتصف الليل تماما" بدلا من "منتصف الليل في لندن" - بحيث يبعث بإشارة إلى الشاه أن بريطانيا تدعمه حقا. من جهتها عملت الولايات المتحدة على إثبات مساندتها له، حيث رتب روزفلت لايزنهاور الخروج عن سياق خطاب له كان يلقيه بمؤتمر لمحافظي الولايات المتحدة ليقول إن الوضع في إيران "منذر جدا للولايات المتحدة" وأنه يجب "إعاقبة السوفييت، وإعاقبتهم الآن".

ظهر مشارك آخر في الوقت المناسب، كان ذلك هو الجنرال المتقاعد إيتش.

نورمان شوارتزكوف (والد قائد حرب الخليج عام ١٩٩١)، والذي كان قد كسب ثقة الشاه وكان قد ترأس بعثة الولايات المتحدة العسكرية لتدريب فرقة الدرك الإيرانية الإمبراطورية. قطع الجنرال جولة له حول العالم، وتوقف بالقصر لينفذ مهمة محددة: الحصول على الفرمانين. وفي لقاء غرائبي، أشار الشاه وقد تملكه الخوف المرضي إلى أنه يعتقد أن صالة الرقص بالقصر كان بها أجهزة تنصت، من ثم جرى حديثهما فيما كان الرجلان يجلسان فوق منضدة صغيرة وسط الغرفة. أبلغ شوارتزكوف المسؤولين أن الشاه رفض توقيع الفرمانين وطلب مزيدا من الوقت وحث كيم على أن يتوقف عن التعامل من خلال الوسطاء وأن يلتقى بجلالته مباشرة، وهذا ما فعله روزفلت في ٢ أغسطس وفي أول لقاء ضمن سلسلة من اللقاءات السرية "مورس فيها ضغط لا هوادة فيه في محاولات محبطة للتغلب على موقفه المتأصل المتأرجح المتردد" احتج الشاه بقوله إنه "ليس مغامرا، ومن ثم لا يستطيع المجازفة" مما أدى بروفلت إلى الانتهاء إلى أنه "جبان ضعيف".

وأثناء تلك الاجتماعات، عرض روزفلت تفاصيل الخطة التي تضمنت الفرمانين وتوفير عدة آلاف من الدولارات تُوزع لحفز تظاهرات مؤيدة للشاه. وأخيرا، وافق الشاه على التوقيع، عندئذ اقترح روزفلت عليه أن يطير إلى منتجعه على بحر قزوين مع زوجته وينتظر. نقل إليه روزفلت رسالة أيزنهاور الأخيرة: "أتمنى لجلالتكم الإمبراطورية رحلة سالمة. إذا لم تستطع أسرة بهلوي وروزفلت وهما يعملان معا، حل تلك المشكلة الصغيرة، لن يكون ثمة أمل في أي جهة أخرى. لدى كامل الثقة أنك ستقوم بما هو مطلوب". وحتى وصول الفرمانين، قضى روزفلت وقته يسبح في قبلا ريفية، ويحتسى الفودكا بعصير الليمون أثناء لعبه الطاولة، ويستمتع تكرارا إلى لحن العملية الرمزية المميز "Luck Be a Lady Tonight" على فونوغرافه. أضاف إلى إلحاح اللحظة نجاح السوفييت في ١٢ أغسطس في تجربة أول قنبلة هيدروجينية لهم.

من جهته، حينما ساورت مصدق الشكوك فى مؤامرة أنجلو أمريكية، أجرى استفتاءً ناجحاً يدعو إلى حل المجلس، وذلك لمنع السى أى إيه من الحصول، من خلال الرشاوى، على اقتراح قانونى مزيف ضده. لدى ذلك، غضب الشاه لأن مصدق قلص موقعه إلى مجرد ملك صورى، ومن ثم وقّع فرمانين وأُنِيعا يوم ١٣ أغسطس. بدأ الانقلاب ليلة الأحد ١٥ أغسطس لكنه تعثر وكاد يفشل حينما عرّضه للمخاطر ضابط جيش ثرثار. سلّم قائد الحرس الإمبراطورى الأمر الملكى إلى مصدق لكن رئيس الوزراء الذى كانت تسانده قوات مدرعة، استنكر الأمر بصفته تنفيذياً. أمر بإلقاء القبض على "الرسول" ورصد ١٠٠٠٠٠ ريال جائزة لمن يعثر على زاهدى. حينما أعلن راديو طهران فى الفجر فشل الانقلاب، هرب الشاه الذى لم يكن متأكداً من الجيش (لم يكن لدى زاهدى قوات تحت إمرته) دونما أن يُخطر فريق روزفلت، ومعه زوجته ثريا فى طائرة ذات محرك واحد، هبط بها أولاً فى بغداد حيث لم يجد ترحيباً من نظيره الملك فيصل الثانى الذى شعر بالإحراج، ثم إلى روما على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية. (نزل بفندق إكسلسيور حيث كان آلان دالاس نزيلاً أيضاً). من جهتها، هاجمت الصحف الموالية لمصدق غاضبة الولايات المتحدة لتورطها فى محاولة الانقلاب.

تأهت قبرص (مقر المخابرات البريطانية)، وتراجع تشرشل. فى واشنطن سادت الكآبة أكواخ كونسنت، المقر المؤقت للسى أى إيه. بيد أنه، فقد ثبت أن تلك كانت أكثر ساعات كرميت روزفلت روعة. لم يكن الحظ هو سبب تغير التيار، بل أموال وكالة الاستخبارات. تجاهل كيم برقية تحذير من وزارة الداخلية الأمريكية بالآ بيرح المدينة، وغادر مقره فى السفارة، وقاد سيارته إلى شيرمان، المنتجع الواقع شمالي طهران حيث تشاور مع أردشير زاهدى، ورتب له لقاء مع كُنت لاف مراسل النيويورك تايمز حيث سلمه نسخاً من فرمانين. أرسل روزفلت أيضاً رسالة إلى مكتب الأسوشيتد برس أكد فيها أن زاهدى قد حل محل مصدق. ثم،

ويتعاون مع حملات وودهاوس وويلبر الواسعة، اغتترف روزفلت من أموال الرشاوى بالوكالة (تتراوح التقديرات بين ٥٠٠٠٠ دولار و١٠٠٠٠٠ دولار أو أكثر)، وباستخدام ماكينة التصوير بالسفارة، طبع آلاف النسخ من الفهرامين ووزعها. (حينما رفض العملاء الإيرانيون التعاون لخشيته من إلقاء القبض عليهم، عرض عليهم أولا الأموال، لكن حينما رفضوا هددهم بالقتل. قبلوا الأموال).

كان رئيس الوزراء ومناصروه في مواجهة أعداء يفوقونهم تنظيميا وإغداقا للأموال ودهاء. استأجر "تارن" و"سيلي" غوغاء من مثيرى الشعب للانضمام إلى غوغاء حزب تودة الحقيقيين والذين كانوا قد مضوا يحطمون تماثيل بهلوى ووالده ويطيحون بها. فى ١٨ أغسطس، التقى السفير لوى هندرسون، الذى كان قد "نفى" إلى سويسرا، وعاد على طائرة عسكرية إلى طهران عصر اليوم السابق، التقى مصدق. بدأ بإثارة الشكوك حول شرعية رئيس الوزراء وحينما أكد مصدق أن البرلمان، لا الشاه، هو من يملك سلطة اختيار رؤساء الوزراء، هدد هندرسون بإجلاء جميع الأمريكين إذا لم يتحكم مصدق فى الجماهير التى كانت تهددهم. أصدر مصدق أمرا، وقد خُفِرَ رحيل الشاه وإلقاء القبض على بعض المتأمرين، بحظر التظاهرات وطلب من مناصريه عدم الخروج إلى الشوارع. والآن، أوقعه هندرسون فى الشرك بأن طلب منه استدعاء قوات الشرطة والقوات الملكية، التى كان الكثيرون منهم على قائمة رواتب السى آى إيه، فيما لزم مناصرو رئيس الوزراء ثكناتهم.

فى ١٩ أغسطس، وحينما نشرت الصحف الإيرانية المرسومين الملكين، وافقت القوات الموالية للشاه حشود آل الرشيدى من "الغوغاء" المناجورين: وفيما تموضع الجيش حول العاصمة المضطربة يحرسها عن كثب، شق موكب غروتسكى غرائبى طريقه أماما فى الشارع المؤدى إلى وسط طهران. كان ثمة بهلوانات يمارسون شقلبتهم اليومية، ورافعوا أثقال يدورون قضبانهم الحديدية فى الهواء، ومصارعون

يثنون عضلاتهم مزذوجة الرأس وفيما تزايدت أعداد المتفرجين، بدأت تلك التوليفة الغريبة من المودين في ذلك العرض يتغنون بتناغم بشعارات مؤيدة للشاه. التقطت الجماهير تلك الألحان وأخذت ترددها، وهنا، وبعد لحظة محفوفة بالمخاطر، تحول الميزان النفسي للجماهير ضد مصدق.

نهب الفتوات المأجورون، وقد تسلحوا بالهروات، المقر الرئيسي لحزب مصدق، ثم أضرمو فيه النيران. وكذلك نهبوا مكاتب الصحف المعارضة ودمروها. غمرت فرقة داعمة الجمهور بأوراق نقدية من فئة العشرة ريالات، فيما مضت أخرى تُصقّ صورة محمد رضا، التي طبعها عملاء السي آى إيه، على السيارات وجدران المباني. وقبل حلول المغرب، كانت الحشود التي تصيح "انتصر الشاه" قد سيطرت على المقار الرئيسية للشرطة ووزارات الخارجية والصحافة والدعاية. كان الاستيلاء على محطة الإذاعة والمكتب المركزي للبرق مهما بخاصة، وانهالت الرسائل الإذاعية والبرقيات تنبه الأمة إلى حدوث "انتفاضة"، وتقنع فرق الجيش الأخرى بدعم الشاه.

وفيما غير أية الله كاشاني وغيره من رجال الدين الشيعة البارزين ولاهم، حاصرت الدبابات بيت مصدق الأبيض الذي كان يماثل القلعة. وبعد معركة ضارية، حولته إلى أنقاض ومعه حوالى مائتى قتيل. التجأ رئيس الوزراء إلى السطح لكنه استسلم في اليوم التالي. خرج الجنرال زاهدى من مخبئه، ومضى على ظهر دبابة إلى إذاعة طهران حيث خاطب الأمة ونادى بنفسه رئيسا للوزراء. تدفقت الحشود على الشوارع وهى تهتف "تميش أمريكا". حينما سمع الشاه الأنباء فى روما من مراسل مبتهاج لوكالة الأسوشييتد پرس، شحب وجهه وصاح "كنت أعلم أنهم يحيوننى".

لدى عودة الشاه المنتصرة إلى طهران، انهال على روزفلت بتعبيرات الشكر والامتنان فيما كانا يحتسيان الفودكا وقال: "إننى مدين بعرضى لله، ولشعبى، ولك" فى سرده للأحداث، يضيف روزفلت سريعا "كان يعينى أنا والبلدين - بريطانيا

العظمى والولايات المتحدة - اللتين كنت أمثلهما. كنا جميعاً أبطالاً". وفيما رافق كرميت إلى سيارته أهداه الشاه علبة سجائر من الذهب "كتنكار لمغامرتنا الأخيرة". كان روزفلت قد قضى أقل من ثلاثة أسابيع في إيران. قدرت النيويورك تايمز أنه قد نجم عن المعركة قتل حوالي ثلثمائة شخص وإصابة مائة آخرين بالجراح. أتت الرشاوى مفعولها: نجحت "الانتفاضة الثقافية"!

تم تهريب روزفلت خارج طهران حيث حملته طائرة عسكرية وأوصلته إلى طائرة متجهة إلى لندن للقاء نظرائه البريطانيين. كان تشرشل طريح الفراش إثر إصابته بأزمة قلبية أوهنته حينما استقبل كرميت. وتحت إلحاح رئيس الوزراء، روى كيم مغامراته مما حفز رئيس الوزراء أن يعلق وقد شعر بالغيرة "أيها الشاب، لو أنني أصغر سناً بعدة سنوات لم أكن لأود ما هو أفضل من أن أعمل تحت إمرتك في هذه المغامرة الرائعة!". عبّر السير ونستون عن الإجماع الأنجلوأمريكي الرسمي بأن أجاكس "كانت أروع عملية منذ انتهاء الحرب". كتب أيزنهاور في مذكراته عن تلك الأحداث "بدت وكأنها رواية مثيرة رخيصة أكثر منها وقائع تاريخية". وبالرغم من ذلك منح الرئيس أيزنهاور في احتفال رسمي - سرى لأسباب واضحة - كرميت روزفلت وسام الأمن القومي. وفي هذا الصدد، كتب ويلبر الذي لعب دوراً مهماً في العملية، يقول إن احتفال روزفلت بنجاحهما كان عبارة عن "دعوة إلى الغداء، دفع فيها كل منهما ثمن طلباته، في مطعم صيني بكونيكتيكات أفينيو، لا يقدم الكحوليات".

بيد أن البريطانيين أحبطوا لدى تقسيم الغنائم، كما أغضبتهم حقيقة أن الأمريكيين نسبوا إلى أنفسهم الفضل الكامل في الانقلاب. كان إيدن وزير الخارجية قد كتب قبل ذلك بعام: "لا تروقني فكرة الإتيان بشركات أمريكية إلى إيران". من اللافت أن كان أول زائر أمريكي رسمي إلى طهران بعد الانقلاب هو

خبير النفط هيربرت هوغر الابن، صديق كرميت روزفلت الحميم. كان هوغر، ابن الرئيس السابق، المستشار الخاص للوزير دالاس، وقناة الاتصال بين السي آى إيه وشركات النفط. كانت مهمته هى التفاوض، وفقا لتفاهم مسبق مع بريطانيا، على اتفاقية لاتحاد شركات تُفتح بمقتضاها إيران أمام الشركات الأمريكية. وكما قيل، فقد أبلغ الشاه هوغر أن السي آى إيه ستتلقي نفطا ثمنا لمساعدتها، وبعد تفاوضات عسيرة، ساعدت فيها مؤسسة الأشقاء دالاس القانونية، برهنت الاتفاقية الجديدة على أنها معيار فى ديبلوماسية النفط. بدأت شركات النفط الكبرى، وقد هذب سلوكها تأميم المكسيك للنفط، وتحت ضغط قضية مكافحة الاحتكار غير المشروع التى رفعتها وزارة العدل، بحفز من ترومان، ضد كارتل البترول الدولية، بدأت تبدى اعتبارا فطنا للمشاعر المحلية. وطبقا لتلك الاتفاقية، كان لإيران الحق فى تملك جميع مصادر النفط فى البلاد، مع عدم التدخل فى قرارات الشركات التى تعمل مستقلة. وُزعت الحصص بنسبة ٤٠/٤٠، حيث كان للشركة الأنجلو/إيرانية، التى أعيد تسميتها برينش پتروليوم ٤٠٪، وحصل الأمريكيون على ٤٠٪ (تلقت كل من الشركات الكبرى الأمريكية ٨٪). ذهبت باقى الحصص إلى رويال داتش/ شل (١٤٪) و٦٪ إلى شركة تسمى شركة النفط الفرنسية. فى كتابه "الجائزة" رأى مؤرخ النفط دانييل يرجن أنه كان ثمة نتيجة أساسية أكبر للاتفاقية: "إنشاء اتحاد الشركات الإيرانية. أصبحت الولايات المتحدة اللاعب الأكبر فى مجال نفط الشرق الأوسط وسياساته المتفجرة". وعلى سبيل التأكيد لخلافتها للور بريطانيا بإيران، قدمت واشنطن، على وجه السرعة، قروضا كانت قد رفضت منحها لمصدق. ٦٠ مليون دولار عام ١٩٥٤، ٥٣ مليون دولار عام ١٩٥٥، و٣٥ مليون دولار عام ١٩٥٦. تم اعتقال مناصرى مصدق، وتنفيذ حكم الإعدام فى وزير خارجيته، ومحاكمة الثورى المخلوع بتهمة ارتكاب جرائم سياسية. لكن مصدق قلب الموائد على أعدائه باستخدامه محاكمته لتقديم أفضل الحجج وأكثرها طلاقة وإقناعا على عدالة

القضية التي كافحت من أجلها إدارته المدانة. صدر الحكم بإدانته، وسُجن ثلاث سنوات، تم وُضع تحت الإقامة الجبرية في ضيعته التي ورثها عن أسلافه، هذا على الرغم من أن روزفلت رتب أمر صرف معاش له حتى موته^(١). في كتابها "ابنة فارس"، كتبت ابنة عمه ستارة فرمان - فرمايان تلك المراثية لذكراه كان محمد مصدق قد قام بحشد حقيقي لإرادتنا القومية. كانت الأشهر الثمانية والعشرون التي قضاها في منصبه إحدى المرات القليلة طوال تاريخهم التي تعاون فيها الفرس معا وحققوا الإنجازات معا. كان عنيدا، وارتكب كثيرا من الأخطاء، بل إنه حتى لجأ مرة إلى حيلة غير دستورية. لكنه لم يفشل بسبب مظهره، أو بسبب لزماته وبعض تصرفاته الغريبة. بل إنه فشل لأنه ناضل بعزم مفرط وبدون تنازلات ضد قوة عظمى.

بدا محمد رضا شاه، بعد استرداده عرشه، ملكا مختلفا. حل اليقين والعزم محل تردده السابق، وحبُّ للأضواء محل خجله، والصفافة محل احترام الآخرين. سرعان ما قام بنفى الجنرال زاهدي إلى منصب ديبلوماسي بچنيف، وذلك لعدم استعدادده لتحمل أية تهديدات لسلطته. ابتهج حينما أتت له زوجته الثالثة، فرج، بالوريث الضروري للعرش الذي يضمن استمرار سلالة بهلوي، في عيد ميلاده الثامن والأربعين عام ١٩٦٧، قام وهو يرتدي العباة المطرزة باللؤلؤ التي كان والده رضا شاه قد ارتداها بنفس القصر حيث وضع تاج سلالة بهلوي على رأسه بنفسه، قام الابن بتتويج نفسه "ملك الملوك" في احتفال أطلقت فيه ٢١ طلقة مدفعية، وردت فيه ترنيمة التتويج ("أنت ظل الله") وتساقط فيه على أرجاء المدينة وابل من ١٧٥٣٢ وردة عن كل يوم من أيام حياته. نشرتها على العاصمة القوات الجوية الإيرانية الملكية. خرج من نادى بنفسه "ضوء الشمس" على التقاليد، وذلك بأن توج

(١) حسب الوقائع التاريخية، تعرّض مصدق للتعذيب والاعتداء واصيب إصابات جسيمة بالغة. (الترجمة)

أيضا زوجته فرح إمبراطورة، حيث كان بيور قد صمم ملابسها، وصمم ثابن كليف وأريل عصابة رأسها من الماس القرنفلي والأبيض. بدا وأنه متيقنا أكثر من أي وقت مضى من أنه طفل الأقدار، حيث نجا من محاولات اغتيال، ومكائد البريطانيين، وجهود السوفييت لتقسيم إيران أجزاء.

أعقب أعياد التتويج احتفالات أكثر ترفا وفخامة في أكتوبر عام ١٩٧١ في پرسپوليس، المقر القديم لداريوس وابنه أخشويريش وموقع بلاطهما. دام الاحتفال ثلاثة أيام وأقيم بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على إقامة الإمبراطورية الفارسية، وقُدِّرَت تكاليفه بثلاثمائة مليون دولار في بلد يبلغ المتوسط السنوي لدخل الفرد ٣٥٠ دولار. علقت نيوزويك، بعد أن ذكرت غياب عدد من الوجوه البارزة بالقول "إن لم تكن قد دعيت فهذا يعني أنك غير مهم؛ لكن لم يكن لك أن تكون شخصية مهمة لو أنك حضرت".

اعتذرت الملكة إليزابث عن الحضور في ضوء تحذير من وزارة الخارجية بأنها قد تحد نفسها "وسط حشد من زعماء الدرجة الثانية" في مناسبة "من المحتمل لها أن تكون شاقة، غير منظمة، وربما غير لائقة وغير آمنة". لكن البريطانيين رغبوا في تحاشي أية إهانة قد تُعرض امتيازاتهم البرتولية للخطر من ثم انضم الأمير فيليب والأميرة أن إلى المجموعة الدولية التي حضرت: المارشال تيتو من يوغسلافيا، وديكتاتور رومانيا نيكولا كاوشيسكو، والرئيس الفلبيني ماركوس وزوجته إميلدا، وسبiero أجنيبو نائب الرئيس الأمريكي قُبيل أن يفقد منصبه ويلحق به العار، وعشرة ملوك، كان من بينهم هيلاسي لاسي. إمبراطور إثيوبيا الذي أطيح به بعيد ذلك. أما شخصيات الدرجة الأولى الذين رفضوا الدعوة فكان من بينهم ويلي برانت مستشار ألمانيا، والرئيس الفرنسي جورج بومبيدو الذي علّق هائرا "لو أنني ذهبت لربما أوكلا إلى مهام رئيس السفارة".

وعلى الرغم من تقشى الجفاف والمجاعة في إيران عامئذ، وتظاهرات الطلبة،

ونقد الصحافة الدولية والشكوك المتبصرة التي عبرت عنها الإمبراطورة فرح بشأن التزود باحتياجات الاحتفالات من متعهدين بالخارج، فقد نقلت القوات الجوية الملكية الإيرانية، في رحلات مكوكية أكثر من خمسين خيمة باللونين الأصفر والأزرق، مكيفة الهواء، من تصميم مؤسسة جانسن بياريس (متعهدي احتياجات البيت الأبيض في عهد كيندي)، كان قد تم تصميمها على هيئة نجمة، وغطيت أرضياتها بالنفيس من السجاد الإيراني، وأسرتها وأرضيات حماماتها الرخامية بأفخر المفروشات ماركة بورت هولت، وزودت بأوانٍ صينية ماركة ليموج نقش عليها أسماء كبار المدعوين (وقد تم إلبهم هدايا وداع)، وذلك لإقامة كبار المدعوين من الملوك والرؤساء. أما الشخصيات الأقل مرتبة، وكان بينهم ملوك النفط وبنالدير مدير السي آى إيه، فقد استضافتهم فنادق وموتيلات شيراز على بعد أربعين ميلا حيث تم تجديد جميع مبانيها بما فيها معتقل "السافاك" الذي كانت تشرف عليه وتديره وكالة استخبارات الشاه ومباحث الأمنية (السافاك).

وفي حفل عشاء رسمي، التهم خمسمائة مدعو كميات هائلة من الكافيار القزويني الإمبراطوري وسهلوا بلعها بمئات الزجاجات من نبيذ العنب، كان بينها زجاجات من نبيذ كروم قصر لافيت - روتشيلد الريفى، وعديد الجالونات من الشمبانيا الفرنسية احتسوها من كئوس مصنوعة من كريستال بكارا. أرسلت مطاعم مكسيم بياريس ١٦٥ طباح ومساعد طباح أعنوا وليمة سخية من بيض السمان المحشو بالكافيار، وموسيه (كريما مخفوقة) جراد البحر، ولحوم ضأن مشوية بنبات الكماة، ولحوم الطواويس المحشوة بتكباد الأوز النارية. قُدمت أطباق من التين والتوت الأحمر المكسوطبقة من النبيذ البرتغالى المزيج (مجمد كالزجاج) على سبيل التحلية. انتهت الأمسية بعرض بالصوت والضوء والألعاب النارية. ركز اهتمام الحضور على پرسىپوليس، حيث ظهر ممثلون يُجسّدون شخصيات ملوك فارس: قورش، وداريوس وأخشويريش، يتحدث جميعهم

بالفرنسية. خلقت مروحيات الأمن أمام مقبرة قورش العظيم فيما خاطب الشاه وصوته يرتعد من زخم العاطفة الملك الفارسي العظيم "إليك يا قورش، أيها الملك العظيم، ملك الملوك، منى أنا شاهنشاه إيران، ومن شعبي، التمجيد والتحية.. قورش، إننا نقف أمام مثواك الخالد لنقول تلك الكلمات الرصينة: أرقد في سلام، لأننا متيقظون، وسنظل هكذا، لنصون إرثك المجيد" (يبدو أن الشاه كان قد نسي أن الإسكندر الأكبر، كان قد حوّل العاصمة الفارسية القديمة إلى أنقاض).

وفي اليوم التالي، سار ١٧٢٤ جندي في ثياب تنكرية في استعراض أمام النظارة يحاكي مواكب السباقات القديمة التي كانت تحمل الهدايا كتلك التي تصورها النقوشات على سلام پرسپولیس. كانت ليسلي بلانش واحدة من السمتانة صحفى الحاضرين. وصفت في سيرة الإمبراطورة فرج دييا التي كتبتها ونشرتها في توقيت سيئ (١٩٧٨)، استعراض قوة إيران على مدى القرون:

"لحى الميديين^(١) الكثيفة المجددة، لحى الصفويين الصغيرة المدببة، أو شوارب قوات القاجار المهيبة. الدروع، الرماح المثبت عليها الرايات المثلثة، السيوف العريضة وخناجر المحاربين القدامى. راقب الضيوف الجالسون تحت الشمس الحارقة والذين كانت تحميهم الشمسيات على منابر أسفل أنقاض مجد قورش ذات الأعمدة، راقبوا الموكب المثير للإعجاب: مشاة أخمينيين، محاربين برثيين، فرسان أخشويريش، ناقلات مُغلقة محمولة، عربات حربية، دبابات، وجمال ذات سنامين. مدفعية الشاه فتّح على، محاربين من قزوين أو الخليج الفارسي، القوات الجوية، فرقة النساء الجديدة بالقوات المسلحة.. كل ذلك كان هناك في پرسپولیس، كل ذلك شاهد على أمجاد إيران في الماضي والحاضر".

بعد خمسة أعوام، وفي إيماءة أخرى جريئة ومريكة، ولكي تعكس عمر الملكية الجديد، أمر الملك بإحلال التقويم اليهودي محل التقويم الهجري- كان هذا يعني أن يظهر على جميع الوثائق - الصحف والنتائج - تاريخ عام ٢٥٣٥. حيث كان يُظن

(١) اهالي ميديا القديمة (الترجمة).

أنه عمر الملكية الفارسية منذ تأسيسها. كان التقويم الهجري، حيث كان العام هو ١٣٥٥ (١٩٧٦) مريكا بما يكفي لرجال الأعمال الإيرانيين الذين لهم تعاملات مع الغرب. لكن تقويم بهلوى الجديد هذا أثار غضب رجال الدين الشيعة بخاصة الذين كان الشاه قد تشاجر معهم عام ١٩٦٣، العام الذي كانت قوانين إصلاحات الأراضي في برنامجه التحديثي الذي هلّل له الغرب، أو الثورة البيضاء، قد دخلت حيز التنفيذ. وحينما ووجه بنقد رجال الدين وقتئذ، رفض الشاه غاضبا اعتراضات من قال عنهم "الملالي المقلين"، مما فاقم الغضب، وبخاصة في مدينة قم المقدسة، حيث جذب آية الله روح الله الخميني الانتباه للمرة الأولى من خلال هجومه الغاضب على الشاه. أعقب خطبة الخميني أعمال شغب على نطاق واسع أدت إلى إلقاء القبض على الخميني، وإدانته وسجنه إلى أن أفرج عنه عام ١٩٦٤.

وبعيد الإفراج عن الخميني، قدّم الرئيس جونسون للشاه عرضا مغريا يتضمن مستشارين عسكريين أمريكيين وُحد تسهيلات ائتمانية بمائتي مليون دولار تتسلم إيران بمقتضاه وجبة شهية من طائرات الفانتوم، ودبابات تشيفتاين، وتنووعة من طائرات الهليكوبتر، وزوارق طوربيد وأحدث أنواع الصواريخ. اشتمل حد التسهيلات الائتمانية فقرة شرطية: على إيران أن توقع اتفاقية وضع القوات القانوني (SOFA) التي تمنح الأفراد والعاملين الأمريكيين حصانة من القوانين المحلية. وافق المجلس والذي كان قد أصبح كاريكاتيرا لما كانه من قبل واستحق الحزبان اللذان كانا يشكلانه الكنية الشعبية: "موافق، موافق باريس"، وافق دونما مناقشة على شرط SOFA. أعقب ذلك عاصفة رعديّة أخرى من قم:

"هل تعلم الأمة الإيرانية ما حدث مؤخرا بالمجلس؟ هل تعلم بالجريمة التي ارتكبت سرا... هل تعلم أن المجلس، وبمبادرة من الحكومة قد وقع على وثيقة لاستعباد إيران؟ لقد اعترف المجلس بإيران مستعمرة، لقد منح أمريكا وثيقة، تشهد على أن الأمة المسلمة بربرية، لقد شطب على جميع أمجادنا القومية والإسلامية

بخط أسود... لو أن الشاه دهمس كلبا أمريكيا بسيارته سيحاسب ولو أن طباطبا أمريكيا دهمس الشاه فليس ثمة من يمكن أن يدعى عليه بشيء.. أعلن أن التصويت المخزى للمجلس يتناقض مع الإسلام وليس له أى أساس من الشرعية.. وإذا أراد الأجانب إسامة استخدام هذا التصويت القذر سيتم تحديد واجب الأمة بوضوح".

وبناء على هذا الخطاب، تم نفي أية الله الخميني، والتجأ أولا إلى تركيا، ثم إلى العراق، وأخيرا إلى فرنسا قبل عودته العاصفة في فبراير ١٩٧٩. كانت حملته ضد SOFA بلورة لمشاعر الغضب من هيمنة أمريكا غير المباشرة، وأذكت نيران الثأر.

بعد إطلاقه "الثورة البيضاء" التي قضت على غالبية كبار الملوك، وأجبرت الفلاحين على النزوح إلى المدن، أسس الشاه خطته التالية "المذبحة العظيمة" وهي مسيرة تتمكن بها إيران في القفز إلى العصر الحديث. أما آلة الدفع فستكون النفط الذي ارتفع سعره بأسلوب دراماتيكي بعد حرب ١٩٧٣، حيث زاد أربعة أضعاف ما كانه مما كان يعني أن عائدات إيران السنوية من نفطها والتي كانت تبلغ ٥ مليارات دولار كان من المحتمل لها أن تصبح ٢٠ مليار دولار. غدت شهية الشاه للعتاد الحربي، والتي كانت إدارة جونسون قد شحذتها، نهمة أثناء فترتي نيكسون - فورد، جزئيا بسبب صداقة الشاه مع هنري كيسنجر (أصبح جيش إيران رابع أكبر جيش في العالم). كان ثمة رؤية استراتيجية ذات جانبيه متبادلة.. تتولى إيران حراسة الخليج الفارسي بحيث تخفف من أعباء واشنطن العسكرية في المنطقة نظير الأسلحة الأمريكية وخبراء التدريب. أتبع للشاه، على الرغم من شكوك الپنتاجون، دونما قيود، الحصول على أكثر الأسلحة الأمريكية تقدما، باستثناء الأسلحة النووية.

أنفقت إيران، فيما بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٦، ١٠ مليارات دولار على العتاد الصربي الأمريكي مما جعلها عميل واشنطن الأجنبي الأول. وحينما عاد الديمقراطيون إلى البيت الأبيض عام ١٩٧٧، استمرت تلك الشراكة الاستراتيجية في الازدهار في ظل الرئيس جيمي كارتر. وبعد الكلمة التي قالها جيمي كارتر أثناء شرب نخب العام الجديد على شرف الشاه والتي انتشرت على نطاق واسع

(إن إيران، وبسبب قيادة الشاه العظيمة، جزيرة للاستقرار وسط المناطق الأكثر اضطراباً في العالم). بعدها بفترة وجيزة، تحدى المتظاهرون في شوارع إيران السافاك البغيض، شرطة الشاه السرية كلية التواجد والسطوة والتي كانت الولايات المتحدة تتولى تنظيمها وتدريبها؛ ومؤسسته العسكرية الضخمة. وُحِدت آلاف المظالم - عدم العدالة، الاقتصادية في ظل ازدهار هائل للاقتصاد، صفاقا الغربيين في مجتمعاتهم السكتية، الإهانات الموجهة للنساء المحتشمات، والبعثات التبشيرية الكافرة - انتلafa من المحرومين، والمحيطين، من الراديكاليين والإصلاحيين الدينيين. انفجرت الفجاعة في ١٦ يناير ١٩٧٩. تجسدت البلاد من خلال الإضرابات، وأعلنت القوات المسلحة الحصيان، واستقل ملك الملوك البالغ من العمر تسعة وخمسين عاماً طائرة بوينج ٧٠٧ لونها أبيض وأزرق وهُرب من بلده مرة أخرى. يستشهد الشاه في مذكراته التي يُعلّي فيها من قدر نفسه بمقولة أحد الجنرالات المواليين فيما كان يواجه كتيبة إطلاق الرصاص "لقد ألقى الأمريكيون بالشاه خارج البلاد وكأنه فاز ميت". في ١ فبراير هبطت طائرة تابعة للخطوط الفرنسية كانت تحمل آية الله الخميني في طهران. بدأ الشاه المصاب بالسرطان ارتحالاته بين الدول من مصر إلى المغرب، إلى جزر البهاما، المكسيك، الولايات المتحدة، ثم مصر مرة أخرى، حيث شجعه السادات على الإقامة هناك، وكانت تلك خطوة أسهمت في اغتيال القائد المصري. توفي ثاني شاه من أسرة بهلوي، وأخراها في ٢٧ يوليو ١٩٨٠ بعد أن قضى أيامه الأخيرة ضيقاً على السادات.

بعد عملية أجاكس مباشرة، تذكر كيم أنه قد نصح دالاس وزير الخارجية بقوله "لوحاولت السي أي إيه القيام بمثل هذه العملية مرة أخرى، فعلينا أن نكون متأكدين تماماً من أن الشعب والجيش يريدون ما نريده. وإن لم يكن هذا هو الوضع، فمن الأفضل إيكال المهمة للمارينز". لكن، ووفقاً لروزفلت، كانت تلك نصيحة لم يكن دالاس يريد أن يسمعها، لأنه، وفي غضون أسابيع، عُرض على

روزفلت فرصة إدارة انقلاب السى أى إيه بجواتيمالا عام ١٩٣٤. لكنه اعتذر عن قيادة Operation PBSUCCESS التي أطاحت بالرئيس المنتخب في تلك الجمهورية الصغيرة بأمريكا الوسطى. لكن أثناء زيارة له للندن عام ١٩٥٦، فاثحت الاستخبارات البريطانية M16 روزفلت بأمل إقناعه بالمشاركة في Operation Unfasten لاغتيال الرئيس جمال عبدالناصر، لكن روزفلت امتنع بقطنة، ولم تتمخض الخطة عن شيء.

تقاعد روزفلت من السى أى إيه عام ١٩٥٨ وأصبح نائب الرئيس المسئول عن العلاقات الحكومية في مكتب شركة جلف أوليل بواشنطن. بعد ذلك عمل في جماعات الضغط "اللوبيات" نظير أجر مرتفع - ساعد شركة نورثروب (للسلحة) في الحصول على عقود بيزنس بأكثر من مليار دولار في الشرق الأوسط - وسافر إلى إيران خمس مرات أو ستاً حيث أقام مع عملائه الأشقاء رشيد. كان السعوديون أيضاً بين رعايته رفيعي المستوى. لكنه، وعلى الرغم من أبحاثه وخبرته الواسعة، وكما ذكرت سالي بيسانى "فقد تجاهل روزفلت الحركات السياسية والدينية في تاريخ إيران" معتقداً أن سطوة رجال الدين "ستزوى مع التحديث". راجع روزفلت تاريخاً من جرتين لمكتب الخدمات الاستراتيجية OSS المخابراتي نُشر عام ١٩٧٦. وفي عام ١٩٧٩ حاول نشر كتابه "الانقلاب المضاد، الصراع من أجل التحكم في إيران" الذي يسرد فيه دوره في انقلاب ١٩٥٣. لكن، كان لابد من إعدام الطبعة الأولى وعددها ٧٥٠٠٠ نسخة حينما هددت شركة بريتش بتروليوم BP، خليفة شركة النفط الأنجلو إيرانية بمقاضاته. (كان روزفلت قد سلم البروفة إلى السى أى إيه لمراجعتها ونفذ التغييرات التي طلبتها الوكالة. لكن BP زعمت أن الكتاب مفضل وأيضاً "مخطئ". وغير دقيق، ويُعتقد أنه يهدف إلى تشويه السمعة). وأخيراً، تم نشر الكتاب عام ١٩٨٠. بعد إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين الذين احتجزهم نظام الخميني. مات روزفلت عام ٢٠٠٠ نتيجة إصابته بأزمة قلبية.

استاء ويلير، المخطط الرئيسي لعملية أجاكس، من عدم ذكر روزفلت لدوره في

كتابه "الانقلاب المضاد". بعد أحداث عام ١٩٥٣ مُنح ويلبر ترقية روتينية في الخدمة المدنية. وكما اشتكى، فقد كانت أقل من المستوى بالنسبة لشخص له خبرتي ومدة خدمتي الطويلة". بعد تقاعده من السي أي إيه ألف كتابه "مغامرات في الشرق الأوسط" والذي أخضعته السي أي إيه لرقابة مكثفة وحذفت أجزاء كثيرة منه. توفي عام ١٩٩٧ في عمر ناهز التاسعة والثمانين. وفقط عام ٢٠٠٠ أفرجت السي أي إيه عن الكتاب الذي ألفه ويلبر عام ١٩٥٤ حول التاريخ السري لعملية أجاكس بعنوان: "الإطاحة بمصدق رئيس وزراء إيران، نوفمبر ١٩٥٢ - أغسطس ١٩٥٣".

أعلن جون وولر، الذي كان المفتش العام للسي أي إيه ذات يوم، وهو يفكر في إنتاج فيلم تليفزيوني وثائقي عن العملية، أعلن قائلاً: "إننا نفكر في أنفسنا بصفتنا أبطال الحرب الباردة البارزين". من منظور السي أي إيه، فقد أتاح الانقلاب لواشنطن ٢٥ عاما إضافية إلى عمر أسرة بهلوي الموالية لأمريكا ومكّن صناعة النفط الدولية من تصدير ٢٤ مليار برميل نفط بشروط مُحَابِيَة". لكن جاءت إعادة سرد الوكالة الرسمي للأحداث تحذيرية، فقد عبر كاتبوه، عن صواب، عن القلق من احتمال "ضربة ثأرية" ضد الولايات المتحدة نتيجة مثل تلك العمليات.

المرجح أنه لن يتم كتابة القصة الكاملة لانقلاب عام ١٩٥٣، وذلك بسبب تدمير كثير من الملفات الأمريكية والبريطانية الخاصة بالعملية، وما زالت ملفات كثيرة أخرى غير متاحة (حتى عام ٢٠٠٠ ظلت حوالي ألف صفحة من الوثائق في سرايبب الوكالة). ما المحتمل للملفات المحظورة أن تكشفه؟ في رأي البروفيسور إرفاند إبراهيمان من جامعة سيتي بنيويورك إنه لأمر أن تعترف الوكالة بأنها وزعت بروباغندا كاذبة مشبوهة، موكت تظاهرات، ومارست حيلاً قذرة، وحثت الضباط على تنفيذ الانقلاب. أما الاعتراف بأن السي أي إيه عملت من خلال النازيين المحليين، وكان لها دور مباشر في عمليات الاختطاف والاعتقالات والتعذيب والقتل الجماعي بالشوارع، فأمر آخر.

وعلى الرغم من أن الانقلاب نجح بسبب الدعم الإيراني الإيجابي أو السلبي، فلا يمكن لمراقب أن يشك في أن الأمريكيين خططوا للعملية وأداروها وأخرجوها. برهنت الإطاحة بمصدق عام ١٩٥٣ على أنها أكثر عمليات تغيير النظام بالشرق الأوسط نجاحاً. لكن الانقلاب حول النظام الانتخابي الهش عن مسيرته وعرقله، وفيما أصبحت الولايات المتحدة متورطة بالسياسات الداخلية الإيرانية، كان لا مفر من أن يستغيق الإيرانيون من الأوهام حول اليانكي وما أملاه منهم. بعد فرار الشاه، وبعد أن منحته الولايات المتحدة حق اللجوء عام ١٩٧٩، احتجز الطلبة الإيرانيون اثنين وخمسين أمريكياً رهائن، جزئياً، للحيلولة بون تكرار انقلاب ١٩٥٣. نتج عن أزمة الرهائن، وفقاً للاعتقاد العام، خسارة جيمي كارتر انتخابات عام ١٩٨٠. وكما كتب عباس أماناتي، الأستاذ بجامعة ييل، بالنيويورك تايملز "يعرف جميع أطفال إيران بالمدارس عن الانقلاب الذي نفذته السي آي إيه وأطاح برئيس الوزراء محمد مصدق. يعي، حتى الإيرانيون غير المهتمين بماضيتهم، كيف أن إيران، طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، كانت ملعباً للعبة العظمى... وبعد ربع قرن "تفاجأ" الأمريكيون حينما أطاحت ثورة إسلامية بالشاه وغيّرت البلد الذي بدأ صديقاً للولايات المتحدة. لكن إذا كان الأمريكيون يعانون من فقدان الذاكرة التاريخية، فإنه بالنسبة لإيرانيين كثيرين، ومن بينهم آية الله روح الله الخميني، فإن خط الذاكرة أدى بوضوح من اللعبة العظمى إلى الشيطان الأعظم".

الفصل الحادى عشر

صبى الساحر

مايلز ايكس كوپلاند الابن

(١٩١٦ - ١٩٩١)

لم تكن عباقره أشرارا نتأمر من أجل غسيل مخ العالم، بالعكس، كنا صبية أبرياء نلهو بلعبة جديدة - ترخيص بالسرقه

- مايلز كويلاند "لاعب اللعبة" (١٩٨٩)



كان مايلز الرجل الوحيد الذى استغل السى آى إيه غطاءً يتخفى خلفه

- ويلتون وين

مراسل الشرق الأوسط، التايم

لو أن الحظ أسعدك بزيارة بيروت قبل عام ١٩٧٥ لوجدت أن ثمة مكانا واحدا فقط هو الأنسب لتتوقف فيه وتحسنى مشرويا إن كنت ضابط سى آى إيه تعمل على قضية، أو أنثى فتاة تبحث عن صيد، أو مراسلا أجنبياً. ذاك المكان هو بار فندق السان جورج في قلب العاصمة اللبنانية التي هي نفسها مركز المراكز المؤامراتية للشرق الأوسط. يتذكر جان برتوليه، الذى عمل مديرا للفندق ذات مرة، بوجهه فى "حدث فريد لا يقع مثله سوى مرة فى القرن. شعرت أن زبائنى كانوا يديرون الشرق الأوسط، وأحيانا العالم بأكمله". منذ خمسينيات القرن العشرين فصاعداً، كانت بيروت "باريس الشرق"؛ تُوِّجت لعقدين عاصمة مالية للعالم العربى، وكانت القاهرة فقط هي التي تنافسها كعاصمتها الثقافية. عام ١٩٧٣، اختارت مجلة فورتن Fortune فندق السان جورج واحدا من أفضل سبعة فنادق فى العالم

للتفنيين الأمريكيين وأشادت بمشروعاته السخية، وبالخدمة الكفاء غير المتطفلة التي يقدمها.

لكن المهم من منظورنا هو مركزية الفندق في عمليات التآمر وتغيير الأنظمة. وكحانة الصحفيين الفضوليين ولمصادرهم الموثوقة (أحياناً) كان السان جورج في زمنه يناظر ، بل حتى يبرز، الشبرد بالقاهرة، الألكرون في براغ، أو الأثينييه بالاس في بوخارست. كانت شركة فرنسية هي التي تولت بناءه في ثلاثينيات القرن العشرين. وصمم ديكورات المهندس الحداشي جان روبيير. أقيم الفندق المكون من خمسة طوابق على قاعدة اصطناعية ناتئة في خليج جونييه الجميل. تطل صفوف شرفه متدرجة الارتفاع على منطقة جبال خليج جونييه التي تتناثر عليها الغابات والقرى وتعلوها الثلوج. يكتب أحدث مؤرخي الفندق، سعيد أبو الريش قائلاً: "في

أيام نادرة في مطلع الربيع، يمكنك أن تجلس في الشرفة تحتسى شراب الظهيرة وتراقب الأشخاص يتزلجون على المياه والجليد في خط رؤية واحد مستقيم. في الليل تتصاعد أضواء القرى بارتفاع الجبال حتى يصبح من الصعب تمييزها عن النجوم. ويقدر معرفتي، ليس ثمة مكان في بيروت، أو في العالم، يناظر جمال هذا الموقع.

هياً بناً نتنصت على (ما كان) يجري بالفندق في يوم نمطى. سام بروور، مراسل النيويورك تايمز الرئيسي بالشرق الأوسط، هو الرئيس المشارك لنادى "العاشرة صباحاً" الشهير محلياً، ببار الفندق، ويرتاده مكرماً بانتظام. يثرثر بإيجاز مع ميرنا البستاني، الشريكة في ملكية الفندق، والعضوة السابقة بالبرلمان اللبناني، والتي تعزّ بالسان جورج وكأنه من الكنوز القومية. فرغت دورية الصباح من العاملين بالفندق، مفرطى العدد (حوالى ٢٨٥ شخص) من تنظيف موائد التراس ذات الأسطح الزجاجية، وغسل الكراسى بالإسفنج، ومسح غرفة بار الفندق ذات القواطع الخشبية المصبغة. يسأل بروور إن كان ثمة رسائل له إذ إن الفندق مكان آمن يُستخدم على نطاق واسع لتلقى البريد. يُحى مدير البار على بيهار، وأبو خليل، كبير السقاة (البارمان)، وهو يقوم بتقطيع الفلفل الأخضر الذى يزرعه في حديقته إلى مربعات صغيرة لاستخدامه في مشروب "بلودى مارى" المحبب الذى يقدمه البار. ثم إلى العمل - الذى يعنى بالنسبة لبروور شرب القهوة مع كرواسان، أو جرعة من مشروب جيسون (مارتينى متلج مع بصلصة صغيرة فى حجم اللؤلؤة) فيما يتبادل الشائعات مع رئيس محطة السى أى إيه المقيم. لم تُبلغ الوكالة عقدها الأول بعد، لكن بروور يألف أساليبها. فبعد أن درس باكستر وييل، تحول إلى الصحافة فى ثلاثينات القرن العشرين وجذب الانتباه للمرة الأولى بتغطية للحرب الأهلية الإسبانية لصحيفة شيكاغو تريبيون. أثناء الحرب العالمية الثانية، جندّه مكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS)، سلف السى أى. إيه، وأثناء عمله على

المسرح الأوربي، كَوْنُ صداقة مع سايروس إل. سولزبرجر كاتب أعمدة الشؤون الخارجية بالنيويورك تايمز. أعجب سايروس بسام (برور) - كان طويلا، عميق التفكير، ربطة عنقه على شكل فراشة، صوته خفيض - ولدى انتهاء الحرب فتح الطريق أمامه للعمل بالتايمز. بيد أن سولزبرجر كان حذرا من روابط برور بالاستخبارات الأمريكية. حينما هبط وبيلبور كراين إيفلاند، فيما كان مازال عميلا سريا مستجدا، ببيروت عام ١٩٥٥، اجتمع على الفور ببرور بالسان جورج، ورأى أنه مُصدّر لا يقدر بثمن ومستمتع صبور. أطلع برور إيفلاند على رسالة داخلية لقسم الشؤون الاجتماعية تقول إن مصر قد وقّعت صفقة أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا، الأولى من نوعها مع بلد من الكتلة السوفيتية. يذكر إيفلاند في مذكراته "جبال من رمال" أن "برقية أخرى وصلت في وقت متأخر من تلك الليلة مفادها أن وزير الخارجية دالاس قد بعث بجورج ألان مساعد وزير الخارجية إلى القاهرة لإجراء محادثات مع ناصر. ومن أجل التظاهر بأننا غير مهتمين بالصفقة، أعلن عن الرحلة بصفتها "زيارة روتينية للمنطقة تشمل عدة بلدان لمناقشة المشاكل الراهنة" (برور إيفلاند تفاصيل نصف دسة قصص أمد بها برور والتايمز).

وبحس المطّع على مواطن الأمور خلف قصص أغلفة الصحف والمجلات المفبركة، طوّر سام علاقات مع كل المهمين في بيزنس التجسس بالشرق الأوسط. كان ضمن رواد مائته المنتظمين حفيدا تيودور روزفلت، أي كريميت وابن عمه أرشيبالد، كبيرا المتخصصين في الشؤون العربية بالسبي أي إيه. كان الفلسطيني أبوسعيد أبو الريش من مصادره اليومية، وكان أيضا مراسلا للتايمز ومن "أصول" السبي أي إيه الموثوقة (كان أيضا والد الكاتب سعيد أبو الريش مراسل إذاعة أوروبا الحرة). كان بين البريطانيين البارزين إيتش إيه. آر (كيم) فيليبس، مراسل الإكونوميست ببيروت، والذي كان قد استقال مؤخراً في ظروف مبهمة من الاستخبارات البريطانية. نال فيليبس إعجاب أعضاء نادي "العاشرة صباحاً" بسلوكة

(عندما لا يكون ثملاً)، وثأثاته التي لا براء منها، وعينيهِ الزرقاوين المُبهمتين. كان سام وكيم قد التقيا أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، حيث كان بروور يرأسل من الجانب اليسارى الملكى، فيما كان فيليبى يكتب للتاييمز اللندنية من معسكر المتمردين الموالين للفاشية. أحياناً صداقتهما ببيروت، وحينما كان بروور يغادر بيروت فى مهمة كان يطلب من فيليبى رعاية زوجته كخدمة له. فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٦ التقى فيليبى مع إينور كارولين كيرنر بروور فى بار السان جورج. حينما عاد سام، كان ثلاثهم لا ينفصلون - استمر هذا عاما إلى أن طلبت إينور الطلاق وحصلت عليه فيما كان كيم يُعلن، متعلثما، نيته للزواج منها (قيل إن بروور سأل: "أتعنى أنك تطلب منى الزواج من زوجتى؟").

لكن كان ثمة رجل رابع تورط فى أكثر فضائح جاسوسية القرن الرخيصة ذيوعا. كان هو مايلز كويلاند، الذى كان عميلا سياسيا للسى آى إيه، وأول عميل لها يكتب بغزارة وحماقة عن دوره فى تفسير الأنظمة. ساعد على ترسيخ استراتيجية سرية أمريكية بامتيان بزعه ضباطا فى الجيش (لتولى السلطة) بدلا من الملوك والأمراء ورؤساء القبائل بالأسلوب البريطانى^(١). كان ناجحا بما يكفى

(١) عن مايلز كويلاند، فى كتابه "حرب الثلاثين سنة، الجزء الأول، سنوات الفيلان" (مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، القاهرة) عرض الأستاذ محمد حسنين هيكل بالتفصيل قصة رجل الاستخبارات الأمريكية "مايلز كويلاند" الذى كان أحد اثنين استعان بهما رجل المخابرات المعروف "جرميت روزفلت" وكان الثانى هو "جيمس إكلبرجر" الذى شغل منصب الوزير المفوض بالسفارة الأمريكية بالقاهرة، فى حين عمل كويلاند، لبعض الوقت ملحقا بها. بعد رفض عبدالناصر العرض الأمريكى بمقايضة تمويل السد العالى بالصلح مع إسرائيل، قرر أن تكون اتصالاته مع أمريكا عن طريق السفارتين فى واشنطن والقاهرة. كانت هذه ضربة قاضية لروزفلت (الجاسوس) الذى خفت ضوؤه ثم شُعب وتلاشى إلى أن غاب حسب تعبير هيكل ص. ١٧٩، وبعدها، ترك وكيلاند "إكلبرجر" و"كويلاند" المخابرات المركزية واقتنحا مكتباً للاستشارات التجارية

لأن يصبح مضرب الأمثال في حرفته، ولأن ينتزع شهادة فريدة من كيم فيلبى فى أعقاب احتفاء الأخير المُلفّز من بيروت وعودته إلى الظهور فى موسكو حيث لحقت به إلينور، زوجته الأمريكية. فيما بعد، علّق كيم فيلبى فى حوار معه بُث مباشرة

• فى بيروت اعتمادا على صلات سابقة مع شركات النفط وغيرها من المصالح الأمريكية فى المنطقة. ثم انفضت الشركة، ودار "مايلز كويلاند" بعد ذلك على المراكز التى عرفها أثناء خدمته السابقة بما فيها القاهرة، وفى البداية. كانت هناك رغبة مساعدته عن فهم بمجموعة "كريميت" كلها. ثم تبدل الموقف حينما تبين أن "كويلاند" يبحث عن صفقة يبيع فيها أى شيء لأى مستعد للشراء وفى أى سوق.

وفى هامش ص ١٨٠ اضاف الأستاذ هيكل، "وبالفعل، فقد وجد "مايلز كويلاند" مشتريا لبصاعته. وهكذا كتب ونشر كتابا بعنوان "لعبة الأمم" المبح فيه - تلميحا وليس تصريحاً - إلى أن /الخبايا الأمريكية كانت تعرف مسبقا بثورة يوليو وأنها كانت على صلة بها على نحو أو آخر. ولم يكن ذلك بالقطع صحيحا باعتراف "مايلز كويلاند" نفسه الذى تتكفل مراسلاته بإظهار الغلل فى شخصيته. وعلى أية حال، فإن هذا الكتاب لم يلبث أن أصبح الذخيرة الأثيرة لدى كل من يريدون الهجوم على ثورة يوليو، بحسن، أو سوء نية.

ويشير هيكل إلى أن ترجمة ملف مراسلات "كويلاند" مع عدد كبير من الشخصيات المصرية التى عرفها أثناء عمله بمصر تصل إلى قرابة المائتى صفحة، وأنه كان ينوى نشر الملف كاملا، ثم غير رأيه لأن كل امر من الأمور لابد أن تظل له نصيبته الصحيحة إلى حجم الأحداث وقيمتها. يقدم الأستاذ هيكل فى الملحق الوثائقي لكتابه ٤ وثائق (ص ص ٨١ - ٨٢)، كما يعرض قائمة تضم ٢٥ من مراسلات كويلاند إلى مسئولين مصريين. ويركز هيكل فى الكتابات التى أوردتها على أن "كويلاند" يستنكر ما نسب إليه من أنه ادعى أن وكالة الخبايا الأمريكية كانت تعرف بموعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ويقول إن هذا الادعاء عليه كذب ومحض هراء. كما عرض "كويلاند" فى رسالة منه إلى هيكل بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٦٩ أن يقوم هو بتخيير ما يراه فى كتابه "لعبة الأمم".

• شكر خاص من الترجمة إلى الأستاذ عبدالعال الباقورى الذى اعد هذا الهامش.

على الهواء من إذاعة موسكو فى الستينيات بقوله "لقد عرفتُ هذا المتأمر لعشرين عاما، من ثم يمكننى أن أقول إن كتاب مايلز كويلاند "لعبة الأمم" هو نفسه خطوة فى لعبة السى أى إيه البشعة".

من كان مخطط المؤامرات البشع هذا؟ كان مايلز كويلاند (ولد حوالى ١٩١٦) هو الأقل تبحيية بين عملاء استخبارات الولايات المتحدة. تذكر زميله ويلبر كراين إيفلاند أنه لدى وصوله إلى مطار القاهرة عام ١٩٥٣ استقبله ورحب به شخصا منبسطا متهلل الوجه طوله ستة أقدام، شعره كثيف أصفر بلون الرمال، نظارته ذات إطار بلاستيكي و"عيناه ترقصان من الاستثارة". وصفته مرثيته التى نشرتها التايمز اللندنية (مات كويلاند باكسفورد شاير عام ١٩٩١) بأنه "دبٌ دافئ المشاعر" ظل "أمريكا يتباهى بذلك" على الرغم أنه قضى جزءا كبيرا من حياته بإنجلترا. تذكر لارى جيه. كورب، صنيعة المخلص، أنه التقاه وهو يغادر شقة عدنان خاشوقجى تاجر الأسلحة بنيويورك. بدأه مايلز فيما كان المصعد يهبط "هالو، إنك لارى كورب، أليس كذلك؟ لقد سمعت عنك". تذكر العميل المستجد بذلة كويلاند القطنية المخططة ونظارته ذات الإطار الأسود، "التى ماثت تماما نظارة والدئ". لكن على الرغم من شدة وضوح شكل كويلاند، إلا أن خطوط كفافه تكاد تكون مشوشة غامضة. مثلا ذكرت مرثية التايمز اللندنية أن عمر كويلاند لدى وفاته كان هو السابعة والسبعين وكذلك فعلت الواشنطن پوست. إلا أن النيويورك تايمز قالت إن عمره كان الرابعة والسبعين فيما قدرته الجارديان بالسادسة والسبعين. تتجنب مذكرات كويلاند التى نشرها بعنوان "لاعب اللعبة" (١٩٨٩). التواريخ المحددة المضبوطة، لكنها تُثبت أنه شب فى برمنجهام، ألاباما، حيث تخرج فى ثانوية إرسكين رامساي التقنية عام ١٩٣١، أو ١٩٣٢، مما يشير إلى أنه كان أقرب إلى السابعة والسبعين لدى وفاته. بيد أنه يحتمل لائ من التفاصيل السابقة أن تكون صحيحة.

ينطبق مبدأ لا يقيني آخر على معظم سيرته التي كتبها عن نفسه. هل كان عازفاً ممتازاً على البوق بالمرحلة الثانوية لدرجة أنه دُعي للاداء مع فرقة سوداء أصبحت فيما بعد فرقة إرسكين هوبيكينز الكبيرة في تاسكجي؟ هل كان يؤدي في أوركسترا هارلم كوتون كلوب، ثم انضم إلى أوركسترا جلن ميلر الأكثر تميزاً، مستهلاً ظهوره كأحد رباعي عازفي الأبواق على سطح فندق روزفلت بنيو أورلينز في سبتمبر ١٩٤٠؟ يكتب قائلًا كموسيقى في فرقة الجاز، كنت أتناقص أعلى أجر (أعني في تلك الفترة) بل إنني حتى اكتسبت إعجاب زملائي. استمتعت بالعزف في فرق الجاز الكبيرة أكثر من تمتعي بأية مهنة أخرى أو حتى بأية هواية، من قبل ومن بعد. وسواء كانت تلك مبالغاة أم لا، فقد أصبحت إجابة كويلاند للجاز ضمن فولكلور السبي أي إيه الراسخ، وتم عرض بوقه الحقيقي (أو المزعوم) كأثر يُعزّز به في احتفالات مرور خمسين عاماً على إنشاء الوكالة في ١٩٩٧.

في ١٩٤٠، التحق كويلاند بالحرس الوطني، ومثل كل المجندين، أدى اختبار ستانفورد - بينت الاستخباراتي. يؤكد في سيرته الذاتية أنه حصل على ١٦٠ درجة أعلى درجة حصل عليها أي أحد في جيش الولايات المتحدة بأكمله، أو (كما ذكر) تقريباً نفس المستوى الذي قُدِّر لأينشتاين، وجوته، والمسيح عيسى وفقاً لتكهنات علماء النفس في جامعة ستانفورد. وسواء كان ذلك صحيحاً أم زيفاً، فقد أثبت كويلاند عبقريته في تكوين الشبكات. تم تعيينه في فرقة استخبارات الشرطة بالجيش (CIP) بواشنطن، وهناك اتصل بعضو الكونجرس عن الأياها الذي أصبح فيما بعد عضواً بمجلس الشيوخ، أي جون سباركمان الذي وصفه كويلاند بأنه "أحسن رجل في العالم". فتح سباركمان الأبواب لمكتب الخدمات الاستراتيجية الاستخباراتي أمامه وكذلك أبواب رئيسه الجنرال ويليام جيه. دونوفان. انسجم الاثنان على الفور "بالأسلوب الذي يحب به شخصان من الطرفين التقيضين في السلم الاجتماعي بعضهما" هكذا يذكر كويلاند: "وفي غضون دقائق كنت أروي له

طرائف عن مناوراتي في مستنقعات لويزيانا.. ضحك وضحك وسألني ما إن كنت قد تغديت. وهكذا، وبعد دقائق، كنت أتناول السنوتشات والبيرة على مكتب وايلدييل دونوفان في وقت كاد يكون رجلا غير متاح لأي شخص من العالم الخارجي باستثناء الرئيس روزفلت. خرجت من مكتبه مع تأكيدات أنه سيستل بي.

في الواقع، لم يجئ كويلاند بمكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) الميهر، بل خدم بدلا من ذلك في شرطة الاستخبارات المضادة "CIP" المملة، التي وُلدت من جديد عام ١٩٤٢ باسم فرقة الاستخبارات المضادة "CIC" والتي كان يعمل بها عدد كبير من اللغويين وذلك للقيام بمهام الاستجوابات والمراقبة. (لا تذكر مذكرات كويلاند رتبته هناك، لكن غالبية عملاء CIC كانوا من ضباط الصف). وفي نفس العام سافر إلى لندن في زمن الحرب حيث سكن بشارع ساوث أودلي بحي ماي فير الراقي. هناك عمل على إتقان الفرنسية، وحضر المناسبات الاجتماعية مع عملاء الاستخبارات البريطانية، وكانت من بينهم لورين أدى، ابنة أحد جراحى الأعصاب بهارلي ستريت، وكانت هي متخصصة مبتدئة في علم الآثار، وأصبحت زوجته مدى الحياة. من الواضح أن كويلاند حصل على تصريح سرى للغاية أتاح له الاطلاع على الخطط التفصيلية لعملية أوفرلورد Operation Overlord، وزعم أنه شارك في تدريبات "غرفة الألعاب" أي (وضع الخطط) بالمبنى رقم ٢٠ بميدان جروفنر، حيث كان الجنرال أيزنهاور وهيئة أركانه يدرسون بتعمق استراتيجتهم للإنزالات بنورماندى.

في يونيو ١٩٤٤، في أعقاب اليوم "ى" (اليوم المحدد لشن العملية) دخل كويلاند فرنسا ومعه عملاء CIC (فرقة الاستخبارات المضادة) وكان بينهم (كما كان يُحب أن يوضح) هنرى كيسنجر، جيه. دى ساليلى، وويليام سارويان. كان حاضرا قبل، أثناء، أو بعد تحرير باريس (تختلف الروايات) ويقال إنه شرب الأنخاب مع إرنست هيمنجواي بين آخرين. لكن كانت مهمة الـ CIC الأهم هي تلك التي أنيطت بها في

ألمانيا. فيما كان بلندن، عرف كوپلاند لأول مرة بأمر Operation Paperclip التي كانت ترمى إلى اختطاف علماء الصواريخ الألمان قبل وصول القوات السوفييتية وتفوز بهم. سعت CIC، إضافة إلى الاستيلاء على صنّاع صواريخ V-1 و V-2 إلى العثور على الضباط النازيين السابقين مثل الجنرال راينهارد جيهن الذي زعم أن بحوثه ملفات الكرملين السرية، وأيضاً مجرمي الحرب من أمثال كلوس باربي "جزّار ليون" الذي استخدمته CIC ووضعت على كشوف رواتبها قبل تهريبه إلى أمريكا الجنوبية واستخدامه ضمن عملاء آخرين، للتجسس هناك. اعترف كوپلاند، بعد زيارته لمعسكرات الموت النازية، ولأن كثيراً من زملائه في CIC كانوا يهوداً، بوخز الضمير حول ما أسماه ذلك العمل القذر. بيد أنه تعلم مباشرة أن الأحكام السرية للعمليات كانت مطأطة أخلاقياً، وأن الشاجبين لها الرسميين الورعين كانوا مجرد منافقين مضللين، وأنه إذا نُظر إليها من الجانبين المتعارضين فإن المسابقة على السيطرة على البلدان الأجنبية هي في حقيقة الأمر لعبة، الأمر الذي أكد له "لا أخلاقية سياسات القوة" ذلك التعبير الذي جعل منه العنوان الفرعي لكتابه.

لم يكن ثمة لاعب في تلك اللعبة يفوق وايلد بيل دونوفان شراة. كان قد اقترح من قبل منح OSS وضعاً دائماً. كان دونوفان يبتهج لإنجازات عملاته العملية، ورأى أنه سيكون ثمة حاجة لمهاراتهم لأن موسكو كانت قد بدأت تظهر في الأفق كمنافس لواشنطن بعد الحرب. لكن حماسه التبشيري هذا عمّل على تشوش منظوره وأدى إلى إساعة فهمه للمزاج الشعبي. في سبتمبر عام ١٩٤٥، بعد استسلام اليابان بشهر، قام الرئيس ترومان بحل OSS رسمياً. بيد أن دونوفان تمكن بنجاح من أن يجد وظائف لمئات من عملاء الاستخبارات، بمن فيهم كوپلاند، في "وحدة الخدمات الاستراتيجية SSU الجديدة، والتي كانت الجنين الذي تطورت منه وكالة الاستخبارات المركزية: سى آى إيه، والذي شرعن الكونجرس ميلادها بإصداره "قانون الأمن القومي" لعام ١٩٤٧ .

نص القانون على وظائف السي أى إيه الخمس، التي كانت أربع منها تختص بجمع الاستخبارات ذات الصلة بالأمن القومي وتحليلها ونشرها. أعطت وظيفة خامسة تمت صياغتها بإبهاام الوكالة السلطة فى أداء وظائف أخرى ومهمات ذات صلة بالاستخبارات التي تؤثر فى الأمن القومي وفقا للتوجيهات التي يصدرها مجلس الأمن القومي من وقت لآخر". ونظرا لأن مجلس الأمن القومي مسئول فقط أمام الرئيس لا الكونجرس، فقد فتح هذا مساحة كبيرة للعمليات السرية ضد الإمبراطورية السوفييتية الأخذة فى التوسع. (فيما بعد مُنح القانون للكونجرس قدرا محدودا من الإشراف على السي أى إيه، لكن تظل موازنة الوكالة سرية، كما أصبح الكشف عن هوية أى من عملائها السريين جريمة فدرالية، وقد تذكّر الأمريكيون هذا فيما بعد أثناء نظر قضية "الولايات المتحدة الأمريكية ضد أى لويس ليبى، المعروف أيضا باسم سكووتر ليبى").

تزامن مولد الوكالة مع شتاء ١٩٤٦-١٩٤٧ المشهود البارد، حينما أبلغت بريطانيا المهكة المانزومة الولايات المتحدة أنها لم يعد باستطاعتها تقديم المساعدة العسكرية للحكومة اليونانية التي كان رجال حرب العصابات الشيوعيون يتحدونها، أو مساعدة تركيا فى الدفاع عن حدودها الطويلة مع روسيا السوفييتية. ردت واشنطن فى مارس ١٩٤٧ بعبداً ترومان الذي سمح بتقديم مساعدة عسكرية مباشرة إلى اليونان وتركيا، والذي تعهد بدعم الشعوب الحرة فى أى مكان ممن يقاومون "محاولة إخضاعهم بواسطة أقليات مسلحة أو ضغط أجبنى". عمل كل هذا على كهربية الجو حيث ذهب أول مائتين من موظفى السي أى إيه، وكان مايلز كوپلاند بينهم، إلى الأكواخ المؤقتة بالمول التي كانت قائمة بواشنطن منذ زمن الحرب لاستلام مهامهم.

بدا أن كشوف مرتبات السي أى إيه تضخمت بين عشية وضحاها. فى عام ١٩٦١، انتقلت الوكالة إلى مقر بمدينة لانجلي، فيرجينيا يتسع لخمسة عشر ألفا من

العاملين على مساحة ١٢٥ فدان. زاد من زخم الأجواء الجامعية المحيطة بالمقر وضع تمثان نايتان هيل، أول أمريكي نُفذ فيه حكم الإعدام بتهمة التجسس وضعه في المخل، كان التمثال صورة طبق الأصل من ذلك الموجود بجامعة ييل حيث درس هيل، مستهلاً بذلك ارتباط الجامعة الطويل بالاستخبارات.

(في ثمانينيات القرن العشرين تم نقل التمثال إلى الداخل لأن ويليام جيه. كيسيس رئيس السى آى إيه فى عهد ريجان شعر أن الموقع الأصلي بحث برسالة خاطئة، وذلك لأن هيل، وبالرغم من بسالته، أخفق فى مهمته). حنّد مؤسسو السى آى إيه أوسع آفاق ممكنة (لن جاوا بعدهم). فى خطاب له بجامعة ييل عام ١٩٥٨، أعلن آلان دالاس، المدير الخامس للاستخبارات المركزية أن "قانون الأمن القومى منح الاستخبارات وضعاً نافذاً فى حكومتنا أكثر من ذلك الذى تتمتع به أية استخبارات فى أية حكومة أخرى بالعالم".

بهذه الروح عمل مؤسسو الوكالة جاهدين على اختراع تقاليد تليق بأول جهاز تجسس أمريكى يعمل باستقلال فى زمن السلم. كان مايلز كوپلاند بين العملاء الأكثر إبداعاً، وكان قد شبه رفاقه فى عمليات السرقة بصبية أبرياء أعطوا لعبة وترخيصاً بالسرقة. فى سبتمبر ١٩٤٧، عُيّن كوپلاند فى دمشق، رسمياً كدبلوماسى أدنى مرتبة وفى واقع الأمر أول رئيس عملياتى للسى آى إيه بسوريا. ومثل كثير من الأشخاص الموهوبين موسيقياً من نوى حاسة السمع المتميزة، كانت له قدرة خاصة على تعلم اللغات، وفى غضون عام وبمساعدة مساعده الذى كان يتحدث العربية، كان، وفقاً لروايته، يجيد اللغة بدرجة أنه جمع معجماً باللغة العربية الدارجة (زعم كوپلاند أنه الأول من نوعه مما يجعلنى كما قال مدرسى متباهياً، داننى اللغة العربية").

بيد أنه، أى سياسة، أو سياسات، كان من المفترض على هذا العميل السرى المبتدئ أن يعززها؟ (كان كوپلاند فى الحادية والثلاثين، مع إمكان إضافة بضع

سنوات أو خصلمها). انتهى كويلاند، بعد مراجعة مراسلات البعثة الأمريكية مع واشنطنون، إلى أن الإجماع السائد، والذي لم يُفصَح عنه، هو أن الدول العربية كانت فى صراع غير ضرورى مع الولايات المتحدة، ويرجع ذلك بدرجة شبه كاملة إلى القيادات سيئة النية والمضللّة- قياداتهم لا قياداتنا". وحقاً، فى وجود قيادات مستتيرة مؤثرة، يصبح العرب حلفاءنا الطبيعيين. أوجز كويلاند ما شعر أن أمريكا الرسمية تعتقده كالتالى:

"للعرب جميع الأسباب التى تجعلهم يخشون السوفييت، فيما أنه ليس لديهم أى سبب ليخشونا، كما أنه ضد الطبيعة بالنسبة لهم ألا يرحبوا بعروضنا لحمايتهم. إن شركائنا النفطية هى التى جعلتهم أثرياء. وسيكونون المستفيدين الرئيسيين من أية تسوية ودية للمسألة الفلسطينية" كنتك التى بإمكاننا نحن فقط أن نضمنها. نُظَر إلى رفض قادتهم تبني تلك الرؤية على أنه سبب كافٍ، ومبرر للإطاحة بهم- أو الأخرى تمكين شعوبهم من الإطاحة بهم. اعتقدنا أنه لو أن لأية قيادات قومية فى العالم أن تفيد من تدخلنا فى شئونهم، فإن هذه القيادات هى القيادات العربية".

من ثم، افترض كويلاند، بذهاً، أن له نوعاً من الحرية غير المعلنة لدعم تغيير النظام فى سوريا، التى كان يحكمها آنذاك أعضاء سابقون، مُعمَرون، منهكون، غير ملهمين، أعضاء فى الكفاح القومى ضد فرنسا. بدأ بتجنيد "صديق خاص"، يوسف دبوس، أحد العاملين المحليين بالبعثة الأمريكية. كان متواطئاً متدفق الحديث، وبدا أنه يعرف جميع السوريين من نوى الشأن. أبلغه كويلاند أنه قد وقع اختيار واشنطنون على سوريا لتكون حالة اختبار للعمل على الإتيان بحكومة عاقلة منطقية، من المفضل من خلال الانتخابات الحرة، لدى سماعه هذا "أوماً يوسف بوقار وهو لا يكاد يخفى بهجته". وهكذا، "أصبحت سوريا فى مطلع ١٩٤٩ أول بلد شرق أوسطى يخبر مهارات السى أى إيه فى التدخل فى الشئون الداخلية للدول ذات السيادة". ثم مضى كويلاند ليصف بصراحة كيفية التدخل بأسلوب يمكن إنكاره والتوصل منه.

بدأ العمل السري السياسي الجديد بأن طلب من سائقه سرقة دليل تليفونات وزارة الدفاع ثم، وغالبا بمساعدة يوسف، أقتنح أكبر مُرابٍ في المدينة أن يحدد المسؤولين العاجزين عن تسديد ديونهم. ثُمّت مفاتحة مرشحين مُعوزين، ووافقا كلاهما على سرقة الوثائق مقابل الأموال، رغم أنه ظهر أن أحدهما كان يقوم بنفس الخدمة لأحد عملاء الكيه جي بي (المخابرات السوفيتية). في تلك الأثناء، حصل كوپلاند على موافقة واشنطن لنقل ستيفن ميد الملحق العسكري الحنك ببيروت إلى دمشق. عقد ميد الملىء بالحيوية، وحلو الحديث، صداقة مع الكولونيل حسنى الزعيم، رئيس أركان الجيش، ووعده، أو أنه أوحى إليه، بأنه لو تخير الاستيلاء على السلطة، فستعترف الولايات المتحدة بنظامه على الفور.

أيّا كانت التطمينات التي من المحتمل لميد أن يكون قدمها، كان الكولونيل يفهم بوضوح أن ثمة أربعة موضوعات كانت موضع اهتمام واشنطن: التايالين، تركيا، إسرائيل والشيوعية. في عام ١٩٤٧، كانت شركة خطوط الأنابيب العابرة لبلاد العرب (التايالين) قد بدأت في مد خط أنابيب يصل حقول نفط أرامكو في السعودية بميناء صيدا بلبنان. لكن المصادقة على عبور الخط قد توقفت من خلال السياسيين في سوريا ولبنان الذين شجبوا الخطة على أنها استسلام للكونيالية. وبالمثل، وصلت المحادثات حول وضع ميناء الإسكندرية المهم إلى طريق مسدود، وكانت كل من تركيا وسوريا تزعم ملكيته. كما أن دمشق رفضت أن تكون طرفا في اتفاقية وقف إطلاق النار مع إسرائيل بعد هزيمة جيوشها المهيبة في حرب عام ١٩٤٨. وبدا أيضا أن حكام سوريا المتصلبين إما أنهم كانوا سنّجا أغبياء أو متواطئين راغبين. كما تبدى ذلك في تساهلهم مع الحزب الشيوعي السوري الذي كان أخذًا في التوسع.

حدث الانقلاب في ٣٠ مارس عام ١٩٤٩. وكذريعة مزعومة وضرورية في آن، واجه الكولونيل حسنى الزعيم رؤساءه المدنيين بمطالب من غير الممكن إنجازها،

وكان رفضهم لها سببا في إذاعته بيانا، صاغه أحد المتواطئين مع كويلاند بوزارة الدفاع. جاء بالبيان: "أيها الجنود والوطنيون: ها نحن نعيش لحظة عظيمة في تاريخ أمتنا الشامخة! لقد بدأ عهد جديد! انتهى الفساد. سقط عملاء الإمبريالية والشيوعية. ولأول مرة منذ قرون غدا السوريون شعبا حرا" (في سرد كويلاند للأحداث أضيفت الإشارة للشيوعية نزولا على رغبة ستيفن ميد). وفيما كان البيان يُعلن، أُلقت القوات المتمردة القبض على رئيس جمهورية سوريا ، ورئيس الوزراء، ورئيس الشرطة المحلية، وكبار الوزراء والنواب. أرسلت تقارير بتلك الأحداث، فصلا فصلا بإسهاب إلى المعنيين بواشنطن الذين افترضوا بداهة أن كويلاند وميد قد هندسا الأمر برمته "وكان هذا انطبعا لم يكن لدينا أى سبب لتصويبه. بما أنه أدخل السرور على معجبيتنا بالوطن، وبما أنه لم يكن لدى أى منا مانع في كسب نقاط تقدير تضاف إلى سجلينا".

تم الانقلاب دونما إراقة دماء تقريبا. زعم كويلاند، وهو يكتب بعد ذلك بأربعين عاما أن الإسهام الوحيد المهم الذي قدمه هو وميد كان الوعد باعتراف أمريكا بمجرد تولي الزعيم السلطة. لكنه يضيف "جلس ستيف في المقعد الخلفي من ليموزين حسنى الزعيم الذى طاف بأثناء المدينة حيث مضى يؤثر له إلى الأهداف التى لا بد من الاستيلاء عليها (محطة الإذاعة، مولد الكهرباء الرئيسى، المكتب الرئيسى لشركة الهاتف، وجميع السياسيين الذين قد يكون بوسعهم حشد مقاومة): وتظاهر حسنى بتهذيب، بأنه لم يكن قد فكر فى ذلك. أيضا أعطيت قائمة بما عليه أن يفعله ولا يفعله من حيث إجراءات الأمن، ويفضل العميل A فى وزارة الدفاع، تمكنت من إعطائه معلومات معينة ذات صلة بالخطط التى لا يستطيع حسنى الحصول عليها من الوزارة دون إثارة الشكوك".

كان وصف كويلاند المبني للتمرد أكثر إسهابا، قبل اعتراف الولايات المتحدة بالامر الواقع، هكذا يكتب فى "لعبة الأمم" (١٩٦٩) كان ميد يلزم الرئيس الزعيم

بأسلوب دائم "يبلغ الديكتاتور الجديد من يجب تعيينه سفيراً ببريطانيا، وأى المسؤولين يجب ترقيةهم إلى مناصب دبلوماسية، وأى غداء يُقدّم للرئيس المخلوع". لكن بمجرد ما أعلنت واشنطنون اعترافها غدا الرئيس حسنى الزعيم رجلاً جديداً. أبلغ مرشديه الأمريكيين أن عليهم مخاطبته باستخدام "حضرتك vous" لا "أنت tu" (كانت لغتهم المشتركة هي الفرنسية). والأفضل، أضاف الزعيم، هو أن يقول "فخامتكم".

اتخذ "فخامتكم" لدى توليه منصبه الخطوات التي كانت واشنطنون قد سعت إليها منذ زمن طويل. في المسألة الإسرائيلية الخلافية، انضمت سوريا، أخيراً، إلى محادثات الهدنة التي كانت جارية آنذاك مع الدول العربية، في مكان خفى على الحدود السورية. كما اتخذت إجراءات صارمة ضد الشيوعيين السوريين. صادقت إدارة الزعيم على مرور خط التايلاين خلال سوريا، وتمت تحلية ذلك الاتفاق بتقديم مجموعة شركات التايلاين إلى سوريا قروضاً بلغت مجموعها ٤٠ مليون دولار. تحسنت العلاقات مع تركيا حول مشكلة الإسكندرونه حينما أعلن الزعيم استعداده للانضمام إلى كتلة موالية للغرب نظير تلقى مساعدات عسكرية. علاوة على ذلك، منع الزعيم، الذي كان من أصول كردية، النساء حق الاقتراع، وأعلن استنكاره لغطاء الرأس العربي التقليدي، وألغى الألقاب الإقطاعية مثل "البيه" و"الباشا". لكن باتريك سيل، أهم مؤرخ بريطاني لسوريا، يرى أن الزعيم كان أقل نجاحاً كسياسي، وبما أنه، ومنذ البداية، كان قلقاً حول عدم شرعية نظامه، كانت رغبته هي أن يصبح رئيساً للجمهورية ويتخذ وضع الند إلى جوار الملوك ورؤساء الدول الذين غدا عليه التعامل معهم.. وتدرجياً، انتقل إلى العلو الشاهق للسلطة الشخصية وتخاصم مع حفنة من الضباط النشطاء الذين كان قد خطط للانقلاب معهم.

أيد هذا الحكم أنطوني ناتينج، وكان وزيراً بريطانيا شاباً استقال احتجاجاً على سوء تقدير حكومته الفظ أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦، "كاد يكون من المستحيل على السى أى إيه أن تختار شخصاً ليس لديه فرص للنجاح أسوأ من

ذلك الضابط القصير المتين متورد الوجه العرييد المختال. وبمجرد أن تولى السلطة، مضى يتزيا بأزياء عسكرية متألقة، وعصا مارشال ثمنها يزيد على ألف جنيه استرليني، وأخذ يستغرق في أفكار خيالية مثل قدرته على تحويل هزيمة العرب عام ١٩٤٨ إلى انتصار من خلال مفاوضات الشخصية مع (رئيس الوزراء الإسرائيلي دايفيد) بن جوريون... وحينما تسببت التوامات مناورات وانعطافاتها في اغتراب من كانوا قد تمنوا له النجاح، أطيح به من خلال انقلاب آخر بقيادة كولونيل آخر. هكذا كتب ناتينج عام ١٩٧٢ .

يبو من الإنصاف القول إن المزايا قصيرة المدى التي اكتسبتها واشنطن من ذلك الانقلاب الأول الذي دعمته السي أي إيه محتها التكاليف طويلة المدى والتي تمثلت في إطلاق متتالية من الانقلابات التي مكنت القوات المسلحة في دول الشرق الأوسط الرئيسية من التحكم في الشؤون السياسية. أما الأثر الدمر غير الملموس، فهو أن التمرد السوري عمل على نشر ثقافة من الهارنويا. نُسبت إلى وكالات الاستخبارات الأمريكية قوة كلية مبالغا فيها، وأصبح يُعتقد بعامة أن عملاها مرتبطون بأسلوب كلي بالموساد. على أية حال، كانت سوريا مسرحا مشكوكا فيه لتجربة "عملية سياسية" - التعبير المجازي الذي تستخدمه السي أي إيه للتدخل سرا - في ضوء تاريخها الفريد والأكيم.

كانت فرنسا قد وعدت بسوريا ولبنان عام ١٩١٦ بمقتضى اتفاقية تم التوصل إليها سرا مع بريطانيا حول اقتسام الغنائم المحتملة للإمبراطورية العثمانية بعد هزيمتها. لكن الحدود لم تكن قد عيّنت بأسلوب محدد مضبوط. في عملية تبادل المناطق التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، أقتع البريطانيون فرنسا بفصل فلسطين وإقليم الموصل الغنى بالنفط عن سوريا، مع ضم الأخير إلى العراق وتقسيم فلسطين إلى دولتي فلسطين وشرق الأردن ووضعهما تحت الانتداب. ثم تبع ذلك عملية طرح

أخرى حينما انتحلت فرنسا، بزعم حقوق لها منذ الحروب الصليبية، حقوقاً أخرى لها في سوريا ولبنان بصفتها بلداً منتصراً. عبّر عن هذا المزاج الانتصاري الجنرال هنري جورود، الذي أصبح فيما بعد المندوب السامي بالشام، لدى دخوله دمشق في يوليو ١٩٢٠. توقف الجنرال لدى قبر صلاح الدين بالجامع الكبير، ثم رفعه بقدمه، وصاح لتسمعه العصور (كما اعتقد) "انهض يا صلاح الدين! لقد عدنا! إن وجودي هنا يكرّس انتصار الصليب على الهلال"^(١). ثم قام الفرنسيون بتقطيع أوصال الشام أكثر. توسع الكيان العثماني المدمج الذي كان يعرف باسم "لبنان الكبير" والذي ظل منذ زمن طويل معقل الموارنة، توسع على حساب سوريا وكلف ما أسمى "لبنان الأكبر" زيادة في أعداد السكان غير المسيحيين. وفي قضية أخيرة منح الحلفاء المنطقة الساحلية شمال حلب التي تضم موقع أنطاكية القديم لتركيا. وحينما انسحبت فرنسا رسمياً من سوريا عام ١٩٤٦، كانت الدولة المستقلة الجديدة تتكون من حوالي ١١٥٠٠٠ ميل مربع، مقارنة بمساحتها الأصلية التي كانت حوالي ١٨٦٠٠٠ ميل مربع في العصر العثماني. وإلى يومنا هذا تُعَيّن الضرائب السياحية السورية الأراضي المفقودة بأنها تقع داخل "حدود مؤقتة".

بيد أنه - وفي غشّية من خداع الذات، اعتقد الفرنسيون في نجاح عملية احتلالهم للشام، قياساً على شبكات السكك الحديدية المحسنة، والموانئ المحدثّة، والمدارس والمصانع الجديدة، وغيرها من المؤشرات على التقدم المقترض. من ثم كانت صدمتهم عام ١٩٢٥ لدى اندلاع ثورة في أنحاء سوريا ولبنان، وأسرع الفرنسيون بقصف دمشق (التي تفخر ومعها حلب بأنهما أقدم مدينتين في العالم ظلتا باستمرار أهلتين بالسكان). في تحليلها التفصيلي، تكتب چورس لافرتي ميلر، المؤرخة بجامعة هارفارد: "حينما انتشع الدخان، كان جزء كبير من دمشق قد أصبح أنقاضاً؛ روعت التقارير عن عدد الموتى وفقدان الحرية الرأي العام العالمي وأشعلت المعارضة العربية. انطلق وابل من النقد العاطفي العنيف، حتى أنه تم

(١) يَروى أن صاحب تلك المقولة الأصلي هو اللبني. وربما كان جورود يردددها، (الترجمة)

التلميح في بعض الجهات إلى أن عصابة الأمم ستغلق انتدابها للفرنسيين على سوريا ولبنان. وبدا من ذلك، تلاشي التمرد الذي كان يعوزه التنظيم في غضون أشهر، وتحول اهتمام العالم إلى أمور أخرى.

تري ميلر أن جنود الثورة كانت تكمن في عملية فرض دولة قومية اصطناعية على مجموعات سوريا الفرعية الكثيرة التي كان لأفرادها في ظل الحكم العثماني إرث طويل من الحكم الذاتي في شؤونهم المحلية. تقول كان الإداريون الفرنسيون الأوائل بسوريا، في محاولاتهم لتطوير الأمة السورية وتحديثها، كانوا بالضرورة يثيرون غضب تلك المجموعات التي كانت دائما لا تثق في بعضها وهي تعيش داخل حدود الإمبراطورية العثمانية: وكانت تتعايش فقط لأن "الأمة" أو الإمبراطورية كانت ضعيفة. بياجاز، لم تكن ثورة عام ١٩٢٥ ثورة قومية لشعب موحد ضد القامعين الفرنسيين، لكنها كانت صراعا على القوة بين مجموعات انقسامية وداخلها، والتي لم تكن لتتوافق سوى على أمر واحد هو أن على الفرنسيين أن يرحلوا^(١). من الأمور الكاشفة أن الثورة بدأت في إقليم إداري يسكنه خمسون ألفا من الدروز، وكان الإداريون الفرنسيون قد أثاروا حنق قادتهم بمحاولاتهم إدخال نعم الحداثة بما في ذلك متحف كان يعرض تماثيل كلاسيكية وثنية (وعارية).

بلا ريب أنه ثمة تغيرات كثيرة في سوريا كانت قد حدثت منذ عشرينات القرن العشرين، لكن ما يعجب له المرء هو الثقة بالنفس الفاضحة التي تميز بها الغربيون، وقتئذ والآن، والذين يسلمون بداهة أنهم يعلمون الأصلح لأناس لا يستطيعون التحدث بلغتهم ولا يستوعبون شيئا عن أعراقهم وعاداتهم. من حيث العقيدة والأعراف، نجد أن السوريين هم سنة، وشيعة، وعلويون ودروز، وأكراد، وتركمانيون، وإسماعيليون (أتباع فرقة الحشاشين التي ازدهرت إبان الحملات الصليبية). السوريون أيضا مسيحيون من أتباع الكنيستين اليونانية والأرمنية،

(١) هذا تحليل مؤرخة أمريكية للثورة. اين تحليل المؤرخين العرب؟ (الترجمة)

وكاثوليك رومان وموارنة، بالإضافة إلى أتباع دسطة من الطوائف البروتستانتية - هناك أيضا طائفة تتحدث الآرامية تسكن مدينة معلولة الواقعة أعلى تل بالقرب من دمشق والتي يتلو رهبانها صلواتهم باللغة التي يقال إن المسيح كان يتحدث بها. أيضا لا يجوز أن تُفعل الزينيين، تلك الطائفة الكردية التي يعتقد أتباعها أن الله قد غفر للشيطان وأعاد إليه مكانته.

لابد وأن هذا التجمع غير المندمج كان واضحا أمام مايلز كويلاند الذي يبدو وأنه لم يستوعب تضميناته. مثلا، نراه يذكر أسماء القادة الذين مكن دعمهم حدوث انقلاب عام ١٩٤٩. يكتب في مذكراته قائلا: "أعتقد، أنه من المفيد للمؤرخين في المستقبل، أن أسجل أن القادة الأربعة كانوا هم أديب الشيشكلي (الشركسي)، محمد ناصر (العلوي)، بهيج كلّاس (المسيحي أشقر الشعر وأزرق العينين) وشوكت شقير (الدرزي اللبناني)". (ثم يضيف بتلذذ المُطلع على بواطن الأمور أن شوكت شقير كان ابن عم من الدرجة الثانية لسلوى روزقلت، زوجة رجل السى آى إيه أرشيبالد روزقلت، وكانت بصفتها الشخصية مراسلة مرموقة للواشنطن ستار القديمة، وأصبحت فيما بعد رئيسة البروتوكول للرئيس ريجان). لكن كويلاند يغفل عن ملاحظة أنه لم يكن ثمة فرد واحد في تلك العصابة السرية التأميرية ينتمى إلى الطائفة السننية العربية التي تشكل غالبية السوريين. أى أنه واقعيًا، فقد توقع داعمو الانقلاب الأمريكيون، أو أنهم أملا، أن بإمكان الكولونيل البدين الكردي، ذى الطموحات الفخيمة والقدرات المحدودة فرض سياسة ذات نكهة أمريكية مع احترام صوري لرأى المحكومين. كانت النتيجة حدوث دسطة أخرى من الانقلابات والانقلابات المضادة بلغت ذروتها في الديكتاتورية البعثية الراهنة.

لم يستمر حكم الرئيس الزعيم سوى خمسة أشهر حيث أُطيح به في أغسطس ١٩٤٩ بانقلاب مضاد مدعوم من البريطانيين بمره الكولونيل الشيشكلي لحساب

قائد كتبية أخرى، أي الكولونيل سامي الحناوي. ألقى الجنود المتمردون القبض على الزعيم ونفذوا فيه حكم الإعدام ثم دفنوه في مقبرة فرنسية. أبلغ الشيشكي كويلاند معزياً "لقد جاملناكم بمعاملة كعميل فرنسي"، ثم مضى الشيشكي ليطيح بالحناوي في ثالث انقلاب في غضون العام نفسه، وكان هذه المرة لحسابه وبدعم من السى أى إيه. ظل الرئيس الشيشكي، وكان الأكثر قدرة من بين أفراد تلك العصابة، في منصبه حتى فبراير عام ١٩٥٤ ثم أُطيح به. وقتئذ، كان الجيش السوري وقوات الأمن المتحالفة معه قد تغلغوا في الأوساط السياسية بدرجة أنهم أمدوا جنرالا من القوات الجوية يدعى حافظ الأسد بالمخالب القمعية، حيث أسس عام ١٩٧٠ ما يبدو وأنه دولته البوليسية الوراثية الحصينة^(١).

كان حافظ الأسد حفيد رجل مصارع في إحدى القرى اكتسب صيتا محليا، وابن أحد الوجهاء العثمانيين من المرتبة الأدنى، والذي قام في عام ١٩٢٧ بتغيير اسم أسرته من "الوحش" إلى "الأسد". تنتمي عائلة الأسد إلى الطائفة العلوية التي ظهرت إلى الوجود منذ ألف عام، ومعها الطوائف الشيعية والإسماعيلية، والدرزية، في أعقاب وفاة ثالث الخلفاء المسلمين. وكما يدل اسمهم اعتقد العلويون أن علياً حُرِّم من حقه في الخلافة. انقسم العلويون إلى أربع قبائل استقرت في مرتفعات سوريا الساحلية، أي المنطقة التي تعرف الآن باللاذقية، ويشكلون حوالي ١٢٪ من سكان سوريا البالغ عددهم ١٨ مليون نسمة.

وعلى الرغم من أن أهل السنة التقليديين يعتبرون العلويين منشقين ورتجبنونهم، إلا أن الأسد حول وضع الطائفة كاتلية إلى ميزة بأن فرض تسامحا على سوريا مبنيا على أساس "عيش ودعه يعيش". كانت أدواته السياسية لتنفيذ هذا هو حزب البعث الذي أنشأه ميشيل عفلق المسيحي خريج السوربون (كان أيضا يرتدي الطربوش)، خلق البعثيون في ظل الأسد، والذين كانوا علمانيين، يزعمون الاشتراكية، ويدعون إيمانهم بالوحدة العربية خلقوا وهما بالقبول الشعبي وبأملهم

(١) يبدو هذا السرد اختزالا مغللا للأحداث لا يتبنى سوى منظور واحد. (الترجمة)

فى وحدة على نطاق أوسع حينما أصبحت العراق جمهورية بعثية فى ظل صدام حسين. كان الحزبان يتبنيان سياستين مشتركتين: العداء لإسرائيل، وعدم الثقة فى الحكام المصريين المتتاليين من ناصر إلى مبارك، أى نظرائهم السلطويين العسكريين. إذا مزجنا صفقات الأسلحة الانتهازية مع الكتلة السوفياتية، والغزل مع واشنطون حول الشئون ذات الاهتمام المشترك (النفط وإيرن)، يصبح لدينا العناصر الأساسية لمعظم ديبلوماسية الشرق الأوسط أثناء الحرب الباردة^(١).

ومثل صدام، كان حافظ الأسد يفضل الخوف على الحب. تأكد هذا فى الدماء التى أريقت فى مدينة حماة الواقعة على شاطئ النهر التى تشتهر لدى الرحالة بسواقيها (نواعيرها) الضخمة المهيبة. كان الصحفي البريطانى روبرت فيسك حاضرا عام ١٩٨٢ حينما أخذت القوات الخاصة السورية بقيادة رفعت الأسد تمرد الإخوان المسلمين الأصوليين. كتب يقول "وقفت على شاطئ نهر العاصى فيما قصفت الدبابات السورية المقاتلة المدينة القديمة: رأيت الجرحى والدماء تغطيهم يرقنون إلى جانب مركباتهم المدرعة، والمدنيين الجائعين يفتشون القمامة بحثا عن الخبز. قيل إن حوالى ٢٠٠٠ شخص ماتوا فى الأنفاق تحت الأرضية والمباني المقصوفة. ربما كان الرقم الحقيقى أقرب إلى ١٠٠٠٠، لكن تم تدمير معظم المدينة".

رسمت المذبحة ما أصبح يعرف بـ "قاعدة حماة". لم تحدث انتفاضات أخرى طوال حكم الأسد الذى دام ثلاثين عاما، والذى انتهى بموته ميتة طبيعية عام ٢٠٠٠ (تولى بعده ابنه الأصغر بشار، بعد أن كان ابنه الأكبر بادل قد توفى فى حادث سيارة مسرعة عام ١٩٩٤). ترك بشار، الذى تعلم بالغرب، مهنته كطبيب بلندن، ليلتحق بالأكاديمية العسكرية السورية، وتخرج فيها فى زمن قياسي، وبأعلى الدرجات الممكنة، وبرتبة عقيد. تم تعديل الدستور خصيصا وعلى وجه السرعة للسماح له بتولى الرئاسة وهو فى الرابعة والثلاثين).

(١) مرة أخرى اختزال معطل لا يخلو من التحيز على اقل تقدير (الترجمة)

كان كل ذلك مازال في طي المستقبل حينما غادر كويلاند سوريا إلى حياة جديدة في القاهرة. في عام ١٩٥٣، استقال رسمياً من السي أي إيه ليلتحق بمجموعة "بوز، ألان وهميلتون" التي كانت حسب تقديره "أرفع مؤسسات الاستشارات الإدارية مكانة في العالم". أثناء غداء دام طويلاً مع كبير تنفيذي المجموعة، عُرض عليه منصب براتب كبير بالقاهرة، وأيد هذا العرض بحماس فرائك ويزنر مشرف السي أي إيه على العمليات السرية. وقتئذٍ، كان الجميع بلانجلي (حيث يوجد مقر السي أي إيه) يعلمون أن الطريق السريع إلى الترقية كان يمر من خلال مكتب ويزنر الذي أطلق عليه اسماً مُعقماً (لا يشير الريبة) وهو مكتب تنسيق السياسات، (OPC) الذيل الذي يحرك كلب السي أي إيه باكمله وفقاً لتعبير كويلاند. (بعد أن تخرج ويزنر من OSS، دعم انقلابات ناجحة في إيران وجواتيمالا، وأثناء ذروة الحرب الباردة، ساعد مكتبه سرا على إنشاء كونجرس الحريات الثقافية ومجلة إنكوانتر ومقرها لندن. وعلى الرغم مما ناله من إعجاب لدهائه وحيويته، فقد كان ويزنر يعاني من هوس الاكتئاب الحاد، ثم قتل نفسه عام ١٩٥٦ ببندقية صيد ابنة).

بالقاهرة، ترأس كويلاند فريقاً من ثلاثين شخصاً يقومون بدراسة إدارية لبنك مصر الأخذ في التوسع. كان هذا تكمة لعمله السري للسي أي إيه التي كانت آنذاك تبحث عن أصدقاء لها في أوساط الضباط الأحرار الإصلاحيين الذين نفخوا بنجاح انقلاباً ضد الملك فاروق البدين، المكروه، والذي لم يعد أحد يتذكره الآن. كان الضباط الأكثر راديكالية في الحركة يرون إنشاء جمهورية علمانية واشتراكية، لكن كان الوجه العام للحركة قد تمثل في الجنرال محمد نجيب سمح الحُيا، وكان معتدلاً يميل إلى التسويات، وعينته الحركة رئيساً للوزراء ثم رئيساً للجمهورية. لكن ما لبثت القاهرة أن أدركت أن الشخصية المهيمنة في مجلس قيادة الثورة كان هو جمال عبدالناصر، ابن موظف بالبريد، وكان آنذاك في منتصف الثلاثينيات، طويلاً، ذا لياقة جسمانية وعينين أسرتين ثاقبتين.

حينما طالب نجيب بإلحاح بإجراء انتخابات فورية بمشاركة كاملة من الشخصيات الوفدية القومية المتعفة والإخوان المسلمين المتقربين المتفجرين، خالفه ناصر الرأى الذى كان تجنب المؤلجين الماركسيين وكذلك الوفديين الفاشلين الفاسدين؛ وألح على حظر نشاطهم جميعا. كانت له رؤية لمصر وقد ولدت من جديد بعزة وفخر، فى المركز النابض للثلاث المتقاطعة - العالم العربى والإسلامى والإفريقى - وكانت تلك آراء كتب تفاصيلها فى منيقتو "فلسفة الثورة". سعى إلى مصر قوية بما يكفى كى تشار من مهانة ١٩٤٨ على يد إسرائيل، التى خيبرها مباشرة هو وزملاؤه الضباط.

واجه ناصر منافسيه بجسارة وتوجه إلى النقابات العمالية، والطلبة والفلاحين والصحافة من أجل الدعم والتأييد. نجا بأعجوبة من محاولة اغتيال قام بها قناصر من الإخوان المسلمين: التجأ إلى القمع والرقابة لخلق المعارضة؛ صعد سريعا: وزيرا للدخلية (١٩٥٣)، نائب رئيس الوزراء (١٩٥٣)؛ رئيساً للوزراء (١٩٥٤) ورئيساً للجمهورية (١٩٥٦). كان كل فريق السى أى إيه بالشرق الأوسط يتقصى كل خطواته، بداية من أكتوبر عام ١٩٥٢ حينما فتح كرميت روزفلت قنوات خلفية للاتصال بناصر والضباط الأحرار الآخرين الذين يماثلونه فى التفكير، رغم أنه، ومن أجل الحفاظ على المظاهر، فقد كان جفرسون كافر، السفير الأمريكى بالقاهرة، يجتمع رسميا مع اللواء نجيب. كان بين شخصيات السى أى إيه الرئيسية أثناء ورطة السويس عام ١٩٥٦، مايلز كويلاند، الذى قال فيما بعد إنه "ربما يكون قد التقى ناصراً مرات أكثر من أى شخص غريب آخر" (١).

لا بد وأن الوضع بدا محيراً لناصر وزملائه الضباط، الذين كان الكثيرون منهم قد ثقفوا أنفسهم بأنفسهم مثله، ولم يسافروا كثيرا، وكانوا مبتدئين فى ديبلوماسية القوى العظمى. من كان يتحدث بالفعل باسم لوردات واشنطن؟ أكان كافر فى من

(١) انظر الهامش الذى أوردته الترجمة فى بدايات هذا الفصل ردا على هذه المزاعم.

الباب الأمامي، أم روزقلت من الباب الخلفي؟ ماذا يُقَرِّم من زيارات أعضاء الكونجرس البارزين (وزوجاتهم) الذين كانوا يجمعون بين التسوق والسياحة، إلى جانب زياراتهم الرسمية؟ كان الواضح على نطاق واسع هو التالي: كانت واشنطن تُجرى إعادة تقييم استراتيجي كانت حول الشرق الأوسط وجيشان المشاعر القومية وزواء سلطات بريطانيا العظمى.

كان أحد الآراء التي سادت بخاصة في أوساط الديمقراطيين قد عبر عنها وزير الخارجية دين أتشيسون عام ١٩٥٢ أثناء لقاء له دام ثلاثة أيام بواشنطن مع ونستون تشرشل والذي كان يقضى سنواته الأخيرة كرئيس لوزراء بريطانيا مع وزير خارجيته السير أنطوني إيدن الذي خلف تشرشل فيما بعد رئيسا للوزراء. بالنسبة لأتشيسون كان الشرق الأوسط "يمثل صورة كتك التي كان من المحتمل أن يكون كارل ماركس هو الذي رسمها" في وجود طبقة العمال مدقعي الفقر، وغياب طبقة وسطى حقيقية، ونخبة حاكمة فاسدة تعمل لصالح الأجانب الذين كانوا يسعون لاستغلال موارده التي لا تقدر بثمن "سواء النفط أو قناة السويس". سأل "أكانت ثمة فرصة توفرت أبدا مثل هذه لاستشارة مشاعر الخوف المتأصل من الأجانب وكراهيتهم من أجل تدميرهم وإحلال الحل الشيوعي؟ لم يكن للتضامن الأنجلو أمريكي الذي التزم سياسة عدم التحرك أن يقدم حلا، فإن ذلك يسائل زوجين يجلسان متشابكين في عناق حار بقارب تجديد على وشك السقوط من أعلى شلالات نياجرا. لقد حان الوقت للفكاك من هذا العناق والإسباك بالمجدافين". استدعى هذا ضحكة خافتة من تشرشل الذي مضى بتمتم (كما روى أتشيسون لاحقا) "يمسك بالمجدافين!!". كان إيدن أكثر تفاؤلا، لكن أتشيسون أصر على رؤيته. يكتب في مذكراته "ذهبتُ إلى أن سياسة الجلوس ثابتين في حالة من التضامن لا تحمل أية وعود للمصالح البريطانية" وتمثل خطرا كبيرا على واشنطن. "مضيت أكرر تلك النقطة وأضغط على المستر إيدن بحدة ونفاد صبر مما استدعى اعتذارا لاحقا والذي قبله برحابة صدر".

كانت الحدة متبادلة. عبّر السير روجر ماكينز سفير إيدن بواشنطن عن مخاوف بريطانية مشتركة في مذكرة أرسلها إليه. كتب ماكينز يقول إن "نفوذ الأمريكيين قد توسع بشكل كبير في الشرق الأوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد ترسخت أقدامهم الآن بصفتهم النفوذ الأجنبي الأعظم في تركيا والسعودية. وهم في طريقهم إلى كسب سطوة ماثلة في إيران، ويبدو الآن أنه يحتمل لباكستان، إلى حد، أن تجذب إلى فلكهم". ثم ختم بسؤال بلاغي "هل يحاول الأمريكيون، واعمين، أن يستبدلوا نفوذهم بنفوذهم في الشرق الأوسط؟" ولم يترك سوى قليل من الشك حول إجابته.

كان ماكينز يكتب في مطلع عام ١٩٥٤، تلك السنة الحاسمة، التي انتزع فيها رئيس الوزراء عبدالناصر، (بموافقة أمريكية؟). الجائزة التي عجز عن انتزاعها متتالية من الخديويين، والسلاطين والملوك (مضت ألقابهم تتغير رغم عدم تغير مكانتهم كتابعين أذلاء لبريطانيا). في معاهدة تاريخية، ضمن ناصر انسحاب ٨٠ ألف جندي بريطاني على مراحل كانوا مازالوا معسكرين في منطقة القناة وأنحاء أخرى من مصر وأنهى بذلك احتلالاً "مؤقتاً" بدأ عام ١٨٨٢. وبمناخ إيماء لحفظ ماء الوجه، وافق ناصر على بند "إعادة تنشيط" ينص على أنه في حالة هجوم من الاتحاد السوفييتي أو من "قوة خارجية" غير محددة، يصبح بإمكان بريطانيا ومصر تجديد تحالفهما العسكري. كان الهجوم الذي تعرض له حتى هذا البند التجميلي من قبل المتطرفين المسلمين وأيضاً اليسار الماركسي مقياساً للفضب العارم الذي ظل مكبوتاً لوقت طويل. من جهته، تعرض إيدن للتحديات والمضايقات في البرلمان من قبل "مجموعة السويس" المتحدثين باسم المعارضة من حزب المحافظين لتنازله لمصر عن أي شيء.

استحسن فريق السي أيه المعاهدة التي كانت مكتملة لمحاولاته العازمة على مغازلة ناصر، الذي كان يسعى بدوره إلى علاقات أمنية أكثر رسوخاً مع الولايات

المتحدة. في البداية اقترح صفقة أسلحة قيمتها ٤٠٠ مليون دولار، خُفِّضَتْ فيما بعد إلى ٢٠٠ مليون دولار. وفي النهاية تقلصت الحزمة الفعلية إلى "مجرد ما قيمته ٣ ملايين دولار من أسلحة الاستعراضات" مثل الخوذات، وإجرابات) المسدسات وتجهيزات لامعة براقَة تُزَيِّن الاستعراضات" (حسب تعبير كويلاند). كان عدم استعداد أمريكا لتزويد مصر بالطائرات والذبابات والأسلحة المتقدمة هو ما دفع ناصر للتوجه للسوفييت. تصلَّب عدم الاستعداد ذاك في أعقاب تولي جون فوستر دالاس منصب وزير الخارجية عام ١٩٥٣. أتى فوستر معه إلى منصبه الذي سعى إليه طويلا بتشامخ السادة الإقطاعيين. كان، وهو المحامي صعب المراس، طويل الفكين غائر الخدين، قد تفاوض على معاهدة السلام مع اليابان، وساعد في كتابة برامج الحزب الجمهوري الانتخابية للسياسة الخارجية، وكان شريكا في مؤسسة (سوليفان كرومويل) القانونية البارزة ببول ستريت- هذا علاوة على أن شقيقه الأصغر آلان كان قد عيِّن لثوه مديرا للمخابرات المركزية.

كان ينقص الوزير دالاس، رغم خبراته التي تحوز الإعجاب، أية معرفة بما يسميه الجميع العالم الثالث، أو أي اهتمام به، أو أي تعاطف معه. كانت بؤرة اهتمامه هي الحرب الباردة، ولم يكن يرى أي جدوى من الحياد الذي شجبه بفظاظة ووصفه بأنه لا أخلاقي. بحلول عام ١٩٥٥، تبلورت نظرتان متعارضتان تمثلتا في حلف بغداد من ناحية، ومن ناحية أخرى في اجتماع قادة العالم الثالث بباندونج. كان الهدف من حلف بغداد الذي سُمِّيَ رسميا معاهدة المنظمة المركزية (CENTO)، وكما تم التعبير عنه صراحة، هو الحيلولة دون انتهاك السوفييت للشرق الإسلامي الذي يهيمن عليه الغرب، وكان الموقعون عليه هم بريطانيا، تركيا، باكستان، إيران، والعراق (بقيادة رئيس وزرائه نوري السعيد الموالى لبريطانيا). زار كل من دالاس وراين القاهرة في محاولة يائسة لضم مصر إلى التحالف الأمني الإقليمي. وبنفس الجهد اليائس، حاول ناصر أن يوضح أنه يعتبر إسرائيل المعتدى

الأقوى احتمالاً، لا الروس - وتسائل بالمناسبة عن الموعد الذي ستوافق فيه واشنطن على بيع الأسلحة الذي تأخر طويلاً؟

فى عام ١٩٥٥، كانت إحياءات ناصر قد بلغت ذروتها. شعر بعميق المرارة والغضب من تعالى إيدى المتعجرف الذى عامل ناصر أثناء زيارته الوحيدة لمصر فى شهر فبراير من ذاك العام* وكأنه موظف صغير لا يمكن أن يتوقع منه أن يفهم فى السياسة*. فى أحد الأوقات خلال ذلك الشتاء كان ناصر يجلس على مائدة مع كويلاند فى الشرفة^(١) حينما أُرّت الطائرات الحربية الإسرائيلية فوقهما دونما خشية من التصدى لها. قال ناصر لكويلاند "على الجلوس هنا وتحمل هذا فيما ترفض حكومتك إعطائى سلاحاً". وفى هذه الحالة النفسية ذهب ناصر فى أولى رحلاته الخارجية المهمة فى مارس ١٩٥٥ ليجتمع بقيادة ثلاثين من البول الأسيوية والإفريقية حديثة الاستقلال بإندونيسيا. صادق قادة باندرنج الثلاثة الكبار ونال إعجابهم: مضيفه الرئيس سوهارنو، نهرو رئيس وزراء الهند، وشو إين لاي وزير خارجية الصين. سأل ناصر شو عما إن كان من الممكن للصين أن تباع مصر الأسلحة الحديثة التى تحتاجها. أجاب شو بالنفى قائلاً إن الصين بحاجة إلى جميع الأسلحة التى تشتريها من روسيا، لكنه مستعد لأن يتوسط لدى السوفييت الذين يحتمل لهم تلبية طلب مصر. كانت ذلك هو الحديث الذى أدى، خطوة خطوة، وتراكباً، إلى أزمة السويس، أكبر محاولة عظمى مشهودة فى تلك الفترة لتغيير

(١) وفقاً لأحدث هيكى للجزيرة فإن كتابات كويلاند فى هذا الصدد بها كمية كبيرة من الخيال لا يوضحه سوى مراسلات هذا الرجل والتى وثقها هيكى فى نهاية كتابه. كما أن هيكى أورد تفاصيل كثيرة تبين أن كويلاند بعد الاستفتاء عن خدماته فى السى آى إيه مارس عمل المرتزقة وحاول إهزاز النقود من المسؤولين المصريين وبعض الأمراء العرب بعرضه إقامة مشاريع علاقات عامة واستخباراتية وتجارية. انظر موقع الجزيرة الإلكترونية. (الترجمة)

النظام، والتي دفعت نتائجها كويلاند لتحذير واشنطن (دوما جيوى) من حدود العمليات السرية.

حدثت أول خطوة مصيرية بعد مؤتمر باننونج مباشرة. فى إبريل ١٩٥٥، شعر حزب المحافظين بعظيم الارتياح، حينما تخلى ونستون تشرشل المنهك عن موقعه بداوننج ستريت ليحتله وريثه المختار أنطونى إيدن. كان إيدن، وهو الأكثر أناقة وسامة بين رؤساء الوزراء البريطانيين، بطلا تقلد أوسمة فى الحرب العالمية الأولى، وغدا فى سن العشرين أصغر ماجور فى الجيش البريطانى. بعد الحرب، حصل على درجته الجامعية بامتياز فى اللغات الشرقية من كلية كرايست تشيرش بجامعة إكسفورد، وكان معتادا بين أونة وأخرى تجميل خطاباته بالبرلمان بترجمات له من الشعر الفارسي. استقال عام ١٩٣٨ من منصبه كوزير للخارجية احتجاجا على ما رآه أنه إنعاز بريطاني للحكام المستبدين.

أما بالنسبة للشرق الأوسط، فقد كان إيدن هو من أنجب بكل فخر واعتزاز حلف بغداد، كما أنه استبعد "خطة ألفا" السرية للغاية التى كانت وزارة الخارجية قد وضعتها وكانت تدعو إلى تسوية شاملة للنزاع العربى الإسرائيلى على أساس تنازلات متبادلة (من المثير للاهتمام أن أيزنهاور ودلاس كانوا أقل استعدادا لها). بدلا من ذلك فإنه سرعان ما ألقى بمسئولية جميع انتهاكات بريطانيا فى الشرق الأوسط على ناصر، وزاد من زخم عنف نقده اعتماده على الديناميل وهو مخدر يؤثر فى الحالة العقلية، يتكون من مزيج من الأمفيتامينات والبربيتورات المنومة. كان هذا فى أعقاب خضوعه لعملية مرارة غير متقنة، كما أكد صحة ذلك بعد عقود دافيد أوين، الطبيب الذى كان قد عمل أيضا وزيرا للخارجية. لم يعرف الجمهور أو البرلمان أن إيدن كان على شفا الانهيار العصبى فى الشهور المؤدية لأزمة السويس.

وكانت تلك الأزمة هى التى أطاحت بإيدن، وجعلت من ناصر شبه إله فى العالم

العربي، وكانت علامة انتهاء سطوة بريطانيا في الشرق الأوسط. عبر جيمس موريس، الذي كان قد عمل مراسلا للتايمز بالقاهرة، في كتابه "وداعا لأبواق الحرب: تراجع إمبريالي" (١٩٧٩) عن رأي في تلك الحرب شاع على نطاق واسع "كانت عملية مغلفة بالسرية والنفاق واللاعقلانية. كانت تكون محاكاة ساخرة قاسية للأسلوب البريطاني الإمبريالي. تقمص إيدن دور تشرشل أتيق أصغر سنا، ينقذ العالم بمجهوداته. صور ناصر بأنه هتلر مسلم- "أريد تدميره" هكذا صاح رئيس الوزراء في وجه أحد وزرائه.. كان الأمر برمته مخزيا، ماكرا مخادعا". لكن ما لا يمكن غفرانه، هو أنه فشل.

بعد عودته من باننوج بفترة قصيرة، اتصل دانييل سولود ، المبعوث السوفييتي بالقاهرة بناصر. أكد له أن الصينيين قد نقلوا إليهم طلب ناصر وأن موسكو يسرهما تزويد مصر بالدبابات والطائرات الحربية نظير دفع مؤجل على شكل قطن وأرز. أضاف وبأسلوب غير متوقع، أن بلاده على استعداد لتمويل المشروعات الكبرى مثل السد العالي، الذي كان يمثل مشروع ناصر المركزي الطموح لتوليد الكهرباء وري وادي النيل. يعلق أنطوني ناتينج، الذي كان بحكم موقعه كوزير قد شارك في الأحداث التي يصفها: "كان عرضا لافتا بجميع المقاييس. أثناء عصر فاروق، كانت موسكو قد عارضت مصر والعرب بإصرار واستمرار حول المسألة الفلسطينية وصوتت مع أمريكا لصالح خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية". ما يبدو وأنه قد غير تلك السياسة تماما كان هو سقوط فاروق وصعود الضباط الأحرار، الذين لم تكن توجهاتهم قد عُرِفَت بعد على نحو محدد، لكنهم كانوا معادين للإمبريالية. وفي وجود عرض روسيا حاضرا، توجه ناصر إلى لندن وواشنطن، بتلذذ لم ينجح في إخفائه، وكرر طلبه الملح للحصول على أسلحة. تجاهله دلاس. وحذر إيدن من أنه في حالة حصول مصر على أسلحة من روسيا فعليها ألا تتوقع مساعدة أخرى من بريطانيا.

فى يوليو من ذاك العام، وصل زائر سوفيتى وقد سال عرقه إلى القاهرة. كان هو ديميتري شبييلوف، الذى كان وقتئذ محرر صحيفة براهدا ثم أصبح بعيد ذلك خليفة قيانتشسلاف مولوتوف لمنصب وزير الخارجية، بحجة حضور الاحتفالات بالذكرى الثالثة لقيام الثورة المصرية. وفى غضون أيام، صاغ شبييلوف اتفاقية تزود مصر بمقتضاها بطائرات ميج المقاتلة، وببوابات ستالين، وقاصفات إليوشن بقيمة ٨٠ مليون دولار تدفع بشحنات من القطن المصرى بدلا من النقد. كانت جميع الأسلحة صناعة سوفيتية لكن، ونظرا لإصرار ناصر، اتفق على شحن الأسلحة عن طريق تشيكوسلوفاكيا للمحاولة من تقليل قدر الرابطة الروسية. لكن هذا لم يُجد. بحث دالاس على الفور بهورج آلان مساعد وزير الخارجية إلى القاهرة لترتيب ناصر فى زيارة قيل إنها روتينية.

والآن، اشتعل غضب دالاس وإيدن من ناصر. كانت واشنطن ولندن قد وافقتا من قبل على المساعدة فى تمويل السد العالى (كان ناصر قد وصفه لمويس مراسل التايمز قائلاً: إنه "هرمنا الجديد") بمجرد أن يشهد البنك الدولى بجدواه المالية. وكما أسر إيدن إلى ناتينج فقد كان يهدف من هذا "إلى الإبقاء على الدب الروسى خارج وادى النيل". لكن واشنطن ولندن وضعتا شروطا جديدة بعد صفقة الأسلحة: من غير المسموح للدول الشيوعية الاشتراك فى التنافس على عقود الإنشاءات: لا يحق لمصر قبول أى قروض من أى بلد آخر دونما ترخيص من البنك الدولى، وعليها تخصيص ثلث ميزانية مصر للإنفاق على السد العالى. استلزم هذا قيام كرميت روزفلت بمهمة خاصة أكد أثناءها لناصر أن تلك كانت مجرد أحكام عادية للبنك الدولى، ووافق ناصر على كُره منه. استمرت المفاوضات ببطء، ممل، حتى ٢٦ مايو ١٩٥٦ حينما أعلن ناصر أن مصر ستعترف بالصين الشيوعية التى كانت منبوذة آنذاك، وتقيم معها علاقات دبلوماسية كاملة. كيف يجرؤ؟ أبلغ دالاس المحتاج سفير مصر بواشنطن أن الموافقة على القرض معلقة بخيط. طار المبعوث

المصري المرتبك إلى القاهرة، وبدا ناصر وأنه يكاد يكون غير آبه قائلًا إن باستطاعة مصر الحصول على تمويل السد من خلال تأميم شركة قناة السويس وأنه، على أية حال، إذا سحب الغرب الدعم، فإن الروس سيتقدمون. لكن، ومرة أخرى، وتحت ضغط المناشدات الزخمة من جانب ديبلوماسيه، تساهل ناصر، ووافق على الشروط المتبقية، وبذلك وضع خصومه في مأزق. في ١٩ يوليو ١٩٥٦، أبلغ دالاس، ناصر أن الولايات المتحدة ستسحب دعمها للسد العالي بزعم أن الاقتصاد المصري "أضعف" من أن يتحمل نفقات إنشائه ضخمة. وبعد يومين تبعهم البريطانيون.

من المستغرب أن القلائل في واشنطن أو لندن هم من تنبؤوا بخطوة الرئيس عبدالناصر المضادة. بحاستها التنبؤية المميزة، نشرت التايمز ماجازين كاريكاتيراً يصور دالاس، لاعب الشطرنج الحصيف، وهو يهزم ناصر الذي أصابته الدهشة. في ١٩ يوليو^(١)، ألقى ناصر السادر في غيه بلوحة الشطرنج بقوة في وجه خصومه في خطاب استمر ساعة كاملة بالإسكندرية قوبل بهتافات مبتهجة انطلقت بها حناجر مائة ألف شخص. لم لا تشتري مصر أسلحة من الشيوعيين؟ أفي مصر، تُصبح تلك الأسلحة مصرية. أدان الشروط الأنجلو أمريكية المُرهقة المتشددة لقرض البنك الدولي بصفتها إمبريالية بدون جنود. ذُكر المصريين أنه في الأزمنة السالفة كان على المصريين أن يظلوا منتظرين بمكتب المنسوب السامي البريطاني والسفير البريطاني، لكنهم الآن يعملون للمصريين حساباً.

ثم أعلن ناصر، وسط بهجة ودهشة سامعية، قراره بتأميم قناة السويس. كانت القناة، منذ افتتاحها قد ظلت تُشغلها شركة قناة السويس البحرية العالمية صاحبة الامتياز، حيث كانت بريطانیا تحمل ٤٥٪ من الأسهم. كان هذا يعني أن ناصر قد

(١) التاريخ الصحيح هو ٢٦ يوليو (الترجمة)

ألقى الامتياز، وقال إنه سيتم دفع التعويضات، وإن عائدات رسوم المرور ستحول أخيراً لمصر: لن تعود الشركة دولة داخل دولة: "سنبنى السد العالي، وسنستعيد حقوقنا المقتصة".

وبالمصادفة (أو ربما بدون مصادفة)، تزامن خطاب عبدالناصر مع حفل العشاء الذى أقامه السير أنطونى إيدن بنواننج ستريت على شرف الملك فيصل الثانى بريطانى الثقافة والهوى، ونورى السعيد، رئيس الوزراء العراقى المفضل لدى بريطانيا. نصحه نورى السعيد بعد أن قرأ إيدن المصنوم الأخبار الآتية من مصر، قائلا له "اضربه، اضربه بقوة، واضربه الآن". وفيما تفرق حفل العشاء الذى كان ضيوفه النكور مازالوا يرتدون ملابسهم الرسمية، بدأت المشاورات على الفور مع جى موليه رئيس وزراء فرنسا الذى كانت حكومته التى يقودها الاشتراكيون مقتنعة أن ناصراً كان يدعم سرّاً انتفاضة قومية بالجزائر. وفي غضون ساعات، استدعى البريطانيون قوات الاحتياط، وجمدوا أرصدة مصر، وأمروا بسحب مرشدى القناة الأجانب (كانت تلك خطوة اتخذت نتيجة يقين إيدن بأنه ليس لدى المصريين المهارات اللازمة لإدارة ذلك الممر المائى). لكن حينما اتصل إيدن على نحو ملح بفوستر دالاس، شريكه فى التصلب، وجد أن الشريك غير نزّاع، بدرجة لافتة، إلى الحل العسكرى.

أثناء معظم فترة رئاسته، لم يصطدم دوايت أيزنهاور كثيراً بوزير خارجيته هذا على الرغم من الاختلاف الشديد فى توجهات الاثنين اللذين كانا ينتميان للحزب الجمهورى. كان أيزنهاور، وكجندي محترف، يتجنب استخدام القوة سوى كملجأ أخير. وإذا كانت الكلفة متواضعة والمخاطر محدودة، يمكن تبرير العمليات السرية كما حدث فى إيران وجواتيمالا، لكن الرئيس تجنب "مواقف الحافة" (ذلك التعبير الذى روجه دالاس) والتى قد تتصاعد إلى تصادم بين القوى العظمى. هذا علاوة على أن موعد انتخابات فترة الرئاسة الثانية كان يقترب، وكان هو مازال يتعافى

من مرض في القلب. أوضح أيزنهاور أنه يريد حلاً سلمياً لأزمة القناة، ولا شيء آخر. أما تصميم الجنرال فقد اتضح في دعوة دالاس لتشكيل جمعية لمستخدمي قناة السويس (SCUA) تتلقى عوائد المرور في انتظار حل للصراع عن طريق المفاوضات - وكان هذا توجهاً تبناه الجيران العرب والأمم المتحدة.

رأى أنطوني إيدن من جهته أن هذا كان تكراراً لأزمة ميونخ واسترضاء الزعيم النازي مرة أخرى وأن SCUA كان حلاً نوعاً ما أنياب ولا جدوى منه؛ وأن الإجراء العسكري ضرورة. وبدون استشارة مجلس وزرائه، قاده العسكريين، وزارة الخارجية أو سفرائه في القاهرة أو في الأمم المتحدة، أو البيت الأبيض، قام إيدن بجس نبض الفرنسيين حول تدخل عسكري للإطاحة بناصر. كيف كان لهذا أن يتم؟ تم تطوير حل بدا وأنه عبقري. لم لا يُشجّع الإسرائيليون سراً على الهجوم على سيناء، والتقدم باتجاه السويس، ثم تتدخل بريطانيا وفرنسا معاً لحراسة الطريق المائي الدولي والفصل بين المتحاربين، ثم يتم تخليص المنطقة أثناء تلك العملية من مثير الشغب المصري العنيد المتشامخ.

تم التوصل إلى "ذريعة إسرائيلية" في مؤتمر عُقد على وجه السرعة في ٢٢ أكتوبر بقليلاً منعزلة في مدينة سفر على مشارف باريس. تحدث سلوين لويد وزير الخارجية عن البريطانيين؛ كان بين الحضور رئيس وزراء فرنسا مولييه، ووزير خارجيته كريستيان بينو، إضافة إلى وفد إسرائيلي رفيع المستوى ضم دايثيد بن جورين، موشيه ديان، وشيمون بيريز. كان للإسرائيليين أسبابهم في المشاركة. منذ أغسطس ١٩٥٥ كان عليهم مواجهة هجمات للفدائيين المدربين بمصر عبر الحدود، مع تفاضٍ القاهرة، ناهيك عن مساعدتهم. إضافة إلى ذلك، كانت شركة قناة السويس قد خضعت للضغوط المصرية وأغلقت الملاحة في وجه السفن الإسرائيلية.

وعلى الرغم من خلافات المتأمرين المبررة حول مسائل في الماضي والحاضر، إلا

أنهم صادقوا على خطة الجنرال بيان ببدء الهجوم على سيناء في ٢٩ أكتوبر، قبل الانتخابات الأمريكية بشمانية أيام.

أثبتت العملية أنها ورطة شبه كاملة. فقط كان الإسرائيليون هم من أنجزوا منهزمهم العسكري. لم ينهر الجيش المصري كما توقع إيدن بل إنه قاوم الغزو الأنجلو فرنسي المرتبك لفترة كانت كافية لتصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة بغالبية ٦٥ مقابل ٥ على قرار يطلب الانسحاب الفوري للقوات الغازية (كانت أستراليا ونيوزيلاند هما فقط من عارضا القرار إضافة للشركاء الثلاثة). كانت غضب أيزنهاور يفوق غضب غالبية زعماء العالم حيث فاجأه الغزو عشية إعادة انتخابه. أيضا، فإن غزو السويس حول الانتباه عن قمع السوفييت المتزامن للانتفاضة المجرية، الذي اعتبره أيزنهاور أمرا لا يمكن غفرانه. كما أنه لم يكن قد تم استشارة أيزنهاور أو دالاس، أو تحذيرهما مقدما كما يجب بشأن المؤامرة التي كانت تفوح منها رائحة الإمبريالية التي كانت قد غدت خارج سياق التاريخ.

غدت القناة نفسها عديمة النفع حينما قصف المصريون سبع عشرة سفينة كانت قد حُبسَتْ في مياهها ثم أغرقوها مما تسبب في انسداد "قنطرة بريطانيا الهوائية". وبدلا من إضعاف ناصر وسلطته، فقد عملت أزمة السويس على مضاعفة مكانته أضعافاً مضاعفة فيما أدت الصدمات التي تلت الفشل في إنجلترا إلى إسقاط إيدن. هبطت قيمة الإسترليني هبوطا حادا. كانت ربيع وارمات إنجلترا وغالبية نقطتها تمر من القناة. وحينما حذرت واشنطن من أنه إذا لم يتم الانسحاب الفوري فإنها لن تدعم الجنيه البريطاني الذي أضعف من خلال القروض الضرورية للتمويل عن أسعار النفط المتصاعدة، حينها انتهت اللعبة. ثم حدث، في إضافة ملهمة، أن جمع ثلاثة من دبلوماسيي الأمم المتحدة من المرتبة الثانية - لستر بيرسون من كندا، والف بانس من أمريكا، وريان أوركهارت من بريطانيا - بين عشية وضحايا قوة حفظ السلام كانت الأولى من نوعها. أصر ناصر على أن قوة

الطوارئ التابعة للأمم المتحدة تلك (UNEF) لابد وأن ترتدى زيا مخالفا لزي الغزاة، أتى أوركهارت بحل مرتجل: كانت ثمة محال كثيرة في أوروبا تباع بطائن خوذة الجنود الأمريكيين. تم تجميعها وصباغتها بلون الأمم المتحدة الأزرق. وهكذا أصبحت الخوذات الزرقاء التذكاري الوحيد الباقي من أزمة السويس.

كان هذا هو السياق الذي حاول فيه كرميت روزفلت، مايلز كويلاند وشركاؤهما من فريق السي آى إيه، نونما جدوى، تحويل توجه ما أصبح مسيرة نحو الحماقة. بالنسبة للأمريكيين، كانت تلك بيئة غريبة جديدة. كان عملاء الولايات المتحدة السيرون، في السنوات المبكرة، ينظرون إلى نظرائهم البريطانيين بما يعامل الرهبة، لكن الرهبة كانت قد أصبحت ازدياداً وقت صفقة ناصر للأسلحة مع السوفييت عام ١٩٥٥. في تلك السنة، أرسل تشستر إل. كوبر، عميل السي آى إيه الشاب المتحمس، إلى لندن للتعاون في مجال شئون الشرق الأوسط مع استخبارات الأركان البريطانية المشتركة. لأول وهلة عند لقائهم، بدا لكوبر أن طول القامة هو المؤهل الرئيسي لزملائه الجدد: كنت أمدّ من زرافة إلى أخرى: كوبر.. الصبي الجديد، كان كل منهم ينحن ليصافحني بخفة ورشاقة. وجدت نفسي جالسا بين عملاقين يرتديان بذلتين سوداوين متطابقتين (ماركة سافيل رو) وكرافتتين زرقاوين مخططتين (إيتون) ونظارتين متطابقتين (التأمين الصحي).^٦

ساء كوبر ما اعتقد أنه تصرفات هواة طائشين، يتخللها شريرة حول مباريات الكريكت بدرجة شعر معها من الضروري أن يذكر زملاءه أن صفقة الأسلحة الجديدة كانت فارقة إذ إنها كانت المرة الأولى التي يبيع فيها السوفييت أسلحة لنظام غير شيوعي. وكأمريكي، أدهشه بخاصة أسلوب التعالي وفتور الهمة الذي كان يسم محاولات البريطانيين لتجنيد موقَّعين على مشروع إيدن الأثير: حلف بغداد.

بيد أنه، وفي هذا التنافس الذي كان يجري في الكواليس، كان لدى الأمريكيين ميزة سببت استياء أولاد عمومتهم البريطانيين- النقود، مبالغ مهولة بكميات بدت لا متناهية. لكن السى أى إيه أسأت تقدير الجانب السلبي لهذه الميزة، بخاصة إذا استُخدمت بأسلوب فج، أثناء التفاوضات المتوقعة حول المساعدات العسكرية، أبلغ كويلاند فى عام ١٩٥٢ من خلال هنرى "هانك" بايرود، الذى أصبح سفيراً بمصر بعيد ذلك، أن ثمة ثلاثة ملايين دولار من ميزانية إنفاقات الرئيس متاحة لتقديمها لناصر "هدية شخصية"، تم تجنيد كويلاند، الذى كان يتظاهر بأنه مواطن عادى، بصفته أنسب مراسل لتسليم النقود إلى حسن التهامى مساعد ناصر الشخصى. وُضعت الدولارات فى حقيبتى ملابس رافقها كويلاند من مبنى السفارة الأمريكية إلى منزل حسن التهامى. وقف الحراس المسلحون مشدوهين يراقبون حسن التهامى وهو يعد النقود ثم صمم على أن المبلغ هو ٢٩٩٩٩٩٠ دولار^(١). ثم قال "لن نختلف بشأن الدولارات العشرة الناقصة" قبل أن يحمل النقود إلى مسكن رئيسه، ثم فيما بعد أبلغ الأمريكيين أن ناصرأ قبل "الهدية" بمزيج من الضيق والحس بالفكاهة، لكنه فى البداية أراد أن يعيد النقود مباشرة. ثم أوماً موافقا حينما اقترح أحد مساعديه إقامة تمثالين فى واجهة فندق الهيلتون المزمع بناؤه، أحدهما بشخص كبير الأنف (عبدالناصر؟) يشير إليه الآخر بأربع أصابع تمتد باتجاه السماء!!!).

يكتب كويلاند فى "لعبة الأمم": "اعتقد ناصر أن الفكرة جيدة لكن تعوزها الصحافة. بدلا من ذلك، أمر بإقامة "شئ لا يتماهى مع أية شخصية لكنه كبير جدا، لافت جدا، وغال جدا - يكلف مبلغاً يقارب الثلاثة مليون دولار. والنتيجة هى برج القاهرة، الذى يراه أصدقاء مصر الأمريكيون عبر النيل كل صباح ونحن

(١) للضرائ ان يصحب من تلك الرواية.. هل كان مثل هذا المبلغ يحوى دولارات "فكة"؟

نتناول إفطارنا في شرفات النيل هيلتون". علم كرميت روزفلت، الذي كان قد اقترح الهدية أولا، في الوقت المناسب أن مساعدى ناصر يُسمون البرج "روزفلت الواقف" وهو تعبير يمكن أن يترجم "انتصاب روزفلت".

وجد كويلاند الواقعة خرقاء ومنافية للنوق، وانتقد أيضا أوجها أخرى من سياسات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. تعلم مبكرا بالقاهرة أن أفضل معلومات استخبارية كانت عديمة الجوى في حال كان عقل مستهلكها النهائي لا يمكن فتحه حتى بالعتلة مثل عقل جون فورستر دالاس، وفقا لزمعه. رأى أن وزير الخارجية لا يستطيع استيعاب أنه من غير المجدى محاولة إجبار حكومة أخرى على تبني سياسات من المحتمل لها أن تهدد وجود القائد، مثل الضغط على ناصر للانضمام إلى منظمة معادية للسوفييت^(١). وبعد أن ساعد كويلاند عبدالناصر على اكتساب السطوة، كانت أولويته الرئيسية هي إبقاؤه في السلطة^(٢): "لم يكن ذا نفع لنا وهو خارج السلطة، ولم يكن ثمة بديل منظور". كان كويلاند يتشكك في اعتقاد واشنطن السائد بأن الانتخابات الحرة هي الحل المفضل لمشاكل البلدان الأخرى: "في غالبية الأحيان سيكسب الانتخابات في البلدان التي تسمى "النامية" أحد النمطين: الأول، أحد السياسيين أو مجموعة سياسية أولى أولوياتها لدى الوصول إلى السلطة هو العمل على عدم إجراء انتخابات حرة مرة أخرى، أو الثاني، زعيم دهماوى يطلق وعودا لا يستطيع بحال الوفاء بها، ثم بعد الفوز، سيمضى يملأ علينا متطلبات لا نستطيع بحال الوفاء بها، ثم يلقي بالمسئولية علينا لفشله".

(١) لم يتخذ عبدالناصر موقفا معاديا لحلف بغداد لأنه كان يهدد وجوده، بل لأنه كان، هو وغيره من قادة عدم الانحياز، معادين للأحلاف التي تربط بلادهم بعلاقة تبعية للقوى العظمى (الترجمة)

(٢) هذا نوع من الادعاء المناهض للعقل والواقع انظر الهوامش السابقة ذات العلاقة. (الترجمة)

يقدم كويلاند، استناداً منه على خبرته الخاصة، حكمته التحذيرية بشأن إعادة صنع الأنظمة: "إذا كان لابد من تغيير طبيعة إحدى الحكومات أو مسلكها، عليك أن تفعل ذلك من خلال استخدام القوى الموجودة بالفعل داخل البلد. وإذا لم توجد مثل تلك القوة النشطة أو الهاجعة، عليك أن تحاول نهجاً آخر، أو أن تتوافق مع عالم معيب".

أعاد صياغة مبدأ قاله استراتيجي صيني منذ ثلاثة آلاف عام: "لا يجوز لك أبداً أن تدخل معتركا إلا إذا استطعت أن ترى فرصة مقبولة للنجاح في النهاية. في العمل السياسي، فإن كلفة الفشل في حل المشكلة، دائماً ما تكون أعظم كثيراً من تركها دونما حل؛ ومن المؤكد أن تكلفة الفشل الكبير في حلها ستكون انتحارية".

وأخيراً، حذر من توقع الثناء، أو الشكر من المستفيدين من مساعدات الولايات المتحدة "علينا أن نعي أنه لابد أن تظل معظم أعظم جهودنا مع حكومة نريدها أن تبقى في السلطة سرية، ليس لأننا بحاجة إلى السرية بل لأن عميلنا بحاجة لها. لا، ليست لنا شعبية في غالبية أنحاء العالم؛ إن القادة في البلدان التي تتلقى هباتنا السخية لا يزدانون قدراً في أعين شعوبهم في الإعلان عن صداقتهم معنا - رغم أن غالبيتهم يكسبون بعض النقاط، من آن لآخر، بالتباهي بكيفية خداعهم لنا. وباستثناء القلة، فإن القادة الإقليميين الذين عُرِف عنهم ولاؤهم لأمريكا، فقدوا مكانتهم أو حياتهم نتيجة لهذا".

لا تزال تلك الحكَم صامدة في ضوء إحباطات واشنطن والرائنة بالشرق الأوسط. لكن حياة مايلز كويلاند نفسه وأعماله تنم أيضاً عن النتائج النهائية المدمرة والأقل وضوحاً للتدخل الذي كان هو رائداً له، سواء كان سرياً أو علنياً.

بعد إتمام مهامه بالقاهرة، استقال كويلاند من شركة "بيوز، آلان وهميلتون"، ثم

انتقل إلى بيروت في يوليو ١٩٥٧ لبدء مهام وتليفته الجديدة كاستشاري في الإدارة بشراكة مع جيمس إكلبرجر زميله السابق في السي أي إيه. كانت مكاتب تلك المؤسسة الفاخرة ذات موقع استراتيجي مجاور لجناح تشغله شركة التبلاين، وكان بين أوائل عملاء مؤسسة كويلاند وإكلبرجر شركة جلف أويل (نقط الخليج) التي تبلغ أصولها ٣,٥ مليار دولار، والمالكة المحظوظة لنصف أسهم شركة نفط الكويت "الولادة". لكن، افترض بوجه عام أن السي أي إيه، كانت هي العميل الآخر لمايلز كويلاند، و لم تؤثر تلك الظنون سلبيا على مشروعات الشركة التجارية.

كانت تلك لحظة مثيرة للاهتمام في لبنان. مع توالى صعود نجم ناصر، كانت واشنطن قلقة على بقاء الرئيس كميل شمعون، المسيحي الماروني الذي بلغت درجة ولائه للغرب أنه غامر وعارض ناصراً أثناء ورطة السويس. في عام ١٩٥٧، رحب شمعون بمبدأ أيزنهاور ويعرضه للمساعدات الأمنية لأنظمة الشرق الأوسط المهددة من قبل ناصر أو السوفييت. دعمت السي أي إيه بسخاء شمعون وحلفاءه الموالين للغرب سرا في انتخابات العام ذاك. (يصير كويلاند على أن المبالغ كانت متواضعة بمعنى أنها كانت تناظر تقريبا مجموع المبالغ التي فيه دفعتها السفارات البريطانية، الفرنسية، السوفييتية والمصرية للمرشحين المؤيدين لهم). ثم حدث في عام ١٩٥٨ الذي سادت فيه الفوضى، أن استولى ضباط شعبيون على السلطة في بغداد، وقتل أتباعهم الأسرة المالكة، ونفذوا حكم الإعدام والسحل في رئيس وزراء العراق الموالي البريطانيين نوري السعيد. ناشد شمعون، وقد خشى من هجوم أجنبي، وتملكه التوتر والخوف، واشنطن لإرسال مساعدات عسكرية. استجاب أيزنهاور بعملية "الخفاش الأزرق Blue Bat"، أول عملية للولايات المتحدة محمولة بحرا وجوا في زمن السلم. وفي غضون اثنتين وسبعين ساعة في ١٩ يوليو، أنزل الأسطول الثالث ٨٠٠٠ من قوات المارينز وسبعة آلاف جندي على الشواطئ اللبنانية استقبلوا من قبل السابحات بالبكيكي والصبية الوبديين الذين يبيعون

الليماندة. تم التدخل، الذي انضمت إليه قوات بريطانية، دونما ألم، بأسلوب خادع، وحافظ على سلطة شمعون الهزيلة.

بيد أن الأمور جميعها في لبنان كانت خادعة. في الظاهر، بدت لبنان بلدا مزدهرا متغيرنا، "سويسرا الشرق الأوسط" ووفقا للكليشيه الماكوف. في الخمسينيات كانت بيروت تزهر بوجود عدد من البنوك يفوق نيويورك سيتي، وصحف أكثر من تلك التي تصدر في لندن و(وفقا لحسابات مايلز كويلاند) وينشرات (رسائل إخبارية) سرية أكثر من تلك التي تصدر في نيويورك، لندن، وباريس مجتمعة. بيد أن تعدديتها الدينية كانت موحية أكثر من أي شيء آخر: كان الدستور اللبناني يعترف بثماني عشرة طائفة. وفقا للميثاق القومي الذي اتفق عليه عام ١٩٤٣، كانت أعلى المناصب توزع طبقا لصيغة ثابتة: رئيس جمهورية ماروني، رئيس وزراء سني، ورئيس برلمان شيعي في وجود ستة مقاعد للمسيحيين مقابل كل خمسة مقاعد للمسلمين، لكن السلطة الحقيقية كانت تكمن عند القمة. لكن قابلية تلك الصيغة للحياة حُكِمَ عليها بالفشل من خلال تعيين فرنسا لتخوم جديدة لما عُرف بـ"لبنان الكبير" لبنان الأكبر عام ١٩٢٠ حيث تضاعفت مساحة الإقليم العثماني السابق وزاد عدد سكانه لعام ١٩١٣ والذين كانوا يبلغون ٤١٤٨٠٠ نسمة بمقدار النصف، وبهذا أُضيف حوالي ٢٠٠٠٠ شخص غالبيتهم من المسلمين إلى الجمهورية الجديدة. كان قد أعلن هذا التوسع في المساحة، بأسلوب انتصاري، بطل مارين (موقعة هزم فيها الفرنسيون الألمان) الفرنسي الأكتع الجنرال هنري جورو الذي وُمن أسفل تلك الجبال المهيبة "أشاد بلبنان الكبير بصفتة "معقلا منيعا للإيمان والحرية". (ذكر في إعلانه هذا فينيقيا، اليونان، روما وصداقة لبنان القديمة بفرنسا، لكنه لم يذكر الإسلام).

وفقا لفيليب حُتّى، المؤرخ اللبناني الأصيل والاستاذ بجامعة يرينستون الذي كتب عام ١٩٥٧. يقول إن ما كسبه لبنان من مساحة فقدته من التلاحم والاتساق. "فقد

توازنه الداخلي رغم أنه أصبح أكثر قابلية للحياة اقتصادياً وجغرافياً. تقلصت الغالبية المسيحية الساحقة إلى حد كبير". في الخمسينيات، كان الميزان الديموجرافي قد مال، يوماً رجفة، في صالح المسلمين، بسبب هجرة المسيحيين، ومعدل المواليد الأعلى بين المسلمين، والتدفق الهائل للاجئين الفلسطينيين. ومنذ آنذاك صعوداً، أصبح تاريخ لبنان مشهداً دائم التغيير من الثورات، الانقلابات، الاغتيالات، الاجتياحات والاحتلالات الإسرائيلية العديدة، الاجتياح السوري والاحتلال الذي كان يكون دائماً، المذابح، التفجيرات الانتحارية، وحرب أهلية دامت جيلاً كاملاً (اندلعت عام ١٩٧٥ حينما قُتل ٢٧ فلسطينياً في حافلة كانت تمر من حي مسيحي) - شجع كل هذا إرث الميليشيات التي تتلقى مساعدة الخارج، إرث يبدو وأنه لا فكاك منه.

هل تتحمل الولايات المتحدة، وبخاصة السى أى إيه، مسئولية جدية عن هذا المستنقع الدموي؟ بدون شك، ووفقاً لآى حسابات تاريخية منطقية، كان التأثير الأمريكى على لبنان خيراً في بداياته. في عام ١٨٢٤، وصل بلايني فيسك، المبشر البروتستانتي ومعه أول ماكينة طباعة بالعربية تشهدها المنطقة، ثم تبعه عام ١٨٨٣ مؤسس الجامعة الأمريكية ببيروت التي ظلت منذ وقتئذٍ منارة للتوير.

وبعد الحرب العالمية الأولى، لم تجد القضية اللبنانية مدافعاً عنها أكثر جزماً من رجل البرّ تشارلس آر. كراين الذي كان وودرو ويلسون يستشيريه حول سياسة الشرق الأوسط. من هنا كانت الأهمية الإضافية للرأى المناوئ المفرط الصراحة الذي صرح به ويلبور كراين إيفلاند، قريب كراين من بعيد، وحلقة الاتصال السرية الرئيسية بين السى أى إيه والرئيس كميل شمعون، وداعمه السرى. يكتب في 'جبال من رمال' (١٩٨٠) قائلًا: "باستخدامها لبنان قاعدة لعمليات السى أى إيه السرية، قوضت أمريكا استقرار البلد، وصاعدت من محاولات جيرانه العرب لإسقاط الحكومة اللبنانية. وعلى الرغم من أن قوة الولايات المتحدة العسكرية أنقذت

لبنان من التفاتت عام ١٩٥٨، إلا أن البلد لم يتعافَ تماماً أبداً، ولم يعد لأمريكا سوى قلة من الأصدقاء في العالم العربي.

بإيجاز، وباستثناء مشهد بيروت الجبلى المهيّب، لم يكن ثمة شيء في المدينة هو نفسه ما يتم عنه مظهره، وكانت هذه ملاحظة مشتركة بين زائري المدينة. كتب الفيلسوف الجمالى البريطانى سانشفيل سيتويل عام ١٩٥٧ قائلاً إنه وجد أن الزى والملاحج الجسمى لا تكشف شيئاً نكتشف أن الشخص الذى تشعر يقيناً أنه مسلم، هو مسيحى فى الواقع؛ لكن، هل هو أرثوذكسى يونانى أم مارونى؟ أم أنه أرمينى؟ ما اللغة التى تتوقع أن يتحدثوا بها؟ ليس ثمة سبيل لأن يعرف المرء. أيضاً، فإن جغرافية المدينة محيرة حيث تمتد شوارعها وأزقتها فى الاتجاه الخاطى. وفى الواقع، فقد اكتشف سيتويل أن المبنى الوحيد فى المدينة محدد الموقع هو فندق السان جورج. من ثم، أكان ثمة مسرح أنسب من متاهة المرايا تلك يمكن أن تتم فيه لقاءات مايلز كويلاند المحملة بالرمزية، مع كيم فيلبى، أشهر عميل مزدوج، أو ربما ثلاثى، لتلك الفترة؟

ننتهى حيث بدأنا، فى بار فندق السان جورج عام ١٩٥٧ حيث كان الجميع يتحدثون عن حفلات الاستقبال السخية التى يقيمها القادمان الأمريكان الجديان، مايلز كويلاند وشريكه جيمس إيكليبرجر. بعد سنوات، أكد كويلاند أنه من الأرجح أن ضيوفه كانوا يُشكّون فى أن سخاء حفلاته كان بدعم من السى آى إيه. كان رئيس الاستخبارات المضادة بالوكالة جيمس جيسوس إنجلتون قد طلب منه أن "يراقب" كيم فيلبى "بخاصة" والذى كان قد استقال من M16 مؤخراً ليبدأ مهنة جديدة كمراسل أجنبى فى بيروت.

كان مايلز قد التقى كيم فى لندن زمن الحرب وتعمقت صداقتهما فى واشنطن

حيث كان فيلبس، كمنسق استخباراتي، يلتقي كويلاند وإنجلتون بانتظام. ولدى نقطة ما، بدأ الجاسوس المضاد المتكلم يشك في أن فيلبس كان عميلاً للمخابرات السوفيتية (ووفقاً لكويلاند) حتى أن إنجلتون أخبر كيم بهذا فيما كان يتناولان العشاء بمعظم في جورج تاون. اكتفى فيلبس بالضحك وزعم كويلاند أنه قال "لن نستطيع أن تجد من يصدقك أبداً".

بعيد أن استقرا ببيروت، أقام كويلاند وزوجته حفل عشاء لسمام بوب بروور مراسل النيويورك تايمز وزوجته إلينور. وكأنما قد تلقى إشارة ما، حضر كيم فيلبس دونما دعوة. منذ وقتئذ، أصبح ثلاثتهم ضيوفاً منتظمين على بوفيهات مايلز ولورين المسائية، وكانت السي آي إيه هي التي تتحمل النفقات. كتب كويلاند فيما بعد "كنت أكتسب مايزيني به جيم (جيمس إكليرجر). مثلاً، رتبت مع مسئول لبناني كبير كنت قد درته لأهداف استخباراتية عامة، أن يخضع فيلبس لرقابة "فجائية" بين الحين والآخر، وأن يخبرني بأي شيء مثير للاهتمام". كان فيلبس يتملص من متعقبه بأسلوب خبير، ويختفي في متاحف الحى الأرميني ببيروت، ثم علم كويلاند أن فيلبس كان على علاقة سرية بإلينور بروور، وقرر أن كل تلك التملصات والتسللات في الأنحاء كانت لإخفاء تلك العلاقة".

بعد طلاق إلينور من بروور وزواجها بكيم، كانت العاتقان (فيلبس وكويلاند) تلتقيان كثيراً، وتتبادلان الشائعات، ورعاية أطفال كل منهما أثناء الإجازات. كانت لورين كويلاند، عالمة الآثار، معجبة بوالد كيم، الرحالة المسن هاري سانت جون فيلبس، وصديقة له، وكان قد عاش حتى وفاته عام ١٩٦٠ مع ابنة (كانت آخر كلماته التي ظل معارفه يكررونها "يا إلهي، كم سئمت الحياة"). بدا كل شيء كالاعتاد يوم ٢٣ يناير عام ١٩٦٣، حينما دعا جلن بلفور - پول المسئول السياسى بالسفارة البريطانية، كيم وإلينور للعشاء معه بمنزله. قبل كيم الدعوة "بكل سرور"، ثم هاتف زوجته ليبلغها أنه سيتوقف لدى مكتب التلغراف المركزى ليرسل برقية إلى لندن وأنه

سيتأخر. شوهه فيلبى للمرة الأخير ببار السان جورج حيث حياً زميلا فلسطينيا وتجرع عدة مشروبات واختفى دونما إشعار لضيفه أو زوجته. فى ذلك المساء، دخلت السفينة السوفيتية ميناء بيروت وحملت كيم على متنها واتجهت إلى أوديسا حسب رواية رئيس كيم فى المخابرات السوفيتية الجنرال أولج كالوجين بعد ذلك بأنعام.

ما الذى حفز فيلبى على الإسراع بالهروب؟ وفقا للرواية الرسمية، كان رؤساء الاستخبارات البريطانية قد انتهوا بعد تقصيات دوية، إلى أن كيم فيلبى كان فى الواقع هو "الرجل الثالث" الذى كان البحث عنه قد ظل جاريا لفترة طويلة؛ وأنه قد تم تجنيده جاسوسا وهو طالب بترينيتي كولاج، كامبريدج، هو وزميله فى الدراسة جاي برجس ونوالد ماكليان وأنه قد نبههما عام ١٩٥١ أن خيانتهم قد اكتشفت مما مكنهما من الهروب إلى موسكو. ولتلافى حدوث ذلك مرة أخرى، أرسل الرؤساء مبعوثا إلى بيروت بعرض أملوا ألا يكون فى مكانه رفضه؛ وعد بالحصانة القانونية إذا اعترف. لكن فيلبى اختار الهرب، ثم ظهر فى الوقت المناسب بموسكو، حيث لحقت به بعد فترة زوجته الأمريكية.

لكن تلك الرواية مليئة بالثغرات. لم يُبدِ البريطانيون أى فضول حول هرب فيلبى لدرجة تدعو للاستغراب كما أن السلطات السوفيتية، وبدرجة لافتة، بدت غير مُرحبة بزميلهم الضال: وُضعت أجهزة تنصت فى شقته بموسكو، وكانت خطواته مراقبة دائما، ولم يسمح له سوى بإلقاء محاضرة واحدة طوال إقامته بالاتحاد السوفييتى التى دامت ربع قرن. اكتشف أنطونى كايف براون، المرجعية البريطانية فى التجسس، أن كلا من إنجلتون وسى C (السير ستوارت منزيس) الأسطوري، ظلا بأسلوب ما، ويطرق ملتوية على اتصال بالمرتب سيسى السمعة. تفحص الكاتب الأمريكى الدوب رون روزنبوم هذه الثغرات، وبنق فى نسخة جرياهام جرين، من مذكرات فيلبى المتبجحة التى نشرها بعنوان "حربى الصامتة"، وفى الهوامش التى

كتبها جرين تعليقاً على النص. ويعد تفحصه إياها انتهى روزنبوم إلى أنها أثرٌ مضلل لا يؤدي إلى أى مكان. اعترف الكاتب البريطانى فيليب نايتلى، الذى ألف وشارك فى تأليف كتابين مميزين عن فيلبى، وكان أيضاً قد أجرى حواراً مطولاً معه فى موسكو، اعترف أنه، بعد تفكير، غير رأيه حول الرواية البريطانية الرسمية. أحد افتراضاته هو أن البريطانيين رغبوا فى هروب فيلبى لأنه أصبح كبش فداء مفيد لفشل الاستخبارات الأنجلو/أمريكية، يصلح لتحمله مثلاً مسئولية اختراق الأمن الذى أدى عام ١٩٥٠ إلى المنبحة التى قام بها الألبان ضد رجال حرب العصابات المعادين للشيوعية والمحمولين بحرا. يظن آخرون أن السى أى إيه، وM16 استخدمتا فيلبى قبل هروبه وبعده كى ينقل للسوفييت خططا مستبعدة عن ضربة ثائرة ضخمة إذا هاجمت موسكو أوروبا الغربية - يُمثل كل هذا شكوك المراجعين والمدققين التى جاءت تفاصيلها فى كتاب "خداع المخادعين" لضابط المخابرات الأمريكية السابق إس. جيه. هامريك، وكما حللها نايتلى فى النيويورك ريفيو أوف بوكس.

يؤكد هذا كله على مشكلة محيرة أغفلها مايلز كويلاند فى تعامله مع الأحداث: أن بالإمكان قول أى شيء وكل شيء عن الاستخبارات السرية لأن الذين يتوقنون لتصديق ما يُروى يقابلون حتى أكثر المزاعم غرابة بالصمت، كما أن الإنكار الرسمى لا يُصدّق كأمر واقع. لا تُطبق اختبارات الصدقية التاريخية المعتادة على الوكالات السرية بما أن الوثائق الرئيسية تحجب، أو يفرج عنها فى شكل مُعقم. من هذا المنظور، فإن عالم التجسس "متاهة من المرايا" (تعبير إنجلتون). مثل هذا نعمة كبرى مؤكدة للروائيين، والمسرحيين، والسينمائيين الذين يُصَفون على وكالات التجسس قدرات خارقة. ليس ثمة مثال على هذا أفضل من حياة كويلاند وأفعاله. قام الباحث أندرو راشمل الدوب بالتنقيب بحثاً عن كل الوثائق المتاحة وكشفها أثناء كتابة رسالته عام ١٩٩٥ بعنوان: "الحرب السرية فى الشرق الأوسط: الصراع

الغنى على سوريا: ١٩٤٩-١٩٦٦". انتهى الباحث إلى أن زعم كويلاند بأن ستيفن ميد كان العقل المدبر للانقلاب السوري الأول "يدين بالكثير، لنزوعه المعروف للمبالغة في دوره أكثر منه للحقائق". يُضيف راثمل أن مديراً سابقاً للسي آى إيه لم يذكر اسمه قال له "إذا استطعت أن تتبين الحقائق من الخيال في كتاب لعبة الأمم فلا بد وأن تكون عرُافاً".

لننسى مؤقتاً حيرتنا حول قبول كلمة مدير وكالة تحظر الملفات الكاشفة بأسلوب روتيني، كما يعترف بذلك راثمل، وكالة قام الرقباء فيها في السنوات الأخيرة، وبدون إشعار، بإخفاء الوثائق التي كانت متاحة من قبل، وبخاصة تلك المتعلقة بالشرق الإسلامي. إن راثمل يخطئ المغزى. لقد كان سرد كويلاند إعلاناً عن زمن يُنظر فيه إلى تدخل الولايات المتحدة السري على أنه أمر معيارى، زمن قامت فيه جيوش سرية تنبعث فجأة من السماء بتقويض أنظمة، وبتزويد سياسيين معادين من كل نوع وتوجه بهدف سهل لتشويه سمعة منافسيهم - سهل لأنه ما من أحد يستطيع إثبات "لا وجود" مؤامرة شيطانية. في لعبة الأمم هذه فإن كل شيء ممكن، وليس شمة شيء يمكن إنكاره بحق وإقناع أو التنصل منه. وليكن اسم هذه اللعبة "لغز كويلاند".

الفصل الثانی عشر

الرجل الذی کان یعرف أكثرهما يجب

پول داندز وولفویتز

(موالید ۱۹۴۳)

"ليس الإنسان ملاكاً أو وحشاً، ومن سوء الحظ أن يتصرف من يتوقع منه أن يكون ملاكاً كوحش".

- بليز پامكال، "تأملات"

(١٦٧٠)

فيما بدأت القنابل تتساقط على بغداد في مارس ٢٠٠٣، لم يكن غالبية الأمريكيين الذين يعيشون خارج نطاق طريق واشنطن السريع يعرفون سوى القليل، أو أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً، عن بول دى. وولفويتز، نائب وزير الدفاع. ليس في هذا ما يثير الدهشة. فقد كان نموذجاً للرجل رقم اثنين حاد الذكاء، الوفي، الذي لا يعرف الكلل، والذي عادة ما يكون مجهولاً، ويقوم بإعداد القرارات الكبرى وتعزيزها، ليعلنها الرجل رقم واحد ويضعها موضع التنفيذ. عبّر بوب وونوارد الذي يُنظر إليه بعامة على أنه مؤرخ "البلاط" لإدارة جورج دبليو. بوش عن هذا الوضع تعبيراً صحيحاً في كتابه "خطة الهجوم" (٢٠٠٤) بصفته رجلاً عليمًا ببواطن الأمور حيث قال إن وولفويتز "كان العراب الفكري للإطاحة بصدام حسين وأشد الداعين إلى ذلك ضراوة". وحينما سارت الأمور سيرا سيئاً بعد الإطاحة، وعمت الأناركية العراق، بدأ الناس يسمعون المزيد عن وولفويتز الشخص

المتحمس خفيض الصوت، وبخاصة بعد محاولة اغتياله ببغداد في ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢. كان المتمردون قد اكتشفوا، بأسلوب ما، أنه كان يقضى الليلة بفندق الرشيد، من ثم انهال وابل من الصواريخ اخترقت المنطقة الخضراء التي من المفترض أن تكون حصينة. نجا وولفويتز، لكن قُتل ضابط أمريكي، وأصيب سبعة عشر آخرون. تفاقمَت المنيحة حينما هاجم "الإرهابيون" في اليوم التالي المقر الرئيسي للصليب الأحمر ببغداد وقتلوا أكثر من اثني عشر شخصا وجرحوا المئات. لم تكن إراقة الدماء الوحشية، التي مازالت مستمرة، ما تخيل پول وولفويتز حدوثه في العراق "المحرّر". أعلن في شهادة أمام الكونجرس وفي الحوارات الصحفية، وبفاعاته داخل أبواب البنتاجون المغلقة أنه قد توجد بعض المصاعب بعد الحرب، لكن غالبية العراقيين كانوا يبغضون حاكمهم المستبد، وأن معظمهم قد أصبحوا علمانيين، وأن الحكومة المنتخبة، وإن لم تكن خالية من العيوب ستصبح

منارة ليبرالية يهتدى بها جيران العراق الذين يعانون معظمهم من الطغيان، وأن مثل تلك النتائج لن تتطلب بالضرورة احتلالاً مَرهقاً مستطالاً مكلفاً - وفي الواقع، ومع ثروته النفطية، فبإمكان العراق تغطية معظم التكلفة. وفوق كل شيء، فالعراق المهزوم هو عراقٌ منزوع الأنبياء بعد القضاء على برامج أسلحته الكيميائية والنووية ومعها إمكانية تزويد صدام الحسين أسامة بن لادن الذي يكاد يكون من اليقيني أن له ارتباطات معه، بأسلحة الدمار الشامل.

رددت فرقٌ من زملاء وولفويتز رؤاه وآراءه، وكان قد أغرى بعض هؤلاء بمناصب حكومية، وبخاصة أي. لويس "سكوتتر" لبيبي الابن، رئيس العاملين لدى نائب الرئيس. وكان بين الآخرين بعض حلفائه القدامى أثناء الحرب الباردة مثل ريتشارد بيرل الذي تميز بطلاقة الحديث وقوة التأثير فيمن حوله وكان يشغل منصب رئيس مجلس سياسة الدفاع، واليوت إبرامز الخبير في شئون الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي، بالإضافة إلى أصدقاء ومعاونين في كبرى الجامعات، معاهد الأبحاث وفي الإعلام - كتيبة مهيبة الجانب. كان يميز أفرادها مظهر المُنطَلَع على الخفايا وبواطن الأمور، معلومات اكتسبوها أثناء عملهم في الإدارات الجمهورية السابقة التي أدلت سياساتها الحكيمة المتشددة "إمبراطورية الشر" يوماً طلقة رصاص واحدة.

عمل هذا النصر على الاعتقاد بأن التاريخ كان إلى جانب أمريكا، كما كتب فرانسيس فوكويوما حليفهم الأيديولوجي في قسم تخطيط السياسة بوزارة الخارجية. رأى في كتابه "نهاية التاريخ" (١٩٩٢) أن التاريخ ذاته على وشك الانتهاء في وجود الانتصار الكوكبي للأسواق الحرة والديمقراطية. تكررت تلك الأطروحة الجسورة في الورقة البحثية بعنوان "استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية" في ٨ سبتمبر ٢٠٠٢ التي تكلفت لهجتها الفظة في كلمة بوش الاستهلاكية: انتهت صراعات القرن العشرين الكبرى بين الحرية والاستبداد

بالنصر الحاسم لقوى الحرية - وفي نموذج أوجد باقي للنجاح القومي: الحرية، الديمقراطية والمشاريع الحرة". ويتعبير بسيط، أصبح كوكب الأرض وحيد القطب، وهو تعبیر ساعد كاتب الأعمدة بالواشنطن پوست تشارلس كراوتامر على ترويجه من خلال مقال بدورية فورين أفيرز خضع لمناقشات عديدة وأعلن فيه: "إن مركز سلطة العالم هو قوة عظمى وحيدة لا يتحداها أحد، ويواكبها حلفاؤها الغربيون".

وماذا عن هؤلاء الحلفاء المواكبين؟ عبّر روبرت كيجان المثقف الموهوب المعروف بمعاركه الفكرية والذي كان قد اتخذ بروكسل مقرا له، عن الخطوط العريضة للرأى المشترك بين المجموعة الأمريكية التي أطلق عليها، بغير تحديد محكم مُسمًى المحافظين الجدد. زعم في بيانه الذي أصدره عام ٢٠٠٢ بعنوان "عن الفربوس والقوة" أن الأوروبيين افترضوا بحماسة أنهم قد ولجوا فردوسا من السلام بعد تاريخي بالتقابل مع صناعات السياسة الأمريكيين الذين اعتقدوا جازمين أن عليهم توطيد السطوة الكوكبية في عالم هُوبزى (نسبة إلى الفيلسوف هوبز): "ولهذا السبب نرى أنه فيما يخص القضايا الدولية الاستراتيجية الكبرى، ينتمى الأمريكيون إلى مارس (Mars إله الحرب) والأوروبيون إلى فينوس (إلهة الحب والسبق). أسرت تلك الصورة عن القدرة الأمريكية المقدمة، ليس فقط خيال المحافظين الجدد بل حتى الليبراليين الديمقراطيين. عبرت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية في عهد كلينتون عن ذلك بقولها إن الولايات المتحدة تقف وقامتها أعلى من البلدان الأخرى ومن ثم فهي قادرة على الرؤية أبعد من الآخرين. بدا، للحظة، في أعقاب هجمات ١١/٩، أن أمريكا قد تبدت بالفعل شبيهة بالآلهة في استجابتها العسكرية الكفء المحسوبة بدقة. قامت قوة أمريكية متحركة مسلحة بالقنابل الذكية ومبالغ نقدية ضخمة، وبسرعة البرق، باقتحام أفغانستان واقتلاع نظام طالبان بدعى أنه أوى أسامة بن لادن، وتم كل هذا بموافقة كوكبية واسعة. أعقب النصر العسكري تسوية لبعث الحرب لقيت استحسانا عن حق، وتوسطت فيها الأمم المتحدة، بدرجة أن حتى الإيرانيين المعادين أبدوا استعدادهم لدعمها.

كم تبدو بعيدة تلك اللحظة! ومضى الكوكب الأحمر (المريخ أو Mars) وتعثّر نفس الفريق الذي انتزع انتصاراً ماهراً في معاقل أفغانستان الغادرة، تعثر في مستنقع مهلك. لمّ؟ لأسباب عديدة يبرز أحدها: تجاهل مخطوط الحرب العراقية، بأسلوب ما، أحد المبادئ الواضحة في كتاب "لويathan Leviathan" لتوماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) ذلك الفيلسوف السياسي الذي كانت واقعيته الخالية من العواطف ترشدهم. حذّر هوبز بوضوح (الجزء الأول، الفصل الثامن)، بعد أن كان قد راقب السلوك البشري في زمانه الملىء بالاضطرابات قائلاً: "في الوقت الذي يعيش فيه الناس دونما قوة مشتركة تعمل على إبقائهم في حالة من الرهبة، فإنهم يعيشون حالاً يُسمّى الحرب؛ ومثل هذه الحرب هي حرب كل شخص ضد كل شخص آخر". ولأن الأمريكيين لم يُعدّوا أية ترتيبات لفرض سلطة مشتركة على بغداد ما بعد الغزو، تحولت رهبة العراقيين إلى حالة من الارتباك، والنهب والتمرّد، انتشرت في جميع الأنحاء^(١) (باستثناء إقليم كردستان الأقل اضطراباً والذي كان قد تمتع لمدة عقد من الزمان باستقلال ذاتي نسبي، حمته منطقة حظر الطيران التي فرضتها الولايات المتحدة). وفي غضون ما يربو قليلاً على العام، عمت معظم العراق حالة من الفوضى التامة، عمّقها المفجرون الانتحاريون، مما أدى إلى هروب جماعي للاجئين، وزاد من زخم تلك الحالة المقاتلون الأجانب الذين توافدوا على البلد من خلال حدوده غير المحمية.

كيف حدث ذلك؟ كان مهندسو الحرب قد استعدوا رؤية غير واقعية بعد/تاريخية عن عراقٍ يعتق مُعتنأً الثلاثية التي اعتقدوا أنها ضرورية، كوكيباً، للنجاح القومي: الحرية، الديمقراطية والمضاربات الحرة". وإذا نظرنا إليها من عواقبها، نجد أن

(١) لا يذكر المؤلف هنا أي شيء عن مقاومة العراقيين للغزاة الأمريكيين وعاونهم وكانما كل ما حدث، وما زال يحدث، هو مجرد انفلات أمني وأعمال عنف ونهب وتدمير غير هادفة. كما لا يذكران شيئاً عن دور الأمريكيين ومرزقتهم في تأجيج الصراعات وانتشار أعمال العنف. (الترجمة)

عملية حرية العراق "Operation Iraqi Freedom" انقلبت رأساً على عقب ليس بسبب فشل الإرادة بل فشل الخيال والتصور. كان بول وولفويتز، نو الزكاء الذي لا يرقى إليه شك، رمزاً لهذا الفشل.



كان وولفويتز، وقد شحذ عقله وخياله بجامعة شيكاغو وبسنوات من الخدمة بالبنّاجون، يفاخر بمقدرته على قياس ما هو غير قابل للقياس في الاستراتيجية العسكرية وتقويمها. في خطاب له بحفل تخريج دفعة من وست بوينت قبل أشهر من هجمات ٩/١١، استدعى بيرل هاربور وجميع الإشارات التي لم ينتبه إليها أحد الدالة على هجوم اليابان المفاجئ: قال إن هذا درس عملي تؤخذ منه العبر ليس فقط لطلاب الكليات الحربية. فطلي المدنيين أيضاً التخلص من حالة الرضا عن الذات واستبدال التنبؤ بغير المعهود وغير المحتمل بقياب التوقعات.

في الأشهر المؤدية إلى الحرب، تجنب وولفويتز الكليشيهات المستهلكة وكان يأتي بإجابات متممة، بل ومجفلة أحياناً، عن الأسئلة البتذلة: مثلاً، لو أصبحت العراق ديمقراطية، ألن يفوز الإسلاميون؟ أبلغ أحد محاوريه قائلاً: "انظر، ٥٠٪ من العرب نساء. لا تريد غالبية النساء أن يعشن في ظل دولة دينية. والخمسون بالمائة الآخرون رجال. أعرف الكثيرين منهم. ولا أعتقد أنهم يريدون العيش في دولة ذات حكم ديني". تحدّث وجبّهته متفحّنة كرجل ينصت بعناية، وكانت السنوات التي قضاها عميداً لكلية جون هوكينز للدراسات الدولية المتقدمة بواشنطن قد صقلت مسلكه المهني. كان أثناء أسفاره، أو استقبال زائريه وهو على مقعده رفيع المكانة كرئيس للبنك الدولي بعد الحرب، دائماً ما يترك انطباعاً كشخص أهل للثقة. بدأ، وهو الطويل النحيف، أشعث الشعر، رجلاً لا يعرف الخيال، من المحتمل أنه يبلل مشطه بلعابه قبل أن يمرره بشعره، أو أن يخلع حذاءه قبل زيارته لمسجد تركي ليكشف عن ثقب في جوربه. كان سجل إنجازاته ذا أهمية. نادراً ما تعثر قبل حرب

العراق. في كتابه "صعود الآلهة فلكان" (الآلهة التي صنعت النار عند الرومان) (٢٠٠٤)، أقتفى الصحفي جيمس مان حياة وولفويتز المهنية بعناية. كان لقب الفلاكنة Vulcans قد أضفى بأسلوب شبه مازح، على مجموعة غير محكمة من العاملين بالمنتجات ومجلس الأمن القومي، ضمت وولفويتز، ديك تشيني، كولن باول، كوندليزا رايس وبنالد ريمسفلد وكانت المدة الجمعية لتوليهم مناصبهم قد امتدت عبر إدارات نيكسون، فورد، ريجان جورج إيتش. بوش، وجورج دبليو. بوش.

وبدرجات وأساليب متفاوتة، اعتقد هؤلاء "الفلاكنة" أن سطوة أمريكا وقوتها التي لا نظير لها لابد أن تستخدم لتحقيق أهداف جديدة، وللزمة المضمرة لهذه العقيدة، هي أن ما في صالح الولايات المتحدة عادة ما يكون لصالح العالم. وحقا، فقد كان ثمة اختلافات داخل المجموعة وبخاصة حول حرب الخليج الأولى. تبع غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠ جدل زخم داخل إدارة بوش الأب حول كيفية الاستجابة. فضل كولن باول، رئيس هيئة الأركان المشتركة الاحتواء لا الهجوم، وهو يذكرهم بأن القوات الأمريكية لم تدخل من قبل بعدد هائل من الجنود إلى الشرق الأوسط. اختلف معه وزير الدفاع ديك تشيني ووكيل وزارته بول وولفويتز. ومعاً، قاما بالعمل على استراتيجية بديلة صاغها هنري إس. روين، مساعد الوزير لشئون الدفاع والأمن. وكان باحثاً في إجازة دراسية من معهد هوفر، ثم أصبح رئيس مجلس إدارة راند كوريريشن. كان روين، أثناء إجازة له، قد عثر على وصف كان قد نُسي بعامة عن الهجوم البري والجوي بقيادة البريطانيين على بغداد عام ١٩٤١، ذلك الهجوم الذي عكس الأوضاع بعد الانقلاب العسكري الموالي للنازيين بالعراق (تفاصيله في الفصل الثامن). وفي انتصار حاسم، في وقت كان الرايخ الثالث يعاني من ندرة في النفط، اندفع فيلق جلوب باشا ومعه القوات البريطانية باتجاه الشمال الشرقي من الأردن عبر الصحراء وتجهوا إلى بغداد حيث انضموا إلى قوة بريطانية لاستعادة العراق كما كان تشرشل قد أمر بإلحاح.

يرى جيمس مان أنه لدى عودته إلى واشنطن.. عرض روين أفكاره على وولفويتز ثم على تشيني الذي أخبره أن يكون فريقاً بون أن يعلم بول أو أى شخص آخر. شكل وولفويتز وسكووتر ليبي، مساعده المدنى لتخطيطات الطوارئ، مجموعة سرية لتفحص أفكار روين. رفض الجنرال إيتش. نورمان شوارتسكوف خطتهم الهجومية التى أسموها "عملية العقرب" بصفتها غير قابلة للتنفيذ، حيث ذكر فى مذكراته إنه خطر له أن المخططين الثلاثة قد استسلموا لظاهرة شائعة بالبنتاجون: "ضع شخصاً مدنياً فى موضع المسئولية عن رجال عسكريين مهنيين، وستجده قبل وقت ليس بالطويل غير قانع باشتغاله على الأمور السياسية، بل يريد أن يتفوق على الجنرالات فى الشئون العسكرية".

وعلى الرغم من ذلك، شكلت خطة تشينى - وولفويتز - روين جنين "عملية عاصفة الصحراء" Opertion Deser Storm التى بدأت فى ١٧ يناير ١٩٩١ واشتركت فيها أعداد هائلة من قوات المشاة، والقوات الجوية من بلدان ثمانية، بالإضافة إلى ست مجموعات بحرية مقاتلة تابعة للولايات المتحدة. وفى غضون شهر، كان هجوم التحالف البرى، البحرى، الجوى قد حرر الكويت ومزق جيش صدام حسين، الذى تبعثر، إرباً. دعا الجنرال بول، وشوارتسكوف، بعد أن تم قهر العدو وإزالته، وتحرير الكويت، فيما بقيت قوات التحالف سليمة لم تمس، دعوا إلى وقف إطلاق النار وافق عليه تشينى والبيت الأبيض على الفور. استاء وولفويتز من توقيته، علق، فيما بعد بالقول إنه، بتأجيل اتفاقية وقف إطلاق النار بدون ذبح أفراد الجيش العراقى الهارب كان بإمكان الولايات المتحدة شراء الوقت لتتصاعد المقاومة ضد صدام حسين وللقيام بعمليات ضده. أعقب ما رآه المعارضون وقف إطلاق نار متسرع سماح الجنرال شوارتسكوف لطائرات الهليكوبتر العراقية بالطيران فى مجال قوات التحالف الجوى بزعم نقل المسئولين العراقيين من مناطق المعارك. عارض وولفويتز، ودينيس روس، حلاً عقد الشرق الأوسط بوزارة

الخارجية، هذا التنازل للعراق. وكما كان متوقعا قصفت طائرات الهليكوبتر العراقية المقاتلة المتمردين الاكراد والشيعة الذين كانوا قد نزلوا إلى الشوارع واليادين مقترضين أن قوات التحالف بقيادة الأمريكيين ستوفر لهم غطاءً جويًا.

وأخيرا، برز السؤال الخلافى: هل يجب على الحلفاء المنتصرين التقدم إلى بغداد والإطاحة بالطاغية؟ تخير الرئيس جورج إيتش. بوش، ومستشار الأمن القومى برنت أشكروفت، بعد أن وازنا المخاطر، الامتناع عن ذلك لأسباب أوضحها فى كتابهما المشترك "عالم تغير شكله" (١٩٩٨):

"كان لابد لمحاولة القضاء على هدام وتوسيع الحرب البرية لتصبح احتلالا للعراق أن نتتلك خطنا الإرشادى بعدم تغيير أهدافنا قبل أن نُنجزها... وكان لابد أن ينتج عن هذا تكلفات بشرية وسياسية باهظة لا محذوة.. كنا سنجبر على احتلال بغداد ومن ثم نحكم العراق ونسيطر عليها. كان التحالف سينهار على الفور، وينسحب منه العرب غاضبين وكذلك الحلفاء.. إن دخولنا إلى العراق واحتلالنا له، الأمر الذى يعنى توسيع تفويض الأمم المتحدة أحادياً، كان لابد أن يقضى على سابقة الاستجابة الدولية للعوان التى كنا نأمل فى ترسيخها. لو أننا سرنا فى طريق الغزو، لأصبحت الولايات المتحدة قوة احتلال فى بلدٍ معادٍ بمرارة. كان لابد للنتيجة أن تكون مختلفة دراماتيكيًا، بل وربما عقيمة فارغة".

بيد أنه كان ثمة تفسير أكثر أنانية لهذا التحكم فى الذات العاقل الحكيم. وفقا لاعتراف الجنرال پاول، بأسلوب عَفْوى، فى مذكراته: "كانت نيتنا العملية هى أن نترك لبغداد قوة كافية بحيث تبقى تهديدا لإيران التى ظلت عدوا لدودا للولايات المتحدة". أثار هذا التنازل للنبس أخلاقيا للسياسة الواقعية استياء أمريكيين آخرين وليس پول وولفويتز فقط الذى كان كثيرا ما يشير أثناء تسعينيات القرن العشرين إلى الفرص المهددة فى حرب الخليج الأولى. وأثناء عمله عميدا أكاديمياً أقنع هو وحلفاؤه الرئيس كلينتون والأعضاء الديمقراطيين بالكونجرس بأن "تغيير النظام" ببغداد كان هدفا مشروعا للسياسة الخارجية الأمريكية (كما مضوا

يُذَكِّرُون ناقدى الحرب الخرقاء على العراق فيما بعد). بيد أنه لم يكن الهدف هو الذي أثار معظم المعارضة بل الوسائل المستخدمة. مثلاً رأى رينجيو برجنسكى مستشار جيمى كارتر للأمن القومى أن حرب ٢٠٠٣ على العراق هى أعظم حماقة ارتكبتها السياسة الخارجية الأمريكية، كارثة جيوسياسية تكلفت ٣٠٠ مليار دولار حيث "غداً فيها محاربة العراقيين المتمردين المعارضين لاحتلال الولايات المتحدة هو الهدف الواقعى لحرب قيل إنها موجهة ضد إرهاب غامض، أصبحت أسلوباً للقتل، لكنه قتل عدواً لا يكاد يكون معروف الهوية". وبحلول عام ٢٠٠٧، كانت تلك المعارضات قد أصبحت يدهية مأكوفة بين محترفى الشؤون الخارجية، وترددت فى استطلاعات الرأى التى سجلت انخفاضاً حاداً فى معدلات الموافقة على سياسة بوش. كيف تأثرت، إذن، لوفويتز، ذلك المحلل اللامع، المساعدة على قيادة الولايات المتحدة إلى ذلك المستقبل الذى يبدو أن لا قاع له؟

يمكن تمييز أربع جدائل فى التطور الفكرى لبول وولفويتز: أصوله البولندية اليهودية؛ بصمة جامعة شيكاغو وسوقها الحر لـ "الأفكار الكبرى"، تأثير امرأتين مهمتين. عالمة الآثار كلير سلجين، زوجته السابقة التى استمر زواجه بها ثلاثين عاماً، ورفيقتها الأحدث، شاهه على رضا الناشطة النسوية العربية؛ وأخيراً احترامه للمنفقين العراقيين وصداقته بهم، وبخاصة أحمد الجلبى.

كان وولفويتز أحد أبناء جماعة من المهاجرين اليهود التى حفزت طبيعتها وسماتها عالم الاجتماع السياسى تورستين قبلن إلى كتابة مقال ثاقب البصيرة عام ١٩١٩ بعنوان "التفوق الثقافى اليهودى فى أوروبا الحديثة". كان وعد بلفور هو ما ألهم تأملاته، والذى كان، فى العام السابق، قد أعلن موافقة بريطانيا على خطة صهيونية لإنشاء وطن قومى لليهود بفلسطين. وحينما قارن بين المطالبين المتنوعين المتحمسين لحق تقرير المصير والذين شجعهم دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى،

منح قبلان الدرجات العليا للصهاينة الذين أنشئ عليهم بسبب "رصانتهم، حسن نواياهم، ورباطة جأشهم وثقتهم بالذات". بيد أنه، تسائل بافتراض أن الخطة الصهيونية هي في مصلحة اليهود، فهل سيكون تحققها في مصلحة أوروبا؟

كتب قبلان يقول إن القاتل فقط هم من سيشككون في أن اليهود قد أسهموا بأكثر من نصيبهم في تقدم أوروبا. لم هذا؟ رأى قبلان، الذي كان من أسرة مهاجرين من النرويج، أن اليهود ينتمون إلى أقلية مُهَجَّنة نظر أبنائها إلى الأعراف والعادات الراسخة لاجتماع الغالبية من منظور متشكك. وبما أن اليهودي الموهوب ينتمي إلى ثقافة تحتية مترابطة فإنه "يزعج السلوك الثقافي" ولو بتكلفة فقدان "السلام العقلي الذي هو امتياز موروث للأمنين، العقلاء ممن يتمتعون بالهدوء والسكينة". من ثم، فإن مكاسب الصهيونية قد تصبح خسارة لأوروبا^(١). وبالمثل، فقد أفادت الولايات المتحدة بصفتها بوتقة انصهار لمختلف الثقافات فائدة كبرى من أقليتها الكثيرة حيث لم يواجه الموهوبون من أبنائها سوى عقبات أقل من تلك التي واجهها نظراؤهم بأوروبا التي تتميز بتراتبياتها المتحجرة. (كان من ابتدع تعبير "بوتقة انصهار" هو الكاتب البريطاني الصهيوني إسرائيل زانجويل في مسرحيته "بوتقة الانصهار" عام ١٩٠٨ التي حوت الأسطر التالية: "أمريكا هي بوتقة الرب، بوتقة الانصهار العظمى التي فيها تنوب كل أعراق أوروبا وتعيد تشكيل أنفسها").

كان جايكوب وولفويتز، والد پول، صهيونيا طوال حياته، وكان رياضيا مرموقا، استفاد من بوتقة الانصهار الأمريكية. كان جايكوب من مواليد بولندا ووصل إلى نيويورك عام ١٩٢٠ وهو في العاشرة مع والديه صامويل وهلين. ويعد أن التحق بالمدارس الحكومية المحلية، تمكن وولفويتز الشاب، أثناء فترة الركود الكبير، من

(١) إن مثل تلك المضغطة الفلسفية (الدعائية) التي تعتمد عن منطق ظاهري قائم على

فرضيات زائفة هي ذاتها التي أدت إلى اعتناق أوربيين كثيرين للأفكار النازية والفاشية

وغيرها وغيرها. (الترجمة)

الحصول على درجة البكالوريوس من جامعة سيتي بنيويورك رفيعة المستوى والتي رُحِبَ به. بعد ذلك، عمل بتدريس الرياضيات بالمدارس الثانوية، وحصل على الدكتوراه من جامعة نيويورك، واشترك مع البروفسور إبراهيم والد بجامعة كولومبيا في أبحاث أساسية على النظرية الاستاتيكية، وعلى أساس أبحاثه، حصل على منصب بروفيسور بجامعة كورنيل عام ١٩٥١، ثم بجامعة إلينوى عام ١٩٧٠ حيث ظل يدرّس بها حتى تقاعده. اعتُبر عملاقاً في مجاله، وكتب ١١٤ ورقة بحثية وكتاباً مهماً عن نظرية الإعلام، وقضى إجازة دراسية مثمرة لمدة عام في معهد أبحاث بإسرائيل حيث كانت ابنته قد استقرت هناك وتزوجت من إسرائيلي. توفي جايكوب وولفويتز عام ١٩٨١ .

وهكذا، شبّ پول ولورا وولفويتز وسط أسرة تُجِلُّ فرانكلين روزفلت، وتُدين استرضاء هتلر، وترحب بإجراءات الضمان الاجتماعي والحقوق المدنية. بعد عقود، صرح وولفويتز للصحفي كريستوفر هيتشنز بأنه كان "قلباً دامياً" أثناء شبابه، وانضم هو وشقيقته إلى مسيرة مارتن لوتر كينج بواشنطن. بيد أنه كان قد خضع لتأثيرات متنافرة أثناء دراسته الجامعية. تخير پول جامعة كورنيل لأسباب مالية وأيضاً لأن والده كان يعمل هناك (مصاريف أقل لأبناء هيئة التدريس). وُضِعَ في سكن داخلي نخبوي، وهناك صادق الفيلسوف السياسي المحافظ آلان بلوم، الذي ذاع صيته فيما بعد بسبب كتابه "إغلاق العقل الأمريكي" الذي كان ملهماً للرواى الإسرائيلية شاول بلور في روايته "Ravelstein". ووفقاً لصورة شخصية مبكرة صاغها بيل كير بالنيويورك تايمز فإن "بلوم شجع وولفويتز على المضي في اهتمامه بشئون العالم التي كانت قد استحوذت عليه في طفولته، الأمر الذي سبب استياء والده الذي كان يعتبر علم السياسة مرادفاً لعلم الفلك".

وهكذا التحق پول وولفويتز عام ١٩٦٥ بجامعة شيكاغو، وبذلك تأجل تجنيده أثناء حرب فيتنام لأنه كان طالب دراسات عليا. كيف نظر إلى ذلك الصراع؟ في

عام ٢٠٠٢، أبلغ كلر أن تلك الحرب كانت نموذجاً معيارياً للنوايا الحميدة التي ضلّت طريقها: كان وولفويتز متعاطفاً مع الحرب لكنه، فيما بعد، رآها طموحاً باهظ التكلفة. يعجب، في نفس الوقت، مما إن كان النور الأمريكي بقيتنام قد منح القوى المعادية للشيوعية في آسيا وقتاً لتجميع قوتها. قال "تعرف أن تكلفات فيتنام كانت هائلة". ثم يضيف بأسلوبه الخاص، "لكننا لا نعلم ما كان هذا الجزء من العالم سيصبحه لو لم تحدث الحرب". يمكننا هنا أن نضيف إننا لا نعلم ما هية مشاعر وولفويتز إزاء العراق لو أنه قد خبر مباشرة النتائج الكارثية للحرب الواقعية التي لم يكن بالإمكان تكهنها. على أية حال، فإنه، وأثناء سنواته بجماعة شيكاغو، اكتسب يقين المخاطرة الذي أصبح أمضى أسلحته البيروقراطية^(١).

في ٢ ديسمبر ١٩٤٢، أنتج فريق من العلماء بقيادة المهاجرين الموهوبين إنريكو فرمي (إيطاليا) وليو زيلارد (المجر) أول تفاعل متسلسل نووي من صنع الإنسان، والذي استبق التفجيرات الأكبر بلوس ألاموس. وقعت هذه الحادثة الزلزلة للأرض، حرفياً، أسفل مدرجات ستاج فيلد بجماعة شيكاغو، تلك الجامعة التي، ويعد ذلك بعام، حصلت على حقوق ملكية الموسوعة البريطانية Encyclopaedia britanica، التي كانت قد نُشرت للمرة الأولى عام ١٧٦٨ بإنجلترا.

ويعد أن أفادت الجامعة من مكانة الإنسايكلوبيديا وأرباحها، عمدت إلى اقتناء وإنتاج "الكتب العظمى (أمهات الكتب)" والتي شملت أربعة وخمسين كتاباً من ٢٥ مليون كلمة وبذلك طمست منافستها الأمريكية الوحيدة، هارفارد، التي كانت مكتبتها تزدهر برف ارتفاعه خمسة أقدام من تلك الكتب. ثم ذهبت إلى أبعد من هذا،

(١) رغم تلك اللسمات التجميلية، والتحليل الذرائعي لشخصيته وولفويتز، تاريخه، أفكاره، وأعماله، فما يخرج به القارئ بإيجاز، هو أنه صهيوني حتى النخاع، مؤيد لحروب أمريكا الخارجية، بل وداعية ومخطط لها، بضمير مستريح وفكر بارد (الترجمة)

حيث جُمع باحثوها الأكاديميون ماثتين واثنيتين "فكرة عظيمة" شرحوها وصنفوها فى أقسام واضحة المعالم بالـ Syntopicon، وهى "مكتبة مراجع موحدة فى عالم الفكر والرأى" وفقاً لتعبير راعيها الأكاديمى الدكتور مورتيمر جيه. أدلر صديق رئيس الجامعة روبرت ماينارد هتشينز.

كان ذلك الجمع المُجمل بين الفيزياء النووية، والتنوير الإسكتلندى، وأساليب التدريس المستفزة نمطياً فى جامعة أمريكية كانت بها المعرفة ذات قيمة عظيمة بدرجة أن هيتشنز أوقف اشتراك فريق كرة القدم فى المباريات بين/ الجامعية (بصفتها إلهاء وغير ذات قيمة)، ورُحِبَ بالتحاق صفار الطلبة ممن هم فى الخامسة عشرة بها. كان بين الصفار الذين اجتذبتهم شيكاغو، سوسان سونتاج (مواليد ١٩٥١) والتي دخلتها وهى فى السادسة عشرة وهناك التقت بعالم الاجتماع فيليب ريف وتزوجته قبل أن تبدأ هى حياتها المهنية حيث أزعجت السلام العقلى. آنذاك، كانت جامعة شيكاغو قد أصبحت اسماً أكاديمياً نوعياً للتوجهات المتقدمة فى العلوم البحتة، العلوم الاجتماعية (بخاصة الاقتصاد، الاجتماع، والسياسة) والدراسات والآداب الليبرالية (بما فيها اللغة واستخدام الترقيم، النقط والفواصل كما يحددها كتاب أسلوب مرجعى).

كان تصميم الجامعة على أن تكون "هارفارد الغرب الأوسط الأمريكى" جلياً منذ إنشائها عام ١٨٩٠ بتمويل أمددا به جون دى. روكفلر (بلغ مجموعه ٤٥ مليون دولار عام ١٩١٠). سعى أول رئيس لها ويليام رينى هاربر أن يجمع بين روح كليات أكسفورد/ كامبريدج وكليات الدراسات العليا الألمانية بأسلوب لافت للنظر. انعكست النتائج فى معمار الجامعة (قوى مع مسحة قدم مصطنعة): وعامها الأكاديمى المقسم إلى أربعة فصول، والذى يشمل دراسات صيفية؛ وخدمات تعليمية رائدة تشمل غير المسجلين بها وفصول دراسية ليلية؛ وتأكيداً على الأبحاث والدراسات العليا. فى عام ١٩١٠، كانت جامعة شيكاغو قد سجلت عددا

من طلبة الدراسات العليا يفوق أية جامعة أخرى باستثناء جامعة كولومبيا، وكان علماء الفلك بها يُبصرون الكون من خلال Yerkes، أكبر تلسكوب في العالم. كان الزائرون يحملون مدهولين في غرفة طعام الرجال بها (نسخة من تلك الموجودة بكريست تشيرش هول، أكسفورد) ومبنى كلية الحقوق (استلمه المُصلّي بكينجز كوليدج بكامبريدج) ومقتنياتها الثرية من آثار الشرق الأوسط، وبخاصة مقتنيات برسيبوليس الإيرانية، والتحف المصرية القديمة التي علّق عليها المستشرق الأمريكي البارز جيمس هنري برستد.

عكس موقع الجامعة الحضري طموحها العنيد. تظل تلك المدينة العاصفة (شيكاغو) التي انبثقت وكأنها من اللامكان قابلة للتمدد ومفرطة التضخم في آن. ارتفعت أول ناطحات سحاب أمريكا على شواطئ بحيرة ميشيجان، وإلى يومنا هذا، تظل ماكينة الحزب الديمقراطي السياسية الأقدم والأكثر رسوخا في البلاد. كانت عصابات الإجرامية ذات شهرة عالمية. بيد أن شيكاغو أيضا أنتجت شعراء وكتابا ساخرين، وروائيين، ومجلات صغيرة، وتوجهات سياسية راديكالية. هنا أيضا ازدهرت صحيفة شيكاغو تريبيون التي ظلت حتى تسعينيات القرن العشرين، تكتب على صفحتها الأولى "أعظم صحيفة في العالم".

في مقدمتها لديوان كارل صاند عام ١٩٢٦، كتبت ريبيكا وست التي كانت في زيارة لأمريكا تقول: "هناك، في أمريكا، مدينة مذهلة اسمها شيكاغو، مدينة بلون الأمطار، لا يدرك البصر قمم أبراجها الرخامية التي ترتفع وسط مساحات من الأراضي المقفرة التي تصل الحشائش فيها إلى الركب، مدينة تُطل على بحيرة أمواجها الرمادية كأمواج البحر. بها مركز تجارى ومكتبى، يبدو ولمسافة أميال أنه ظلمة تُغطى الأعين، المباني شاهقة، شوارعها الضيقة تعّمها الفوضى بسبب الخط الحديدى بطى الخطى، حتى بكامله يُستخدم فناء مؤقتا للماشية المعدة للذبح، رائحته تزكم الأنوف لأميال عديدة". كان هنا، أثناء فترة الستينيات مفرطة النشاط،

أن حصلَ پول وولفويتز تعليمه، واكتسب يقينه وارتباطه بالأفكار الكبيرة الشاملة الكاسحة.

فى خريف عام ١٩٦٥، وأثناء حفل شاي أقامته هيئة التدريس لطلبة الدراسات العليا المستجدين، سأل ألبرت وولستر أستاذ علوم سياسية اسمه وولفويتز أن كان يعرف شخصاً اسمه چاك وولفويتز. قال پول إنه والدىّ وهنا أجابه وولستر "لقد درست الرياضيات معه بـكولومبيا". من ذلك اللقاء، وكما روى جيمس مان، نشأت علاقة بين المرشد والطالب كان لها دور مهم فى السياسة الخارجية الأمريكية. كان وولستر نيويوركيّاً درس بجامعة سیتی قبل أن يلتحق بـكولومبيا ليدرس الرياضيات، وكان منذ وقت مبكر قد أسره مفهوم "اللامعصومية" الذى طوره الفيلسوف الأمريكى تشارلس ساندروز بيرسى والذى يذهب إلى أن غير المتوقع وغير اليقيني يجب وأن يكوناً نَوَى أهمية كبرى فى أى بحث أو تقصّر. فى الخمسينيات وأثناء عمله كمحلل سياسات بمؤسسة راند كوربوريشن، طبّق وولستر مفهوم بيرسى على المبادئ الاستراتيجية النووية للبتاجون، وأنتهى إلى أنها قاصرة بدرجة خطيرة.

رأى القصور بوجه خاص فى القيادة الجوية الاستراتيجية أو SAC بما تضمنه من قواعد جوية أمريكية وأجنبية متناثرة، قواعد معرضة بأسلوب بالغ الخطورة لضربات جوية سوفيتية فجائية، أى أنها "ثغرة ذات أبعاد رهيبه". أعد وولستر مع هنرى روين زميله فى مؤسسة راند ومحللين آخرين "لوحة قتل" نكروا فيها تفاصيل الأخطاء المحتملة، مستبقين بذلك النقلة إلى القواعد الصلبة للصواريخ البلسية بين /القارية (ICBMs) وتحطيق قاصفات SAC على مدار الساعة باستخدام نظام آمن ضد التوقف أو الخلل لتلافى اشتعال تبادل نووى عشوائى (بالصدفة).

انتقل وولستر إلى شيكاغو، ولعقود عدة ظل صوتاً مسيطراً فى الجدل الداخلى الجارى حول "الدمار المتبادل المؤكد" MAD، وجهات النظر المؤيدة والمعارضة

لمعاهدات الحد من الأسلحة الاستراتيجية SALT، وجنوى حظر الصواريخ المضادة للغزائف الباليستية ABMs من خلال اتفاق متبادل. ظل هولستر يشعر بالقلق إزاء لا أخلاقية MAD، وعارض SALT على أساس منحها معاملة دُنية للسوفييت وتجميد الابتكارات الأمريكية المحتملة في المجال، وأيد التحرك قُدماً بأقصى سرعة في مشروع دفاعي صاروخي أمريكي، وقد أُلح على آرائه تلك بشدة تلاميذه العاملون مع السناتور هنري (سكوب) چاكسون أو لحسابه، وكان چاكسون ديمقراطياً يمثل واشنطن، والصقر القائد في حزبه.

كان على قمة قائمة مخاوف هولستر الانتشار المحتمل للسلح النووي، وبخاصة في الشرق الأوسط. حينما بدأت إدارة چونسون تدعم مشاريع تحلية المياه في المنطقة، وافق على أن النية كانت حسنة، لكن مصانع التحلية تُنتج أيضاً الهلوتونيوم، أى المكون الأساسى فى الأسلحة النووية. لدى عودته فى نهاية ستينيات القرن العشرين من زيارة له لإسرائيل حيث كان قادتها يدرسون خطط شركة أمريكية لإقامة أحد تلك المصانع، سلم هولستر مجموعة من الوثائق لمساعدته، طالب الدراسات العليا پول وولفويتز وسأله إن كان يقرأ العبرية. أجاب بنعم ونتج عن أبحاث وولفويتز فى تلك الوثائق رسالة دكتوراه تؤكد أن مخاطر الانتشار يفوق فوائد التحلية. إضافة إلى ذلك، فإن تطوير إسرائيل لأسلحة نووية تحيطه الشكوك فى قيمتها لأن أية قوة نووية لإسرائيل ستعتمد على نظام إطلاق بسيط نسبياً مما يجعله عرضة لمخاطر الهجوم التقليدى.

حذرت رسالة الدكتوراه من أن التهديد النووى الإسرائيلى سيقضع وضع إسرائيل العسكرى التقليدى لأنه سيعزلها عن النول الصديقة فى الغرب، وسيشجع الاتحاد السوفييتى، ناهيك عن إجباره، على التدخل النشط إلى جانب العرب.. ستجبر أسلحة إسرائيل النووية العرب على القيام بمحاولات يأنسة للحصول على أسلحة نووية إذا لم يكن من الاتحاد السوفييتى فمن الصين فى

وقت لاحق، أو تصنيعها بأنفسهم. كان ذلك، بالنسبة لطالب دكتوراه، تكهنا فطناً واثقاً (لم تعترف إسرائيل أبداً بامتلاكها ترسانة أسلحة نووية مما ولّد مطالب لتملك تلك الأسلحة في إيران، السعودية، مصر، وعراق صدام حسين).

لكن كان اهتمام وولستر الأول هو الاستراتيجية النووية، وكان تحليله تقنياً. كان بين زملائه بجامعة شيكاغو مهاجران ألمانيان قَدَمَا للطلبة آراء أكثر رحابة ومتعارضة في أن عن فرض الديمقراطية أثناء الحرب الباردة. اشتهر ليو شتراوس (١٨٩٩-١٩٧٣) اليوم على نطاق واسع بصفته مرشد المحافظين الجدد ومعلمهم، لكنه في الستينيات حينما كان يشارك بدور رئيسي في النوات الدراسية المعارضة لحرب فيتنام، كان هانس مورجنثاو (١٩٠٤-١٩٨٠) أكثر منه شهرة. كان كلاهما قد ولد يهودياً بألمانيا حيث التحقوا بالجامعة هناك (ميونيخ في حالة مورجنثاو، وماربورج في حالة شتراوس) وهرب كلاهما من ألمانيا النازية ليبدأ من جديد حياتهما الأكاديمية بأمريكا (جامعة بروكلين ثم جامعة كنساس بالنسبة لمورجنثاو، فيما انضم شتراوس للعمل بالجامعة الجديدة للأبحاث الاجتماعية).

افترقت طرقهما بحدة. رأى مورجنثاو أن المصلحة القومية هي التي تحدد الصراعات الكوكبية، وكان اعتقاده الراسخ أن فضائل القائد وبواقفه غير ذات أهمية. بين أن نغليتشامبرلين البريطاني الذي حاول استرضاء الأعداء بأسلوب كارثي كان يكنّ أفضل النوايا، فيما أن النقاء الأخلاقي الذي تميز به رويسبيير الثوري الخالص دفعه إلى إرسال من هم أقل منه نقاءً إلى المقصلة. اعتبر مورجنثاو الفكرة القائلة بأن أي بلد هو وكيل للرب مجرد تجديد وأن معيار أخلاقية أية سياسة يجب أن يكون النتائج الملموسة لا المبادئ الكونية. نهب إلى أن التدبير والفتنة- إمعان التفكير في عواقب الأفعال والإجراءات المتاحة وبدايتها- هو الفضيلة القصوى في السياسة. أورد تفاصيل كل هذه الأفكار في كتابه "السياسة بين الأمم: الصراع على السلطة والسلام" الذي ظل لمدة عقدين النص المهيمن في مجاله، وصدرت منه أربع طبعات بعد ظهوره الأول عام ١٩٤٨ .

يستخلص الفصل الأخير في كتابه "القواعد الأساسية الأربع" التي أمل مورجنثاو أن تهيم في عالم السياسة: "لابد من تجريد الدبلوماسية من روح النضال العقائدي العنيف: لابد من تجديد أهداف السياسة الخارجية في ضوء المصلحة القومية؛ على الدبلوماسية النظر إلى المشهد السياسي من منظور البلدان الأخرى، على البلدان أن تكون على استعداد لتقديم التنازلات في كل القضايا التي ليست حيوية بالنسبة لها". كان مورجنثاو كثير الاستشهاد بالساحرين والنسبيين من الكتاب من أمثال توففيل، ماكس ويرر، راينولد نيبور، رايوند أبرون، جوزيف شومبيتر وإزيبا برلين. كان يفضل بخاصة فقرة كتبها الحكيم الأمريكي ويليام جراهام سومر في القرن التاسع عشر:

"إذا أردت حرباً، عليك أن تغذي مبدأ وتنمية. المبادئ هي أكثر الطغاة تريوما التي يخضع لها الناس، لأن المبادئ تلج إلى داخل عقول البشر وتستقر فيها وتخلطهم مقابل أنفسهم.. المبدأ هو جزمٌ ميتافيزيقي. لا يكون حقيقياً أبداً لأنه مطلق، وشئون البشر جميعها مشروطة ونسبية.. إذا سمحت لشعار سياسي بالاستمرار والنمو، ستستيقظ يوماً لتجده وقد سيطر عليك، يقرر مصيرك، وتجد نفسك عاجزاً تجاهه، مثلما يصبح الناس عاجزين في مواجهة الأوهام".

كان هذا مختلفاً تماماً عن معتقدات ورؤى ليو شتراوس. رأى أن النسبية التي أشاد بها مورجنثاو هي منبع السموم الأيديولوجية التي تهيم على العالم الحديث. كانت لغته غامضة في أحيان كثيرة، ونقاشاته غير مباشرة وغالبا ما كانت تتكون من تأملات في أفكار أفلاطون، إكزوفون، هوبز، ولوك بهدف تحذير الأمريكيين الذين كثيرا ما يتميزون بالضعف. أسهب متشائما فيما رآه أنه أزمة الليبرالية أزمة سببها أن الليبرالية تخلت عن أساسها المطلق في محاولة منها أن تصبح نسبية تماماً. وسرعان ما تتدهور النسبية لتصبح "اعتقاداً لا مباليا بأن جميع وجهات النظر متساوية (من ثم، لا يستحق أى منها المناقشة الزخمة، أو التحليل العميق، أو

الدفاع القوى الشجاع)، ثم تصبح عقيدة طنانة بأن أيًا من يدافع عن سمو بصيرة أخلاقية معينة، أو أسلوب للحياة، أو نمط إنساني هو نخبوي ومعارٍ للديمقراطية ومن ثم لا أخلاقي.

ولأنه كان قد شهد مباشرة انهيار جمهورية فايمار (الديمقراطية) بألمانيا، تأمل شتراوس نظام أمريكا السياسي الانفعالي غير الراسخ متخوفاً. بيد أن قياسه هذا كان مضللاً، هكذا يؤكد چون جرائ، المنظر السياسي البريطاني في كتابه "القدّاس الأسود: الدين الأبوكالي وموت اليوتوبيا" (٢٠٠٧). يقول "إن تشخيص شتراوس للديمقراطية هو تشخيص في غاليته لألمانيا في عهد جمهورية فايمار. لكن بطاقة الجماهير، والتضخم المفرط، وتعويضات الحروب والإذلال القومي قضت على أية شرعية لنظام فايمار". لم ينطبق سوى القليل من هذا على أمريكا بعد الحرب، التي بخس شتراوس وأتباعه قدر قوتها وحيوتها (وبخاصة في عهد الرؤساء الديمقراطيين) تماماً مثلما بالقوا في قدر قوة الاتحاد السوفييتي ومدى تهديده.

كان مصدر كآبة شتراوس المتأصلة، جزئياً، هو تأثير فيلسوفين ألمانين من الوزن الثقيل: مارتن هايدجر الذي صاغ مبدأ القلق الوجودي، وكارل شميت المحافظ المتطرف والثائر على المعتقدات المتوارثة. كان ليو في شبابه، في عشرينيات القرن العشرين قد درس مع هايدجر بجامعة فرايبورج فيما كان شميت هو الذي عمل على حصول شتراوس على منحة روكفلر التي مكنته من مغادرة ألمانيا النازية إلى باريس عام ١٩٣٣. بيد أنه، وما يؤسف له، فقد تصالح المفكران مع الرايخ الثالث وهتتر، الأمر الذي يُعزى إلى اشمئزازهما من عدمية سنوات جمهورية الفايمر، تماماً مثلما شعر كثير من المحافظين الأمريكيين بالنفور من إفراطات الستينيّات الراديكالية. رأى شتراوس أن ما ينجم عن الديمقراطية من فوضى، وكما جاء بجمهورية أفلاطون، يؤكد على الحاجة لوجود طبقة متسيدة باستطاعتها رؤية ما هو أبعد وذلك بسموها على قطعان العامة. عبر عن ذلك بصراحة في

خطاب له ألقاه بحفلة تخرج في روكفلر تشابل بجامعة شيكاغو: "إن التعليم الليبرالي هو المحاولة الجادة الضرورية لإنشاء أرستوقراطية داخل المجتمع الجماهيري الديمقراطي"، وأضاف "لا يجوز لنا أن نتوقع أن باستطاعة التعليم الليبرالي أن يكون تعليمًا شموليًا. سيظل دائمًا التزامًا للأقلية وميزة لها".

وكنتيجة منطقية لهذه الأفكار، اعتقد شتراوس أن الكذب في المجال السياسي ليس فقط ضرورة يؤسف لها، بل قد يكون وسيلة نبيلة وأخلاقية للسياسة السليمة. يعلق المؤرخ الثقافي إيرل شوريس في كتابه "سياسات السماء" (٢٠٠٧) قائلاً: "نصيح أفلاطون نبلاءه، أولئك الرجال من نوى الأرواح الذهبية، بأن يكتبوا، أكاذيب نبيلة- خرافات سياسية، تماثل شبح صدام وهو يحمل قنبلة نووية - من أجل الإبقاء على المستويات الأخرى من البشر (الفضة، النحاس، والحديد) في أماكنهم الصحيحة، موالين للدولة ومستعدين لتنفيذ أوامرها. نصيح شتراوس أيضاً بالأكاذيب النبيلة لخدمة المصلحة القومية، وأمن بآراء أفلاطون القائلة إن الأرستوقراطيين أشخاصاً فضلاء بدرجة أن مثل تلك الأكاذيب ستستخدم فقط من أجل الخير، وللحفاظ على النظام في الدولة وفي العالم".

يظل مدى النفوذ الذي مارسه أتباع ليو شتراوس على إدارة جورج دبليو. بوش موضع جدل. تجاهل پول وولفويتز الذي كان قد درس منهجين دراسيين مع شتراوس، المزاعم بأنه من أتباع شتراوس بصفتها مبالغاة. وعلى الرغم من ذلك، كانت دائرته مليئة بأتباع شتراوس. منذ الستينيات صعوداً، عارض وولفويتز وأتباع شتراوس الانفراج في العلاقات الدولية، كيسنجر، والحد من التسليح، وألحوا بدلاً من ذلك على أن إثبات القوة الأمريكية واستخدامها بأسلوب بطولي، أحادياً إذا اقتضت الضرورة، هو أمر لا مفر منه لتحويل التيار. في بيان مميز بعنوان "الخطر الحالي: هل نملك الإرادة لعكس تراجع القوة الأمريكية؟" حثر داعية المحافظين نورمان پودهورتز من أن الليبراليين الأمريكيين مصابون بداء "الاسترضاء الثقافي"

وأن "انهيار القرار الأمريكى والعزيمة الأمريكية" سيكون دلالة على خضوع البلد، فى نهاية المطاف، سياسياً واقتصادياً "للقوة السوفيتية الأعظم". نُشرت تأملاته القائمة تلك عام ١٩٨٠، قبيل انهيار الاتحاد السوفيتى بعقد واحد.

كان بين أتباع شتراوس الذين تشاركوا فى تلك النظرة التشاؤمية شبه الأبوكالية (نسبة إلى أهوال سفر الرؤيا) آلان بلووم الأستاذ بجامعة شيكاغو الذى كان يلقى مرثيات دراماتيكية الليبرالية الأمريكية فى قاعات مكتظة. وهارفى مانسفيلد الأستاذ بها رفارد وتلميذه ويليام كريستول الذى أسس فيما بعد صحيفة الوبكى ستاندارد؛ ومتخصص فى مجال الحد من الأسلحة ريتشارد بيرل الذى لُقّب بـ "أمير الظلام" وعرف عنه معارضته الشرسة لآية تنازلات للسوفييت؛ فرانسيس فوكوياما الأكاديمى الديبلوماسى، الذى احتفى فيما بعد بنهاية التاريخ؛ وإبرام شولسكى الشتراوسى المكّرس الذى أصبح عام ٢٠٠١ مدير مكتب البنتاجون للخطط الخاصة، الذى أنشئ لإكمال (أو بدقة أكثر لتصحيح) "تشوس" السى أى إيه غير الملائم حول روابط صدام حسين مع أسامة بن لادن.

تم الاحتفاء بتأثير شتراوس فى مقال كتبه إبرام شولسكى بالتشارك مع جارى شميت بعنوان "ليو شتراوس وعالم الاستخبارات". يمدح الكاتبان شتراوس بسبب "دماثته، وقدرته على التركيز على التفاصيل: وما نجم عن هذا من نجاحه فى النظر أسفل السطح المرئى، وروحانيته الواضحة" وأضافا "إنه بالإمكان القول إنه يماثل، ولو بدرجة طفيفة، چورج سميث فى روايات چون لو كار". وبالتقابل، فإن محلى السى أى إيه "كانوا طوال الحرب الباردة غير راغبين بعماء فى الاعتقاد أن بإمكان الاتحاد السوفيتى أو أى من الدول الشيوعية خداعهم حول المسائل الحاسمة. وقد أثبت التاريخ أن هذا كان سذاجة مفرطة".

بيد أنه، فليست هذه هى القصة الكاملة. فى عام ١٩٧٦، ومن أجل التعاطى مع تلك السذاجة المزعومة، جند چورج إيتش. بوش بصفته مبرا للمخابرات المركزية،

مجموعة مستقلة من الخبراء لتوفير ترياقٍ صقوري. كان هذا هو فريق "B" الشهير بالسي أي إيه الذي كان يديره ويوجهه ريتشارد بايبس، المؤرخ بهارفارد، وكان بين أعضائه پول وولفويتز الذي كان يعمل وقتئذ بالتدريس بجامعة ييل. وبموافقة مشتركة، بالغت استنتاجات الفريق "B" في قدرات الكرملين؛ وبالتقابل، لم يكن لأحد من هذا الفريق الشتراوسى أن يذكر انهيار الاتحاد السوفيتى المتبدى حتى لو أنه استشعر ذلك.

ترك وولفويتز، خفيض الصوت، الهادئ، الذى نادرا ما لجأ إلى الرطانة، انطبعا على رفاقة بأنه التجسيد ذاته للعقل المنطقى، لا مؤدج حزبي. وصف نفسه، لدى إنهائه ارتباطه الطويل بالحزب الديمقراطى بعد انضمامه إلى إدارة ريجان عام ١٩٨٨ بأنه "جمهورى من أتباع سكوب جاكسون" فى إشارة منه إلى رئيسه القديم، السناتور الديمقراطى عن واشنطن. لم يعارض وولفويتز إجراءات الدولة للرفاه الاجتماعى، أو يوجد الذرائع لحلفاء أمريكا غير المستساغين فى الحرب الباردة. أبلى فى المناصب الثلاثة التى تولاهها بوزارة الخارجية- مدير العاملين بتخطيط السياسات، مساعد الوزير لشئون شرق آسيا، وسفير الولايات المتحدة ببلانونيسيا - أبلى بلاء استحق عليه الثناء، دُعى دنيس روس، فيما كان دبلوماسيا مستجدا، للعمل مع وولفويتز ضمن هيئة العاملين بالتخطيط بعد أن اكتشف عيوبها فى تقرير لفريق B. أبلغ روس محرر النيويورك تايمز كلر قائلا "ما وجدتُ دائما أنه يميزه عن الآخرين جميعا من الموجوبين على هذا الجانب من الطيف السياسى، ليس أنه لم يكن لديه ميل مسبق، بل إنه كان أكثر انفتاحا بكثير، أكثر انفتاحا فكريا على مختلف أنواع التفسيرات".

كما لم يكن وولفويتز محبا لطقوس الدبلوماسية الرسمية. ذكر جورج بى. شولتز، وزير الخارجية، فى مذكراته، مناسبة فى أول زيارة رسمية له لليابان، بعد

غذاء مع مستويات وزارة الخارجية العليا، حيث كان عليه شرب نخب رسمي. رأيت بول وولفويتز، مساعد الوزير الجديد لشئون الشرق الأوسط، وذقنه على صدره. مررتُ إليه مذكرة كُتِبَ فيها: القاعدة رقم ١ - لاى مساعد وزير جديد، لا تنفس أبدا أثناء نخب الوزير. (فيما بعد سأل وولفويتز زميلا له على الغداء، شخصا متمرسا فى تلك الطقوس عن كيفية بقائه متيقظا، وأتاه رد زميله هامسا أنه يظل جالسا على شوكرته). خلافا لذلك، وبشكل عام، ترك تعاطي وولفويتز للعلاقات مع الصين، وسياسة الوزارة خلال فترة الانتقال من ديكتاتورية ماركوس وإعادة إحياء ديمقراطية القلبين، ترك كل هذا انطبعا جيدا على شولتز. من ثم، حينما طلب وولفويتز تعيينه سفيرا بإندونيسيا وافق شولتز.

كان هذا اختياراً مثيراً للاهتمام. لا يوجد سوى القليل من البلدان المهمة والتي يتم تجاهلها بعمامة مثل إندونيسيا، البلد المسلم الأكثر ازدهاما بالسكان الذين يبلغ تعدادهم ٢٣٥ مليون نسمة (حسب إحصاء ٢٠٠٧). وكما كان الحال فى مانيلا، كان ثمة ديكتاتور يحكم فى جاكرتا: الرئيس سوهارتو المسن، الطيف لأمريكا الذى حذر مقدما، عام ١٩٧٥، الرئيس فورد وزير الخارجية كيسنجر أثناء زيارة لهما لإندونيسيا بعزمه على اجتياح تيمور الشرقية التابعة للبرتغال، وضمها لإندونيسيا؛ وتلقى ضوما يرتقاليا، وتبع ذلك الغزو ثم احتلال قاسٍ عنيف واحتلال طويل الأمد. لكن الأمر الواعد هو أنه، وكما فى مانيلا، كان ثمة معارضة ديمقراطية متنامية من الأهالى فى جاكرتا.

إضافة إلى هذا، كانت كليلر زوجة وولفويتز تعرف المنطقة وتحدث لغتها. كانت قد ذهبت إلى إندونيسيا تبع برنامج لتبادل الطلبة حينما كانت بالمرحلة الثانوية، وركزت رسالة الدكتوراه التى كتبتها فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية على الخليط الإثنى بالبلد. وكما اكتشف بيتر جيه. بويز من النيويورك فقد لاحظ الصحفيون الذين كانوا يسافرون مع وولفويتز أن إندونيسيا كانت موضوعا أكيدا لإدخال

السُرور عليه، قال لبوير "لم أتوقع فعلاً أن أعشق هذا المكان، لكن هذا ما حدث. لا أعتقد أنني ارتكبت خطأ نسيان البلد الذي أمته، أو التفاضى عن عيوبهم، لكن كان ثمة الكثير مما هو محبب إلى بدرجة هائلة".

ويحماس مازال يتذكره البعض فى چاكارتا، تعلم السفير وولفويتز اللغة بدرجة كافية لفهم الأسئلة الموجهة إليه فى اللقاءات العامة. شارك فى حلقات النقاش الأكاديمية، وشعر بزهو حينما فاز بالجائزة الثالثة فى مسابقة طهو أجرتها إحدى المجلات النسائية بطبق أسماه "بجاجة مدام ماو". التقى أحد قادة المعارضة، عبدالرحمن وحيد وأحبه وصادقه، كان رجلاً ورعاً حضرياً، ومسلماً متسامحاً يعتقد فى الفصل بين المسجد والدولة. قال وولفويتز عن وحيد "إنه إنسان مُميز". أعنى، لدينا هنا زعيم أكبر منظمة إسلامية، وهو نصير للتسامح وداعية إليه. كيف لى ألا أعجب به؟". فى اجتماعه الأخير كسفير بالجنرال سوهارتو، أغضب الديكتاتور بإصراره على تغيير النظام ديموقراطياً. فى الوقت المناسب، أصبحت منظمة وحيد حزبا سياسيا، وفى أول انتخابات حرة بإندونيسيا، انتُخب زعيماً رئيساً للجمهورية.

ساعدت تلك الخبرات على إقناع وولفويتز بأن بالإمكان إحداث نقلة ناجحة إلى الديمقراطية بالعراق، وأن بإمكان الدبلوماسية الأمريكية لعب دور مُحفّز، بل إنها يجب عليها القيام بهذا الدور. كنا قد ذكرنا من قبل إحباطه أثناء حرب الخليج الأولى حينما أهدرت إدارة جورج إيتش. بوش (حسب رؤيته) فرصة خلع صدام حسين. ومن اللحظة الأولى لتولى بيل كلينتون المنصب عام ١٩٩٣، جدد العمد وولفويتز من جامعة جون هوكينز للدراسات الدالية المتقدمة، جدد حملته ضد الطاغية العراقى. توجت جهوده عام ١٩٩٨ حينما تبنى الكونجرس قانون تحرير العراق الذى يدعو إلى طرد صدام وتشريع دعم المؤتمر الوطنى العراقى (INC)،

وهي مجموعة معارضة مقرها لندن كانت قد حصلت على مدى ست سنوات ما يزيد عن ٢٧ مليون دولار من المساعدات الأمريكية^(١).

كان حليف وولفويتز الذي لا غنى عنه في تلك الحملات هو أحمد شلبي (الجلبي فيما بعد) المنفى الذي لم يعرف الكل، والذي، بعد صدام حسين، فعل أكثر من أي عراقي آخر لإطلاق الغزو الأمريكي لبلده عام ٢٠٠٣. وكما علّق دسكتر فيليكز من النيويورك تايمز في مقال عن شخصية الجلبي ملءء بالحقائق "لقد كان شلبي، بعد كل شيء - الأجنبي العربي - هو الذي أقنع أكثر الرجال سطوة بالولايات المتحدة ليجعلوا من غزو العراق، ليس مجرد أولوية، بل هاجسا". يتقن الجلبي الإنجليزية ولكنه أجنبية، وثبتت ابتسامة دائمة على وجه ونود حليق، ودائما ما يرتدى البذلات الكاملة التي صنعت خصيصا له. الجلبي هو سليل أسرة شيعية بارزة: كان جده عضوا بالبرلمان في عشرينيات القرن العشرين، ووالده مُصنِّع حبوب ثريا وكان قد ترأس مجلس الشيوخ العراقي حتى أطاح انقلاب عام ١٩٥٨ بالملكية. قبل الانقلاب، كان أسرة شلبي تمتلك ما يقارب نصف مليون فدان في أنحاء العراق، غالبيتها شمالي بغداد بالكاظمية حيث مازالت ثمة بلدة تسمى الشلبي. (كان موسى شلبي هو مالك المنزل الذي سكنته جرتود بل).

يكتب فيليكز قائلا: "كانت أسرة شلبي جزءا من نخبة شيعية صغيرة، أما غالبية الشيعة العظمى فكانوا يشكلون طبقة دنيا كبيرة. تشكل بقايا النخبة الشيعية الآن شريحة مهمة من المؤسسة السياسية في عراق ما بعد صدام". في خمسينيات القرن العشرين، التحق أحمد بگلية بغداد، وهي مدرسة ثانوية جزويتية. وكان بين زملائه الشيعة إياد علاوي، وهو أحد أقربائه الذي أصبح رئيسا للجمهورية بعد الغزو، وعادل عبدالمهدي الذي أصبح نائبا للرئيس. حينما انهار النظام القديم

(١) لا يحل المؤلفان سبر كل هذا الاهتمام بالعراق في وجود عشرات الأنظمة الديكتاتورية بالمنطقة وفي أنحاء أخرى تتلقى الدعم الأمريكي. (الترجمة)

بالعراق عام ١٩٥٨ وصل البعثيون الراديكاليون إلى السلطة، هرب الشيعة الأكثر ثراء وأخذوا معهم ما استطاعوا نقله.

استقر شلبي بأمريكا ودرس الرياضيات بميشيجان وتخرج بامتياز ثم التحق بجامعة شيكاغو وحصل على الدكتوراه وكانت رسالته عن نظرية العقد. تزوج الدكتور شلبي في بيروت ١٩٧٦ من ليلي عسيان، ابنة أحد القوميين اللبنانيين البارزين وأشرف على مراسم الزواج آية الله موسى الصدر، ابن عم مقتضى الصدر، رجل الدين الشيعي المقاتل وحليف أحمد الشلبي في المستقبل - ويعتبر هذا نموذجا لشبكة العلاقات الأسرية والعشائرية المعقدة التي يستوعبها من هم داخل الشبكة وكأنما بالتناضح والامتصاص، ويتجاهلها الأغراب مما يعرضهم للمخاطر. تخير الشلبي حياة مهنية بنكية، و تورط في قضية لا تُمحي بالآردين، حيث مازال متهما باختلاس ٣٠٠ مليون دولار من بنك بترا. صدر الحكم بإدانته بالاحتيال وحكم عليه غيابيا بالسجن عشرين عاما (مازال الشلبي يُنكر حتى الآن ارتكاب الجريمة وألقى بمسؤولية تزوير وثائق إدانته على صدام؛ في عام ٢٠٠٥ أبدت السلطات الأردنية استعدادا للعفو عنه، لكنه طلب اعتذارا علنياً، ورفض طلبه).

قضى شلبي خمسة وأربعين عاما بعيدا عن العراق. ومنذ اشتغاله بسياسات المنفى بصفته مهندس المؤتمر الوطني العراقي وعقله المدبر، كون شلبي صداقات وعداوات بين الأمريكيين على نفس الدرجة من الحماس. تجنبت وزارة الخارجية الأمريكية، ومازال مسئولو السي آي إيه يتجادلون حول درجة مسئوليته أو مسئوليتهم عن ورطة عملية "خليج الماعز" أو انتفاضة عام ١٩٩٥ الفاشلة ضد صدام. وفي ألعاب القوة بواشنطن، تم له التغلب على عداواته من خلال روابطه الوثيقة بالمدنيين رفيعي المستوى في البنتاجون في عهد جورج دبليو. بوش، وروابطه مع ديك تشيني نائب الرئيس وسكوتر لوبي رئيس العاملين لديه. بيد أنه، ما مدى صحة المعلومات الاستخبارية التي كان مصدرها مجموعة شلبي، وأين تكمن ولاءاته

العميقة؟ وفقا لتقرير صادر عن لجنة استخبارات مجلس الشيوخ عام ٢٠٠٩، فإن الهاربين العراقيين الذين أتى بهم المؤتمر الوطني العراقي عملوا على تغيير الأحكام الرئيسية التي وردت في "تقييم الاستخبارات القومية" الذي سبق التصويت الحاسم بمجلس الشيوخ على استخدام القوة ضد العراق. كان استنتاج اللجنة قاطعا حيث نص على أن "المؤتمر الوطني العراقي" حاول التأثير في سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق بأن أمد المسؤولين بمعلومات مزيفة من خلال الهاربين هدفها إقناع الولايات المتحدة بأن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل وله روابط مع الإرهابيين".

وعلى نفس الدرجة من الخطورة كانت الاتهامات المُلحّة بأن شلبي تأمر مع إيران لضمان إقامة نظام يهيمن عليه الشيعة ببغداد وساعد على تمرير المساعدات الإيرانية إلى المتمردين العراقيين. وبالفعل، أغارت قوات الأمن الأمريكية على مكاتبه ببغداد بعد تقارير عن إبلاغه الإيرانيين بحقيقة أن سلطات الاحتلال كانت تتعرض الرسائل عبر الحدودية. ومن أجل حسم الشكوك، سعى دكستر فيلكنز، من مكتب التاييمز ببغداد، إلى الحصول على إذن الجلبى بمرافقته في رحلة بالطائرة إلى طهران في أواخر عام ٢٠٠٥، وحصل عليه. تمكن الشلبي من استخراج فيزا لفيلكنز في غضون ساعات محدودة؛ إنجاز غير عادي لأن ذاك اليوم كان إجازة إيرانية قومية. عبر كلاهما الحدود الإيرانية بسهولة بالغة، ثم استقلا طائرة كانت انتظارهما إلى طهران. وهناك التقى شلبي ومعه فيلكنز الرئيس أحمدى نجاد ومستشار الأمن القومي علي لاريجاني (الذي امتدح شلبي بصفته رجلا حكيما جدا وشخصا مفيدا جدا). من ثم، تعجب فيلكنز ما إن كان شلبي، بطل الديمقراطية الذي تبنته أمريكا، هو بالفعل "عميل مزدوج لأحد خصوم أمريكا الرئيسيين؟"

الإجابة الآمنة حتى الآن هو أن لا أحد يعرف يقينا. كان شلبي قد نال إعجاب الأمريكيين، العراقيين، والإيرانيين بسبب ثقته بنفسه التي لا يمكن إخفاؤها، شبكته الواسعة من الصلات رفيعة المستوى، ومهارته في مجارة جميع التيارات السياسية

المتغيرة. سرعان ما حصل على منصب نائب رئيس الوزراء ووزير النفط في عراق ما بعد الغزو، وكان ذلك إنجازاً كبيراً لأن قاعدته السياسية كانت ضعيفة جداً. فاز المؤتمر الوطني العراقي في الانتخابات العراقية عام ٢٠٠٥ بمجرد ٣٠.٠٠٠ صوت من مجموع الأصوات التي بلغت ١٢ مليون صوت، وبذلك لم تتمكن كتلة السياسية من أن يكون لها أي نائب بالبرلمان الجديد. لم يتسبب هذا في دهشة المحللين المحنكين وذلك لأنه دائماً ما يكون ثمة عداً طبعياً بين مجموعات المعارضة بالمنفى وبين المقاومة الداخلية لنظام مفروض من المحتل أو لنظام استبدادي.

غالباً ما تذهب جوائز ما بعد التحرير السياسية إلى من بقي بالوطن وتحمل أكاماً بالسجن (مثلاً، مانديلا، نهرو، هافيل وجومو كنياتا) مع بعض الاستثناءات الهمة (مثل فيلي برانت، وشارل ديغول).

ومما لا ريب فيه أيضاً، لم يكن لأحمد الشلبي عام ٢٠٠١ حليف أمريكي أكثر وفاء من نائب وزير الدفاع بول وولفويتز الذي كان قد عينه جورج دبليو. بوش مؤخراً.



إذا أخذنا في الاعتبار جذور وولفويتز وخبرته، يمكننا فهم السبب الذي جعله يجد شلبي مُقْتَبِعاً وملائماً. وجد فيه مهاجراً لديه موهبة رياضية، تدرج في سلم الجامعات النخبوية حتى حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو. كان شلبي أيضاً علمانياً مكرساً^(١) تلاقت نظراته بشأن عراق ديمقراطي تحكمه الطبقة الوسطى مع آمال وولفويتز لهذا البلد^(٢). في مقال نشر صيف عام ١٩٩١ بورية

(١) يتناقض هذا مع المعلومات التي أوردها المؤلفان عن انتماءاته المذهبية الشيعية وولاءاته السياسية. من كان يخدع من؟ (الترجمة)

(٢) وما آماله تلك؟ تدمير العراق لحساب إسرائيل والاستيلاء على نفطه لحساب أمريكا، وإقامة قواعد عسكرية به، وتقنيته على أساس طائفي وإثني؟ (الترجمة)

فوريين أفيرز، شجب شلبي الصورة النمطية الغربية عن العراق بصفته "بلدا مثقلاً بالعنف، جامحاً، من الصعب حكمه" من ثم فهو يتطلب حكومة قوية، بل حتى وحشية. زعم أن هذا كاريكاتير فحج، بما أنه قبل انقلاب ١٩٥٨ كان العراق في طريقه لتطوير نظام ديمقراطي وكان السنة قد بدأوا يدركون أن عليهم تقاسم السلطة مع الغالبية الشيعية. وأضاف أنه حينما تتم الإطاحة بصدام فإن أهمية تلك التصنيفات - شيعي، سني، كردي- ستتلاشى. وفي الواقع فمن المحتمل، وبعد عقود من الحكم الخاطي والسياسات الأيديولوجية، فإن سياسة الجماعة في وجود معايير للمساواة، من المحتمل لها أن تلقى استجابة هائلة.

في حالة وولفويتز، فربما أدى التطور الجديد في حياته الخاصة إلى جعل تفاؤل شلبي يبدو أكثر قبولا. كان، بعد انفصاله عن زوجته، قد بدأ يلتقي بامرأة ذكية جذابة اسمها شاهه علي رضا، كانت تعمل مسئولة اتصالات رفيعة المستوى بمكتب البنك الدولي الإقليمي للشرق الأوسط وشمال إفريقيا. بدا وأن تاريخ حياة مسز رضا يتلامس مع كل ركن في الشرق الأوسط الإسلامي: كان والدها ليبيا، ووالدتها سورية/سعودية: تربت في تونس والسعودية، وحصلت على درجة الماجستير من كلية سانت أنطوني بجامعة أكسفورد بعد أن درست بكلية الاقتصاد بجامعة لندن - كانت من رعايا بريطانيا، طُلِّقت من زوجها التركي بولنت علي رضا، وكان قد مضى عليها أكثر من عقد وهي تعيش مع ابنها بواشنطن، حيث عملت تبع "الصندوق القومي من أجل الديمقراطية" قبل أن تلتحق بالبنك الدولي عام ١٩٩٧. حينما علمت الصحافة بصلتها ببولفويتز وصفتها بأنها "خليلته girl-friend" مما اعتبر خطأ من قِدها. كانت في الخمسينيات من العمر، وكان وولفويتز في الستينيات، لكن كلاهما أصبح طريدا للإعلام، الذي مضى رجاله يقتفون أثرهما ويمطرونهما بالأسئلة.

ساعدت مسز رضا، التي كانت ناشطة نسائية، علمانية، وتنتمي للحزب

الديمقراطي، على إقناع وولفويتز أن الوقت قد حان ليلحق العراق بالعالم الحديث في ظل حكومة متقبّلة. في مستهل ولاية إدارة بوش الثاني، بدت التكهّنات مواتية لسياسة أكثر حسماً تجاه بغداد. كان وزير الدفاع الجديد دونالد ريمسفلد العنوانى مصمماً على إثبات قناعاته بأن بالإمكان الدفع قُدماً، وبأسلوب أفضل، باستراتيجية أمريكا الكوكبية من خلال قوات مسلحة، أقل عدداً، ومتحركة وأكثر فاعلية في آن. وأن أفغانستان، ثم العراق، هما الميدانان اللذان سيثبت فيهما تلك النظرية (ولهذه الغاية، مضى يعطر مرسوميه بوابل من المذكرات المكتوبة بإحكام). أما في مكتب نائب الرئيس الجديد، فكان سكوتر ليلي، تلميذ وولفويتز بجامعة ييل، يقوم بكتابة تصريحات رئيسه محكمة الصياغة عن الحفاظ على تفوق أمريكا. وبفضل شلبي وولفويتز، إلى حد كبير، تدفقت الأموال الفدرالية على المؤتمر الوطني العراقي الذي كان من المفترض أن يكون جنين "العراق الحر" الآتي. وهكذا، تم تثبيت الفتيل في موقعه، بانتظار شرارة التفجير.

ذكر وولفويتز في حوار مُسجّل أجراه معه سام تاننهاوس من مجلة فانيتي فير "كنا باجتماع في مكتبى. قال أحدهم إن طائرة اصطدمت بمركز التجارة العالمى. فتحنا التلفزيون وبدأنا نرى لقطات للطائرة الثانية وهى تصطدم، وهكذا أتذكر المشهد؛ مشوش بقدر.. بدا وأنه لم يكن ثمة ما نفعله إزاء ذلك على الفور. لذا مضينا نناقش مواضيع الاجتماع. ثم اهتز المبنى بكامله. يجب أن أعترف أن اعتقدت في البداية بحدوث زلزال. لم يخطر لى أن ثمة صلة بين الواقعتين لكن ريمسفلد أدرك ذلك على الفور".

في التاسعة وثلاث وأربعين دقيقة صباحاً اصطدمت طائرة مخطوفة بالبنتاجون، وقتلت مائتى شخص. تم إخلاء عشرات آلاف الأشخاص. عمل الوقود المتسرب على إشعال حريق ينبعث منه الدخان في أنحاء سقف المبنى الخشبي. أُغلق نصف البنتاجون مؤقتاً. تختلف التفاصيل عن قال ماذا في الاجتماعات العاجلة رفيعة

المستوى التي عُقدت بعد ذلك في واشنطن وكامب دايفيد. يتذكر وولفويتز تطور موضوعات للنقاش، الأول عن التكتيكات والتوقيات حيث أصر الرئيس بوش بصراحة على حرب أفغانستان أولاً.. أما الجدل الثاني الأوسع، بشأن الاستراتيجية، فيذكر وولفويتز "من الواضح بالنظرة الارتجاعية أن الرئيس دعم بقوة الهدف الأوسع" - أي العراق. وفقاً لجميع التقارير كان المدافع الأكثر إقناعاً عن الإطاحة بـصدام هو بول وولفويتز. وحتى قبل أن تبدأ عملية "تحرير العراق" كانت ثمة إشارات عن سبب ما ثبت وأنه خطأ ذلك الرجل الذكي حول حرب العراق وخاتمته الدموية.

علق أحد حكماء المراقبين في واشنطن ذات مرة بالقول إن جميع القياسات خادعة. شهد وولفويتز في الفلبين وإثيوبيا، هذين البلدين المشظين اللذين ينتميان للعالم الثالث، انتقالاً من حكم الفرد السلطوي إلى الديمقراطية - انتقالاً عنيفاً سادته الفوضى ونظاماً انتخابياً جديداً مَعيباً، لكنه ناجح. دائماً ما كان وولفويتز يستشهد في الحوارات بنموذج رومانيا في أعقاب انهيار نظام شاوشيسكو وسط الاضطرابات والفوضى التي عمت البلاد - حيث قتل الدهماء زعيم الحزب الحاكم وزوجته - معلماً أنه إذا بدت عراق ما بعد الغزو مثل رومانيا ما بعد الشيوعية، فإنه يعتبر أن الخطة قد نجحت. بيد أنه في كل تلك الحالات تسارعت خطى الانتقال نتيجة لعوامل الأحداث الداخلية لا بسبب غزو أجنبي كاسح. كما أنه لم يكن لدى الولايات المتحدة ذريعة حرب عادلة مقنعة. كانت القرائن على برنامج صدام للأسلحة النووية/ الكيميائية/ البيولوجية واهية بدرجة أن رؤساء حكومات المكسيك وكندا ومعهم البابا يوحنا بولس الثاني حكموا على الحرب أنها غير مبررة وغير مشروعة، وكذلك فعل كوفي أنان أمين عام الأمم المتحدة، ناهيك عن المعارضة في فرنسا وألمانيا وروسيا والصين. من بين الآراء الشائعة القول بأن وولفويتز وحلفاءه كانوا سَنَجاً في تصديقهم مزاعم المنفيين العراقيين العازمين على

توريط القوة العظمى لكسبها إلى جانبهم في صراع داخلي. قال دايغيد كاي، أحد الرؤساء السابقين لفرق التفتيش عن الأسلحة بالعراق في إشارة منه إلى بول وولفويتز: "كان مؤمنا حقيقيا. أعتقد أن لديه الأدلة التي أتت من الهاربين، الذين أتى بهم شلبي^(١)".

لكن هذا يبدو تبسيطا مفرطا. وعلى الرغم من أن السجل الكامل لما قاله مخطوطو الحرب على العراق لبعضهم بأسلوب غير رسمي غير متاح إلى الآن، فإنه يبدو من المعقول أنهم اعتقدوا أن الانتصار السريع سيدفن الشكوك حول الإجراءات التمهيدية. ووفقا لتعليق جون كيندي الشهير بعد إخفاق عملية خليج الخنازير عام ١٩٦٠، فإن النصر يزهو بالف أب فيما أن الهزيمة تظل يتيمة ظاهريا. لم تكن فكرة الانتصار السريع من ضروب الخيال. فقبل أشهر فقط، كان جيش رمسفلد النموذجي الجديد قد دخل كابول وأسقط نظام طالبان. وصف نيكولاس ليماي بالنيويوكر في إبريل ٢٠٠٢ وقت أن كانت الاستعدادات للهجوم على العراق جارية، وصف كيف لمثل تلك الانتصارات أن تؤثر في السلوك الرسمي حيث كان قد التقى سكوير ليبي بمبنى المكتب التنفيذي. كتب ليماي يقول "بدا وأنه واثق تماما من نفسه، وسواء كان ذلك بالصدفة أو نتيجة لتأثير رئيسه (ديك تشيني)، فإنه يتحدث بفعلة صارمة، حميمة، ووصيفة. يعطى الانطباع، مثل كوندليزا رايس وبوش نفسه، بأنه يتقبل بهوء فكرة أن مشروع الحرب وإعادة الإعمار الذي اضطلعت به الإدارة الآن قد يكون على قدر من الإرهاق بالنسبة لمن أنيط بهم تنفيذه، لكنه ويلا ريب، صواب، السبيل الحكيم الوحيد".

(١) يتجاهل المؤلفان تماما عزم الولايات المتحدة، والحفاظين الجدد بخاصة، كما هو ثابت بالوثائق، ومنذ وقت طويل قبل الحرب، على غزو العراق وتدميره لأسباب عدة منها النفط، وأهمية البلد الاستراتيجية، وأمن إسرائيل وإقامة ما اسموه "الشرق الأوسط الجديد". وقد ورد هذا بالتفصيل في كتابات كثير من المحللين الأمريكيين. انظر، على سبيل المثال تشالرز جونسون "احزان الإمبراطورية" الذي اصدرت سطور ترجمته العربية (الترجمة).

يعرف الجميع كيف انتهى هذا السبيل الحكيم. كانت القوة الغازية، بسبب الميزانية جزئياً، غير كافية للحفاظ على النظام في بغداد "المحررة". زاد من سوء الأوضاع حلّ الجيش العراقي وتسريحه فجأة^(١)، مما أغرق البلاد بطوفان من المحاربين المسلحين العاطلين المحبطين. أطلقت عملية "اجتثاث البعث" الفورية والشاملة طوفاناً آخر من البيروقراطيين الساخطين الذين أضحي من المستحيل عليهم الحصول على عمل. سرعان ما تم تعيين عدد كبير من الشبان الأمريكيين في مناصب سياسية في كيان أطلق عليه الاسم الفخيم "سلطة التحالف المؤقتة"، وكان هؤلاء يتشاركون في جهلهم المطبق بلغة العراق وتاريخه وأديانه. أيضاً، انتشر انطباع شائع عملَ المعجبون بشبلى في الإعلام (وبخاصة جوديث ميلر من النيويورك تايمز التي لعبت دور فلورا شو) على بثه في جميع الأنحاء بأن أحمد الشبلى سيقدم قافلة الغزاة ليصبح مُنقذ العراق وسط ترحيب الشعب الذي طال قمعه، وتهليله.

تفاجأ رعاة حرب العراق في واشنطن. أُحيطت توقعاتهم بشأن امتنان العراقيين وتطور التمرد. حينما وصل الجلبى إلى العراق في أعقاب إعلان "التحرير"، بدا وأن القليلين في العراق كانوا يعرفون من هو، وتراجعت سلطات الاحتلال عن تنويجه. قال الجلبى فيما بعد شاكياً "كان عرضاً للعرائش المتحركة، وضعاً بالغ السوء. كنا مسئولين ولم يكن لدينا أية سلطة. أُلقيت علينا المسؤولية عن كل ما فعله الأمريكيون، لكن لم يكن بوسعنا تغيير أى شيء". ثم مضى يقول بلهجة المُتأذى "كان المذنب المسئول الحقيقي عن كل هذا هو وولفويتز. فقدوا أعصابهم. فقد رجال البنتاجون أعصابهم".

وفي واقع الأمر، فقد كان كثير من مسئولى البنتاجون الأنكباء، رفيعى المستوى قد اعتقدوا في صواب تصورهما لمجرد إهراق خيالي، وقد ضللتهم واجهت الحداثة العلمانية والتكديرات المتفائلة للمتفيعين المتفرنبيين. حينما قدم وفد من علماء الآثار، قبل الغزو، إلى الوزير رمسفلد قائمة بالمواقع الأثرية والمتاحف الثمينة والتي كانت

(١) بناء على مشورة وولفويتز واوامره. (الترجمة)

بحاجة ماسة إلى الحماية، وجّه رسمفد الشكر إلى أعضاء الوفد واختفت القائمة. في أعقاب سقوط بغداد، تمت دعوة بريارا بودين السفيرة السابقة باليمن والتي كانت تعرف العراق جيداً، دعوتها إلى البتاجون لتجد أن كبار المسؤولين غير مهتمين بأرائها. يروي لاري دياموند، خبير نشر الديمقراطية وتعزيزها بجامعة ستانفورد، أن پول وولفويتز مارس الضغوط من أجل تنفيذ أفكاره الراكية: «لم لا يُعاد ترسيم حدود جميع أقاليم ومحافظة العراق؟» هكذا اقترح. أخبرته بودين أنظر إلى شبكة الطرق. هذا هو الأسلوب الذي تسلكه الطرق. هذا هو النمط الذي تطور على مدى قرون. هكذا ينظر العراقيين إلى أنفسهم. ولم يعاد ترسيم الحدود.

كتب على علوي، أول وزير للدفاع في العراق بعد الحرب حكماً شاملاً على الوضع بأسلوب حاول أن يكون منصفاً في كتابه بعنوان "احتلال العراق" (٢٠٠٧).

لم تكن القوات الأمريكية التي نزلت بغداد في ٩ إبريل ٢٠٠٣ أن تعرف شيئاً عن الإرث الاجتماعي البشع للعقنين السابقين، كما أنه لم تكن لدى العراقيين العائدين فكرة كاملة عن التفيرات التي حدثت ببلدهم، والتغير الجوهرى الذى اعترى النفسية العراقية في ظل عقود من الديكتاتورية والحرب والعقوبات. لم يكن لتطيل العراق الساذج، الأيديولوجى، أو الانتهازى الذى أجرى من وجهات نظر واشنطون أو لندن سوى علاقة واهية بالوقائع على الأرض. تم تسليم سلطة التحالف المؤقتة هذا الإرث كى تتعاطى معه.

لم يكن ضعفها ونواحي قصورها هي المعوقات الوحيدة لتلك السلطة، بل إنها أيضاً ارتبكت وتشوشت في مواجهة المشهد الاجتماعي، السياسى، المؤسساتى والاقتصادى العراقى. كانت السلطة تدفع بنفسها أكثر وأكثر إلى داخل جيتو فيزيكى ونفسى، حتى قبل أن يتحول العنف الخارجى إلى ظاهرة لا سبيل إلى وقفها. كانت مهمة إدارة شئون العراق، ناهيك عن إصلاحه، في مواجهة تلك العقبات، شبه مستحيلة.

لم يتعاط پول وولفويتز بجدية مع تبعات الحرب التي كان هو عنصراً أساسياً في الدعوة إليها وتنفيذها. قام بعدة زيارات خاطفة للعراق "المحرر"، وقدم في الحوارات والمؤتمرات الصحفية وعظات غامضة كئيبة. أصر أنه لم يؤج أبداً بن الاحتلال

سيكون نزهة؛ واعترف بأنه من المحتمل جداً أن يكون المخططون للحرب قد أساءوا تقدير حجم الدمار الذي أنزله طغيان صدام بالمجتمع العراقي؛ وقال إن الصحافة من جهتها تركز دائماً على السلبيات وتقلل من قدر التقدم الحقيقي في بناء المدارس والمستشفيات؛ أما فيما يخص الزعم بوجود أسلحة الدمار الشامل، فكما علق في حوارهِ مع مجلة ثاينيني فير، فإنه، ولأسباب بيروقراطية، كان خطر تطوير العراق لمثل تلك الأسلحة، المسألة الوحيدة التي كان من الممكن أن يتفق حولها الجميع.

مضى ولوفويتز من مكتبهِ بالبنّاجون يضغط على سلطات الاحتلال من أجل الإسراع بنقل السلطة إلى العراقيين، بحيث يلي ذلك انتخابات سريعة. حينما زار السفير. بول برمر، بروقنصل الولايات المتحدة بالعراق لمدة أربعة عشر شهراً البنّاجون في سبتمبر ٢٠٠٢، كان لقاءهُ بولوفويتز متوتراً. يسجل ما دار فيه في كتابه "عامي بالعراق".

"قال ولوفويتز: علينا التحرك سريعاً على الجبهة السياسية. ماذا لو قمنا بتوسيع مجلس الحكم ليشمل مائة أو مائتين من الأعضاء لجعله أكثر تمثيلاً، ثم تعطيمهم استقلالاً؟ أجبته: أعتقد أن باستطاعتنا فعل ذلك، على المستوى النظري على الأقل. لكنه سيستهلك وقتاً هائلاً.. وسيكون تبديداً للوقت الذي استهلكناه.

"تذكرته أن فريق الحكم الأمريكي/ البريطاني المكون من خمسين شخصاً كانوا يعملون عشرين ساعة كل يوم. قضى أكثر من شهرين لتجميع خمسة وعشرين عراقياً الذين كُونُوا في البداية مجلس الحكم. وأن الله وعده يعلم كم من الوقت يلزم لتوسيع هذا المجلس.

"سأل ولوفويتز لماذا لا يوسع المجلس نفسه؟

"قلت له: بول، لم يبدِ هؤلاء الأشخاص أية قدرة على توسيع مداهم التمثيلي، لم يفعلوا ذلك في مايو، أو حينما عينوا لجنة الإعداد، أو منذ أسبوعين حينما عينوا الوزراء. لم يبدِ ولوفويتز مقتنعاً، ثم غير الموضوع إلى الوضع الأمني. تسائل ما إن كان بالإمكان إيجاد أساليب للإسراع بتدريب العراقيين كي يحلوا محل الأمريكيين.

"سألت نفسي أين سمعتُ هذا الاقتراح من قبل؟".

كانت تلك أوقاتاً صعبة بالنسبة لولفويتز. اختلفت هالة المعرفة الكلية التي كانت تحيط بشخصه بدرجة أنه بدأ يتمازح حولها. لدى عودته من العراق في ٢٧ يوليو ٢٠٠٣، قال لأحد مراسلي الأسوشيتد پرس: يُسْتَحَب أحياناً أن يتمتع المرء بسمعة أنه يكاد يماثل الآلهة، لكن، وبصراحة، أعتقد أنه ثمة ظاهرة تنجم عن هذا، وهي أنه في حالة عدم حدوث شيء ما، يقال إن الأمريكيين لا يربون حدوثه، ومن ثم يبدأون في اختراع أكثر الأسباب المبالغ فيها لشرح ذلك. غير أن الحقيقة هي- وأنت تعلم ذلك - أننا كثيراً ما نرتكب أخطاء. نفعل أشياء غبية. وقتنئذ، كان مهاجموه يتداولون تخطيطات المرتجلة، مثل قوله في فبراير ٢٠٠٣ إن الفرق بين العراق والسعودية هو أنه لا يوجد بالعراق مدن مقدسة. من بين مقولاته التي تُجتزأ كثيراً هي تلك التي جاءت في شهادته أمام هيئة من الكونجرس في ٢٧ مارس ٢٠٠٣، حيث زعم أن نفط العراق سيغطي تكاليف إعادة إعمارهِ إذ إن عائداته السنوية التي تتراوح بين ٥٠ مليار دولار ومائة مليار دولار تعنى أننا، وعلى مدى عامين أو ثلاثة نتعاطى مع بلد يمكنه تمويل إعادة إعمارهِ، وبأسلوب شبه فوري.

غاب عن تعليقاته التي يُستشهد بها أي ذكر للندم أو لخطأٍ مأساوي. وكما بيئاً من قبل، فقد كان ولفويتز نفسه قد حذر الطلبة بوست بوينت من "غياب التوقعات" أو عدم الاستعداد لتدبر ما هو غير متوقع في الحسابات الاستراتيجية - أو ما أسماه ألبرت وولستر، معلمه ومرشده "اللامعصومية". بحلول عام ٢٠٠٤، وفيما تصاعدت أعداد القتلى، والنفقات، اختفى ولفويتز تدريجياً عن المشهد في واشنطن، ومثل القطعة في رواية لويس كارول "أليس في بلاد العجائب". بدا وأنه أخذ في التلاشي إلى أن أصبحت شفتاه المزمومتان المميزتان هي كل ما يمكن رؤيته منه. وبعد عام، وبقدر قليل من الجلبة، استقال من منصبه ككاتب لوزير الدفاع كي يتراًس البنك الدولي، وكالة التنمية الكوكبية الرئيسية، الذي يتراًسها، تقليدياً، شخص تختاره أمريكا. تمت المصادقة على ترشيح جورج دبليو. بوش له من جانب حَمَلَة أسهم البنك الأوروبيين بالإجماع، بالرغم من بعض الهواجس، من قبل بعض حملة الأسهم الأوروبيين، لكن ذلك الترشيح قوبل بالحيرة في واشنطن.

وحتى قبل المصادقة عليه، ذكرت يوميتان بريطانيتان (التايمز، والديلي ميل)، والواشنطن پوسٲ، تقارير عن العلاقة بين وولفويتز وشاهه على رضا التى كانت مازالت مسئؤلة اتصالات رفيعة المستوى بالبنك الدولى. كانت أحكام البنك الدولى تحظر تعيين الأزواج، إذا كان أحدهما مسئؤلا مباشرة أمام الآخر.

من الصحيح أن مسز رضا لم تكن مسئؤلة بشكل مباشر أمام وولفويتز، لكن مخاطر الإحراج كانت واضحة، وبخاصة لأنه كرئيس كان يخطط لأن يجعل مجابهة الفساد فى البلدان التى تتلقى قروضا من البنك قضية مكرمة. تم الوصول إلى تسوية تُمنح من خلالها مسز رضا منصبا خاصا بوزارة الخارجية يتولى البنك دفع مرتبها الذى رفعه من ١٢٢٦٦٠ دولار إلى ١٩٢٥٩٠ دولار، وبذلك تغطى التعويض الذى مُنح لكونديلزا رايس وزيرة الخارجية لدى تركها منصبها. حينما كشفت الواشنطن پوسٲ عن هذا الترتيب حدثت ردود فعل صاخبة. ثم رُفعت تقارير أخرى، تسربت من خلال العاملين المهنيين المتذمرين بالبنك، أن وولفويتز قد منح مساعديه السابقين بالابتعاون مناصب مميزة متخطيا بذلك التراتبية الداخلية للبنك. تناولت الصحف الأوروبية كل هذا أثناء اجتماع محافظى البنك السنوى فى الربيع.

وصل الجدل ذروته فى يونيو ٢٠٠٧، الذى كان شهرا بشعا لهول وولفويتز وشاهه رضا، وبالنسبة للكثير مما كانا يهتمان به. كان كل يوم يأتى بأنباء مُروعة من العراق. بدا وأن حكومته المنتخبة غير قادرة على اتخاذ أية قرارات مهمة. وفى أعقاب قصف المسجد الشيعى بسمرام للمرة الثانية، كشفت سلطات الولايات المتحدة أنها كانت قد بدأت فى تسليح ميليشيات سنية من أجل قتال حلفائهم السابقين من القاعدة^(١). تفجرت تلك الأنباء لدى مقتل أربعة مشايخ من السنة بفندق فى بغداد عقابا لهم على تعاونهم مع القوات الأمريكية بمحافظة الأنبار. من جهتهم كان مسئؤلو الاحتلال لا يتقون فى العراقيين بدرجة أنهم أوكؤوا إلى مقال

(١) يقصد المؤلفان قوات "الصحوه" التى تعتبرها المقاومة الوطنية قوات عميلة ثم شراؤها وتجنيدوها من قبل الأمريكيين من أجل مزهد من الاقتتال المذهبى وأعمال العنف وقتال المقاومة العراقية والتجسس عليها. (الترجمة)

كويتي مهمة تشييد مُجمَع جديد لسفارة الولايات المتحدة يتكون من واحد وعشرين مَبْنًى على مساحة ١٠٤ فدان بتكلفة ٩٢ مليون دولار. ووفقاً لتقرير نشرته وول ستريت جورنال بتاريخ ٧ يونيو ٢٠٠٧، فقد خشي الأمريكيون من أن يَهْرَبَ العمال العراقيون متفجرات إلى موقع العمل، ومن ثم أغمضوا أعينهم حينما استوردت إحدى المؤسسات الكويتية عمالاً من مصر وباكستان وبنجلاديش نظير أجور تصل إلى حد الكفاف مما دعا وزارة العدل إلى فتح تحقيق حول احتمال الاتجار بالبشر. آنذاك، وصل معدل البطالة في بغداد إلى ٥٠٪. وفي لحظة نهائية مريرة بخاصة، أدان القضاء الفدرالي سكوتتر ليبى بتهمة الحث بالقسم وتعميق العدالة (بصفته رئيس العاملين بمكتب ديك تشيني، كَذَبَ عن دوره في الكشف عن هوية عميل سرى للسى أى إيه، وحُكِمَ عليه بالسجن ثلاثين شهراً وغرامة ٢٥٠٠٠ دولار، لكن الرئيس بوش خفف الحكم بالسجن).

كان وولفويتز قد كتب خطاباً من ثلاث صفحات، ببنت صغير، إلى القاضي الذي كان ينظر القضية يدافع فيه عن ليبى، ويذكر كيف أنه كان هو من استمال ليبى كى يتولى منصبا عاما، وأشاد بجهوده لحماية المراسلين الصحفيين ممن وقعوا فى شباك فضائح ما قبل الغزو. كشف القاضي عن محتويات الخطاب مما عرَّض وولفويتز لوابل من السخرية على الإنترنت.

وإذعاناً منه للضغوط، قدم وولفويتز فى نهاية يونيو استقالته من البنك الدولى. وبحلول عام ٢٠٠٨، وبعد خمس سنوات كثيفة، كانت الحرب على العراق مازالت تبدو وأنها تقضى على كل من له علاقة بها، وبخاصة مهندسوها. توجز كلمات الرثاء المنحوتة على قبر السير كريستوفر رن^(١) ويقدر كبير من الأسى، الحياة المهنية للمخطَّط الأول للامع لتلك الحرب الباشسة الذى انتهى به الأمر منسحقاً محطماً إذا كنت تبحث عن آثاره الخالدة، فقط انظر حوله.

(١) المهندس الذى اعاد تخطيط وبناء لندن بعد حريق شب واتى على معظم معالمها فى

القرن السابع عشر (الترجمة)

أصداء في رواق طويل

اتفق الحكماء طوال العصور على عدم جدوى السعى إلى استعادة أشياء الماضي، أو استيعابها تماماً، أو التعاطي معها بموضوعية أو التعلم منها. رأى الفلاسفة الهلنستيون في آسيا الصغرى أن الزمن نهر لا يستطيع المرء النزول إلى مياهه مرتين. أما كارلايل فاعتقد أن التاريخ لا يعدو أن يكون أكثر من خلاصة للشائعات، فيما ذهب الكاتب الإنجليزي الأقل شهرة والذي يُستشهد به كثيراً إل. بي. هارتلي إلى أن الماضي هو بلد أجنبي يفعل فيه الناس الأشياء بأسلوب مختلف. من جهته، يقول الأمريكي اللادع، المخالف للكراء والأعراف، أمبروز بيرس إن التاريخ سرد، زائف في غالبية، لأحداث غير مهمة تسبب فيها حكام، معظمهم أوغاد، وجنود معظمهم حمقى. وحقاً، فلا بد أن يكون المرء غوراً أو مؤبلاً كي يعتقد أن الماضي يقرر المستقبل مُسبقاً، وإلا لأصبح كل سمسار أوراق مالية ثرياً. بيد أن الحكمة الفطرية، والصفاء البسيطة تقول بقيمة النظر خلفاً لاستشفاف دلائل الخطر، مثلاً يريد البحار الذي يقترب من خط ساحلي جديد أن يعرف موقع الشعب المرجانية المحتملة ومعلومات عن الحوادث السابقة لتحطم السفن.

أما عن الإمبراطوريات، في الماضي والحاضر، فإن صورة رواق متخيل للقوة، يبدأ في روما القديمة وينتهي في واشنطن اليوم، رواق تُشكل تجويفات محددة جيداً في جداره صفاً. هي صورة مجازية توضيحية مُفيدة. هنا، سيعترض أمريكيون كثيرون بالقول إن الولايات المتحدة ليست إمبراطورية رسمية. لكن آرثر إم. شلسينجر الابن تساهل في كتابه "عزات التاريخ الأمريكي" (١٩٨٦) قائلاً "من يستطيع أن يشك في وجود إمبراطورية أمريكية - إمبراطورية غير رسمية، ليست كولونيالية من حيث نظام الحكم، لكنها مُجهزة بإسراف بجميع اللوازم الإمبريالية: القوات، السفن، الطائرات، القواعد البروقناصل، العملاء المحليين، وكلها منتشرة في جميع أنحاء الكوكب سيئ الحظ". يظل الجدل دائراً حول منشأ هذا النزوع التوسعي، وعما إن كانت دوافعه اقتصادية أم سياسية أم أخلاقية. لكن، وبلا أدنى

ريب، فإن المفهوم السائد عن أمريكا في معظم أنحاء العالم بين الأصدقاء، ناهيك عن الأعداء، هي أنها قوة إمبريالية. لا يكاد أحد خارج أمريكا يشارك الاعتقاد في استثنائية أمريكا - صورتها القائمة على إطرء الذات كمدينة أعلى التل، جعلت طبيعتها الخاصة من الولايات المتحدة أكثر حرية، أكثر حكمة وأكثر نقاء من شقيقاتها المهيمنات. بيد أن الكثيرين في المجتمع الأمريكي يتشاركون في الاعتقاد بمزاعم امتلاك الولايات المتحدة فضيلة خاصة، ويحظى هذا الزعم بتاريخ موقر، كما يكشف المرء لدى توقفه عند أول تجويف في رواقنا حيث كُتبت عبارة السبب الذي يبرر الحرب "Casus Belli"، أو المبررات القانونية لحالة الحرب.

دائما ما أصرت واشنطن على أنها تشن حروبها، العظمى والأقل شأنًا، من منطلق سبب عادل. وإذا كان لنا أن نصدق كبار الكهنة في روما القديمة، سنجد

أنه لم يحدث خلال ألف عام أن شنت فيالق المدينة (روما) حرباً عدوانية. قام الباحث الأمريكي في الكلاسيكيات، تني فرانك، بتقصي أصول هذا الزعم بغاية كما ورد في كتابه "الإمبريالية الرومانية" (١٩١٤). يقول البروفسور فرانك:

"منذ زمن موغل في القدم وجد مجلس كهنتي شبه سياسي كان مجاله الإشراف على الطقوس الخاصة بإعلان الحرب وأداء القسم على المعاهدات، وكان يشكل، إذا جاز التعبير، محكمة ابتدائية مختصة بمسائل النزاعات الدولية والمعاملة اللائقة للمبعوثين وتنفيذ تسليم المطلوبين للدول الأخرى. حينما كانت تثار شكوى من أن قبيلة مجاورة قد ارتكبت فعل حرب، كانت مهمة ذلك المجلس تحرّي المسألة نيابة عن مجلس الشيوخ، وإذا وجد أن الشكوى عادلة، يبعث برسول إلى الدولة المعتدية يطلب التعويض أو الاسترداد. كانت صيغته كالتالي: 'إذا طالبت بأسلوب غير عادل أو غير ورع تسليم المعتدى سالف الذكر فلا تسمح لي بالعودة إلى بلدي'.

إذا لم يتم التعويض، تُمنح مهلة ثلاثين يوماً بعدها يُعلن المبعوث للدول المعتدية أن القوة ستُستخدم ويستعمل الصيغة التالية: 'أسمعني يا جوبيتر وقويرينوس وكل الآلهة الأخرى. أدعوكم أن تشهدوا على أن هذه الأمة ظالمة ولا تمارس الصلاح والعدل كما يجب، وأن تسمحوا لمكاننا دراسة الإجراءات التي من خلالها نضمن حقنا'.

وفي ظل قانون الحرب والمعاهدات كان يسمى Fetial، كانت تلك الهيئة المقدسة تصادق فقط على الحروب الدفاعية وترفض الفكرة التجديفية بأن أي صراع يتضمن عدواناً أو طموحات إقليمية بالإمكان أن يلقي موافقة مقدسة. ثم وجدت روما سبيلاً لتخفيف العبء عن هذا المجمع. ففيما توسع الحكم الإمبراطوري في أنحاء المتوسط وأقاصى أوروبا، دخلت الحكومة الإمبراطورية في عشرات معاهدات الدفاع المشتركة مع الدول التابعة أو القبائل. كانت الانتهاكات المزعومة لتلك المعاهدات توفر سبباً سريعاً للحرب Casus belli بدلا من الإنذارات التي كانت مدتها شهرا والتي كان يعلنها الرُّسل. وهكذا سقطت الإمبراطورية الرومانية في حين ظلت آثارها الإمبريالية سليمة بلا مساس.

ومن نفس المنطلق لم يُعترف أبداً أن "الحروب الصغيرة" العديدة التي شنها البريطانيون في العصر الفيكتوري، كانت عدوانية- كان دائماً ثمة إساءة معاملة ليهود، خرق لإحدى الاتفاقيات، أو تعامل شائن مع منافس أوربي. في أمريكا، نشأت أجيال من التلاميذ على كتب دراسية تقول إنه لم يحدث مرة واحدة- ليس في المكسيك، جواتيمالا، هندوراس، بنما، نيكاراغوا، السلفادور، جمهورية الدومنيكان، تشيلي أو إيران - أن دعمت الولايات المتحدة العُنف أو شنت حرباً عدوانية. بل إن أكثر الإمبراطوريات شراً تزعم نفس الفضيلة: لُقِّعَ هتلر فعل عدوان بولندي لتبرير إعلان ألمانيا الحرب عام ١٩٣٩، كما زُعم أن جميع حروب ستالين كانت دفاعاً عن الوطن السوفييتي الاشتراكي. وحتى حينما تتوقف الإمبراطوريات عن الوجود، يقاوم ورثتها السياسيون بإصرار الاعتراف بانتهاك حقوق الإنسان في الماضي البعيد، كما هو الحال مع اليابان إزاء جرائم الحرب في الصين وكوريا، أو بلجيكا وجرائم الإمبراطور ليوبولد في الكونغو، أو تركيا ومذبحة الأرمن في ظل الإمبراطورية العثمانية.

ليس من المحتمل أن تعتري الدهشة الأمريكيين من أن ثمة شكوكاً شائعة يُعبر عنها حول الأسباب المنوعة التي تُستدعى لتبرير الحرب على العراق، وبخاصة تطويره أسلحة الدمار الشامل وروابط صدام مع الإرهابيين والحاجة إلى نشر الديمقراطية في البلدان العربية. يعتقد الشرق الأوسطيون المتشككون أن الحرب كانت في واقع الأمر م من أجل النفط؛ أو زرع قواعد عسكرية دائمة بالعراق، أو مساعدة إسرائيل، أو احتواء سوريا، أو حماية السعودية لعدم كفايتها العسكرية؛ أو الحيلولة دون هيمنة إيران على الخليج الفارسي؛ أو التلويح براءة دموية (في المراحل الأولى) لإخراج الحزب الديمقراطي وإخافته. كم سيكون رائعا لو أن رئيسا أمريكا تجرأ أبداً على محاكاة الساحر أوز OZ وصارح الجماهير عن الأحاديث المضلّة المراوغة والسقوط الأخلاقي الذي تتميز به الإعلانات الشامخة المنقطرسة

للقوى العظمى، بل حتى القوة العظمى العالمية الوحيدة. وللأسف كم هو غير محتمل حدوث هذا.

يحمل تجويف آخر أحد المصقات: "الحكم غير المباشر". مرة أخرى كان هذا أسلوباً إمبريالياً ازدهر في ظل الرومان. ويطارد اليوم مغامرات الأمريكيين في الشرق الأوسط.

اكتشف الرومان "الحكم غير المباشر" - أى وضع مرشح من الأهالى على عرش أسيرٍ مقيد - اكتشافه مصادفة كوسيلة عملية لتخفيض نفقات الاحتلال، والاحترام الظاهري للاختلافات الإثنية والدينية، وبخاصة في الشرق. يكتب الخبير العسكري الأمريكى إينوارد إن. لوتواك في تحليله عام ١٩٦٧ للاستراتيجيات العظمى للإمبراطورية الرومانية. "كانت قيمة الدول العميلة التابعة والعملاء القبلين لنظام الأمن الإمبريالى شيئاً مألوفاً في نظام إدارة الدولة الإمبريالية". ثم يضيف قائلاً:

"كانت الدول التابعة والقبائل التابعة ذات البينامية المتأصلة، وغير المستقرة، تتطلب إدارة مستمرة من ديبلوماسية متخصصة. كان لابد للتحكم والرقابة الرومانية أن يكونا مستمرين في الشرق، كانت الأسر الحاكمة التى تُشغَل النظام التابع العميل تدرج ضعفاً (وأيضاً حتمية الشار الرومانى) بدرجة كافية تبقيها موالية بصرامة. بيد أنه وبالرغم من ذلك فإن تعقيدات العلاقات الأسرية داخل السلالات الحاكمة كان بالإمكان لها أن تهدد استقرار النظام بأكمله. وهكذا، فإن متاعب هيروود الكبير مع أبنائه - أو خوفه المرضي الناجم عن الشيخوخة- قلقل التوازن الداخلى لدولته التابعة المهمة. والأسوأ أنه كان لتلك العوامل تبعات على كبدوقية، بما أن جلانفيرا ابنة أرخلالوس (حاكم يهودا والسامرة وبلاد أنوم وكبدوقية) كانت متزوجة من الكساندر أحد أبناء هيروود الذين تم إعدامهم".

لا بد وأن الضباط البريطانيين الذين كانوا يبذلون الجهد مع السلالة الهاشمية الحاكمة المختلة وظيفياً أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، كانوا سيوافقون على ذلك التحليل. لكن، وبالرغم من المصاعب، فإن فوائد الحكم غير المباشر فاقت سلبياته في أعين القادة البريطانيين، وبخاصة إذا أخذنا في الاعتبار الأزمة المالية

التي عانت منها بريطانيا بعد الحرب العظمى. بدت حكومة اللورد كرومر لمصر من خلف الكواليس نموذجاً يحتذى به في العراق والأردن وفلسطين، وحتى في بلاد فارس العصية.

في إفريقيا، كان اللورد لوجارد قد جُمع عام ١٩٠٦ النصوص القانونية "المقدسة" للحكم غير المباشر. وفيما بعد، وكبروقنصل في نيجيريا طبق تلك المبادئ على الإمارات الإسلامية في الشمال التي كانت قد قُتحت مؤخرًا. صادق على نفس تلك المبادئ تى. إى. لورانس الذي يُنظر إليه كأكبر نصير للحقوق العربية. في خطاب له عام ١٩١٩ للورد كيرزن ذى الطبيعة المتشككة، والذي كان وقتئذ وزيراً للخارجية، قال لورانس إنه يأمل أن يكون العرب (البلاد العربية) "أول منطقة سمراء تابعة لنا لا آخر مستعمرة سمراء لنا". أشار عليه قائلاً: ألا يحاول أن يسوقهم، وذلك "لأن بإمكانك أن تقودهم إلى أى مكان تون استخدام القوة، ولو كان ذلك بأسلوب الأنزع المتشابكة اسمياً". حث لورانس في مقال نشره بعد ذلك بعام في صحيفة الأوبزرفر تعاطى فيه مع التمرد المتنامي بالعراق، حث بريطانيا على أن تعطى العراقيين مسئولية حقيقية، ثم تقف جانباً وتمنحهم النصح والمشورة. قال إن نمونجه هو مصر تحت حكم اللورد كرومر: "سيطر كرومر على مصر، ليس لأن بريطانيا منحت قوات، أو لأن المصريين يحبوننا، لكن لأنه كان على درجة بالغة من الكفاءة والاستقامة كرجل".

لكن حتى لو كان لورانس جاداً في هذا، وذلك افتراض ليس آمناً دائماً، فقد بدت تلك نصيحة غريبة. لم يكن السياسيون المصريون يهتمون بفضايا اللورد كرومر كاهتمامهم بالماليين البريطانيين وجيش الاحتلال الذي كان الماليون يدعمونه (انظر الفصل الأول). هذا علاوة على أن الوزراء المصريين الذين كانوا يتبعون "نصائح" كرومر كانوا يخطرون بأزدراء الوطنيين الراديكاليين الذين كانوا ينتمون إلى "مصر الفتاة" وبيدانتهم. كان بين ربابث كرومر بطرس غالى، جد أمين عام

الأمم المتحدة لاحقا. كان معتدلا، ذا قدرات، ومسيحيا. ومما يؤسف له، فقد كتب الشاعر ويلفريد بلانت، المعادي للإمبريالية في مذكراته بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩١٠ ما يلي: "تم اغتيال بطرس باشا، رئيس الوزراء القبطي على يد شخص يدعى إبراهيم الورداني، من الشباب الوطنيين... يقول إنه فعل ذلك لتخليص مصر من وزير يخونها، كما كان قد خانها في مناسبات أخرى. كان هذا أول حادث إراقة دماء يقوم به وطني مصري". وواقعا، كان قتل بطرس باشا طلقة تحذير للأقباط ولكل الأقليات الأخرى من مخاطر العمل مع الأجانب الكفار^(١).

كان الحكم المباشر لا يؤثر فقط في السياسيين والأقليات ويحدد من سلطتهم، بل كان أيضا ذا أثر على أفراد السلالات الحاكمة بالوراثة. كانت توجد بالهند البريطانية قبل الاستقلال حوالي ستمائة ولاية يحكمها أمراء، تبلغ مساحة بعضها مساحة بلجيكا، وبعضها كانت صغيرة في مساحة منتزه هايديبارك. كان يتم تعيين مبعوث (حاكم) بريطاني مقيم لتقديم المشورة إلى المهرجات الهندوس أو الحكام النبلاء (Nawabs) المسلمين، لكن سيدني أوين، الباحث بجامعة أكسفورد وجد في خمسينيات القرن التاسع عشر أن "الأمير المحلي، الذي تُضمن له ملكية منطقته، لكن يُحرّم من كثير من خاصيات السيادة والاستقلال، ينحط تقديره لنفسه، ويفقد الحافز على الحكم الرشيد الذي يحل محله الخوف من التمرد والإطاحة به. يصبح متبطلا، شهوانيا، بخيلا مبتزا، وحاكما مهملًا متسيبًا". كان هذا هو الجانب الخفي الملزم للحكم غير المباشر. يفقد المستفيدون منه من الملوك والحكام، باستسلامهم للأحضان الأجنبية احترامهم لأنفسهم، ويتحولون إلى أمراء متعة، كما حدث للملك فاروق، أو يسلكون الطريق العاكس بأن يردوا بصفعة مضادة لرعائهم الموجودين خلف الكواليس كي يبرهنوا على رجولتهم، كما فعل ملك الأردن حسين الذي كان قد توجّح حديثا، حينما فصل جلوب باشا قائد الفيلق العربي، ومنحه يوما واحدا

(١) انظر الهوامش السابقة ذات العلاقة عن سياسة "فرق تسد" (الترجمة).

لمغادرة الأردن. وحقا، فقد ساعدت تلك المبادرة الملك حسين على تلافى مصير جده عبدالله الذي اغتاله مقاتل فلسطيني. لكن فصل جلوب أشعل غضب إيدن الذي كان قد خلف تشرشل عام ١٩٥٥ فى رئاسة الوزراء وكان متحمسا لاكتساب شارات معاركه الخاصة به. رأى إيدن أن اللوم لا يقع على ملك الأردن، حلو الحديث الذى تخرج فى ساندهيرست، بل على جمال عبدالناصر ذلك المصرى الذى لا يُحتمل. اعتقد أن ناصراً كان يَنْدُرُ، بالفعل والقول، الفتنة فى العالم العربى، وأنه لابد من وقفة. وهكذا، فُتِحَ الطريق لورطة السويس، التدخل العسكرى الفاشل الذى كلف إيدن منصبه، وجعل من ناصر شبه إله، وقلب الولايات المتحدة، لفترة وجيزة، ضد أوثق حلفائها الأوربيين.

يمكن للمرء تتبع سيمتريّة تحذيرية فيما يتعلق بالحكم غير المباشر. من الأمور الدالة أن أعنف الانفجارات البركانية ضد الهيمنة الأجنبية حدثت بمصر وإيران والعراق وكوبا. بالرغم من أنه لم تكن بين تلك البلدان الأربعة مستعمرة رسمية. فى كل من تلك البلاد، استولى الراديكاليون على السلطة بالإطاحة بالأنظمة رُؤى أنها أدوات جبانة لمحركى خيوطها الأجانب المختبئين. حينما ذكّر جون إف. كيندى منافسه الجمهورى ريتشارد نيكسون فى مناظرة تليفزيونية عام ١٩٦٠ أنه قبل الثورة الكوبية كان الجميع فى هافانا يعلمون أن ثانى أقوى شخصية بكوبا هو سفير الولايات المتحدة، كان كيندى يعبر عن واقع ساعد على الإبقاء على فيدل كاسترو بالسلطة قرابة الخمسين عاما.

ثم نتحرك قدما لنأتى إلى تجويف نى قبة مكتوب عليه "تغيير الأنظمة"، وهو تعبير سمع بواشنطن أثناء تسعينيات القرن العشرين. ثم حافظ عليه جورج دبليو. بوش بصفته عُرُفا أمريكيا رسمياً. بيد أنه، وتحت أى مُسمى كان، فإن لتلك الممارسة المتفطرة للتدخل علناً أو سراً، للإطاحة بمشاغب أجنبي تاريخاً طويلاً مشبوهاً. فى دورة ماكوفه، يعقب تغيير نظام مُدبّر بواسطة قوى أجنبية ارتياح

فوري، واستحسان من جانب محركي خيوط الدُمى فى الخفاء، فيما يهرب الأشرار المزعومون، وتظهر أوجه جديدة على شاشات التليفزيون، تتزين بأوشحة السلطة. إلا أنه سرعان ما ينجم الألم والإحراج فيما يعضى القادة الجدد يبرزون من خلفهم فى التعذيب والابتزاز والمحسوبة، مخلفين إرثاً لا يَفْنَى من المراة والتشاؤم الساخر، وفى حالات متطرفة، يفتحون الطريق أمام أنظمة أكثر راديكالية.

ظل هذا الأسلوب قائماً أثناء الحرب الباردة، حينما ساعدت واشنطن، لأسباب استراتيجية، أو وافقت على انقلابات ضد قادة منتخبين غير موافين فى سوريا (١٩٤٩)، إيران (١٩٥٣)، جواتيمالا (١٩٥٤)، اليونان (١٩٦٧)، وتشيلي (١٩٧٣). نُفِذَت أيضاً تغييرات أنظمة أخرى بدرجات متفاوتة من التورط الأمريكى بالكونغرس، فثيتنام الجنوبية، جمهورية الدومينيكان، إندونيسيا، جرينادا، غيانا، هيتى، بناما، ليبيريا، وقبرص. من الصعب تبين أية نتائج حميدة لأى من تغييرات الأنظمة هذه. بيد أن هذا ليس نمطاً أمريكياً خالصاً. فنحن ندين للبريطانيين الخبراء بما يمكن اعتباره أسوأ تغيير نظام، الذى وُلِدَ سفاحاً بولوغندا، كنتيجة غير مقصودة لسياسات اللورد لوجارد طويلة الأمد. تبدأ الحكاية فى بلده اسمها جينجا، مقر لكتيبة كولونiale بريطانية تُسمى فرقة الملك الإفريقية للرماة. يُعدّ المراسل البولندى الأجنبى ريزاد كابوشينسكى المسرح للقارئ، يورد فى كتابه "ظل الشمس" (٢٠٠١) ما يلى:

"ابتدع نموذج هذا الجيش قرب نهاية القرن التاسع عشر بواسطة الجنرال لوجارد، أحد مهندسى الإمبراطورية البريطانية. اقتضى هذا النموذج فرقاً من المرتزقة مجندين من قبائل معادية للسكان الذين سيعسكرون فى أراضيهم: أى قوة احتلال تكبح بقوة السكان المحليين. كان جنود لوجارد المثاليين صفار السن، أقوياء البنية، رجالاً من سكان نهر النيل (السودانيين)، الذين ميزوا أنفسهم بحماسهم للحرب، قوة جلدهم، وقسوتهم".

عُرِف هؤلاء المحاربون المثاليون بالنوبيين، تلك الكلمة، التي كانت، بمرور الوقت، تبعث القشعريرة في أوغندا. مرت السنون، وذات يوم لاحظ ضابط إنجليزي رجلا نوبياً ذا خصائص جسدية هائلة، وابتسامة أسرة، كان يتلصقاً في أنحاء المعسكر. كان ذاك هو عيدي أمين، الذي جُنِّد على الفور، وسرعان ما ميز نفسه بصلابته وقسوته وشجاعته في حروب الغابات. وحينما نالت أوغندا استقلالها عام ١٩٦٢، كان أمين ضابطاً برتبة لواء (ماجور جنرال)، ونائب قائد الجيش، وكان أيضاً ملاكماً من الوزن الثقيل فاز بالجوائز، ولعب كرة قدم (رجبي)، ونال تقدير "مستشاريه" البريطانيين، وأيضاً الإسرائيليين الذين كان قد تدرب معهم. كان يقود أوغندا وقتئذ الرئيس الشعبوي غريب الأطوار ميلتون أوبولو أوبوتي، الذكي، المفرور، ومفرط الثقة بنفسه، وبخاصة حينما طار إلى سنغافورة ليشترك في مؤتمر الكومنولث البريطاني عام ١٩٧١. وفي غيابه، استولى أمين على السلطة بانقلاب، كان البريطانيون وقد نقد صبرهم من أوبوتي المتجبح، قد سمحوا به أو ساعدوا على حدوثه سرا. وحينما ترسّخ في السلطة، بدأ أمين بطرد الأقلية الآسيوية، تبع ذلك بتحالفه مع الراديكاليين العرب؛ ثم حرّض على حمام دم عرقي قضى على حياة مائتي ألف شخص أوغندي (وفقاً لتقديرات منظمة العفو الدولية). وبعد أن نصّب نفسه "هازم الإمبراطورية البريطانية" كافاً رُعائه الإسرائيليين بالتلاعب بقسوة بركاب طائفة العمال الإسرائيلية المخطوفة التي هبطت بمطار عنتيبي، والذين أنقذتهم عملية فدائية (إسرائيلية) تزامنت، في يوليو عام ١٩٧٦، مع الاحتفالات بمرور مائتي عام على قيام أمريكا.

وأخيراً، تمت الإطاحة بالرئيس أمين عام ١٩٧٩، وهرب إلى السعودية حيث توفي في فراشه عام ٢٠٠٣. لا تختلف أسطورة أمين عن غيرها من الانقلابات العشرية التي قام بها ضباط مدربون من قبل الأوروبيين والأمريكيين، الذين شجعوهم بوعدهم بالاعتراف السريع بهم إن هم قضوا على أحد الرؤساء المثيرين

للشغب، لا تختلف سوى في إفراطها وقسوتها. وكما سنرى فمازال هناك المزيد من نماذج سوء الحسابات الجذرية باسم تغيير الأنظمة.

لنمضى قُدماً إلى التجويف التالى الذى تلوه لافتة الصليب، الهلال، والمطرقة الذى يرسل إشارة برقية عن مخاطر معاملة الاستبداديين، الذين يؤمنون بأفكار مطلقة، سواء دينية أو أيديولوجية، كشركاء فى السياسة الخارجية. لم يحدث وأن وقعت نماذج لتغيير الأنظمة أكثر كارثية من تلك التى حدثت فى أفغانستان التى غزاها السوفييت عام ١٩٧٩ لتصبح ميدان قتال لحرب بالوكالة استمرت عشر سنوات، ثم عانت من حرب أهلية تورط فيها دسته من اللاعبين الأجانب انتهت بتمكين الإسلاميين المتشددين وأدى ذلك إلى اجتياح للبلد تقوده أمريكا عام ٢٠٠٢، والذى مازالت نتيجته محل شكوك كثيرة. وكما علق ستيف كول من الواشنطون بوست فى كتابه "حرب الأشباح" (٢٠٠٤) فإن "أفغانستان بعد عام ١٩٧٩ كانت معمل للعنف السياسى الذى تتوالد أفكاره بالخارج ثم يُقرض بالقوة. ترجع أصول اللغة والأفكار التى تصف الأحزاب، والجيش، والمليشيات الأفغانية إلى المنظرين والحلقات الدراسية بأوروبا، الولايات المتحدة، القاهرة، وباكستان. حارب الأفغان بصفتهم "شيوعيين" أو "مقاتلين من أجل الحرية". ثم انضموا إلى جيوش جهادية تقاتل من أجل أمة إسلامية كوكبية متخيلة".

فى تلك التعقيدات المركبة، يمكننا تبين خيط واحد على الفور: لم ينظر السوفييت أو الأمريكيون إلى الإسلام بجدية. افترض قادة الحزب الشيوعى السوفييتى، وهم ينظرون إلى أفغانستان من خلال عدسات ماركسية أن عملهم نوى القاعدة الضيقة بكاىول بإمكانهم قمع المحاربين غير النظاميين القبليين بسهولة، وأن إجراءات التحديث - الجرارات، التليفزيون، المدارس، حقوق المرأة- ستعيد تشكيل ذلك البلد المختلف. من جهتهم، رأى الأمريكيون أن النقطة ذات الأهمية هى أن المقاتلين الإسلاميين يبغضون الشيوعية ويقتلون الروس؛ والباقى مجرد تفاصيل.

وهكذا، ففي أعقاب الغزو السوفييتي في ديسمبر ١٩٧٩، الذي قُصد به دعم النظام الشيوعي المتقلقل، عقدت إدارة كارتر، دونما أسئلة كثيرة، صفقة مع ديكتاتور باكستان العسكري: ستزود أمريكا، سرا، الأسلحة، وتقوم مخابراتكم العسكرية بتوزيعها. في نفس الوقت، وافقت السعودية على مجازاة المساعدات الأمريكية: دولار مقابل كل دولار تدفعه أمريكا، وخصصت تلك الأموال لمقاتليها الإسلاميين المختارين.

وهكذا، مُنح توكيل الحرب، على أرض الواقع، للسعودية وباكستان، وكلاهما حليف استراتيجي، ومن خلالهما تدفقت الأسلحة والأموال على الجهاديين المتطرفين، وتم تمويل معسكرات التدريب التي ستغذي لاحقا شبكة من الإرهابيين الإسلاميين. زادت المساعدات السرية الأمريكية، أثناء سنوات ريجان، زيادة أسية، وشملت صواريخ أرض/ جو مازكة ستينجر، ذلك السلاح الضروري لإسقاط الطائرات الهليكوبتر. يعزى ذلك، إلى حد كبير، إلى الدعم المتحمس لعضو الكونجرس الديمقراطي عن تكساس تشارلي ويلسون، ذلك الرجل النيوبي المحب للويسكي، والذي كان يحوز على معقدٍ مُهم في "لجنة التخصيصات بالمجلس" ذات النفوذ القوي. لم يكن ويلسون يأنه بالإسلام كما نتبين من صفحات الكتاب الذي ألفه صديقه الراحل جورج كرايل المنتج بقناة سي بي إس بعنوان: "حرب تشارلي ويلسون". في رحلاته السريعة إلى منطقة القتال، لم يتمكن ويلسون سوى من عقد لقاء قصير أوحّد مع قلب الدين حكمتيار، لورد الحرب الأفغاني المفضل لدى الجيش الباكستاني والذي كان أيضا يحتقر أمريكا وكل ما يتصل بها (باستثناء الأسلحة). في كتابه "جند الله" (١٩٩٠) يصف كابلاند لقاءً مع عبدالحق، القائد الأفغاني صعب المراس الحكيم: "لم ير أن الأمريكيين يمثلون أية مساعدة. فبالرغم من إغداقهم الأموال التي وصلت مئات الملايين من الدولارات على ضياء الحق (الرئيس الباكستاني) سنويا، كانت جماعة الاستخبارات الأمريكية تزعن لوكالة

الاستخبارات الحربية الباكستانية وتعمل تحت إمرتها، مقنعين أنفسهم أن حكمتيار لم يكن بنصف درجة السوء التي يصفه بها الجميع. (قُتل عبدالحق، ربما بأوامر من حكمتيار، لدى دخول القوات الأمريكية أفغانستان عام ٢٠٠٢).

لهذه النظرة النفعية للعقيدة واستغلالها سلاحاً في أفغانستان أصلٌ عريق. في كتابه "زواء الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" (الجزء الأول الفصل الثاني) يوجز إنيارد جيبون النظرة الرومانية كالتالي: "كل أساليب العبادة المنوعة التي سادت في العالم الروماني، كان الناس يعتبرونها حقيقية بدرجة متساوية، وكان الفلاسفة يعتبرونها زائفة بدرجة متساوية، وكان الحكام يعتبرونها مفيدة بدرجة متساوية". وكما في روما، فإن السياسيين الدنيويين الآن يميلون إلى التعامل مع الآخرين بصفتهم شركاء طبيعيين مفيدين. بيد أن ذلك التوجه أتى بنتائج عكسية، المرة تلو المرة، كانت أحياناً كارثية. تظل إسرائيل "الديمقراطية" رهينة لدى عشرات الآلاف المستوطنين الذين يعتبرون أنفسهم جنود الرب ويحتلون ما يربو على ٤٠٪ من مساحة الضفة الغربية المتنازع عليها. يمنع نظام إسرائيل الانتخابي المستوطنين الحد الأقصى من النفوذ. فمُنذ البدايات الأولى للدولة اليهودية (الصهيونية)، مضت الأحزاب العلمانية تساهل على دعم الأحزاب الدينية الصغيرة التي يمكن لأصواتها أن تكون حاسمة في برلمان مقسم بأسلوب محكم.

يسجل جريشوم جوهنبرج النتائج بتسلسلها في كتابه "الإمبراطورية العرضية" (٢٠٠٦)، جوهنبرج كاتب يعيش بالقدس ومن مواليد أمريكا. يُفصل كيف أن حزب العمل الإسرائيلي الذي ظل طويلاً في الحكم، سعى، بعد أن جرّاه انتصار يونيو ١٩٦٧ إلى "خلق حقائق على الأرض" وذلك ببذر المستوطنين المتدينين في المناطق المحتلة حديثاً. يُصر كثير من المستوطنين إن لم يكن غالبيتهم، على أن الرب منحهم حق ملكية الأرض جميعها، وأن التنازل عن بوصة واحدة منها هو "كُفْرٌ" بالرب. حينما اقترح اسحق رابين رئيس الوزراء عن حزب العمل مفاوضات الأرض بالسلام

عام ١٩٩٥، قتلته يهودى متعصب. بعد موته، تكاثرت المستوطنات. كان أرييل شارون، الجنرال السابق، ذو التفكير العلماني، وزعيم حزب الليكود، هو الأكثر ترحيبا بهؤلاء "الرواد" المتدينين الوريثين ودعمهم. في حديث له من إذاعة إسرائيل، حث شارون المستوطنين على "الاستيلاء على مزيد من التلال وانتزاعها من مالكيها، وتوسيع مناطقهم: كل شيء يُنتزع سيكون في أيدينا. وكل ما لا ننتزعه سيظل في أيديهم". تصاعد انتزاع الأراضي والاستيلاء عليها فيما أوقف المستوطنون منازلهم المتنقلة في "مواقع أمامية" بالصفة المحتلة. بيد أن شارون، حينما قرر، وهو رئيس الوزراء، الانسحاب الأحادي من غزة، رفض المستوطنون الذين مجدهم وساندتهم، التحرك خطوة وفتفوا متهمين شارون بالخيانة، مما دعاه إلى استخدام القوة لإجلائهم. ووسط هذا النزاع أصيب شارون، بعد أن تكاثرت عليه الضغوط بسكتة دماغية وغيبوبة مستتالة: أى أنه كان ضحية غير متوقعة للصراع الذى مازال قائما بين مطالب العقيدة الأبوكالية وحسابات السياسة السنيوية.

انتشر هذا الصراع إلى جميع أديان العالم الكبرى. غالبا ما تُنسى التجربة التحذيرية التى خاضها سولومون باندراناياكا رئيس الوزراء المؤسس لسيلان المستقلة (سريلانكا الآن). كان علمانيا سعى لأهداف برجماتية لكسب أصوات الغالبية البودية: خلق ثيابه الغربية: قاد الاحتفالات بمرور ألفى عام على صعود بودا إلى النيرفانا؛ ومنح البوديين السينهااليين ميزة اللغة ليحصلوا على وظائف مدنية متميزة. لكنه حينما سعى، فى عام ١٩٥٩، لمصالحة التاميل الذين كان قد طال اغترابهم، قتل أحد الرهبان البوديين لعدم رضائهم عن تلك الخطوة. ومثل هذا بذرة الحرب الأهلية السريلانكية التى لا تُعرف لها نهاية.

فى الهند، دعمت إنديرا غاندى، رئيسة الوزراء العلمانية، شبابا دهماوياً من السيخ يدعى جمال سينغ بهميندرا تويل من أجل معاقبة حزب التيار الرئيسى للسيخ

بالبنجاب، أكاالي دال، وتقسيمه. وكان ذلك الحزب يسبب المتاعب لحزب المؤتمر الذي تترأسه. وفي عام ١٩٨٢، استولى أتباع جمال على "المعبد الذهبي" بامريتسار. قُتل المئات، وحينما حاصر الجيش الهندي أكثر المقامات السيخية قداسة. قام حراس مسز غاندى الشخصيون من السيخ باغتيالها، الأمر الذى أدى بدوره إلى قيام الهندوس بمذبحة ثائرة ضد السيخ. بالإمكان رؤية سمة بشرية مشتركة خلف تلك الحسابات الخاطئة النفعية. يميل السياسيون بطبيعتهم إلى الرياء والتفاق بأسلوب انعكاسي. من ثم، فهم يفترضون، ربما عن حق، أن الكهنة، الوعاظ، الأئمة، الحاخامات، والرهبان لا يعنون سوى نصف ما يقولونه. كما أن الأشخاص الواقعيين لا يأخذون على محمل الجد المناظر العلماني للعقائد الدينية المسيانية مثل الشيوعية والنازية: (من غير المحتمل أن الهر هتلر كان يعنى كل ما أعلنه فى كتابه "كفاي": بمجرد توليه السلطة سيسلك نهجا مسئولا) هكذا اعتقدوا. حدث نموذج مصري مشنوم لسوء الحسابات تلك عام ١٩١٨ وكان من صنع الواقعيين المترمتين فى الأركان العامة لألمانيا الإمبريالية. كان الألمان لسنوات عديدة قد ظلوا يساعدون، سرا، الروس البلشفيك المنفيين وقائدهم فى. أى. لينين. ثم رأى الجنرالات فرصة لإجبار روسيا على الخروج من الحرب من أجل كسب سلام مواتٍ على الجبهة الشرقية من خلال تغيير النظام فى بتروجراد، التى كانت وقتئذٍ مقر حكومة مؤقتة، وإن كانت ديمقراطية متقلقة. وبما أن البلشفيك وعدوا بأن يسعوا إلى السلام، تم السماح للينين ومساعديه بالعبور بالقطار من سويسرا المحايدة، عن طريق ألمانيا إلى بتروجراد - مثل بكتريا الطاعون، كما قال تشرشل متأسياً فى "الأزمة العالمية". لكن، أى عاقل ذاك الذى صدق أن البلشفيك كانوا يعنون ما بشر به لينين؟

لا يختلف هذا كثيرا عن العضلة التى يواجهها الأمريكيون ليقرروا كيفية التعامل مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية التى تكاد تدفعهم للجنون. لا يحول أخذ الأيديولوجيات المعادية على محمل الجد دون السعى لمعرفة مصدر جاذبيتها الشعبية. قد يكون من المفيد الآن التوقف لدى آخر الأقسام، التجويف الأخير فى

رواقنا الذي تعلوه لافتة تقول "التماهي قوة". ليس التماهي والتعاطف مترادفين؛ ليس على المرء أن يُحب شخصا آخر، أو أن يتفق معه، أو أن يشعر بالأسف عليه، حينما يسعى إلى معرفة كيف يبدو العالم بواسطة النظر إليه من خلال عينيه أو عينيها. لو أنك إيراني، كيف ستنتظر إلى الولايات المتحدة؟ نعم، ظاهرياً، فهي بلد حر، وينتخب الأمريكيون قادتهم. لكن، من ينتخب وكالات الجاسوسية: الينتاجون؛ الكوربوريشنات متعددة الجنسية، مالكي الإعلام والمتحكمين فيه، مصانع الفكر ومراكز الأبحاث، اللوبيات كل تلك - في أعين كثير من الإيرانيين - تشكل فسيفساء متشابكة مُستغلقة لا تخترق. يعجب الإيرانيون، لم يُسمح لإسرائيل بتطوير الأسلحة النووية، فيما تُعتبر أبحاث إيران لتنمية قوة نووية سلمية جريمة تستوجب العقوبات؛ وبعد كل شيء، فإن معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية تُلزم رسمياً القوى النووية الموجودة بتقليل مخزوناتهما بإطراد من تلك الأسلحة حتى التخلص منها كلياً. لكن، بدلا من الوفاء بهذا التعهد، (وفقا لمطور طهران) فإن الأمريكيين يطورون جيلا جديدا من تلك الأسلحة تخترق الغرف والمستودعات تحت الأرضية الحصينة لاستخدامها ضد بلاد مثل إيران، وفقا لما يعلنونه.

أيضا، يعجب إيرانيون كثيرون عن سبب قول الأمريكيين إن إيران جزء من محور الشر: هل نسوا أن الإيرانيين ساعدوا على هزيمة نظام طالبان بأفغانستان وإقامة نظام جديد في كابول تدعمه واشنطن؟ أما عن التهم بأن إيران تساعد المتمردين العراقيين، فقد يقول أحد الإيرانيين "لدينا أيضا فصل بين السلطات (القضائية - التشريعية - التنفيذية) ونحن نقرأ باهتمام أن كونجرس الولايات المتحدة يتهم إدارة بوش بأنها تتصرف باستقلالٍ لا مبالٍ خارج عن القانون في أمور كثيرة خطيرة مثل التفاوض عن عمليات التعذيب. أليس من المحتمل أن يكون لدى إيران أيضا عناصر مارقة (تصرف بمفردها)؟ وأن رئيس الجمهورية لا يعرف ببساطة ماذا يقول دون أن يبدو ضعيفا؟

هذه أفكار شائعة في طهران؛ وبالرغم من ذلك نادرا ما تتعاطى البرامج

الحوارية في أمريكا التي تبث يوم الأحد مع مثل تلك الأسلثة، ولا يطرّفها خبراء السياسة ومحلّوها الأناوش. لا يتطلّب التماهى معرفة خاصة عن البلدان القصية. وكما جاء بالفصول السابقة بالتفصيل، فإن المستعربين البريطانيين، والباحثين في الشئون الفارسية، وبالرغم من كل خبرتهم وعلمهم، قد خلقوا نظاما جديدا متقلّقا بالشرق الأوسط الذى مازال يعاني من عبودية شبه كلونىالية. بإمكان الحكمة الفطرية والتفكير اللائق استقطار ما تعانيه المنطقة والمظالم الواقعة عليها من خلال الشهود العاديين صعودا حتى الوصول لعظام الأمور.. أعجّب مؤلفا هذا الكتاب بستة جنود أمريكيين برتبة رقيب انضموا إلى متخصص بالجيش في كتابة مقال شجاع بعنوان "الحرب كما رأيناها" وأرسلوها بالإيميل إلى النيويورك تايمز التي نشرتها بتاريخ ١٩ أغسطس ٢٠٠٧^(١). سعوا بالكلمات البالغ عددها ١٢٠٠ كلمة التي كتبوها لدى قرب انتهاء مدة عملهم بالعراق، إلى تعليل خبرتهم القتالية هناك. قالوا في نهاية المقال "علينا أن ندرك، في النهاية أن وجودنا ربما يكون قد حذر العراقيين من قبضة طاغية، لكنه أيضا سلبهم احترامهم لنواتهم. وسرعان ما سيتحققون أن أفضل وسيلة لاستعادة كرامتهم هي تسميتنا باسمنا الصحيح - جيش الاحتلال - وإجبارنا على الانسحاب".

التماهى الكامن في هذه الكلمات ملّهم. كما أوحّت لنا أبحاثنا، فإن كثيرا من صناع الملوك، الحقيقيين منهم والمدعين، أخطأوا ليس بسبب الحقد وتعمد الأذى أو الجهل (فقط: الترجمة)، لكن بسبب الطموح المفرط. اضطلع البروقناصل والمحمسون - ببساطة - بمهمة فعل المستحيل لغير המתنين.

(١) بودهيكا جياهاها المتخصص بالجيش، والرقباء وهزلى دى. سميث، جيمى روباك، عمر مورا، إدوارد ساندميير، يانس تى. جراى، وجيمى مورفى. في يوم الأحد ١٠ سبتمبر ٢٠٠٧ قتل الرقيبى جراى ومورا لدى انقلاب الشاحنة التي كانا يركبانه والتي كانت حملتها خمسة اطنان. (المؤلفان)

صدر من هذه

السلسلة

- ١ - محمد (ص)
- ٢ - صدام الحضارات
- ٣ - عصر الجينات
- ٤ - القدس
- ٥ - العولمة والعولمة المضادة
- ٦ - التاريخ السري للموساد
- ٧ - من يخاف استنساخ الإنسان؟
- ٨ - حريم محمد على
- ٩ - عولمة الفقر
- ١٠ - صور حية من إيران
- ١١ - البحث عن العدل
- ١٢ - لورانس: ملك العرب غير المتوج
- ١٣ - الصهيونية تلتهم العرب
- ١٤ - معارك في سبيل الإله
- ١٥ - التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
- ١٦ - التسوية: أى أرض.. أى سلام
- ١٧ - المكنز الكبير
- ١٨ - الحق يخاطب القوة
- ١٩ - نساء فى مواجهة نساء
- ٢٠ - مؤامرة الغرب الكبرى
- ٢١ - روسيا.. إلى أين
- ٢٢ - موسوعة الأم والطفل
- ٢٣ - الخدعة الرهيبة
- ٢٤ - نهاية الإنسان
- ٢٥ - خدعة التكنولوجيا
- ٢٦ - ٣٦٥ حقوة وحقنة
- ٢٧ - بوش ضد العراق ... لماذا؟
- ٢٨ - أين الخطأ ؟
- ٢٩ - اللواب المزدوج
- ٣٠ - رجال بيض أغبياء
- ٣١ - سادة العالم الجدد
- ٣٢ - الخطيئة الأولى لإسرائيل
- ٣٣ - اللعب مع الصغار
- ٣٤ - الإبادة السياسية
- ٣٥ - حكومة العالم السرية
- ٣٦ - ما بعد الإمبراطورية
- ٣٧ - بوش في بابل
- ٣٨ - المقاومة العراقية.. ومستقبل النضال
الدولى

- ٢٩ - تزييف الوعي
٥٨- العين بالعين
- ٤٠- القانون في خدمة من ؟
٥٩- شافيز
- ٤١ - كفى
٦٠- قصص الأشباح
- ٤٢ - معنى هذا كله
٦١- حزب الله
- ٤٣- حياة بلا روابط
٦٢- الإنسان هو الحل
- ٤٤ - ٣٦٥ حدوتة وحدوتة
٦٣- السيارات المفخخة
- ٤٥- أنا والعولة .. عالم بديل ممكن..
٦٤- بلاكروتر
- ٤٦- جسدى سلاحاً
٦٥- حضارتهم وخلصنا
- ٤٧- ثالوث الشر
٦٦- نحو الحرية .. نلسون منديلا
- ٤٨- الحضارة الإسلامية المسيحية
٦٧- العهد
- ٤٩- أمريكا العظمى.. أحزان
٦٨- مزرعة الحيوانات
- الإمبراطورية
٦٩- أطفال الإنترنت
- ٥٠- الطريقُ إلى السُوَيْرْمَان
٧٠- لعبة الملايين
- ٥١- مدربون على القتل
٧١- تجارة الجنس
- ٥٢- معاداة السامية الجديدة
٧٢- الأمريكي الساذج
- ٥٣- إبادة العالم الثالث
٧٣- الأبرياء
- ٥٤- بيولوجيا الخوف
٧٤- الشباب والجنس
- ٥٥- لفر اسمه الالم
٧٥- التربية من عام إلي عشرين عام
- ٥٦- تعليم بلا دموع
٧٦- فلورانس وإداورد
- ٥٧- أحمد مستجير

٧٧- الجهاد في سبيل الحقيقة

٧٨- غاندي (٢)، رؤي، تأملات، اعترافات

٧٩- شرف البنات

٨٠- الزواج المحرم

٨١- أنبياء مزيفون

٨٢- إمبراطورية العار

٨٣- اختطاف أمريكا

٨٤- شريعة الجسد

٨٥- رومانسية العلم

٨٦- اختفاء فلسطين

٨٧- من هم إسرائيل

٨٨- ثلاثون كتاب في كتاب

٨٩- اقتصاد الاحتياال البريء

٩٠- الله . لماذا؟

٩١- الأمراض المعدية

٩٢- الطريق إلى بحر سبع

٩٣- مجمع الشيطان

٩٤- في ذكرى المقاومة

٩٥- خطابا تحرير المرأة

٩٦- دساتير من ورق

قائمة المحتويات

٧	تمهيد.....
٢٥	(الفصل الأول) (البروقنصل إكلين بارينج، اللورد كرومر).....
٧١	(الفصل الثاني) (سطوة الإمبراطورية يخطط لها زوجان).....
١٢١	(الفصل الثالث) ("د. وايزمان..... مبروك جالك ولد).....
١٧٣	(الفصل الرابع) (الشماس (مساعد الكاهن).....
٢١٧	(الفصل الخامس) ("غارقة حتى رأسى فى تصنيع الملوك والحكومات").....
٢٧١	(الفصل السادس) (جنون الشهرة).....
٣١٩	(الفصل السابع) (المرتد).....
٣٦٩	(الفصل الثامن) ("جيش صغير رائع").....
٤١٩	(الفصل التاسع) (انقلاب بريطانى جدا).....
٤٦١	(الفصل العاشر) (الأمريكى الهادئ).....
٤٩٩	(الفصل الحادى عشر) (صبى الساحر).....
٥٤٩	(الفصل الثانى عشر) (الرجل الذى كان يعرف أكثر مما يجب).....
٥٩١	الخاتمة (أصداء فى رواق طويل).....

هذا الكتاب

يعرض المؤلفان. في هذا الكتاب. حياة و«إنجازات» اثنتي عشرة شخصية رئيسية كان لها أكبر الأثر في ابتداع ما أصبح يعرف بالشرق الأوسط... أسماء بعضها ما زال يتردد مثل كرومر ولورانس. وسايكس وجرتروود بل. وآخرون لا يكاد يرد لهم ذكر رغم فداحة ما اقترفوه جميعا.

لكن تلك هي مجرد شخصيات واجهة... فهناك. في مقارهم أو مرابضهم في لندن وباريس وموسكو وواشنطن وكلكتا. جلس قادتهم وركزوا أنظارهم الصقورية على منطقتنا بدءا من جنوب إفريقيا وحتى أقصى شمالها. ومن أطراف الجزيرة العربية حتى سواحل لبنان مروراً بسوريا والعراق. وإيران وفي القلب منها فلسطين ومصر.

الأهداف متشابكة متداخلة: تفتيت الإمبراطورية العثمانية. توسيع إمبراطورياتهم ومناطق نفوذهم. شن حروبهم على أراضينا بجيوش نظامية وغير نظامية قوامها رجال من مستعمراتهم ومن أهالي المنطقة حاربوا تحت ألبنتهم... والغاية هي الاستيلاء على المنطقة وثرواتها ونشيطيتها وإثارة النعرات العرقية والطائفية فيها بحيث تظل وحدات متصارعة لا تقوم لها قائمة أبدا.

نشروا شبكات العملاء والمغامرين والمتعصبين الذين عملوا من خلال دوائر متداخلة متعددة
المراكز ومتحدة الأهداف والغايات... رسموا الحدود وقسموا الغنائم ونصبوا دماهم قادة وملوكا.

ذريعتهم الأخلاقية سمو الرجل الأبيض خليفة الله على الأرض ودونية باقي الخلق فاقدى الأهلية والذين يجب إخضاعهم واحتواء شرورهم أو إبادةهم.

شخصيات براها المؤلفان أبطالا أفنوا حياتهم في خدمة الإمبراطورية ومن أجل شعوب جاحدة. وضعوا بيضة لم تتوقف أبدا عن النمو... هكذا يقولان. الأخرى انهم بذروا بذورا شيطانية تحت أشجار من زقوم سممت ثمارها جسد المنطقة. واشتعلت فروعها نيرانا يكتوى بها اهله.